

أنيس منصور

من أوراق السادات

<http://www.makbttna2211.com/>

A
h
m
e
d

M
a
d
y



دار المعارف

لا أعرف كم جلست معه لكي يحكى هذه المذكرات، فى إحدى المرات استغرقت الجلسة ١٨ ساعة فالرئيس السادات عندما يشرع فى قضية مهمة لا يلتفت إلى شىء آخر.. وكنت أعيد صياغة ما أملاه الرئيس وأتحقق من التواريخ. ولم يلجأ الرئيس السادات إلى ورقة أو كتاب ينقل منه ذكرياته أو خواطره أو يراجع ما فيها من تواريخ وإنما قد ذاكرها وفكر فيها كثيراً وأعاد التفكير حتى إذا استقرت فى ذهنه وأتيحت له فرصة أن يرويها لم يجد صعوبة فى ذلك. فأوراق السادات لم تكن تسجيلاً لحياته وعرضاً تاريخياً لها وإنما دعوة للأجيال القادمة أن تقلب وتقرأ صفحات من تاريخ مصر والعالم من حولنا. فنجده فى «أوراقه» رصدًا دقيقًا لأحداث ثورة يوليو سنة بسنة وكشفًا لأسرار ثورة مايو وتوثيقًا تاريخيًا لمعركة أكتوبر باليوم والساعة والدقيقة.

أنيس منصور

Wed.
6/6/2012
Riyadh

مطبعة جوير
JARIR BOOKSTORE

39



دار المعارف

EA

2359 2162
2420NA414

من أوراق السادات



سلسلة الحقوق

عنايتنا القادم

الحقوق على الزوجات

وحقوق الزوجات على زوجها

طعامنا العفيفي

دار الأحياء

أنيس منصور

من أوراق السادات

الطبعة الرابعة



دار المعارف

كلمة أولى

لا أعرف كم جلسة مع الرئيس السادات لكنى يملئ هذه المذكرات!

.. فى إحدى المرات استغرقت الجلسة ١٨ ساعة لدرجة أن السيدة جيهان السادات كانت تجيء وتنظر إلينا وتنتظر ولم يكن الرئيس يلتفت. إنما أرادت أن تعرف ما الذى استغرقنا هكذا. فالرئيس السادات عندما يشرع فى قضية عامة فإنه لا يلتفت إلى أى شىء أو إلى أحد.. وفى تلك الليلة استخدم الرئيس السادات كل أشرطة الأغاني التى عنده الأشرطة المسجلة عليها الموسيقى والأغاني وطلب المزيد، فراح رجال الرئاسة يجوبون شوارع الكورنيش فى الأسكندرية يبحثون عن أشرطة جديدة.. وكنت أعيد صياغة ما أملاه الرئيس وأتحقق من التواريخ.. وكان العنوان الذى اقترحه لهذه المذكرات: (الجلد لا يذوب بين موسكو والقاهرة. ولكن السادات قال: ولكننا نريده أن يذوب.. ولن تنقطع صلتنا بروسيا. بل نريدها أن تكون أحسن.. ولم يحدث فى حياة الرئيسين عبد الناصر والسادات أن لقيا من العذاب والهوان مثل الذى لقيه من الاتحاد السوفيتي. وكان السادات يصف تلك المأساة بأنها (المحنة السوفيتية) وكان يقول: من أجل بلدنا يهون كل هوان شخصي.. وذاكرة الرئيس السادات قوية. فهو يذكّر التواريخ بأيامها. وكانت هذه إحدى الصفات الضرورية التى أشار إليها رئيس وزراء بريطانيا هارولد ولسون فى كتابه عن (رئاسة الوزراء) قال: يجب أن يتحلى الرئيس بثلاث: أن يكون قوى الذاكرة، وأن يكون لديه إحساس بالتاريخ ويدوره هو فى التاريخ، وأن ينام بعمق. وكانت كل هذه الصفات عند الرئيس السادات.

وكان يقول إن الفرق بينه وبين الرئيس عبد الناصر: أن عبد الناصر قد وضع تليفونات كثيرة على مكتبه والراديو.. ولذلك فهو متوتر دائما وينتظر الأخبار المحلية والدولية. يصحو وينام عليها. أما السادات فليس له مكتب. إنه جالس هناك في الحديقة بعيدا عن التليفونات.. عن شدة الأعصاب..

وأذكر واقعة غريبة أثناء تسجيل هذه المذكرات قال لى الرئيس: حسن ابراهيم صاحبك؟

قلت: أيوه يا ريس..

- كويس. أسأله عن واقعة حصلت في العريش قبل الثورة بثلاثة أيام. فقد انتحى جانباً من المطار وراح يتكلم مع جمال سالم. فماذا كان يقول له؟!

سألت حسن ابراهيم قال: إنه لا يذكر ذلك..

عدت إلى الرئيس السادات فقال: غريبة!

قلت لحسن ابراهيم: السادات يقول غريبة.. فقال غريبة أننى أنا لا أذكر ولا غريبة أنه يذكر..

وعاد السادات يقول لى: أسأل حسن ابراهيم مرة أخرى.

قلت: يا حسن بك الرئيس مضرب أن يعرف.

فقال لى إنه سأل زوجته إن كان قد أخبرها بهذا اللقاء مع جمال سالم وإن كان قد قال لهما شيئا. فقالت: لا أذكر شيئا من ذلك.

عدت إلى الرئيس فقال: عجيباً أسأله مرة أخرى!

فقلت لحسن ابراهيم: الرئيس مندهش جدا كيف لا تذكر شيئا من ذلك!

فقال لى حسن ابراهيم: لكى أريح السادات قل له إننى كنت أقول لجمال سالم: إياك أن يفوتك فيلم (غراميات كارمن) بطولته ريتا هيوارث المعروف فى سينما ستراند..

وقلت للرئيس الذى توقف لحظة وقال: لا.. فيلم ريتا هيوارث لم يكن معروضا فى استراند إنما كان فى سينما الجزيرة. الفيلم الذى كان فى سينما استراند هو فيلم (كاويوى) !!

ولم يجد السادات فى هذا كله إجابة عن سؤاله فهو لديه واقعة لم يعرف حقيقتها أكثر من ثلاثين سنة. لكنها لا تزال فى ذاكرته فى حاجة إلى إجابة. ولم يكتف الرئيس بذلك وإنما قال لى: «سيب حسن ابراهيم دلوقت وابقى أسأله بعد كده وانتم قاعدين بتاكلوا. ما تنساش يا أنيس»..

ونقلت إلى حسن ابراهيم ما قاله السادات فقال: شىء عجيب. على فكرة السادات ذاكرته قوية جداً. نحن كنا نسأله عن وقائع صغيرة. فكان يذكرها باليوم والساعة. وعلى كل حال إن سألك السادات فقل له: إن حسن ابراهيم كان يقول لجمال سالم: يا ابن الد... هاها! وقلت للرئيس إن حسن ابراهيم يقول كذا.. ولم يضحك السادات ولكن قال:

شىء غريب ألا يذكر ذلك.. ثم اتجه إلى قائلاً:

ولا انت إيه رأيك يا أنيس.. غريبة قوى!

ولم يلجأ الرئيس السادات إلى ورقة أو كتاب ينقل منه بعض ذكرياته أو خواطره أو يراجع ما جاء فيها من تواريخ. وإنما قد ذاكرها وفكر فيها كثيراً وأعاد التفكير فيها حتى استقرت فى ذهنه. فلما أتيت له فرصة أن يرويها لم يجد صعوبة فى ذلك..

وكان هدف الرئيس أن يلفت نظر الشباب وهو يحكى الصعوبات التى تواجه السياسى المسئول حين يتعرض لقضايا معقدة وخطيرة على بلاده ومستقبل أبنائه..

وتمنى السادات أن تكون هذه المذكرات فى تناول كل الناس. ولا يسعنى إلا أن أشكر صديقى الأستاذ إسماعيل منتصر رئيس مجلس إدارة دار المعارف ومجلة أكتوبر أن حقق أمنية الرئيس السادات فقرر أن

يجعلها كتابا. واشكره إن قبل عذري فقد تأخرت في كتابة هذه المقدمة بينما الكتاب قد أعد للطبع منذ سنوات.. كانت سنوات مرضى وسفري المتكرر وانشغالي بأعمال أدبية وكنت أحتشد لأكتب دراسة طويلة عن صحيفة الرئيس السادات الغنية بالأحداث والمعاني والمشكلات وكيف جاءت فكرة المذكرات. وكيف تناقشنا فيها طويلا. وكنت قد عرضت على الرئيس أن أجعلها ضمن كتاب عن حياته والسياسة. ولكنه شاء أن تكون هدية منه لمجلة أكتوبر الوليدة وأن تنفرد بها دون كل المجلات والصحف..

كما أن الرئيس السادات طلب مني ألا أنشرها في أية صحف أخرى حتى لو أرادت أن تشتريها.. ولكن إذا (سرقته) أي نشرتها بعدنا دون إذن منا. فليكن! وقد طلبت بعض دور النشر أن تحصل على هذه المذكرات أولا بأول فاعتذرت..

وقد حدث أن توسط الرئيس عيزرا فيتسمان لدى إحدى دور النشر البريطانية بشرط أن أكتب لها مقدمة. واتصلت بي دار النشر البريطانية. ووافقت. وتلقيت خطابا منها تقول فيه: إنها تريد أن أجيب عن هذه الأسئلة. ووضعت عشرين سؤالاً عن قضايا سياسية مهمة. وأعجبتني الأسئلة. وشجعتني الرئيس على الإجابة عنها. بل وطلب أن يجيب هو عنها. وأشار إلى أن أستعين بالسيد اسماعيل فهمي وزير الخارجية إذا احتجت إليه. وأن أطلب من المغابرات العامة أن تساعدني إذا أردت..

وقد رأى الرئيس السادات في هذه الأسئلة الوجهية فاتحة للشهية. وأن الإجابة تحتاج إلى كتاب. فليكن كتابي أنا.

وأثناء رحلات الرئيس السادات إلى الخارج كان يفكر في هذه المذكرات وفي إكمالها أو الإضافة إليها قبل نشرها..

وكان يسأل عن ردود الفعل: من قرأها؟ وماذا قال عنها؟

فقلت للرئيس: إن السفارة التركية كانت قد أرسلت خطابا طويلا تشكر الرئيس على الإشارة والإشادة بالزعيم كمال أتاتورك..

وإن أحد الصحفيين الروس سألني: في تقديري كم أسبوعا تستحق هذه المذكرات. وهل من الممكن الرد عليها أو التعليق.. فقلت: بكل سرور. ويسعدني ذلك..

ولما قلت له: إن عيزرا فايتسمان هو الذي قال لإحدى كبريات دور النشر البريطانية أن تلاحقني قبل أن تتعاقد دار نشر أخرى. أسعده ذلك، وقال إن هذه الدار البريطانية الشهيرة هي التي ستنقلها إلى لغات أخرى.. وقلت له إن إحدى صحف الكويت طلبت مني نقلها مقابل مبلغ من المال. فقال: الفلوس لا تهم. المهم أن تنشرها كما هي.. ونشرت المذكرات. ولم تدفع!

وقد فكر الرئيس السادات في ذلك الوقت في كتاب يتحدث فيه عن السلام في التاريخ وفي الأديان السماوية الثلاثة. وطلب مني أن أنشغل بذلك حتى إذا تهيأت تماما جلسنا معا.

وبسرعة ذهبت إلى أبعد من ذلك وبدأت في إعداد كتاب شغلني عن أعمال الأديبة. فلم يصدر لي في ذلك الوقت سوى كتابين أحدهما: (على رؤوس العباد) ثم كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) الذي وصفه السادات بأنه أعظم وأروع ما قرأ..

وكان هذا رأي عدد كبير من المفكرين في مقدمتهم الأستاذ أحمد بهاء الدين الذي أرسل لي برقية من الكويت يقول فيها: لا بد أنك تعرف تماما خطورة ما كتبت. وأهمية هذا الكتاب الذي هو أروع ما صدر في خمسين عاما.. وقد سجل الرئيس السادات رأيه في هذا الكتاب الذي نشرته مسلسلا في مجلة (أكتوبر) على شريط. ووعدني الناشر الكبير إبراهيم المعلم بطبع هذا الكتاب ومعه هذا التسجيل بصورة الرئيس السادات. وقد سمع هذا التسجيل أستاذنا د. لويس عوض والصديق الأديب ثروت أباظة والرئيس نميري الذي أبدى أسفه أنه لم ينتظم في حضور جلسات الأستاذ العقاد. وطلب مني أكثر من مرة أن أروي جلسات حضرها وكان قد نسيها..

إنها سنوات استغرقني فيها العمل في مجلة (أكتوبس) الوليدة.. ومجلة أخرى وليدة هي (وادي النيل) وما يكلفني به الرئيس السادات من مهام متعددة.. شغلتنى تماما عن أن ألتفت إلى أفكارى ومشاريعى الأدبية والفلسفية. ومما أخجل زملائي من الصحفيين مرتبى كان ٤١٦ جنيها شهريا. لماذا؟ لقد ترسب في دماغى أن أحدا في الدولة يجب ألا يزيد مرتبه على ذلك. فمن أين استقيت هذه المعلومة؟ لا أعرف. وظل مرتبى مكذا بينما أنا أوافق على علاوات لمن هم دونى تصل إلى ما يعادل مرتبى مرة ومرتين وزيادة. ولم أنتبه إلى حقى فى أن أتقاضى علاوة سنوية! فقد كان نائبى يتقاضى ثلاثة أضعاف مرتبى. ولم يخطر ببالى أن ألتفت كل هذه السنوات إلى زيادة مرتبى. وبعد عشرين عاما سألت سكرتيرى: ولماذا لم تنبهنى إلى زيادة مرتبى أو تعديله. فكان جوابه عجيبا: لقد ظننا جميعا إن سيادتك لا تريد فلوسا! تصورا

مكذا كنت مشغولا عن كل شىء آخر.. وأشياء مادية أخرى انشغلت عنها تماما. ولست أسفا على ذلك. فالفلوس لاتهم.. لا كانت ولا تزال.. وأرجو أن أكون قد أرحت الأستاذة «منى خشبة» مديرة عام النشر التى لاحقتنى برقة وأدب وأكاد أرى من صوتها الدموع فى عينيها. وأرجو أن تكون هذه الأوراق كافية لتجفيف دموعها والاعتذار لها..

انىس منصور



أنيس منصور مع الرئيس السادات ومتابعة دقيقة للأعداد
الأولى من مجلة أكتوبر التي أختصها السادات بكتابة مذكراته

طرية المبي
 لته اجبتك واجبتك لبقعنا
 الزرة مع استخدام السليما
 الصحف في ادك السليمة وفيه كوكبتك
 ايتك أنه تراجمك نفسك فقدتكم
 صاك موافقة تحتاج لا بارها الى
 اسفل الله ليعني ولا ارعي
 الميعاتني صفة مع
 الميعاتني

بعث الرئيس السادات بهذه الكلمة لأنيس منصور بعد مراجعة الأعداد التجريبية
 للمجلة حرصا منه على أن تصدر قوية مناسبة لانتصارات حرب أكتوبر



الذئب الرمادى

■ أتاتورك.. النجم الصاعد الذى تطلعت
إليه وحاز إعجابى.

■ علاقتنا بالروس كالسحب الكثيفة
إذا سقطت مطرا صفت السماء ولحكن
غرقت الأرض.

■ قلت لحسن البنا: إن تنظيمنا من أجل
مصر وحدها وليس من أجل هينئة
أو حزب.

■ عندما أردنا أن نشترى السلاح من السوفيت
جاء رد ستالين: نأسف حتى لا تحاربونا به.

أريد أن أصور لنفسي كيف تجمعت في رأسي وقلبي الأفكار والأحلام منذ طفولتي.. وتبلورت بعد ذلك في معان واضحة ومحددة. أو في معان أحاول أن أوضحها. أملاً في أن أحقق شيئاً من ذلك.. تماماً كما تتصاعد أبخرة المياه وتتحول إلى سحب.. والسحب تجيء من أماكن بعيدة ثم تهبط مطراً.. أو كما تتساقط الأمطار في أعالي النيل وتتحول إلى جداول صغيرة.. والجداول تتحول إلى أنهار صغيرة.. ثم إلى نهر النيل العظيم.. كذلك كانت أفكارى وأحلامي.. كلها جاءت من سنوات طفولتي البعيدة. ثم تدافعت واحتشدت واتجهت بي واتجهت بها إلى العمل في السياسة والمشاركة في الحياة العامة، أو محاولتي أن أفعل ذلك..

وكل إنسان تكون آماله وهمومه الكبرى في عقله.. وفي وجدانه هكذا..

أقول هذا وأنا أحاول أن أجسم أمام نفسي وأمام الأجيال الشابة كيف كانت اهتماماتي بالحياة العملية في سن صغيرة. فالأحداث كانت من حولي كثيرة، والناس يتكلمون عنها ويشملون خيالنا.. فنقتساء ونحاول أن نعرف.. معتمدين على قدراتنا الصغيرة وعلى ثقافتنا الضئيلة.. وليس في قلوبنا إلا الإيمان بالله وحب مصر. فأنا ريفي، ولأأزال. وأكرر ذلك كثيراً.. ولذلك فأنا شديد الإيمان، وشديد التمسك بالقيم الأخلاقية، وبالأرض. ولا أستطيع أن أحتمل من يمس ديننا وتقاليدنا العريقة أو يدوس أرضنا.. وكان الانجليز يحتلون أرضنا من عشرات السنين. وربما كان سبب تكراري لهذه المعاني، أن لدى ما أعتر به، وما أدعو الناس أن يفعلوه مثلي. فالذي تملكه مصر. أم الحضارة شيء كثير نفخر به ونتباهى به بين الأمم..

ولما جاء والدي من السودان مع الجيش المصري سنة ١٩٢٤، كنت مأزال في قريتنا «ميت أبو الكوم».. وأخذنا والدي.. أخى وأنا إلى القاهرة لنكمل دراستنا. وسكنت في بيت في القبة. القاهرة كبيرة، والدنيا كبيرة، والناس كثيرون. وما يملأ العين متنوع، وما يملأ الرأس لا حدود له، وما يوقظ الوجدان بتجديد يوماً بعد يوم..

ولما انفتح باب بيتنا في القاهرة .. تدفقت على رأسى دنيا جديدة، كانت على الحائط صورة. الصورة مفاجأة بل إن الصورة كانت دعوة إلى وليمة تاريخية شهية. شيء غريب. فلم تكن صورة لمصطفى كامل الزعيم المصرى، ولا صورة للملك. ولا حتى صورة لمنظر جميل من تلك التى اعتادت بيوتنا أن تزين بها الجدران أو تخفى تحتها الجدران.

لقد كانت صورة الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك!

كانت مفاجأة ما أزال أحس بها حتى الآن. فقد هزتنى بعمق فانطلق خيالى بعيداً، ورجحت أسأل أبى والناس. وقد سمعت من والدى رحمة الله عليه الشيء الكثير عن هذا الزعيم الإسلامى. سمعت الأعاجيب والأساطير أيضاً عن أتاتورك.

وصناعة الأساطير صناعة شعبية هريقة. فمن عادة الشعوب أن ترتفع بأبطالها. كأنما ذلك نوع من الامتنان لهم، فالأبطال يرفعون الشعوب، والشعوب ترفعهم أيضاً، وتبالغ فى ذلك.. ولكن أتاتورك هذا قد التقت حوله آمال المسلمين الذين يحلمون بالتخلص من سلطان العثمانيين. وأتاتورك هو هذا الشاب المتحمس القوى الشجاع العنيد أيضاً. فقد اشترك فى الجيش العثمانى فى ليبيا وفى فلسطين .. ولم يغب عن عينيه أن القوات اليونانية تحتل أزمير، وقوات الحلفاء تحتل الأناضول.. ومازال أتاتورك ينظم صفوف مؤيديه حتى كان له جهش.. فلا بد من القوة لتطبيق الفكرة. هذا شرط

واسقطاع أن يجلى القوات الأجنبية وأن يطرد السلطان محمد السادس وأن ينهى السلطنة ويعلن الجمهورية. واتجه إلى الغرب وأسفرت المرأة من وجهها. ومن وراء هذا كله تطلع العالم الإسلامى إلى هذا النجم الصاعد.

ولم تكن قراءاتى فى هذه السن الصغيرة تسعنى، فما الذى أستطيع أن أفعله؟ أو ما الذى يستطيع أن يفعله أعظم المفكرين السياسيين إذا لم تكن لديه قوة لتحقيق أحلامه.. لا بد من قوة تمسند الفكرة وترعها وتحميها وتدفعها إلى مراحل من الحياة والحيوية.. لا بد، ولا أعرف كيف زارتنى هذه الفكرة.. لعلى أكون قد تركتها فى مكانها، ومضيت فى حياتى أدرس.. ككل مواطن عادى.

وحدث شيء آخر شغلنى وقتاً طويلاً، فعندما تخرجت فى الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ كانت الدنيا فى حالة من الرعب بسبب هتلر. إنه الزعيم النازى الجديد، والعالم كله يتحدث عن الحرب واقتراب وقوعها. وفى ذلك الوقت حدثت أزمة ميونخ. فهتلر قد قرر أن يحتل جزءاً من تشيكوسلوفاكيا. ووافقت إيطاليا وبريطانيا وفرنسا على ذلك.. وعاد هتلر يطلب المزيد

من الأرض، واعترضت بريطانيا.. وأخيراً اضطرت بريطانيا أن تبعت بتشمبرلين. ووافقت بريطانيا وفرنسا على مطالب هتلر. وأحس تشمبرلين أنه قد انتصر. وأنه حقق السلام للعالم كله.. ولما عاد إلى بريطانيا قال للشعب الانجليزي: لقد جننت لكم بالسلام والشرخ. ورأى المؤرخون أن تشمبرلين قد أجل نشوب الحرب العالمية.. ورأى مؤرخون آخرون أن بريطانيا وفرنسا لو كانتا قد اعترضتا هتلر، لعدل عن الحرب نهائياً ولكن تخاذل تشمبرلين هو الذي أغراه بأن يذهب إلى أبعد مدى، وكان تشرشل هو الذي اعترض على تشمبرلين قائلاً: لقد كان على بريطانيا أن تختار بين الحرب والعار. ولقد اخترنا العار. وسوف يفرض علينا القتال. وصدقت نبوءة تشرشل بعد ذلك بقليل.. وفي هذا الجو المكهرب في العالم كله، وزعونا نحن الضباط الجدد لحراسة المرافق العامة في القاهرة.

ومن المؤكد أن مثل هذه الأحداث الصارخة تهز خيالنا كشباب وتجعل السؤال المطروح على رؤوسنا يتجدد ويكون أكثر وضوحاً وبروزاً، ما الذي نستطيع أن نفعله؟ أعود إلى أتاتورك. إنه لم يستطع أن يحقق شيئاً لئلا يكون هناك جيش، ولا بد أن يكون هذا تفكير الشباب في مصر كذلك.. فالانجليز يحتلون أرضنا، والساعة يتاجرون بالسياسة ويقدمون لنا طعاماً فاسداً من أفكارهم وسلوكهم.. إنهم أسوأ الأمثلة التي تعثرنا بها في حياتنا المبكرة، ونحن في ذلك الوقت نقرأ التاريخ، ونقرأ عن الزعيم المصري مصطفى كامل. ونحن أطفال كنا ننام على مواويل زهران وعلى دنشواي وعلى مواويل أدهم الشرقاوي.. وكلها طلقات من نار.. موجهة ضد قوات الاحتلال البريطانية.

ولم يعد شيئاً غريباً وقد امتلأ عقلي والتهب خيالي وازدحم وجداني. أن أفكر في عمل شيء ولقد اتصلت بجميع الأحزاب السياسية. هذا بعد أن تخرجت في الكلية الحربية. أما أثناء التحاقى بالكلية، فلم أذهب إلى أي حزب.. اللهم إلا حزب «مصر الفتاة» دخلت مصر الفتاة وكنت أتلقى تدريبات عسكرية في عمارة في المتبة، وفي بلكونة كبيرة تطل على سوق الخضار، وفي البلكونة كانوا يدرسوننا على المشية العسكرية.

وخشيت في ذلك الوقت أن يقوم البوليس بتفتيش مركز مصر الفتاة فيجدوا استثمارتي ويجدوا اسمي وأنا ما أزال طالبا في الكلية الحربية.. لحسن الحظ لم يحدث شيء من ذلك. ولكن بعد تخرجي في الكلية الحربية ازداد قلقي، وبدأت أطاوع قلبي نهاباً ولباباً إلى الأحزاب السياسية، أحاول أن أجِد تفسيراً أو راحة لما يدور في نفسي. إنني أحاول أن أجِد صيغة فكرية تريحني، أو أجِد شخصاً يدلني على المعنى الذي يشغلني.

وكان أول عمل محدد إيجابى قمت به هو أننى اتصلت بعزيز المصرى، وكان شريكاً لاتاتورك فى تركيا وهو لذلك يتمتع بسمعة عظيمة جداً، وقد شارك فى إنشاء جمعيات عربية كثيرة، عندما كان العالم العربى يغلى بالثورة ضد الأتراك. أو ضد تركيا التى أسموها فى ذلك الوقت بالرجل المريض.. وهذا الرجل المريض احتاج من أتاتورك إلى الكثير من القوة لينهض هذا المريض ويصبح شاباً يلحق بركب الحضارة الغربية، ويستدرك ما فاتته فى ظل السلطنة العثمانية.

وبعد ذلك اتصلت بالإخوان المسلمين، كل ذلك وغيره، حدث بعد أن تخرجت فى الكلية الحربية، وكان اتصالى بالشيخ حسن البنا فقط وناقشته كثيراً. واختلفنا هو يريد أن ينطوى تنظيمنا فى الجيش تحت أجنحة الإخوان المسلمين. وكان هدفنا فى الجيش أن ننظم وأن نعمل من أجل مصر. وقلت للشيخ حسن البنا: أحب أن أواجهك بصراحة، لقد قررنا أن يكون تنظيمنا من أجل مصر وحدها. وليس من أجل هيئة أو حزب أو شخص.

كان ذلك سنة ١٩٤٠. وقد ألقى القبض على بعد ذلك سنة ١٩٤٢ ودخلت المعتقل.

ولما جاء جمال عبد الناصر من السودان التقى بالشيخ حسن البنا وصارحه بنفس الموقف وظل هذا موقفنا منذ ذلك الحين حتى اليوم. ومن المؤكد أن هذا الموقف أو هذه الفلسفة من أعظم ما نفخر به.. فحركتنا كانت مصرية قومية. وأعتقد أننى أصلحت بعض «اللحيطات» التى وقعت فى الفترة الماضية، وأزلت كل شبهة..

وكل شىء واضح تماماً الآن: من نحن وماذا نعمل ومن أجل من وفى سبيل أية غاية. وتوالت اتصالاتى بالهيئات والأحزاب، أريد أن أعرف ما الذى يفكر فيه الآخرون من أجل أن يعملوا ما ينفع مصر. ثم طردت من الخدمة العسكرية. واعتقلت وأفرج عني.. وسجنت وأفرج عني.

وعندما أُلِف على ماهر هيئة حزبية وكان مقرها فى شارع قصر النيل، كنت أول من دق الباب. وب نفس السرعة والحماس الذى دخلت به، خرجت أيضاً. فلم أجد ما يريحنى، وأدبرت رأسى أبحت عن اتجاهات أخرى، أو عن مصدر لفكر جديد أو ينابيع جديدة أو ريلح منعشة..

ولكنى أقرر هنا أننى لم أتعلم بأى تنظيم شيوعى، ربما مرة واحدة.. فقد أخبرنى أحد الزملاء أن هناك مركزاً فى شارع المبتديان.. وهذا المركز عبارة عن قاعة للمحاضرات.. وأنه لا مانع أن يذهب الإنسان ويستمتع إلى ما يقوله الآخرون.

وقال لى زميلى هذا : أنت شاب وتشغل بالفكر السياسى. وفى حالة قلق. وتريد أن تعرف وأن ترسو سفنك على بر الأمان. اذهب واسمع. وفكر. وقرر بعد ذلك.

ونذهبت. ودخلت. وكانت القاعة صغيرة الجدران مغطاة بصحف الحائط. وكان هناك من يقرأ ما جاء فى هذه الصحف. واستشرت وجدانى. وأحسست أن هناك شيئاً مريباً. هناك شىء غير طبيعى.

.. وبعد أيام قليلة جاء البوليس وحاصر المكان وهاجمه وقبض على الناس وعلى صحف الحائط ، - ولستر الله - لم يكن البوليس يراقب المكان يوم ذهبت إلى هناك.. والا كانوا اعتقلونى. ولم يكن من الصعب أن أدرك أنها خلية شيوعية.

ولو سألت نفسى ما هى بالضبط معلوماتى عن الشيوعية فى ذلك الوقت لكان جوابى فى مثل هذه السن، لم تكن ثقافتى واسعة، ولكن آمالى واسعة وعريضة.. والمسافة ما تزال كبيرة بين الذى أحلم به وبين الذى أقدر عليه.. ومن هنا كان إعجابى بأتاتورك الذى لم يحقق ما كان يحلم به إلا مستعيناً بالجيش..

وقد شغلنى كمال أتاتورك كزعيم ومثل أعلى.. وفى ذلك الوقت كنت أقرأ كتاباً عنه اسمه «الذئب الرمادى» من تأليف أرمسترونج، وهذا الكتاب تحفة أدبية فأسلوبه سهل، ويستطيع من هو فى سننى وعنده مثل معلوماتى الإنجليزية المحدودة، أن يقرأه ويستمتع، ولم تكن لغتى الإنجليزية قد أصبحت قوية بعد، وإن كانت قد تحسنت بسبب ميلى الشديد للغات التى تعلمتها وراء القضبان..

وهذا الكتاب كان كنزاً وقع فى يدى. أو كنزاً وقعت أنا عليه. واستحوذ هذا الكتاب على خيالى وقد حدث أن كنت مبعداً فى الصحراء الغربية بأمر من المخابرات المصرية والبريطانية. أثناء الحرب العالمية الثانية فى منطقة اسمها الجراولة جنوب مرسى مطروح ولكن هذا الكتاب هون على هذه الوحدة الأليمة فى هذه المنطقة الصحراوية. وأذكر أننى بلغت منتصف الكتاب سعيداً بما أقرأ وما أرى، وسعيداً بالعالم الباهر الذى وضعه المؤلف أمام عيني.. واستدعونى لأن لى صلة بعزيز المصرى الذى سقط بطائرته عند قليب ومعه اثنان من الطيارين هما : حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف.

وحملونى فى سيارة ماركة فاجور صغيرة من مرسى مطروح. وكانت سرعتها لا تزيد على ستة كيلو مترات ، نمت فيها طول الليل ، وصحوت من النوم لأجد السيارة قد شردت فى الصحراء. ولكن حمدا لله أنها لم تصطدم بسيارة أخرى.

== الذئب الرمادى ==

وكانت رحلة شاقة. ووصلنا إلى الجيزة. وضابط الحرس المرافق لى أجرى اتصالاً تليفونياً. وكانت الأوامر التى لديه أن يأتى بى فوراً إلى وزارة الحربية. وهناك وضعونى فى غرفة سكرتير وزير الحربية. ولم أذهب إلى البيت لأغير ملابسى أو أغسل وجهى. وجلست على مقعد. وفتحت كتاب «الذئب الرمادى». ومضيت أقرأ مستغرقاً تماماً. أعوض ما فاتنى فى تلك الليلة الأليمة. ولم أدر أن باباً قد انفتح وأن أحداً وقف ينظر ناحيتى. وحدث ما يحدث لكل إنسان عادة عندما ينظر إليه أحد دون أن يدرك. وبسرعة يرفع رأسه ليجد هذا الذى ينظر إليه. وفعلت كذلك ووقفت بسرعة وأعطيت التعظيم العسكرى التمام وألقيت الكتاب إلى جانبى. ولم يكتف هذا الذى عظمت بهذه النظرة الكاسحة وإنما قال: هو ده أنور السادات!

وخرج وعرفت أنه إبراهيم عطا الله رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، ولم يكلف هذا الرجل خاطره ويسأل عن هذا الكتاب الذى أنساني الدنيا من حولى ولو فعل لأضاف اتهاماً جديداً غير مجرد الاتصال بعزيز المصرى.

وفى ذلك الوقت كانت ثقافتى عادية جداً، لم أقرأ الكتب الشيوعية ولا الماركسية. ومن المعانى العميقة فى نفسى وفى نفس كل مصرى أن الشيوعية إلحاد وكفر وأنهم أناس فوضيون، لا قيم عندهم. ولا يهمهم دين وأنا ككل مواطن قروى يرى أن المساس بالدين شىء فظيع. وإذا كان الإنسان بلا دين فكل شىء عنده مباح ومعنى ذلك ضياع كل ما هو إنسانى. وإهدار كل ما هو عظيم وعدل وجمال وحرية وإنسانية. فأنا بطبعى الريفى المؤمن أرفض ذلك ومن أول لحظة.

وقد حدث لى ذلك عندما زرت تلك الخلية المريبة المشبوهة فى المبتديان، فقد كانت شيوعية. وذلك الزميل الذى دعانى. أراد أن يستغل قللى وحيرتى بحثاً عن عمل ايجابى من أجل مصر.. ولكنى لم أطاوعه وإنما فقط سايرته وذهبت ودخلت، وكانت أول مرة وآخر مرة.. وإذا كانت صورة أتاتورك على جدار بيتنا قد هزت خيالى، فإن صورة أخرى قد زعزعت إيمانى بالشيوعية. وشدت تمسكى بدينى وقيمى الأخلاقية.. فقد بدأت الحرب وأنا أتابع كل ما يجرى وفى يدى الخرائط. وخيالى ملتهب لأننى قد عايشت المعركة من أولها لآخرها.

وفى بداية الحرب اتفق هتلر وستالين .. وبعد ذلك تسلس بينهما تشرشل يدق أسفينا بين الزعيمين.

وفى سنة ١٩٤١ اندفعت قوات هتلر تغزو الاتحاد السوفيتى ومقدمات هذه الحرب وحوادثها ونتائجها معروفة للجميع- واتحد الحلفاء مع روسيا ضد هتلر. وأعلن تشرشل أنه مستعد أن يتحالف مع الشيطان. وكان الشيطان هو ستالين. لأن المهم عنده فى ذلك الوقت هو ضرب هتلر.

إنن لقد تحالف الغرب مع ستالين. أى تحالفوا مع الرجل الذى قالوا إنه ملحد ولا أخلاق له، وإن الشيوعية هى دعوة إلى تمزيق الأسرة وتحطيم كل القيم الباقية، وفى يوم وليلة رأيت فى شوارع القاهرة المظلمة صوراً كثيرة للأقطاب الثلاثة: روزفلت الأمريكى وستالين الروسى وتشرشل الانجليزى. وأهم من هذه الصور التى ملأت الدنيا، ظهرت الكتب التى تمتدح ستالين والشعب السوفيتى البطل الذى يقاوم هؤلاء الوحوش الفاشيين..

إنن لقد كان الروس وحوشاً أول الأمر. فلما حاربهم هتلر أصبحوا ملائكة. واستحقوا عظيم الاحترام.. إنن ما الذى جرى؟ وكيف تحول هذا الوحش التتارى ستالين إلى بطل أسطورى؟

حاولت أن أعرف وتساءلت. وانشغلت بذلك كثيراً ولا بد أن كثيرين من الذين عايشوا هذه الحرب قد فكروا مثلى وانتهيت إلى هذا المعنى الذى أقنعتنى: لا شىء سوى أنهم يحاربون عدواً مشتركاً.. أى لا شىء سوى المصلحة.

وانتهت الحرب وانتصر الجميع على هتلر أو انتصر الروس والأمريكان والحلفاء. ومع أضواء النصر التى ملأت كل عواصم الدنيا والقاهرة أيضاً، توارت صورة ستالين! فى ذلك الوقت أضاعت نفسى هذه الحقيقة: أن تشرشل هذا ليس إلا عدوى!

صحيح أنا أعجب بتشرشل كمواطن انجليزى خدم بلاده. وكتب مذكرات جميلة وعميقة. ولكن أترك هذا للإنجليز يفخرون به ويمجدونه على قدر استطاعتهم. ولكنه أولاً وأخيراً عدوى. ولأنه عدوى فأنا لا أصدقه. ومن الواجب أن أفعل ذلك. فإذا قال عن إنسان: إنه ملاك قلت: بل شيطان! .. وإن قال عن أحد إنه شيطان: قلت بل ملاك من السماء!

وهذا التشدد والتزميت يتفق تماماً مع مزاج شاب فى الثالثة والعشرين جاء من أعماق الريف، فلا عنده مرونة عقلية، ولا عنده ثقافة كافية، ولا عنده تجارب، فعالمى ما يزال محدوداً. والألوان على لوحة حياتى شديدة الوضوح أبيض وأسود. ألوان صريحة لم أعرف بعد تلك الألوان التى تتداخل وتتعدد.. ليس بعد!

وأقنعتنى أيضاً خاطر آخر قد استقر فى نفسى: أن تشرشل هو الذى أتى لنا بهؤلاء الناس.

وشعرت بالقرف من هؤلاء الناس، ولم أتصل بأحد منهم بعد ذلك. حتى قامت ثورتنا. وكنت مسؤولاً عن الصحافة والإعلام.

وأول مرة كان احتكاكي بواحد منهم.. لقد كان عبد الرحمن الشرقاوي. وفي ذلك الوقت كان قد كتب قصيدة عنوانها «رسالة إلى ترومان» بعد إلقاء الأمريكيان للقنبلة الذرية على هيروشيما.. وكانت شعراً في غاية الجزالة والجمال وجاءني يستأذن في نشرها وقرأتها أمجبتني بل تمايلت طرباً. واقترحت عليه أن يغير كلمتين أو ثلاثاً ليكتمل جمال القصيدة وصرحت بنشرها لأن شكلها الفني قد هزنى ولم أكن أعرف أنها قصيدة شيوعية. وقد أخبرني زملائي في مجلس قيادة الثورة بذلك، وسألوني كيف أجزيت عملاً شيوعياً. وكان ردى أنها عمل فنى. ولذلك أجزتها!

وبعد ثورتنا واجهت ظروفًا غريبة. هذه الظروف ساعدت على أن نتجه إلى الروس ونقترب منهم ونصطدم بهم. فقد ظلت علاقتنا بالروس كالسحب الكثيفة إذا سقطت مطراً، صفت السماء ولكن غرقت الأرض!

فبعد شهرين من قيام الثورة لم تكن السفارة البريطانية في القاهرة، ولا الامبراطورية البريطانية تعرف شيئاً عن ثورتنا ولا من الذين أشعلوها. والذين أشعلوها رفضوا الاتصال بالسفارة البريطانية. بينما كانت هناك علاقة بيننا وبين الأمريكيان. وطلبنا إلى الأمريكيان أن يشرحوا الموقف للانجليز، ونحن لا نريد أن ندخل في حوار معهم.. فما يزال ٨٥ ألف جندي يحتلون أرضنا منذ سبعين سنة. بيننا وبينهم كوارث ودماء.. ومن أجل هذا كانت ثورتنا لتصحيح هذا التاريخ.

وقد عاقبنا الانجليز على عدم الاتصال بهم بأن حظروا علينا السلاح. وكانت بريطانيا هي المورد الوحيد. ولم نكن قد عرفنا أمريكا جيداً. فأمريكا لم تدرس المنطقة إلا متأخرة. أى بعد الحرب العالمية الثانية أى بعد غياب شمس الامبراطوريتين بريطانيا وفرنسا، وكان من سياسة أمريكا فيما بعد أن تضع حزاماً من الأحلاف حول الاتحاد السوفيتي.. أى احتواء الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط.. ولكن أسلوب أمريكا له اسم آخر هو: الاستعمار الجديد.. أى استعمار عن طريق البيع والشراء وخصوصاً بيع السلاح..

ولما حاولت أمريكا أن تعطينا بعض السلاح احتججت بريطانيا. وهذا هو السبب المباشر فى عدول أمريكا عن بيع السلاح لنا، فبريطانيا كانت وما تزال ترى أننا فى داخل مناطق نفوذها!

وتفصيل ذلك: أننا اتصلنا بالأمريكان ووصفنا لهم الوضع المعجيب في الجيش المصري وكيف يكون حاله وهو بلا سلاح نشتره من بريطانيا. هنا طلب منا الأمريكان سنة ١٩٥٣ أن نوفد بعثة عسكرية إلى أمريكا. ووصلت البعثة ولم يقابلها مسئول أمريكي واحد على رغم أنهم هم الذين دفعونا ودعونا إلى ذلك..

وعادت السفارة الأمريكية في القاهرة تفتح موضوع السلاح وحاجتنا إليه. وقيل لنا يومها: لا داعي لشراء السلاح، سوف نعطيكم السلاح مجاناً لو.. وجاءت كلمة «لو» هذه لغماً تحت أقدامنا..

«لو» وقعتم على ميثاق أمن متبادل، سوف نعطيكم السلاح مجاناً، ولم يقتنع الأمريكان بأن مجانية السلاح لا تهمنا. وإنما نريد أن ندفع ثمن السلاح فليس هذا الثمن بالكثير إذا احتفظنا مع السلاح بحريتنا.

وكان الميثاق الذي تريدنا أمريكا أن نوقعه يشترط وجود بعثة أمريكية تترب الجيش المصري، وقد جربنا قبل ذلك البعثة العسكرية البريطانية. ونحن نعلم علم اليقين أن بعثة أمريكية لن تكون إلا إحياء لبعثة تسطر على الجيش المصري.

وأغرب من ذلك أن الميثاق ينص على ألا نستخدم هذا السلاح في محاربة حلفاء أمريكا! يعني إسرائيل كيف؟

ومعنى ذلك أن بريطانيا ضغطت على أمريكا حتى لا تسلحنا. لقد حوصرنا تماماً.. فقد أقفلت في جوهنا كل أبواب السلاح حتى لا نشترى أى سلاح من الغرب. فلما لا نتجه إلى الاتحاد السوفيتي نشترى منه السلاح اللازم لنا. فلدينا القطن. والقطن عملة صعبة. واتصلنا بالسفارة الروسية.

وفي ذلك الوقت كان ستالين في أيام حكمه الأخيرة. وجاء الرد من ستالين يقول: نأسف فنحن إذا بعنا لكم السلاح فسوف تحاربوننا به!

وليس هذا غريباً من ستالين، أو غريباً عليه. فهو رجل شيوعي متزمت متعصب، لا يساعد إلا الدول الشيوعية، وإذا ساعدها فلا بد أن يتسلط عليها. ولم تكن شيوعيين ولا نريده أن يتسلط علينا.

ومعركة الرئيس تيتو - وهو شيوعي - مع ستالين هي من أعظم معارك التاريخ. وتيتو هذا الذي دوح هتلر الذي ركعت أوروبا كلها عند قدميه، استطاع أن يدوخ ستالين

أيضا. بل انتصار تيتو على السوفييت يعتبر من وجهة نظري أعظم وأروع وأشجع إنجازات يوغوسلافيا!

ولم يبق أمامنا إلا أن نستخدم الأسلحة المتواضعة ضد الانجليز في القناة. وكانت حرب عصابات مصرية معروفة ومشهورة. وهذا هو الذي جعل الانجليز يوافقون على اتفاقية الجلاء في أكتوبر ١٩٥٤ ليجلوا بعدها في يونيو ١٩٥٦.

إن هذه القنابل التي صنعت في مصر هي التي أزعجت الانجليز، الذين جاءوا يدافعون عن الامبراطورية، فوجدوا أنهم في حاجة إلى الدفاع عن أنفسهم!

وفي ذلك الوقت كان إيدن وزير خارجية بريطانيا، ونجمها الصاعد الذي تعدده الإمبراطورية ليشغل مكان تشرشل. ورأى إيدن أن يواجه جلاء القوات البريطانية بملء «الفرغ» الذي يظهر بعد خروجها من المنطقة، فاخترع شيئا جديدا اسمه «حلف بغداد» يضم تركيا والعراق، وانضمت بريطانيا وإيران وباكستان في سنة ١٩٥٥. ثم انسحب منه العراق سنة ١٩٥٨.

وواضح أن الغرض من هذا الحلف أن تظل هذه المنطقة كلها تحت النفوذ البريطاني. وأن تظل بريطانيا موجودة حاضرة في هذه المنطقة كلها، ووجد إيدن في نوري السعيد ذلك البوق والأداة التي يحركها في هذه المنطقة لتدعو الدولة العربية الأخرى للدخول في حلف بغداد.

وقامت قيامة مصر على حلف بغداد وعلى الدخول في الأحلاف ومناطق النفوذ وضد القواعد الأجنبية إلى أرضنا وأية أرض أخرى.

وفي ذلك الوقت زار صلاح سالم مدينة سرسنك في شمال العراق. وبعدها جاء نوري السعيد إلى القاهرة وكان يتصور في ذلك الوقت أننا سنؤخذ بالأحضان. وقابله جمال عبد الناصر وحاول إقناعه بأننا مختلفون عنه تماما. وبعد ذلك شددنا الحملة عليه وعلى إيدن وعلى بريطانيا.

وبسرعة جاءنا اثنان: الملك حسين وكميل شمعون، الملك حسين ابن عم الملك فيصل ملك العراق وموافق على كل خطواته طبعاً. أما شمعون فهو انجليزي منذ كان سفيراً للبنان في لندن، وليس فرنسيا كمعظم الموارنة وبشارة الخوري هو الذي عين كميل شمعون ثم طعنه شمعون، وندم بشارة الخوري على ذلك ولكن جاء الفدم متأخراً جداً!

الصورة الآن واضحة: إننا عاديّنا بريطانيا وأحلافها في المنطقة. وزعزعا الثقة فيها، وأثرنا عليها وعلى الحكومات العميلة غضب الشعوب العربية ثم إن هناك خطورة واضحة من هذه الثورة المصرية الشابة.

ومن الطبيعي أن تتخذ بريطانيا موقفاً سريعاً ترد به على هذه الحملات العنيفة في كل مكان. هنا حدثت نقطة تحول هامة جداً في الطريق الضيق بين موسكو والقاهرة..

ولكن هذا التحول جاء بعد حادث مفاجئ مروع وقع يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥.. فقط أوعزت بريطانيا إلى إسرائيل أن تقوم بعملية خاطفة جداً.. فهاجمت بقواتها سريعة الحركة غزة. وقتلت أربعين مواطناً وانسحبت القوات الإسرائيلية. ولم نستطع أن نواجه هذه العملية السريعة بما لدينا من لوريات وأسلحة متواضعة.

وفهمنا أن المقصود من هذه العملية هو تأديب مصر لكي تعرف وزنها وحجمها في هذه المنطقة. ! هنا افقنا تماماً. وفكرنا جيداً في أن نتجه إلى الاتحاد السوفيتي. هل أدت مكالمة تليفونية من شوان لاي إلى أن اتخذ السوفييت قراراً مفاجئاً عجيباً لم يحدث له نظير بعد ذلك إلا مرة.. ثم لم يتكرر ولن يتكرر مثل هذا القرار الذي اتخذوه لصالحنا.. وبصورة مفاجئة.



١ - الرئيس السوفيتي
جوزيف ستالين .



٢ - انتوني إيدن .



٣ - جمال أباتورك .



٤ - الزعيم الراحل جمال
عبد الناصر .



الشيوعية والحياة غير الإيجابية



- وزير خارجية أمريكا يرى أن نظرية
الحياة الإيجابية نوع من السفالة السياسية.
- تطورات خطيرة.. الروس يوافقون على
تمويل بناء السد العالي.
- شوان لاي يصف عبد الناصر بالنجم الساطع
ودالاس يصفه بأنه صدام المنطقة.
- حافة الهاوية.. النظرية التي اعتمد
عليها دالاس.
- عبد الناصر أصدر قراراً رائعاً بالانسحاب
أنقذ ثلثي القوات المصرية أثناء العدوان
الثلاثي.

لابد أن هناك أسباباً دولية أدت إلى أن الاتحاد السوفيتي قد اتجه إلينا.. ووافق على أن يمدنا بالسلاح، وكانت هذه نقطة تغير ضخمة بيننا وبينه، وبين السوفيت والمنطقة كلها..

ربما نبههم شوان لاي رئيس الوزراء الصيني في ذلك الوقت، ويومها كانت العلاقات بين الصين الشيوعية الدولة النائرة الجديدة وبين الاتحاد السوفيتي، تسمح بأن يكون للصين رأى مسموع عند الروس.. ربما..

كان ذلك في ربيع سنة ١٩٥٥ عندما تنادى زعماء العالم الجديد أو العالم الثالث، بضرورة أن يتقاربوا ويتماسكوا.. ويكون لهم رأى.. وتكون لهم قوة في مواجهة المعسكرين الأعظمين.. الأمريكان والغرب من ناحية والمعسكر السوفيتي الشيوعي من ناحية أخرى.

وكان يرأس العالم الثالث البانديت نهرو والرئيس سوكارنو والرئيس جمال عبد الناصر.. ثم انضم إليهم شوان لاي رئيس وزراء الصين التي نجحت ثورتها سنة ١٩٤٩. واتفقوا على عقد أول مؤتمر لهم في باندونج بأندونيسيا سنة ١٩٥٥. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أصبح لهم فيها وجود على خريطة الجغرافيا السياسية.. وكانت الدعوة إلى المؤتمر والنسفر إليه قد اتخذت طابعاً إنسانياً رومانسياً لطيفاً.. فقد سافر جمال عبد الناصر إلى الهند وسافر معه نهرو، وسافر الاثنان إلى بورما واصطحبا معهما رئيس وزرائها، وفي بورما التقوا بشوان لاي، وسافروا معا في محبة وأخوة إلى جاكرتا في أندونيسيا ليرافقهم جميعاً سوكارنو.

وكان لجمال عبد الناصر دور بارز في هذا المؤتمر، وفي المؤتمر أعلن ما سمي بعد ذلك بسياسة الحياد الإيجابي، أي ضرورة الوقوف على الحياد بين المعسكرين.. وليس حياد المتفرجين.. كالحياد السويسري.. وإنما هو حياد له دور في الموافقة والاعتراض على ما يقوم به المعسكران الآخران. وكان نهرو بنظرية الباناشاسيلا «أي المبادئ الخمسة» حريصاً على هذه السياسة في جنوب شرقي آسيا.. ولكن مؤتمر باندونج قام بتوسيع وتعميم معنى الحياد الإيجابي على القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا ثم أوروبا التي جاء منها تيتو.. وبعد ذلك شمل أمريكا اللاتينية أيضاً.

وعلى الرغم من أن العالم الثالث هذا يضم أغلبية سكان العالم فإنه لا يملك الثروة الحقيقية.. فهو يملك المواد الخام أو الموارد والمناجم وحقول البترول، ولكن لا يملك تصنيعها.. وهذا هو الأهم، فالغرب يملك القدرة على التصنيع وعلى الشراء وعلى التسويق وعلى رفع وخفض الأسعار.

وفى هذا المؤتمر اقترب شوان لاي من جمال عبد الناصر، وعرفه جيداً، وكبر فى عينه. وكان شوان لاي هذا صديقاً صدوقاً لنهرو.. وإن كان بعد ذلك قد طعنه حتى الموت.. وهذا شيء غريب، ولكنه ليس غريباً على الشيوعيين.. فالعذر والعنف من أهم معالم السلوك الشيوعى فى السياسة العامة والعلاقات الخاصة.. فهذا الرجل شوان لاي هو المسئول عن موت نهرو.. فالصين هاجمت الهند، وهذا الرجل قد أجهز على نهرو حتى أنهى وجوده تماماً. ولكن شوان لاي عرف جمال عبد الناصر جيداً، وعندما وصل إلى بكين، طلب الكرملين.. وقال لهم: إن هناك نجماً صاعداً.. هذا النجم هو عبد الناصر.. فخذوه إلى سمانكم لعله أن يزداد تألقاً، والوسيلة هى أن تعطوه السلاح.

فقد شكاً له جمال عبد الناصر من الحصار الذى أحكمه الأمريكان والإنجليز عليه. فجيش مصر بلا سلاح.. وهو وضع صعب عليه وعلى بلده وعلى جيشه.

وفى ذلك الوقت كان ستالين قد توفى من سنتين، أى اختفى الرجل المتزمت جداً، الشيوعى جداً، المتسلط جداً، وظهرت قيادة حزبية جديدة فى روسيا. واختفى خليفة ستالين: مالنكوف. وظهر خروتشيف. الذى أعلن فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى أن ستالين هذا سفاح وخائن.. وأنه يجب اقتلاعه من التاريخ الشيوعى، ونزع تماثيله من كل ميدان، وشطب اسمه من كل كتاب. وقد حدث ذلك كله بالحرف الواحد، وهذا سلوك شيوعى عادى جداً.. فانتقال السلطة عند الشيوعيين لا يتم إلا بالعنف: منذ أيام لينين حتى اليوم..

ستالين نزعه.. قلعوه.. مسحوا به شوارع روسيا وشوارع كل الدول الشيوعية الأخرى، ولقى خروشوف نفس المصير أيضاً.. بل إن وزير خارجية روسيا على أيام خروتشيف كان اسمه شيبيلوف، ولا أعرف أين ذهب الآن. لابد أنه ناظر محطة أو حارس دورة مياه فى سبيريا.. وهذا طبيعى.. وهذه هى نهاية كل حاكم فى روسيا إذا اختلف مع الذى هو أقوى منه.. بل إنهم بعد الحرب كان لديهم قائد عظيم جداً هو زوكوف.. هذا الرجل بالمقاييس العسكرية، يعتبر أسظم من إيزنهاور ومنتجومرى. لأنه قد اكتسح أوروبا الشرقية حتى

== الشيوعية والحياد غير الإيجابي ==

ألمانيا الغربية وأبواب برلين. هذا الرجل فوجئ وهو في زيارة ليوغوسلافيا بأنه مطرود، وعليه أن يخلع ملابسه وأن يسلم نياشينه.. وأصبح لا شيء. ولما مات وجدوه جالسا على دكة خشبية في إحدى الحدائق.. فسقط ميتاً كقطعة خشب كانت تجلس على قطعة خشب، وتكوم على الأرض إنسان كان عظيماً.. ولكن لا عظمة ولا قيم إنسانية عند الشيوعيين!

ولكن إذا نظرنا إلى ما يحدث في الدول الغربية نجد أن التغيير أو التبديل ديمقراطي.. ففي أمريكا أرغموا نيكسون على الاستقالة.. فاستقال ببساطة، وبعد ذلك يجيء نائبه ويحلف اليمين ويصبح خلفاً له، وكذلك جونسون.. أتوا له بقاض، وكان القاضي سيدة. حلف أمامها اليمين وبعدها بلحظة واحدة أصبح رئيساً للدولة ويمسك في يديه كل مفاتيح القنابل النووية..

ولم أكن أعرف ما الذي يجري لأى مسئول سوفيتى يغضبون عليه إلا من صديقى وزير الدفاع جريتشكو الذى توفى.. فالوزير فى روسيا عنده شقة وفيللات على البحيرات وسيارات.. فإذا غضبوا عليه سحبوا كل شيء من تحته: السيارة والسريـر.. ثم المقعد الذى يجلس عليه فإذا هو جثة هامدة على الأرض دون أن يهتز عصب واحد لأى إنسان.. فالوزير قد كان ثم هان.. ثم اختفى!

أما شبيلوف هذا فقد كان وزيراً لخارجية روسيا وكان أنيقاً.. إنه أول روسى أراه يضع المشط فى جيبه ويخرجه كلما ظهرت كاميرا فى يد أحد المصورين، وقد قابلت هذا الرجل فى الحفلة التى أقامتها السفارة السوفيتية فى القاهرة.. وكان صديقاً، وكان يعرفنا جميعاً.. ويحب أن يسمعنا وأن يسأل عنا.. لأنه يريد أن يعرف أو يساعد.. أو لعله أراد أن يوجه بلاده إلى ناحية تنفعهم فى علاقاتهم معنا.. أو فى علاقة السوفيت مع الثورة الجديدة فى مصر أو فى المنطقة كلها..

ويقابل شبيلوف هذا وزير خارجية أمريكا: دالاس، وهذا الرجل الأمريكى قريب الشبه بسقاليـن.. إنه هو أيضاً متعصب مقزمت متشدد ومتسلط أيضاً، ويريد أن يقدم لنا المساعدة بشروط.. وهذه الشروط هى أن يسيطروا علينا.

وكان من رأى دالاس أن نظرية الحياد الإيجابى نظرية لا أخلاقية. لأن الأخلاق تقول: إن الإنسان إما أن يكون أمريكياً وأما أن يكون شيوعياً.. ولا يوجد شيء وسط.. أو بعبارة أخرى.. إن الحياد الإيجابى هو نوع من السفالة السياسية!

وهذا رأى غريب.. كأن من المفروض ألا يكون الإنسان وطنيا، محبا لبلده حريصا على مصالحه.. مع أن من الممكن، بل طبيعى جدا، أن أكون مصريا وطنيا، وعربيا.. أى مصريا وعندى أمنيات قومية، أريد أن أحقق لمصر كرامتها ورخاءها، وفى نفس الوقت أحرص على سلامة العرب ووحدتهم وعزة الجميع، إننا لا نرى فى ذلك أى تناقض، ولا أية سفالة سياسية.. بل من السفالة وليس من السياسة ألا يكون الإنسان وطنيا قوميا فى وقت واحد.. ولكن الأمريكان كالروس تماما: يضيعون بكل ما هو وطنى وما هو قومى.

ولهذا السبب اتخذ دالاس هذا الموقف العدائى من أول لحظة.

وكان لدالاس نظرية فى ذلك الوقت اسمها: حافة الهاوية.. أى دفع الموقف حتى يشتعل. وهنا فقط يستطيع أن يفعل شيئا. أو ينهار الموقف تماما، فلا يجد نفسه فى حاجة إلى أن يعمل أى شئ، ودالاس طبعاً يريد أن يدفعنا إلى الهاوية أو إلى حافتها فإذا سقطنا كان ذلك بين ذراعيه أو تحت قدميه، ولكن دالاس لم يقهمننا.. فهذه الهاوية لا تهمننا.. لأننا لا يمكن أن نخسر أكثر مما خسرناه، ولا يمكن أن نصل إلى أدنى مما وصلنا إليه.. فنحن فى جميع الأحوال لن نفقد شيئا، ولذلك لا تهمننا نظرية حافة الهاوية!

وكان دالاس هذا وزير خارجية إيزنهاور.. وكان إيزنهاور يعيش على أمجاد الحرب العالمية الثانية وانتصاراته فيها، ولما رأس الحكومة الأمريكية، كان ذلك تكريما له، وثمرة لأعماله العسكرية المشهورة، وهو رجل يلعب الجولف معظم الوقت، وبين الحين والحين تجسئ له مكالة تليفونية.. فيترك أرض الجولف ويمسح عرقه والناس من حوله تحييه ويمسك سماعة التليفون ويقول: أوكى.. أو لا يرد ويقفل السكة. ويكون اقفاله دليلا على الرفض.

ومن ضمن المكالمات العادية.. أن تحدث إليه دالاس وسأله فى حكاية مصر، وكان من رأى إيزنهاور لدالاس: أوكى.. استمر!

أما ما هذا الذى وافق عليه وطلب من دالاس أن يستمر فيه فهو.. أن دالاس عندما قال له: إن مصر دولة مفلسة وليست قادرة على تمويل السد العالى.. ومن رأى ألا نشترك فى ذلك.. كان رد إيزنهاور أنه لا داعى لذلك.. وانتهت مكالة عابرة أدت إلى تغيير معالم الشرق الأوسط كله!! فأمرىكا إذن قد رفضت أن تمدنا بالسلاح. ورفضت أن تعيننا على بناء السد العالى.. وأعلنت فى بيان دالاس الشهير أننا دولة مفلسة.

وقبل ذلك اشترطت لكي تساعدنا أن تشرف على استخدام السلاح حتى لا نحارب دولة صديقة. اسرائيل طبعاً، ثم إنها أخيراً لن تشارك في تمويل السد العالي. وأعلنت أيضاً بأشكال مختلفة أن الوضع كله يحتاج إلى تغيير.. أى مطلوب منا أن نغير الحكم وشكله وفي هذه الحالة أو بعدها تساعدنا أمريكا!

وأصبح معروفاً أن دالاس قد أوفد هندرسون ليوجه إنذاراً لجمال عبد الناصر، وكان هندرسون في تركيا.. وتحفز جمال عبد الناصر لطرد هذا المبعوث الأمريكي، فنحن لا نهاب أمريكا، ولا يمكن أن تدفعنا أمريكا إلى أسوأ مما نحن فيه، ولكن فجأة تغير الوضع. وتلقى هندرسون تعليمات بأن يكون ألطف وأرق، وقابل جمال عبد الناصر، وسأله جمال عبد الناصر عن الإنذار..

فأجاب الرجل: أنه لا إنذار!

وإنما جاء هندرسون يطلب من مصر أن تلغى صفقة الأسلحة مع روسيا أو تؤجلها! فقد حدث فجأة أن أعلن الروس في سبتمبر ١٩٥٥ موافقتهم على إعطاء صفقة سلاح لمصر من روسيا ومن تشيكوسلوفاكيا بموافقة موسكو.. وكان ذلك حدثاً مدوياً. فقد جاءنا السفير السوفيتي في ذلك الوقت وقال: إن لديه تعليمات من حكومته بالموافقة على إمداد مصر بالسلاح.. أى بكسر احتكار بريطانيا وأمريكا للسلاح.

واتسعت المعركة بين مصر والولايات المتحدة وبريطانيا.. فقد اتجهنا إلى المعسكر الاشتراكي نطلب السلاح، وقد أعلن الروس موافقتهم على ذلك. وفي ذلك الوقت.. في يوليو ١٩٥٦ انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية - أول رئيس للجمهورية بالانتخاب - لأن محمد نجيب عين رئيساً للجمهورية بقرار من مجلس قيادة الثورة سنة ١٩٥٢.

ومضينا بعد ذلك نواصل دراسة مشروع السد العالي، والسد العالي بمشاريعه وهندسته مختلف تماماً عن سد أسوان الذي ليس إلا جداراً متواضعاً إذا ما قورن بهذا الجبل: السد العالي، فالسد العالي يقوى على مواجهة القنابل الذرية..

وقد نوقشت كثيراً فكرة ضرب السد العالي بالقنابل الذرية، ويؤكد الخبراء العالميون أنه يستطيع أن يتحمل ذلك.

ومن المناسب أن أذكر أن عدداً من كتاب الغرب ومن الكتاب اليهود قد طرأت عليهم هذه الفكرة عندما رأوا السد العالي.

فالكاتب الفرنسي أندريه مالرو وزير الثقافة السابق قد ذكر في كتابه المشهور «الذكريات المضادة» أن القنابل الذرية إذا أصابت السد العالي فسوف تغرق مصر كلها! كما أن كاتباً يهودياً ألمانيا اسمه حايم ميخائيل قد ألف رواية بعنوان «مياه أسوان» تخيل فيها انهيار السد العالي ونسفه بالقنابل الذرية والألغام وغرق مصر.. وقال: إن في هذه الحالة ننتقم من مصر.. فهي التي قالت لليهود في أغانيها: في البحر حندينكم.. ولكن في هذه الحالة، سوف تأتي للمصريين بالبحر ولن ندفنهم، وإنما سننقذ المصريين كما أنقذ نوح البشرية!

وأحدث رواية ظهرت عنوانها «الخط ٣٤ شرقاً» أي شرق السويس من تأليف الفريد كوبل.. وهو قد فكر أيضاً في ضرب السد العالي وإغراق مصر..

بل إن مؤلف رواية «مياه أسوان» كان أكثرهم صراحة. فهو الذي قال: يجب إغراق مصر قبل أن يستعد أنور السادات!.. الخ..

وفي ذلك الوقت جاءنا مهندس يوناني اسمه دانيئوس.. هذا الرجل قد درس مشروع السد العالي، ودرس طبيعة أرض مصر كلها.. وجاء مهندسونا أيضاً ودرسوا المشروع جيداً.. في نفس الوقت الذي قيل فيه عن هذا الرجل اليوناني إنه مجنون، وهي صفة يشترك فيها مع كل أصحاب الأفكار الجديدة الجريئة في التاريخ!

وانتهينا من دراسة المشروع في سنة ١٩٥٦، وكل ما نحتاج إليه هو التمويل، وما نحتاج إليه حوالي ٤٠٠ مليون جنيه، ولا بد أن يساعدنا البنك الدولي وتساعدنا أمريكا وبريطانيا، ورد علينا البنك الدولي بأنه إذا ساهمت أمريكا فسوف يساهم مباشرة، وانجلترا قالت إذا اشتركت أمريكا فسوف نشترك أيضاً.

الموقف بوضوح هو: إذا أرادت أمريكا انفتح الطريق أمامنا في كل شيء. أما مساهمة انجلترا في هذا المشروع فقد أعلنت أنها على استعداد لدفع خمسة ملايين جنيه!

وهو مبلغ تافه جداً.. ولكن انجلترا تريد أن تساهم.. أي تحشر أنفها في المشروع أو تضع قدمها في المنطقة بصورة أو بأخرى. وهذا يذكرنا بما فعله دزرائيلي عندما دخل بكل قوته في شراء أسهم قناة السويس عند إنشائها وافتتاحها!

وفي ذلك الوقت كنا نتجه إلى أمريكا. وكان دالاس يحاور ويناور.. تارة يقول: إنه يدرس، وتارة يطلب التأني والصبر.. وأصبح واضحاً لدينا أنه يكسب الوقت ويضيعه علينا..

أنه يستعد لشيء لم نعرفه بوضوح. لكن لا نستبعد وقوعه، حتى كان يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ وأصدر بيانته الشهير الذى شهر فيه بمصر معلنا إفلاسها وعجزها عن بناء السد، وامتناع أمريكا عن المساهمة بشيء.. وبالتالي: البنك الدولى وبريطانيا!

وفجأة - وهذا شيء غريب وعجيب - التقط الاتحاد السوفيتى الكرة، وأعلن موافقته على تمويل وبناء السد العالى. وأقول: غريب وعجيب، لأن الروس عادة ليس عندهم رد فعل سريع. وإنما رد الفعل عندهم بطيء جدا ولا يتخذون أى قرار إلا بعد مناقشات ومشاورات وقرارات على كل المستويات، وتردد وتشكك.. ولكنهم هذه المرة قرروا بسرعة..

وتجربتى الطويلة معهم، والتى لا تزال مستمرة، تؤكد لى أنهم ينتظرون عادة بالسنوات دون أن يفعلوا شيئا. وقد شكنا جمال عبد الناصر كثيرا من هذا التباطؤ فى الفعل ورد الفعل، وأنا قد عايشته هذه التجارب المريرة.. فلم يحدث قط شيء كهذا الذى فعله الروس هذه المرة والمرة السابقة.

أولا: عندما وافقوا على مدنا بالسلاح.. هكذا فجأة.

وثانياً: عندما أخبرونى فى الحفلة التى أقامتها السفارة السوفيتية أن التعليمات الواردة من موسكو تعلن أن الروس وافقوا على تمويل السد وبنائه. شيء غريب. لم يتكرر بعد ذلك، ولن يتكرر.

وكانت فرحتنا الكبرى، وكان ذلك سندا عظيما لثورتنا، وفى احتفالات ٢٣ يوليو اشترك معنا وزير خارجية روسيا شبيلوف والقائد البريطانى الذى أتم معنا اتفاقية الجلاء، وفى حفلة أم كلثوم كان لكل شيء طعم جديد.. ولكن القائد الإنجليزى قد سمع بأذنيه كل الشتائم فى بريطانيا.. فأغانينا كلها طويلة اللسان، وهذا طبيعى أن يهاجم الفن الاستعمار والمستعمرين.

وتصاعدت المشاعر الوطنية، وزادت المسافة اتساعاً بيننا وبين أمريكا، وتقاربت المسافة بيننا وبين روسيا.. فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن أعلن يوم ٢٦ يوليو فى الإسكندرية «تأميم قناة السويس».

هنا أحس دالاس بأنه قد طعن على مرأى من العالم كله.

وكان دالاس هذا يصف عبد الناصر بأنه «صداع» المنطقة.. فإذا ذهب إلى مكتبه يسأل: ألا توجد أخبار عن هذا الصداع؟

وكان الرد على موقف مصر هو ما حدث في ٣٠ أكتوبر عندما تأمرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر. فكان العدوان الثلاثي. وقد اشتركت هذه الدول الثلاث لأسباب مختلفة.. وإن كان الهدف في النهاية واحدا.

فرئيس وزراء فرنسا جى مولىه هدفه: ضرب ثورة الجزائر التي تساندها مصر، وكان من رآيه أن ضرب مصر هو إجهاض لثورة الجزائر.

أما بريطانيا التي يرأس وزراءها أيدين، خلفا لتشرشل، فهي تريد العودة إلى المنطقة كلها. أما إسرائيل فهي إلى جانب رغبتها في توسيع رقعة أرضها، وإبعاد الخطر عنها إلى ما سمته بعد ذلك بالحدود الآمنة، فهي تريد أن تشارك في ضرب مصر قبل أن تستوعب السلاح السوفيتي الجديد..

لأنه من المعروف في «الفقه العسكري» أن القوات المصرية أو أية قوات تحتاج إلى سبع سنوات لكي تستوعب نظرية جديدة في السلاح.. فنحن لم نعرف كيف نفهم ونستخدم السلاح الجديد إلا بعد سبع سنوات كانت نهايتها سنة ١٩٧٣.. فقد كنا نحتاج إلى مثل هذا الوقت لكي نغير عقيدتنا أو فلسفتنا العسكرية من الغرب إلى الشرق.

وكان العدوان الثلاثي.. ففضى على سلاح الطيران المصرى تماما.. وإن كان جمال عبد الناصر قد بذل جهدا هائلا لكي يقنع الناس بأن العدوان الثلاثي قد حطم الطائرات الهيكلية. وليس هذا صحيحا، فقد سحقوا كل طائراتنا..

وجمال عبد الناصر قد أعلن أنه رأى من فوق بيته أنواع الطائرات التي هاجمتنا.. لقد كانت إنجليزية وفرنسية، ولذلك عرف من الذى يحاربنا فأصدر قرار الانسحاب المشهور.. وكان قرارا رائعا أدى إلى إنقاذ ثلثي القوات المصرية، وكان هذا القرار «ضربة حظ». فقد صادقه الحظ السعيد في ذلك.. ولم يكن قراره مثل ذلك القرار الذى أصدره المشير عبد الحكيم عامر سنة ١٩٦٧ نموذجا للاضطراب والفوضى، فقد تحقق لجمال عبد الناصر الانسحاب في ثلاثة أيام.

ولكن الصحف المعادية أعلنت أن الجيش المصرى كله قد أبيض تماما، أو أنه إذا كانت هناك قوات فهي رمزية. ولذلك دعونا الملك سعود والملك حسين إلى عرض عسكري في المأظة. وعرضنا عليهما فرقة مدرعات كاملة.. تكذيبا لما تقوله دول العدوان الثلاثي من أنهم قد قضا علينا نهائيا وإلى الأبد!

وهنا كان للروس موقف نذكره لهم.. فالعدوان الثلاثي لم يفلح في القضاء علينا ولم يحطم تلك العلاقة الجديدة بيننا وبين الروس. وبسرعة أيضا، باع لنا الاتحاد السوفيتي أسلحة جديدة تعويضا عن الذى خسره.

ويوم انسحبت دول العدوان الثلاثي من بورسعيد في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦، برزت عندنا مشكلة صارخة عاجلة: نحن فى حاجة إلى القمح والأدوية ومواد ضرورية كثيرة، وفى ذلك الوقت كان الحصار علينا شديدا محكما خانقا، وكنا فى حاجة إلى معونة سريعة. ورفضت أمريكا. وبذلك تم إحكام الخناق على أيدينا وعلى أعناقنا وعلى بطوننا، وإن لم يكن هناك خناق على أفواهنا وإرادتنا.

ويادر الاتحاد السوفيتي بسرعة وأعطانا القمح، وهذا قرار أدهشنى أيضا.. مع أننى طلبت منهم أشياء كثيرة ولا أزال، ولكن أحدا لا يرد.. وقد مضت على هذا الصمت الرهيب سنوات.. ولا أعرف سبب هذه المبادرة السريعة. ربما كان سبب ذلك أنهم كانوا أيامها طالعين فى الميدان الدولى، وكانوا فى حاجة إلى أن يظهرُوا فى موقف أحسن، وأن تتحسن سمعتهم لدى الشعوب العربية فتلتف حولهم بلا خوف.. ومثل هذه المبادرة السوفيتية بتحويل إحدى السفن المحملة بالقمح لتتجه إلى مصر كان له صدى عظيم. وأرسى للروس قواعد عميقة متينة فى المنطقة.

وفى ١٩٥٧ حشدت تركيا، تحت ضغط أمريكى، قواتها على حدود سوريا. وفوجئ دالاس وزير خارجية أمريكا بأن القوات المصرية قد وصلت إلى اللاذقية، دون أن يدرك الأسطول السادس الأمريكى شيئا من ذلك.

وكانت ضربة مباغتة!

وكان هذا الموقف المصرى، أحد أسباب الوحدة مع سوريا بعد ذلك.

وقبل ذلك كان جمال عبدالناصر قد واجه التحدى الأمريكى، وكان قد كسر احتكار السلاح، ثم انتصر على العدوان وأمم قناة السويس.. ولذلك أصبح أسطورة فى العالم العربى كله..

وفى سنة ١٩٥٨ فوجئنا بأن الاتحاد السوفيتي قد اتخذ موقفا معاديا.. فالاتحاد السوفيتي ضد الوحدة مع سوريا.. أى ضد هذا المد القومى فى المنطقة: ضد الوطنية ضد القومية.

وبسرعة هاجم خروتشيف الوحدة مع سوريا، وهاجم جمال عبد الناصر.. فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن قبل هذا التحدى، تماما كما قبل التحدى ضد دالاس.

== الشيوعية والحياة غير الإيجابية ==

وفى ذلك الوقت ألقى الاتحاد السوفيتى ثقله مع عبد الكريم قاسم قائد الثورة العراقية..
وكان عبد الكريم قاسم شيوعيا، وكان اسمه مدرجا فى جداول التنظيم الشيوعى.
وبنفس الغباوة السياسية التى دفعت بالروس أن يقفوا وراء عبد الكريم قاسم، وقفوا فى
مصر بعد ذلك وراء على صبرى وشعراوى جمعة. وغيرهم من التافهين.
ولا يدرك الروس، إلا بعد وقت طويل، أن الناس الذين اعتمدوا عليهم لا وزن لهم.. ولكن
هذه طريقتهم فى فهم الناس والاستعانة بهم..
وثار جمال عبد الناصر وراح يهاجم الشيوعية ويقاومها ويفند مزاعمها ويكشف عملاءها
فى مصر والمنطقة..



١ - محمد نجيب
وعبد الناصر والسادات
في اجتماع لمجلس قيادة
الثورة.



٢ - الرئيس جمال
عبد الناصر مع خروتشيف .



٣ - جون فوستر دالاس
وزير خارجية أمريكا
الأسبق ١٩٥٧ .





٤ - الرئيس الراحل
جمال عبد الناصر مع قادة
عدم الانحياز ، نهرو
وتيتو .



٥ - شوان لاي رئيس
الوزراء الصيني الأسبق .



غليان الجليد

■ خروتشيف يهاجم الوحدة بين مصر
وسوريا ويقول: إن العرب مائززون
أطفالا.

■ أطول ١٧ ساعة في حياة الزعيم جمال
عبد الناصر.

■ الاتحاد السوفيتي يرى في عبد الكريم
قاسم رجلا في المنطقة بعد أن كشف
عن وجهه الشيوعي

■ غليان الجليد أدق وصف للعلاقة بين
موسكو والقاهرة.

بالسوفيت غريبة. كانت ولا تزال. وسوف تبقى. لماذا؟ إن الأسباب كثيرة جدا. **علاقتنا** والقليل من هذه الأسباب هو الذى نعرفه. ولكن فى النهاية نحن دائما أمام لغز لا نعرف له أولا ولا آخر. فمرة نحس أن كل شيء انتهى. أن الجليد الذى بيننا قد ذاب. وأنه يمكن للإنسان أن يخوض فى الطريق الطويل الممتد بيننا وبينهم. ومرة نحس أن الجليد قد ذاب. ولكن هذا الجليد لم يكن سوى سطح بحيرة عميقة جدا. فإن الجليد قد ذاب ليخلى مكانه لعائق مائى هائل. ومرة ثالثة نحس أن الجليد قد ذاب ولكنه تحول إلى انهيارات جليدية أكثر خطورة من السير على الجليد، وأصعب على النفس من الانتظار الطويل حتى يذوب الجليد. ومرة نحس أن الأفضل أن يظل الجليد على ما هو عليه. فهذا أوضح. أنك ترى أمامك طريقا صحراويا أبيض. أو ترى أمامك جبلا من الجليد يعترض طريقك فتدور حوله، أو تتفاداه. ولكن الإنسانية قد عرفت وبصورة عنيفة جدا ماذا حدث عندما اصطدمت السفينة الهائلة تيتانيك بجبل من الجليد فى المحيط الأطلسي. فعندما اصطدمت به فوجئت بأن هذا الجبل قد ظهر رבעه على سطح الماء أما بقية الجبل فقد كانت تحت الماء. فقد ظهر الجبل كله وأغرق السفينة. يومها فقط، وبثمن فادح جدا، عرف الناس أن الجليد إذا كان جبلا واضحا، فإن الجزء الأكبر منه ما يزال خافيا تحت الماء.

ومن قراءة تاريخ الحروب فى روسيا نجد أن الجليد هو المنقذ الأعظم. فهو الذى أنقذ روسيا من قوات نابليون. بل إن الجليد هو الذى دفن قوات نابليون فى هذه الغلالة البيضاء. وهو أيضا الذى دفن قوات هتلر مرة أخرى. إن الجليد صديق الروس دائما، وفى الحروب يوصف الشتاء بأنه «الجنرال» فيقولون: وجاء الشتاء أعظم الجنرالات. أى إنه إذا جاء الشتاء فقد انحسم الموقف لصالحهم. والشتاء جنرال لأنه يملأ الجو بالبرودة لصالح الروس. فإذا كان الشتاء جنرالا، فإن الجليد ماريشال.

ولكن يبدو أن الجليد الذى يتزحلق عليه الناس ويجعلونه كرات يلعبون بها.. ما تزال له صور أخرى يصعب فهمها. ولكن أبناء الجليد، وخصوصا الروس يجيدون اللعب بها وعليها.

من ذلك لعبة أخرى لا أعرف كيف أسميها. وإن كنت أختار لها اسما مؤقتا هو «غليان الجليد».

فاللعبة بيننا وبين السوفيت هي أنهم كانوا يحاولون أن يقدموا لنا الجليد وهو يغلى.. شيء غريب.. فهو جليد، ولكن يريدون أن يجعلوه يغلى ويحتفظ في نفس الوقت بكل صفات الجليد الباردة.. كيف؟ هذه هي براعتهم في إبقاء الجليد جليدا، وفي نفس الوقت يغلى دون أن يذوب وهي لعبة من أقسى ما عرفت في تاريخ العلاقات بين موسكو والقاهرة.

ولى تجربة خاصة لا أنساها: كان ذلك في سنة ١٩٥٦ وكنا قد أممنا القناة. واهتز العالم العربى والدول الغربية. وتربص بنا الاستعمار وكان ما كان مما هو معروف لدينا جميعا.. ولكن فى ذلك الوقت سافرت إلى باكستان. وكانت باكستان تتجهياً لتغيرات عنيفة فى السلطة. فكان على رأس باكستان غلام محمد. كان مريضا مثلولا. وكانوا يفسرون ما يقوله بالنظر إلى حركة شفتيه. وكان معروفا أن الرجل لا يستطيع أن يستمر فى هذا الوضع. فالظروف عنيفة. والتفسيرات مطلوبة. والرءوس تطل من كل مكان تريد أن تقفز إلى مقعد الرجل، أو تلقى به وبمقعده، وتأتى بجديد من المقاعد أو من الناس. وقد حدث ذلك.

فوزير الداخلية فى ذلك الوقت هو اسكندر ميرزا. وكان صديقى كما أن غلام محمد صديقى أيضا، وقد تقابلنا قبل ذلك بعام فى المؤتمر الإسلامى. واستولى الجنرال اسكندر ميرزا على السلطة. وكان ذلك طبيعيا. ويوم حلف اليمين، وصلت أنا إلى باكستان.

وكانت باكستان قد وجهت الدعوة إلى السوفيت لحضور حفلة اليمين. وأوفد السوفيت ميكويان. وكانت فرصة أن ألتقى به وأن أشرح قضيتنا من جديد. فنحن فى حاجة إلى أن نشرح وأن نقول وأن نعيد ونزيد. وتم اللقاء بيننا. وكان ذلك فى مبنى السفارة السوفيتية. وكما هى عادتهم دخلنا بابا من وراء باب.. والأبواب كلها بسرعة تنفتح، وب نفس السرعة تنطبق وراءنا.. وهذه عادتهم، لا يقابلون أحدا خارج السفارة ولا يتصلون بأحد. وكان عندى تصور عام لموقفنا ولوقف السوفيت. وكان من الضرورى أن أطلبه بأن يكون للروس موقف واضح. فالوضوح مشكلة المشاكل بيننا وبين السوفيت. إنه ليس ضبابا ذلك الذى بيننا، إنه الجليد بمعانيه وصوره وأشكاله وأحجامه المختلفة المحيرة.. وقلت لميكويان أيضا: إننا فى حاجة إلى تأييد السوفيت. وأن يكون التأييد واضحا للعالم كله. وبدون هذا التأييد سيزداد موقفنا صعوبة. وتزداد علاقتنا تعقيدا وغموضا.

وكننت أطمع فى أن أحصل على مجرد «إعلان» عن هذا التأييد من السوفيت.. فقط «الإعلان».. وطبعاً مفهوم أن السوفيت إذا أعلنوا فلا بد أن يكون هذا الإعلان له مضمون. أى ليس المطلوب مجرد كلام، وإنما إعلان عملى. وبذلك يصبح دورهم نشيطاً معنا أو فى المنطقة كلها.

ولكن الذى سمعته من ميكويان هو أنه لا مانع من مجرد «الإعلان» أى مجرد النية الطيبة. ولا شىء بعد ذلك. ولكنى كنت أتصور فى ذلك الوقت أنه ليس من المعقول أن يجيء الإعلان فارغاً.. أن يجيء الإعلان بياناً أجوف.. فقد تمنيت استدراج السوفيت إلى إعلان، وعلى السوفيت أن يواجهوا العالم بعد ذلك.. وعليهم وحدهم أن يجيبوا عن تساؤلات العالم كله: هل هو إعلان فقط، هل هى مناورة؟ هل السوفيت يلوحون ويهوشون؟ هل هم جادون؟

ولكن ميكويان، كأى سوفيتى كبير مسئول فاهم سياسة بلاده ومناوراتها، لم يوافق على هذه الفكرة، وعلى رغم ذلك فقد أصدرنا بيانات تأييد لها كلمات تطن، ولها عبارات ترن. هذا كل ما يريدون. وكنا نطمع فى أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك، أو حتى يتورطوا إلى أعظم من ذلك. ومن المؤكد أننى لم أطلب من السوفيت أن يتورطوا إلى درجة إرسال قوات سوفيتية تحارب معنا. أنا أعرف أن ذلك مستحيل. ولكن كنا نتمنى أن يعلنوا عن فتح باب التطوع المسلمين فى داخل الاتحاد السوفيتى.. فى روسيا جمهوريات إسلامية فلو سمحوا لأبنائها بالتطوع للوقوف إلى جوارنا، لكان موقفنا مخيفاً لخصومنا.

وفى ذلك الوقت كنا قد اشترينا السلاح الروسى، وبدأنا نتدرب عليه. والتدريب شاق وطويل وكنا فى حاجة إلى طيارين، فلو جاءنا طيارون، لكان ذلك عوناً لنا فى موقفنا الصعب.

ويبدو أن هذه المطالب لم تكن مقبولة من أولها إلى آخرها وعدت أطلب من ميكويان فى جلستنا التى طالعت أن يعلن الاتحاد السوفيتى «فقط» عن فتح باب التطوع أو أنه لا يمانع فى ذلك. وأكدت لميكويان أن هذا الإعلان سوف يكون عنصراً جديداً يهز المنطقة حولنا، ويرهب المعسكر الغربى، ويهدد بعمليات حربية أكبر، أو بمواجهة بين المعسكرين؛ فكل ما طلبته هو مجرد أن نرفع درجة حرارة الجو السياسى والعسكرى.

ومن المؤكد أن السوفيت لو وافقوا على فتح باب التطوع لجاءنا الكثير. ولكن ميكويان رفض التطوع ورفض فكرة الإعلان عن ذلك.

ولابد لى أن أتساءل عن مثل هذه المفردات التى يسرف السوفيت فى استخدامها معنا: الصداقة.. والدعم.. والتعايش السلمى.. والسلام.. ومساندة الاشتراكية والوقوف بصلابة فى

وجه المحاولات الإمبريالية لاحتواء الثورات الشابة.. إلى آخر مثل هذه المفردات. وبعد ذلك لا بد أن أتساءل: ما الذى فعلوه، وما الذى كان فى استطاعتهم أن يفعلوه ثم عدلوا عنه.. والمراجعات المستمرة لسلوكهم العام.. وأين هم من الأصدقاء وأين نحن من أعدائهم؟

أعود مرة أخرى إلى ما كان بين السوفيت وجمال عبد الناصر، وهو أشد عنفا من هذا. وإن كان المعنى واحدا. والسلوك واحدا. ونوعيات الجليل المستخدمة على كل الطرقات من كثافة واحدة.. فخروتشيف قد هاجم الوحدة بين مصر وسوريا التى تمت فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨. ومن المنطقى - ماركسيا - أن يفعل ذلك. فهم - أى الشيوعيون - ضد القومية. وهم ينادون بتذويب القوميات، أى بالقضاء عليها تماما.. أى بتذويبها أو تمييعها أو إعدامها فى بناء «أممى» «شعوبى» واحد كما يقولون. وكان موقف خروتشيف عجيبا. فقد جاءت عباراته عنيفة. وكانت مفاجأة لنا.. ما الذى أصاب الرجل؟ ما هى الجريمة التى ارتكبتها مصر؟ أو ارتكبتها ملايين المصريين والسوريين؟ أليست هذه الوحدة ضد الاستعمار. ضد الغرب.. أليست هذه ثورة وراء ثورة ضد الإمبريالية.. أليس هذا سدا منيعا ضد الغرب الذى طرد من هذه المنطقة.. ثم من الذى يمكن أن يستفيد من الثورات الشابة بالمعونة والمصادقة والرعاية. شىء عجيب. ولكن بدأنا نتعود على العجائب فى علاقتنا مع السوفيت.

ومن المناسب أن أراجع إلى الوراء قليلا لأرى الصورة أوضح.. فقد كانت حملات خروتشيف فى سنة ١٩٥٩.

ولكن شيئا حدث فى صيف ١٩٥٨ يستحق التسجيل والتأمل أيضا.

فى صيف ١٩٥٨ سافر جمال عبد الناصر على ظهر السفينة «المحروسة» إلى يوغوسلافيا. وكانت معه أسرته والدكتور محمود فوزى. انتهت الزيارة فى هدوء. وعاد جمال عبد الناصر مستريحا بمناقشاته مع تيتو. ولكن عند عودته، مارا ببحر الأدرياتيك اتصل به الرئيس تيتو وأخبره أن ثورة اندلعت فى العراق. وأن البحر الأبيض لم يعد آمنا. وخير له أن يعود. وتناقش جمال عبد الناصر مع د. محمود فوزى وقرر أن يعود إلى يوغوسلافيا ومنها إلى موسكو. وركب جمال عبد الناصر إحدى المدمرات اليوغوسلافية التى كانت تحرسه وعاد بها إلى ميناء بولا اليوغوسلافى. وركب طائرة نقلته إلى موسكو. ومفهوم طبعاً أن سفر جمال عبد الناصر إلى موسكو هو سفر صديق إلى الدولة العظمى الصديقة. فهو يريد أن يعرض وجهة نظره وأن يطلب من السوفيت المساندة والوقوف وراء التطور الجديد فى المنطقة.

ولم تكد الطائرة تصل إلى حافة مطار موسكو، حتى انتقل جمال عبد الناصر بعيداً عن العيون إلى خارج موسكو. وهناك التقى بخروتشيف في فيلا أو شاليه يسمونه «داتشا».

وفى هذا المكان الهادئ الجميل الأنيق، اجتمع جمال عبد الناصر بخروتشيف أكثر من ١٧ ساعة. ولم يتعب جمال عبد الناصر من شرح كل شيء لخروتشيف.. ذلك الحليف الذى يساند مصر. فشرح له الأنظمة الموجودة فى المنطقة. الأنظمة التى يخشى منها على ثورة العراق.. ويخشى أن تصبح هذه الأنظمة نقطا للوثوب والانقراض على الثورة العراقية الجديدة.. ففى لبنان كان كميل شمعون وهو عميل انجليزى. وفى الأردن الملك حسين ابن عم الملك فيصل ملك العراق الذى قتل فى الثورة. وكانت هناك وحدة قامت بين العراق والأردن رداً على وحدتنا مع سوريا. ولم يترك جمال عبد الناصر شيئاً فى نفسه لم يقله لخروتشيف.

وعاد جمال عبد الناصر من موسكو إلى دمشق. واحتشدت الجماهير لتعرف ماذا حدث ومعنى ما حدث. وأين مصر من هذا الذى حدث فى العراق، وما موقف الدولة الكبرى. وجاء جمال عبد الناصر وأعلن من شرفة قصر الضيافة فى دمشق أنه لا خوف على ثورة العراق ولا هم يحزنون. وأن الاتحاد السوفيتى، كعهده دائماً، يقف وراء انتفاضات الشعوب. وأن الوقوف وراء ثورة العراق هو وقوف ضد الاستعمار الذى يريد أن يخنق الشعوب وفى نفس الوقت ضد الأحلاف الغربية العسكرية التى تريد تطويق الاتحاد السوفيتى.

وكانت فرحة الجماهير العربية لا توصف فقد ذهب جمال عبد الناصر وقال وسمعوه ووعدوه وعاد ملئ القلب والجيب بكل إمكانيات السوفيت بعمل شيء من أجل سلامة ثورة العراق التى قامت ضد الرجعية العربية ومتأثرة بثورة مصر وعلى منوالها..

هذا هو الذى رآه الناس فى الشرق والغرب، والذى أعلنه جمال عبد الناصر بحماس شديد من شرفة قصر الضيافة. فجمال عبد الناصر، وأى زعيم عربى، لا يطمع فى أكثر من هذا الذى حصل عليه من السوفيت.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً !!

فجمال عبد الناصر عندما كان يؤكد للناس أن يطمئنوا، لم يكن هو نفسه كذلك. وعندما راح جمال عبد الناصر يزف للأمة العربية موقف السوفيت الصلب وراءهم، كان ينزف دماً.. فلا شيء من هذا الذى قاله وأعلنه صحيح.. وعليك أن تتصور شكل زعيم يواجه الملايين ويقول ويصفقون له ويصرخون من شدة الفرحة، وهو يعلم والسوفيت يعلمون أن هذا كله لا أساس له من الصحة أو الصدق !!

وأنا سمعت تفاصيل ما جرى في الـ ١٧ ساعة من جمال عبد الناصر شخصيا. فقد قال لي جمال عبد الناصر إنه حاول إقناع السوفيت بالوقوف وراء ثورة العراق. وأن هذه الثورة هي كسر لحزام الأمان الذي وضعه الأمريكان حول الاتحاد السوفيتي. وأن هذه الثورة قد قامت ضد سياسة الأحلاف.. ضد احتواء الغرب لروسيا. ولم يشعر جمال عبد الناصر بمرارة وتعاسة في حياته كلها.. كما شعر بعد وأثناء الـ ١٧ ساعة التي أمضاها مع خروتشيف في أجمل مكان في روسيا..

كل شيء كان حول عبد الناصر مختلفا عنه: كان ثائرا صارخا، «والداتشا» هادئة، كان قلقا والماء في البحيرة ساكن، كان في حالة من الفزع، والوجوه حوله جامدة. كان يقول.. وكأنه لا يقول.. ولم يفلح جمال عبد الناصر في أن ينقل مخاوفه إلى خروتشيف أو مساعديه. فقد كان هناك خوف على ثورة العراق.. كان هناك خوف أن تنقض عليها أنظمة عميلة أو يحدث انقلاب في العراق أو تمرد. أو تمزق.

وبعد ١٧ ساعة مريرة، - أطول ١٧ ساعة في حياته - كما قال لي بالحرف الواحد. هز خروتشيف رأسه، وأحس جمال عبد الناصر أن خروتشيف سوف يقول شيئا يريحه بعد المرافعة الطويلة، ولكن خروتشيف قال له: ممكن.

وتساءل جمال عبد الناصر: ما هو هذا الممكن؟

قال خروتشيف: أن نتخذ موقفا.

قال عبد الناصر: الحمد لله ما هو؟

قال خروتشيف: نستطيع أن نحشد قواتنا.

قال عبد الناصر: عظيم!

قال خروتشيف: على حدود تركيا.

قال عبد الناصر: على حدود تركيا؟! ولكن لماذا؟

قال خروتشيف: لتخفيف الضغط ولتحويل الأنظار.. ما رأيك؟.

ولم يكن لجمال عبد الناصر رأي بعد هذا كله. فلم يكن يتوقع بعد هذه المرافعات والمحاکمات والاستعراضات والمرخات والنداءات والتوسلات أن تسفر كلها عن مظاهرة عسكرية.. أي عن قوات روسية تتحرك في داخل روسيا لتقف على حدود روسيا تدعمها لثورة العراق. هل هذا كل ما يستطيعه الروس.

وتساءل عبد الناصر: لا شيء أكثر من ذلك؟

وكان رد خروتشيف: لا شيء أكثر من ذلك.

قال عبد الناصر: وعلى رغم كل الذى قلت وشرحت .

وكان رد خروتشيف: على رغم كل ذلك.

وعاد عبد الناصر يقول: إنها فرصة أمام الاتحاد السوفيتى للقضاء النهائى على العملاء وعلى أعوانه.. ثم إنها خطوة تجذب كل شعوب المنطقة فتلتف حول روسيا.. إنها فرصة لا يمكن تعويضها. ولكن خروتشيف هز رأسه.. وازداد وجهه احمرارا وعينه أيضا.. وحرك يديه الصغيرتين. وقال: فهمت.

وسأله عبد الناصر لآخر مرة: ما الذى فهمت؟ وكان الرد الأخير: أنه لابد من مظاهرة عسكرية على حدود تركيا لساندة ثورة العراق ضد الأحلاف الإمبريالية!

وفى شرفة قصر الضيافة فى دمشق واجه عبد الناصر الملايين، وأخفى جرحه ومرارته وقال شيئا آخر.. ولم يشأ أن يكشف عن هذه الطعنة التى أصابته فى أعماق أعماقه! ولكنه ادخرها لما بعد. وكان خروتشيف هو البادئ بعد ذلك.

فعندما تمت الوحدة مع سوريا.. وعندما انكشف الوجه الحقيقى لثورة العراق. فلم يكن عبد السلام عارف هو الثورة أو هو الثائر وإنما كان هناك عبد الكريم قاسم. وكان شيوعيا معروفا مسجلا فى قوائم الحزب الشيوعى. هنا فقط أدرك الاتحاد السوفيتى من هو رجلهم فى بغداد أو فى المنطقة. ووقف الاتحاد السوفيتى وراء عبد الكريم قاسم. وهاجم مصر بوضوح. وأعلن خروتشيف استخفافه واستهجانته لهذه «الوحدة» بين مصر وسوريا.. هذه الوحدة «العربية».. وأن هذا مظهر من مظاهر التكتلات البدائية الساذجة المتخلفة.. فالعرب ما يزالون أطفالا.. يجتمعون تحت كلمة اللغة أو الدين أو القومية إلى آخر هذه «الهلوسات» السياسية كما يقول خروتشيف.

أما جمال عبد الناصر فقد قبل هذا التحدى العنيف من الاتحاد السوفيتى. وهاجم الاتحاد السوفيتى. وطلب منى جمال عبد الناصر وكنت أيامها رئيسا للاتحاد القومى أن أشرح للناس فى مصر أبعاد هذه المهزلة والمأساة معا. وذهبت أخطب الناس من القاهرة إلى أسوان. وحاول الأمريكان فى ذلك الوقت أن يتصلوا بجمال عبد الناصر فى دمشق. ولكن المعركة استمرت مصرية ضد السوفيت.

وما لبثت هذه المعركة أن هدأت.. انخفضت درجة الحرارة.. زال البخار والضباب معا. ووضح الطريق. وتوقفنا عن مهاجمة روسيا، وأمسك خروتشيف لسانه.

ولكن هذا الهدوء كان نسبيا. لم يطل. وكان الطبيعي هو أن يكون خلاف وتشنج في علاقاتنا مع السوفيت.. ولا أعرف الآن بوضوح إن كانت «شعرة» معاوية بن أبي سفيان يمكن أن تكون وسيلة للاتصال بيننا وبين السوفيت.. فمعاوية هو الذى قال: لو كانت بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت! كيف؟ يشرح معاوية ذلك وهو رجل سياسى داهية: إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها.

وهكذا تظل «شعرة» الصداقة أو المصلحة لا تنقطع.. مهما بلغت درجة شدّها أو درجة تركها. ولكن يبدو أن هذا كلام يقال. ولكنه عمليا شىء صعب جدا. خصوصا إذا كان طرف الشعرة يمسكه السوفيت.. والأدلة على ذلك كثيرة، كما سنرى.

وأول ما يصادفنا بعد هذا الهدوء، أن وقع الانفصال بين سوريا ومصر سنة ١٩٦١ - وقع الانفصال. وهنا انطلق لسان خروتشيف وهو لسان طويل. ويبدو أن هذا الرجل لم يطق صبرا على هذا الصمت المريب الرهيب. وخروتشيف هو أول زعيم فى العالم يخلع جزمته ويدق بها منصة الأمم المتحدة.. فى حالة غضب. ويبدو أنه من ذلك الطراز من الناس الذى لا يعرف كيف يخفى لسانه أو حذائه إذا ما أتيحت له الفرصة. وجاءت الفرصة. انفصلت سوريا عن مصر وأعلن خروتشيف: ألم أقل لكم أيها العرب السذج؟ وكان يقصد جمال عبد الناصر طبعاً.

ودخلنا فى معركة جادة مع السوفيت.. فقد كان جمال عبد الناصر فى حالة أليمة، فالوحدة قد انهارت فجأة، والسوفيت شامتون إلى هذه الدرجة وغير السوفيت فى مصر وفى البلاد العربية.. ولا يستطيع جمال عبد الناصر أن يبتلع هذه المرارة، ولا أن يسكت عليها. وفى مواجهة هذا الانهيار من الخارج والتنسيق من الداخل، كان لابد من إقامة بناء فكري يمسك مصر ويهدى خطاها نحو العمل الوطنى وبناء حاضرها ومستقبلها! فجاء «الميثاق» فى مايو سنة ١٩٦٢. واحتوى الميثاق على نظرة محددة لبداية مرحلة جديدة فى العمل الداخلى.

وطرأت على الميثاق تعديلات كثيرة.

ولكن الذى يهمنا الآن، ونحن نتابع العلاقات السوفيتية، أن نذكر أنه حدثت اجتهادات ومزايدات وتزييفات كثيرة للميثاق وما جاء فيه.

وأصبح الميثاق لعبة جديدة يتسلى بها الماركسيون فى مصر.. فقد استغلوا بعض العبارات التى تحدثت عن «الاشتراكية العلمية» وجعلوا الميثاق من أوله إلى آخره نوعاً من «البيان الشيوعى» الذى أعلنه كارل ماركس وإنجلز فى منتصف القرن الماضى.. وقالوا: إنه ماركسى صميم، وقالوا: اشتراكى علمى معتدل، وقالوا: اشتراكى إسلامى.. وقالوا: بل اشتراكى عربى وحدوى.

وطبيعى جداً أن يسعد السوفيت بالتفسيرات الماركسية للميثاق.. ولذلك كان السوفيت يشجعون جداً هذه الألعاب البهلوانية التى تقدم بها الماركسيون فى تفسير الميثاق وتحميله أكثر مما يطيق.. وترنحت مصر بين هذه الآراء التى لخبطت عقول الناس. وبدأ الخوف يساور الجميع: أين نحن من هذه الماركسية؟ أين تقاليدنا؟ أين ديننا. أين كل ماضينا؟ وما مقدساتنا أمام هؤلاء المبشرين الجدد.. ولكن ظل الميثاق بتفسيراته الجديدة، سيفاً على رقاب الناس. والناس معذورون فى هذه الحيرة.

وفى ذلك الوقت قامت ثورة اليمن بعد عام من وقوع الانفصال فى سوريا. الانفصال كان فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦١ والثورة اليمنية فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢. وساعدنا الاتحاد السوفيتى على تدعيم الثورة اليمنية. وكانت دموع الانفصال وأحزانه قد تلاشت من النفوس واتجهت الأنظار إلى شىء جديد فى اليمن. ومضى السوفيت أيضاً يساعدوننا فى بناء صرح الصناعة المصرية، ومضى أيضاً فى بناء السد العالى.. لم يتوقف عن تزويدنا بالمصانع الثقيلة، ولا عن إرسال الأدوات والمعدات لبناء السد العالى. كل شىء مستمر.. البلبلة الماركسية فى مصر، وتوريد السلاح، وبناء المصانع، وبناء السد العالى.. كل شىء نشيط على جميع الجبهات. وعلى الإنسان أن يجدد حيرته وقلقه إذا كان قد نسى أن يفعل ذلك.

وكان من الطبيعى أن يحدث شىء آخر فى مصر، فى داخل مصر.. والذى حدث يمكن اعتباره تحولاً داخلياً.. فقد اختار جمال عبد الناصر رئيساً للوزارة على صبرى. وعلى صبرى كان مديراً لمكتب جمال عبد الناصر. وبحكم هذا المنصب يعرف الكثير من الأخبار والأسرار. وبحكم هذا المنصب يقرأ كل الأوراق ذهاباً وإياباً.

وبقى على صبرى رئيساً للوزارة من سنة ١٩٦٢ حتى سنة ١٩٦٥، وفى هذه الفترة بدأنا نضع الخطط الطموحة للصناعة المصرية الثقيلة، وفى نفس الوقت كان يقوم هو وآخرون «بمركسة» الميثاق.. حتى يصبح اسم الميثاق «الميثاق الماركسى للعمل الوطنى» أو «الميثاق الوطنى للعمل الماركسى».. أو «الميثاق الماركسى» فقط..

والغريب أن على صبرى هذا لم تكن له علاقة بالماركسية، لا تفكيره ولا نشأته.. لقد كان أبعد ما يكون عن الماركسية.. ولكن الضرورة لها أحكام. ومن أحكام الضرورة أن يكون ماركسيا أو داعية لها. والتف حوله كثيرون من الماركسيين. ولم يكتف الماركسيون بالدوران حوله؛ وإنما تسللوا إلى أماكن كثيرة ومراكز رئيسية. وأكثر من ذلك أقيمت المعاهد الماركسية.

وعلى الرغم من أن جمال عبد الناصر قد عارض الماركسية وأكد أن بيننا وبينها فروقا جوهرية كثيرة. وأنا أؤكد أنه لم يكن ماركسيا، وإلا كان قد أعلن ذلك؛ لأنه رجل شجاع، ولكنهم أخذوا من الميثاق ما يعجبهم وبالفوا فيه، وتركوا ما لا يعجبهم أو ما لا يخدمهم وبالفوا في عدم أهميته.. ومن الفروق الواضحة التى أشار إليها جمال عبد الناصر فى الميثاق. ثلاثة:

أولا: أننا نرفض سيطرة طبقة على طبقة كما تريدنا الماركسية التى تنادى بدكتاتورية الطبقة العاملة وسيطرتها على كل الطبقات.

وثانيا: أن لدينا دينا سماويا.. وأن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة.

وأن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة. وأن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته، وأن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته.

وفى الميثاق أعلن جمال عبد الناصر أيضا: أن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية. فقد كانت جميع الأديان ذات رسالة سامية تقدمية، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تلتتمس فيه ما يتعارض من روحه ذاتها، لكى توقف تيار التقدم.

«إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان فى الحياة وفى الحرية، بل أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان، إن كل بشر يبهأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر، ولا يرضى الدين بطبقه تورث عقاب الفقر والجهل

== غليان الجليد ==

والمرض لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم.. إن الله - جلّت حكمته - وضع الفرص المتكافئة أمام البشر أساسا للعمل في الدنيا وللحساب في الآخرة..».

وعلى الرغم من هذا الإلحاح الشديد في الميثاق على قداسة الدين والإيمان بالله، وتقديس القيم الرفيعة، فإن دعاة الماركسية قد طمسوا هذا الميثاق وحولوه إلى وثيقة شيوعية ملحدة.

ثالثا: والفارق الثالث بيننا وبين الشيوعية الذي ذكره الميثاق أيضا هو: لا ملكية في النظام الشيوعي. فكل شيء تملكه الدولة. والناس جميعا خفراء وبوابون على كل شيء.. ثم إن الدولة تملك كل وسائل الإنتاج ولكن نحن نقول: إن الدولة تسيطر على وسائل الإنتاج وفرق كبير جدا بين أن تملك الدولة كل وسائل الإنتاج، وبين أن تكون لها سيطرة عليها..

وبعد ثلاث سنوات من رئاسة على صبرى للوزارة ضجت الدولة كلها وصرخ الشعب. فقد شكك هذا الرجل في كل شيء، وراح يستعدى الناس بعضهم على بعض.. ويقلب ويؤلب الطبقات.. إنه هو أيضا يريد أن يجعل الجليد يغلى.. أو يدفع البلد إلى حافة الهاوية أو إلى الهاوية تحت قدمى السوفيت. ولما تعالت الأصوات من هذا التضليل في الصحف وأجهزة الإعلام والتجمعات السياسية والمعاهد الاشتراكية أتى جمال عبد الناصر بذكريا محبى الدين رئيسا للوزارة بدلا من على صبرى.

ولكن في سنة ١٩٦٤ أى قبل تنحية على صبرى زارنا خروتشيف في الإسكندرية. ورأى الرجل ما لم يتوقعه من حفاوة المصريين، وعاد إلى بلاده ليجد شيئا آخر لم يكن يتوقعه: أنزلوه من فوق العرش الأحمر.. وأجلسوه، تمشيا مع تقاليدهم المعروفة على دكة خشبية في حديقة مهجورة... حتى الموت!





١ - خروتشيف: وخطاب
ضد ستالين .



٢ - جمال عبد الناصر
مع القادة الروس في زيارته
لوسكو .



٣ - ميكويان: حاول
السادات إقناعه بإعلان أي
شيء ولكنه رفض !

٤ - جمال عبد الناصر
وعبد السلام عارف .



٥ - عبد الكريم قاسم
الرئيس العراقي الأسبق .





الاعيب سوفيتية

- حقيقة الرسالة التي تسلمها عبد الناصر أثناء إلقائه خطاب التنحي .
- كانت الحفاوة العظيمة لخروجه في الأسكندرية بداية النهاية له .
- الاتحاد السوفيتي يوافق على حذف نصف مديونية مصر .
- في قصر القبة اقترب مني زخاروف وقال: لو كل سلاح معكم أطلق طلقة لانتهدت الحرب .

الضروري أن أنبه إلى طبيعة العلاقات السوفيتية المصرية من حين إلى آخر.. فهي **من** ذلك النوع الذي يقتضيك أن تتلفت وراءك كلما مضيت فيها قليلا أو كثيرا لكي تعرف أين ذهبت وكيف اتجهت.. لأنها لم تمش في خط واحد.. أو حتى خط مستقيم.. وهو خلاف.. أساسه كما قلت أكثر من مرة يرجع إلى طبيعة السوفيت أنفسهم وإلى طبيعتنا.. وإلى سوء ظنهم الدائم بغيرهم من الناس.

وسوف أتلفت ورائي وأطيل النظر والانتظار لنعرف أين نحن الآن.. قبل أن أنتقل إلى محطة هامة أو منعطف خطير في علاقة السوفيت بنا وبالشرق العربي كله.

فنحن لا نزال في عصر خروتشيف الذي زار مدينة الإسكندرية في أواخر أيامه.. وكان يتوقع شيئا آخر غير الذي رآه. فقد استقبله الشعب بحرارة شديدة.. وكانت مفاجأة كبرى لخروتشيف. هذه المفاجأة دلت أيضا على فارق واضح بين فهم الجماهير للأمور وفهم القيادة السوفيتية أيضا. ولابد أن خروتشيف قد كان سعيدا بهذا الاستقبال بقدر ما كان مندهشا.. ولكن لا سعادته طالت ولا دهشته انتهت.. إنما هي نهايته الحقيقية.. فعندما عاد الرجل إلى بلاده ومعه أفلام الاستقبال والحفاوة تحركت القلوب ضده وتلاقت وراء ظهره الخناجر وأطاحوا به.. وأحس الزعماء السوفيت أن الرجل الذي أزاح مالنكوف وأخرج ستالين من قبره ومزقه وأزال تماثيله واتهمه بالخيانة العظمى، هذا الرجل يريد أن يكون ستالين جديدا.. يريد أن يكون الواحد الأحد في الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشيوعي في العالم.

فقد أصبح خروتشيف نجما عالميا فمواقفه مع جون كنيدي ومعاركه ومناقشاته الحادة وسخرياته اللاذعة.. وملاحمه الروسية البحتة والصور التي حرصت صحف الغرب على أن تنشرها له كالدب الروسي.. أو كالامبراطور الأحمر.. لقد جعله الغرب نجما عالميا إذا ما قورن بالرئيس الأمريكي كنيدي الذي قتل في نوفمبر ١٩٦٣ وقد لحقه خروتشيف في العام التالي.. والسوفيت لم يقتلوا خروتشيف وإنما خلعوه بعنف وألقوا به إلى النهاية المعروفة

والمعترف بها عندهم.. أسقطوه من العرش والأبهة والفخامة ووضعوه بمنتهى الهدوء والبرود على دكة خشبية في حديقة مهجورة ينتظر الموت!

ولكن نهاية خروتشيف هذه شيء طبيعي كما قلت من قبل. ولكن عصر خروتشيف ترك أثراً بالغاً على علاقتنا بالسوفيت وعلى علاقة السوفيت بالشرق الأوسط. ولذلك أرى أن أقف وأنظر ورائي وأطيل النظر قبل أن أدفع بالأحداث أو تدفعنا الأحداث إلى علامات جديدة في هذا الطريق.

من المعروف أن وفاة ستالين قد أحدثت تغيراً كبيراً في سياسة السوفيت في الشرق الأوسط فقد كان لهم دور في الصراع العربي الإسرائيلي عندما اتخذوا جانب العرب بشكل ما. ولكن هذا الشكل لم يتضح إلا بعد أن قام خروتشيف بتنحية مالنكوف رئيس الوزراء السوفيتي في فبراير سنة ١٩٥٥.

وبين ستالين وخروتشيف خلافات كثيرة في الشخصية وأسلوب العمل وإن كان الاثنان لهما منطلق واحد. فستالين كان يرى الدنيا - كما قلت - معسكرين اثنين فقط: كتلة شيوعية وكتلة رأسمالية. ولكن خروتشيف يختلف عنه قليلاً فهو يرى الدنيا ثلاث كتل: كتلة شيوعية وكتلة رأسمالية وكتلة العالم الثالث. وكان يرى أنه من السهل احتواء العالم الثالث عن طريق المعونات العسكرية والاقتصادية وهذا التصور هو الذي كان مصدر المتاعب للسوفيت ولنا وللعالم الثالث.

ومن مفارقات القدر أن يكون وزير خارجية أمريكا الجديد فوستر دالاس من رأى ستالين وليس من رأى خروتشيف. فهو أيضاً يرى الدنيا ككتلتين: الرأسمالية والشيوعية ولا ثالث لهما، إما معه وإما ضده، وكان على هذين الرجلين دالاس وخروتشيف أن يتعاملا ويتفاهما ويقسما السياسة الدولية وفي نفس الوقت ألا يدفعهما الخلاف إلى المواجهة العسكرية أو التصادم في المناطق الساخنة أو الباردة من العالم.

ولذلك عندما حاول دالاس أن يضم بعض الدول العربية في حلف عسكري ضد الروس، أدى ذلك إلى صدام مع هذه الدول العربية ولكن عقلية دالاس لا تستطيع أن ترى وسيلة أخرى لتكتيل المعسكرات غير «حشر» الدول كلها في سلتين.. السلة الشيوعية والسلة الرأسمالية.. ولذلك استحق دالاس من الرئيس الأمريكي ايزنهاور أن يصفه بأنه أعظم السياسيين الأمريكيين!

وغلطة أخرى وقع فيها دالاس أيضا أنه في هذا التحالف العسكرى - حلف بغداد - كان قد ضم بريطانيا وهى الدولة الاستعمارية التى تحركت الدول الشابة فى المنطقة للتخلص منها وأحلافها ومعنى ذلك أن الأمريكان قد جمعوا الحمل مع الذئب فى حلف عسكرى ضد روسيا فى حين أن العرب تحالفوا ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى فى المنطقة!

وقد ثار جمال عبد الناصر على هذا الحلف كما ذكرت وكما هو معروف واتجه لشراء السلاح من روسيا. وصفقة السلاح هذه محطة وقوف وتأمل فى الطريق بين موسكو والقاهرة فالروس وافقوا على بيع السلاح ليكون لهم مكان جديد فى الشرق الأوسط. ومن هذا المكان يمارس السوفيت سياسة تدخل جديدة فى المنطقة وفى المياه الدافئة مياه البحر الأبيض والأحمر.

وكان بيع السلاح لمصر ولغيرها بداية معضلة وقع فيها الروس. فالدول التى تشتري السلاح لا تشتترط معها تدخلا سوفيتيا ولكن السوفيت لا يرون ذلك ولا يتصورون أنهم يبيعون وبعد اتمام الصفقة ينتهى كل شىء بل أن هذه الأسلحة قد تدفع الدول التى اشترتها إلى مغامرات حربية.

لا يستطيع السوفيت منعها أو التحذير منها بل إن هذه المغامرات العسكرية قد تهدد السوفيت أنفسهم بمواجهة عسكرية مع الأمريكان فالسوفيت أعطوا السلاح ودخلوا المنطقة ولكن ليست لهم قدرة على السيطرة على الزبائن الجدد وقد أحس السوفيت بذلك عند حرب ١٩٥٦ أى أيام العدوان الثلاثى على مصر وكان وضعهم أشد حرجا مع حرب يونيو ١٩٦٧ فقد أرسل السوفيت شحنات من الأسلحة إلى مصر قبل نشوب حربى ٥٦ و٦٧.

وواجه السوفيت معضلة أخرى فبعد إعطاء مصر المعونات العسكرية والاقتصادية والمساندة الأدبية لمصر بعد تأميمها قناة السويس أعلن جمال عبد الناصر تحريم أى نشاط شيوعى ووضع الشيوعيين فى السجن وكان واضحا من ذلك أن جمال عبد الناصر لا يخلط بين السوفيت كدولة عظمى صديقة وبين النشاط الشيوعى الذى يهدد الأمن والحكم فى مصر. وأعلن جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت أنه لا شىء يهدد الصداقة المصرية السوفيتية حتى لو حاكمنا كل الشيوعيين فى مصر وأودعناهم السجن!

هذه المواقف كلها كانت خيوطا متينة التفت حول عنق خروتشيف وجاء خصومه وشدوها بعنف.. ثم رموه وعلقوه منها والنهائية معروفة وقد شكّا خروتشيف من معاملة الحزب الشيوعى فى مصر فخروتشيف على رأس الشيوعية الدولية ولا يستطيع أن يسكت عن هذا

الذي جرى في مصر ومن واجبه حماية أي شيوعي في مصر ولكن جمال عبد الناصر استنكر هذا التدخل السوفيتي في شئون مصر الداخلية وساءت العلاقات وانخفضت الأرض تحت المشاة في طريق موسكو - القاهرة.

وكذلك كان الحزب الشيوعي السوري حجرا ثقيلا في طريق خروتشيف.. ففي سنة ١٩٥٧ بدا للروس أن الشيوعيين سوف يقبضون على السلطة في سوريا وقد نشط هذا الحزب وجمع صفوفه واتجه بدعايته الضخمة إلى دمشق خصوصا بعد سقوط الشيشكلي سنة ١٩٥٤. فقد كانت الحكومة السورية موالية للروس. وكانت الزيارات المتبادلة بين سوريا وروسيا واضحة. وأعلنت الصحف الأمريكية كلها أن سوريا على «حافة الهاوية» السوفيتية أي إنها سوف تنسقط في المعسكر الشيوعي.. عندما حدث شيء هز القيادة السوفيتية وأثبت خطأها في الحساب وأخرج خروتشيف حرجا فظيعا.. لقد أعلنت سوريا الوحدة مع مصر في دولة جديدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة.

وكما دخل الشيوعيون المصريون السجن لحق بهم الشيوعيون السوريون أيضا ونزل تحت الأرض الحزب الشيوعي السوري أقوى الأحزاب الشيوعية في المنطقة. وجاءت هذه الوحدة انتصارا للقومية العربية وجمال عبد الناصر وصدمة للشيوعية الدولية وهزيمة للقيادة السوفيتية.

ثم استحكم الصراع بين القومية العربية والشيوعية عندما سقط نظام نوري السعيد الموالي للغرب في يوليو سنة ١٩٥٨ وانضم إلى المد القومي الذي بلغ أوجه بالوحدة بين سوريا ومصر. وعلى الرغم من محاولة جمال عبد الناصر أن يحصل من السوفيت على مساندة للنظام الجديد في العراق فإن عبد الكريم قاسم قد أسفر عن وجهه الحقيقي فيما بعد فهو رجل شيوعي ولذلك ساعده السوفيت وقدموا له معونات عسكرية واقتصادية وباعدوا بينه وبين المد القومي وإن كان عبد الكريم قاسم فيما بعد قد استخدم الشيوعيين ضد الناصريين في العراق ليضعف الاثنين معا، ولكن السوفيت ساندوا عبد الكريم قاسم في حرصه المستمر على الانفصال عن المد القومي بزعامة جمال عبد الناصر، فكتبت صحيفة برافدا في مارس ١٩٥٩ تقول وبسخرية شديدة ما معناه «أن بعض الشخصيات في المنطقة تدعو إلى وحدة الدول العربية كلها معا وحدة ميكانيكية فورية» سواء رغبت هذه الدول أم لم ترغب فإذا لم توافق هذه الدول على الوحدة بالإكراه اتهموها بأنها شيوعية أو صهيونية أو معادية للشعب العربي - والمقصود بهذا كله طبعاً جمال عبد الناصر -!

وعلى الرغم من محاولات خروتشيف للتقارب مع مصر وتذويب الجليد أو كمنه من الطريق فى سنة ١٩٦٠ فقد اصطدم خروتشيف فى مايو سنة ١٩٦١ بوفد برلمانى مصرى كنت رأسه وكنت وقتها رئيسا لمجلس الأمة.. وكانت مناقشة حادة بيننا وأصر خروتشيف على موقفه كرأس للشيوعية الدولية. فقال: إذا أردتم الاشتراكية فلا تعارضوا الشيوعية!

وقال أيضا: إن القومية العربية ليست قمة السعادة.. وقال أيضا: إن الحياة نفسها سوف تفرض عليكم الشيوعية! وأصبحت العلاقات السوفيتية المصرية بصدمة عنيفة وتمزقت.

وعلى الرغم من مساندة السوفيت للعراق عسكريا واقتصاديا فإن عبد الكريم قاسم أراد أن يستقل بسياسته هو أيضا. ثم أبعد الشيوعيين عن السلطة حتى سقط عبد الكريم قاسم سنة ١٩٦٣ وحوكم مئات الشيوعيين.

واتجه السوفيت بعد ذلك إلى بلاد عربية أخرى يحاولون أن يعوضوا المواقع التى خسروها فى مصر وسوريا والعراق.. وهذه قصة أخرى تستحق المتابعة والتسجيل ولكن لا أريد أن أبعد كثيرا عن الهدف الذى حددته منذ البداية وهو: رسم الطريق الذى بيننا وبين موسكو بكل ضيقه واتساعه وانخفاضه وارتفاعه ومنعرجاته صعودا وهبوطا.

ولابد أن خروتشيف قد اقتنع أخيرا بأنه من الممكن أن تتجه الدول إلى الاشتراكية دون مساعدة من الأحزاب الشيوعية فى المنطقة وقال بعض المؤرخين فى ذلك الوقت: إن خروتشيف قد أحس بأن ما قاله لى فى موسكو قد تحقق وأن العالم العربى فى طريقه إلى الشيوعية.

ولكن لم ينجح خروتشيف من المسألة أمام القيادة الحزبية كيف يساعد السوفيت دولة كمصر على رغم ما تفعله بالشيوعيين وهنا اخترع فلاسفة الحزب الشيوعى تعبيرات جديدة لوصف ما يجرى فى الشرق الأوسط فقد وصفوا نظامنا فى مصر بأنه «الطريق اللارأسمالى» أو «الديمقراطية الثورية».. وكانوا يقصدون بذلك نوعا من الاشتراكية تتحقق بشكل ما دون معونة من الأحزاب الشيوعية ولكن قرر خروتشيف أيضا أنه على الشيوعيين المصريين أن يتسللوا إلى السلطة وإلى الاتحاد الاشتراكى لتوجيهه من الداخل وصدرت التعليمات إلى الحزب الشيوعى المصرى - وهو تكوين هزيل - بأن ينشط فى داخل التنظيمات الشعبية والسياسية فى مصر ليبدأ السوفيت بعد ذلك سياسة جديدة هى سياسة الاتصال المباشر مع مصر: حزبا لحزب.. أى مندوبون من الحزب الشيوعى يزورون مصر ويعقدون جلسات عمل

مع مندوبى الاتحاد الاشتراكى فى مصر. وكان من رأى خروتشيف أن مثل هذه العلاقات سوف تعجل باندفاع الأحزاب الاشتراكية ودحرجتها على طريق الشيوعية.

ولكن عددا من الشيوعيين العرب قد استنكر هذه السياسة السوفيتية الجديدة ودارت مناقشات حادة حول هذه التعبيرات الجديدة التى صدرها السوفيت إلى المنطقة.

وفى هذه الأثناء جاء خروتشيف لزيارة مصر ليرى بنفسه ما الذى يجرى فى هذه البلاد التى ساعدها السوفيت ويبنون لها السد العالى. وجاءت هذه الزيارة تؤكد أن خروتشيف لم يستطع أن يفهم شيئا. وقد اندهش خروتشيف جدا عندما صفقت الجماهير لعبد السلام عارف وهو يردد آيات من القرآن الكريم.

وقال: اعترف بأننى لا أستطيع أن أفهم العرب..

وقال أيضا: لا توجد وحدة واحدة أستطيع فهمها سوى وحدة الطبقة العاملة!

ولكنه فى نفس الوقت لم ينس أن يفعل ما يدعم «وضعية» الاتحاد السوفيتى فى مصر عندما تبرع بمزرعة ميكانيكية هذه المزرعة خلقت لنا عددا من المشاكل لم تنته إلا أخيرا جدا وعلى أيامى أنا.. وقيل فى ذلك الوقت إنها نموذج لمزارع الدولة أى إن المزارع يجب أن تكون للدولة لا يملكها أحد فالدولة هى التى تملك والناس جميعا عمال زراعة وأنفقنا على هذه الأرض حوالى سبعين مليون جنيه.. ولكن أحدا لم يتقدم لهذه الأرض ولا يعرف ما الذى يمكن عمله. لأن هذه الأرض - كما قيل وقتها - إنها مزارع دولة.. وأن الميثاق الذى «مركسوه» فى ذلك الوقت ينص على ذلك! وبدلا من أن نستفيد من هذه الأرض ظلت كما هى. وحاول سيد مرعى وكان وزيرا للإصلاح الزراعى أن ينقذ هذه الأرض من التفسيرات العجيبة للميثاق وعلى الرغم من أنه حصل على موافقة من جمال عبد الناصر فإنه لم يستطع أن يذهب إلى أبعد من ذلك فقد ثارت عليه مراكز القوى وثار عليه «دراويش» الاشتراكية، ثم عاد سيد مرعى وكسر المحاولة وهو نائب رئيس وزراء وعلى أيامى أنا وأقترح أن تتولى هذه المزرعة بعض الشركات ولكنه لم يوفق أيضا.

وظلت هذه الأرض على ما هى عليه لا يقربها أحد حتى طبرت فوقها ورأيتها وقررت استغلالها وتوفير التكنولوجيا الحديثة لها وبذلك تنتج أربعة أو خمسة أمثال ما تنتجه الأرض بالطريقة العادية فهذه الأرض مزودة بكل ما هو ضرورى. فالراوى موجودة ومبطنه بالأسمنت والأرض مستصلحة والمياه قد ركبته وبها ثلاث محطات رفع.. ولو زرعت هذه

الأرض التي مساحتها حوالى ٧٠٠ ألف فدان لكانت قد حُلَّت لنا مشكلة الطعام فلا يتبقى لنا غير القمح الذى نستورده.

فهذه الأرض انتزعناها من الصحراء شمال مديرية التحرير والمريوطية وهى من أجود أرض وادى النيل وبقيت على هذه الحال حتى سنة ١٩٧٥ لا يقترب منها أحد والسبب هو هذا التفسير الماركسى للميثاق ولكن الأرض قد أعطيت لشركات تحسن استغلالها فى وزارة ممدوح سالم. وكان نصيب هذه المزرعة أن ظلت بائرة: خسارة فادحة على مصر بسبب هذه البلبلة الماركسية التى حدثت أيام وزارة على صبرى التى أقلقنت الناس وأفزعتهم على مستقبلهم.. وقبل تنحية على صبرى سافرت مع جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين إلى موسكو. وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٦٥.

فى هذه السنة حدثت تغييرات فى العالم. فبعد اغتيال كيندى فى ١٩٦٣ جاء جونسون رئيساً لأمريكا وفى فبراير ١٩٦٥ قرر الرئيس جونسون أن يدخل معنا فى مواجهة ونحن نعلم يقيناً أن جونسون قد باع نفسه لإسرائيل وهو أيضاً قد أتى بالأخوين «روستو» وجعل أحدهما فى وزارة الخارجية والثانى فى الأمم المتحدة وكلاهما صهيونى وهما المحركان لسياسته الخارجية.

وأول محاولة للتحدى أو المواجهة معه أن أرسل لنا فى مارس «تالبوت» أحد رجال وزارة الخارجية ومعه إنذار إلى جمال عبد الناصر. الإنذار يقول: إن القوات المصرية يجب ألا تزيد عن عدد معين وإنه لا بد من إجراء تفتيش على استخدامنا للطاقة النووية ولم يكن لهذا سوى تفسير واحد: هو أن أمريكا تريد استدراجنا إلى مواجهة معها. فالرئيس جونسون يعلم مقدماً أن مثل هذه الطلبات أو هذا الإنذار سيرفضه جمال عبد الناصر ورفضه بالفعل.

وكانت النتيجة التى تريدها أمريكا: قطع المعونة الأمريكية عن مصر وكنا قد اتفقنا على هذه المعونة مع الرئيس الراحل جون كيندى وكانت اتفاقية كيندى وعبد الناصر لمدة ثلاث سنوات وهى اتفاقية لم يوقعها كيندى إلا مع دول المعسكر الغربى فقط.

وكانت هذه المعونة تستوعب السنوات من ٦٢ إلى ٦٥ وهى سنوات حكم على صبرى التى أتت على الأخضر واليابس. فجاء انقطاع المعونة كارثة أخرى على مصر. فقد كنا بمقتضى هذه المعونة نشترى القمح بالجنيه المصرى. أما العملات الصعبة فنوفرها لعمليات البناء.. وكانت حرب اليمن تقتضى فى ذلك الوقت تكاليف فادحة.

ووصلنا فى سنة ١٩٦٥ إلى أسوأ حال يتمناه لنا أشد الناس عداوة وشماتة فى مصر! فى شهر سبتمبر من هذه السنة سافرنا إلى الاتحاد السوفيتى وكانت القيادة السوفيتية قد تغيرت ذهبت قيادة خروتشيف فى ١٩٦٤ وجاءت قيادة جديدة من بريجنيف وكوسيجين وكان ميكويان ما يزال رئيسا للدولة ولم يكن بودجرنى قد حل محله وإن كانوا يجهزون له نصب الرئاسة وذلك بأن قدموه فى الحفلات العامة على أنه هو الرجل القادم بعد ذلك.

وصلنا يوم السبت ونقلونا فوراً إلى «الداتشا» التى يخصصونها للقيادة السوفيت وهى تبعد عن موسكو حوالى ٥٠ كيلو متراً. المكان جميل جداً والبحيرات جميلة وفيها يتوالد البط الذى يجيء لنا هنا فى مصر وهذا البط موجود هنا لصيده وأكله على مدار السنة وحول الداتشا توجد مصايد للأسماك وغابات للخنزير البرى كل شىء فى غاية الجمال والروعة.. أما جمال عبد الناصر فقد انفرد به بريجنيف وكوسيجين.. أما زكريا محيى الدين وأنا فقد تركونا مع ميكويان. ودارت الأحاديث السبت والأحد بين جمال عبد الناصر مع الزعيمين السوفيتيين بريجنيف وكوسيجين.

وعرفت من جمال عبد الناصر شخصياً موضوع هذه الأحاديث وكانت القيادة السوفيتية مشغولة جداً بشوان لاي. فقد مكث شوان لاي فى القاهرة ثلاثة أسابيع وكان شوان لاي متجها لحضور مؤتمر عدم الانحياز فى الجزائر. ولما وقعت الثورة هناك تخلف فى القاهرة. والسوفيت يعلمون جيداً أن شوان لاي صديق لجمال عبد الناصر.. ثم إنه هو الذى تنبأ له بأن يكون نجماً صاعداً وهو الذى طلب من الروس أن يدركوه بالسلاح قبل أن يتجه وجهة أخرى على نحو ما ذكرت فى حلقة سابقة وكان الخلاف بين السوفيت والصين قد بدأ قبل ذلك بخمس سنوات ولكنه فى تلك السنة قد بلغ القمة وكان السوفيت يريدون أن يعرفوا الكثير عن شوان لاي ولذلك كانت محادثاتهم مع جمال عبد الناصر ذات أهمية بالغة.

وطبيعى أن يشرح جمال عبد الناصر للقيادة السوفيتية المأزق الذى وقعت فيه مصر بعد أن قطع الأمريكان المعونة عنا وأن خطتنا ومشاريعنا فى غاية الطموح وإننا مضطرون إلى وقف هذه المشاريع وأن هناك مشاريع قد توقفت عند منتصفها أو ثلثها وأن مصر تريد أن تكمل ما بدأت. ودارت مناقشات طويلة ولا بد أن السوفيت كانوا يعلمون الكثير من التفاصيل عن مصر وكان من مطالب مصر أن يعطينا الاتحاد السوفيتى «فترة سماح» من تسديد الديون المستحقة علينا لمدة خمس سنوات وفى فترة السماح هذه لا ندفع الأقساط المستحقة على معونة السد العالى وقيمة المصانع التى نبنيتها وثمان السلاح الذى اشتريناه.

وفى الاجتماع الذى انعقد يوم الاثنين وقف كوسيجين وقال : إننا درسنا الوضع تماما ونريد أن نقف إلى جوار مصر وعلى ذلك فقد قررت الحكومة السوفيتية والمكتب السياسى بعد مناقشة هذا الموضوع : أن الاتحاد السوفيتى يوافق على حذف نصف مديونية مصر أى ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى وعلى ذلك فسوف تنخفض الأقساط إلى النصف.

فالروس قد وافقوا على التخفيض ولكنهم لم يوافقوا على تأجيل الأقساط وكان ذلك قرارا حاسما ومن العدل أن نذكر هذا الموقف للاتحاد السوفيتى.

وحتى بعد أن ذهبت حكومة على صبرى ظلت التيارات التحتية تلعب وظلت «الدرشة الاشتراكية» أو «مركسة» ميثاق العمل الوطنى مستمرة. والشيوعيون قد تسلموا إلى مواقع شديدة الحساسية تمشيا مع نداء خروتشيف بمساندة الديموقراطيات الثورية حتى تنضج وتسقط تحت أقدام الشيوعية الدولية.

إلى أن كانت ١٩٦٧ ووقع لنا ما وقع وانهدم على رؤوسنا الكثير مما أقمناه فى عقولنا وقلوبنا.. فعاد الاتحاد السوفيتى يلعب أيضا لعبة قديمة وهى مساندة بعض الدول ضد مصر، أو بعض النظم ضد مصر.. فكما ساند عبد الكريم قاسم ضد جمال عبد الناصر.. فعل نفس الشيء مرة أخرى فساعد «الرفيق» صلاح جديد فى سوريا ضد جمال عبد الناصر.. وكان صلاح جديد شيوعيا مستغرقا فى ذلك وأخذ من الشيوعيين الاسم ولذلك كانوا يلقبونه بالرفيق، وكان حريصا متشرفا بهذا اللقب. وأخذ من الشيوعيين إلى جانب اللقب كل شيء وظل هذا هو حال صلاح جديد وكذلك حزب البعث السورى إلى أن جاء حافظ الأسد وقام بثورته التصحيحية سنة ١٩٧٠ وكان حزب البعث السورى قد «تمركس» لإضعاف مصر.

وبدأ الاتحاد السوفيتى يطبل ويزمر لصلاح جديد. الوجه الجديد والزعيم النموذجى وإن صلاح جديد هو القدوة وأن العرب يجب أن يمشوا وراء صلاح جديد فهو الإصلاح الجديد لكل الأنظمة فى المنطقة.

ولم يستطع جمال عبد الناصر أن يهضم مثل هذه الاستفزات ولا هذه العبارات التى اعتبرها نوعا من النقد العنيف له والاستقاط على حكمه أو دعوة لاستقاط حكمه.. وحدث أن كنت فى مايو ١٩٦٧ على رأس وفد برلمانى يزور موسكو وهناك أبلغونى رسميا أن إسرائيل قد حشدت أحد عشر لواء على حدود سوريا وأنهم قد نقلوا هذا الخبر لجمال عبد الناصر ودخلت فى نقاش وجدال عنيف وكان واضحا جدا إعجابهم الشديد بصلاح جديد وقد صارحتهم فى

ذلك بأن صلاح جديد هذا سوف ينكشف لهم وسوف يصابون بخيبة أمل أخرى كالتى أصيبوا بها مع عبد الكريم قاسم وأنها نفس اللعبة وسوف تكون لها نفس النهاية.

وقلت أيضا: ليست هذه نبوءة ولكن هذه حقيقة وأنتم لا تعرفون كيف تقرأون التاريخ العربى فنحن شعوب لنا أصالة وأنتم لا تفهمونا وسوف ترون أننا لن نتغير وأننا نقول ما نعمل.. ونعمل ما نقول.

ولما عدت إلى القاهرة تحققت من أن السوفيت قد أخبروا جمال عبد الناصر بكل شىء.

وكنا فى مأزق فإذا نحن سكتنا عن مساندة سوريا قيل: تركوا السوريين حتى ضربتهم إسرائيل وسوف يشنع علينا السوفيت فى المنطقة ثم إن بيننا وبين السوريين معاهدة دفاع مشترك. وجمال عبد الناصر رجل إذا قال فعل وإذا وعد فإنه يفى بالوعد.

فلا مفر من القتال فأصدر أمره إلى عبد الحكيم عامر بدخول الحرب وكانت هزيمتنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧ تلك النهاية المريرة على نفوسنا جميعا.

وأذكر فى صباح ٥ يونيو أننى عرفت بموعد الهجوم وقلت كما قال كل مصرى: إن اليهود سوف يذوقون الهوان والهزيمة فى هذه الحرب لا شك فى ذلك فنحن على استعداد لكل الاحتمالات.. هذا مؤكد.. وفى ذلك اليوم خرجت من بيتى متجها إلى القيادة، الطريق من الهرم إلى القيادة مارا بشارع صلاح سالم يستغرق حوالى نصف الساعة وعندما اقتربت من القيادة وجدت أمامى سيارة السفير السوفيتى طبيعى لا بد أنه جاء للتهنئة وقابلت عبد الحكيم عامر وكان فى حالة سيئة جدا فالقصة معروفة لقد ظل معلقا فى الجو بطائرته وعندما نزل بها كان الطيران المصرى كله قد ضرب على أرض المطارات.. إلى آخر القصة الحزينة التى أوجعت كل قلب فى مصر وعلى مصر أيضا.

ولم أجد السفير السوفيتى أمامى لقد ركب الأسانسير ونزل إلى جمال عبد الناصر فى المخبأ التحتانى وكانت الحقيقة شينا آخر تماما فهذا السفير السوفيتى لم يجرى من نفسه مهنئا وإنما جاء مدعوا فقد استدعاه عبد الحكيم عامر لأنه اعتقد أن الأمريكان هم الذين ضربونا وحطمونا. وكانت غلطة من عبد الحكيم عامر لأن استدعاء السفير السوفيتى هذا قرار سياسى وليس قرارا عسكريا. وكان ذلك سببا فى مناقشة حادة عنيفة بينه وبين جمال عبد الناصر ومما قاله جمال عبد الناصر لعبد الحكيم عامر فى ذلك الوقت: ليس هذا شأنك.. هذا شأنى. ثم أرنى ذيل طائرة أمريكية وأنا أعلن ذلك للعالم كله واقطع العلاقات مع أمريكا فورا ولكن الذى أراه حتى الآن هو أنه عدوان إسرائيلى بحت!

وطلب جمال عبد الناصر من السفير السوفيتي أن يبحث لنا عن طريقة لوقف إطلاق النار وأن يمدنا بالطائرات بدلا من التي تحطمت على الأرض.

وإنصافا للحق وللتاريخ أقول: إن الاتحاد السوفيتي لم يكن في استطاعته أن يمدنا بهذه السرعة فأين تهبط طائراته إذا جاءت. فالطائرات كلها مضروبة ولا يوجد مطار واحد مؤمن في مصر كلها وبعض الناس يتهمون السوفيت بالتقصير ولكن أنا أرى أنه ليس كذلك فلم يكن في وسع السوفيت أن يفعلوا شيئا بهذه السرعة المطلوبة صحيح أنني أحمل السوفيت مسؤولية أشياء كثيرة وقعت في مصر ولمصر ولكن في هذه الظروف لم يكن في وسع السوفيت أن يفعلوا شيئا بهذه السرعة التي نريدها.

وفي ذلك الوقت سادت موجة عنيفة تتهم السلاح السوفيتي بأنه هو سبب النكسة.

ولكن ليس هذا صحيحا وكان ذلك رأى جمال عبد الناصر ورأى أيضا فلا عيب في السلاح إنما العيب فينا.. في هذا الانهيار القيادي وبسبب الأمر الخاطي بالانسحاب.. وأذكر أن خبيرا عسكريا زار إسرائيل بعد النكسة فقال لهم: إن الهزيمة ليس سببها شطارتكم ولكن خيبة المصريين، فأنتم لم تفعلوا شيئا وإنما المصريون هم الذين استداروا وانهاروا! طبعاً شيء آخر مختلف تماما هو الذي حدث في حرب أكتوبر.. عشرات الأشياء الجديدة والمبادرات والابتكارات واختيار كل شيء والتخطيط والدراسة والحسابات الدقيقة.. الصورة مختلفة تماما ولذلك كانت النتيجة مختلفة أيضا.

ودخلت علاقتنا مع السوفيت في منحني جديد.. وأتذكر الآن اجتماعا في قصر القبة كان فيه بودجرني رئيس الدولة وزخاروف رئيس الأركان السوفيتي الذي توفي أخيرا. اقترب مني زخاروف قائلاً: لو كل سلاح معكم أطلق طلقة واحدة لانتهت الحرب ضد إسرائيل ولكنكم لم تفعلوا شيئا! إلى هذه الدرجة كان السلاح في أيدينا كافياً. ولكن الحرب ليست السلاح في الأيدي فالسلاح وحده لا يحارب والحروب لا يكسبها السلاح وحده وإنما السلاح والرجال والخطّة والإعداد والاستعداد ومعرفة ما سوف يحدث في أية لحظة وتأمين كل خطوة قبل وأثناء وبعد الحرب.. وتأمين طريق الأوامر وتنفيذها.. إنها الاستراتيجية العلمية السليمة وحسن استغلال كل ما هو متاح وغير ذلك هو الذي يدير الحرب لصالحنا.

ومن المناسب أن أسجل للسوفيت موقفاً فائزاً إلقاء جمال عبد الناصر لوثيقة التنحي جاءه خطاب من قادة السوفيت وهذا يفسر توقف جمال عبد الناصر لحظات عن المضي في إلقاء

خطابه واتجه بعينه إلى اليسار وفي الخطاب يطلبون إليه ألا يتخلى عن السلطة وأنهم سوف يعوضونه عن كل خسائره في الحرب.. ولكن جمال عبد الناصر أكمل خطابه.

وبناء على خطاب القادة السوفيت هذا بدأ الكوبرى الجوى والبحرى الطائرات تهبط في القاهرة والسفن ترسو في الاسكندرية تحمل العتاد إلى مصر تعويضا عن الذى خسره في حرب يونيو ١٩٦٧ .. وهذا موقف رائع من السوفيت لا شك فى ذلك.. وأقمنا مراكز للتدريب فورا حتى تستوعب قواتنا الأسلحة الجديدة وكان الروس يقدرّون فترة الاستيعاب من سنة ونصف السنة إلى سنتين. فإذا فعلنا ذلك نكون قد حققنا معجزة غير أن جنودنا وكادراتنا قد استوعبت ذلك فى سنة ولكن الروس اعتبروا ذلك استعجالا للأمور.. وأنه يستحيل علينا أن نستوعب هذه الأسلحة المعقدة المتطورة فى هذه الفترة القصيرة وإن الذى فعلناه هذا ليس إلا لعبا ولهوا وإننا إذا اكتفينا بهذا القدر من التدريب فسوف نلقى المصير السابق إذا دخلنا أى اشتباك ولم يتصور الروس أننا نجحنا فى إقامة خط دفاعى بعد خمسة شهور من الهزيمة!

ومع الهزيمة والشعور بالمرارة والهوان والفتور بيننا والشماتة العامة بدأ الجليد يتساقط بكثرة على الطريق بين موسكو والقاهرة.. بل قد أضيف إلى الجليد المزيد من الضباب والشوك.. والشك.. فالروس يسخرون من المقاتلين المصريين.. أنهم لا يقولون ذلك صراحة ولكن التعامل مع القوات المصرية يؤكد كل يوم ذلك المعنى الأليم.. ودخلنا مع السوفيت فى مرحلة معناها: عدم الثقة فى قدرتنا العسكرية على عمل أى شىء ابتداء من فهم السلاح وحمله حتى الاستعداد أو الإعداد لأية معركة.. وأشد من ذلك إيلاما للنفس أنهم يؤكدون لنا أن هذه هى النهاية.. وأنه أفضل أن نبتلعها على مهل.. وأن هذه حدودنا وحدود قدرتنا.. كأنهم يطلبون منا أن نشكر إسرائيل على أنها قد دلتنا على وزننا الحقيقى!

ليس أشد من ذلك إهانة للإنسان ولا أقسى من ذلك أن يهون الإنسان على نفسه!

وفى يوم ١٠ أغسطس سنة ١٩٦٧ كان الرئيس تيتو فى الاسكندرية وكان جمال عبد الناصر فى أسوأ حالاته النفسية بل إننى لم أر جمال عبد الناصر فى كل التسعة عشر عاما من صداقتنا كما رأيته بهذا الأسى والمرارة فى ذلك اليوم.. انفجر جمال عبد الناصر وهو يقول لتيتو: أرجو أن تسافر من هنا إلى هناك وأن تخبر السوفيت أننى تعبت.. مللت.. أننى ضقت بهذه المعاملة الفظيعة التى يتبعها السوفيت معى.. احمل رسالة منى.. وقل لهم: إن قواتنا

== الاعراب السوفيتية ==

استوعبت السلاح فى هذه الفترة القصيرة.. وإن هذا حدث.. وأنا على يقين من ذلك.. وإننى لو قلت للشعب: إننى لن أقدر على استيعاب هذا السلاح إلا بعد سنتين فسوف يثور الشعب ويهدد البلد علينا بعد ما انهدمت!

وقال له جمال عبد الناصر: كان من الضرورى إقامة خط دفاعى وقد قام ومن الضرورى أن تكون حرباً نشطة حتى لا يلتقط العدو أنفاسه ويقوم بتدعيم لخطوطه ومواقعه ويحصل على تعويضات سريعة من أمريكا.

وطلب إليه أن يقول للسوفيت: إننى أرفض هذه المعاملة المهينة وأنا كفرت بكل شىء.. فليحتل اليهود مصر!

وجاءت هذه العبارة إعلاناً لبداية التواء جديد فى الطريق بيننا وبين موسكو.

□□□



١ - خروتشيف يخلد
عيد الناصر أرفع وسام في
الاتحاد السوفييتي .



٢ - بريجنيف يشعل
سيجارة لعبد الناصر .



٣ - تيتسو رئيس
يوغوسلافيا الأسبق .

٤ - اجتماع للقيادة
المصرية والسوفيتية .



٥ - جون كينيدي رئيس
الولايات المتحدة الأسبق .



٦ - عبد الناصر مستغرقا
في التفكير .





٧ - جمال عبد الناصر
في إحدى الخطب .



٨ - علي صبري... في
أيامه بدأت «مركسة»
الميثاق وإنشاء المعاهد
الماركسية.. حتى نحاه
جمال عبد الناصر .

الأسباب الحقيقية لهزيمة ٦٧



- ناصر يطلب من القيادة السوفيتية أن تتولى الدفاع الجوى عن مصر.
- معركة يونيو ٦٧ كانت معركة لتجربة السلاح الأمريكى والروسى.
- ياكوب ماليك يخبر عبد الناصر بسر المؤامرة عليه.
- السماء المفتوحة التى تغنى بها الشعب كانت أحد أسباب النكسة.

العلاقات مع السوفيت متطرفة - أي إنها تبدأ من طرف لتندفع إلى الطرف
ما زالت الآخر. بشدة وحدة. ولا يملك الإنسان أمامها إلا أن يظل في حالة ذهول
لا يعرف له رأساً من رجلين. ماهو المعنى؟ ماهو الهدف؟ يصعب على الإنسان
أن يعرف ذلك. ولكن أحاول أن أوضح ذلك لنفسى وللتاريخ. ويكفى أن يتأمل الإنسان ماذا
جرى لجمال عبد الناصر. وكان في قمة الأسى والحزن بعد النكسة. وكيف أن السوفيت
أعطوه السلاح عن طريق الكوبرى الجوى والبحرى.. وكيف انهيار. أو كاد ينتابه بالفعل
وهو يتحدث إلى تيتو. وكان ذلك يوماً مشهوداً. لم أر جمال عبد الناصر في حالة أسوأ من
ذلك.. وكان مرض السكر قد هد حيله.. فقد انفلت السكر في جسمه ولم يعد في استطاعته
أن يتحكم فيه.. أى إن جمال عبد الناصر لم يكن في حاجة إلى مزيد من المرض أو التعاسة
الشخصية أو القومية. وإذا كان السوفيت جادين حقاً في مساعدته وإيقافه على قدميه فأمامهم
مالا نهاية له من الفرص. في استطاعتهم أن يفعلوا كل شئ إذا أرادوا. فهي مشكلة إرادة
وليست مشكلة قدرة.

وبعد النكسة مباشرة أصبحت سماء مصر مكشوفة. أو عارية. لا يوجد غطاء جوى لمصر.
ومعنى ذلك أن في استطاعة الطيران الإسرائيلي أن يفعل ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء.
وقد حدث ذلك كثيراً. وبصورة مروعة. وسماء مصر كانت مكشوفة منذ ١٩٦٤. فالسوفيت
أعطونا صواريخ سام ١ و سام ٢. وهى صواريخ لحماية مصر إذا أغارت عليها طائرات عالية.
أما إذا جاءنا الطيران الإسرائيلي منخفضاً، فلا يمكن مواجهة ذلك فالسماء مسدودة من فوق
مفتوحة من تحت. وهو وضع عجيب وغريب ومحزن. وليس من المعقول - طبعا - أن يجيء
الطيران الإسرائيلي مرتفعاً لكي يكون هدفاً لنا. أو لكي يعطينا فرصة اصطياده وإسقاطه، لأن
صواريخنا لا تستطيع إلا الضرب العالى!

ولو عرف الشاعر الذى قال عن مصر إنها «مفتوحة كالسما» معنى هذا التعبير
الذى رآه مدحاً لمصر وصفاء مصر وبساطة أهل مصر، ورحابة قلوب المصريين، لعدل عن

هذا التعبير الرهيب. وفي استطاعتك أن تتحدث في ذلك مع أى رجل من قواتنا المقاتلة وتقول له: هل تحب أن تكون السماء فوق رأسك مفتوحة؟ إن الجواب عن ذلك سيكون صراخا عاليا.. لأن السماء المفتوحة هي التي تخلو من وسائل الدفاع عنها. ووسائل الدفاع عنها هي الصواريخ والطائرات والمدافع.. وكانت سماءنا مفتوحة لليهود. صواريخنا لا تضرب إلا الطائرات العالية، واليهود يستخدمون الطيران المنخفض هربا من هذه الصواريخ.

وحتى لا تكون سماءنا مفتوحة أيضا لابد من الطائرات المقاتلة. لأنك لا تستطيع أن تغطي بالصواريخ سماء مصر كلها. من الإسكندرية إلى أسوان. وحتى إذا استطعت أن تغطي سماء المدن الكبرى فسوف تجد هناك فجوات تتسلل منها الطائرات المعادية. فإذا دخلت الطائرات المعادية من هذه الفجوات خرجت لها طائراتنا المقاتلة، أو انطلقت عليها المدافع التي تستخدم الرادار..

وقد عرف اليهود مواصفات صواريخنا سام ١ وسام ٢ وأصبح من المؤكد لديهم ولدينا أيضا أنهم إذا دخلوا فلا حيلة لنا في ذلك. ومعنى هذا أننا أمام هذه السماوات المفتوحة عاجزون عن فعل شيء.. ولم يكن غريبا في ذلك الوقت أن يعلن اليهود أن الجيش المصري قد أصبح في آخر القائمة التي تبدأ حسب القوة والأهمية: الجيش الأردني ثم الجيش السوري وأخيرا الجيش المصري - منتهى الهوان والإهانة لنا حكومة وشعبا وجيشا.. فما أقسى ذلك على نفوسنا في أى وقت!

ومن المؤكد أن الأمريكان قد عرفوا هذه الصواريخ السوفيتية في فيتنام وعرفوا عيوبها. وعرفوا كيف يمكن الإفلات منها والتغلب عليها. وهذه الدروس المستفادة من الشرق الأقصى قد لقنوها لليهود في الشرق الأوسط. وكانت النتيجة هو كل ما أصاب مصر بعد ذلك.

وكان من الطبيعي جداً أن يطلب جمال عبد الناصر من بودجورنى وزخاروف في اجتماع القبة أن يقوم السوفيت بإفقاد الموقف. أى بسد السماء المفتوحة، أو تغطية مصر التي تعرت سماءها. وطلب بصراحة: لماذا لا يتولى الاتحاد السوفيتى الدفاع الجوى عن مصر!

وكان جمال عبد الناصر يحاول بهذا الطلب أن يتفادى مشكلة الفترة المطلوبة للتدريب على الأسلحة السوفيتية. فالروس عندهم «لازمة» إذا طلبنا منهم سلاحا يقولون لك: حالا.. حاضر.. بعد شهر.. بعد شهرين.

وبعد ذلك يجيء السلاح على فترات وبكميات صغيرة. ويقولون لك: أنتم في حاجة إلى فترة تدريب.. سنة أو سنتين..

فإذا قلت لهم: إننا قد تدريبنا جيدا.. وأن هذه الفترة طويلة. وفي استطاعتنا أن نستوعب السلاح في فترة أقصر.. وقد حدث ذلك ونحن مطمئنون إلى النتيجة. فهذه بلادنا وهذه حياتنا وهذا شعبنا، ولا يمكن أن نفرط فيه.. ونحن حريصون على كل شيء أكثر منكم..
يكون الرد التقليدي: ليس بعد.. أنتم تتعجلون كل شيء. لابد أن يكون هناك وقت.. لا تتسرعوا.. وتقول لهم: لا يمكن أن نتعجل ذلك.. لأننا نعرف النتيجة.. ونحن لا نريد ما حدث في ٦٧ أن يتكرر مرة أخرى.. فنكسة واحدة في العمر كله تكفي ليتعلم منها شعب عريق مثلنا.

ويجىء الرد من كل واحد وعلى أى مستوى وفي أى موقع وفي أى مكان تلتقى بهم في مصر أو في موسكو: اتفقنا! ثم يكون لهذا الاتفاق معنى آخر غير الذى خطر على بالك..
والذى يحدث عادة أنهم إذا قالوا اتفقنا أن تشمر أنت بالسعادة المطلقة. فنحن أناس عاطفيون.. وبعد ذلك يجىء الرد هكذا: اتفقنا على أن نختلف معك في الرأي.. أو اتفقنا على ألا نتفق معك.. ويكون هذا الرد والرد السابق عليه مثل واحد يأخذك من تحت الغطاء الدافئ ويلقى بك في الماء البارد.. أو ينقلك من الثلجة ويرميك في إناء يغلى.. هذه الدوخة في علاقتنا بالسوفييت، سواء ما حدث لجمال عبد الناصر أم ما حدث لي بعد ذلك. وما يمكن أن يحدث مرة أخرى لمصر أو لغيرها من الدول الأخرى..

ولذلك كانت فرحة جمال عبد الناصر لا يمكن أن توصف يوم أعلن بودجورنى وزخاروف الموافقة على أن يتولى السوفييت الدفاع الجوى عن مصر. لا أستطيع أن أصف سعادة جمال عبد الناصر وسعادتي. لقد وافق الروس على تغطية مصر.. وسد الفجوات في سمانها.. وبذلك لن يفزع جندي إذا سمع في الراديو الأغنية التى تقول: مفتوحة كالسماء.. لا يهم بعد ذلك أن تتردد هذه الأغنية ألف مرة في اليوم الواحد. فالروس سوف يغطون هذه السماء، فلا تكون مفتوحة إلا للشعراء والمطربين.. أما بالنسبة للعسكريين فسوف تكون مسدودة بإحكام.. ولن تنفذ منها طائرة يهودية.. فالروس سوف يأتسون بالصواريخ الأخرى التى تضرب الطائرات المعادية إذا جاءت منخفضة.

وأنا أعترف بعجزى عن وصف درجة سعادة جمال عبد الناصر في ذلك اليوم، تماما كما عجزت عن وصف تعاسته يوم وصف للرئيس تيتو مدى الهوان الذى لحقه من معاملة الروس له.. ويوم حاول تيتو أن يهدئ جمال عبد الناصر، وأن يطالبه بمزيد من الصبر والاحتمال. فتيتو أيضا قد ذاق المر في علاقته بالسوفييت، وهو أكثر الناس معرفة بهم..

ويوم سافر تيتو عائداً إلى بلاده.. لا أنسى ذلك اليوم. الموسيقى تعزف. والرجل وجهه مشرق. وآمالنا معلقة بصدقه وقدرته على إقناع السوفيت بأن يتحركوا من أجل أن نقف على أرجلنا، وإنقاذ هذا الرجل جمال عبد الناصر الذي وصل إلى أقصى درجات التعاسة واليأس.. لقد أحسست يومها أن قلبي يكاد ينخلع وتيتو يغادر الشواطئ المصرية. فهذا الرجل في القلب حقاً. وفي كل مرة التقى به أؤكد له هذا المعنى، مع أنه ليس في حاجة إلى ذلك. ولكن هذا هو شعوري. وفي كل مرة أعانق تيتو أقول له هذا الشعور: إننى لا أنسى يوم عاونتنا وقلوبنا معلقة بك.

إن تيتو رجل عظيم بكل المقاييس الوطنية والعسكرية والسياسية..

إذن لقد كانت سعادة جمال عبد الناصر أعظم وأروع من أن توصف. وقلنا يومها لابد أن السوفيت جادون في المساعدة الحقة وفي إنقاذنا والوقوف معنا ووراءنا إلى نهاية المدى. لأنه لا يمكن أن يعلن بودجورنى في هذه الموافقة الواضحة دون تفويض من القيادة السوفيتية. لأن أحداً في روسيا لا يستطيع أن ينفرد برأى. وإنما هو المتحدث باسم القيادة. وإنما هم في موسكو يقولون وهم هنا يرددون. هذه قاعدة.

وبعد اللقاء مع بودجورنى وزخاروف عاد جمال عبد الناصر إلى بيته في منشية البكرى، ورجعت إلى بيتى فى الهرم. وفى الليل دق جرس التليفون وكان المتكلم جمال عبد الناصر قلت له:

- خيراً..

- لا خير. وإنما شر وشر..

- ماذا جرى يا جمال؟

- الجماعة غيروا رأيهم..

- كيف؟

- اتصل بى بودجورنى وقال لى لابد أن أقابلك فوراً. وجاء وقال: إنه اتصل بموسكو بشأن

الدفاع الجوى عن مصر، فرفضوا.. وأنا آسف لذلك..

وسألته: هذا رأيهم النهائى؟ فأجاب: نعم.. والله لقد حاولت كثيراً..

..

..

وللحق أقول إن كلمة «والله» هذه من عندى أنا ! .

فما الذى يمكن أن يقال عن حالنا بعد هذا الموقف: إنهم فى الصباح قالوا: نتولى الدفاع عنكم.. وفى المساء لا نستطيع الدفاع عنكم. وليس من المعقول أن يتطوع رجل بوزن بودجورنى فيقول: نعم.. ثم يقولون له: قل لهم لا.. فيقول لنا: لا.. ولكن المعقول أن هذه هى سياستهم العامة معنا ! وهذه «الرجة» أو «الصدمة» التى يصاب بها الإنسان من هذا الأسلوب المتطرف من الممكن أن يصيبه بالسكتة فيقع ميتا. وقد يؤدى ذلك إلى حل.. أو إلى اتخاذ موقف جديد..

ولكن الذى أصيب بالسكتة فى ذلك الوقت هم الروس أنفسهم.. ففى شهور الصيف فى يوليو وأغسطس يتركون موسكو ويذهبون إلى شواطئ القرم على البحر الأسود. والانتقال إلى القرم فى قاموسهم، معناه الانتقال إلى العالم الآخر.. فلا أحد يرد عليك ولا أحد يسأل عنك.. فكنا نتصل بهم ونصرخ ويكون الرد: إن الزعماء فى القرم.. ثم من هو الذى يرد عليك؟ إنهم سكرتيرى الزعماء أو مديرو المكاتب. فماداموا قد ذهبوا إلى القرم، فلا شىء يمكن أن يحدث، أو لا شىء يمكن استعجاله مهما كان هاما أو خطيرا.. وعليك أن تعتمد على مدخراتك من الصبر، وإن استطعت أن تقترض الصبر من أحد فافعل. إنهم فى القرم.. ولكننا لم نفقد روح القتال، ولا روح الثأر، ولا الحرص الشديد على استرداد كرامتنا.. تلك أيام عصيبة على النفس، على مصر وعلى الأمة العربية. هذه حقيقة. ربما خفتت ألوانها قليلا وجفت دماؤها ودموعها، ولكنها فى القلب فى أعماقه الموجهة.

كانوا هناك فى القرم، وكنا نحن هنا فى مصر نعانى حرارة حقيقية: حرارة الصيف والغليظ معا..

ويكفى أن يتذكر الإنسان وهو يستعرض تلك الأيام الأليمة ما حدث.. فى رأس العرش فى ٦ و ٧ يوليو ١٩٦٧، أى فى نفس عام النكسة وبعدها بشهر واحد، قام طيراننا بما تبقى لديه من طائرات الميج ١٧ وأغار على الضفة الشرقية وعاد سالما. ولكن هذه الغارة التى لم يتقبلها الناس فى ذلك الوقت على أنها حدث عظيم، وأن لها فعل السحر عند العسكريين..

أما الناس - المدينون - فلم يشعروا بها.. فهم معذرون فاليأس قد أغرقهم فى المرارة، والمرارة قد أسلمتهم للتشاؤم. فلم يعد أحد يصدق ما يرى أو يسمع. إنهم معذرون فالذى أصاب مصر لم يكن شيئا هينا، ولسنوات طويلة. وفى ذلك الوقت حاول اليهود دخول بورسعيد أكتساحا لرأس العرش. وواجههم اللواء أحمد إسماعيل - الله يرحمه - . وضربهم ودفع دبابتة. وأوقفهم.

كان اليهود قد أتوا بكاميرات تليفزيونية معهم. لتصوير هذا المشهد.. إلى هذه الدرجة هان أمرنا على اليهود. فكل اشتباك معنا هو شيء بسيط. ويمكن الدخول والخروج فلا أحد أمامهم. ويوم تقدمت قواتنا صرخوا وقالوا: إن التليفزيون الذي أمامكم أمريكي.. فإياكم أن تمسوه! . غرور اليهود وغطرستهم، واستخفافهم بنا هذا الذي يميز القلب حقا.

وفى نفس الوقت تجيء إلينا أخبار من كل اتجاه، ومن وكالات الأنباء ومن الأمم المتحدة ومن الإذاعات العالمية. الأخبار كلها ذات معنى واحد، على رغم أنها من مصادر مختلفة. إذن هو خبر صحيح: أن قوات يهودية سوف تهجم علينا. فما الذي يمكننا أن نفعله أمام حرب الأعصاب هذه. أمام هذه المؤامرة العالمية علينا.. ونحن، كما هو معروف، قد أصبح حالنا بهذا السوء.. والقيادة المصرية عند القاع اليأس من الصديق، وعند قاع المهانة من العدو..

والأخبار تجيء من روسيا ومن أمريكا أن اليهود يتحركون بلواء مدرع في اتجاه القنطرة شرق. فالقنطرة شرق قد استولى عليها اليهود بقوات خاصة. وليست بها قوات مدرعة كافية. وتتوالى الأخبار بأن اللواء المدرع يتجه من العريش على الشريط الساحلى جنوبا. وأنه شوهدت معدات العبور. ومثل هذا التحرك الكبير يمكن معرفته. وفى استطاعتنا أن نعرفه أو نجتمع معلومات عنه قبل اقترابه والاستعداد لمواجهة. والأخبار تنهال علينا من كل اتجاه. هل هو تهديد؟ هل تخويف؟ هل هو لعب بالأعصاب؟ هل هو استخفاف بنا؟ .. هل هي حلقة من سلسلة المحاولات المستمرة لهز أعصاب مصر أو كهربة الجو العام لإسقاط ما تبقى فى مصر؟

وتأكدت هذه المعلومات كلها عند القائد العام محمد فوزى. واتصل محمد فوزى بالقائد الأعلى جمال عبد الناصر. وأخبره أن هناك قوة يهودية. وأن هذه القوة سوف تعبر. وفى انتظار الأوامر.

وفى مثل هذه الحالات يجب ألا نترك هذه القوة تتحرك أو تتقدم دون إرهاق لها.. وهذه بديهيات الفقه العسكرى. ووافق جمال عبد الناصر ولكن بعد ثلاث ساعات اتصل محمد فوزى بجمال عبد الناصر يخبره بأن الطائرات فى الجو ولا تستطيع أن تفعل شيئا. فالضباب كثيف على هذه المنطقة. ضباب فى يوليو؟ حدث كثيرا.

وأذكر أننى بعد ذلك عندما تحدثت عن «الضباب» ، تصورت مراكز القوى فى مصر أن هذا تعبير مجازى أو أنه تعبير رمزى، أى إننى فى مثل هذه المواقف الحاسمة فى تاريخ أمتنا، تحولت فجأة إلى شاعر أو إلى رسام سريالى. وأن الموقف يحتمل مثل هذا اللعب

بآمال الشعوب، والعبث بمقدراتها. ولم يكن الضباب الذى تحدثت عنه إلا ضباباً خفيفاً يغطى أرض هذه المنطقة فى الصيف..

وتوهم بعض الناس أنه كالضباب الذى حدث فى الحرب العالمية الثانية. عندما تنبأت الأرصاد الجوية الألمانية بأن بحر المانش سوف يغطيه الضباب فتمكن بعض القطع الحربية الألمانية من الهرب من الرقابة الإنجليزية وأفلتت إلى المحيط الأطلسى ومرت بجبل طارق واتجهت إلى الأسطول الفرنسى فى مارسيليا.. أى إن هناك توافقا بين الضباب وبين الهروب تحت ستاره..

لم يكن شيئاً من ذلك، كما توهمت بؤر مراكز القوى وفلاسفة الهزيمة فى مصر. إنه ضباب حقيقى: بخار من الماء يظل عالقا فى الهواء كستائر كثيفة حجبت الرؤية عن الطيارين فلم يفعلوا شيئاً، على رغم صدق النية وروح التضحية..

وأنسى جمال عبد الناصر القرار الخاص باستخدام الطيران فى ضرب القوات المدرعة الإسرائيلية التى وصلت وتمركزت. ولم يكن فى استطاعة الطيارين أن ينخفضوا خوفاً من الصواريخ.. وحتى لو فعلوا فلم يكن أحد يستطيع أن يرى شيئاً. وجاء هذا الحادث عبثاً على الشعور العام الذى لم يكن ينقصه شيء ليزداد سوءاً. فالأعصاب مرهقة. والنفوس مشدودة والسما ما تزال مفتوحة. وكل شيء ضباب أكثف من الذى غطى القناة فى ذلك اليوم. وأكثر الناس قدرة على الرؤية لا يستطيع أن يرى أبعد من نفسه. ولكن الذين يتفلسفون فى مصر كثيرون. ولذلك كثرت الوسواس والأوهام والمخاوف. والخلاصة أن الناس قد تعبوا.

والسبب هو:

فشل القيادة المصرية فى ذلك الوقت. ومن مظاهر الفشل سوء تقدير الموقف. فقد اقتنع القادة بأن السلاح الروسى هو الذى فشل. أو هو الذى كان سبب الفشل. وليس هذا صحيحاً. فلا عيب فى السلاح، ولكن العيب فى الرؤوس التى أدارت هذا السلاح.. فالسلاح الروسى لم يهزم، وإنما الذين أمسكوا السلاح هم الذين انهزموا.. ومن طبيعة المهزوم أن يتبرأ من فشله. وأن يلقي بالهزيمة على الآخرين. ويخرج من المواقف بأنه هو المجنى عليه.. ومعنى ذلك أننا لم ننهزم، وإنما هم الذين هزمونا. أما من «هم».. الذين هزمونا؟ لابد أن يكون الجواب: هم الروس والسلاح الروسى!

وهذا ضد الواقع. وللتاريخ أقول: إنها القيادة المصرية الفاشلة التى لم تحسن استخدام السلاح ولم تحسن الإعداد والاستعداد ولا تقدير الموقف ولا إدارة الأحداث بعد ذلك..

والمثل الذى يقول : إن الهزيمة طفل يتيم وأن النصر له ألف أب مثل صحيح. فهل من المعقول أن يكون هناك طفل بلا أب ولا أم ! والجواب : نعم إنه الهزيمة.. أما النصر فله أب وأم وأقارب للأقارب.. إنه ابن من أكبر عائلات التاريخ. أليس نصرا؟ أليس عظمة وكبرياء وكرامة وعملا باهرا؟ وقد رأينا بعد ذلك انتصارات أكتوبر.. وذقنا مرارة اليتيم ونحن ننظر إلى الطفل المنبوذ المشوه الذى يبتعد عنه الناس خوفا من العدوى : الهزيمة !

وكان يوجد ابييف السفير السوفيتى فى ذلك الوقت حزينا بسبب ما تنشره الصحف فى مصر. وبسبب الشوك والطين الذين يرمون به السلاح السوفيتى. ولم يتسع وقتى ولا صدرى فى ذلك الوقت لأقول له هذا الذى أسجله الآن. وإنما كنت أكتفى بأن أقول له : إنها الهزيمة. وقد جربتم ذلك فى حروب كثيرة. وقرأنا فى التاريخ : الويل للمهزوم.. والويل من المهزوم أيضا.. فالمهزوم يلعن الآخرين دائما !

وكان هذا السفير يتردد على بيتى كثيرا وبانتظام. ولا يكف عن الشكوى. وأحاول أن أجد ما أقوله. ولكن الذى أقوله كان يشبه إلقاء قطعة سكر صغيرة فى بحر مالح. فلا أنا قادر على أن أغير طعم الماء فى فم الرجل. ولا هو مقتنع بما أفعل. ولا أنا توقفت عن «تحلية» الماء المالح فى فمه، ولا هو سكت عن الشكوى.

وفجأة أرسل الاتحاد السوفيتى إلى القاهرة ياكوب ماليك، وهو من أقدر الدبلوماسيين السوفيت. وكان من حين إلى حين يلتقى بجمال عبد الناصر ولا بد أن السوفيت قد أرسلوا هذا الرجل ليرقب الوضع كله عن قرب. وليكون إلى جوار جمال عبد الناصر يواسيه ويخفف عنه. ويبصره بالأمور الدولية وموقف السوفيت. وليناقش معه احتياجات مصر إلى السلاح. لابد أن يكون هذا هو السبب فى إيفاد رجل بهذا القدر العظيم عندهم. فالسفير السوفيتى وحده لا يكفى لمعالجة الموقف، أو حتى ليكون محطة إنذار مبكر لنا. أو علينا. فياكوب ماليك كان مندوبهم فى الأمم المتحدة، وقد تفرس فى السياسة الدولية ورصد الأحداث قبل وبعد وقوعها..

ولم يطل انتظاره فقد بدأ ينشط. وكان أول نشاط له أن طلب مقابلة جمال عبد الناصر لأمر هام. والتقى به جمال عبد الناصر. فقال له ياكوب ماليك : جئتك بنبا هام. هل أنت على استعداد لسماعه.

قال له جمال عبد الناصر : أعصابى ما تزال قوية. وأستطيع أن أسمع منك أى شئ.

قال له : هناك مؤامرة !

- مؤامرة على من؟
- عليك يوم السبت القادم.. أى بعد يومين فهل أنت جاهز؟!
- لا تخف من هذه المؤامرة أو من هذا الانقلاب.. فنحن نرصد كل شىء.. وقد ظننت أنك جئت لشىء أخطر من ذلك.
- هل هناك ما هو أخطر من انقلاب عليك يطيح بك.. ويعاقبك على الهزيمة.. ويكون العقاب من شعبك؟
- نعم هناك ما هو أخطر من ذلك وهو أن تبعثوا لنا بسلاح نواجه به العدو.. ونعيد للناس كرامتهم.. فإذا حدث ذلك فلا خوف من انقلاب.. فالناس يتعجلون النصر.. ويريدون القتال وروحهم المعنوية لم يزهقها اليأس بعد..
- والحقيقة كان الضباب يلف الناس جميعا.. وكلهم يتخبطون بعضهم فى بعض.. وكانت النعمة السائدة فى ذلك الوقت: السلاح السوفيتى هو الذى هزمنا.. السلاح السوفيتى الذى انهزم أمام السلاح الأمريكى المتفوق.. إننا لم نهزم وإنما هم الروس قد سقطوا أمام الأمريكان.. فليست معركة يونيو ٦٧ إلا معركة لتجربة السلاح الأمريكى والروسى ومعرفة أيهما أقوى وليس المصريين واليهود إلا فئران «المعامل».. وقد أجريت علينا التجربة بمنتهى القسوة. وانهزمت الميج أمام الفانتوم.
- وأعاد جمال عبد الناصر على ياكوب ماليك كل ما فى نفسه.. فلا الروس أرسلوا سلاحا.. ولا الروس بعثوا بصواريخ لمواجهة الطيران المنخفض.. ولا أدركوا من صمودنا فى معركة رأس العش أن روحنا المعنوية ما تزال قوية.. ولا أدرك الروس أيضا أن استعدادنا لمواجهة اللواء المدرع الذى زحف على القنطرة شرق يدل على أن رغبتنا فى القتال ما تزال قوية وصادقة.. لا شىء من ذلك قد زحزح الروس عن موقفهم.. ولا حتى استجابوا لرغبتنا فى أن يتحرك أسطولهم الكبير فى البحر الأبيض نحو مدينة بورسعيد.. أو قطعة واحدة.. لعل وجودها هناك أن يخيف اليهود أو يردهم.. أو أن الوجود السوفيتى هذا يعطى معنى أو بعدا أعمق.. لا شىء من ذلك.. وظلت إسرائيل فى غطرستها وأسرفت فى ذلك. وعلى رغم كل ما يقوله وما يفعله اليهود فإنهم لم يفلحوا فى أن يردوا قواتنا إلى ما وراء رأس العش وظل هذا الموقع فى أيدينا منذ ذلك الوقت. ألا يدل هذا على شىء؟ لا يجد الروس فى ذلك أى معنى لصمودنا أو إصرارنا.

ومع أننا لم نطلب من الروس أن يدافعوا عنا بحرا، وإنما فقط أن تظهر قطعة عسكرية لهم عند بورسعيد. فقط مجرد ظهور، لم يفعلوا شيئا من ذلك إلا في سبتمبر.. جاءت قطعة. ووقفت. وجاء وقوفها عند بورسعيد بالضبط في الوقت غير المناسب. فلم يعد لدينا أى أمل فى أن يفعلوا شيئا، وحتى إذا فعلوا فلا قيمة ولا أهمية ولا فعالية لذلك!

وكان الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد للروس وغيرهم أن رغبتنا فى القتال وفى الانتقام وفى استرداد الكرامة رغبة حقيقية صادقة. فحدث ذلك الشيء الجليل فى تاريخنا وفى تاريخ البحرية فى العالم كله. اقتربت المدمرة الإسرائيلية «إيلات» من بورسعيد فضربها زورق طوربيد مصرى: صاروخا فى قلبها والثانى أجهز عليها وأغرقها تماما. وهنا يجب أن يتوقف التاريخ والمؤرخون طويلا. وندع الكلام عنا للمحررين العسكريين الغربيين والأمريكان. حتى لا يكون كلامنا عن أنفسنا نوعا من الغرور أو نوعا من تعويض الهزيمة السابقة، بإغراق أنفسنا فى المديح.

فهذه أول مرة فى التاريخ البحرى، أو فى تاريخ المعارك البحرية أن تطلق مصر صاروخا بحريا موجها فيكون له دوى عالمى.. أو إن هذه هى أول مرة ينطلق منها صاروخ بحرى موجه فى العالم كله.. عند كل الدول التى لها أساطيل بحرية.. والمعنى الثانى والهام جدا، وليس هذا كلامى وإنما هو كلام المؤرخين العسكريين الأجانب جميعا، إن السفن الحربية الكبيرة لم تعد لها فاعلية أمام الزوارق الصغيرة حاملة الصواريخ. فقط كانت إيلات مدمرة ضخمة. وقد أضافوا إليها تعديلات فى انجلترا حتى جعلوها ترسانة بحرية ومفخرة للبحرية اليهودية. فلما أصابها الصاروخ الأول شطرها نصفين. وجاء الثانى أغرقها. ولم تكن بعد ذلك فى حاجة إلى صاروخ ثالث..

وليس من قبيل التواضع أن أتوقف عن وصف وإحصاء ما حدث فى العالم كله. وإنما من باب الدقة وتسجيل التاريخ أترك الكلام للمؤرخين العسكريين وللمعاهد الاستراتيجية وحدها أن تقول وتصل وتداول. وخلاصة ما حدث بعد ذلك أن تغيرت الاستراتيجية البحرية العالمية واتجهت العيون إلى زوارق الطوربيد الصغيرة التى تحمل طاقما من ١٧ فردا القادرة على إغراق مدمرة بها ٥٠٠ فرد ومليئة بالأسلحة والذخيرة وتكلفت عشرات الملايين من الجنيهات..

وبعدها بأربعة أيام أغار اليهود على السويس وضربوا مصانع تكرير البترول فى «الزيتية».. أى إننا ضربنا لهم هدفا عسكريا فأصابوا هدفا مدنيا منتهى السفالة والخسة.

ولكن اليهود دائما هكذا. معاركهم بلا شرف.. واشتعلت النار في معاسل التكرير طبعاً والتقطوا لها الصور وأذاعوا وأشاعوا في العالم أن الانتقام كان صاروخاً ملتهباً.. وأن النار ظلت مشتعلة في السويس شهوراً..

إلى آخر الأكاذيب التي يتقنها اليهود ويعيشون عليها ويصدقونها مثل أكذوبة أن فلسطين وطنهم الذي ذكرته كتبهم المقدسة. مع أن كاتباً يهودياً كبيراً قد أصدر كتاباً يقول: إن اليهود لا حق لهم في فلسطين. وإنهم ليسوا ساميين إسرائيلييين كما يدعون. المؤلف اليهودي الذي كان صهيونياً وشيوعياً أيضاً اسمه أرثر كيستلر. والكتاب اسمه «القبيلة الثالثة عشرة».. وغيرها من الأكاذيب التي تحتاج إلى دراسة ومتابعة. وأعتقد أن من واجب المفكرين والمؤرخين أن يعنوا بذلك. فهذا أنفع لهم ولنا من موضوعات تافهة يرددونها دون أن يتوقفوا عندها لحظة ليتساءلوا: لمن يكتبون ذلك؟ وما هي الفائدة التي يجنيها القارئ من ذلك؟ أو ماهو الشيء الذي يضيفونه إلى الفكر الإيجابي المصري أو العربي؟

وجاءت الغارات على الزيتية، كأيّة غارة حدثت في أية حروب في الشرق أو الغرب. ولم تستطع هذه الغارات أن تمسح من كتب التاريخ حادثة إيلات الفريدة في البحرية العالمية.

ولكن هل حادثة المدمرة إيلات وانتصار البحرية المصرية بالسلاح السوفيتي قد غير شيئاً من موقف السوفييت. لم يتغير شيء. هل يصدق الروس أن أحداً يصدقهم في مصر؟ لقد كانت أزمة صدق وتصديق. لا هم يصدقوننا ولا نحن نصدقهم. ومن الضروري أن نتعامل معهم. وأن نبقي العلاقات أقوى. وأن يبقى الطريق مفتوحاً ذهاباً وإياباً بحراً وجواً. ولكن كيف؟

فبعد خمسة شهور جاء شهر نوفمبر وفي اليوم الثاني والعشرين منه بالضبط كان عندنا أول خط دفاعي. ولابد أن أؤكد هنا أن ذلك قد حدث بعد مائة وخمسين يوماً. وكان السوفييت يؤكدون لنا أننا لن نستطيع استيعاب سلاحهم إلا في ضعف هذه المدة.. وفي ذلك الوقت كنت رئيساً لمجلس الأمة. وكان جمال عبد الناصر يجب أن يفتتح الدورة الجديدة بخطبة. فالشعب ينتظر منه ذلك والأمة العربية والسوفييت والعدو أيضاً.

وأخذت الحيرة جمال عبد الناصر وسارت به في متاهات. ما الذي يقوله للشعب؟ كيف يواجه الناس؟ هل يضعف؟ هل يجاهر بضيقة وقرقه؟ كيف يفعل ذلك وهو يعلم أن القوات المسلحة ماضية في الاستعداد والدفاع ليلاً ونهاراً؟. هل يصارح الناس بحقيقة السوفييت؟ وإذا فعل فما الذي يجنيه من وراء ذلك؟ وما هو البديل لكل هذا؟

وقال لى جمال عبد الناصر يومها : أنا لا أستطيع أن أغير لهجتى . ولا أن أغير لسانى . ما لم يكن لدى ما أقوله .. فلن أتكلم .. اذهب وفتش عن الخط الدفاعى .. فإذا كان كل شىء قد اكتمل تماما ، هنا فقط أستطيع أن أتحدث إلى الشعب من مجلس الأمة ..

وسافرت إلى القيادة . وقابلت أحمد إسماعيل قائد الخط فى منطقة القناة . وسألته بوضوح يوم ٢١ نوفمبر : هل أنت مستعد؟

قال : نعم مستعد .

وأعدت عليه السؤال مرة أخرى : هل أنت مستعد تماما . إن الإجابة عن هذا السؤال يتوقف عليها الكثير .. إن جمال عبد الناصر سوف يخطب يوم افتتاح مجلس الأمة .. ولا بد أن يقول للناس . وكل كلمة تقولها أنت محسوبة عليه وعلينا .. إن ردك عسكرى ولكن كلامه هو سياسى فى الدرجة الأولى .

وأكد لى اللواء أحمد إسماعيل أن الخط الدفاعى قائم على أحسن وجه ، أى إن قواتنا قد استوعبت السلاح السوفيتى تماما وقام لنا أول خط دفاعى من بورسعيد للسويس .

وصدقت أحمد إسماعيل . وأنا أصدقه وأحبه . وأحمد إسماعيل دفعة جمال عبد الناصر . وكنا أصدقاء منذ أيامنا فى منقباد . ورأيت «قرار» أحمد إسماعيل . فكان عند رأيه وعند صدقه . ومما أعجبنى فى ذلك الوقت استعداد أحمد إسماعيل وتصميمه . والقادة الذين معه أيضا . وقد رأيت أشكالا للاستعداد والتقرب والاستطلاع . فرأيت قوات للصاعقة وقد تعلقت على الشجر ترصد العدو وتصيده عند اللزوم .

وأراحنى ما رأيت وما سمعت . وعدت إلى القاهرة وقلت لجمال عبد الناصر : على بركة الله تستطيع أن تقول ما يرضيك عند افتتاح مجلس الأمة ..

وفى مجلس الأمة أعلن جمال عبد الناصر عن رأيه فى المعركة . وأنه لن يقبل أية تنازلات مهما كانت النتيجة التى وصلنا إليها ، أو التى يمكن أن نصل إليها ..

وما كان يستطيع جمال عبد الناصر أن يقف بهذه الصلابة ويقول ما قال ، لولا هذا الخط الدفاعى . ف وراء هذا الخط علينا أن نجلس وندرس ما كان وما يمكن أن يكون بعد ذلك . فالإرادة موجودة والتصميم جاهز .

ولكن السوفيت لم يفعلوا شيئا . فلا يزال الزعماء فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود . ولا تزال السكرتارية هم الذين يردون علينا .. أو هم الذين لا يردون .

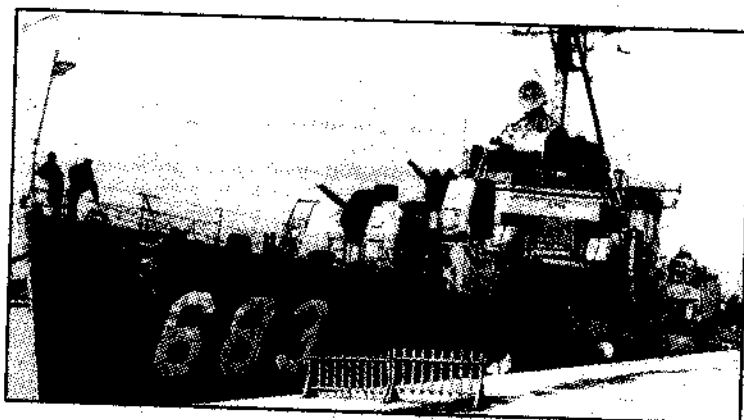
وعندما عاد الزعماء من الشواطئ أخذوا يردون علينا. ولكن طريقتهم في الرد هي نوع من الاستمرار في الصمت أو عدم الرد.. ولابد أن تكون وجهة نظرهم في ذلك أننا رؤوسنا «ساخنة».. ويجب أن يتركونا حتى تبرد درجة حرارتنا. فإذا بردت ابتلعنا سكوتهم وإهمالهم لنا.

ولتفسير ذلك يجب أن نلقي نظرة بسيطة جدا إلى الرجل الذي يعمل في طرق الحديد فهو وحده القادر على أن يشرح لنا ذلك السلوك السوفيتي - ربما - فالحديد يضع الحديد في النار. ويدقه ساخنا حتى يلتوى في يده.. ثم يضعه في الماء البارد فيتجمد. أي يثبت على الوضع الذي كان عليه.. فإذا أراد أن يقيم التواءه، أو يلوى استقامته أعاده إلى النار.. ثم إلى الماء.. ثم إلى النار وهكذا.. حتى يفقد الحديد شكله أو حجمه.. أو يفقد الإنسان وعيه فلا يعرف له شكلا أو لونا أو أصلا.. وفي النهاية ينسى الإنسان نفسه واسمه والقضية التي جعلته يقبل دخول النار، ويحتمل الماء البارد..

لقد حاول الروس مع جمال عبد الناصر، وأعادوه معي.

حتى دخلنا حرب الاستنزاف!





١ - الدمرة إيلات .



٢ - السادات مع تيتو .

٣ - عبد الناصر والسادات
وحسين الشافعى فى حرب
الاستنزاف .



٤ - المشير أحمد
إسماعيل .



ناصر فوق صفيح ساخن



■ سوف تجيء لحظات كثيرة أدوس فيها
على كبريائي وابتلع كرامتي من
أجل مصر.

■ كيف أعاد السوفيت جمال عبد الناصر
عشرين عاما إلى الوراء من شدة الفرح ثم
ألقوا عليه عشرين عاما أخرى من شدة
الحزن؟

■ عبد الناصر لم يكن شيوعيا فى أيتا
لحظة كما أننى لست شيوعيا ولن
أكون.

■ المسكوت عنه فى أحاديث ناصر
بالكرملين.

على الرغم من هذه الحالة النفسية الرهيبة التي نعانيها على مستوى القيادة في مصر، كان علينا أيضاً أن نبقي على الروح المعنوية عالية في الجيش الذي يتدرب باستمرار وينتظر السلاح، وأن نؤكد للشعب الذي طحنه الهزيمة أننا جادون.. وفي نفس الوقت أن نواجه الغطرسة الاسرائيلية ورعونة القيادة عندهم.. وإذا كنا نحن متفوقين عليهم بالمدفعية دائماً، فلديهم الطائرات التي بدأوا يستخدمونها بدلاً من المدفعية. وقد زادت غطرسة اليهود وعربدتهم في سمائنا. وكان ذلك نوعاً من العذاب والهوان ينزل على رؤوسنا من السماء. والروس لا يساعدوننا على مواجهة هذا التحدي العنيف لنا ولكبريائنا وآمالنا في أن نكون في وضع أحسن. وإذا كانت السماوات المفتوحة تعبيراً مخيفاً عند العسكريين، فإن الليالي القمرية أشد بشاعة من ذلك.. فوسط المدافع والدبابات والصواريخ وانتظار النار نطلقها وتنطلق علينا من طائرات الهليكوبتر من رأس محمد إلى الصعيد. تلقى باليهود وبالمتفجرات على القناطر والسدود وأعمدة الكهرباء.. ولكن في ذلك الوقت صدر بيان ٣٠ مارس وتم الاستفتاء عليه. وكان ذلك تجميعاً للناس حول خطة العمل. وتوحيداً للأمال والأحلام.. فلا يبق أماننا إلا أن نعمل. والعمل كله من أجل التحرير واسترداد كرامة الشعب الجريح.

وسافر جمال عبد الناصر إلى مصحة اسخلطوبو للعلاج وبقي بعض الوقت. وشفي من أوجاعه. وكان ذلك الشفاء فألاً حسناً. وشفي البلد أيضاً من بعض أوجاعه. وكان علينا أن نواجه العدو الذي أعطته الليالي القمرية ستاراً فضياً لا يمكن أن يكون شاعرياً، للعريضة في سماء مصر وفي الصعيد.. وكانت هذه الأعمال الإجرامية خطوة عنيفة في حرب الاستنزاف. وأعترف للتاريخ بأنها هزت النفوس، وزعزت الأيدي على السلاح. فنحن بشر ولكنها ضاقت إصرارنا على التحدي والتصدي.

وأول ما قام به اليهود في سماواتنا المفتوحة وليالينا القمرية الصافية أن نزلوا عند محطة الكهرباء في نجع حمادى وكوبرى قنا وقناطر نجع حمادى أيضاً، والمسافة التي

تقطعها الطائرة اليهودية من رأس محمد عند رأس مثلث شبه جزيرة سيناء إلى قنا صغيرة جداً، ربما لا يراها الإنسان إذا نظر إلى الخريطة.. ومن هنا كانت مثل هذه العمليات سهلة التنفيذ والإخفاء أيضاً.

ومعروف لنا وللعالم كله ما حدث عندما انزلوا بعض رجالهم عند محطة نجع حمادى التى تقع على أطراف المزارع والصحراء. وهناك ضربوا عشرة محولات لكهرباء السد العالى. هذه المحولات على عربات سكك حديدية. وقد ذهبت فى اليوم التالى مباشرة ورأيت بنفسى ما حدث.. ثم إنهم ضربوا أيضاً كوبرى قنا وكان تحت الإنشاء. ثم ضربوا قناطر نجع حمادى. وهى إحدى ثلاث قناطر فى الوجه القبلى: قناطر ادفو ونجع حمادى وأسيوط. وكل واحدة تتحكم فى رى نصف مليون فدان. وكل هذا معروف ومرصود فى العالم كله.. وكانت الإصابات فى هذه المنشآت المعمارية الهندسية سطحية وطفيفة لحسن حفظنا وسوء بختهم خصوصاً أنهم بعد أن قاموا بأعمالهم المسرحية التليفزيونية أبلغت طائراتهم قيادتهم أن مصر كلها غرقت وأعلنت القيادة فى الإنذاعة أن الأرض قد غطتها المياه.. وأنهم هم الذين أتوا بالطوفان.. وهذا هو أحد أحلام اليهود.. فهم لم ينسوا ولن ينسوا أن مصر كانت تتغنى فى أوج المد القومى التحررى: فى البحر حندفنكم.. أى إن المصريين كانوا يمتنون أنفسهم بدفن القوات اليهودية فى البحر.. وكان اليهود يمتنون أنفسهم بأنهم هم الذين سيدفنون المصريين فى البحر. تماماً كما حدث أيام موسى عليه السلام.. وقد ذكرت قبل ذلك أن بعض آبائهم تخيل أن السد العالى قد نسفه اليهود ففرقت مصر؟!

وبعدها يقوم اليهود بدور نوح عليه السلام فينقذون العالم كله بسفينتهم - وطبعاً لن ينقذوا مصر - إلى آخر أحلامهم التى يتوهمون دائماً أنهم اقتربوا منها.. وأن ضرب القناطر والكبارى سوف يكون خطوة فى الطريق إلى إغراق مصر.!

وكان من الطبيعى أن نعاود مناقشة الموقف بأكمله. هل نمضى فى حرب الاستنزاف؟ هل نظل نضرب بالمدفعية استحكامات العدو؟ وبالصواريخ طائراته إذا جاءت عالية. لأنه لا قدرة لنا على مواجهة الطيران المنخفض؟ هل نظل نحارب بشرف وهم يحاربون بسفالة وخسة؟ نضرب لهم العسكريين ويتجهون هم إلى ضرب المدنيين؟

وللتاريخ أعترف بأن الذى حدث فى حرب الاستنزاف فى أواخر ١٩٦٨ وأوائل ١٩٦٩ كان له أعمق الأثر فى نفسى.. بل إن هذه المشاعر المضيئة التى كانت تلقيها الطائرات اليهودية

على خطوطنا فتجعل الليل نهراً قد أضاءت لى أشياء كثيرة .. بل إننى أقول للتاريخ إن قرارى الذى اتخذته يوم ٨ يوليو سنة ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت قد ولد فى ذلك الوقت .. ويومها لم يكن يخطر على بال أحد أن جمال عبد الناصر سوف يموت فى سبتمبر ١٩٧٠ وسوف أتولى الحكم من بعده .. ولكن أعترف أن عقلى اشتغل بسرعة ، وأيقنت تماماً أن حالنا فى الحضيض .. وأننا لا يمكن لأى سبب . أن نترك الصعيد عارياً ونظل نقذف العدو بالنار فى الشمال .. وأكثر بلادنا بلا حماية ولا وقاية . وفى ذلك الوقت قال فلاسفة الهزيمة وبؤر مراكز القوى السامة ، يجب أن نمضى فى حرب الاستنزاف حتى النهاية لأنها مسألة كرامة ..

يعنى أنه من الكرامة عندهم أن نحارب فى الشمال ، وأن نتركهم يغرقون مصر فى الجنوب .. أى إنه مهم جداً عند «هؤلاء» أن نفرق القنابل والمدافع على القناة ونشعلها ناراً ، إلى أن تجيء مياه السد العالى والخزانات وتطفىء هذه النيران مأساة لو فعلنا ذلك . أو إذا ظللنا باسم الكرامة الزائفة نترك أهدافنا الحيوية بلا حماية من ألعيب العدو ..

وأين نذهب من التاريخ إذا نجح العدو فى إغراق نصف مليون فدان أو مليون فدان .. إن مصر لا تقوى على احتمال الفرق بعد الهزيمة ، والجوع بعد الهوان .. صحيح أن شيئاً من ذلك لم يحصل . ولكن ماذا لو حصل . إننى أذكر أنه فى سنة ١٩١٣ لم يأت الفيضان بماء يكفى لرى مصر . فزرع المصريون نصف الأرض . ولكن أحداً لم يمت من الجوع فى ذلك الوقت لأن عدد سكان مصر كان سبعة ملايين .. ولكن الآن ونحن ٣٥ مليوناً ، ومساحة الأرض لم تعد تكفى لهذه الأفواه .. كارثة كبرى ، لو حدث ما تمناه اليهود ، وما نخوفنا نحن من وقوعه ..

ولكن الروس لم يمكنونا من الدفاع عن أهدافنا الحيوية .. فما الذى يمكن عمله بعد ذلك ؟

وكنا قد أحصينا المراكز الحيوية فى مصر التى يجب إعطاؤها الأولوية فى الدفاع عنها ، فوجدناها ألفى هدف . وأنا أذكر هذا الرقم جيداً ، فقد كان أحد همومى الكبرى أن أدافع عنها جيداً قبل أن أبدأ معركة أكتوبر ٧٣ .

ومازالت حرب الاستنزاف مستمرة . ضرب من هنا ، غارة من هناك . مرة تشد ومرة تخف حدثتها ولكن الحرب على الجانبين لم تتوقف . أعصاب مشدودة طبعاً ، انتظارا للفرج .. والفرج لا يجىء من روسيا ببطاريات صواريخ للدفاع عن هذه الأهداف الاستراتيجية .

وظلت مصر فى هذا العناء والدوخة مع السوفيت حتى سنة ١٩٧٠ عندما قبل جمال عبد الناصر مبادرة روجزر أمام القادة السوفيت فى الكرملين ..

وقبل أن أمضى إلى سنة ١٩٧٠ لا بد أن أتوقف لأبدي بعض الملاحظات التي أراها ضرورية على حرب الاستنزاف وعلى ردود الفعل العامة لذلك..

ولو كان هذا التاريخ الذي أرويه موجهاً للعسكريين وحدهم، لكان من السهل جداً أن أشير إلى ذلك في سطور، ولكنني أتوجه به إلى شعبي وإلى الذين يقرأون التاريخ من الشباب لكي يتأملوا حتى يعرفوا الحقيقة. فهذه الحقيقة، كانت وما تزال وسوف تبقى هدفي، من أجل مصر وسلامة مصر ورخاء مصر. وسوف تجيء لحظات كثيرة أدوس فيها على كبريائي، وأبتلع كرامتي من أجل مصر. ومن هنا كانت المصارحة والصدق: أسلوباً وغاية من كل الذي أقول..

من هذه الملاحظات أن حرب الاستنزاف هذه تستهلك كميات هائلة من الذخيرة، ومن الملاحظات أيضاً أنها نوع من «هز» الموقف ولكنها لا تحركه. وهي تأكيد مستمر للعدو ولأنفسنا أيضاً أننا في حالة صحو تام. وإذا كنا وكان العدو في حالة من الصحو فإن هذا الصحو أقرب إلى الأرق. وإذا كان الأرق طويلاً هكذا، فمن المؤكد أن الإرهاق هو النتيجة الطبيعية لذلك.. وليس الإرهاق حالة تزول، ولكنه حالة لا تزول..

فإذا أضفنا إلى ذلك ما فعله اليهود في معركة الجزيرة الخضراء وما فعلناه نحن وجدنا موقفاً منعشاً، أي إنه موقف يغرينا بالاستمرار، بل يدفعنا في الطريق إلى الاستمرار في هذه الحرب «القاعدة» أو الحرب «الجالسة» على الضفة الشرقية للقناة.. لأننا نضرب ونحن جالسون، واليهود يضربون طائرين في الجنوب يفعلون ما يحلو لهم.. وكان ضربنا اليهود في الجزيرة الخضراء بعنف. وكل ذلك معروف لنا للعالم كله.. وكان من الطبيعي أن يستمرئ اليهود الدخول والخروج والسخرية بنا أمام العالم.. فتمادوا بعد ذلك عندما ضربوا أبو زعبل ومدرسة بحر البقر ودخلوا إلى الاسكندرية.. وكان في استطاعتهم في ذلك الوقت أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك. ولم يتوقف هذا كله إلا بعد أن أمدنا الروس بصواريخ سام ٣..

ولم تكن عندنا «خطوط» ذخيرة أو «وحدات نارية» كما يقول العسكريون الآن. ويظهر أن هذا هو أسلوب الدول الكبرى. فقد قرأت مناقشة الكنيست الإسرائيلي ووجدت موسى ديان يشكو من أن أمريكا لم تمددهم بالسلاح المطلوب. طبعاً هو يشكو أيضاً من أن السلاح أقل مما يحتاج إليه.. ولكن هناك فارقاً ضخماً بين موقف أمريكا مع إسرائيل وموقف روسيا معنا.. فإذا أمريكا أعطت اليهود ٩٩ مدفعاً وكان اليهود قد طلبوا مائة مدفع يصرخون.. ولكن إذا طلبنا من الروس ٩٩ مدفعاً وأعطونا تسعة مدافع فقط وصرخنا، أندھش الروس لذلك.. إن

كيف نصرخ ولا نصبر عليهم سنة أو سنتين ليكتمل هذا العدد. وفي نفس الوقت يكون اليهود قد حصلوا من أمريكا على أضعاف هذا العدد من الأسلحة الأكثر تطوراً!

ولكن الدول الكبرى تعطي بحساب. وإن كان هذا «الحساب» يختلف من دولة إلى دولة.. وفي ذلك الوقت تحرك الروس. وقالوا لجمال عبد الناصر أن يقوم بعملية «تبريد» عامة.. أما «التبريد» المطلوب فهو وقف حرب الاستنزاف قليلاً.. أى مطلوب من جمال عبد الناصر أن ينهى هذه الحالة التي لا هى حرب ولا هى سلم.. وأن يتفرج على اليهود على الضفة الأخرى من أرضه. ويسكت. وأن يراهم يدخلون سماء مصر يفعلون بالشمال والجنوب ما يحلو لهم. ويسكت وأن يرى السلاح يتدفق على اليهود من أمريكا ويسكت.

وأظن أن موسى ديان هو الذى قال إن وجود اليهود على الضفة الغربية، على مرأى ومسمع من المصريين سوف يصيبهم بهزات كهربية. وأن المصريين لا يمكن أن يعتادوا على هذا الهوان. ولذلك كان همى الأول أن أدفع باليهود إلى الوراء وأفتح القناة وأرد لمصر كرامتها، وبذلك تتأجج عند الناس مشاعر أخرى غير الهوان والهزيمة والعار والندم.

بل إن هذا الموقف دفع عدداً من الكتاب المصريين يقولون: كيف نترك أولادنا حملة المؤهلات يجلسون هناك على الرمال تحت الشمس.. دون عمل؟

شئ غريب: كأن أداء الواجب الوطنى والدفاع عن مصر ليس عملاً؟ أو كأن الذى يحمل مؤهلات يجب إعفاؤه من هذا الواجب المقدس؟ وكأن الدفاع عن مصر خاص فقط بالذين لم يتعلموا؟ إنه أسلوب عجيب ولا أعرف من أين أتوا به.. أو كيف نشروه على الناس، مع أن الدول الأخرى، شرقاً وغرباً قد دخل شبابها الحروب. ولا يوجد واحد لا يضع فى بيته أو فى جيبه صورة له وقد ارتدى ملابس القتال. لأن هذه الملابس شرف والدفاع عن الوطن دين. وقد وجهت لوماً عنيفاً إلى هؤلاء الكتاب الذين يدعون إلى التخاذل والهزيمة واليأس والذين يفرقون بين الذى يحمل مؤهلاً والذى لا يحمل مؤهلاً فى الدفاع عن مصر وشرف مصر. إن الحرب هى أكبر بوتقة لتذويب ما بين الناس من خلاف فى رأى أو فى الطبقة أو فى اللون. فكما أن النصر شرف عام والهزيمة عار عام. ونحن جميعاً أمام النصر أو الشهادة سواء - هذا ما نقوله لرجالنا الشجعان المقاتلين ..

وأملى ألا يعود كتابنا إلى شئ من ذلك. فقد ذهبت هذه الموجة السوداء المريرة إلى غير رجعة إن شاء الله.. لأن واجبنا الآن أن نفرش الطريق بالأمل فى حياة أفضل .. وواجب

الكاتب أن يدافع بقلمه وعلمه ووجدانه عن مصر .. يدفع عنها اليأس ويحميها من الشك .. فالكاتب جندي ومهندس وطبيب وشعلة تضيء وتهدي الناس إلى الطريق السوي. هذا واجبه وقدره.

واستنزفتنا حرب الاستنزاف. وتلاشت الذخيرة وراء مدافعنا. وأعترف أن بعض المدافع عندنا تحولت إلى قطع حديد بارد.. لأنه لا توجد خطوط ذخيرة كافية. ولم يتوقف جمال عبد الناصر، ولا أنا بعد وفاته، عن طلب المزيد من الذخيرة عن طريق الكوبري الجوي أو الكوبري البحري ولكن الروس لم يفعلوا شيئا. كان الصمت أفضل منه..

ولم يعد سرا أن أقول مرة أخرى إن الذي طلبته أيام حرب الاستنزاف قد وصلنا عندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ - وفي استطاعتك أن تضيف إلى هذه الحقيقة المؤلمة ما شئت من علامات التعجب والاستفهام؟! وقد اضطررت إلى أن أحصل على أسلحة من سوريا ومن العراق قبل بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣. ففي نفس الوقت الذي كانت الذخيرة مكدسة في سوريا كان وراء مدفعي خط ذخيرة واحد، بينما المدفع السوري وراءه من ثمانية إلى أحد عشر خطا. لا أحسد ولا أحقد على سوريا طبعاً لأنها دولة شقيقة وأتمنى لها ولنفسى القوة والمنعة؟

ولكن إذا وضعنا التمني جانبا يتبقى هناك شيء هام: وهو أن يدلني أحد على معنى هذا كله؟ ما معنى أن تعطى روسيا لسوريا ولا تعطى لمصر. مع أن القضية واحدة، والسلاح الذي تحارب به واحد. وإذا كنا نحن نحارب لأنفسنا، فمن المؤكد أننا نحمل السلاح السوفيتي في مواجهة السلاح الأمريكي وإذا انتصر السلاح السوفيتي فهو انتصار لهم. ثم هذه الوعود التي أغرقونا بها.. والانتصار الطويل والتأكيد المستمر بأن السلاح في الطريق .. إلى آخر ما اعتاد الروس أن يقولوا وما اعتدنا أن نصدقه أو نؤمّن أنفسنا بأننا نصدق.. مطلوب أن أجد تفسيراً لهذا الذي يعمل به الروس، أن أجد معنى للإسراف هناك والتقتير هنا.. التكديس هناك، والندرة عندنا... الكوبري الجوي الذي لم يتوقف نزوله في سوريا، والكوبري الذي لم تقم له قائمة بيننا وبين روسيا..

ولكني لا أعفى رجالنا العسكريين من المسؤولية، كلها أو بعضها.. فمثلاً عندما كان لدينا الصاروخ سام ١ و٢ كان لا بد أن يطلب رجالنا صواريخ لمواجهة الطيران المنخفض في سنة ١٩٦٤. ولكنهم لم يفعلوا. أو لعلهم طلبوا. ولم يستجب لهم أحد.. أو أن الروس أجابوا بأن هذه الصواريخ التي تواجه الطيران المنخفض لا وجود لها عندهم. وهذه عادة سوفيتية

معروفة. فهم يقولون لك. لا يوجد.. مع أن الذى لديهم كثير من كل نوع، ومن كل الأسلحة المتطورة أيضا.

وقد حصل اليهود على صاروخ هوك من الرئيس كيندى. ولا بد أن الأمريكان، كما ذكرت من قبل فى هذه «الأوراق» قد واجهوا الصواريخ السوفيتية التى تواجه الطيران المنخفض. أى إن اليهود لديهم معلومات كافية عن الصواريخ السوفيتية التى جربت تماماً فى فيتنام، فإذا أعطاهم الروس لنا، لم يكن ذلك مفاجأة تامة لليهود. ولكن من المؤكد أنها سلاح خطير ومخيف. وقد حدث ذلك عندما أعطيت لنا صواريخ الارتفاعات المنخفضة توقفت العربية والصعلكة الجوية اليهودية فى سموات مصر.

ولم نحصل على صواريخ سام ٣ إلا فى سنة ١٩٧٠ بعد غارات اليهود على أبو زعبل وبحر البقر. وهذه الصواريخ أوقفت ضرب اليهود للخط من بورسعيد إلى السويس تماماً. وكان اليهود قد اعتادوا على الإغارة بمئات الطائرات من الشروق حتى الغروب. وأكرر مرة أخرى أننى لا ألوم المستشارين العسكريين السوفيت على أنهم لم يبعرونا بهذا الخطر الحقيقى. وإنما ألوم العسكريين المصريين الذين لم يبادروا بطلب هذه الصواريخ.. وأن كنت أجد بعض العذر للعسكريين المصريين الذين تعلموا العقيدة العسكرية السوفيتية. فالذين ذهبوا إلى روسيا ليتعلموا لم يحصلوا على كل شىء ولا حتى على القدر المعقول المطلوب من التكنولوجيا الحديثة، فالروس يعلمونهم. ويوقفونهم عند حد معين. ويقولون لهم هنا وكفى!

وفى نفس الوقت يكون الروس معقولين جداً عندما يقولون لنا بعد ذلك: ليس فى استطاعتكم استيعاب الأسلحة الحديثة بسرعة.

لماذا؟ لأن رجالنا لم يتعلموا هناك بدرجة كافية حتى يسهل عليهم استيعاب أسلحتهم الحديثة. وبذلك نخسر الوقت.. وأهم من ذلك يتمكن رجالنا من استخدام السلاح السوفيتى، والانتصار به هذا يخدمكم أكثر مما يخدمنا.

ويكون ردهم عادة: معقول جداً، وهذا ما سوف نعمله ولا يعملون شيئاً.. أى لا يتركون أبناءنا يتعلمون بما فيه الكفاية، ولا يبعثون بالسلاح الضرورى لذلك. ويتجدد الموقف المعروف بيننا وبينهم: نحن نطلب وهم لا يردون. أو نحن نطلب ثم هم يردون. وإذا ردوا وعدوا. وفوا بالوعد.. وإذا وفوا بالوعد، كان ذلك بعد فوات الأوان؟!

ولكن لم يفقد جمال عبد الناصر الأمل في أن تتحسن هذه العلاقة بين مصر وروسيا. وإن كان قد شرب المر على أيديهم عاما بعد عام وفي أواخر سنة ١٩٦٩ عقد جمال عبد الناصر مؤتمرا عسكريا. لم يحضره من السياسيين غيره وغيرى ودارت مناقشات في هذا المؤتمر. وحللنا الموقف . وأدركناه على جميع الوجوه وكان يسيطر علينا جميعاً أن إسرائيل سوف تتماهى في استخدامها الطيران إلى غير مدى وإلى غير حد. ووصلنا إلى رأى واحد. وإقتناع واحد هو أن أذهب إلى الاتحاد السوفيتى أطلب سام ٣ . ووافق السوفيت على ذلك. وبسرعة أرسلنا أطقم هذه الصواريخ للتدريب على أن تعود جاهزة للعمل في أغسطس سنة ١٩٧٠. وكانت هذه خطوة هامة. لا شك.

وقبل أن يسافر جمال عبد الناصر في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩ إلى مؤتمر القمة في الرباط في نفس اليوم حلفت اليمين كنائب لرئيس الجمهورية. وكان ذلك قبل أن يستقل طائرته بخمس دقائق. وفي يوم ٢٥ ديسمبر، وهو عيد ميلادى، كنت فى ميت أبو الكوم. فقد اعتدت أن أبقى هذا اليوم بين أهلى من الفلاحين وفى قلب البيئة التى ولدت فيها ولم أكد أستقر فى مقعدى حتى جاء تليفون يصرخ قائلاً: الخط والى نار..

فسلاح الطيران اليهودى قد أغار على الخط من بورسعيد حتى السويس. ومن الثامنة صباحا. وقد أحصيت الطائرات المغيرة فبلغت ١٨٠ طائرة. وطائراتهم أبعد مدى من طائراتنا. ولا تكاد تنتهى ذخائر بعض الطائرات، حتى تجيء من ورائها أسراب أخرى وهكذا. وظلت النار مشتعلة حتى الرابعة مساء. وكانت خسائرنا ضئيلة جدا لم تتجاوز أربعة أو خمسة من القتلى وسبعة من الجرحى. فقد كان رجالنا يقفون وراء استحكامات منيعة. وجاءت الطائرات اليهودية تلقى نيرانها على الرمال وعلى الاستحكامات. وكان هدف اليهود واضحا هو ضرب بطاريات الصواريخ. فإذا أصابوها انفتح لهم كل شىء: السماء والأرض معا!

وقد أصاب اليهود فى ذلك اليوم عددا كبيرا من بطاريات سام ١ و ٢. وتناثرت قنابلهم شديدة الانفجار وقنابلهم الزمنية، والتى ظلت تفرقع على فترات مختلفة. وبذلك يتحقق لهم ما يريدون وهو أن يظل النار والدمار والانفجار بلا توقف .. لا أنسى ذلك اليوم من عمري.

وفى مواجهة هذا الموقف المفاجئ العنيف أصدرت أمرا للمهندسين ورجال الصواريخ بسحب كل الصواريخ إلى الورا. وقد صنع سلاح المهندسين المعجزات وسط الغارات العنيفة. وقبل أول ضوء من يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٧٠ كانت جميع البطاريات سحبت إلى الورا، وفى أماكن خفية، ولما جاء اليهود ليقضوا على ما تبقى من الصواريخ، كانت غاراتهم تنصب على لا شىء!

وقد اكتشفنا من هذه الغارات علينا أسلوب اليهود في القتال فهم «كتابيون» إذا صح هذا التعبير. أى إنهم يطبقون قواعد الكتاب العسكرى حرفيا. أى إنهم محدودو الأهداف. يتدربون على الهدف ويخرجون إليه لضربه. وإذا وجدوا أنهم أخطئوا فى تطبيق الكتاب أو الخطة المحددة عندهم عادوا بسرعة ولكنهم فى هذه المرة وقعوا ضحايا لمدفيعتنا التى توارت وراء الأشجار وانطلقت عليهم نارا وويالا.. ففروا هاربين.. وكلما جددوا الهجوم وفقا لخطة محددة موضوعة، وجدوا أنهم ضحايا كمين جديد.. فأصابتهم مدفيعتنا وهربوا بما تبقى لديهم من طائرات..

ولما أيقن اليهود أن الموقف قد تغير تماما على الخط فى الشمال، اتجهوا إلى أساليب بهلوانية أخرى على البحر الأحمر.. فانقضوا على محطة الرادار وحملوها وعادوا بها وهى غلطة إهمال حقيقية أى غلطتنا نحن.

ولما عاد جمال عبد الناصر من مؤتمر الرباط سافر إلى السودان ليشارك فى عيد الاستقلال فى أول يناير. فوقف يلقي خطبة فى هذه المناسبة. يحيى شعب السودان ويمجده. ويجدد الصمود العربى ضد القوى الإمبريالية. ثم اتجه إلى الرد على رئيس الإركان الإسرائيلى الذى كان قد أعلن يوم رأس السنة أنه فى العام القادم سوف يخضع الشعب المصرى تماما..

فقد حدث يوم رأس السنة أن وقف رئيس الإركان الإسرائيلى فى الكلية الحربية يقول: لقد انتهت مصر فى ٦٧ وقضينا عليها تماما بحرب الاستنزاف. أما فى سنة ١٩٧٠ فسوف يكون «الشعب» المصرى طوع أيدينا.

أى إنه يريد أن يقول: إننا إذا كنا قد هزمنا الجيش المصرى، فلم يبق أمامنا ألا أن نهزم إرادة الجيش وإرادة الشعب المصرى.. ومعنى ذلك أن اليهود مؤمنون بأن «روح» الشعب المصرى لم تهزم بعد. وهذا هو الهدف المنشود عندهم. وقد تلقف جمال عبد الناصر هذا المعنى. وأكد أنهم لن يهزموا إرادة الشعب المصرى مهما تضاعفت غارتهم قبل ذلك أو بعد ذلك..

وقد زاد الشعور العام فى مصر سوءا، وإن كان الشعور العالمى ثار ضد إسرائيل.. فلم تكن غاراتها على الأهداف العسكرية وإنما كانت على أبو زعبل وعلى أطفال بحر البقر.

وأذكر أن جمال عبد الناصر كان فى القناطر الخيرية. وكانت الانفلقونزا قد اشتدت عليه. وقال لى يومها: إن الذى توقعناه قد حدث، إن اليهود قد أغاروا ودخلوا وقتلوا وخرجوا..

وعادوا.. ولا أحد يستطيع أن يوقفهم. ثم إنهم أعلنوا وصولهم إلى دهشور على مدى ربع ساعة من القاهرة.

وهذا صحيح.

وطلب منى جمال عبد الناصر أن أتصل بالسفير السوفيتي. ووجدت السفير السوفيتي فينوجرادوف في المحلة الكبرى مع وفد برلماني سوفيتي. اتصلت به لكي يجيء فوراً. ومعه كبير الخبراء العسكريين. وجاء الرجل. وكنا أربعة: جمال عبد الناصر والسفير السوفيتي وكبير الخبراء وأنا. وجلسنا في القناطر الخيرية. وطلب إليـه جمال عبد الناصر أن يتصل بالقادة السوفيت وأن يستوضحهم عما تم بشأن ما اتفقوا معـى عليه في ديسمبر – أى الاتفاق الخاص بإرسال صواريخ سام ٣. ثم يسألهم عن مصير الأطقم المصرية التي سافرت يوم أول يناير أى من عشرين يوماً. ثم كلفه جمال عبد الناصر أن يخبر القادة السوفيت رغبته في أن يقوم بزيارة سرية لموسكو. فالموقف لا يحتمل التأجيل أو الانتظار.

ولم يكن السفير السوفيتي في حاجة إلى أن يوضح له جمال عبد الناصر أكثر من ذلك. فالغارات اليهودية واضحة. والضحايا المصريون كثيرون. والنار والحرائق والدخان والقنابل والشك واليأس وروح الهزيمة والضيـق من الروس ومن أسلوبهم العجيب في التعامل معنا، قد عقد كل شيء.. وملأ السماء سحباً، والأرض غباراً، والنفوس شكا.. ويجب أن نفعل شيئاً لكي يفعلوا هم أى شيء.

وكان السفير السوفيتي فينوجرادوف من الدبلوماسيين الإكفاء، وكان صديقاً للجنرال ديـجول، لأنه عمل سفيراً لبلاده في باريس ١٢ عاماً. وكانت له صلات كثيرة وعميقة. ولا بد أن الروس قد اختاروه لمصر، لأهمية الوضع في مصر وفي الشرق الأوسط. وكان هذا الرجل حريصاً على أن يخدم القضية من كل قلبه. ولكن ما الذي يستطيعه أى فرد سوفيتي، أيا كان وزنه وموقعه، مع القيادة السوفيتية، أن الفرد لا رأى له، وإنما القيادة العليا غامضة الشكل والرأى هي التي لها الرأى!

وذهب فينوجرادوف وأبرق للقيادة بما قاله جمال عبد الناصر. وجاء الرد بالترحيب بهذه الزيارة وبعدها بأربعة أيام سافر جمال عبد الناصر سرا إلى موسكو.

وذهب جمال عبد الناصر إلى موسكو والتقى بالقادة السوفيت. ولم يحن الوقت بعد لكي أروى تفاصيل ما حدث. وكل ما حدث سمعته من جمال عبد الناصر شخصياً. ولست أرى

من المصلحة الوطنية العليا رواية شيء من ذلك الآن.. فالذى قاله جمال عبد الناصر للقيادة السوفيتية يدل على منتهى اليأس والقرف، اليأس منهم ومن أسلوبهم.. بل ولا أكون مبالغا، وأنا أعرف بالضبط وزن كل حرف مما أقول، أن جمال عبد الناصر قد بلغ أقصى درجات اليأس من الحياة نفسها. ومن دوره كزعيم لبلده.

وأرى من واجبي أن أمسك عن الاستطراد فى وصف الحالة التى تردى إليها جمال عبد الناصر وكان مريضا جسديا ومهدودا نفسيا، وجريحا وطنيا، وذبيحا قوميا..

وأحس الروس من كلام جمال عبد الناصر أنه صادق. وأنه يعنى ما يقول. وأنها ستكون طامة كبرى عليهم إذا انتقل جمال عبد الناصر من القول إلى العمل.. هنا فقط وافقوا على إرسال الأطقم السوفيتية لصواريخ سام ٣ ..

وهذه الحالة التى وصل إليها جمال عبد الناصر، مع السوفيت ليست الأولى.. وإنما الأولى كانت يوم فاجأ الروس بقبوله لمبادرة روجرز على مائدة الكرملن. والذى يقرأ التاريخ، ويعرف تكوين جمال عبد الناصر يدرك تماما أن اليأس قد بلغ مداه. أنه من موقع اليأس والضييق بكل شيء قد أعلن الذى أعلنه فأفزع الروس واضطروهم إلى أن يتقدموا بالمساعدة فورا. ثم أن يراجعوا أنفسهم بعد ذلك.. ويعاودوا لعبة مد اليد وسحبها.. ثم مدها وسحبها.. والتسخين والتبريد.. ثم معاودة التسخين والتجميد - كما ذكرت وكما سوف نرى بعد ذلك..

ولما وافقوا على أن يبعثوا لمصر بالأطقم السوفيتية، علقوا ذلك على شرط فقال لهم جمال عبد الناصر: أنا أقبل الشرط!

قالوا: إن تتولوا بناء قواعد صواريخ سام ٣.

قال لهم: موافق فورا.

وهذا الشرط تقدم به السوفيت ظنا أنهم سوف يضعونا أمامنا مشكلة.. أو عقبة.. ونسوا أننا قد بنينا السد العالى.. أو أن المصريين أبناء السبعة آلاف سنة قد بنوا الأهرام.. ولكن من عادة الروس إذا أعطوا أن يجعلوا ذلك شيئا صعبا. أى من الصعب أن يوافقوا على العطاء.. ومن الصعب أن يتقدموا بالعطاء.. ومن الصعب عليهم أن يستمروا فى ذلك.. وأصعب عليهم أن يستعجلهم أحد.. فلم يكن - إذن - هذا الشرط الذى طلبوه أمرا صعبا. ثم تقدموا بشرط آخر هو: إذا نحن أكملنا بناء قاعدة أو موقع، فإن السوفيت سوف يرسلون الأطقم فورا.

ومن الإنصاف أن أقول إنهم فعلوا ذلك، فلا يكاد الموقع يتم إنشاؤه، ونبيلهم بذلك حتى تجيء الأطقم فوراً. هذه حقيقة نذكرها لهم. وكان الروس يتصورون أن بناء أى موقع سوف يستغرق ثمانية أشهر، أى بالضبط الوقت الذى يعادل فترة تدريب أبنائنا فى روسيا. ووقتها يحلها ربنا.. أو وقتها يفكر الروس مرة أخرى أن كانوا سيبعثون بالأطقم أو سيعيدون إلينا أبناءنا المدربين..

ومن العدل أن نقول إن هذه المواقع التى تم انشاؤها قد توالى الواحد بعد الأخرى. فقد استطاعت الهيئات المدنية المعمارية أن تنجز ذلك العمل العظيم. فلقد شارك المقاولون العرب وشركة حسن علام غيرهما من شركات الإنشاءات المصرية الممتازة فى بناء هذه المواقع. وبدأ حشد هذه الشركات من أول فبراير ودفعنا مليون جنيه فى اليوم لمدة أربعين يوماً. ويوم ١٥ مارس كان أول موقع فى السلسلة بالاسكندرية. وقبل أن يتم أخبرنا الروس بذلك، وفعلاً أرسل الروس الصاروخ سام ٣ ومعه الطاقم السوفيتى. وقد قام على بناء المواقع مهندسون وعمال مصريون، ومما يشرفنا أن نقول إن خبيراً سوفيتياً لم يشارك لا فى التصميم ولا فى البناء. هذه حقيقة.

وتناشرت قواعد صواريخ سام ٣ حول القاهرة والاسكندرية وأسوان. وكانت هذه المواقع تتم بفارق يوم أو يومين.. وكان الروس يبعثون بالأطقم. وكان نشاطاً عظيماً هائلاً. كل شيء يتم بسرعة. وفى ١٥ مارس عرف العالم كله: أن الروس وصلوا.. أى إن صواريخ سام التى تصيب الطيران المنخفض قد ركبت. وفى انتظار إية طائرة اسرائيلية. ومنذ ذلك اليوم لم يعد الطيران الاسرائيلى يدخل إلى عمق مصر..

وإذا التفتنا إلى حالتنا العامة أقول إنها تحسنت فجمال عبد الناصر قد وعدوه بأسلحة الردع ووعد بظائرات الردع التى تحمل الصاروخ إلى مدى ١٥٠ ميلاً، أى تستطيع وهى على أرض مصر أن تضرب الأعماق الاسرائيلية.. ووعدوه بالأطقم السوفيتية، ونفذوا هذا الوعد.. وقد حدث يوم سفر جمال عبد الناصر إلى موسكو أن أغارت الطائرة الاسرائيلية على جزيرة صخرية اسمها شدوان. ونزلوا عليها وأصدرت أوامرى بضرب الجزيرة الصخرية بالقنابل الثقيلة حتى هرب منها اليهود. وكان يوماً مشهوداً. بل إن أحد الضباط الشجعان قد استدرج اليهود إلى مخابئ فى الجزيرة. وقد أوهمهم بأنه سيساعدهم على أن يستسلم بقية الجنود المصريين ثم أطلق عليهم الرصاص. فقتلهم وقتلوه. ولم أنس هذا القرار ولا ذلك النصر العظيم فاصدرت قراراً بعمل نيشان يحمل اسم شدوان. ولو عدت مرة أخرى لوصف حالة جمال

عبد الناصر عند عودته من موسكو مريضا لوجدت معنوياته فى السماء. على رغم إرهاق الرحلة ذهابا وإيابا وعلى رغم الصعوبات التى واجهها. ولكن النتيجة كانت عظيمة.. ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر نهاية يناير وفبراير ومارس.. ولم يصل رد من السوفييت ولا جاءت طائرة الردع ولا شىء. وعلى جمال عبد الناصر أن «يتوافق» نفسيا - أى يصبر نفسه بنفسه، وأن يصالح نفسه على نفسه. ويتجرع هذا الصبر المرير ويتذوقه ويعتاد عليه. ولم تصل رسائل تفيد أن شيئا فى الطريق إلينا، أو سوف يكون. لا شىء!

وكانست عند الروس حجة هى أن هذه الطائرة ذات الصواريخ بعيدة المدى تحتاج إلى أن يتدرب عليها الطيارون ثمانية أشهر على الأقل.

وهذه الكلمات تتوالى بسرعة. ولكن الوقت لم يكن يمضى بهذه السرعة ولا بهذه الخفة. ليبت ذلك كان ممكنا. ولكن الوقت كان ثقيلا كالجبال. وكان أثقل من الجبال على رجل مريض مثل جمال عبد الناصر كان عنده السكر والقلب ويجد مشقة فى السير على قدميه وفى النوم.. وزاد ذلك كله ثقلا ووجعا عندما انتهى شهر مارس. وبعد مارس جاء إبريل.. وهذه معلومات أولية لأى طفل يذاكر توالى شهور السنة الميلادية. ولكن إذا كان زعيما مثل جمال عبد الناصر وعينه على أول مايو عيد العمال، فما الذى يفعله؟ وما الذى يراه أمامه، وما الذى سوف يقوله؟ إذا واجهته الناس وانتظرت كلمته وقد استبد بالناس الخوف واليأس، وتعلق مصير الجميع بكلمة يقولها جمال عبد الناصر للمصريين وللعرب؟.

ما الذى يفعله جمال عبد الناصر وقد ذهب وانفجر هناك وهددهم وانزعجوا ووعدوا ووفوا ووعدوا واخلفوا. وأعطوا الأمل فى الكرملين وسحبوه عند المطار وأعادوه إلى شبابه، عشرين عاما من شدة الفرح، وأضافوا إليه عشرين عاما أخرى من شدة الأسى والحزن!

ولما جاء يوم عيد العمال فى شبرا البلد توجه جمال عبد الناصر بنداء إلى نيكسون - ولأول مرة - وقد كانت علاقاتنا مع أمريكا مقطوعة منذ العدوان على مصر سنة ١٩٦٧. وطلب من الرئيس نيكسون صراحة أن يقول له: ما هو دوره؟ وما الذى يستطيع أن يفعله. وجمال عبد الناصر يعلم علم اليقين أن نيكسون له دور. وأنه القادر على حل المشكلة وأراد جمال عبد الناصر أن يعرف من نيكسون موقفه من هذه القضية. ولكن جمال عبد الناصر قد أعلن بصراحة: أن نيكسون يقدر لو أراد.بقى أن يعرف منه وأمام العالم كله أنه يريد أن يفعل شيئا!

ناصر فوق صفيح ساخن =

والسوفيت عندهم عالم كبير يضعونه فى قمة العلماء فى علوم الحياة والعلوم الاجتماعية والسياسية أيضا هو: بافلوف.. هذا العالم بافلوف هو صاحب نظرية اسمها نظرية «الفعل المنعكس الشرطى ومعناها البسيط أنه يمكن تعليم الإنسان أو الحيوان أن يفعل أى شىء إذا دربناه على ذلك.. فإذا عزفنا قطعة موسيقية أثناء تقديم الطعام فإن الكلب يتعود على أن يسيل لعابه عند تقديم الطعام، ثم عند عزف الموسيقى.. دون أن نقدم الطعام.. وكذلك إذا وضعنا الدب على صفيح ولم يكن ساخنا وعزفنا له الموسيقى فإنه يحرك رجليه ويرقص.. أروى هذه النظرية الشائعة عند الروس بمناسبة الوعود والوفاء بها وعدم الوفاء بها ثم الوعود.. وفى استطاعتك أن تستنتج بسهولة ما أردت أن أقول..

أما النتيجة فإنه كان من الصعب على جمال عبد الناصر، ومن الصعب على أنا بعد ذلك، أن نرقص مع شعبنا كله لمجرد أن تعزف الموسيقى فى الكرملين

□□□

وتلقف نيكسون هذا النداء، وبعد شهر واحد أرسل روجرز. فكانت مبادرة روجرز المشهورة في شهر يونيو. ورفض جمال عبد الناصر هذه المبادرة شهرا، ثم سافر إلى الاتحاد السوفيتي. وأعلن هناك قبوله لهذه المبادرة. وقبل السفر كنت أنا قد رتبت لهذه الزيارة مع السفير السوفيتي فينوجرادوف. وهو صديق. وكانت تربطني به صلة وثيقة. وكان يتردد على بيتي كل يوم اثنين الساعة الحادية عشرة بالضبط. وأخبرت جمال عبد الناصر أن كل شيء قد أعد تماما. وهم مستعدون. وليس عليك إلا أن تذهب لتجد كل شيء في انتظارك.

ولكن بعد عودة جمال عبد الناصر قال لي: واحدة من اثنين إما أن يكون السفير السوفيتي فينوجرادوف لم يخبرهم بأي شيء، وإما أنه فعل ذلك ولم يوافقوا على أي شيء. أنا زهقت وقرفت. وقد بقي جمال عبد الناصر في هذه الرحلة إلى موسكو أسبوعين. وتعب كثيرا. وأسعفه بالأكسجين. ولكن عذابه النفسي كان أقسى من عذابه الجسدي.. وعاد جمال عبد الناصر يائسا تماما..

ولا بد أنه هو أيضا قد أدار الحوار في رأسه مرة أخرى. واستعرض هذه العلاقة الطويلة المتشابكة المعقدة المتفجرة المتجمدة مع السوفيت. ومات الله يرحمه دون أن يصل فيها إلى إقناع واضح، ربما كان الشيء الذي اهتدى إليه هو أنه من الصعب أن يفهم أحد هؤلاء السوفيت. أو الذي فهمه من سلوكهم لم يقنعه، أو لم يسترح إليه.. فكل شيء: أقله ورد وأكثره شك. وكل شيء عندهم مشروط أولا، ومشروط أخيرا.. وأن لم يصرحوا بذلك.. ومطلوب من الزعيم المصري، أي زعيم مصرى وطنى أن يقبل ذلك وإلا فلا..

وقد أحس جمال عبد الناصر أنه لا يستطيع أن يشارك في عزف اللحن السوفيتي.. حتى لو أعطوه النوتة الموسيقية أو دربوه على العزف لأن هذا يختلف تماما مع تكوينه النفسى والعقلى ومع مبادئه الوطنية ومع صدقه وإخلاصه، وكان الرجل صادقا مع نفسه، ولم يكن شيوعيا ولن يكون. ويحضرني بمناسبة هذا المعنى أننى قرأت كيف يدربون الدب على الرقص.. ويقولون: إنهم يأتون بالدب ثم يضعونه على صفيح ساخن.. وفي نفس اللحظة التى يرفع فيها الدب أرجله من لسع الصفيح الساخن يعزفون مقطوعة موسيقية.. فيتعلم الدب بمرور الوقت ضبط حركة قدميه مع الموسيقى.. أى إن الدب لكى يتعلم يجمع بين الألم والموسيقى.. وليست حركات رجله إلا نوعا من الألم الصامت تصاحبه الموسيقى.. فالموسيقى هى تنظيم للإيقاع الألم لهذا الحيوان.

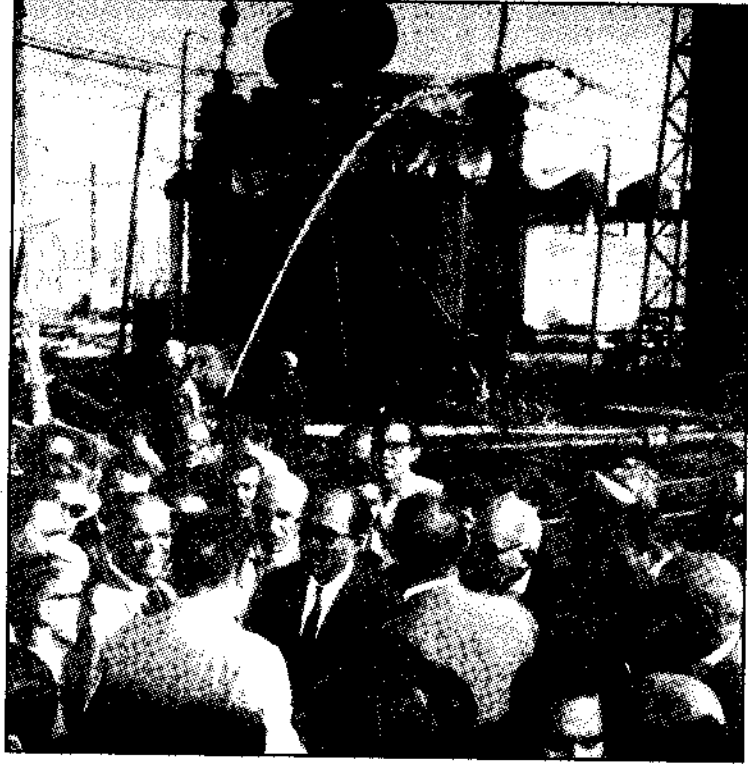


١ - الفريق عبد المنعم
رياض مع الرئيس جمال
عبد الناصر في إحدى
زياراته للجبهة .



٢ - ولیم روجرز وزیر
خارجية الولايات المتحدة .

٣ - السادات يتفقد
المناطق التي ضربتها
الطائرات الإسرائيلية في
حرب الاستنزاف.



٤ - رغم الخلافات
السابقة وقف الملك فيصل
في مؤتمر الخرطوم عام
١٩٦٧ بجوار الرئيس
عبد الناصر لمواجهة خطر
الصهيونية على العالم
الإسلامي والعربي..
ويظهر في الصورة الملك
فيصل والرئيس عبد الناصر
وهو يتحدث إلى عبد المجيد
فريد أمين عام الرئاسة .





قرارات حاسمة

- عندما وجه عبد الناصر كلامه إلى
أمريكا قائلا: إنه إذا لم يفهم أن
يشربوا من البحر الأحمر فليشربوا من
البحر الأبيض.
- لماذا غضب الروس من قرار إلغاء
الحراسات؟
- تحركات غريبة في جنازة عبد الناصر!
- قلت لمحمد فوزي إن شيئا من الذي وعد
به السوفيت لن يتحقق واتضح كل
شيء بعد ذلك.
- إنهاء الفترة الثانية لمبادرة روجرز.

كان من المنطقي أن يتجه جمال عبد الناصر إلى أمريكا، كما فعل في خطابه الأخير. لقد وقد جاءت هذه الخطوة بعد عمليات حسابية ومراجعة لتاريخ العلاقة السوفيتية المصرية.. وفي نفس الوقت كان يرى موقف أمريكا من إسرائيل وتدفق السلاح عليها، ويقارن ذلك بالتقدير الشديد عليه ووضعه أمام شعبه في أخرج المواقف..

وقبل ذلك عرف جمال عبد الناصر مساندة أمريكا لإسرائيل بصورة كاملة واضحة لكل العالم.. ويوم تحدد سفر زكريا محيي الدين لأمريكا لمقابلة جونسون في آخر مايو ١٩٦٧، سارع الرئيس جونسون بالاتصال بإسرائيل.. وأخبرها أنه في إمكان إسرائيل أن تنقض على مصر وبسرعة. وقد اعترف هو بذلك فيما بعد. واعترف هو واليهود أيضا، أن خطة حرب ١٩٦٧ كلها قد وضعت في وزارة الدفاع الأمريكية. وأن العسكريين والخبراء الأمريكيين قد باركوها. وهم قد باركوها بعد أن تجمعت لديهم معلومات مؤكدة أن مصر لن تقوى على فعل شيء. ولذلك تم الاتفاق على ضرب مصر. وكل هذه حقائق تاريخية معروفة. ولكن من المهم أن أرويهما لأنها جزء لا ينفصل من الخلفية التاريخية لسلوك جمال عبد الناصر بعد ذلك.. تسبق هذا أيضا التعبئة العدائية لأمريكا في مصر وفي المنطقة. ولا شك أن جمال عبد الناصر قد أذكاه وساعد عليها وعلى استمرارها. والأمريكان يعرفون ذلك. ولن ينسوه. والسوفيت يعرفون له ذلك، وإن كانوا قد نسوه.. أو يريدون.. ففي عيد النصر في بورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٤ وقف جمال عبد الناصر في حملة التعبئة العدائية ضد أمريكا. ووجه كلامه إلى أمريكا وجونسون: إنه إذا لم يكفيهم أن يشربوا من البحر الأحمر، فليشربوا من البحر الأبيض!

ولابد أن المراسلين الأجانب قد سألوا كثيرا عن هذه العبارة التي أثارت الجماهير في بورسعيد وأدمنت أيديهم من التصفيق. ولابد أنهم قد وصلوا إلى معنى واحد هو: أن جمال عبد الناصر لا تهمه أمريكا.. وأن عليها أن تضرب رأسها في الحائط.. أو تشرب ماء مالحة من هذا البحر ومن ذاك البحر أيضا. والمعنى أنه لا يهمه ما تفعله أمريكا مهما تضايقت من الحملة العنيفة ضدها.

ولم يكن صعبا على أجهزة الإعلام الأمريكية أن تزف إلى الشعب الأمريكي في الكريسماس ورأس السنة هذه التحية من جمال عبد الناصر. بل إن الصحف قد أعلنت بالفعل: أيها الشعب الأمريكي نرجو قبول هذه الهدية من جمال عبد الناصر بمناسبة العيد الجديد: اشربوا مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر معا! وليس من الصعب أن نقدر صداها البعيد عند الأمريكيان الذين يرون في جمال عبد الناصر العدو الأوحده في المنطقة.. يكفي أنه الرجل الذي أدخل السوفييت في الشرق الأوسط، وهو الذي يتزعم العداء لإسرائيل.. ولا بد أن الشعب الأمريكي قد صدق ذلك بسرعة، لأن لديه استعدادا للتصديق، لأنهم لا يعرفون حقيقة ما يحدث في المنطقة، ولا الذي عاناه ويعانيه جمال عبد الناصر من السوفييت.

أما لماذا طلب جمال عبد الناصر من الأمريكيان أن يشربوا ماء البحرين الأبيض والأحمر؟.. فلذلك قصة. فقد كان من عادة جمال عبد الناصر وهو يلقي خطابه أن يضمه آخر الأنباء. ولذلك كان يطلب أن تجيء إليه آخر الأحداث المحلية أو العالمية أثناء مواجهته للجماهير. وبذلك يضيف إلى خطابه بعدا إخباريا أو مزيدا من السخونة المطلوبة. وقد فعل ذلك. فقد قدم له على صبرى، وكان وقتها رئيسا للوزراء، ورقة تقول: إن وزير التموين د. رمزي استينو قد استدعى السفير الأمريكي ليستعجله في إرسال صفقة القمح المتفق عليها، فكان رد السفير جافا ومهيئا لمصر! فتار جمال عبد الناصر وأشعل غضب الجماهير. ولكن عندما عدنا إلى القاهرة بادر وزير التموين بمقابلة جمال عبد الناصر ليخبره أن شيئا من ذلك لم يحدث. وأن السفير الأمريكي قد جاء بناء على دعوته، وأنه كان لطيفا مهذبا. وقال إن المعونة لا يمكن إرسالها قبل موافقة الكونجرس على ذلك.. أى إنها مسألة إجرائية فقط!

ولم تكن مخاطبة جمال عبد الناصر للرئيس الأمريكي نيكسون عملا مفاجئا. ربما كان ذلك مفاجأة للروس أو حتى الأمريكان. ولكن سير الأحداث العميق الأليم في نفسه يحتم عليه أن يتوجه إلى الأمريكان. وكان من رأى جمال عبد الناصر في ذلك الوقت: أن الصورة واضحة تماما.. فالأمريكان وحدهم القادرون على فعل شىء.. وأمريكا هي الدولة التي وراء إسرائيل بالمال والسلاح والمساندة الدولية. وجاءت بعد ذلك مبادرة روجرز التي قبلها جمال عبد الناصر. وكانت المبادرة تضم نقطتين أساسيتين: الأولى: وقف إطلاق النار تسعين يوما، والثانية: الانسحاب.

ورأى جمال عبد الناصر كلمة «الانسحاب» تجيء لأول مرة على لسان أمريكا. فلم يرد على هذه المبادرة بالرفض أو القبول. ثم اتجه إلى موسكو، وأعلن قبولها وانفعل بريجنيف

قائلا: كيف تقبل حلا أمريكيا؟ وكان رد جمال عبد الناصر: ليس أمامي إلا أن أفعل ذلك. فأنتم لا تتحركون. وأنا لا أستطيع أن أضيع مصالح بلدي. وقال جمال عبد الناصر في ذلك الوقت أشياء مثيرة أجدني مضطرا أن أمسك عن ذكرها الآن..

وكان وضعه في غاية الصعوبة. فهو قد هاجم أمريكا.. فهل يهاجم السوفييت أيضا؟ وإذا فعل ذلك فأين يقف في هذا العالم؟ وعلى أية أرض؟ ومن الذي يسانده؟ وكيف يواجه دهشة الشعب وهو يراه حائرا باثرا بين الشرق والغرب.. بينما إسرائيل تفعل كل ما بدا لها من عدوان وحرب أعصاب وشوشرة وتشهير بمصر.. بحكومتها وشعبها وروحها المعنوية وما تعلنه عن استعدادها للقتال؟

وفي لحظة اليأس التام على مائدة المفاوضات يعلن القادة السوفييت: أننا اقتنعنا بوجهة نظرك. وسوف نقدم لكم هذه القائمة بالأسلحة.. وهو أسلوب سوفيتي يحدث في المفاوضات. وهو يذكرنا بما يحدث لسباحي المسافات الطويلة عندما يصلون إلى الشاطئ، ويقدم لهم الناس المشروبات والورود ويأخذونهم بالأحضان. إنه شعور طيب ولا شك. لولا أن هؤلاء السباحين قد أنهكهم البحر والموج. فليسوا قادرين على أكل أو شرب شيء أو حتى أن يردوا هذه التحيات الحارة الصادقة أو حتى أن يقبلوها.. شيء كهذا قد أصاب جمال عبد الناصر في ذلك اليوم.. لولا أنه لم يكن فائزا في سباق المسافات الطويلة.. وإنما دفعه اليأس إلى أي شاطئ!

في ذلك الوقت كنت نائبا لرئيس الجمهورية. وقد جمعت اللجنة السياسية بمكتبتي في مصر الجديدة. وعرضت عليهم الموقف. وأوصينا بالإجماع برفض مبادرة روجرز.! وعندما وصل جمال عبد الناصر إلى المطار فوجئت بأنه قد قبلها وأعلن ذلك أمام قادة الكرملين. وقلت: ماذا جرى؟ لقد رفضناها، وأنت قبلتها.. كيف حدث ذلك؟

ولما شرح لي الموقف تماما.. أيقنت أنه على حق. وأنه معذور تماما في هذا القرار. فقد جاءت كلمة «الانسحاب» في مبادرة روجرز. وهي خطوة مشجعة. علينا أن نمشي وراء أمريكا حتى البيت الأبيض أو حتى البنتاجون. إنها بارقة أمل..

وأثناء وجود جمال عبد الناصر في الكرملين حدثت «مذبحة الفانتوم».. فقد أسقطت وسائلنا الدفاعية ١٢ طائرة إسرائيلية. والفضل في ذلك يرجع إلى تكتيك جديد نفذه رجال الصواريخ بقيادة محمد علي فهمي، رئيس الأركان. وعلى رغم أن هذا الحادث يفرح القلب حقا، فإنه في ذلك الجو القاتم الملبد باليأس من موسكو لم يكن له فعل السحر أو أي فعل. فالذي يريده جمال عبد الناصر شيء، والذي يريده السوفييت شيء غير الذي نريده نحن.

وعاد جمال عبد الناصر وقد اتجه بآماله إلى الولايات المتحدة. لعل وعسى. وجمال عبد الناصر رجل مناور. وهو لذلك في حاجة إلى أرض واسعة لكي يتحرك عليها. ولكن إذا ضاقت الأرض تحت قدميه، أصبح عاجزا عن الحركة تماما. وقد ثبتت قدرته في المناورة أيام العدوان الثلاثي علينا سنة ١٩٥٦.

إنن لقد قبلنا المبادرة. وبدأنا إقامة حائط الصواريخ وبناء مواقعها..

وكان اليهود قد أعلنوا قبولهم لمبادرة روجرز. وكان ذلك اعتمادا على أن مصر، ككل الدول العربية، تقول لأى شىء: لا.. وأن إسرائيل إذا قالت: نعم.. قالوا هم: لا.. وعكس هذا صحيح أيضا. وكانت مفاجأة أن وجدوا عبد الناصر قد وافق على المبادرة. وجاءت هذه الموافقة صدمة.. أحدثت ارتباكا في سياستهم. ولم يسكت اليهود طبعاً. وإنما استخدموا كل الضغوط المستطاعة. فنيكسون فى أيديهم وروجرز أيضا. وراحوا يشككون فى قرار مصر. واستغلوا الخلاف المستحكم بين مصر وروسيا. وبسرعة وجهوا اتهاماً إلى مصر: لقد خرق المصريون مبادرة روجرز!

أما كيف حدث ذلك؟.. فهو أننا قد حركنا الصواريخ.

أين وقع ذلك؟.. على أرضنا.

ولذلك فالمصريون قد خرقوا الاتفاقية التى تنص على وقف حرب الاستنزاف! شىء عجيب. إنها قصة الذئب والحمل.. تلك القصة التى نرويها للصغار على أنها نكتة.. ويعرفها الكبار على أنها الادعاء الكاذب.. فالذئب يشرب من أعلى النهر.. والحمل يشرب من أسفل النهر. والماء يجرى من ناحية الذئب، ويتهمه الذئب بأنه هو الذى عكر عليه الماء!

وكان من السهل جدا أن يصدق الأمريكان ذلك.. فالرأى الأمريكى معبأ تماماً ضدنا. وكلمة واحدة تكفى لتهييجهم على مصر والمصريين وجمال عبد الناصر. إنن فقد خرقنا مبادرة روجرز. ومعنى ذلك أننا لا نصدق فى كلمة أو فى مبادرة روجرز. ومعنى ذلك أننا لا نصدق فى كلمة أو فى وعد، ولا ننفذ أى اتفاق أبرمناه أو وعدنا به مع أى أحد. إنهم العرب كما قلنا لكم.. إلى آخر ما اعتاد اليهود أن يقولوه، وما اعتاد الأمريكان أن يسمعوه ويقرأوه فى صحفهم..

ولذلك كانت مهمتى شاقة جدا بعد ذلك عندما حاولت أن أغير هذه الصورة. فلا أعد إلا بما أقدر على الوفاء به. ولا أقول إلا صدقا. حتى أصبحت الثقة التامة هواء يتنفسه الجميع فى مصر وفى أمريكا وفى العالم العربى وفى الغرب. ولم يكن ذلك أمرا هينا ولا سهلا.. كما سأروى ذلك فيما بعد.

وفجأة مات جمال عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠.

وفى نفس السنة مات أيضا السفير السوفيتى فينوجرادوف. وكان من أكفأ الدبلوماسيين السوفيت وأقدرهم فهما لمصر والشرق الأوسط، وأكثرهم حرصا على أن يفعل شيئا باقيا لبلاده ولنا. وكان موته خسارة أيضا. وتتابع الأحداث بعد ذلك بسرعة خاطفة وبحدة وعنف. وتشابكت خيوط وتعقدت. ووجدت نفسى وبلدى أمام أشياء جديدة. وجاءت الدول تعزى فى وفاة جمال عبد الناصر وأرسل الأمريكان ريتشارد سون على رأس وفد، وهو سفيرهم فى بريطانيا الآن وواحد من ألع نجوم الحزب الجمهورى. ولم تكن بيننا وبين الأمريكان علاقات دبلوماسية بعد حرب ١٩٦٧.

وكما هو معروف سقطت أنا قبل سير الجنازة. وأعطيت خمس حقن وأنا فى مجلس قيادة الثورة. ولما أفقت من أثر هذه الحقن.. سألت إن كان جمال عبد الناصر قد دفن، فقد كنت أخشى على الجثة من انفعال الجماهير. وبعد ذلك يصعب علينا دفنها. وقيل لى ساعتها: لقد دفنت منذ عشر دقائق.

وجاء الوفد السوفيتى برياسة كوسيجين. ولم أكن أعرف بالضبط ما الذى يدور فى رءوس الروس فى ذلك الوقت. فقد كنت مشغولا تماما بالمهمة الجديدة، وأرى أمامى أعباء ثقيلة وطريقا صعبا طويلا. والصورة التى أمامى أليمة وسوداء. والله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يعيننى على ما أنا فيه..

ويوم الجنازة أقيم سرادق جلس فيه الرؤساء والملوك مثل الملك حسين والإمبراطور هيلاسلاسى وغيرهم. بينما جلس كوسيجين فى غرفة داخلية معنا فى مجلس قيادة الثورة. ولا بد أن «المنظر» كان غريبا فى ذلك الوقت.. أقصد منظر الروس قبل وأثناء وبعد الجنازة. ولكن لم أدرك ذلك بوضوح. وإن كنت استرجعت الصورة فيما بعد، فعرفت المعنى. وكان هذا المعنى خافيا علىّ تماما. وإن كان كوسيجين قد قال كلاما ممتازا. وقد أكد فى كل الذى قاله لى أن الاتحاد السوفيتى شديد القلق على مصر.

ويبدو أن هذا كان شعور الجميع. فحتى ريتشارد سون عندما رجع وكتب تقريره سجل فيه قلقه على مصر. والانجليز أكدت لهم مخابراتهم أن الوضع فى مصر خطير وأنه قابل للانفجار فى أية لحظة. وكلهم، على اختلاف بينهم، قد اتفقوا على أننى لن أبقي فى مقعدى هذا أكثر من أربعة إلى ستة أسابيع.. وحتى هذا تقدير مبالغ فيه!

ولا أزال أذكر عبارات كوسيجين فى ذلك الوقت. كانت رقيقة مشجعة.. وعلى رغم شعوره العميق بالقلق على مصر.. فقد قال لى: إن روسيا سوف تساعدكم. ومصر يجب أن تستمر فى السياسة التى انتهجتها. وسوف نبقى أصدقاء لكم.. ثقوا فى ذلك تماما..

ولكن كان واضحا جدا أن كوسيجين والوفد المرافق له كانت له «هيئة» و«منظر» مختلف تماما عن الجميع. ولكن لم أتبين ذلك بوضوح. وإن كان بعض المؤرخين يقولون: إنه فى هذه الجنازة قد أصبح كل شيء واضحا تماما. لقد جاء الروس ليواجهوا الرجل الذى ليس رجلهم.

وأدهشنى ذلك. واسترجعت علاقتى بالسفير فينوجرادوف. إنها علاقة طويلة. ومنظمة. عشرة طويلة. وقد عرف الرجل كل ما يدور فى رأسى. وعرف تفكسبرى وما أتمناه ليلدى. ولا بد أنه قد نقل ذلك إلى قيادته. ومن المؤكد أنهم يعرفوننى جيدا. فكيف لم يقنعهم ما بلغهم من سفيرهم فى القاهرة بأننى رجل وطنى. مصرى صميم. ما فى ذلك شك.

وهذا هو ما يحير أى إنسان عندما يقلب فى هذه الأوراق الغريبة العجيبة على شجرة العلاقات المصرية السوفيتية.. غريب جدا بعد ثلاث سنوات كاملة من صداقتى للسفير السوفيتى، ألا يفهم السوفيت حقيقتى. أو لعل الرجل يقول لهم ولا يسمعون منه.. ربما كانت لهم عيون أخرى ترى، وألسنة أخرى تقول وتسجل لهم.. فالروس شكاكون بطبيعتهم ولا يصدقون أكثر الناس إخلاصا لهم. وتندهش بعد ذلك: إذن من الذى يصدقونه؟

شيء مخيف حقا: فأنت لا تعرف ما معنى هذا الذى تراه. هل هم جادون عندما يضحكون؟.. هل هم ضاحكون لك أو ضاحكون عليك؟.. وكانت مشكلتى الكبرى: مصر. والحالة لم تكن تسر حبيبا، وإنما كانت تسر العدو وتسعده. وتجعله يفعل بنا ما يشاء عندما يشاء..

وأذكر أنه قبل وفاة جمال عبد الناصر بوقت قصير فوجئت بجمال عبد الناصر يتصل بى ويقول: تعال نذهب إلى القيادة. وذهبنا إلى القيادة فى مدينة نصر فى العباسية. وكان اجتماعا كبيرا استغرق سبع ساعات. ولم يكن من السياسيين غير جمال عبد الناصر وأنا، والباقيون عسكريون مصريون هم قادة الوحدات، وخبراء عسكريون سوفيت. وعلى الحائط أمامنا وضعت خطة العمليات. وكان اسمها «الخطة ٢٠٠». وكانت هذه الخطة كاملة تماما ١٠٠٪ وكانت خطة دفاعية. لأنه من الضرورى قبل أن نقوم بأى هجوم أن تكتمل لدينا خطة دفاعية.

وتحدث كل قائد مصرى. وتحدث كل خبير سوفيتى. والجميع قد أبدوا الخطة. وأكدوا سلامتها. وكان جمال عبد الناصر قد شعر بأنه سوف يموت، فأراد أن يرى لآخر مرة مدى قدرة البلد على الدفاع. إذن من الناحية العسكرية كان هذا هو الوضع فى آخر تطورات.

ومن الناحية السياسية كانت المصائب أمامي كثيرة. لا أول لها ولا آخر. تزداد تعقدا وتهدد بالانفجار، فاليهود قد أثاروا أمريكا والعالم أيضا وشككوا في صدق قبولنا للمبادرة. ولكن لم تمض أيام على قبول المبادرة حتى صورونا أمام العالم بأننا نستعد للعدوان بتحريك الصواريخ من أرضنا إلى أرضنا. ومعنى ذلك أن إسرائيل لا تستطيع أن تنسحب، على رغم أنها وافقت على المبادرة التي تنص على ضرورة الانسحاب.

وكانت صورة مصر الداخلية أمامي سليمة. وصورتنا العسكرية الدفاعية سليمة، إلى أن نفكر في خطة هجومية..

أما من الناحية الاقتصادية فنحن في أسوأ حال. حتى هذا التعبير لا يفى بالمعنى الذي أراه وأحسه، ويحزنني ذلك. وقد استدعيت حسن عباس زكي. فكان رأيه أن مصر في حالة إفلاس تام. قلت له: والحل؟ وكان رده هو التعبير المصري الذي يقول: آخذ طاقة هذا وأضعها على رأس ذاك.. أى إن الذى يستطيعه ليس حلا علميا وإنما هو أن يقوم بنوع من الحيل الاقتصادية ليسكت الناس. أى ليس عنده حل. فالذى وصلنا إليه ليس هناك ما هو أدنى منه.. نحن اقتصاديا في الحضيض.. مع الأسف الشديد.

وانتهت أو كادت أيام مبادرة روجرز التي بدأت فى ٨ أغسطس سنة ١٩٧٠: وواجهنى موقف جديد فى شهر نوفمبر. وجمعت ما يمكن أن يسمى «بمجلس أمن قومى» وكان يضم كل مسئول فى الدولة وفى مقدمتهم: د. محمود فوزى رئيس الوزراء ومعه حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية وشعراوى جمعة ومحمود رياض نائبى رئيس الوزراء وجلسنا فى قصر الطاهرة. وانتهينا إلى ضرورة أن نمد مبادرة روجرز تسعين يوما أخرى. لأننا إذا لم نفعل، كان علينا أن نستأنف حرب الاستنزاف. نضربهم ويضربون مصر فى أعماقها، وعلى رغم أن لدينا صواريخ سام ٣. فإن أهدافنا فى الصعيد ما تزال عازية. ومن الممكن أن يعاود اليهود نفس المنشآت الحيوية فى جنوب مصر. كل هذا ممكن. إذن لا مفر من تجديد المبادرة حتى نستعد، أو حتى نرى ما الذى سوف يفعله الأمريكان.

وكانت مدة المبادرة الثانية تنتهى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١.. علينا قبل نهايتها أن ننظر ما الذى سوف يفعله الروس حتى نتمكن من الدفاع عن الصعيد.. لأن الموقف ما يزال كما هو، فاليهود يستطيعون أن يقفزوا من رأس محمد فى جنوب سيناء إلى أى مكان فى الصعيد.. بطائراتهم، ولا حاجة لها إلى ظهور القمر فى الليل، كأنها تستطيع أن تضرب وتعود وبسهولة جدا..

وحدث شيء آخر جعلنى انتبه إلى ما كان خافيا عني وغائبا عن بصيرتى. ففى شهر ديسمبر ألغيت الحراسات. وقد أحدثت الحراسات فى مصر من الهوان والظلم وامتتهان الإنسان للإنسان ما نعرفه جميعا: وهو قرار داخلى.

ولكن أدهشنى جدا أن قرار إلغاء الحراسات قد أغضب السوفيت.

ولابد أن أعيد هذه العبارة الأخيرة وأرتب دهشتى التى لم تنته: لقد كانت فى مصر حراسات. ثم رأيت لاعتبارات قومية وإنسانية أن ألغى هذه القرارات المهينة. وهو قرار داخلى. ومن حقى أن أصدره. فغضب الروس لذلك غضبا شديدا. كأننى فرضت الحراسات فى روسيا وألغيتها بعد ذلك!

عرفت فيما بعد ما الذى أغضبهم. فقد كان واحد من مراكز القوى فى الخارج عندما صدر هذا القرار. وأقنعه السوفيت أن هذا القرار يعتبر «رثة» فى الاشتراكية، أو «انتكاسة» للتقدمية المصرية، أو «كبوّة» وطنية..

أما أنا فقد اتخذت هذا القرار من واقع ما أراه فى مصر. فأنا كأى طبيب لابد أن يداوى جراح المرضى قبل إعداد غرفة العمليات. فأنا أريد أن أجفف الدموع، وأداوى الجراح، لأننى أعد نفسى وبلدى لعملية كبرى. هذه العملية لم تغب عن بالى لحظة. فأنا مطمئن من الناحية العسكرية على قدرتنا الدفاعية. ويجب أن نلتقط أنفاسنا، وأن نتجه إلى الجبهة الداخلية. ونطمئن على سلامة النفوس، وعلى كرامة الإنسان. نعم كرامة الإنسان فأنا لا أتصور حاكما يسمى نفسه حاكما وطنيا صادقا، إذا كان يحكم شعبا من ذوى الكرامة المجروحة، أو النفوس المهينة. نعم كرامة الإنسان، وكان من المعروف أن قرارات لجنة الإقطاع ووضع الحراسات كانت تصدر كل يوم خميس. وكانت هناك حالة رعب تهب البلد من أوله لآخره. ولا تكاد تصدر هذه القرارات حتى تطول أظافر ومخالب بعض الناس وتنغرس فى لحوم الآخرين وأعراضهم بلا رحمة. مع أنهم جميعا مصريون.

وفى يوم من أيام صدور قرارات لجان الإقطاع كنت فى ميت أبو الكوم عندما سألنى الناس: ألم تقرأ الصحف؟

ولم أكن قرأتها.. فمن عادتى أن أعيد التقليب فيها مساء. ففى الصباح عندى مواعيد كثيرة. ولكن الناس استعجلونى أن أفعل ذلك. ففى ذلك اليوم صدر قرار من لجنة الإقطاع بمركز تلا. وفجأة وجدت لجنة إقطاع تلا قد وضعت تحت الحراسة أحسن الناس فى المركز، وهم جميعا أهلى. وأنا أعرفهم جيدا. جميعا قد وضعوا تحت الحراسة وفصلوا من العمدية.

قرارات حاسمة

ولم أنم ليلتي في نفس البلد. وألغيت قرار اللجنة. وهو القرار الوحيد الذي ألغى يوم صدوره. لأنه ظالم. وغضب الروس.. وقالوا ذلك لواحد من مراكز القوى كان وقتها في ألمانيا الشرقية. وعرفت أنهم كانوا يفضلون أن تظل جراح الناس تنزف، وأن تأكل النار قلوبهم غضبا، وأن يعتصروا شفاههم مرارة ويأسا.. وعرفت أن هذا هو «الجو» المطلوب لمعارك دموية في مصر.. لولا صدور هذا القرار وغيره من القرارات الإنسانية التي أصدرتها- بعد ذلك- وكان ذلك يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٧٠.

وفي يناير ١٩٧١، أي بعد ثلاثة شهور من ولايتي الحكم جمعت مجلس الأمن القومي بشأن تقرير المد الثاني لمبادرة روجرز تسعين يوما أخرى. وتكلموا جميعا. ولكن وضع لي أنهم قد رتبوا كل شيء. واتفقوا قبل أن يجيئوا. ولكن أردت أن أرى كل واحد على حدة. لأعرف بالضبط ما هذا الذي أراه أمامي. لقد كان اتفاقهم غريبا. حتى عندما حاولوا أن يقولوا: إنهم متفقون على عدم التجديد. قلت: إذن أسمعكم واحدا واحدا. فمثل هذه القرارات لا تؤخذ هكذا. إنه قرار مصيري. ولكنني سألت محمد فوزي وزير الحربية في ذلك الوقت: يا فوزي هل جاءت بطاريات الصعيد؟

أجاب: ليس بعد!

سألت: عندك أية معلومات عن متى تصل إلينا؟

أجاب: ربما في فبراير القادم.

قلت: يعني مع نهاية التسعين يوما!

فلم يرد أحد. ووجدت إجماعا غريبا. فقد كانت لجنة الأمن القومي تضم أكثر أعضاء اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي.

ولكن لم أضيع هذه الفرصة والتفت للجميع وقلت: آسف جدا أن أقول لكم إنني لا ألعب القمار. وإذا كنت ألعب القمار، فلن ألعب بمصير بلدي. أنا غير مستعد أن أدخل في حرب استنزاف يضيع فيها الصعيد بالكامل..

وتعالت أصوات تقول: يا أفندم إنها مسألة كرامة. كيف لا نحارب؟

قلت: إنها ليست مسألة كرامة. إنني على استعداد أن أبتلع كرامتي من أجل حماية الصعيد. أنا موافق أن أعلن معكم نهاية مبادرة روجرز يوم ٤ فبراير. ولكن آسف جدا لا أستطيع بعدها أن أبدأ حرب استنزاف!

وبدأت أشك. فالذى رأيته ليس مألوفاً. إنهم يريدون حرب استنزاف من جديد ولو أدى ذلك إلى ضياع الصعيد. أو خراب مصر كلها. ثم إنهم متفقون على ذلك. أى إنهم اتفقوا قبل أن يجيئوا. وكيف اتفقوا؟ وما الهدف؟ وما هى المصلحة؟ إنهم لم يتفقوا فقط. وإنما هم قد اتفقوا معا ضدى أنا!

أصبح كل شىء أمامى واضحاً تماماً. وبدأت أسترجع ما حدث بتفاصيله الدقيقة. وأضع الحادثة إلى جوار الأخرى. وأسترجع الوجوه. ولم يتوقف رأسى عن التفكير وعن العمليات الحسابية ليلاً ونهاراً.

وجاء يوم ٤ فبراير وذهبت إلى مجلس الشعب. وأعددت خطابى. وكانت العادة تقضى بأن أعطيه لسامى شرف لكى يعده على الآلة الكاتبة. وكنت أنا وبخط يمدى كتبت الجزء الذى أعلنت فيه المبادرة المصرية. ولما ذهب الخطاب إلى سامى شرف وجده عادياً. ولكنى أعلنت فى ذلك الخطاب إنهاء الفترة الثانية للمبادرة. وفى نفس الوقت أعلنت أننى لن أجدها إلا لمدة شهر واحد لكى أضع العالم كله أمام مسئولياته. وهذا الشهر ينتهى يوم ٧ مارس سنة ١٩٧١. ولم استشر فى هذا القرار أحداً سوى د. محمود فوزى رئيس الوزراء، لا باعتباره رئيساً للوزراء ولكن باعتباره خبيراً دبلوماسياً يمكن الاعتماد على تقديره للأمور. وقد استدعيت فى القناطر الخيرية وقلت له ما فى نيتى. وقال الرجل: هذا رائع!

ومن العدل أن أقرر هنا الآن أننى منذ ذلك اليوم ازددت يقيناً فوق يقين، من أن الشعب المصرى أقدر بحسه وفهمه وإدراكه المباشر للأمور، من كل هؤلاء العلماء والخبراء والدكاترة فى السياسة.. فقد استقبل الشعب المصرى هذه المبادرة بالحماس الشديد. وكان صادقا، وبذلك كان هذا الحماس يرجح فى مقاييس فهم الأمور كل ما قاله أدعياء السياسة وخبرائها الذين توجوا أنفسهم بأنفسهم على عرش القيادات الشعبية!

ولما فرغت من خطابى هذا ودخلت مكتبى فى مجلس الشعب، وجدت وجوها مقلوبة، ووجدت لغطا.. ولم تعجبني الصورة التى رأيته ولا اللهجة التى سمعتها بشأن هذه المبادرة المفاجئة!

وكان من الوجوه المقلوبة أمين الاتحاد الاشتراكى وقد أعلن على مسمع من كثيرين: ليخرج إلى الشارع يدافع عن نفسه يقصدنى طبعاً فقد ظن أن الناس ضد المبادرة. ونسى أنه هو والآخرون ضد المبادرة، وضد مصالح مصر، وأمن مصر كلها..

وهذا الشخص نفسه جاءنى وقال لى بعدها بيومين: ليس فى الإمكان أروع مما كان ومما أعلنت على الشعب!

إذن إخواننا هؤلاء لم يكن تصرفهم هذا عن «سوء فهم» وإنما عن «سوء نية» وعن حقد.. كما أنهم لم يفهموا أننى عندما طلبت «اتفاق سلام» لم أقصد «معاهدة سلام». والفرق بين التعبيرين كبير جدا. فالذى قصدته إنما هو «امتحان للنيات».. أهم صادقون فى هذا الذى قدموه لنا؟ أم هم يلعبون بنا أيضا؟

ثم إننى قلت لنفسى: إن الولايات المتحدة هى الدولة التى وراء إسرائيل، وعلى ذلك يجب أن أنتهز هذه الفرصة ولن أضيع وقتى..

وقد أدرك جمال عبد الناصر هذه الحقيقة متأخرا جدا.

وكننت أطلع إلى أن تتحقق هذه المبادرة التى تنص على انسحاب إسرائيل إلى المضائق وترك قناة السويس. وتتجه قواتنا إلى الشرق ويتولى فى نفس الوقت د. يارنج سكرتير الأمم المتحدة هذه المهمة بيننا وبين إسرائيل لإتمام عملية الانسحاب سلميا. وكان فى نيتى أن أعطى ستة شهور أخرى إذا سار كل شىء على النوراة التى نرجوها. وينطبق هذا على مصر وعلى الجبهات العربية الأخرى. وبذلك تحل المشكلة بلا قتال.

ولو قبل اليهود ذلك لكانوا فى وضع أحسن.. ولكن غطرستهم وغرورهم وطمعهم أيضا قد أعماه عن هذه الحقيقة. أما الحقيقة فهى: أنهم تركوا مصر حتى استكملت قواتها تدريجيا واستيعابها للسلاح، وكان النصر عليهم بعد ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣. ولحسن الحظ كان اليهود أغبياء فى هذا الموقف.

وقد آمن اليهود بحقيقة أخرى أعمتهم وهى: أن مصر جثة هامدة. وأنها لن يقوم لها قائم بعد نكسة ١٩٦٧. وأن علاقة مصر بالسوفيت سيئة، فلن يكون لدى المصريين سلاح، وإذا كان لديهم سلاح فمعنوياتهم وبأسهم لن يمكنهم من استيعابه، وإذا استطاعوا ذلك فمن أين يأتى المصريون بروح معنوية ليقاتلوا بعد ما أصابهم فى كل الحروب التى دخلوها مع إسرائيل - هذا المنطق أعمى اليهود. وهذا المنطق قد أعمى مراكز القوى أيضا. فقد كانوا يرون أن الذى أقوله ليس إلا تهريجا. وأن مصر لن تقدر على عمل أى شىء!

وفى مايو دعوت مجلس الأمن القومى إلى بيتى. لم أدعهم كلهم طبعاً. فهذا بيتى وأنا حر أدعو إليه من أشاء. ورفضت دعوة على صبرى وشخص آخر ممن كانوا يتآمرون بوضوح. وقلت

== قرارات حاسمة ==

لهم وهم فى بيتى: أنا لا أحب أن «أشكالا» من هذا النوع تدخل بيتى.. وبصراحة وببساطة لا أحب أن تتلوث الكراسى فى بيتى بجلوس واحد منهم عليها..

أما لماذا حددت مدَّ المبادرة بشهر آخر ينتهى يوم ٧ مارس فلذلك قصة.

ففى أواخر يناير اتصل بى محمد فوزى وزير الحربية وقال لى: الروس أرسلوا مواعيد وصول بطاريات الصعيد..

سألته: متى تجىء؟

أجاب: المركب الأول يصل يوم ١٨ فبراير والمركب الثانى يوم ٢٢ فبراير..

قلت: خير.. ولكن المشكلة لم تحل.. لأن المبادرة سوف تنتهى يوم ٤ فبراير. فإذا وصل آخر مركب يوم ٢٢ فبراير فكم يستغرق نقلها من الإسكندرية إلى الصعيد.. ثم تركيب الصواريخ؟

أى إن الصواريخ سوف تصل فى الأيام الأولى من شهر مارس، ولذلك اخترت يوم ٧ مارس نهاية للمبادرة المصرية الجديدة. وهى أول مبادرة سلام يقدمها رئيس عربى منذ ٢٢ عاما. ثم يعلن فى نفس الوقت أنه على استعداد لعقد اتفاق سلام مع إسرائيل. وكان ذلك إحراجا عنيفا لإسرائيل، التى تدعى أنها هى التى تريد السلام. وأننا نريد الحرب على رغم أننا لا ننتصر فيها.. إلى آخر أكاذيبها.. ثم عدت أسأل محمد فوزى يوم ١٠ فبراير: يا فوزى هل تعلم أن الحزب الشيوعى سيعقد فى موسكو يوم ٣١ مارس.

قال: أعرف ذلك.

قلت: أحب أن أقول لك لمعلوماتك إن الروس لن يبعثوا بأى شىء فى ١٨ فبراير ولا فى ٢٢ فبراير... لكن إذا جاء شىء فسوف يكون فى إبريل..

وفعلا جاءت أيام ١٨ و٢٢ فبراير ولم يبعث الروس بخبر واحد قبل ذلك.. فالعادة تقضى أن يبعثوا لنا بخبر مبارحة المراكب لميناء أوديسا ووصولها إلى الإسكندرية لكى نعد لها الرصيف ونخليه تماما. ثم يتم الشحن فى القطارات ليلا. وتتجه بعد ذلك إلى الصعيد.

لا شىء من ذلك قد حدث.. تماما كما توقعت!

ولم أضيع وقتا. واستدعيت السفير السوفيتى وقلت: أبلغ القادة السوفيت برغبتى فى زيارتهم فى نهاية فبراير.. زيارة سرية. وجاء الرد بالموافقة على أن يكون ذلك أيام ١ و٢ مارس.

وكانت أولى زياراتي لموسكو كرئيس لجمهورية مصر. وجلسنا إلى مائدة المفاوضات. وكان معي من مراكز القوى شعراوي جمعة. وكان معي محمد فوزي. وفي يوم ٢ مارس اجتمعت بالقيادة السوفيتية: بريجنيف وكوسيجين وبودجورنى. وكنت في غاية الانفعال في ذلك الوقت. وأعتقد أن هذه الجلسة كانت الجلسة الفاصلة بينى وبينهم. وعلى الرغم من أننى ذهبت للزيارة بعد ذلك عدة مرات. فإنى أعتقد أننى لم أقل شيئا جديدا فى هذه الزيارات. فكل شيء قلته وعرفته وتأكدت منه فى هذه الزيارة الأولى لهم، والأخيرة من وجهة نظرى.

بدأت أشرح لهم القضية من أولها.. وما الذى فعلته إسرائيل. وما الذى نستطيعه. وما الذى نعجز عن عمله. والصورة واضحة أمام العالم كله. إنهم متقدمون عنا بعشر خطوات، وهم العداة، ونحن متخلفون عنهم ونحن المعتدى علينا ونريد أن نحرر أرضنا ونسترد ما فقدناه.. وأنتم أصدقاؤنا، تقولون ذلك ونصدقكم. ولكن الذى تفعلونه يجعلنا نشك فى كل ما تقولون. تقولون.. نصدق! تعملون.. لا نصدق! إنها حيرة وقعت فيها ولا أعرف لى شاطئا للأمان منكم أو شاطئا للأمان بكم..

وقالوا فى هذا الاجتماع إنه لا داعى للحرب. وإنه لا يوجد إلا الحل السلمى. وأنا موافق تماما على ذلك. ولكن من الذى يستطيع أن يتكلم عن السلام وهو ضعيف. إن السلام لا يمكن أن يتم إلا فى ظل القوة. إذا أصبحت قويا وأيقنت إسرائيل ذلك استطعت أن أتحدث عن السلام وأنا أهدهم بالحرب.

ثم قلت للقادة السوفيت: والآن دعونى أحكى لكم قصة عذاب جمال عبد الناصر. وجعلت أروى لهم كل ما فعلوه بجمال عبد الناصر وما قالوه له حرفا حرفا. فقد ظن الروس أن الذى قالوه لعبد الناصر قد احتفظ به الرجل فى صدره ومات معه، والحقيقة أنه مات به! ثم عدت أحاسبهم على قراراتهم معي أنا ومواعيد إرسال بطاريات الصعيد.. إلى آخره. واشتدت المناقشة واحتدت. وتدخل بريجنيف وهو دائما رجل صديق ومتفاهم. وقلت له: بدون تحرك عسكري مستحيل أن يحدث شيء! ولم يكن صعبا أن أدرك حقيقة مؤلة هي: أن الروس رأيهم كاليهود تماما: أننا جثة هامة خامدة.. ولا أمل فينا! ولذلك كان بودجورنى لا يجد حرجا فى أن يطلق بعض التعليقات المؤلة لنا، والجارحة أيضا. ولم أطق صبرا على الذى رأيت وسمعت وثرث أمام الجميع.. وعند قمة غضبى هذا، وكما هى العادة يخرج الروس قائمة تقول: وافقت القيادة السوفيتية على تزويد مصر بالأسلحة الآتية..

هم الذين اختاروا الأسلحة.. وليس من بين هذه الأسلحة جميعا: سلاح الردع الذى وعدوا به جمال عبد الناصر من قبل، ولا من بينها بطاريات الصعيد.. ولا تحديد موعد إرسالها ولا موعد تركيبها.. وكما توقعت.. جاءت هذه الأسلحة التى اختاروها بأنفسهم بعد انعقاد الحزب الشيوعى بأسبوعين. وفى ذلك الاجتماع طلبت أن يسجل فى المحضر: أننا مختلفون!

وكأننى ألقىت شعلة من النار على الحاضرين فقالوا: إلا هذه الكلمة!

قلت: أنا مصر على ذلك!

قالوا: إلا هذه الكلمة!

قلت: إن الحلفاء كانوا مختلفين تماما، على رغم أنهم اتحدوا على هتلر. فهذه الكلمة لا تعنى أكثر من أننى مختلف مع القيادة السوفيتية. وهنا، وبحكم العادة، قال القادة السوفيت: سوف نعطيك سلاح الردع أى الطائرة ذات الصاروخ الذى مداه ١٥٠ ميلا..

قلت: عظيم.

قالوا: على أن يكون تشغيلها بأوامر من موسكو.

قلت: إنها إذن فرصة نتحاسب فيها. لقد عرض عليكم عبد الناصر إرسال أطقم سوفيتية.. وعرض عليكم أن يكون قائد الطيران سوفيتيا.. وعرض عليكم أن يدخل فى معاهدة قلت: لا.. قال: إذن نجعل المعاهدة حلفا.. أى إن جمال عبد الناصر عرض عليكم أن يدخل فى حلف وارسو؟

قالوا: هذا حدث تماما.

قلت: أنا أرفض طائرة الردع هذه!

وكانت أكبر غلطة ارتكبها السوفيت فى هذا الاجتماع.. ثم ختمت حديثى العنيف جدا معهم بقولى: أحب أن أقول لكم حتى لا تغلطوا هذه الغلطة مستقبلا.. ليس فى مصر إلا قرارى أنا وقرار الشعب. وأرفض أن أتلقى هذه الأوامر من أى مكان. وهذا الذى تطلبونه منى لا تفعله أمريكا مع إسرائيل.. فإن إسرائيل لم تستأذن أمريكا فى ضرب أعماق مصر ومنشأتها.. وأمريكا تمد إسرائيل بأحدث الأسلحة. وكلها معروفة. وأنتم لديكم أحدث الأسلحة وهى منشورة فى الكتب. وأستطيع أن أرويه لكم الآن إذا أردتم. فلديكم أسلحة حديثة متطورة جدا..

ورجعت إلى مصر بعد أن أصبح كل شىء واضحا تماما.. وقد حصلنا على بعض السلاح، ولا أحد يرفض المزيد من السلاح. لا جمال عبد الناصر ولا أنا، فكل سلاح هو إضافة قوة.

== قرارات حاسمة ==

أياً كانت هذه الإضافة! ولكي أكون أكثر وضوحاً فقد عدت من موسكو والصورة في عيني وفي أذني هكذا: لم أكن رجل موسكو. ولن أكون. فقد كانوا يرون أننى «الرجل المرحلة» أو «رجل المرحلة» وبعدها يجيء آخر، يجيء واحد من مراكز القوى. ولذلك تسللوا إلى كل المراكز القيادية فى الإعلام وفى الصحافة وفى أماكن كثيرة من مصر. وكل شيء يمشى بطريقة منتظمة استعداداً لهذا اليوم ولهذا الرجل.. أى للرجل الآخر الذى ليس أنا!

وجمعت اللجنة العليا التى اشتركت معى فى قرار مَدِّ المبادرة فى يناير الماضى. وكان ذلك فى القناطر الخيرية فى بيتى. وقلت لهم: تعالوا اسمعوا ما جرى فى موسكو. وعرضت عليهم الصورة بجميع أبعادها وألوانها. وكان د. محمود فوزى وحسين الشافعى، ومن الاتحاد الاشتراكى شعراوى جمعة وعلى صبرى وضياء داود.. وغيرهم، وأعطيت الكلمة لمحمد فوزى. فوصف أسلوبى فى الحديث مع الروس فقال: إننى شرحت الموقف وشرحت الروس- بتشديد الرأى! وخرجوا من عندى. وعرفت أنهم التقوا بعد ذلك. وقالوا: كيف يرفض أسلحة الردع..؟ كيف لا يقبل أمر موسكو من تشغيلها؟.. إن مصر دولة صغرى مهزومة.. وروسيا دولة كبرى.. ما الذى يظنه فى نفسه؟، أو ما الذى يراه فى مصر التى انهارت أمام اليهود؟.. ولم يجرؤ واحد منهم أن يجاهر بهذا الرأى أمامى.. وإلا لوضعت فى مكانه وحجمه وصورته الحقيقية أمام الشعب، وقضيت عليه نهائياً. ولكنهم كانوا يهمسون بذلك بعيداً عني. ولكن هذا الوضوح لكل شيء أمامى جعلنى أتحرك بخطى ثابتة. وأحسب كل شيء أعمله. فالوقوف خطير. وبعد ذلك بوقت قصير جاء ما يفيد أن روجرز يريد مقابلتى. فوافقت على ذلك. فغضب الروس.

مع أننى عندما قبلت زيارة روجرز كان ذلك تصرفاً عادياً. فهو رجل قَدِّم مبادرة سلام. وأنا قدمت مبادرة سلام. وهو يرغب فى السلام أو دولته من ورائه ترغب فى ذلك، وأنا أول رئيس عربى قدمت مبادرة سلام. وأنا جاد وصادق. وشعبنا يريد ذلك عن إيمان بالسلام الذى سيؤدى إلى رفع الظلم عنه وعن الشعب الفلسطينى. كل ذلك ليس فيه أى شك. وعرفت مراكز القوى بغضب الروس، ولكنى لم أشعر بذلك بوضوح. أو انشغلت تماماً عن متابعة مثل هذا القرار العادى جداً. ولم أدرك إلا فيما بعد عمق الغضب الروسى، وترديد مراكز القوى لذلك فى كل مكان.. وفى هذه الأثناء دخلنا فى عملية الوحدة بين مصر وسوريا وليبيا. وكانت فرصة لمراكز القوى لكى تفتح معركة فاصلة قاضية.. أى تفصل بينى وبينهم وتقضى على أنا فى النهاية!؟



١ - شمعراوى جمعة
وزير الداخلية وسط
مجموعة من الجنود.



٢ - جونسنون.. هذا
الرجل قد باع نفسه تماما
لإسرائيل .



٣ - تالبوت.. أوفد
هذا الرجل ليقيم لنا إنتارا
غريبا.. رفضناه قورا .

٤ - محمد فوزى وزير
الحربية الأسبق .



٥ - زكريا محيى الدين .



٦ - الشير محمد على
فهمى .



الطابور الخامس والصراع على السلطة



■ الرئيس بودجورنى يطلب عقد معاهدة
مع مصر!

■ السادات يفجر مفاجأة فى عيد العمال

■ سر طرد على صبرى وإقالته من جميع
مناصبه

■ قلت للسفير السوفيتى: إننى أسمح
«بالخلاف» فى الراى ولكن لا أسمح
«بالصراع» على السلطة.

■ الروس لهم طبيعتان: طبيعة كل إنسان
خلقه الله وطبيعة أخرى هى الشك

الأشرطة المسجلة لمراكز القوى اعترفوا أنها «بداية النهاية» .. أى بداية نهايتى فى أنا. وأننى أقترّب منها بشدة. وأنه لم يبق أمامهم غير خطوات. وأخذوا جميعا يتقاربون ويستعجل بعضهم البعض. ثم حانت الفرصة التى ستجعل النهاية المحتملة شيئا مؤكدا.. فقد كانوا جميعا يتوقعون - هم والروس والأمريكان والإنجليز - أن حياتى لن تطول فى أيديهم أكثر من شهر أو شهر ونصف.

وفى تقديرهم أننى رفضت أن أتلقى أوامرى من موسكو.. وهذه غلطة كبرى فى نظرهم، إذ كيف ترفض دولة صغرى مُنهارَة كمصر أن تأتمر بما تملّيه دولة عظمى مثل روسيا..

ثم هذه المرة التى أتممت فيها الاتفاق فى بنى غازى مع الرئيس الأسد والقذافى على الوحدة بيننا.. كان من الضرورى أن أستأذنهم - أقصد مراكز القوى - أو أستأذن اللجنة العليا. فإذا عرضته على اللجنة العليا رفضوه.. ورفضونى أيضا. وفى ذلك قضاء على.. أو إن لم يكن قضاء على، فهى فرصة لكى أتعلّم على أيديهم درسا لا أنساه. وبعد ذلك أعرف الحقيقة الجديدة: أنهم أصحاب اليد العليا والسلطة، وأنهم قادمون وأننى ذاهب، أو كان من المفروض أن أذهب منذ وقت طويل. وأننى إذا كنت قد بقيت فى الحكم أكثر مما كان مقدرا لى. فالفضل يرجع إليهم. وأنهم لذلك يستحقون منى الشكر وعظيم الامتنان!

ثم دعوتهم عندى فى القناطر الخيرية وتناقشنا أكثر من خمس ساعات، ولاحظت أنهم فى هذا الاجتماع كانوا متفقين قبل مجيئهم. تماما كالاجتماع السابق فى يناير الماضى. أما هذا الاجتماع فقد كان فى أبريل. مع فارق واحد: أن اجتماعهم هذه المرة كان قد تحول من مجرد اجتماع عادى إلى مسرحية وقد رتبت فيها الأدوار. فكل واحد أخذ له موقفا خاصا وجانبا. وكلامهم كان جميلا معسولا. ورأيت أمامى عملا مدروسا.

وحاولت أن أعرفهم أكثر. وأن أعرف أبعادهم بمنتهى الوضوح. فالوقوف لم يعد يحتمل الغموض أو السكوت. ورأيت أن نأخذ الأصوات وقلت: إنن نأخذ الأصوات.

وأخذنا الأصوات. وجاءت النتيجة ٥ إلى ٣.. والثلاثة هم د. فوزى وحسين الشافعى وأنا.. أما الخمسة فهم: شعراوى جمعة وليبيب شقير وضياء داود وعبد المحسن أبو النور والفريق فوزى. ولم يكن شعراوى جمعة عضواً فى اللجنة العليا وإنما أضيف إليها بعد أن أخرجنا على صبرى منها بسبب فضيحة الحقائق الكثيرة جداً التى أتت بها من موسكو. وأصبح شعراوى جمعة عضواً فى اللجنة العليا وإن لم يكن عضواً منتخباً. ثم قال شعراوى جمعة: ولكن ليس لى صوت لأننى لست عضواً.

فقلت: أعرف ذلك. وإنما أردت أن أتبين وجهة نظر الجميع. وهذا يكفى.

وكانت السعادة تغمر هؤلاء الخمسة. ورأوا فى ذلك انتصاراً. ووجدوا فى صمتى نوعاً من الهدوء الذى يسبق العاصفة التى ستلقى بى إلى النهاية التى يتوقعونها ويدفعون الأحداث إليها. وتوقعوا طبعاً أن أبعث إلى سوريا وليبيا وأقول لهما: إن الاتفاق قد فشل لأن المؤسسات عندنا قد رفضته وإننى لذلك شديد الأسف على كل ما حدث!

ولم أفقد أعصابى. وإنما اتجهت إليهم قائلاً: إن هذا الاجتماع قد طال، وفاتنا أن نتناول الغداء. فها بنا قبل أن يبرد الطعام. لم أكن فى حاجة إلى أن أتلّف ورائى لأرى غمّزاتهم ولمزاتهم.. ولا اللعنان فى عيونهم يحمل التهنية ويستعمل النهاية العظيمة لمؤامرتهم ضدى. ثم التفت لشعراوى جمعة وقلت له: يا شعراوى يجب أن تدعو اللجنة المركزية يوم الأحد القادم لنعرض عليها الأمر واتجاهاتنا وكل ما قررناه! ولكن واحداً منهم أحس كأن شعبانا لدغه فصرخ قائلاً: ولماذا اللجنة؟.. لماذا نعرض خلافاتنا على أوسع نطاق؟.

إنه ليبيب شقير..

قلت: لا بد أن نذهب إلى اللجنة المركزية. هذه هى الأصول. وهى الأساس. وإذا نحن اجتمعنا كلجنة عليا. فإن هذه اللجنة العليا هى «مكتب» اللجنة المركزية. وهى صاحبة السلطة. يجب ألا ننسى ذلك! ودعوتهم إلى الطعام. ولم يذق واحد منهم الطعام طبعاً. فقد انسدت نفوسهم. وبدلاً من أن ينهاؤا المعركة، فوجئوا بأننى استدرجتهم إلى مجال أوسع، وفتحت عليهم جبهة جديدة ومعركة لم تكن فى حسابهم.

وخرج هؤلاء السذج وتصوروا أننى لا أدري ما الذى يفعلونه. مع أننى كنت أتعقبهم تماماً. وسارعوا فأرسلوا مندوبين إلى جميع أعضاء اللجنة المركزية فى الأقاليم ورتّبوهم وجهّزوهم ولقنّوهم ماذا يقولون، وإذا لم يقولوا.. فماذا يفعلون. وإذا لم يفعلوا فما هى الشائعات التى يطلّقونها فى كل مكان.

فقد كانوا يعتقدون أن القوة الأساسية لهم في الاتحاد الاشتراكي. تماماً كما تصور السوفييت أن هؤلاء هم القادرون على عمل كل شيء في مصر، ومن بين قدراتهم الإطاحة بـي في أربعين يوماً على أكثر تقدير! وكل هذا معروف. ولكنني حريص على روايته لكي أبين الآن، وفيما بعد كما سنرى، دور السوفييت في هذا كله. ولا بد أن السوفييت، مثل كل الدبلوماسيين في مصر، قد سمعوا بما جرى في القناطر. وعرفوا من رجالهم ما الذي قرره عندما دعوت اللجنة المركزية. ولا بد أنهم يرقبون الموقف ويلقون عليه الضوء ويمدونه بالتوجيهات والنصائح والمزيد من البنزين ليزداد الموقف اشتعالاً. ويتسلم السلطة.. رجالهم. فلم يكن ترقب السوفييت سلبياً ولا كان دورهم هو دور المتفرجين على مسرحية لا تغنيهم، وإنما كان انتظارهم إيجابياً مغرضاً. ما في ذلك شك.

ولا بد أن الروس سمعوا بما حدث في اللجنة المركزية، وكيف أنني طلبت منهم واحداً واحداً أن يُدلي برأيه. وكيف أنهم قد أتوا ببعض الأعضاء يُحدثون ضوضاء ولغطاً ويدقون الأرض بأقدامهم. وعرضنا على اللجنة المركزية كل ما دار بيننا.. وتحدث على صبري وضياء داود.. وعرفت اللجنة المركزية بكل ما حدث وبالتصويت على القرار الخاص بالموافقة على اتفاقية الاتحاد مع سوريا وليبيا. وطلبت إلى اللجنة المركزية: ما رأيكم الآن وقد عرضنا عليكم كل شيء. فلا يبقى إلا أن أعرف التصويت على ذلك واحداً واحداً.. وتنبه شعراوى جمعة الذي كان محرّكاً لكل شيء، وليس على صبري، إلى أن الموقف سوف يقلت منه. وإلى أن التصويت لن يكون في صالحه. فأشار إلى الذين يدقون الأرض بأقدامهم أن يتوقفوا. وانصاعوا له وجمدت أرجلهم. فلم نعد نسمع لهم صوتاً.

ثم اتجه ناحيتي ليقول لي: نحن نفعل لك ما تريد. هل تريد لجنة فرعية؟ موافقون. وبعد ذلك نُؤجل الجلسة.

ووجدت أنهم خسروا هذه المعركة. فوافقت على تأجيل الجلسة. ووافقت على تشكيل لجنة فرعية..

ومن الغريب أنني ذكرتُ لهم قبل ذلك يوم اجتماعنا في القناطر: أحسب أن أقول لكم شيئاً هاماً جداً.. إن هذا الاتفاق الذي صوّتُم ضده لن يسقط بهذا التصويت. ولذلك يجب أن نرجع إلى اللجنة المركزية.. ليس هذا هو الذي أريد أن أذكركم به. ولكن أحب أن أنبّهكم إلى أن هذا الاتفاق مكتوب بخط جمال عبد الناصر. وأن هذا اتفاق على الاتحاد.. وليس الوحدة الاندماجية. فلن نكرر ما حدث بيننا وبين سوريا قبل ذلك.. ولهذا فإنه اتحاد بين دول

== الطابور الخامس والصراع على السلطة ==

عربية أو بين جمهوريات. ثم إن جمال عبد الناصر قد عرض هذا الكلام وهذا التصور في ليبيا. وكان من المقرر أن يسافر من ليبيا إلى دمشق. وهذا كله تعرفونه. وسمعتوه من جمال عبد الناصر..

في تلك الليلة كانوا محاصرين الإذاعة. وكان هؤلاء الناس لا سند لهم في ذلك الوقت إلا الاتحاد الاشتراكي واللجنة العليا واللجنة المركزية.. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان سندهم الاتحاد السوفيتي. وكان سندهم الوحيد طبعاً. ومن الضروري أن أؤكد أن الاتحاد السوفيتي كان وراء ذلك ويباركه. وأنتى كنت، ولا أزال، على يقين من ذلك.. وعلى يقين من استعداد السوفيت لمساندتهم ومساعدتهم بغير حدود..

هؤلاء الناس لم تكن لهم أرض يقفون عليها، لا سند شعبي، ولا جماهير. ولكنى كنت أعرف الأرض الصلبة التي أقف عليها، والمجال الوطني الذي أتحرك فيه..

وقررت أن أستدعى السفير السوفيتي إلى القناطر وأن أجلس معه في نفس المكان الذي جلس فيه «رجال السوفيت» في اللجنة العليا. وكان ذلك في شهر أبريل. وكانت عندنا بعض المشاكل مع السوفيت. تناقشت معه بشأنها. وانتهيت فيها إلى رأي وقلت له: لعلك سمعت عن كل الذي جرى أخيراً.

فقال: بلغنى بعض الذى جرى.

فقلت: بل بلغك كله وبتفاصيله.

فقال: إن السفراء الأجانب يسألوننى عن حقيقة ما حدث..

فقلت له: سأحكى لك ما جرى. وإن كانت هذه من صميم شئوننا الداخلية. ولكن لأننا أصدقاء فمن المناسب أن أطلعك على حقيقة الأمور. ولأننى حريص على هذه الصداقة، فهى صداقة بين دول، وليست بين أشخاص، وهى تتعلق بمصالح الملايين، وليست بمصالح الأفراد، عندنا وعندكم.

ولم ينطق السفير السوفيتي..

وعدت أقول له: أطلب منك أن تبلى القيادة السوفيتية بريجنيف وكوسيجين وبودجورنى هذا القرار. وأنا سأطلعهم على هذا القرار قبل تنفيذه حتى لا يُسيئوا فهمه. وحتى لا تلتقطه الدول الغربية وتبالغ فى مدلوله. على كل حال. لقد اتخذت قراراً. وأرى من الضروري أن أطلعكم عليه وعلى الرغم من أنه قرار داخلى يخص مصر، فإن مقتضيات الصداقة تحتم على

أن أطلعكم عليه. ولم يشأ السفير السوفيتي أن يسألني ماهو هذا القرار. وانتهرت الدهشة العميقة والحيرة التي غمرته. فأطلت في الصمت. ورفع الرجل رأسه يستعجل سماعه مني، لعلني أخفف عنه هذه الحيرة.

قلت: أما قراري فهو: لقد قررت تصفية على صبرى وإبعاده تماماً عن القيادة السياسية.. ولكي أكون واضحاً أكثر من ذلك فإنني أقول لك.. إنني أسمح «بالخلاف» في الرأي ولكن لا أسمح «بالصراع» في السلطة.. أسمح بأن يختلف الناس، وأن يكون هذا الخلاف من أجل الصالح العام.. ولكن الذي رأيته، وعلى يقين منه الآن، ليس شيئاً من ذلك.. وإنما هو استدراج إلى هاوية.. أو استدراج إلى حافة الهاوية. وهذا ما لم أسمح به ولن أسمح به.. وسألني السفير السوفيتي: ومتى ستأخذ هذا القرار؟

قلت: ليس بعد. ولكنني حريص على صداقة روسيا.. ثم إن هذه الصداقة لا أظن أنها سوف تتأثر بذهاب واحد من رجالها.. أو رجلها- كما ستقول صحف الغرب- وأنا أعلم عن يقين أنكم شكّاكون بطبعكم. وعلى رغم كل هذا الوضوح في سلوكي معكم، وإطلاعكم على دقائق ما يحدث في مصر، وعلى قراراتي المستقبلية، فإنكم ستترتبون في كل ما أقول. أو كل ما قلت حتى الآن.. مع أنني أثبتت عشرات المرات أنني صريح. وأنني لا أكذب. ولست مضطراً إلى ذلك.. ولم أخف عن القيادة السوفيتية كل متاعبي. وأنت كنت معي في زيارتي السرية لوسكو ورأيت وسمعت.. وتعرف جيداً كل جوانب فكري واقتناعي.. وعلى رغم هذا كله، فإنني أعرف أن قيادتكم تبدأ بالشك في بعض الأشياء وتنتهي بالشك في كل شيء!

ومن المؤكد أن السفير السوفيتي قد أبلغ حكومته بكل ما دار بيننا. وكان هذا هدفي طبعاً. ولا بد أن السوفيت قد أطلعوا رجالهم على هذا كله. ولذلك فقد اتجهوا في نشاطهم إلى العنف. وأنزلوا المنشورات و«التعميمات» إلى كل مكان. وراحوا يستنكرون قراراتي. ويهاجمونني شخصياً. إذن لقد أصبحت المعركة سافرة. والغريب أنهم تصوّروا أنني غائب عن كل ما يفعلون. أو أنني في وادٍ آخر.. أو أنني أهوَّشهم.

إلى أن جاء يوم أول مايو. وخطبت. وكنت قد أطلعتهم على خطبتي قبل كتابتها. إمعانا فسي تهدئتهم وتنويعهم أيضاً. ولكي أضعف لديهم الشعور بأنني آمن لهم تماماً. وقد استراحوا لذلك.. ولكنني فعلت هذه المرة بالضبط ما سبق أن فعلته يوم ألقىت خطبة المبادرة في مجلس الشعب: أخرجت من جيبى ورقة بخط يدي وقرأتها. وكانت مثل قذائف من النار لسعتهم وأحرقتهم. وفقد شعراوى جمعة أعصابه. وثار على سامي شرف لأنه لم يخبره

بذلك. والذي حدث هو أنه في آخر الخطاب الذى ألقته أول مايو في عيد العمال أخرجت الورقة التى كتبتها بخط يدي وهى تقول بالحرف الواحد: إن جمال عبد الناصر قال وأنا أردد من ورائه.. إن الشعب هو المعلم وهو القائد وهو الخالد أبداً، وإن الشعب هو صاحب هذا البلد وهو الذى سيخوض مع قواته المسلحة معركة حياة، بكل مسئولياتها وما تفرضه من تضحيات. إذن فليس من حق أى فرد أو جماعة مهما كان هذا الفرد أو تلك الجماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشعب أو أن تدعى لنفسها موقعا تستطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب وأن تتستر وراء شعارات أو مناورات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشعب بعد أن أسقط هذا الشعب مع جمال عبد الناصر كل مراكز القوى ليبقى الشعب وحده سيّد مصيره.

وقلت وأنا أقرأ من الورقة التى أخفيت عنها عنهم: وقبل أن أختتم حديثي أريد أن أقول لكم.. يجب أن تفخروا بقواتكم المسلحة. لقد اجتمعت ستة اجتماعات مع قادة قواتنا المسلحة كلهم، الذين سيدخلون والذين سيعبرون والذين سيخططون. وبودى لو استطعت أن أضع أمامكم صورة ستفخرون بها، ولكن لنتركها الآن إلى أن تتم المعركة، لأن وراء الصورة بطولات ورجولة وتضحية وفداء يفوق كل شيء فى صموده فى أبناء قواتكم المسلحة وقد أبلغتهم بثقتكم بهم. وهم يسمعوننى الآن. وأبلغتهم بأملكم فيهم. فكونوا صفاً واحداً من ورائهم. ولنقف فى المرحلة المقبلة صفاً واحداً خلف قواتنا المسلحة بقلوبنا، بمشاعرنا وإحساسنا، بكل ما نملك.. ونحن سائرون فى طريقنا بوحدة شعبنا وأمتنا، بإلهام شعبنا وأمتنا، بطاقات شعبنا وأمتنا. لقد رفضت التبعية ورفضت الوصاية وضممتنا على الحرية.. حاربنا فى سبيلها، حرية الوطن وحرية الإنسان، وحرية تحالف قوى الشعب العاملة.. الحرية الاقتصادية والحرية السياسية، مكاسب الفلاحين والعمال والحفاظ على روح الديمقراطية. لا عودة لسيطرة رأس المال والإقطاع أبداً، ولا قبول بأى شكل من الأشكال للإرهاب الفكرى الذى يقمع حرية الرأى..

«إن شعبنا بعون الله وبالتوفيقه سوف يخرج من هذه الأزمة، سوف يخرج منتصراً عزيزاً، وسوف يخرج بعون الله قويا مرفوع الرأس واثقا بنفسه واثقا بمبادئه، وراسخ الإيمان أكثر وأكثر بقيم نضاله وبأسلوبه فى الكفاح العربى من أجل هذه القيم».

وفى ختام ورقتي التى أخفيت عنها عن مراكز القوى قلت: إن أعلام الحرية لم تسقط على هذه الأرض العظيمة الطاهرة قط، إن أعلام الحضارة لن تتراجع، إن أعلام التقدم لن تتوقف، وستكون

الطابور الخامس والصراع على السلطة

أقوى وأقوى بإذن الله، أعلى وأعلى بإذن الله، كذلك تقول لنا تجربتنا مع التاريخ. والتجربة مع التاريخ هي الدليل إلى المستقبل. وصدق جمال عبد الناصر حين قال في آخر خطاب له: نحن نسير نحو هدفنا وهو تحرير الأرض المحتلة، وحركتنا نحو تحقيق هذا الهدف ليست حركة مقيدة.. إنما هي حركة مفتوحة تلزم نفسها بالمبادئ الأساسية لنضالنا.

وفي اليوم التالي طلبت من سامي شرف أن ينشر في الصحف وفي سطر ونصف أنني أقلت على صبرى من جميع مناصبه. أما عضويته في اللجنة العليا واللجنة المركزية فهي من شأن الاتحاد الاشتراكي. وسوف يكون لها قرار فيما بعد. وأتى سامي شرف بالقرار ووقعته فوراً. وتأكدت عن طريق مكتبي أن هذا الخبر قد أبلغ إلى الصحف. وبعدها بأيام جاءني روجرز. وكان سعيداً بقبولي للمبادرة، وباركها قائلاً: لم تعد لإسرائيل حجة الآن. فأنت ألقى الكرة في ملعبهم وسدّتها إلى الرمي. ونحن نحتسب لك هدفاً مؤكداً!

ونذهب روجرز إلى إسرائيل. وأطلع جولدا مائير على ذلك. وأعطاه اليهود درساً مؤجعاً. وظلوا يطاردون الرجل حتى قُضوا عليه تماماً!

أما قرار طرد علي صبرى في ٣ مايو سنة ١٩٧١ فقد أصاب زملاءه أقطاب مراكز القوى بالجنون. فقد جاء مباغتاً وسريعاً. وفي ذلك الوقت اتصلوا جميعاً ودارت بينهم مناقشات واتفاقات واختلافات فد انكشفت كلها من التسجيلات التي عرفناها فيما بعد.. فقد كان شعراوي جمعة يسجل لعلي صبرى وسامي شرف، وسامي شرف يسجل للثنيين. فأجهزة المباحث تعمل لحساب شعراوي جمعة وأجهزة المخابرات تعمل لحساب سامي شرف. ففي حديث مسجل بين علي صبرى وسامي شرف ليلة ٣ مايو ذكر فيه سامي شرف أنه صدر قرار بإقالته وأخبره أن شعراوي جمعة والفريق فوزي موجودان عنده وأنهما يطلبان إليه أن يلزم الهدوء. وأن يترك لهما الأمر..

وفي حديث آخر مسجل بين شعراوي جمعة وعلي صبرى يقول له شعراوي جمعة: هذه هي بداية المعركة. هذه بدايتها. وسوف تكون هناك أشياء أخرى كثيرة. وكل ما نرجوه من سيادتك هو الهدوء يوماً أو يومين. وسوف ترى ما الذي تفعله الجماهير. وسوف ترى رد الفعل. اتركنا نتحرك. وسوف ترى النتيجة التي تسرُّك.. ويرد علي صبرى في التسجيل: ماذا تقصد بقولك: اتركنا نتحرك؟

ويرد شعراوي: سيادتك تسكت. فنحن نتكلم هنا طول الوقت. ونفكر كيف تسير الأمور. اهدأ سيادتك. إنها غلطة كبيرة ارتكبتها. وغداً سوف ترى سيادتك صداها. سوف يدفع ثمنها.

== الطابور الخامس والصراع على السلطة ==

أترك لى الأمور يومين فقط! وسوف ترى ما الذى تفعله قواعد الاتحاد الاشتراكى. إن عملية إقالتك هذه سوف نستغلها استغلالاً مروّعاً! وفى التسجيلات نجد أن على صبرى يسأل شعراوى جمعة عن موقف الفريق فوزى فيردُ عليه شعراوى: إنه قرفان. ويكون رد على صبرى: قرفان.. وساكت؟ لابد أن تردوا على السادات قبل أن يقضى عليكم جميعاً. ويقول له شعراوى: نحن فى الطريق إلى القضاء عليه!

ثم توالى الأحداث بسرعة وبعنف. وترنّح هؤلاء الناس الذين توهموا أنهم شيء كبير، وتوهم السوفيت أيضاً أنهم أكبر من ذلك بكثير فقد أعطاهم السوفيت أحكاماً وأوزاناً وأدواراً تؤكد سوء فهم السوفيت للأمور فى مصر وشعب مصر.

وقررت حل الاتحاد الاشتراكى لكى تُجرى الانتخابات من القاعدة إلى القمة وتكون لنا بعد ذلك لجنة مركزية جديدة منتخبة ولجنة عليا. قررت ذلك أمام أعضاء اللجنة العليا، فيما عدا على صبرى وضياء داود، فقد رفضت دعوتهم إلى بيتى.. حرصاً على نظافة بيتى وأى مقعد يجلس أى منهما عليه!

وخرجوا من بيتى فاقدين للنطق والحركة وضاعت من عيونهم النظرة، ومن رؤوسهم الاتجاه.. ويوم ١١ مايو عرفت التسجيلات.

ويوم ١٣ مايو أصدرت قراراً بإقالة شعراوى جمعة وفجأة تلقيت رسالة من القيادة السوفيتية تقول إن الرئيس بودجورنى يريد زيارتى.

أهلاً وسهلاً. ورحبت فوراً. وجاءت زيارته فى نفس الشهر. وقابلته رسمياً فى المطار. وأخذته إلى قصر القبة. ونزل بمنتهى التكريم. على الرغم من أن هذا الرجل قد سخر من الجيش المصرى. وأسمعنى ما أوجعنى من تعليقاته المؤلة على قواتنا المسلحة. وعلى معاركها وعلى استيعابها للسلاح.. وتحملت.. كما تحملت أشياء كثيرة قبل ذلك وبعد ذلك. ولكن لم أنس له ما قال، ولن أنساه. وفى قصر القبة، طلب منى الرئيس بودجورنى أن نجلس بمفردنا. ووافقنا وجلسنا والمترجم ثالثنا. وللتاريخ أسجل ما دار بينى وبينه بمنتهى الدقة.

قال: أنا جئت لأننا نريد أن نوقع معاهدة بيننا.

قلت: غريبة! وعجيبة أيضاً! ألا تذكر أننى جئت إليكم أطلب معاهدة. ومن قبلى ذهب إليكم جمال عبد الناصر يطلب معاهدة. ورفضتم طلبى وطلبه. فماذا حدث؟.. ثم ما علاقة هذه المعاهدة الآن، بما أرسلته لكم قبل ذلك من أننى سوف أقوم بتصفية على صبرى؟ لقد

بعثت لكم مع سفيركم هنا بأننى سوف أُقيل على صبرى من كل مناصبه.. إلا إذا كان سفيركم فى مصر لم يبلغكم بشيء من هذا.

قال: أبلغنا بكل شيء.

قلت: هل صدقتم ما قالته صحف الغرب من أن على صبرى رجل موسكو؟

قال: لا.

قلت: إذن لماذا تريدون عقد معاهدة. أرجو أن تقبل نصيحتى. أنا رجل صريح. وقد صارحتكم بقرار تصفية على صبرى قبل ذلك بشهر. والسبب هو حرصى على الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى. وأنا لا أعرف نياتكم بوضوح.. ثم إنكم أناس شكاكون بطبيعتكم ولا تصدقون ما يقوله لكم أكثر الناس حرصا عليكم.. ولعلكم صدقتم هؤلاء الناس الذين ليس لهم وزن شعبى أو قيمة جماهيرية.. إذا كان لى من نصيحة، وأرجو قبولها، فهى أن تؤجلوا عقد هذه المعاهدة إلى ٢٣ يوليو..

وسألنى: ولماذا؟

قلت: فى ٢٣ يوليو سوف تُجرى الانتخابات كاملة فى الاتحاد الاشتراكى من القاعدة إلى القمة. وسوف ينعقد مؤتمر قومى عام. وسأوجه لك دعوة رسمية. ومن الآن أدعوك. وأمام المؤتمر القومى الجديد نعقد هذه المعاهدة. وأنا أعطيك كلمة من الآن. وأنا إذا قلت فعلت. وأنتم تعرفوننى لا أكذب. فما رأيك؟.. حاول الرجل أن يثنينى عن رأى أو عن موقفى. ولكن لم أطاوعه ولم أجامله. ولا أبالغ إذا قلت إن الرجل كان يتوسل بأشكال غريبة.

وكان يقول: إن المكتب السياسى قد اجتمع وإن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى قد اجتمعت. وكلّفونى جميعا بأن أتقدم بطلب عقد معاهدة مع مصر. وإن شماتة الغرب فيما أصاب الاتحاد السوفيتى فى مصر لا توصف. ويظهر أن الصحف الغربية قد أبرزت هذه الزيارة. ووضعوه فى صور كاريكاتورية يستعرض فيها رجال مراكز القوى وقد ارتدّوا ملابس السجن جميعا!

ثم قال لى: هل يُرضيك ما أصابنا فى مصر، وما تنشره الصحف الغربية؟.

قلت: والله أنا محتار. لقد أطلعنكم على القرار قبل صدوره. وصارحتكم. ولم أخف عنكم شيئا. وصدر القرار وانتهى.

وعاد الرجل يُعيد ويّزيد ويقول ويكرر ما دار فى المكتب السياسى واللجنة المركزية.

== الطاير الخامس والصراع على السلطة ==

قلت له : هل إذا انعقدت هذه الاتفاقية تستريحون؟

قال : نعم.

قلت : ولا يصبح عندكم شك في مصر؟

قال : نعم.

قلت : وبهذه المعاهدة ينتهى الطريق الشائك الذى قطعه جمال عبد الناصر ، أو الذى قطع قلب جمال عبد الناصر وقلبي؟

قال : نعم.

قلت : هل أنا محتاج إلى أن أذكرك بكل ما قلت في موسكو؟ وكل ما بعثت به سفيركم في القاهرة؟ ..

قال : هذا يكفى.

قلت : والدوخة التى عاش بها جمال عبد الناصر ومات تحت تأثيرها ثم استئناف هذه الدوخة معي أيضا؟ ..

قال : انتهى كل شيء. ونفتح صفحة جديدة.

قلت : نفتح صفحة جديدة؟ وماذا في هذه الصفحة الجديدة؟

قال : كل ما تريد.. لن تمضي أربعة أو خمسة أيام حتى تصل إليك جميع مطالبك التى تقدمت بها في شهر مارس الماضى.

قلت : كلها؟

قال : نعم كلها.

قلت : خير. وعلى بركة الله.

ودققت الجرس وقلت : هاتوا لى محمود رياض وزير الخارجية.

وجاء محمود رياض وقلت له : يا محمود.. جهز لنا معاهدة مع الاتحاد السوفيتى لنعرضها على مجلس الشعب بعد ذلك. وليس مبالغة منى إذا قلت إن محمود رياض أصيب بنوع من الهلع. ولم يصدق ما أقول. ومنعه الحياء أو الدهشة أن يسترجعنى ما طلبته منه. ولكن عندما نظر إلى، وجد أننى أعنى ما أقول. ولكنه لم يستطع ألا أن يسألنى : معاهدة يا أفندم؟

قلت : نعم.

قال : معاهدة فعلا؟

قلت : نعم. وسوف نوقعها غدا.

قال : غدا؟

قلت : نعم غدا.

قال : معاهدة؟

قلت : معاهدة نعم. ونوقعها نعم. وغدا نعم!

ولعل هذا الحوار يؤكد أن أحدا لم يكن يتصور أن هذا شيء ممكن حدوثه.. أن يطلب السوفييت معاهدة. وأن أوافق عليها بهذه السرعة. وعلى توقيعها أيضا. ولكنه حدث. وهي مناسبة جديدة نرى فيها ما الذى نتقدم به، وما الذى نكافأ به على ذلك!

والذى دُهِلَ أكثر من ذلك هو الرئيس بودجورنى. فقد أخبرته أننا سنوقع المعاهدة غدا وفى هذا الصالون من قصر القبة. وعُدت إلى بودجورنى أقول له آخر مرة مُخْلِصاً: اسمع نصيحتى. إن التوقيت خطأ. وإن منظركم أمام الناس سيئ. لأن معناه أن هؤلاء الناس هم الذين كانوا يحُمُونَ مصالحكم. وأن مصالحكم مهددة بالخطر. وأنه لا أمان لكم إلا بالمعاهدة. غلط الفكرة غلط. وموعدها غلط. وصورتكم غلط. اسمعها منى.

ولم يسمع منى هذه النصيحة. وأعددت المعاهدة. وجلس محمود رياض مع جروميكو. وكتب المعاهدة وجاء مصورو الصحف والتليفزيون والسينما جميعا. أمام الكاميرات، أى أمام الملايين. والتقطت الصور وتناقلتها الصحف والشاشات فى كل الدنيا، وتعاقدنا.

وبعد ذلك سألته: هل أنت مطمئن الآن؟

قال : نعم.

قلت : هل مصالح السوفييت فى مصر مَصُونَة كما يريد المكتب السياسى واللجنة المركزية والقيادة السوفيتية؟

قال : تمام.

قلت له: بعد أربعة أو خمسة أيام سوف تصلنا الأسلحة التى طلبناها؟

قال : تأكد من ذلك!

== الطاير الخامس والصراع على السلطة ==

وودَّعته عند الطائرة ثُمَّ بالقرب منها، ثُمَّ صعدت السلم.. ودعاني لكي أتفرَّج على الطائرة الجديدة ٦٢ التي لها أربعة موتورات في المؤخرة. وتفرَّجت على الغرف التي بها المكاتب وحجرة النوم. ولم أنس وأنا في الطائرة أن أسأله لآخر مرة: بعد أربعة أو خمسة أيام كما قلت؟

قال: ما قلت لك على الأرض أؤكدك لك وأنا في الطائرة.

قلت: وهو كذلك.

قال: اطمئن.

قلت: إذن أحب أن أقول لك ثلاث كلمات. وهذه الكلمات الثلاث قد وضعتُ فيها كل وجهة نظري. وبلورتُ فيها كل تاريخ العلاقات السوفيتية المصرية من واقع تجارب جمال عبد الناصر وتجاربى أيضا.

قال: ما هي؟

قلت: الثقة.. الثقة.. الثقة!

قال: إنها كلمة واحدة.

قلت: كلمة واحدة كررتها ثلاث مرات.. أرجو أن تقولها لبريجنيف وكوسجين. ولك الشكر.. قلتها وفي رأسى كل ما قرأت في السجن عن الروس وعن العلاقات السوفيتية في الدنيا، شرقا وغربا. فالروس لهم طبيعتان: طبيعة كل إنسان خلقه الله وطبيعة أخرى: هي الشك. ليس فقط في أيام الشيوعيين، وإنما منذ أيام القياصرة. تماما كما أن الجليد يغطى بلادهم، فالشك يملأ نفوسهم. وللتاريخ أقول أيضا إننى لم أترك الرجل في الطائرة حتى وجدتنى مضطرا إلى أن أذكره بما سبق أن قلت له للسفير السوفيتى فى القاهرة. ثم اقتربت منه أكثر وقلت له:

عندما أرسلت لكم بأننى سوف أصفى على صبرى، كنت أعرف نوعية الأرض الصلبة التى أقف عليها.. ولم يكن هوَ ولا أنتم تعرفون نوعية الفراغ والتفاهة والوهم الذى يقف عليه على صبرى والآخرون! وأظن أن النتيجة واضحة أمامكم الآن..

وصافحته بحرارة وتوقفت لأقول: بعد أربعة أو خمسة أيام؟ .

فضحك وهو يقول لى: الثقة.

قلت: بل ثلاث مرات.. الثقة.. الثقة.. الثقة.. هذا ما ينقصكم أو ما ينقص علاقتكم بنا مع السلامة..

ولم يتصور السوفيت أن ما جرى كان من الممكن أن يحدث. وكيف يحدث وبهذه الصورة المفاجئة؟ فالفريق محمد فوزى كوزير للحربية يسيطر على الجيش..

وشعراوى جمعة كوزير للداخلية يسيطر على أجهزة الأمن، وكأمين للتنظيم السرى يسيطر على الجهاز السياسى. ومحمد فائق يسيطر على الإعلام.. وعبد المحسن أبو النور أمين الاتحاد الاشتراكى يستطيع أن يحرك المظاهرات.. وسامى شرف يسيطر على الحرس الجمهورى ثم إنه يسيطر على مكتب رئيس الجمهورية ولديه كل كلمة وكل حرف فى البلد..

ولابد أن السوفيت قد أدركوا أننى ساذج، إذ كيف أطلعهم على قرارى قبل تنفيذه. أو لعلهم أيقنوا أن رجالهم سوف يطيحون بى قبل أن أنفذ هذا القرار. أو أننى لا أعنى ما أقول وأننى أهوشهم وأخدعهم، لأنه ليس من المعقول أن أطلعهم على قرار كهذا، ثم إنه قرار يتعلق برجلهم فى مصر.. وسافر الرئيس بودجورنى سعيدا بالعاهدة.. وأنا عدت سعيدا بما وعدنى به. فمازلت أتمنى أن يصلنى سلاح الرنغ الذى وعدوا به جمال عبد الناصر، ومات الرجل دون أن يرى من ذلك شيئا، ثم جدّدوا لى هذا الوعد أيضا. وطبعاً - وبمنتهى الصراحة - لم أتصور لحظة واحدة أن رجلاً مثل بودجورنى، رئيس دولة عظمى، يعدّ ويؤكد هذا الوعد، ثم لا يصدق فيما يقول. لا أعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك. إنه رجل كبير فى بلده. ولابد أنهم فؤوه أن يقول. فليس من المعقول أن يتطوع بشيء من ذلك.

وقلت فى نفسى: حتى إذا لم تأت هذه الأسلحة إلا بعد عشرين يوماً فلا بأس فى ذلك.. أو حتى بعد أربعة أو خمسة شهور، المهم أن تجيء.. وهى إضافة لقواتنا.. ثم إننى لن أستطيع أن أغير طبيعة السوفيت. وربما اضطرتهم الظروف إلى أن يتزحزحوا قليلاً عن طبيعتهم. وربما أكون محظوظاً هذه المرة فتجىء الأسلحة الموعودة فى وقت معقول. ربّما..

ولكن دهشتى لم تذهب: إذ كيف يتصور هؤلاء السوفيت أن هؤلاء الناس - الذين أسميهم «الأغوات» - يمكنهم أن يديروا الأمور.. إنهم مجموعة من التافهين: على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف..

إننى أتصورهم مجموعة من الأغوات كالذين كانوا يعيشون فى بلاط السلاطين. وعندما يموت السلطان يتصور هؤلاء الأغوات الخدم أنهم يستطيعون أن يحكموا بدلا من السلطان..

== الطابور الخامس والصراع على السلطة ==

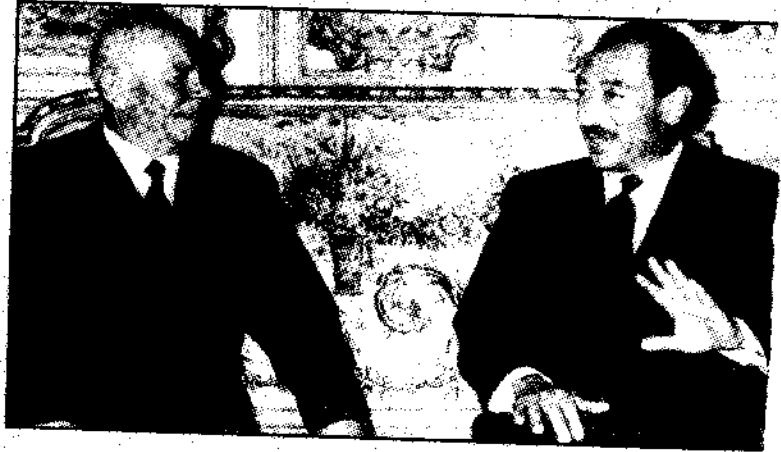
إن مصر العظيمة لم تُصَبَّ بالعُقم حتى يحكمها مثل هؤلاء الأغوات..
وفى الطريق إلى بيتى جعلت أفكر فى الأيام التى أنا مُقبلٌ عليها، ومعى مصر والأمة
المربية كلها. فقد حَدَّثْتُ هذا العام بسنةِ الحسم.
وحين أخذت أتأمل ذلك عاد الشريط الطويل للعلاقات السوفيتية المصرية يدور أمام عيني
بسرعة هائلة، وتجمَّلت بالصبر. وبدأت أعدُّ الساعات التى وعدنى بها بودجورنى!

□□□

١ - الرئيس السادات
ويجواره بودجورنى يلوحان
للجماهير التى وقفت على
طول الطريق من المطار حتى
قصر القبة مرحبة بالرئيس
السوفيتى .



٢ - بودجورنى يقول
للسادات بعد أن جلسا
بمفرديهما فى قصر القبة
بناء على طلبه :
جئت إليكم لأننا نريد أن
نوقع معاهدة بيننا .





٣ - زيارة حافظ الأسد
للمصر.



٤ - معمر القذافي
والرئيس السادات.

٥ - علي صبري .



٦ - شعراوي جمعة .



٧ - سامي شرف .





سنة الحسم

- فشل الانقلاب الشيوعي في السودان .
- من أجل مصر هانت أشياء كثيرة كانت
عزيزة على نفسى حتى كرامتى هانت
من أجل مصر .
- «القادة السوفيت في القرم» عبارة كثيرا
ما كرهها السادات .
- بونامارييف قال عنه السادات: إنه من
أغبي الناس الذين رأيتهم في حياتى .

الرئيس بودجورنى وفي حقييته معاهدة صداقة مع مصر. وهذه المعاهدة اعتبرها **سافر** السوفيت ضمانا جديدا للعلاقات الودية بيننا. ورأت فيها الصحف السوفيتية نجاحا لروسيا وهزيمة لأمريكا التي حاولت بزيارة روجرز لمصر أن «تدق إسفيناً في العلاقات المتينة بين البلدين». كما أن السوفيت رأوا في هذه المعاهدة بعد تصفية رجالهم في السلطة، تأكيدا لأن العلاقة بيننا ليست علاقة أشخاص بأشخاص، وإنما هي علاقة دول. علاقة أبقي وأهم من الأشخاص.

والذى يقرأ الصحف السوفيتية في ذلك الوقت يجد أن السوفيت سعداء بهذه النهاية، أو بهذه البداية. وعلى الرغم من أنني استرحت بعض الشيء، فإن همومى لم تخف. فعندى تجارب معهم قبل ذلك طويلة وعديدة. ولكن جعلت أمتى نفسى. ولم يغيب عن بالى لحظة واحدة: أنني قد حددت سنة ١٩٧١ بسنة الحسم. ومعروف للعالم كله، وللسوفييت، ما هذا الذى نريد أن نحسمه، وما هو المطلوب من السوفيت لكى يساعدونا على ما نحن فيه وما نحن مقبلون عليه.. وأهم من ذلك كله أنني أوضحت كل شيء.. فتحت قلبى للروس تماما، وأطلعتهم على كل خباياى.. بل إن بعض المعلقين السياسيين لاحظوا أنني حتى فى حفلات الترحيب بالرئيس بودجورنى لم أغفل لحظة عن ذكر مخاوفى وعن تحذيرى له..

ففى حفلة العشاء التى أقامها لى الرئيس بودجورنى فى القاهرة يوم ٢٧ مايو قلت من أول لحظة: «إننى أشكر لكم من صميم قلبى كل ما أظهرتموه من كريم المشاعر تجاه هذا الوطن وشعبه.. وفى مساندة نضاله وقضاياه العادلة.

وقلت له: وأهم من ذلك كله ما أعطيتموه من «فهم حقيقى، وصداقة مخلصه فى كل الظروف.. وذلك ما نقدره أكثر من أى معنى آخر»..

وقد لاحظ المعلقون السياسيون أنني أكدت معنى «الفهم الحقيقى» لوضعنا وسياستنا وحرصنا على حريتنا فى اتخاذ قراراتنا المصيرية.. وأن هذا «الفهم» أراه أهم من أى شيء آخر.

وأشار المعلقون إلى ما قلته أيضا في ختام خطابي في هذه الحفلة، فقد أكدت من جديد له وللقادة السوفيت ولشعوبنا العربية: «إننى لست فى حاجة إلى أن أضيف أمامكم جديدا لما يدافع عنه شعب الجمهورية العربية المتحدة وشعوب أمتنا العربية بأسرها من مبادئ وحقوق».. «نحن بوضوح ضد الاستعمار».. «نحن بوضوح ضد سياسات السيطرة».. «نحن بوضوح ضد العدوان».. «نحن بوضوح مع حق كل شعب فى صنع قدره وتنمية قدراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية».. «نحن بوضوح مع كل شعب فى اختيار طريقه إلى ما يريد».. «ونحن بوضوح مع السلام القائم على العدل»..

وقد تنبه المعلقون السياسيون والصحف الغربية إلى عبارة جاءت فى كلمة الترحيب فى الحفل الذى أقيمته للرئيس بودجورنى قبل ذلك بيوم واحد. فقد قلت: نحن نريد أن يعرف الكل أننا لسنا على استعداد لأن نفرط فى الأرض، أو فى الحق مقابل سراب، كما أن الكلمات المعسولة ليست دليلا على صدق النوايا التى وراءها».

واسترحت إلى أن المعانى التى أردت أنؤكدها للسوفيت أمام العالم كله، قد بلغت غايتها، فأنا أريد فقط من السوفيت أن يفهمونى، وأن يقدروا موقفى أمام شعبى وأمام العالم. وأن تكون الصداقة والكلمات الحلوة حقيقة، وليست فاتحة للشهية، ولا يجيء بعدها طعام.

بل لقد ذهبت صحيفة «البرافدا» فى ذلك الوقت إلى وصف هذه المعاهدة بأنها هزيمة مؤكدة للأمريكان فى المنطقة.. وقبل أن أجلس وأريح ظهري ورأسى وأمدد قدمى لأفكر فى شىء جديد وفى الصورة التى أمامى، وفى الخطوة التالية التى أنا مقدم عليها أحسست بتحركات مريبة فى المنطقة، إذ يبدو أنه لن تكون هناك راحة، فقد علمت بصورة مؤكدة أن شيئا ما سوف يجرى فى السودان. وكنت مجتمعا فى مرسى مطروح مع حافظ الأسد ومعمار القذافى. وأرسلت برقية لجعفر نميرى فى ١٨ يوليو أطلب إليه أن يجيء بسرعة لأمر هام، وكان رد جعفر نميرى أنه سوف يجيء إن شاء الله فى يوم ٢٣ يوليو ليحضر معنا المؤتمر القومى. وكان قبل ذلك قد حضر إلى القاهرة أيام تصفية مراكز القوى، وكان قلقا، وكان معنا بقلبه.

وكان إحساسى أن الذى خسره السوفيت فى مصر، لابد أنهم يريدون تعويضه فى السودان، ولا انفصال لمصر عن السودان، أو للسودان عن مصر. فالذى يقع فى أحد البلدين يصيب الآخر. هذه حقيقة يؤكدها التاريخ الطويل بين الشعبين الشقيقين فمصر هى السودان، والسودان هى مصر. ثم عدت أطلب من جعفر نميرى أن يحضر فورا لأن الأمر عاجل ولايحتمل التأجيل

بضعة أيام. وقال لى جعفر نميرى: إنه سوف يرسل لى زين العابدين عبدالقادر، عضو مجلس قيادة الثورة الموجود فى القاهرة، وطلب منى أن أحمله الرسالة التى أريدها.

وجاءنا زين العابدين فى مرسى مطروح. وقلت له: يا زين إن هناك شيئا خطيرا سوف يقع فى السودان، والضربة التى أخذها السوفيت فى مصر، سوف يردونها لكم فى السودان، معلومات مؤكدة، والصورة واضحة أمامى، سافر فورا، وانتقل للرئيس جعفر كلامى حرفا حرفا، وأن الذى أقوله ليس مخاوف وإنما هو حقائق. وسافر زين العابدين عبد القادر، ونزل إلى الخرطوم عندما حدث الانقلاب، واعتقلوه وحبسوا جعفر نميرى.

إن لى قد وقع ما أحسست به. وكان انقلابا شيوعيا، ولم تمض على معاهدة الصداقة مع السوفيت سوى ثلاثة أسابيع.. معاهدة الصداقة والفهم واحترام إرادة الشعوب وعدم التدخل فى حق كل شعب فى تقرير مصيره؟! فى ذلك الوقت كان عندنا فى القاهرة رجل سوفيتى اسمه بوريس بونامارييف، رجل كبير فى السن، ومن أغبى الناس الذين رأيتهم فى حياتى. وهو سكرتير اللجنة المركزية مثل برجنييف، وإن كان سكرتيرا إداريا، أما برجنييف فهو السكرتير السياسى للحزب. وبونامارييف يحضر عادة فى كل المفاوضات التى يجريها السوفيت لأنه المسئول الأول عندهم عن الأحزاب الشيوعية. وهو على درجة من الغباء ليس لها نظير. وكان من المفروض أن يحضر معنا احتفالات ٢٣ يوليو، ولابد أن وجوده فى مصر فى ذلك الوقت كان لخطأ. أما الخطأ فهى أنه كان ينتظر ما سوف يجرى فى مصر، يريد أن يعرف كيف تسير الأمور فى مصر بعد المعاهدة، يريد أن يطمئن على مصير العلاقات السوفيتية المصرية.. وأهم من ذلك كان يريد أن يشهد عن قرب نهاية المخطط الذى سوف يؤدى إلى سقوطى ودخولى السجن. وبعد ذلك سقوط النظام فى السودان وهذا الرجل بونامارييف هو العقل المدبر لحركات الأحزاب الشيوعية وعملاء السوفيت فى المنطقة. وقد جاء يشهد بنفسه النتائج الباهرة لسياسته وعبقريته فى إسقاط الحكومات الواحدة وراء الأخرى!.

ولم أعرف إلا فيما بعد أن بونامارييف قد أشار قبل ذلك إلى ضرورة مساندة السوفيت للشيوعيين العرب أو «الديموقراطيات الثورية».. فهذه هى التسمية الجديدة التى أطلقوها على الأحزاب المماثلة للسوفيت والعميلة لهم فى المنطقة. وفى يونيو ١٩٧١ كتب بونامارييف مقالا فى «مجلة العالم الماركسى» تعليقا على المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى:

«إن الحزب الشيوعى السوفيتى يجب أن يمضى فى مد يد الصداقة لكل الديموقراطيات الثورية، إنهم رفقاء السلاح ضد الإمبريالية»..

ثم قال فى هذا المقال ما معناه: إن مساهمة الأحزاب الديموقراطية الوطنية فى جلسات مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى يؤكد هذا النمو المتزايد لعلاقات الصداقة والتفاهم. وإن مثل هذه العلاقات بين هذه الأحزاب والحزب الشيوعى السوفيتى لدليل على نوع جديد من الحركة الشيوعية فى العالم كله وحركات التحرر الوطنى.. وإن مثل هذا التضامن سوف يقوى علاقتها بالحزب الشيوعى السوفيتى، وعلاقتها ببقية المواطنين فى البلاد الأخرى.

وفى نفس الوقت كان واضحا أن رأى السوفيت فى الشيوعيين العرب متواضع جدا، بل إنهم اتهموا الأحزاب الشيوعية العربية بالهزال أو بالتفاهة. وقد وضح الآن أن هذا الاتهام كان نوعا من «التعمية». حتى لايتوقع أحد فى العالم العربى أن الشيوعيين يمكن أن يكون لهم أى دور من أى نوع. وبذلك تغمض العيون عنهم، لأنه يجب ألا تراهم أو لا تستطيع أن تراهم لضآلتهم وتفاهتهم حتى جاءت هذه الحركة فى السودان!

ومن المؤكد أن السوفيت ليسوا سعداء لكل ما حدث فى مصر بعد جمال عبد الناصر. فأنا لست رجلهم.

وإننى صفت رجالهم. وإننى ألغيت الحراسات التى فرضت على الناس. ثم إننى بطبيعتى ضد القهر والظلم وإثارة الأحقاد بين الطبقات والفئات. كما أنى أسمح بالخلاف ولا أسمح بالصراع. ثم إننى أكدت أننى مختلف معهم، وصارحتهم بغضبى وضيقتى. ولابد أنهم يتوقعون منى ما يضايقهم أكثر. وقد هددتهم بأن للصبر حدودا وبعدها لابد أن أقول للشعب ماذا جرى. وفى ذلك فضيحة لهم أمام العالم كله.. فهم يخافون أن تكشف القناع الذى يضعونه على وجوههم فيعرف الشعب حقيقتهم، وحقيقة الهوان والعذاب الذى لقيته وتلقاه مصر معهم. ولهذا كله كان لابد أن يفعل السوفيت شيئا بسرعة فى مصر أو فى السودان أو فى أية دولة أخرى فى العالم العربى أو الشرق الأوسط كله، وقد حدث بوضوح بعد ذلك وفشل الانقلاب الشيوعى فى السودان. وفجأة تحرك هذا الرجل الروسى الموجود فى القاهرة بونا مارييف. ماذا يريد؟ إنه يريد مقابلتى لأمر هام! وجاءنى بالقرب من الإسكندرية حيث كنت أستريح، وكان الرجل منهارا، وأنا أعذره فقد فشلت كل خططة فى الإطاحة بى فى مصر وبجعفر نميرى فى السودان، وجاء يطلب مساعدتى؛ شىء غريب! وقد رفضت من أول لحظة أن يقوم أى نظام مثل هذا الذى أتى به السوفيت فى السودان. أرفض وجود مثل هذا النظام فى السودان وعلى حدودى الجنوبية، أرفض رفضا باتا.

وأعلنت فى خطابى يوم ٢٣ يوليو على مسمع من بونامارييف هذا.. التهنئة والتأييد الكامل لحكومة وشعب السودان.. وجاء بونامارييف يطلب منى أن أساعده على إنقاذ حياة بعض الشيوعيين أصحاب الانقلاب الفاشل فى السودان. وطلبت جعفر نميرى تليفونيا. وكان بونامارييف جالسا إلى جوارى. وسمعتنى وأنا أتشفع لدى جعفر نميرى حتى لاينفذ الإعدام فى الشفيع أحمد الشيخ.. أحد أقطاب الانقلاب الشيوعى. وجاء الرد من جعفر نميرى: إن الشفيع قد أعدم منذ ساعتين.

وغضب الرجل والاتحاد السوفيتى طبعاً ورأوا فى موقفى من السودان عملاً غير ودى، أو لعلمهم رأوه تدخل فى شئونهم «الداخلية».. مع أن هذا الرجل قد سمعنى وأنا أعلن فى المؤتمر القومى امتنان مصر للمساعدات السوفيتية، وكيف صفق الناس لذلك..

وفى نفس الوقت أعلنت بمنتهى الوضوح أننى لست شيوعياً: لم ولن أكون شيوعياً. وعلى رغم ذلك فإننى أعترز بهذه الصداقة وأحرص عليها من أجل مصر.

لقد أعلنت فى ١٥ مايو أمام القوات المسلحة، وأعيدها مرة أخرى أمامكم ومن خلالكم إلى الشعب كله، وللأمة العربية، ولأصدقائنا وأعدائنا أننى لن أسمح أن تمر سنة ١٩٧١ دون أن تحسم هذه المعركة.. فإسرائيل الآن فى أروع حالاتها.. فلا نحن فى حالة حرب ولا نحن فى حالة سلم.. وإسرائيل رابضة على الضفة الشرقية بدون خسائر وتنتظر أن يحدث انفجار داخلى فى مصر..

وقلت فى ذلك اليوم وعلى مسمع من بونامارييف والشعب والعالم: إن التحقيقات أثبتت أن على صبرى كان ينتظر «فرقة» على حد قوله.. فرقة فى داخل مصر.. فإذا حدثت الفرقة وآلت لهم السلطة فلا داعى للحرب.. فلا قواتنا تحارب ولا أحد من شعبنا يصاب بسوء.. ولكننى أقول وأكرر أن سنة ١٩٧١ حاسمة، وإذا اقتضت المعركة أن يكون هناك مليون من الضحايا فنحن على استعداد لذلك..

ومرة أخرى فى ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومى يوم ٢٦ يوليو قلت: لقد قلت أمامكم والتزمت أمام شعبنا وأسمعت العالم كله إن هذه السنة سنة ١٩٧١ سوف تكون حاسمة فى أزمة الشرق الأوسط.. ومعنى ذلك أن الشهور القادمة سوف تكون شهور قرار، لست أقول إن طريقنا إلى النصر يجب أن يكتمل خلال هذه السنة.. ذلك أن الطريق أطول وأصعب. ولكننى أقول إن هذه السنة يجب أن تشهد - بعون الله - تحركنا العملى نحو إزالة آثار العدوان..

وقلت أيضا: وعلى أساس ما أعلنه من مبادئ ومواقف مهما اقتضانا ذلك من جهد وتضحيات، فلن نسمح لهذه الأزمة أن تتجمد معالمها ومعالم حقنا تحت تراب النسيان، لا بد أن نتحرك. وسوف نتحرك بعون الله، سياسة وقتالا، وأكرر أمامكم ما قلته في أول مايو: العين بالعين، والسن بالسن، والعمق بالعمق، والنابالم بالنابالم!

بعد هذا كله، وبسببه، حصلت قطيعة بيننا وبين الاتحاد السوفيتي.. لا كلام بيننا.. ولا سلام أيضا.

وبدأت أنا الكلام، وبعثت أذكرهم بما قاله الرئيس بودجورني من أن كل شيء سوف يصلني بعد أربعة أو خمسة أيام. وأن هذا العام هو عام الحسم وشرحت لهم معنى الحسم. ويجيء السفير السوفيتي وعلى لسانه العبارة التي عرفتكم وملتتها: القادة السوفيت في القرم.

أى إنهم يصطافون على شاطئ شبه جزيرة القرم على البحر الأسود.. والدنيا كلها معطلة؛ ذهابا لا شيء يصل، وإيابا لا شيء يجيء!

وأعود أذكرهم بالمعاهدة التي بيننا..

والجواب: القادة في القرم.

وأقول للسفير: إن موقفى من السودان موقف مبادئ. قل لهم ذلك.

فيقول: إنهم في القرم..

— سنة الحسم؟

— القادة في القرم.

— ماذا أقول للشعب المصرى وللعالم العربى وللعالم؟

— فى القرم!

أما ما الذى يجب أن أفعله؟ فهذه مسألة تخصنى أنا وحدى. ومن الضرورى أن أفكر فى كل الذى قلته ووعدت به. لا بد أن أجد لى صيغة مناسبة أواجه بها الشعب. هل أحكى للشعب قصة السوفيت؟ هل أفصح هذه العلاقة؟ لو فعلت ذلك لكان إضرارا مباشرا بالسوفيت. هل من مصلحة مصر أن أفعل ذلك؟ ثم ما هى أقصى درجات احتمالى للأذى؟ إننى قادر على أن أحتمل الكثير. ورصيدى من الصبر كبير. ولكنى أخشى أن ينضب هذا الرصيد فأجدنى أمام

حالة من الغضب لا أستطيع أن أسيطر عليها. ولكن مصر؟! فمن أجلها يهون كل شيء. وقد هانت أشياء كثيرة كانت عزيزة على نفسى حتى كرامتى هانت من أجل مصر. ابتلمتها كثيرا وشربت وراءها أكوابا من التشهير بى وبنظامى فى الحكم.

وفى كل يوم أشعر أنهم لا يجفون الجراح، وإنما يضعون الملح على الجرح. وأخيرا وفى آخر سبتمبر جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفيت على استعداد لأن يروك.

قلت: خير.. متى؟

قال: فى ١١ و١٢ أكتوبر.

ولا أظن أن السفير قد لاحظ أننى كتمت غيظى أو ربطت «الدم على القبح» كما نقول فى الريف.

فقلت: لا مانع، إنها قضية مصر.

ولكى يفهم الرجل بالضبط ما أردت أن أقول كررت المعنى قائلا: إنها قضية مصر.. ومن أجلها فإننى أتهاون مع نفسى على رغم كل ما أصابنى فإنها قضية مصر. قبلت هذه الدعوة فورا. ولم أقل له ما كان يدور فى نفسى من أنه لو كان الأمر يخصنى أنا ما ذهبت إلى موسكو أوحتى رأيت هؤلاء الناس. ولكن الضرورة لها أحكام. والضرورة هى مصر. وأحكامها أن أمد يدي أطلب المزيد من السلاح. وكما حدث فى أول مارس سافرت إلى موسكو فى ١١ أكتوبر، والذى جرى فى الكرملين هو ما توقعته بالضبط. فقد كان لزاما على أن أروى من جديد كل ما حدث للعلاقات بيننا.. وما وعدوا به جمال عبد الناصر، وما وعدونى به مع أننى حكيت ذلك عدة مرات. ومن الغريب أن لديهم استعدادا لسماع الشيء الواحد ألف مرة. وكأنهم يسمعونه لأول مرة.

وارتفعت حرارة المناقشة بينى وبين جيريتشكو. وثرث عليه. وكانت لهجتى عنيفة جدا. وتدخل كويسجين بيننا، ثم تدخل بريجنيف مرة أخرى. وبريجنيف رجل ممتاز ومشاعره معنا دائما. ثم إن فهمه السياسى لقضيتنا سليم وواضح. ثم أعدت عليهم ما سبق أن قلته إلى أن وصلت فى كلامى إلى ذكر «سنة الحسم» فإذا بهم فى نفس واحد يسألون: قل لنا شيئا عن سنة الحسم هذه؟

أقول لهم سنة الحسم؟! بعد كل هذا الذى أعلنته فى مصر أمام رجلهم بونا مارييف. وما أعلنته بعد ذلك وما حكيتهم لهم، مطلوب أن أشرح لهم معنى سنة الحسم؟! ثم مطلوب

منى أن أشرح لهم ما هو الحسم؟! ووجدت أن المناقشة طالت وأصبحت مملة وكأننى أنفخ فى «قربة مقطوعة» كما نقول فى الريف أى إن الذى أنفخه من هنا يخرج من الناحية الأخرى فهو جهد ضائع. وهم جالسون أمامى فى هدوء وبرود.. وإن كانت سياستهم هى رفع درجة الحرارة حتى الغليان، ثم إنزالها إلى ما تحت الصفر. ويتفرجون وينتظرون ليروا ما هى النتيجة. وقد حفظت هذه السياسة جيدا، ولكن احتمالى لها لم يعد مستطاعا.

ووجدت أمامى فرصة لهرز الموقف ورفع درجة الحرارة فقلت لهم: لا يفوتنى أن أشكركم على أطقم صواريخ سام ٣ السوفيتية التى بعثتم بها إلى القاهرة: شكرا جزيلا.

ولكن أحدا منهم لم يهتز. فهم يتوقعون هذا الشكر أو المزيد من الامتنان. واتجهت مباشرة إلى ما أريد أن أقوله لعلهم يفيقون، فقلت: أشكركم، وأحب أن أبلغكم أن رجالنا قد تدربوا على استخدام هذه الصواريخ ومن الممكن أن يشغلوا مكان رجالكم فى دقيقة واحدة.. ولذلك آن الأوان لسحب الأطقم السوفيتية! واهتز الأقطاب الثلاثة بعنف وكأننى وجهت إليهم صواريخهم وأطلقتها عليهم. وتحدث بريجنيف وهو الذى يهمنى فيهم جميعا فقال: إنها كارثة على الاتحاد السوفيتى!

فقلت: أريد أن أعرف منك الآن لماذا هى كارثة على الاتحاد السوفيتى؟

فأجاب: الوجود السوفيتى فى خطر!

وأحسست أن بريجنيف قد أعطانى السلاح الذى فى يده فقلت له فورا: تقول الوجود السوفيتى إننى طلبت إليكم، وطلب جمال عبد الناصر، وجودا سوفيتيا فى مصر فرفضتم طلبنا الدفاع الجوى وقيادة الدفاع الجوى وطلبنا سلاح الردع.. وجعلتم الموقف صعبا علينا فقلتم إن الأوامر يجب أن تكون من موسكو وطلبتم المعاهدة فوافقت عليها فورا وتم توقيعها وجاء بودجورنى ووعدنى بأن كل شئ سوف يصل بعد أيام وأن صفحة جديدة سوف تبدأ فى سجل العلاقات السوفيتية المصرية والآن تخاف على الوجود السوفيتى ياسيدى هات مائة ألف جندي سوفيتى إلى القاهرة، وأنا موافق على هذا الجيش فورا.

ولم يرد أحد؛ ثم عدت أدق الحديد الساخن بيننا فقلت: أقبل هذا الوجود السوفيتى.. ولكن بشرط. واهتز الأقطاب الثلاثة ولايد أن درجة حرارتهم قد زادت بمقدار انخفاض درجة حرارتى عندما قلت: بشرط أن يكون القرار منى.. فلن يحارب من أجلنا أحد؛ إنها معركتنا وحربنا وضحاينا أيضا! وانخفضت درجة حرارة الحديد الذى بيننا، وأصبحنا ندق

حديدًا باردًا.. وقلت لهم إن الوجود السوفيتي لا يخيف أحدا، لأن الجنود السوفيت لن يحاربوا، ولكن إذا أرسلتم لي صواريخ أو سلاح الردع.. أو طائرات الاستطلاع التي تزيد على سرعة الصوت مرتين وثلاثًا.. فإن هذه الطائرات الاستطلاعية سوف تزعج إسرائيل ٢٤ ساعة في اليوم لأنه يستحيل على أى سلاح أن يلحق بها أو يقاومها..

أما الوجود السوفيتي بمائة ألف جندي فهو لا يخيف.. وإذا كنت قد أخرجت خمسة عشر ألفًا في أسبوع، فإننى سوف أخرج المائة ألف في عشرة أيام عندما أريد.. ثم سحبت مقعدى إلى الورا لأقول: الآن أصبح كل شيء واضحًا!

ولكنهم بسرعة قالوا معا: سوف نبعث لك بالأسلحة التي طلبتها قبل نهاية السنة.

وأعدت السؤال عليهم مرة أخرى: قبل نهاية هذه السنة؟

قالوا: نعم قبل نهايتها.

قلت: هذا يكفينى.

أما الأطقم السوفيتية فرأيت أن تبقى كما هي، فلن تضيف شيئا، ولا خسارة علينا من وجودها. وإنما المهم أننى حصلت على صفقة جديدة وفى ذلك إضافة إلى قوة مصر.

وتوالت الشهور بطيئة جدا.. وموجعة جدا.. وأحسست بأسنان الزمن أليلة. واقترب أكتوبر وانتهى. وجاء نوفمبر واختفى. ثم ديسمبر.. وفى يوم ٨ ديسمبر وقعت الحرب بين الهند وباكستان.. ووقف الاتحاد السوفيتي إلى جانب الهند واستخدم مطارات مصر قاعدة لإمداد الهند بالذخيرة والسلاح!

وفى نفس الوقت الذى كنت فيه فى موسكو كانت أنديرا غاندى تلف العالم تمهد لهذه الحرب سياسيا وإعلاميا. إذن لقد كان السوفيت يعلمون ما سوف يحدث فى ديسمبر. وكانوا قد أعدوا كل شيء لذلك. وكان فى استطاعتهم أن يقولوا لى: لا داعى لسنة الحسم هذه فسوف نكون مشغولين لسبب أو لآخر.. ولكنهم لم يفعلوا، وأخمدت غيظى فى نفسى، وقلت: لقد كانوا أصدقاءنا فى الحرب.. وكذلك كانت الهند. وبعملية حسابية بسيطة جدا، أدركت أن سنة ١٩٧١ لن تكون سنة الحسم، وليس من العقل أن أجعلها كذلك، فإن حرب الهند وباكستان قد لفتت العالم كله، واستوعبت كل اهتمام الناس وعطفهم وغضبهم، وحرصهم على المساعدة أو التوسط أو الدعوة إلى السلام.. ولا يمكن أن تحظى مصر بهذا كله.. فسوف تكون حربنا هذه قضية صغيرة أما قضية كبيرة أو حدثا عابرا أمام

كارثة دولية.. إذن لقد انتهى كل شيء، ولن تكون سنة ١٩٧١ هي السنة التي ناديت بها، ووعدت وهددت، انحسرت سنة الحسم بلا حرب.. واستدعيت يوم ٩ ديسمبر السفير السوفيتي لأقول له: واضح الآن أنكم لن تبعثوا بأية أسلحة، وإذا جاءت فبعد عام الحسم.. فما هو العمل؟!

ولم يقل السفير شيئاً.

وقلت: حتى إذا أرسلتم هذه الأسلحة، فلن تصل قبل فبراير، وبعد ذلك بشهور يتم تركيبها والتدريب عليها..

ولم ينطق السفير.. ولم يرسل السوفيت هذه الأسلحة حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٧٦..

وعدت أهز السفير بعنف: ماذا أقول للشعب.. إنني لو حكيت كيف حدث هذا كله، وما كان منك لكانت هذه فضيحة كبرى لكم.. ولأضرت بكم ضرراً بالغاً في المنطقة وفي العالم كله.

وطلبت من السفير السوفيتي أن يبلغ موسكو أنني أريد رؤية القادة السوفيت قبل نهاية ديسمبر هذه المرة دعوت نفسي إلى زيارة قادة الكرملين. وقلت له: قبل أن أصل أحب أن يكون معروفاً مقدماً أن الغرض من هذه الزيارة هو أن تصدر بيانا نغطي به الموقف القطيع الذي يواجهني في مصر وفي العالم كله. وعن طريق التليفون المباشر مع موسكو اتصل بهم السفير وأخبرهم. وتوقعت أن يحددوا الموعد بعد أسبوع أو أسبوعين، لم يحدث شيء من ذلك، فقد مضى أسبوع ومن بعده أسبوع آخر.. وفي يوم ٢٨ ديسمبر جاءني السفير السوفيتي يحمل هذه البشري: القادة السوفيت يسعدهم أن يستقبلوك يومى ١ و٢ فبراير! ومعنى ذلك أنه مطلوب منى وحدى أن أغطي موقفى فأنا الذى قررت وأنا الذى أتحمل ذلك مع أنني لم أقرر ذلك إلا استناداً إلى وعودهم وعلى أرفع مستويات القيادة السوفيتية.. إذن هذا هو المطلوب!

ومعنى ذلك: أنه إذا كان السوفيت برجالهم وعملاتهم لم يفلحوا فى إسقاطى، فهذه هي الفرصة التي أقوم فيها بإسقاط نفسي.. بيدي لا بيد السوفيت!

ودارت الأفكار فى رأسى والسفير جالس أمامى.. وتذكرت اقتراب يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٧١.. وتذكرت أننا ألغينا المعاهدة مع الإنجليز يوم أول يناير سنة ١٩٥٧، والسوفيت يستحقون ما استحقه الإنجليز فمعاهدتهم هذه يجب إلغاؤها فى نفس التاريخ، ولا أعرف

كم مضى من الوقت وأنا أتذكر ما قالوا وما قلت.. ودوختى بين الأمل واليأس، بين الصبر والغضب، بين الصمت وبين السكوت على الفضيحة. وتذكرت ما قاله لى المشير أحمد إسماعيل من أن بريجنيف كان حريصا على أن يصب الماء البارد على رأسى، لأن رأسى ساخن.. مع أن رأسى ساخن من الداخل، ولكن فى مواجهة هؤلاء الناس كان رأسى باردا! وأحنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت من موسكو فأطاحت بسنة الحسم كلها.. ولكن لن أسمح لها بأن تطيح بى وبآمال شعبى.. وعندما أحنيت رأسى للعاصفة أعترف أننى أحنيت له لى، فقلت للسفير:

قل للقادة السوفيت إننى مسافر يوم أول فبراير!

□□□



١ - جمال عبد الناصر
وجعفر نميري .



٢ - السادات ونميري:
صداقة حميمة .

٣ - جيري تشكو وزير
الدفاع السوفيتي .



٤ - يونانارييف أثناء
زيارته للرئيس السادات
في الإسكندرية ليحاول
إقناع أحد الشيوعيين.





لعبة جديدة

- أحنيت رأسي للعاصفة وأحنيت له مصر أكثر.
- السوفيت يتقدمون بقائمة أسلحة لم نطلبها ولا نريدها.
- الوفاق الدولي لعبة جديدة بين نيكسون وبريجنيف.
- قلت لجيري تشكو: لو كنت وزيرا للحريية عندي لعزلتك فورا.

مع أوائل سنة ١٩٧٢ اشتد الهجوم العنيف على السوفيت. فهم الذين تخلوا عنا. لأنهم أرادوا أن يؤكدوا لى وللعالم: أننى لا أستطيع أن أتخذ قرارا. فالقرار قرارهم. والرأى رأيهم. تماما كما عرضوا علينا من قبل أن نستخدم طائرات تتلقى أوامرها من موسكو. ومعنى ذلك - تأديبا لى وتحذيراً جديداً - أنه بعد الآن يجب ألا أعلن قرارا قبل أن آخذ موافقتهم على ذلك. فسنة الحسم هذه ما كان يجب أن أعلنها، قبل أن أخطرهم بذلك. وإذا أخطرتهم قامت لجانهم وهيئاتهم تدرس الموضوع سنة بعد سنة .. حتى تصل إلى قرار. ويجىء القرار بعد سنة أو بعد عشرين سنة. هذه هى الأصول التى يريدون منى أن أتبعها وألا أخرج عنها!!

واستشعر الناس فى مصر إهانة بالغة.. وفوجئت فى ذلك الوقت بعريضة موقعة من عدد من السياسيين كان من بينهم د. مصطفى خليل الأمين الأول للاتحاد الاشتراكي.. وفى هذه العريضة تحدثوا عن أن مصر تمر بمحنة فظيمة. وأن هذه المحنة تهدد مصر شعباً وأرضاً وحضارة. وأن الاتحاد السوفيتى يقدم لمصر العون الذى لا يسمح بتحرير الأرض واسترداد الحق. وقالت العريضة: إنه آن الأوان لأن ترسم مصر سياسة التحرير الوطنى، على أساس أن قوى مصر الذاتية وحدها، روحية ومادية، هى الركيزة الأولى والأمنية الوحيدة لتلك السياسة.. وأنه آن الأوان لمراجعة الإسراف فى الاعتماد على السوفيت كل هذه السنوات، لم يحقق تحرير الأرض وردع العدو. وعلى رغم كل ما أعرفه عن مشاعر الناس فأنا واحد من أبناء الشارع وأنا فلاح أدرك تماما مدى صدق هذه الجراح فقد دافعت عن السوفيت وعن الصداقة بيننا وذكرت لهم فضلهم.. بل إننى ذهبت إلى القول أمام مجلس الأمة أهدد: هذا موقفى والذى لا يريد أن يتعاون معى فليقدم استقالته أمام المجلس.

إلى هذه الدرجة كنت أعطى موقف السوفيت، الذين أرادوا تعريتي أمام الشعب وأمام الأمة العربية. وأخيراً سافرت إلى موسكو يوم أول فبراير. وتكرر المنظر جلسنا إلى المائدة الكبيرة. كان برجنىف وكوسيجين. ولم يظهر بودجورنى. لأننى لا أحب أن أرى هذا الرجل

الذى شتم الجيش المصرى أمامى ، واشتبكت معه. وكان من الطبيعى ألا يعود إلى مثل هذه الجلسة تفاديا للاحتكاك وبعد الكلمات التقليدية والحفاوة من جانبهم ومن جانبى.. دخلنا فى الموضوع فهناك موضوع .. ولا بد أنهم يعرفون أن فى قلبى الكثير وكنت أنا أول المتكلمين.

وسألت بوضوح : من الذى أمر بمنع وصول الأسلحة إلينا ، مخالفا بذلك ما سبق أن اتفقنا عليه فى اجتماع ١١ و ١٢ أكتوبر سنة ١٩٧١ ؟. أظن أن من حقى أن أعرف ذلك. وانطلاقا من الوضوح الذى أنشده والمصارحة التى جعلناه أسلوبا فى الحديث بيننا. وبمنتهى الإخلاص أريد أن أعرف ذلك الآن.

ونظرت إلى برجنيف وكوسيجين. وانتظرت لحظة وجاء الرد من برجنيف فقال : أنا الذى قررت ذلك !
سألته : لماذا !

أجاب : إنه الروتين عندنا. وأنت تعرف أننا نشكو من هذا الروتين. وأن الطريق أمامنا طويل لكى نتخلص منه. فقد كان فى نيتنا أن نبعث لك بالأسلحة لولا هذه العقبات التقليدية عندنا.

فقلت له : أنت طبعا قررت هذا لأنك تعلم عن يقين ، أننى لا أستطيع أن أرد عليك فأنا أصدقك. وأنا أعتبرك صديقا قادرا على التفاهم والإقناع. وأنا مؤمن أنك معنا بقلبك.

والحقيقة أن برجنيف هذا.. رجل سياسى ممتاز. وأنه قادر على الفهم والتفاهم. وأنه معنا بمشاعره حقيقة. وأنا صادق فيما أقول. وقد قلت هذا المعنى كثيرا فى موسكو وفى القاهرة ولعدد كبير من الساسة فى الشرق والغرب. ثم أعطيت الكلمة لكوسيجين رئيس الوزراء فقال : يا رئيس سادات أريد أنؤكد هذه المرة.. أريد أنؤكد لك أنه من الآن فصاعد باعتبارى رئيسا لوزراء الاتحاد السوفيتى سأكون أنا المسئول عن إرسال كل صفقات السلاح فى الوقت المتفق عليه وبالأسلوب المتفق عليه. لعلك ترضى وتهدا وتهنأ، ولن يتكرر ما حدث قبل ذلك ونحن شديدا الأسف لكل ما وقع منا قبل ذلك. فهل يرضيك الآن ما أقول؟

ولو كانت مثل هذه العبارات قد سمعتها مرة واحدة أو حتى عشرين مرة، لهان الأمر.. ولكن هذه المعانى سمعتها حتى سئمتها. وتطلعت إلى وجه كوسيجين ومنعت نفسى من أن أستعرض تاريخه العجيب فى الحكم والذى أعرفه جيدا..

ثم توجهت إلى برجنييف وقلت له : إن العواقب أسوأ مما تتصورون إن إضاعة سنة الحسم قد أصابتني في أعماقي وأوجعت شعبي.. ولكن أحب أن أؤكد لك أن نتائج أخرى أسوأ من ذلك سوف تصيب السوفيت في المنطقة إذا كنتم لا تدركون ذلك فأنا هنا أؤكد لكم هذه الحقيقة التي أتحدث إليكم كصديق وقد أكدت هذه الصداقة في كل مناسبة أجدد ذلك حتى مل الناس ومللت أنا أيضا.. إن موقفكم هذا سوف يبسئ إليكم إساءة بالغة !

والسوفيت حريصون على جميع قواعد الإخراج المسرحي ، فكل شيء تقليدي لا يتغير.. فالاجتماع يبدأ في هدوء. أنا في ناحية وهم في الناحية الأخرى.. وتتبادل كلمات التحية التي تظهرها الحرارة وباطنها الغليان من جانبي وبسرودة الجليد من جانبهم. ويبدأ أحدهما في الكلام. ويرد عليه الآخر. ويحتدم النقاش. ويتطوع واحد منهم بمضايقتي وإهانة الجيش المصري أو الشعب المصري أو إهانتى شخصا. ويتقدم برجنييف - وهو الذي يفعل ذلك دائما - بتهدئتي. وبالاعتذار عن الذي حدث في هذه الجلسة وفي الجلسات السابقة. وبدلا من أن يسدل السوفيت الستار فإن واحدا منهم يخرج من جيبه ورقة فيها قائمة بأسلحة لم أطلبها. ولا أريدها. وفي نفس الوقت لا أرفضها، لأنها إضافة إلى ما عندي من سلاح.

كل شيء بهذا الترتيب الجامد القاطع.. القاطع للأنفاس ولكل خيوط الأمل في أن يحدث شيء جديد لصالحنا أو حتى لصالحهم هم.. ولكن في هذا الاجتماع حدث شيء من التغيير البسيط الذي جعل الاجتماع منعشا إلى حد ما.. كأن بابا قد انفتح فجأة ودخل هواء ساخن، أحدث تغييرا في جو الغرفة.. هذا الهواء الساخن هب من ناحية جريتشكو وزير الحربية في ذلك الوقت. وهو صديق. وأنا أحبه حقا وأكن له كل الاحترام، الله يرحمه. فقد تدخل في المناقشة. وثرث عليه قائلا: لو كنت وزيرا للحربية عندي لعزلتك فورا.

فنحن نعرف أن أي وزير في روسيا لا رأى له، وأن وزير الحربية والجيش جميعا على الهامش. والرأي أولا وأخيرا للحزب. وعلى الرغم من ذلك فقد حاول جريتشكو أن يقول كلاما ليس من شأنه. أو إذا قاله. فلن يكون مسئولا عنه.. وإنما هو كلام من باب إثبات أنه موجود والسلام. وقلت له: ماذا كان يحدث لك لو أن طائرات معادية قد هاجمت لك مصنعا مثل مصنع «أبو زعبل» وقتلت مئات العمال، أو هدمت لك مدرسة أطفال مثل مدرسة بحر البقر؟ مالذي تفعله؟ والذي كان يكفيك لكي تشرب من دم عدوك؟ وتدخل برجنييف لفض هذا النقاش الحاد. وأنا أرتاح لهذا الرجل برجنييف، ويعجبني فيه أنه الرجل السياسي القادر على الفهم السريع والاستيعاب.. وانفض الاجتماع الذي أكدت فيه، كما حدث في كل

مرة، أننى لا أريد جنديا روسيا واحدا يحارب من أجلنا.. ولا أريد مواجهة بين السوفيت والأمريكان فى المنطقة، وأن تكون مصر هى السبب..

.. وخرجت الورقة من جيب برجنييف وتقول بالحرف الواحد: وافق المكتب السياسى والحكومة السوفيتية على تزويدكم بالآتى: ...

وتسمع برجنييف وهو يقرأ هذه القائمة وكأنه شاعر يتغنى بجمال الطبيعة.. مع أن كل هذه القائمة لا تحتوى على شىء واحد، أقولها مرة أخرى.. لا تحتوى على شىء واحد طلبته أو أشرت إليه أو نحتاج إليه! إنها ولا شك مقدرة طبيعية عجيبة.. أن يقول الإنسان الشىء الواحد ألف مرة دون أن يستشعر الملل أو القرف ولا بد أن يكون المطلوب طبعاً هو أن يصيبنى الملل والقرف واليأس فأقول بأعلى صوتى: لا.. لا أريد شيئاً من هذه الأسلحة التقليدية. ولكنى لا أفعل، وكما هى عادتى فإننى أبتلع غضبى ومعه كرامتى وأقول لنفسى: إن هذه الأسلحة مهما كانت قيمتها المتواضعة جداً، فهى إضافة إلى قوة مصر.. ثم إن الطريقة التى يلقى بها برجنييف هذه القائمة والمقدمة والخاتمة تضعنى فى موقف صعب جداً. هذه الصعوبة تحتم أن أقبلها.. والإلا.. وإلا اضطر برجنييف إلى دعوة المكتب السياسى واللجنة المركزية لمناقشة الرفض، أو لمناقشة إضافة وحذف أسلحة أخرى.. ومعنى ذلك ألا آخذ هذه الأسلحة. فلا أملك إلا. أن أقول: موافق. حاضر موافق. ولكم الشكر على ما قدمتم وتقدمون أو سوف تقدمون لنا من أسلحة!

وللتاريخ وللذين يدرسون تاريخ العلاقات السوفيتية المصرية التى أروبها من تجربتى الشخصية أو من تجربتى كشخص وكرئيس لمصر، أقول: إننى شعرت بالتشاؤم لأول مرة. فهذه هى المرة الأولى التى عرفت فيها اليأس. وعذرى معى. وهو عذر واضح. فالذى رأيته وسمعتة هذه المرة. قد رأيته وسمعتة قبل ذلك.. وهذه هى المرة الثالثة. فما معنى ذلك؟ لا معنى عندى إلا إنهم يستخفون بى. يلعبون بى ويقدرى وبمصر. فلا الاتحاد السوفيتى كبير جداً، ولا أنا صغير جداً. ولا الاتحاد السوفيتى صادق إذا تصور أنه وحده القادر على الفهم وعلى تسيير الأمور.. فنحن أيضاً قادرون على الفهم، وعلى معرفة ما ينفعنا وما يضرنا. ثم إنها قضيتنا فى الدرجة الأولى. وعلينا أن نحسم ما نراه. وأن نتحمل النتائج. ونحن قادرون وعلى استعداد تام لكل شىء من أجل مصر.. إن السوفيت حاربوا واستماتوا من أجل أرضهم، فكيف يتصورون أننا لن نفعل ذلك.

وعندما أستعيد هذه الجلسة التي كانت نقطة تحول حقيقية في العلاقات بيننا، أجد أن كوسيجين هو الذى تعهد هذه المرة بكل شيء. وكوسيجين هذا رجل سياسى عتيده.. إنه آخر رجال الحرس القديم.. إنه آخر الذين شاركوا فى قيام الثورة السوفيتية. وهذا الرجل الكبير القدير فى الحزب وفى الاتحاد السوفيتى لابد أنه يعنى ما يقول. فهذا الرجل قد عمل وزيرا فى عهد ستالين ثلاثة عشر عاما. وكان ذلك مستحيلا أيام ستالين الجبار. فقد كان الوزير إذا طالبت مدة خدمته، فإنه يبقى عاما أو عامين. ولكنه استطاع أن يصمد هذه الفترة الطويلة، التى تعتبر رقما قياسيا. وكان ستالين طاغية من الطراز الأول، باعترافهم وشهادتهم. ويكفى ما قاله خروتشيف نفسه عن ستالين فى بيان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى لقد سمعت من خروتشيف هذا سنة ١٩٦٤ فى حديث شخصى وكنا ثلاثة: جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنا، إن ستالين أيام الحرب كان يستدعيهم فى الساعة الحادية عشرة من مساء كل يوم. وكان كل واحد منهم يودع زوجته وأولاده، لأنهم يعرفون مقدما أن هناك نهايتين تنتظرهما: إما الإعدام رميا بالرصاص لأى سبب، وإما النفى إلى مجاهل سيبيريا. وكان يتولى تنفيذ ذلك وزير داخلية رهيب.. اسمه بيريا..

هذا ما سمعته من خروتشيف وقد طلب إلينا ألا ننشر ذلك. ثم إنه فى بيانه فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى قد أعلن أن ستالين كان يطلب إليهم أن يرقصوا أمامه. وكان يتسلى بهم ويضحك.. وبعد أن يضحك عليهم وهم يتساقطون.. من الشرب ومن الإعياء يجيء النوم فيداعب جفنيه وينام.. كل ليلة!

وهذا يذكرنى بما كان يفعله الامبراطور الرومانى كاليجولا فقد كان يجمع الشعراء والفنانين ويطلب إليهم أن يرقصوا على ساق واحدة. ثم أن يلقوا بأنفسهم من النوافذ.. وكان يسعده أن يتحول الشعراء إلى بهلوانات ثم إلى موتى.. فإذا فعلوا ذلك، جاءه النوم ليريح بدنه وأعصابه التى تعبت من رؤية الشعراء والفنانين وهم يمتهنون أنفسهم أمامه!!

واستطاع كوسيجين أن يعيش مع ستالين وأن يتآمر عليه. وأن يعيش مع خروتشيف وأن يتآمر عليه.. وأن يعيش مع برجنيف الآن.. ثم هو الذى يعدنى بأن يفى لى بكل ما تعهد به فى هذا الاجتماع. فماذا أقول؟ هل يصدق هذه المرة؟ هل هو طراز مختلف؟ هل يستطيع أن يفعل بمفرده شيئا لم يقرره المكتب السياسى واللجنة المركزية؟ ولماذا لم يتعهد برجنيف إذا كانوا صادقين هذه المرة؟ ما هى المعلومات التى تلقوها عن مصر أو عن العالم العربى تدفعهم إلى تغيير موقفهم؟ ثم أليسوا هم الذين يؤكدون دائما أنه لا حرب؟.. وأن الحل

السلمى هو الحل؟ ولكن كيف يكون السلام دون استعداد للقتال كيف؟ هل أنا أقنعتهم بشيء هذه المرة؟

عدت إلى مصر هذه المرة: جيبى خال، لكن قلبى ملآن. قلبى ثقيل. يكاد يهبط فى قدمى. وأحسست تماما أنهم أرادوا أن يجعلونى كرة يلعبون بها. ولكنى أرفض ذلك. رفضته وسوف أرفضه. ورفضه شعبى من ورائى ومن أمامى ومن حولى.

وأنا معذور إذا استعرضت صور الماضى كلها وانتهيت إلى حقيقة واحدة أنهم يراوغوننى. فعلوا ذلك مع جمال عبد الناصر حتى قضوا عليه. حتى قتلوه. ويحاولونه معى.. فإذا كان هناك جليد فهم لا يذيبونه وإنما هم يضاعفونه ويكثرونه. وعدت إلى مصر وأنا لا أقوى على أن أحمل قلبى بين جوانبى.. وكل ما معى هو وعد ببعض الصواريخ القديمة. وتلاحقت الأيام. مضى فبراير كله ومن بعده مارس وأبريل.

وفجأة ظهر واحد ساحر على مسرح السياسة الدولية. الساحر فى يده عصا وعلى رأسه قبعة. وعرض القبعة على الناس. وتأكدوا أنها خالية تماما. ضرب القبعة بالعصا. وخرج الأرنب هذا الأرنب اسمه «الوفاق» بين روسيا وأمريكا. وهذا الحاوى الجديد اسمه هنرى كيسنجر!

مفاجأة. الأمريكان يريدون وفاقا مع الروس ويريدون نوبان الجليد بينهما. واستئناف الملاحة والتجارة والصدقة. والأحضان والقبيلات عال جدا وأن اللقاء الموعود سوف يتم يوم ٢٠ مايو فى موسكو وأن الرئيس نيكسون هو الذى سوف يبدأ بتذويب الجليد، أو بتكسيهه أو إزالته من الطريق الشائك الملىء بالألغام بين واشنطن وموسكو. شيء عجيب ولكن ما هو المعنى الذى أستخلصه أنا من هذا الاتجاه الجديد أو الموجة الجديدة أو هذا السحر العظيم؟ لا بد أن أجد لى تفسيراً ولا بد أن أعرف أين أنا وأين شعبى من هذه اللعبة الجديدة؟ أعود إلى أول يناير سنة ١٩٧٢ ماذا جرى؟

أعلن مستر روجرز وزير خارجية أمريكا أنه سوف يمد إسرائيل بمزيد من الفانتوم أى إنه يريد أن يحدث خللا فى ميزان القوى، وأن يكون ذلك لصالح إسرائيل. هذا المستر روجرز قد هاجمته بعنف السيدة جولدا مائير ومسحت به الأرض. ولم يجرؤ أن يرد عليها بكلمة واحدة. وإنما كان رده يشبه الاعتذار العظيم لها: المزيد من طائرات الفانتوم.

ولكن المشكلة أكبر من ذلك: فأمريكا قد خسرت معركتها بين الهند وباكستان ثم إنها حاولت أن تقوم بتعويض لهذه الهزيمة فراحست تصعد المعارك فى فيتنام.. تصعد الموقف

فى الشرق الأوسط وتتحدى وتقول لنا وللوفيت إنها هى الدولة التى فى يدها كل شىء فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى.

فهل مستر روجرز هذا يريد أن يمشى على سياسة سلفه مستر دالاس بأن يدفعنا إلى حافة الحرب أو حافة الهاوية؟ أنا لا أعتقد أنه قد أحسن فهم الموقف. ويكفى أن يستعيد بذاكرته ما الذى فعله دالاس، ثم ماذا كانت النتيجة؟ لم تنفع سياسة دالاس ولم تأت بالنتيجة المرجوة بل كانت النتائج عكسية تماما. ونحن لم نخف من دالاس، ولن نخاف من روجرز.. ثم إننا قد انتصرنا فى كل معاركنا ضد الأمريكان فى المنطقة. وسوف ننتصر.

أكثر من ذلك.. فقد أعلن روجرز أيضا أن الولايات المتحدة سوف تزود إسرائيل بمصانع لإنتاج الأسلحة. هذا ما تفعله الولايات المتحدة لإسرائيل فما الذى يفعله الاتحاد السوفيتى لمصر. لقد تعبت مع الروس من تكرار عبارة واحدة: يا ناس لا أريد أن أصل فى التسليح إلى مستوى اليهود.. اجعلونى وراءهم بدرجتين. وليس بعشرين درجة. إنهم هم المحتلون ونحن نريد تحرير أرضنا. فكيف يكون ذلك ونحن بفضلكم، على هذه الصورة من التخلف؟ قللتها مئات المرات ولا حياة لمن تنادى أنا الذى أقول وأنا الذى أسمع أما هم، فكما ذكرت أكثر من مرة: لا أحد يسمع وإذا سمع فإنه لا يهتز. وإذا اهتز فلكى يخرج ورقة تقول: قرر المكتب السياسى.....

أى قرر المكتب السياسى تزويدنا بكل الذى لا نحتاج إليه من السلاح؟!

إنها - إذن - حرب أعصاب تشنها الولايات المتحدة.

هذه الحرب قد تردد صداها عند فلاسفة بيروت. فامتلات الصحف بالاجتهادات والتخمينات. وتحول الكتاب هناك إلى أناس يفتحون الكوتشينة ويقرءون الفنجان ويقولون.. وكل واحد أصبح ماريشالا فى العسكرية وقطبا فى السياسة.. وأصبحت الكرة الأرضية كلها حبة فى مسبحة طويلة تلعب بها أصابع الصحفيين والسياسيين.. لقد انتهت الدنيا. والعالم كله سوف يخرب. وأمريكا تقف وراء إسرائيل. ومصر ليس وراءها أحد، كأن الملايين من شعبنا ألواح خشبية ليست لها قوة ولا تاريخ طويل عريض عميق. إنهم فى بيروت يقررون ويحتكرون التفكير. ونحن هنا لا نقرر ولا نفكر.

وانما ناثمون فى الهزيمة غارقون فى اليأس. ونحن راضون بذلك. وراضون بما هو أسوأ من ذلك: أن نتلقى تفسير أحلامنا من بيروت!!

إن مصر لم تهن إلى هذه الدرجة. وإن أحدا لم يتعاطم في أى مكان فى العالم العربى إلى هذه الدرجة. فالمعركة هى معركتنا. لا شك فى ذلك. ونحن الذين سوف نحارب. لا جدال فى ذلك. واستعدادنا للتضحية إلى غير حد. وهذه حقيقة. وانتقلت عدوى الفلسفات البيروتية إلى بعض المثقفين فى القاهرة. واهتزوا وارتعدوا.

وتسلل إلى الخائفين معنى غريب: إذا كانت أمريكا وروسيا تتفقان، فلماذا لا نتفق نحن أيضا؟ أى لماذا لا نفعل ما فعله الألمان شرقا والألمان غربا؟ لماذا لا نتفق مع اليهود وينتهى كل شىء بلا حرب.. إن أمريكا تتفق مع روسيا، وأمريكا اتفقت مع الصين؟ وهذه أكبر وأعظم الأمثلة فى التاريخ؟ ونسى هؤلاء المرجفون المرتجفون أن هذا هو المطلوب. وأن هذه سياسة إسرائيل منذ المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى سويسرا سنة ١٨٩٧ والذى قرر أن تكون دولة إسرائيل الكبرى ممتدة من النيل إلى الفرات.. أى ليس الوقوف فقط عند قناة السويس وإنما الاستيلاء على كل شرق الدلتا. فقد خرج اليهود من الزقازيق. أى ابتداء من فرع دمياط. فهذه المنطقة تسميها التوراة أرض جاشن.. والخرائط التى يحملها الطيارون اليهود الذين سقطوا فى أيدينا كانت مكتوبة باللغة العبرية.. ومكتوبة عليها أن كل الأرض شرق الدلتا هى أرض جاشن.. بل مصر كلها هى أرض جاشن.. ولكن لم يتسلل هذا الفرع إلى القاعدة العريضة من الشعب.. إلى التسعين فى المائة وقفوا ورائى صفا واحدا.. يريدون شيئا واحدا: تحرير الأرض..

ومضى أكثر شهر ابريل: وفجأة جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفيت.

قلت: خير؟

قال: يريدون رؤيتك يوم ٢٨ أبريل..

قلت: لماذا؟

قال: زيارة قصير جدا.

قلت: قصيرة جدا؟ ماذا تقصد؟

قال: ٢٤ ساعة فقط..

قلت: أزورهم ٢٤ ساعة.. ياسلام.. ما هذه الزيارة؟ وما الذى سيتم فيها بهذه السرعة؟ كان فى استطاعتهم أن يبعثوا إلى رسالة.. وتقوم هذه الرسالة مقام الزيارة.. أو أبعث إليهم أنا رسالة تستغرق قراءتها خمس دقائق. وتكون بمثابة زيارة قصيرة جدا جدا. ما رأيك؟

قال: إن الموقف جاد.

قلت: وأنا جاد. ولم أكن قط معكم إلا جادا جدا.

قال: أرجوك. في عرضك. في طولك. ٢٤ ساعة تكفى.

قلت: أنا الذى أرجوك وأنا الذى أقول لهم وأقول لك: في عرضك.. في طولك.. أنا قرفت. أنا زهقت. أنا ضقت بكل هذه الزيارات. وليس هناك أى أمل فى أن يحدث أى شىء جديد. أنا عارف.. وأنت عارف وهم عارفون. والعالم كله الآن يعرف ما الذى تفعلونه بمصر. وما الذى يفعله الأمريكان لليهود.. أرجوك أن تبلغهم أننى لا أريد هذه الزيارة. أرجوك.

وكانت الزيارات الثلاث الماضية بناء على طلبى. أما هذه الزيارة فقد كانت بطلب من القادة السوفيت. ودارت كل الأحداث والأحاديث فى رأسى.. ماذا يا ترى يعده السوفيت؟ ما هو هذا الشىء العاجل جدا الذى يمكن أن يتم فى ٢٤ ساعة؟ ما هذا التعبير المفاجئ الذى طرأ على أدمغتهم هناك؟ ما الذى يدبره المكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب؟ هل استطاع هذا السياسى العتيد كوسيجين أن يقنعهم بشىء جديد؟ إن رأسى يحسب ألف حساب لكل شىء.. ووجدتنى قد وصلت إلى شىء بسيط ومهم جدا هو أن نيكسون سوف يزورهم يوم ٢٠ مايو. وهم فى حاجة إلى استعراض قوتهم وحضورهم فى مصر أنهم استطاعوا أن يفوتوا سنة الحسم.. نحن قلنا إنها سنة الحسم. وهم الذين قالوا إنها فعلا سنة الحسم ولكن بين الهند وباكستان.. وليست سنة الحسم بين مصر وإسرائيل. فهم الذين يقرن ويقدرن ويدبرون ويفكرون ويستدعون رئيس دولة مصر الذى أخرجوه أمام الملايين.. ورغم هذا الإحراج الرهيب فقد جاءهم فى موسكو لاجتماع عاجل قبل زيارة نيكسون. وطبعا لن يعرف أحد ما الذى قالوه لرئيس مصر. ولكن يكفى أنهم قالوا له: تعال فقال: حاضر..

هذه الصورة المروعة - إذن - هى المطلوبة أمام الأمريكان. لكى تكون دليلا على قوة السوفيت وحضورهم فى المنطقة. وسوف تكون هذه نقطة تضاف إلى حسابهم على مائدة «الوفاق» الى أعدها الساحر الجديد: هنرى كيسنجر..

يعنى المطلوب منى أن أقوم بدور فى مسرحية «أعظم استعراض فى العالم» التى يعدها السوفيت قبل زيارة نيكسون.. ولم أكن فى حاجة إلى مجهود عقلى كبير لكى أدرك هذه الحقيقة.

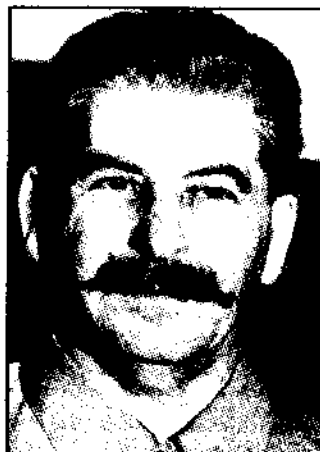
إن هذه الزيارة تافهة الشكل والمضمون من وجهة نظري. ولكنها من وجهة نظر السوفيت جزء من اللعبة التي يريدون أن يبهروا بها الأمريكان. وكنت قد دعوت الله مخلصا وصادقا ومن كل قلبي: اللهم لا تضطرنني إلى زيارة موسكو هذه. اللهم لا تجعلني أرى هؤلاء الناس. فقد تعبت. وتحملت مالا يتحمله البشر. اللهم رحمتك. وأفقت من حيرتي والسفير السوفيتي جالس أمامي. ووجدت أنني قد انقسمت على نفسي بين: المصري الفلاح المقاتل.. ورئيس الدولة..

فباسم المصري الفلاح قلت: لن أذهب.

أما باسم رئيس الدولة فقلت له: نعم. أذهب إلى موسكو. وأقابل القادة السوفيت. ولمدة ٢٤ ساعة.. وأقل من ذلك إذا أرادوا!



١ - الماريشال ستالين .



٢ - خروتشيف .

٣ - نيكسون يلتقى بالزعيم
السوفيتى برجنيف .





١ - السادات ونيكسون



٥ - موسى ديسان وزير
الدفاع الإسرائيلي



لقاء تاريخى

- المطالب السبعة للرئيس السادات .
- طائرات سوفيتية فى غرب القاهرة
للاستعراض فقط !
- سوخوى ١٧ الطائرة الصاروخ .
- قرار جمهورى بمنح جريتشكو
والمراققين له نياشين عسكرية .
- حافظ الأسد ينصح السادات بعدم مجازاة
السوفيت .

عادتسى عندما أسافر إلى مهمة أن أفكر كثيرا فيما سوف يحدث.. ويدور فى من نفسى حوار طويل أجيب فيه عن كل التساؤلات.. واستعراض الأحداث والصور. وأستوقفها وأتوقف عندها.. فإذا نزلت من الطائرة كنت كمن قرأ كل ملفات القضية واتخذ قرارا. أو على الأقل كنت فاهما بوضوح شديد لكل ما سوف أقول ويقال لى.. وفى رحلتى الرابعة هذه إلى موسكو استعرضت كل الصور وكل الأحداث وكل الوجوه. وكل الذى قلت وقيل لى.. وما أثارنى وما أغضبنى وما هدأ نفسى.. ثم الإهانات التى لحقت بى وبمصر وبقواتنا المسلحة.. وتنتهى هذه المراجعة والمحاسبة والمناقشة إلى نهاية واحدة: لا بد من الصبر. فأنا فى حاجة إلى مزيد من القوة. والمعركة طويلة. وليس أمامى إلا مصدر واحد للسلاح وصديق كبير هو الاتحاد السوفيتى..

وهذه حقيقة قتلها مرات كثيرة. ولكن الذى أقوله لنفسى شىء. والذى أقوله للآخرين شىء آخر.. فأنا وحدى الذى يعرف الحقيقة. وأكتمها عن الناس. وقد حدث هذا كثيرا كما قلت، وكما سوف أروى عند الإعداد لحرب أكتوبر. والجسر الجوى وما بعد ذلك - لأن لى هدفا من هذه المذكرات هو أن أعرض لجانب خطير من تاريخ مصر، بصدق وأمانة. وقد أليت على نفسى أمام الله وأمام شعبنا أن أضع الحقيقة مجردة من الغرض والهوى. وعلى الأجيال القادمة أن تحكم لنا أو علينا. والله على ما أقول شهيد..

وفى الطائرة سألت نفسى: يا ترى هل يتغير شىء هذه المرة؟ هل من مظاهر استعراض القوة إن يتظاهر السوفيت بالعطاء والسخاء ويمنحونى بعض ما طلبت من أسلحة، وما تعهد به كوسيجين ذلك السياسى العنيد العتيد؟ إنها فرصة أمام السوفيت ليؤكدوا للأمريكان أنهم هم الذين قرروا أن سنة ١٩٧١ لن تكون سنة الحسم.. وإذا أفلح الروس فى إقناع الأمريكان بذلك لا يهم.. وإنما المهم أن يعطونى سلاحا.. لقد ذهبت سنة الحسم، ولا بد أن أفكر فى هذه السنة وما بعدها.. فهل سيتغير السوفيت قليلا أو كثيرا؟ هل أعود هذه المرة أحسن حالا؟ أتمنى ذلك.. وإن كانت فى داخلى حاسة غريبة تؤكد لى أن شيئا من ذلك لن يحدث.. إن

هذه الحاسة التي في أعماقي لم تكذب قط. هل هي الفراسة؟ فأنا أستعين بها في الحكم على الأشخاص وعلى الأمور الحاسمة في حياتي السياسية. تمنيت من الله أن تكذب هذه الحاسة هذه المرة وأن أعود من موسكو خفيف القلب ثقيل الجيب.. ربنا كريم..

وتوقفت الطائرة في مطار موسكو. ووجدت أن كوسيجين رئيس الوزراء في انتظاري. والأصول أن يكون برجنيف هو الذي في انتظاري. فهو الرجل الأول في بلده، كما أنني الرجل الأول في بلدي. هنا أحسست بضيق شديد. فحاستي السادسة لم تكذب هذه المرة. وهذه هي البداية. فرئيس الوزراء الرجل الثاني جاء لاستقبالي. وتلاشت حاستي السادسة مع الأحضان والقبلات والتحيات والانحناءات. وتغطيت ببالطو كثيف وورثته مع الأيام والمعاناة اسمه: الصبر والمزيد من الصبر.. لم يكن يهمني طبعاً أن يجيء بودجورني رئيس الدولة لاستقبالي. لأنه الرجل الثالث عندهم. وأنا لا أحب أن أراه. صحيح أن مجيء كوسيجين أهون من مجيء بودجورني. ولكن مجيء كوسيجين لا يليق..

واتجهنا إلى الكرملين.. وسمعت اعتذاراً عن عدم مجيء برجنيف وكلمات حلوة كثيرة. كل ذلك لا يهم، لأنه لا قيمة له. فأنا لم أذهب إلى موسكو لأشترك في مهرجان للشعراء والأدباء وليسمعوني أجمل العبارات والتحيات. فأنا أعرف لماذا أنا جئت، وهم أيضاً يعرفون. والله وحده يعلم ما أحببت قط أن أجيء إلى هذه المدينة، ولا أن أرى ما رأيت وأسمع ما كرهت أن أسمع.

وفي الكرملين جلسنا حول المائدة. وكل الذي يهمني هو أن يكون برجنيف موجوداً. وكان هناك. وكوسيجين وجريتشكو وذلك الرجل الكريه بونامارييف المسئول عن نشاط الأحزاب الشيوعية في العالم وفي العالم العربي، وهو الذي استطاع أن يخرب لهم الشرق الأوسط، بغباوته واعتماده على المعلومات التافهة، وعلى أشخاص أكثر تافهة في تقدير الموقف في الشرق الأوسط.. كان هذا الرجل موجوداً أيضاً.. ولكنهم جميعاً ظلال في الصورة.. أو ظلال للتمثال الحقيقي وهو برجنيف. فأنا أستريح إلى هذا الرجل لأنه رجل له عقلية سياسية متفهمة وقادرة على الحكم وعلى القرار. وما دام هو موجوداً. فكل شيء يهون.. أو كل واحد من هؤلاء يهون في عيني فلا يصبح شيئاً. لأنه هو الرجل وهو الذي أقصده بالزيارة والحوار والقرار وهذا السؤال:

- يا أخ برجنيف.

- نعم.
- أريد أن أسأل وأن أبدا بالكلام معك.. فقد تكلمت مع نفسى كثيرا فى الطريق بين القاهرة وموسكو.. وأريد أن أسمعك ما دار فى نفسى.
- على استعداد أن أسمع كل ما تقول. تفضل سيادتك..
- سؤال بسيط جدا.. هل كان من الممكن أن يجيء نيكسون إلى موسكو فى ٢٠ مايو القادم لولا ما حدث فى فيتنام فى الشهور الثلاثة الأخيرة؟
- أريد أن توضح لى ما تقول..
- هذا بالضبط ما أريد - هل كان من الممكن أن يجيء الأمريكان إلى هنا، لولا الهزيمة العنيفة التى أصيبوا بها فى فيتنام بسبب السلاح السوفيتى المتطور الذى يستخدمه الفيتناميون؟..
- هل كان هذا من الممكن لولا الهزيمة الحقيقية التى أصابت أمريكا فى فيتنام، والتى هزت صورتها فى العالم كله؟ هل كان من الممكن أن يحدث أى تحرك سياسى بغير هذا التحرك العسكرى العنيف؟..
- الآن فهمت.
- هل توافقنى على ما أقول؟..
- نعم أوافقك على هذا التحليل..
- يعنى من رأيك أن التحرك السياسى جاء نتيجة للتحرك العسكرى؟..
- نعم.
- ألا ترى أن هناك تشابها بل تطابقا مؤكدا بين الذى حدث فى فيتنام وبين الذى أريده أن يحدث فى الشرق الأوسط؟..
- نعم أرى ذلك.
- إذن أنت ترى أننا فى مصر لا يمكن أن نتحرك سياسيا دون تحرك عسكرى؟..
- أنا أقر على ذلك تماما.
- ألا تلاحظ أن هذا بالضبط ما أطلبه وما طلبته. وما وعدتنى به أكثر من مرة؟ فالذى حدث فى فيتنام صورة صارخة هائلة لما يجب أن يحدث عندنا.
- أوافقك تماما على ما تقول، وأرى أن تحليلك للموقف يتفق تماما مع تحليلى أنا أيضا.

لقاء تاريخي

- يعني اتفقنا.
- نعم. نحن متفقون في ذلك.
- ألا ترى أن الذي حدث في فيتنام هو شيء عجيب: لا أنتم أكملتكم هزيمة الأمريكان، ولا الأمريكان أكملوا الانتصار عليكم؟..
- تمام..
- إذن هذا التحرك.. هذه الصدمة العسكرية هي التي أدت إلى هذا التنشيط السياسي.. إلى هذا الوفاق.. أو محاولة الوفاق.. أو وضع الأيدي في الأيدي.. تمهيدا لوضع السلاح..
- أوافقك تماما..
- لقد قال إنه يوافقني تماما.. واسترحت نفسيا. وكان جبلا على صدري قد تحول إلى هباء بعيدا عني.. وأحسست أنني قد استرجعت قلبي.. وتراجعت في مقعدي وأرحت ظهري ومددت ساقي تحت المائدة.. أو تخيلت أنني فعلت ذلك كله، فاسترحت.. فقد أردت أن يفهمني الرجل. وقد فهمني. وقد أقرنى على كل ما قلت لنفسى. ولما أطلعته على دخيلة نفسى، أعلن أمام الجميع أن تحليلي للأمور سليم. واكتفيت بهذه الجرعة السياسية من الرجل الأول في روسيا. ورأيت في ذلك بداية طيبة. ولكن حاستي السادسة عادت إلى الظهور. وتضايقت لذلك. فقد تمنيت أن تخونني هذه الحاسة هذه المرة، أو تتخلى عني في الكرملين.. وتعاونني في الطائفة أو حتى في القاهرة. ولكن هذا ما حدث. فقد أخذت أتطلع إلى الوجوه من جديد. واتطلع إلى برجنيف بالذات. فهو الرجل الذي قصده. والذي يعنيني قبل كل شيء وقبل كل واحد في هذه البلاد.
- ثم عدت أقول له كمن يريد أن يطمئن آخر مرة، كأننى لا أصدق ما سمعت:
- هل صدقتنى الآن؟..
- قال: تماما.
- ألم أقل لك هذا في الزيارات السابقة؟..
- أنت قلت ذلك.
- هل اتفقنا الآن؟..
- نعم..

وانتهزت هذا الاتفاق الذي سادنا جميعا، لكى أستأنف الكلام من جديد. وكما يقول المثل عندنا: زيارة وتجارة.. فقلت له:

- يا أخ برجنيف. ما الذى تتوقعه من زيارة نيكسون لكم فى ٢٠ مايو القادم؟..

قال: لا نتوقع أى شىء.

قلت: كيف؟..

قال: أنت تعلم أن سنة ١٩٧٢ هذه هى سنة الانتخابات الأمريكية.. وهى سنة من الصعب فيها على الرئيس الأمريكى أن يتخذ قرارا حاسما.. لأنه يخطب ود الشعب كله.. ولا يريد إلا أن يفوز بأصوات الجميع.. وسوف يحرص على أصوات اليهود.. ومعنى ذلك أنه لن يتورط فى قرار فى الشرق الأوسط.. فيغضب اليهود وأنت تعرف وزن اليهود فى أمريكا.. وإذا لم يكن موقفه سيئا، فسوف يكون أسوأ.. ومعنى ذلك أننا سوف نلتقى برئيس أمريكى فى وضع سيء.. أو بعد قليل سيكون فى أسوأ حالاته..

قلت: وأنا أوافقك على هذا التحليل أيضا. أوافقك تماما.

- هل أنت متفق معى فى هذا؟

- نعم. أنت وافقتنى فى تحليلى للموقف فى فيتنام. وأنا أوافقك على تحليلك للموقف فى أمريكا. إذن نحن متفقان.

- نعم تماما.

- كم نسبة الاتفاق فيما بيننا؟..

- مائة فى المائة.

- يعنى أنت وافقتنى على أنه بدون الهجوم الكبير الذى شنه الفيتناميون بالأسلحة السوفيتية على الأمريكان ما جاء الرئيس نيكسون إلى هنا؟..

- هذا صحيح.

- وبدون هذا الهجوم العنيف ما أعادت أمريكا مندوبها فى مؤتمر باريس لبحث الموقف فى فيتنام، بعد أن قاطعت هذا المؤتمر؟..

- تمام.

- عال. ما دما قد اتفقا على تحليلنا للموقف فى فيتنام وللموقف فى الانتخابات الأمريكية. وأن هذه الزيارة لن تكون لها أية جدوى لأن الرئيس الأمريكى مشلول. إذن ما رأيك؟

- فى ماذا؟..
- هل نقف عند هذا الحد؟..
- ما الذى تقصده؟..
- ألا ترى أنه لا داعى لإضاعة الوقت وعلينا أن نسارع بعمل شىء؟..
- مثل ماذا؟
- هذا هو السؤال.
- ماذا تريد؟
- أنت تعرف ماذا أريد..
- تفضل واعرض ما تريد فوراً.
- أريد الآتى.. أريد نفس الأشياء التى طلبتها فى الزيارات الثلاث السابقة. أطلب بما طالبت به من قبل.
- اطلب بالتحديد..
- بالتحديد أطلب سبعة أشياء..
- ثم تلوت المطالب السبعة الواحد وراء الآخر..
- ثم قلت له حتى لا نضيع الوقت. أرجو أن أجاب إلى هذه المطالب. فزيارة نيكسون سوف تنتهى يوم ٢٥ مايو.. وأمامنا من هذا التاريخ حتى يوم الانتخابات الأمريكية فى ٧ نوفمبر القادم متسع من الوقت لإجابتي إلى هذه المطالب المعقولة، وخصوصاً بعد أن اتفقت وجهات نظرنا على «تقدير الموقف» السياسى والعسكرى.. أمامنا إذن خمسة شهور كافية جداً..
- فإن جاءت الانتخابات الأمريكية بنيكسون طلبنا إليه أن يوضح موقفه فيضع تسوية شاملة للموقف، أو نفرض نحن عليه التسوية عن طريق التحرك العسكرى، كما اتفقنا.
- تمام. موافقك. مائة فى المائة.
- وقلت فى نفسى : الحمد لله على هذه النتيجة..
- وكان فى حسابى أن أصل إلى مثل هذا الاتفاق مع السوفيت : فهم يعطوننى الأسلحة. ويعلمون ذلك للعالم كله. أو نحن نعلنه لليهود.. أو حتى لا داعى لأن نفعل ذلك لأن كل الأسلحة التى تجيء إلينا والتى تذهب إلى إسرائيل، معروفة فى العالم كله. فلم تعد هناك

أية وسائل لإخفاء شيء. فالأجهزة الالكترونية الحديثة، وأجهزة التجسس الفضائية وجمع المعلومات والرصد الجوي والأرضي في البحر والبر والجو، قد جعلت من المستحيل على أية دولة أن تخفي شيئاً. فالذي عندنا معروف لإسرائيل، والذي عند إسرائيل معروف لدينا تماماً. لا توجد أسرار مطلقاً. ولكن الأسرار هي: مدى استعداد الإنسان لاستخدام السلاح. ومتى يتخذ قرار المعركة وكيف يديرها ويكملها. فالجانب الإنساني الشخصي هو الذي يمكن أن يكون سراً. فأسلحتنا في حرب أكتوبر معروفة. ولكن المجهود الذي بقي سرا محيراً ومعجزة هو: الإنسان.. هو المقاتل.. هو الخطة.. هو القرار والاستمرار..

وبشهادة خبراء العالم كله استحققت قواتنا عظيم الاحترام والتقدير، اليوم ولأجيال بعدنا.. وكان من الحجج التي قدمتها لبرجنيف: أنه من الأفضل أن يعرف الأمريكان واليهود أنكم أعطيتهم سلاحاً.. ولا مانع أن تبالغوا في كمية السلاح وفي نوعيته.. فقط لكي يعرفوا أن لدينا قوة مخيفة، وأن وراءنا من يساند قضيتنا.. وما قضيتنا إلا حرصنا على أن نحرك الموقف السياسي عسكرياً.

.. وكل هذه بدهيات يعرفها برجنيف، أو من هو أصغر من برجنيف ألف مرة.. ولكن هذه هي المحنة التي أمر بها في كل زيارة. أقول وأقول.. تماماً كما يفعل أي إنسان وهو يكرر جدول الضرب مرة بعد مرة.. وعلى الرغم من أن هذا الجدول هو بدهيات حسابية.. لست في حاجة إلى أن أكررها.. ولا إذا كررتها أن أقولها بحماس.. ولا حتى أن أشعر أنني أقول شيئاً جديداً.. ولكن مع السوفيت، يجب أن أقول الشيء الواحد ألف مرة، وأن يسمعه هم باهتمام شديد.. دون أن يشعروا بالملل، ولعلهم ينتظرون أن يصيبني الملل فأزهق، أو تزهق روحي.. قلت وكأنني ما قلت. وسمعوا وكأنهم ما سمعوا..

ولم تستغرق زيارتي ٢٤ ساعة.. وإنما ٢٧ و٢٨ و٢٩ أبريل. أكثر من المدة المقررة.. أو التي كان يريدونها السوفيت. وأنا لا أحسبها بالساعة. فالوقت لا يهم. أقصد الوقت الذي أستغرقه في إقناع السوفيت بموقفي وصادقتي الحقيقية. ولكن العبرة بالنتيجة. والواضح لي الآن أنهم اقتنعوا: أليس برجنيف هو الذي قال؟ أليس هو الذي أعلن سلامة تحليلي للموقف كله؟ ألم يعلن أنه يوافقني مائة في المائة؟

إن الموقف الآن أمامي هو هكذا: في الاجتماع السابق أعلن كوسيجين تعهده بالوفاء بكل ما طلبت. وفي هذا الاجتماع أعلن برجنيف اقتناعه التام واستعداده لإجابتي إلى كل مطلب

السبعة. ثم إنهم - وهذا إحساسى الذى لا يخيب - يريدون استعراض قوتهم فى المنطقة. وأن زيارتى هذه جزء من هذا الاستعراض. وربما توهموا أننى لا أعلم ذلك. ومن الأفضل أن يتصوروا أننى بهذه السذاجة. ولا مانع عندى أن أؤكد لهم ذلك. ولكن الذى يهمنى هو أن أحصل على السلاح.

وفى الطائرة عائدا إلى القاهرة عاودتني كل أفكارى وتكاثرت على رأسى. ولم أنس ما جرى فى سنة الحسم. فهذا شئ لا أنساه. وكيف؟ ثم هذه الوعود وهذه العهود وهذه الوجوه. وأخفيت رأسى بين يدي وتذكرت دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام يوم خرج من الطائف: اللهم إليك أشكو ضعف قوتى. وقلة حيلتى. وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين!

وصالحت نفسى على نفسى وقلت: كل شئ يهون من أجل مصر. وقد هان الكثير. وأنا أتمسك طول الوقت بعبارة واحدة ومعنى واحد، هو الذى طالعت به الشعب يوم أول مايو بعد ذلك: أنه لا فائدة من العمل من أجل السلام إلا إذا كان السلام له سلاح يدافع به عن نفسه، ويفرض به كرامة الحق وشرف المبدأ. وإذا ظللنا نتكلم عن السلام مائة سنة من الآن، فلا سلام.. إلا إذا كان هناك استعداد للمعركة، فى هذه اللحظة سوف يكون هناك كلام آخر ومنطق آخر..

وقلت فى خطابى فى عيد العمال أيضا: إن اهتمامنا بالدعم السوفيتى لا يعنى أن نقلل من قيمة الاعتماد على النفس. نحن الذين سنحارب وليس الاتحاد السوفيتى، ونحن الذين سنقاتل، ولن نترك لغيرنا أن يقاتل بدلا منا. نحن الذين سندفع الثمن لآمالنا. لأنها آمالنا نحن. وإنما قيمة المساعدات التى نحصل عليها من أصدقائنا أنها تختصر الوقت والجهد.

وقلت أيضا: من نحن؟ نحن قوى العمل والخير والتقدم والمحبة والسلام. أين نحن؟ نحن فى وسط النضال من أجل الخير والتقدم والمحبة والسلام.. وإن ما نمثله مكتوب له النصر بإذن الله، وما نحاربه مكتوب عليه الهزيمة بإذن الله!

وفجأة - وكل تحركات السوفيت تكون مفاجئة - جاءنى خبر يقول إن وزير الدفاع السوفيتى جريتشكو سوف يصل إلى القاهرة يوم ١٤ مايو خير إن شاء الله. وجاء جريتشكو ومعه قائد الطيران كوتاخوف. ولا بد أن يكون هناك شئ خطير. وعرفت أنهم يريدون أن يقوموا باستعراض جوى فى مطار غرب القاهرة.

ما الذى فى مطار غرب القاهرة؟ هناك أربع طائرات ميج ٢٥.. من ذلك الطراز الذى هرب به أحد الطيارين السوفيت ونزل فى اليابان. وتكاثر الخبراء الأمريكان على الطائرة وفكوها قطعة قطعة وعرفوا سرها تماما. هذه الطائرات هى أحدث ما عند السوفيت وهى تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت ثلاث مرات وعلى ارتفاع ٣٠ كيلو مترا.. والروس يملكون هذه الطائرات. ويضعونها فى غرب القاهرة. وهى محرمة على أى مصرى.

وقالوا لنا: إنها ممنوعة على أى مصرى.

قلت: موافقون.

قالوا: لا يقترب منها أحد!

قلت: موافقون.

قالوا: السوفيت فقط.

قلت: موافقون..

قالوا: لا مانع أن تروها بالعين.

قلت: موافقون. وحتى إذا أردتم ألا يراها أحد.. فلا مانع..

قالوا: من الممكن أن تروها..

وظلت هذه الطائرات فى مكانها على أرضنا ومحرمة علينا. وجاء جريتشكو هذا الصديق

العزیز الله يرحمه وقال لى:

- ما رأيك؟

قلت: موافق على ما تريدون.

قال: أن نقوم باستعراض لهذه الطائرات.

قلت: لا مانع أبدا..

طبعاً أنا رأيت هذه الطائرات. إنها متطورة جداً. وفتحات الموتورات مربعة. وقد سبق بها السوفيت تصميم طائرة الكونكورد التى اخترعها الإنجليز والفرنسيون. هذه الطائرة ستظل جديدة حتى سنة ١٩٩٠. وليس فى إمكان أية طائرة أخرى أن تلحق بها ولا أى صاروخ! ولما أطلقها السوفيت من مطار غرب القاهرة فوق إسرائيل طارتها الفانتوم. ولكن ما الذى تستطيعه الفانتوم.. إن الفانتوم كانت مثل عربة كارو وتطارد سيارة كاديلاك.

أرجع وأقول مرة أخرى: إنهم اشترطوا كل هذ الشروط لكى تبقى هذه الطائرات فى مطار غرب القاهرة: فى أيدي السوفيت وللسوفيت ومحرمة تحريما قاطعا على المصريين.. إلا مجرد النظر من بعيد لبعيد. وأحنيت رأسى ووافقت. وقلت لنفسى: يمكن!

أى يمكن استخدامها فى الاستطلاع وجمع المعلومات من إسرائيل. يمكن. وأنا أعلم أن السوفيت يستخدمونها فى التجسس على الأسطول السادس فى البحر الأبيض المتوسط. أعلم ذلك يقينا. ولكنى غلبت الأمل على اليأس، ووضعت مصر فوق كرامتى. ووافقت.

ونذهبت إلى المطار، وأتى السوفيت بطائرة مقاتلة اسمها سوخوى ١٧.. من مزايا هذه الطائرة أن تنشر جناحيها وان تطويهما. فإذا انطوى الجناحان تحولت الطائرة إلى صاروخ.. إلى قذيفة.. وأصبحت مقاومة الهواء لها أقل، وفى نفس الوقت أصبحت المساحة المعرضة منها للإصابة أقل أيضا.. وكل ذلك من أجل أن تكون أسرع.. ولكن عيب عملية فتح جناحيها وطيهما، أن هذه العملية تتم يدويا.. وهذا عيب خطير، فهو يحتاج إلى بعض الوقت. وفى معارك الطيران وبهذه السرعة، ومع استخدام الأجهزة الإلكترونية التى توجه الطائرات وقذائفها، يجب أن تكون هذه العملية سريعة جدا وتتم فى ثانية أو أقل.. لأن ثانية واحدة تكفى لتحطيم أية طائرة.. ولكن الأمريكان اخترعوا طائرات تنشر جناحيها وتطويهما باستخدام العقل الإلكتروني. وهذا أسرع وأسلم وأكثر تطورا.

وطارت الطائرات وارتفعت واختفت بسرعة. وكان السوفيت فى غاية السعادة. وأنا أقول لنفسى: ربما يجيء الوقت الذى يتدرب فيه أولادنا على هذه الطائرات.. ربما تصبح هذه الطائرات لنا.. ربنا كريم..

وانتهى الاستعراض للطائرات السوفيتية. ومن المؤكد أنه جزء من الاستعراض المطلوب قبل زيارة نيكسون لموسكو. فأخبار هذا الاستعراض قد ملأت الدنيا. والطائرات السوفيتية قد رصدها اليهود وحاولوا مطارقتها. ورصدها الأسطول السادس وعرف نوعيتها وقدرتها. كل شىء معروف. وكل شىء بحساب. وجزء من الاستعراض الكبير. وأين؟ فى مصر. وبموافقة من؟ بموافقتى! ولماذا؟ للسبب الذى قلته مرارا: محاولة للتأثير على الرئيس نيكسون وإقناعه بأن السوفيت هنا فى مصر: فى قلب العالم العربى والشرق الأوسط وأفريقيا.

ومن المؤكد أن هذه المعلومات والمفاهيم قد بلغت الأمريكان واليهود. وهى موضع بحثهم وتقديرهم. لاشك فى ذلك. إذن لقد وصل السوفيت إلى الهدف الذى يريدون. وأنا موافق على ذلك تماما. وفى انتظار ما وعدونى به.

وفجأة - مرة أخرى - وجدت الوزير جريتشكو يقترب مني ويقول: بيان من اللجنة المركزية.

سألته: معك بيان من اللجنة المركزية؟..

قال: نعم.

سألته: بخصوص ماذا؟

قال: إنهم يريدون أن يصلحوا.

قلت: لا مانع.

قال: ومكتوب باللغة الروسية.

قلت: يذاع دون ترجمة وفورا.

واندهش جريتشكو. أو لكى أكون دقيقا أقول: إنه أصيب بذهول.

وسألني: ألا تريد أن تعرف ما به؟..

قلت: لا أريد. ما دامت القيادة السوفيتية ترى أنه بيان بقصد مصالحتي. فهو بيان

لمصلحتي لا شك. ولذلك يذاع فورا.

قال: أريد أن أفهم منك أكثر..

قلت: أنا أعرف وأنت تعرف. أنكم في حاجة إلى تدعيم موقفكم في مصر قبل زيارة نيكسون. أنتم في حاجة أن تؤكدوا لنيكسون أن الأرض تحت أقدامكم قوية في مصر وفي أرض مصر وفي سماء مصر.. وأنكم قادرون على التحليق في سماء إسرائيل وفوق الأسطول السادس.. وأنكم سادة هذه المنطقة.. كما أنكم سادة في فيتنام.. كل ذلك أعرفه أنا، وتعرفه أنت..

وسكت الرجل ولم ينطق بكلمة واحدة. ثم قلت له: لا داعي للترجمة. لقد أمرت بإذاعته باللغة الروسية.. وأكثر من ذلك..

وسألني: ما هو الذي أكثر من ذلك؟

وتلفت إلى حسنى مبارك، وكان وقتها قائدا للطيران وقلت له: يا حسنى.. لقد قررت منح جريتشكو وكوتاخوف وكل الضباط السوفيت نياشين.. فاتصل بالقائد العام وأبلغه هذا القرار! وكان هدفى من وراء هذا كله أن أساهم فى أن يبدو السوفيت أقوى أمام الأمريكان. يهمنى ذلك. فهم قد وعدوا بإجابة المطالب السبعة. وعدنى برجنيف واكد لى ذلك وسط جو من

== لقاء فارغى ==

التفاهم والاتفاق القام. وازدادت دهشة جريتشكو ورفاقه.. وأذيع البيان بالروسية وبالعربية وباللغات الأوروبية الأخرى.. وأقولها للتاريخ: إنه جاء فى هذا البيان أن الاتحاد السوفيتى قد زود مصر بقاذفات طويلة المدى وأسرع من الصوت..

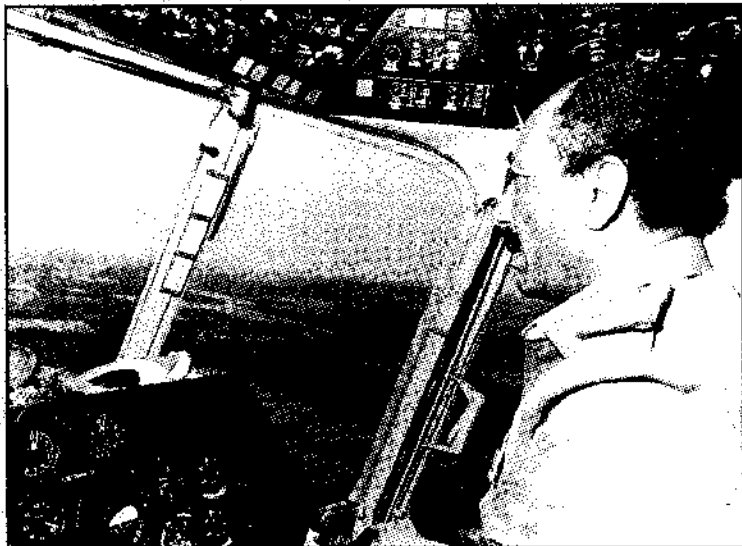
وفجأة وبعد زيارة جريتشكو جاءتنى رسالة من الرئيس حافظ الأسد يقول لى: وأين هذه القاذفات التى جاءت فى البيان السوفيتى؟.. وكان ردى على الرئيس حافظ الأسد: لا قاذفات ولا أى شىء. إنها مسائل دعائية قبل زيارة الرئيس نيكسون!

وجاءنى رد من الرئيس الأسد يقول لى فيه: إن الضباط عندنا يسألون: ولماذا لا نحصل على مثل هذه الطائرات التى حصلت عليها مصر؟ فأرجوك ألا تعود إلى هذه المسيرة فى الدعاية! ورددت على الرئيس الأسد مرة أخرى قائلاً: لقد ساهمت فى هذه الحملة الدعائية. فهم فى حاجة إليها، ونحن فى حاجة إليهم.. ثم إنهم أصدقاء..

وسافر جريتشكو والوفد العسكرى المرافق له.. وبدأت موسكو تستعد لاستقبال الرئيس نيكسون، ليتفرج العالم كله على الاستعراض الكبير الذى اسمه: الوفاق بين الدولتين العظميين!

□□□

١ - السادات في إحدى
الطائرات العسكرية .



٢ - السادات مع رجال
القوات المسلحة .





٣ - موسى ديان وزير
الدفاع الإسرائيلي مع
ضباطه .



٤ - جريتشكو وزير
الدفاع السوفيتي .



مفاجأة مذهلة

- الجليد يتساقط على العلاقات المصرية السوفيتية.
- الوفاق المزعوم صورة من صور التخاذل أو الاسترخاء العسكرى.
- السادات يصدر قراراً بخروج السوفيت من مصر.
- سر إقالة مراد غالب.
- حافظ الأسد فى زيارة سرية إلى موسكو.
- من أجل مصر ومن أجل العرب أتخذ قراراتى.

زيارة الرئيس نيكسون لموسكو في يوم الخميس ٢٥ مايو. وهو لقاء تاريخي. **انتهت** اهتزاز له العالم كله. ولا بد أن السوفيت والأمريكان قد تصارحوا بأشياء كثيرة. واتفقوا. وأملى كبير ألا يكون هذا الاتفاق على فرض التسوية علينا في الشرق الأوسط. حتى السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قد انزعجت هي الأخرى من أن تتفق الدولتان العظميان على فرض التسوية بالقوة.. على الرغم من أن إسرائيل هي المعتدية وهي التي تحتل أرضنا، والعلاقة التي بين أمريكا وإسرائيل مختلفة تماما عن العلاقة التي بيننا وبين السوفيت.. فإسرائيل عميلة لأمريكا وتعيش على أمريكا ابتداء من الرغيف حتى الصاروخ.

وكل ما أتوقعه في ذلك الوقت أن ألقى ما اتفقت مع القادة السوفيت عليه.. فأنا أنتظر أن يفوا بمطالبى السبعة التي حددتها. وقد تكهنت بعض الصحف الغربية في ذلك الوقت أن مطالبى السبعة هي أنواع متطورة من الأسلحة.. وليست هذه التكهنات بعيدة عن الحقيقة. وإن كنت أعترف بأننى لم أطلب المساواة بإسرائيل. أتمنى طبعاً أن يكون نصيبى من الأسلحة السوفيتية يعادل ما تتلقاه إسرائيل بغير حساب. ولكنى كنت معقولا جدا فى مطالبى فأنا أرى أن أقف وراء إسرائيل بدرجتين، لا بعشرين درجة.. كما ذكرت من قبل.

ثم صدر «البيان الوفاقي» الأول.. وفى هذا البيان أن الدولتين العظميين تتعهدان ببذل كل الجهود المستطاعة من أجل تسوية سلمية فى الشرق الأوسط.. وألا تنفرد إحدهما بإحراز أية مكاسب على حساب الأخرى.. وأن تبذلا كل الجهود ضد تصعيد الموقف حتى لا يزداد التوتر الدولى وتكون مواجهة بين الدولتين..

وجاء فى هذا البيان «الوفاقي» أن الدولتين تؤيدان قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وليس فى هذا البيان شىء جديد. ولكن الذى يهمنى فى المقام الأول أن ألقى من موسكو كل ما اتفقنا عليه.

وأول ما أتلناه عادة أن يجيء بيان أو معلومات أو أخبار عن قيام السفن السوفيتية من البحر الأسود إلى الإسكندرية. لكى نستعد لاستقبالها فى ميناء الإسكندرية ليلا وحتى ذلك اليوم كنت، وبمنتهى حسن النية، أؤمن بأنهم سوف يفعلون. فليست مطالبى مبالغاً فيها وهذا واضح فى كل اجتماعاتى بهم. مضى شهر مايو كله. وفات الأسبوع الأول من يونيو. وقلت للسفير السوفيتى فينوجرادوف: أنت كنت معى فى موسكو. فأين الذى تعهد به القادة السوفيت؟

قال: أنا أذكر ذلك التعهد بوضوح.

قلت: اتصل بموسكو فوراً..

وفى السفارة السوفيتية فى القاهرة خط مباشر مع موسكو. وفى استطاعة السفير أن يرفع السماعه ويتحدث مباشرة مع برجنيف. وأن ينقل إليه كل ما قلته له. وما قلته ليس أكثر من أنسى أذكرهم بوعودهم. وأن الوقت يجرى ضدنا. وأن الشهور الباقية حتى انتخاب الرئيس الأمريكى الجديد يوم ٧ نوفمبر كافية لإرسال ما اتفقنا عليه. وإن كنت أرى أن الوقت يضيق. وأن الوضع يزداد صعوبة. وأن الناس فى مصر قد ضاقت بموقف السوفيت. وأننى شخصياً قد ازدادت ضيقاً. وبدأت الدماء تغلى فى عروقى. وليس هذا تعبيراً مجازياً. ولكنه قريب جداً من الحقيقة. على الرغم من حرصى الشديد على أن أبدو غير ذلك..

وفى الأسبوع الثانى من يونيو طلب السفير السوفيتى مقابلتى.

قلت لنفسى: فرجت. انحلت. وكنت أظنها لن تفرج أو لن يكون لها حل قريب.

ولم أفاجأ بأى شىء مما قاله السفير السوفيتى. كل شىء كما توقعت. السفير يحمل رسالة من برجنيف هى نسخة أخرى من البيان «الوفاقى» الذى صدر بعد نهاية زيارة موسكو. مع إضافة واحدة.. وهى أن برجنيف بذل جهداً كبيراً فى إقناع نيكسون بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

شىء عجيب. ومن طلب إليه ذلك؟ وهل نحن فى حاجة إلى أن يقتنع نيكسون بذلك؟

فقط.. أن برجنيف قد بذل «جهداً كبيراً» فى إقناع الرئيس الأمريكى. أما بقية الرسالة السوفيتية فهى كلام ضخم فخم تافه من أوله لآخره.. وهو لا يختلف كثيراً عن البيانات الرسمية للدول الشيوعية. فهذه البيانات تمتلئ بعبارات لها رنين وطنين وبها تراكيب غريبة عجيبة. والمعنى: لا شىء ينفع أو يشفع.. ينفع قضيتنا أو يشفع لهم عندنا.

وبعد أن فرغ السفير فينوجرادوف من رسالته.. قلت وأنا أعلى حقاً: شكراً على الرسالة. وفعلًا جاءت موافقة تماماً لما توقعناه قبل ذلك من أنه لا شىء جديد فى العلاقات الأمريكية

== مفاجأة مذهلة ==

السوفيتية. وأن أمريكا فى سنة الانتخابات لن تستطيع شيئا.. كل هذا توقعته. وحدث كما توقعته. ولكن أين ما اتفقنا عليه؟

قال السفير: هذا ما سوف أفعله مباشرة.

قلت: حتى الآن لم يصلنى خبر واحد عن تحرك سفن الشحن السوفيتية.. هل جفت مياه البحرين الأسود والأبيض؟..

ولم ينطق السفير بكلمة.

قلت له: الآن.. اذهب فوراً وانقل كل كلمة قلتها لك للقادة السوفيت. كل كلمة.

وذهب السفير ومعه ذهب شهر يونيو كله..

وأقبل اليوم الأول من يوليو.. ولا أعرف كيف أصف هذه التغيرات النفسية العنيفة التى طرأت على أعماقى. إن الأيام قد علمتنى ألا أتخذ قراراً فى حالة الغضب. وأنا فى قمة الغضب أخشى أن أتخذ قراراً. فأنا لا أحب أن يكون رأسى ساخناً. ولا أحب وأنا فى هذه الحالة أن أقرر شيئاً أسف عليه أو أجدنى مضطراً إلى الرجوع فيه. وأنا أؤمن بأن الوقت يجب أن يكون فى خدمتنا، وليس سيفاً على رقابنا.

ومع الساعات الأولى من شهر يوليو، أستطيع أن أقول بمنتهى الوضوح الآن: إن بذور قرار ٨ يوليو قد سقطت من يدى على الأرض الممتدة بيننا وبين السوفيت.. إنها بذور.. ولا أعرف ما اسم هذا الذبذبة الذى أنبتته هذه البذور.. أى نوع من الأشجار الشائكة بيننا وبين السوفيت.. هل هى بذور أو هل هى قطع من الجليد تساقطت بكثرة فائقة؟!

إن شيئاً سقط من أيدينا على أرض الصداقة المصرية السوفيتية، وبسرعة تحول إلى نبات غريب.. شائك.. أبيض.. هل هو نبات؟.. هل هو جبال من الجليد؟!

ولكن من المؤكد أنه مع بداية يوليو بدأ الجليد يتساقط كثيفاً عنيفاً بين مصر وروسيا. ما فى ذلك شك. هل كان من الصعب أن أستعرض الأحداث كلها؟

ليس صحيحاً المثل الذى يقول: ما فات مات.. فالذى فات لم يمت. وإن كنت حرصت كثيراً على أن أميت فى نفسى الكثير مما قاله وفعله الروس. ولكنهم هم حريصون على إحياء كل الذى ضايقنى وأهان مصر وأخرجها، وأهان قواتها المسلحة.

والأفما معنى أن أبنى استراتيجيتى العسكرية السياسية على وعود وعهود، ثم إن شيئاً من هذه العهود والوعود لا يتحقق؟.. ما معنى أن أبنى القصور السياسية والقلاع العسكرية على

رمال متحركة؟ ما معنى أن أستضيء بالسراب؟ ما معنى أن أصرخ في مواجهتهم صادقا، وأن أواجه الشعب بوجه آخر.. يعلم الله ما الذى كان يخفيه هذا الوجه من المראה والعذاب؟! لو كان الذى وعدنى زعيماً واحداً ثم أخلف وعده لقلت إنه واحد من ثلاثة أو من أربعة.. ولكنهم جميعا - كل القادة السوفيت حتى برجنيف رجلهم الأول - اتفقوا جميعا على إحراجى وإرهاقى!.

ما الذى أستطيع أن أفعله؟

السؤال سهل. ولكن الإجابة صعبة. وفى رأسى أشياء كثيرة. وعلى مسامعى تتردد أصوات وأصداء واجتهادات. وأمام عيني: الشعب وغضبه والقوات المسلحة وصبرها الطويل على مضض.. وما أسمعه كل يوم عن استخفاف الخبراء السوفيت برجالنا، واستهانتهم بقدرتنا.. لقد سمعت ذلك بأذنى فى أحد اجتماعات الكرملين. فما الذى لا يقوله رجالهم لرجالنا.. إن لديهم تعليمات صريحة بذلك. فليس بينهم واحد يقدر على أن يفعل شيئا مهما كان صغيرا دون تفويض بذلك. إذن هو موقف عام. وسياسة يتبعونها مع مصر من أعلى مستوى حتى أصغر جندي. كل الذى دار فى رأسى أن أضدم الروس فى رءوسهم.

كيف؟

إن الروس فى حاجة إلى صدمة كهربية. إلى شيء يصددهم ويكهريهم لعلهم يفيقون. ولكن أين؟ .. ومتى؟ .. وكيف؟ .

ووصلت إلى قرار أقنعنى. وأريد أن أناقشه بالفعل مع أحد أو لعلى بهذه المناقشة أعطى لنفسى فرصة للتريث. وأقوم بتبريد رأسى الساخن، تفادياً لخطأ قد أقع فيه.

واتجهت فى يوم ٧ يوليو إلى بيت د. محمود فوزى على ترعة المنصورة. وهو رجل عاقل حميف. علمته الحياة فى الشرق الأقصى أن يكون هادئ النفس صافى العقل. ذهبته إليه. وعرضت عليه ما فى نفسى بكل صدق. وكان أول إنسان أطلعته على قرارى. وأقرنى عليه. وفى الطريق من بيت د. فوزى إلى القناطر الخيرية تزاحمت الصور على رأسى. فأنا أعرف بالضبط كل ما حدث. وأعرف تماما ما سوف يحدث. ولو عرف الشعب حقيقة ما حدث لى ولمصر، لأقرنى الناس جميعا على ذلك. وأنا أعرف كل نبضات الشعب. وأعرف ما يدور فى رءوس وقلوب قواتنا المسلحة.. هذه الصور قد أوصلتنى إلى اقتناع واحد: أن الذى سوف أعمله هو الصواب. وليس أمامى إلا هذا القرار.

فى نفس هذا اليوم جئنى من السفير السوفيتى أن لديه رسالة عاجلة. وأنه يريد أن ينقلها إلى.. ولم أتفأل. فما الذى يمكن أن يقوله السوفيت بعد بيان «الوفاق» الذى تحدث فيه السوفيت والأمريكان عن شيء جديد اسمه «الاسترخاء العسكرى» .. أو التخاذل العسكرى.. أو اللامبالاة بكل ما قلت وما طلبت؟ . من الذى يسترخى عسكرىا فى المنطقة؟ هل تسترخى قواتنا وأرضنا محتلة؟ هل تسترخى أفكارنا وقد أقمنا استراتيجيتنا على الوعود السوفيتية. على أرفع المستويات؟ ما الذى يمكن أن تضيفه الرسالة العاجلة بعد أن وضع كل شيء فى موقف السوفيت والأمريكان؟ وحددت للسفير السوفيتى لقاء فى قصر الظاهرة فى الساعة الثامنة من مساء السبت ٨ يوليو. واتصل بى الرئيس حافظ الأسد من موسكو يقول إنه فى زيارة سرية. وأنه لم يشأ أن يعلن عنها. ولكنه سوف يجرى إلى زيارتى يوم الأحد ٩ يوليو.. ولكن القرار الذى اتخذته قد وضحت معاله تماما ولم يبق إلا أن أعلن ذلك..

جاء السفير السوفيتى فينوجرادوف ومعه المترجم. وكان معى حافظ إسماعيل وقلت له: يا حافظ.. اكتب كل كلمة. فقد أردت أن أسجل فى هذا اليوم كل شيء. فذلك يوم تاريخى.

وجاء السفير السوفيتى. وتقدم بالبيان وأخذ المترجم يقرأ النص العربى. وأسندت رأسى إلى يدى. ثم وضعت يدى على خدى. وانتظرت.. وتوالت العبارات ومعها الصور. والرسالة تتحدث صفحة وراء صفحة عن كل ما جاء فى الرسالة السابقة من جهود روسيا فى إقناع الأمريكان بأهمية القرار ٢٤٢.. لا جديد.. والكلام يدخل ويخرج من أذنى. دون أن يترك أثرا، إلا المزيد من الغيظ.. أما عن المعركة والحرب فالرسالة تقول: إن لهم تجارب طويلة مريرة فى القتال. وإننا لا نعرف معنى الحرب ولا معنى أن نشن حربا جديدة.. إن الموقف أخطر وأفظع مما نتصوره فى مصر..

وتذكرت نغمة كانت سارية فى الصحف الشيوعية فى ذلك الوقت.. أن السوفيت لا يريدون الحرب خوفا على الأنظمة التقدمية فى المنطقة. وخوفا من أن تؤدى هذه الحرب إلى «غليان قومى» أى قيام النزعات القومية وتماسك الشعوب العربية. وارتفاع المد الوطنى والقومى فى مصر وفى غيرها. يعنى أنهم لا يريدون الحرب، لأن الحرب سوف تمزق النشاط الشيوعى فى المنطقة.

هذه النغمة أعرفها، ولكنها لا تهزنى أيضا. وإنما الذى هزنى هو ما حدث بعد نهاية زيارة نيكسون والرسائل التافهة التى تتوالى من الكرملين. وبمنتهى الهدوء الظاهرى، والانفجار البركانى فى أعماقى قلت للسفير السوفيتى: هل انتهت الرسالة؟ ..

قال: نعم

قلت: وكل ما فيها هو هذه السطور الخمسة الأخيرة عن الحرب وعجز مصر عن دخولها..
وقصورها عن فهم أبعادها؟ ..

ولم يرد الرجل..

طلبت إلى حافظ إسماعيل أن يكتب كل كلمة أقولها وتلفتُ إلى المترجم السوفيتي في نفس الوقت قائلاً: أحب أن أقول للإخوة السوفيت إن هذه الرسالة مرفوضة شكلاً ومضموناً. ولا أقبل ولن أقبل، مثل هذا الأسلوب في مخاطبتي ومخاطبة الشعب المصري من ورائي.

ثم أملت تاريخ العلاقات المصرية السوفيتية من أوله إلى آخره. وقلت كل ما في نفسي. والذي لم أفصح عنه حتى الآن. قد أملتته في ذلك الوقت. فلم يبق في نفسي شيء لم أبعث به إليهم. أخرجته من أعماقي. رفعت من فوق صدرى. صفيت حسابي. أقفلت دفاترى. ولم أترك حتى الحوار الذى دار بينى وبين برجنيف عن التحليل السياسى والعسكرى للموقف، وعن ضرورة الاستعداد العسكرى لتحريك الموقف السياسى. تماماً كما حدث فى فيتنام مما أدى إلى زيارة نيكسون..

واستغرقت ساعة فى إملاء هذه الرسالة. وكان وجه السفير فى لون الشمع. ثم تلفتُ إلى السفير وحافظ إسماعيل قائلاً: انتهت الرسالة وهذه هى القرارات.

اكتب: اليوم الأحد ٨ يوليو وغدا الاثنين ٩ يوليو.. يوم الاثنين الذى يليه يخرج الخبراء السوفيت بالكامل من مصر. جميعاً. وإذا كانت لكم هنا أسلحة مثل الطائرات الأربع الميج ٢٥.. فخذوها معكم. وإذا كانت هنا محطات إنذار مبكر. فخذوها أيضاً. فهى قديمة. ولا قيمة لها. أو نشترىها منكم. وكل ما لكم من أسلحة خذوها. أو نشترىها منكم.

ومحطات الإنذار لا هى محطات ولا هى إنذار مبكر أو متأخر.. إنها قديمة بالية متداعية.. وقد اشترينا محطات أفضل منها من فرنسا. إنهم فى فرنسا يبيعونها فى الدكاكين، وليست سرا عسكرياً! ولم أتبين أن وجه السفير قد أصبح فى لون الثلج، وأن حافظ إسماعيل كانت حالته النفسية أسوأ. وإنما مضيت أقول: إنه لابد بعد ذلك أن نلتقى لنبحث معاهدة السلام التى بيننا وبينكم. ولابد أن نعرف مداها وجدواها. وما الذى أفدنا واستفدنا منها؟ ..

وطلبت من حافظ إسماعيل أن يرافق السفير السوفيتى حتى الباب..

انتهى كل شيء.

نزلت إلى حديقة قصر الطاهرة. وكنت قد جمعت عزيز صدقي رئيس الوزراء، وممدوح سالم وزير الداخلية، وأحمد إسماعيل - الله يرحمه - مدير المخابرات يومئذ، ومراد غالب وزير الخارجية. أما عزيز صدقي فقد كان واضحاً. أعلن أنه قد آن الأوان لكي تكون علاقتنا بالسوفيت «أبيض وأسود». وقد كان ذلك تفكيراً سليماً لرئيس وزراء مسئول. وطلبت من ممدوح سالم أن يستعد لمواجهة الموقف كله.. أما مراد غالب فقد كان مهتماً لم يعجبني. فلأن ثقافته شيوعية. فقد أطاح به الموقف. وإذا بي أجد وزيراً خارجيتنا تائها ضائعاً لا يعرف معنى هذا القرار. ولم يكن هناك معنى لأن يبقى في موقعه..

لئن كان خروج الخبراء السوفيت، صوتاً صارخاً، فإن صده ما يزال يتردد حتى اليوم.. وإن كان طريقاً فنحن ما نزال نسير فيه.. وإن كان هوة بيننا، فقد تردى فيها كل شيء.. وإن كان ناراً فلا يزال لها شرار.. وإن كان جليداً فهو الذي يملأ الطرق والجسور التي بين موسكو والقاهرة.

هل كان هذا القرار ضرورياً؟ نعم.. كان ضرورياً لنا، وكان ضرورياً لهم.. فقد كانت هناك قضايا يجب أن يعاد النظر فيها.. فليس من القضايا المسلم بها - أبداً - أن يصدر قرارنا من موسكو.. ولا من المسلم به أيضاً أنه لا إرادة لنا.. ولا من المسلم به أن نظل في حالة لا هي حرب ولا هي سلم..

ولا أحد قال من موقعي هذا إن الروس سوف يحاربون لنا، ويموتون بالنيابة عنا، ويخرجون اليهود من أرضنا.. وكان من الضروري أن يعرفوا، وأن يتأكد لديهم من الذي يستطيع أن يحرك الموقف؟.. ومن الذي يستطيع أن يضغط على اليهود؟.. ومن الذي يستطيع أن يدفعهم إلى الوراء؟.. وهل يستطيع المقاتل المصري أن يدفع عدوه وأن يدافع عن أرضه؟.. وهل هو حقاً قد استوعب السلاح الذي في يديه؟.. وهل صحيح أن قادتنا قادرين على التفكير والتدبير.. وأنهم ليسوا كما قال الخبراء والوزراء السوفيت لا يصلحون للقتال؟.. وهل صحيح أن الجندي اليهودي قد ولد لينتصر، وأن الجندي المصري ولد لينهزم. وانهزم. وسوف ينهزم؟.. إنني لم أقبل ذلك في أي وقت ولم يقبله جنودنا في جميع مواقعهم وعلى كل مستوياتهم..

إن وجود قواتنا على التراب المصري وتحت وهج الشمس وفي زمهرير الصحراء ليلاً وشتاءً، وإصرارهم على القتال لأنه مكتوب علينا، ومن أجل مصر ومن أجل كرامة العرب، كل ذلك كان سندی ودليلي عندما اتخذت القرار بإخراج الخبراء السوفيت..

وقراراً آخر تاريخياً هو: العبور..

أما كيف كان صدى هذا القرار بعد إعلانه رسمياً في العالم الشيوعي والصحف العميلة، فكان عنيفاً. لأن أحداً لم يتوقع شيئاً من ذلك. فالسوفيت - كما أكدوا للأمريكان - قد وضعوا أقدامهم في مصر وعلينا أن نضع رءوسنا حيث وضعوا أقدامهم.. وكان عملاؤهم في مصر يقولون ذلك.. ويكفيني ما رأيته من الهلع والضياع عندما سمع وزير خارجيتنا هذا القرار. لقد كان صورة مصغرة من ألف صورة في ألف مكان..

ولكن صحيفة برافدا نشرت مقالا عن «الخروج من مصر» بتاريخ ٢٠ يوليو تقول فيه: «إن الخبراء السوفيت في جمهورية مصر العربية قد أنهوا مهمتهم. وبعد مشاورات بين الطرفين وتبادل وجهات النظر، رأى الطرفان عودة العسكريين السوفيت الذين كلفوا بمهمات محدودة لفترة محددة. وكما قال الرئيس السادات في خطابه إلى اللجنة المركزية: إن هذا لن يغير من المبادئ الأساسية للصدقة.»

وما جاء في صحيفة برافدا نقلا عن خطابي إلى اللجنة المركزية كان صحيحا. فإنني حريص على الصداقة السوفيتية.. ولكن يبدو أنه لم يكن واضحا تماما، إنهم هم غير الحريصين. ولا بد أن لهم فلسفة في ذلك.

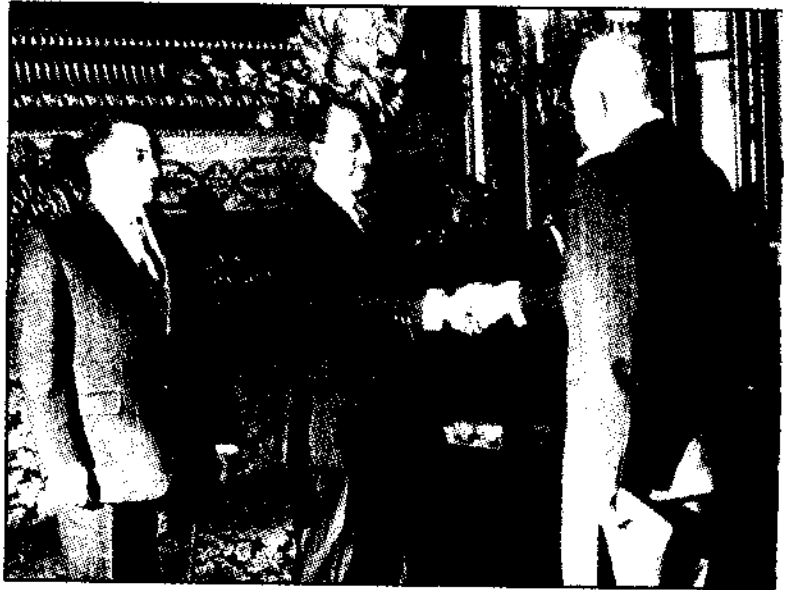
وأرى أنه قد آن الأوان لكي يعرف كل منا، مصر وروسيا، ما هي حدود الصداقة؟ وما هي حدود الإرادة الوطنية. وحدود المصلحة؟.. وعلينا في جميع الأحوال أن نمشي وراء الذي نراه أفضل من أجل مصر..

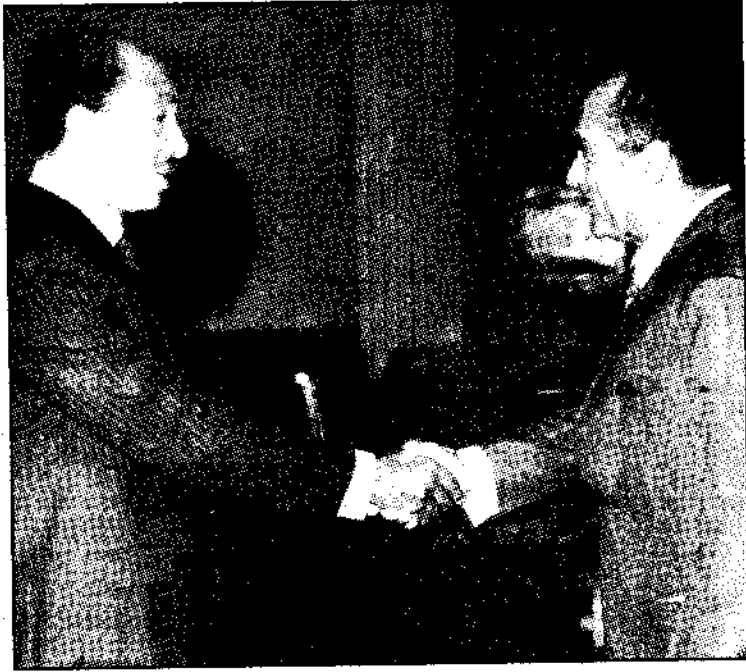
□□□

١ - فى قصر الطاهرة
حيث اجتمع السادات
بعزيز صدقى وممدوح
سالم وحافظ إسماعيل
وأحمد إسماعيل ومراد غالب
وأخبرهم بقرار طرد الخبراء
السوفيت من مصر .



٢ - الرئيس السادات
يصادف ممدوح سالم ويجواره
حسنى مبارك نائب رئيس
الجمهورية.





٣ - السادات يصفح
مراد غالب وزير الخارجية
قبل عزله .



٤ - د. محمود فوزي .



هدوء ما قبل العاصفة

- كل رسائل موسكو عاجلة بلا مبرر.
- خروج السوفيت من مصر هل هو تصفية حساب أم تصفية وجود؟
- تختة الرمل نموذج لصحراء سيناء بكل تفاصيلها.
- قلت لعزيز غالي: لو كان عبد الناصر حيا لدخلت القنطرة من هذا المكان.

أرحت ضميرى عندما أصدرت قرار «إنهاء» مهمة الخبراء السوفيت فى مصر. ولكن
هواة الصيد فى «السياسة العكرة» لم يتوقفوا عن التساؤل:
هل هو «خروج» للسوفيت؟.. هل هو «إخراج» للسوفيت؟.. هل هو «إخراج»
للسوفيت فى مصر والشرق الأوسط؟.. هل هى تصفية «لهم» أو تصفية «لحساب» معهم؟..
أو هل هى تصفية للوجود السوفيتى؟.. هل هى محاولة لتكذيب كل ما أعلنه السوفيت
من استعراضات للقوى فى موسكو وفى العالم بمناسبة الوفاق بين أمريكا وروسيا؟.. هل هى
مساومة على السوفيت؟.. هل تم ذلك بالاتفاق مع الأمريكان؟..
إننى أعرف أن مرحلة جديدة من محاولة إقناع الروس بأن هذا القرار وطنى، يجب أن
تبدأ فوراً. وأعلم مقدماً - ومن واقع تجاربى الطويلة معهم - أن رد الفعل السوفيتى يجرى
متأخراً جداً. وأننى سأحتاج إلى وقت طويل لكى أقنعهم بأن القرار مصرى وطنى صميم.
وأننى لم أحتج إلى خلفية تاريخية أكثر من النسى يعرفها الروس والتي تعبت من تكرارها
لهم.. إن بعض هذا الذى يحدث يكفى ولكنى إنسان صبور..
وقد أساء السوفيت فهم صبرى هذا. ولم يتصوروا أن للصبر حدوداً. بعدها يفقد
الإنسان السيطرة على نفسه وأحمد الله أننى لم أفقد سيطرتى على أعصابى فى أشد
الآزمات .. ومن بينها وفى مقدمتها هذه الأزمة: أن أقف وقفة موضوعية مع صديقنا الكبير
الاتحاد السوفيتى..
ويبدو أن هذا القرار كان مفاجئاً وكان هادئاً لدرجة أن السفير السوفيتى وهو يسمعه
لم يصدقه، أو خشى أن يصرح لى بذلك. وإنما تصور أن رأسى ساخن وأننى أتوعد. وأننى
عندما يبرد رأسى، سوف أعدل عن الذى أعلنته وطلبت إليه أن يبلغه للقادة السوفيت. أو
لعل السفير السوفيتى قد سمع القرار ولكنه لم يستوعبه. أو لعله هو فى حاجة إلى تفسير
من موسكو لكى يفهم هذا القرار الذى صدر فى القاهرة.. فهذا أيضاً من عادة السوفيت، فهم
هناك فى موسكو يحتكرون التفسير والتبرير والتفكير والقرار!

ولذلك حاول السفير أن يؤكد لى أننا أصدقاء.

فقلت: ما فى ذلك شك..

قال: إذن كيف نكون أصدقاء وتصدر مثل هذا القرار؟..

قلت: لأننا أصدقاء ولأن الصداقة لها حدود صحيح أنتم دولة عظمى ونحن دولة صغيرة. ولكن الكبرياء لا تعرف المساحة الجغرافية لأى بلد فكبرياؤنا لا حدود لها تنسون ذلك دائما، ونحن لا ننسى ذلك أبدا. هذا هو الفارق الجوهرى بيننا وبينكم.

- هل يمكن أن نبقى أصدقاء بعد ذلك؟

- ما فى ذلك شك. ولكن أحب أن أؤكد لك أن هذا قرارات .. أن هذا قد تقرر وأننى سوف أبلغ وزير الحربىة هذا الأسبوع ماذا يجب أن يفعل بعد ذلك وسوف أجتمع باللجنة المركزية وأخطرها بكل شىء ولم يجد السفير ما يقوله.

وكان لا بد أن أتحرك بسرعة. فأنا لا أريد أن أقطع صلتى بالسوفيت. ولكن هذا القرار كان ضروريا لهم ولنا. ولذلك كان من الضرورى أن أضع هذا القرار فى ثوب من حرير لأننى لا أريد أن أخرج السوفيت، فقد جاء هذا القرار مفاجئا لهم. ووضعهم فى مأزق ولقد رأيت لهذا المأزق صورتين: صورة السفير السوفيتى وصورة وزير خارجيتنا الذى يتعاطف مع السوفيت.

ثم إننى لست فى حاجة إلى أن أقول لشعبنا: إننى لم أتصل بأمرىكا قبل إصدار هذا القرار. فالشعب يعرف كل شىء. وقد صارحته دائما، وأنا الآن أصارحه بما فى نفسى..

ولكنى أعرف أننى سأحتاج إلى وقت طويل لكى أؤكد للسوفيت «مصرية» هذا القرار مائة فى المائة.

وبعد يومين اتصلت بعزیز صدقى رئيس الوزراء وأخبرته بأنه لا بد أن نجد وسيلة لشرح هذا القرار للسوفيت ومعرفة رد الفعل عندهم. كل ذلك قبل أن نعلنه. فحتى هذه اللحظة لم نكن قد أعلنناه. وإن كنت ذكرت تعليقا رسميا على القرار بعد إعلانه، فلكى أؤكد صحة ما جاء فى التعليق من حرص على الصداقة السوفيتية. ولكن القرار لم يتجاوزنا نحن الذين اجتمعنا فى قصر الظاهرة. وتواصينا بكتمانه. وكتمانه.

وطلبت إلى عزیز صدقى أن يتصل بالسفير السوفيتى. واتصل به. وأخبره برغبته فى السفر على رأس وفد إلى موسكو. كل ذلك لأننى لا أريد أن أريق ماء وجه السوفيت. وإنما فقط أريد أن أصب الماء البارد على رؤوسهم الساخنة جدا لعلهم يرون الصورة أوضح.. صورتنا نحن فى مصر وفى المنطقة.

وطلبت إلى عزيز صدقي أن يقترح على السفير السوفيتي أن يسافر هو على رأس وفد. وكان ممدوح سالم ضمن هذا الوفد. ورحب السفير السوفيتي باقتراح عزيز صدقي. ويبدو أن الترحيب الشديد كان سببه أن السوفيت تصوروا أن هذا القرار نوع من التهويش. وأننى أرسلت عزيز صدقي لكى يساوم. وأنهم يعرفون ذلك مقدما. وأنهم قبلوا الزيارة والتجارة معا.

وسألوا عزيز صدقي إن كانت هذه الزيارة مبادرة منه هو شخصيا، أو أننى أعرف ذلك وموافق عليه. ولم يكونوا يعرفون أن هذا الاقتراح منى أنا. وسافر عزيز صدقي. وقد تمنيت له التوفيق فى مهمته. ولكنى فى نفس الوقت أكدت لعزيز صدقي أن يجاهر بأن هذه القرارات لا رجعة فيها وأن هذه الزيارة ذات هدف واحد: هو البحث عن شكل محترم وعبرة ناعمة لمواجهة العالم فى بيان مشترك يصدر من الدولتين بإنهاء مهمة الخبراء الروس. وأن مصر تشكرهم على نجاح مهمتهم فى مصر. وأنها لن تنسى لهم هذا الفضل مدى الحياة.

وكان موقف عزيز صدقي مفاجأة لهم. فقد اعتقدوا أننا غير جادين. ولكن عزيز صدقي أكد لهم أنه ليس مقوضا فى مناقشة هذه القرارات. لأن القرارات صدرت. ولم يتقبل السوفيت هذا الموقف من مصر.

وعاد عزيز صدقي إلى مصر..

وأيقن السوفيت أن مصر جادة. وبسرعة سحب الروس كل خبرائهم من جميع وحدات الجيش المصرى. ونفذوا قرار الخروج من مصر قبل الموعد المحدد بأربع وعشرين ساعة. وأعلنت أنا بعد ذلك فى اللجنة المركزية يوم الثلاثاء ١٨ يوليو أن السوفيت قد نفذوا قرار الخروج من مصر تماما. قبل الموعد المحدد لهم.

وبعد هذا القرار دخلنا فى مرحلة أو فى مراحل أو فى طريق طويل عريض متعرج شائك هو الذى يؤثر فى علاقتنا منذ ذلك الوقت حتى ساعتنا هذه فى يومنا هذا من شهر يناير هذا فى سنتنا ٧٧ هذه.

ولكننى كما قلت منذ لحظات قد أرحت ضميرى.. وأحسست أن جبلا ثقيلا قد سقط من فوق قلبى.. وإننى كأى فلاح ظل مختبأ وراء شجرة أو تحتها، والشمس تشرق وتغرب.. ولكن شيئا فى نفسى لا ينام.. لا يعرف الليل ولا النهار.. لا يعرف الجوع والعطش والتعب.. هذا الشيء أن هناك ثارا.. إننى أخذت بثأرى. ومن حقى بعد ذلك أن أستريح.. وأن أذهب إلى الإسكندرية. فمنذ ٦٧ حتى صدور هذا القرار لم أذهب إلى البحر ككل عباد الله.. فقط يوما

فى نهاية كل أسبوع، ثم أعود إلى القاهرة. ولكن فى هذا الصيف من يوليو ١٩٧٢ وجدت أنه من الضروري أن أستريح.. وأن أنزل البحر.. فقد كنت أشعر قبل ذلك أن ماء البحر لا يقوى على حملى، لأننى أحمل شاطئاً على صدرى.. أما الآن فإننى خفيف على الماء. لقد خفت همومى كلها..

واعتمدت فى حساباتى على أن السوفيت - كماداتهم - سوف يحتاجون إلى وقت طويل لكى يحلوا أبعاد هذا القرار. وإن كنت أعلم مقدماً أن الروس شكاكون بالطبع. وأن أول ما سوف يهتدى إليه تفكيرهم هو أننى أصدرت هذا القرار بالاتفاق مع الأمريكان.

وقلت للذين يعاونونى: يجب أن نعطى للسوفيت وقتاً كافياً ليفكروا فى القرار وفى أبعاده وفى الخطوات التالية.. ورأيت فى أغسطس أن أتوجه إلى السوفيت بنفسى. أكتب إليهم خطاباً بقلمى. وجلست أستحضر كل أفكارى. وأستعرض كل تاريخى معهم. وأحسست أننى أجلس أمام محكمة التاريخ. وأننى ذهبت إليها بقدى.

وأمسكت القلم. ويعلم الله أننى ما عانيت يوماً مثلما عانيت فى ذلك الوقت. لقد شعرت أننى أمسك قلماً لأول مرة. وأننى لا أعرف كيف أحركه على الورق فقد استعصت المعانى فى رأسى. ورأيت المسافة طويلة بين بداية السطر ونهايته. وظللت أكتب أكثر من سبع ساعات. ثم مزقت كل ما كتبت. وأسلمت نفسى للنوم.

وفى اليوم التالى أعدت كتابة هذا الخطاب فى خمس ساعات أخرى.. وأرسلت إليهم الخطاب. ولم أنشره. وإنما احتفظت به لفرصة أخرى. وفى هذا الخطاب وضعت كل شىء فى مكانه وفى حجمه ووزنه. وبخطى أمامهم وأمام الشعب والتاريخ. وفى هذا الخطاب طالبت بضرورة أن نجلس معا وأن نتناقش بمقتضى المعاهدة التى بيننا.

ومضى أغسطس وسبتمبر وفى أكتوبر تلقيت خطاباً من موسكو أن الرئيس حافظ الأسد سيأتى إلينا فى زيارة سرية. والرئيس حافظ الأسد لديه نسخة من هذا الخطاب. وهذا طبيعى لأننا ننسق سياستنا معا.

وللحقيقة فإن الرئيس حافظ الأسد قد زار موسكو بمبادرة منه. واتفق مع القادة السوفيت على أن يستقبلوا وفداً مصرياً برئاسة رئيس الوزراء لمناقشة الموقف وخصوصاً بعد أن اتضح لهم أن القرار لم يكن طعنة فى الظهر، وأننا لم نبيعهم للأمريكان، وكان خطابى هذا يضم بمنتهى الوضوح كل حيثيات صدور هذا القرار. وجاء الرئيس حافظ الأسد إلى القاهرة ووافقته على كل شىء. وعلى أن يسافر الوفد المصرى يوم الاثنين ١٦ أكتوبر.

وقد أعلنت في افتتاح الدورة الثانية لمجلس الشعب سفر عزيز صدقي ومعه وفد كبير إلى موسكو وقلت: إنه مكلف بمهمة أريد لها أن تنجح. وإنني «أعطيها تأييدي الكامل مبدأ وضرورة في نفس الوقت، وأعدكم بأن أجيء إلى مجلسكم ولو في جلسة سرية وأحيطكم علما بالتفاصيل والتطورات راجيا أن يكون في مقدوري ساعتها أن أعطيكم ما تطمئن به قلوبكم وترضى عنه ضمائركم.»

وفي موسكو حدث عتاب طويل. وتوضيح مستمر من جانب الوفد المصري. وطالب الوفد المصري بضرورة التعجيل بتنفيذ العقود المبرمة بيننا.. وأعاد عزيز صدقي ما سبق أن قلته من أن الوضع في الشرق الأوسط لا يسر حبيبا وإن كان يسر العدو. وأن الزمن يجري ضدنا.. إلخ.. ولم يوفق عزيز صدقي في رحلته هذه فقد كان الجو مليدا بغيوم المرارة والشك.. وإن كان الطرفان قد اتفقا على أن تكون هناك صلة ما بيننا وبينهم ووعده السوفيت بتقديم مواعيد إرسال الصفقات التي تأخر إرسالها إلينا.

وظل كل شيء على ما هو عليه حتى جاء فبراير سنة ١٩٧٣. فقد أعلن السوفيت ترحيبهم بزيارة الفريق أول أحمد إسماعيل وكان قد عين وزيرا للحربية. في أكتوبر ١٩٧٢. بعد أن اكتشف تصرفات خطيرة لوزير الحربية الذي سبقه.

في شهر فبراير هذا سافر أحمد إسماعيل إلى موسكو.. وسافر حافظ إسماعيل إلى باريس لمقابلة هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا..

وفي موسكو أكد لهم أحمد إسماعيل أن قرار طرد الخبراء السوفيت ليست له أية خلفيات مريبة، كما يتوهم السوفيت. وعلى ذلك عقدوا معه صفقة أسلحة. وفي هذه الصفقة بعض ما طلبناه قبل ذلك.. وأقول «بعض» الذي طلبناه. فليس من عادة الروس أن يعطوا «كل» ما نطلب.. وإنما البعض دائما.. وأحيانا كثيرة جداً يبعثون إلينا ببعض الأشياء التي لم نطلبها، ولا نحتاج إليها، وفي الوقت غير المناسب لذلك..

ولكنهم هذه المرة قد وافقوا على إرسال أسلحة جديدة كالتي أعطوها لسوريا قبل ذلك بسنة. وكان في تقديري أن الروس إذا أكدوا أن هذا القرار مصري فسوف يغيرون موقفهم في مدى ستة أو سبعة أشهر. ولذلك تغير موقفهم بعد ثمانية أشهر، أي بفارق شهر واحد عن تقديري للموقف. ولأول مرة في تاريخ التعامل معهم - وللحق والتاريخ - أقول: إنهم أرسلوا جزءا من الصفقة فورا! وكان لهذه الصفقة أثرها الكبير في استعدادنا للحرب.. لأنني حددت سنة ٧٣ بأنها سنة المعركة، وفي شهر فبراير هذا، وقبل أن يسافر أحمد إسماعيل

إلى موسكو كنت مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة جلوسا ووقوفاً أمام «تختة الرمل» التي هي نموذج لصحراء سيناء بكل تفاصيلها. وقد وقف كل قائد وشرح خطته. لأن أحمد إسماعيل كان قد فرغ من الخطة تماماً.

ثم عاد أحمد إسماعيل من موسكو. وعاد حافظ إسماعيل من باريس. الأول عاد بصفقة أسلحة، والثاني عاد بحديث مع كيسنجر. وكسينجر قال لحافظ إسماعيل ما معناه: إننا مهزومون. ولذلك يجب ألا نبالغ في مطالبنا. وأننا لا نستطيع أن نحارب. وإذا حاربنا فسوف نلقى هزيمة أشنع من هزيمة ٦٧. ومن الواجب أن نتصرف كمهزومين، لا كمنتصرين، ونحن لم نتنصر في أية معركة!

وقال كيسنجر لحافظ إسماعيل: أرجو أن تنصح الرئيس السادات ألا يحاول تغيير الوضع عسكرياً، وإلا.. وإلا كانت الهزيمة هي مصيرنا، وفي هذه الحالة سوف يكون مصيرنا مستقبلاً أسوأ مما نحن عليه!

أما أحمد إسماعيل - الله يرحمه - فقد سألته عن الجو في موسكو فقال: إنه التقى بجريتشكو وزير الحربية وتحدث مع أندريوف وزير الأمن القومي وهو صديق لأحمد إسماعيل الذي درس في موسكو، وكان معروفاً لديهم. وكان من رأى أندريوف أن يخبرني بأنه لا داعي لأن يكون في النفوس شيء يفسد العلاقات.. وأنه مستعد أن يحضر إلى القاهرة للقاء متى شئت. واستدعيت السفير السوفيتي وقلت له: أنتم تعلمون أن حافظ إسماعيل قابل د. كيسنجر في باريس. ليس هذا سراً. فقد أعلنه. ولا بد أن الوفاق الذي بينكم وبين الأمريكان يجعلكم تعرفون كل شيء.

قال: نعم.

قلت: أريد أن ألتقي بواحد على مستوى أعلى لأتحدث إليه عن تفصيل ما دار بين حافظ إسماعيل وكيسنجر.

قال: مستعدون.

قلت: أريد أن أؤكد لأي مسئول يجيء من موسكو صحة نظريتي من أنه مالم يشعر الأمريكان واليهود بقوتنا فلن يتحرك الموقف ولن نحصل على شيء..

وفى ذلك الوقت كانت قد انتشرت نغمة سوفيتية أو نغمة «وفاق» تقول إنه لا داعي للحرب.. وإن الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام هي استخدام سلاح البترول والضغط على أمريكا

واللعب على وتر احتياجها للوقود.. أما الحرب فلا.. وتذكرت الخطاب الشهير الذى ألقاه تشرشل فى فبراير سنة ١٩٤١ عندما توجه به إلى الرئيس روزفلت يقول له: إن شيئا لن يهزنا ولن يخيفنا.. لا الحرب المفاجئة ولا اليقظة الطويلة. لا تخف علينا. اعطنا سلاحا وسوف نقوم نحن بالمهمة! بالضبط هذا ما قلته مرات عديدة للسوفيت وما قلته للسفير السوفيتى هذه المرة وأنا أملى عليه هذه الرسالة: قل للقادة السوفيت أن يبعثوا لى باندرويوف وزير الأمن القومى لكى أبحث معه ما دار بين حافظ إسماعيل وكيسنجر فى باريس.

وعلى الرغم من أننى أعلم علم اليقين أن كيسنجر قد أخطر السوفيت بكل شىء، فقد أحببت أن أنقل إليهم بأمانة ما دار فى باريس، لعلنى أسترده منهم بعض الثقة.

ومضى أسبوعان. ولم أتلق ردا. وسألت السفير السوفيتى: أين الرد؟

فقال: لم يأت بعد!

وكما قلت قبل ذلك.. إننى أعلم أن بين موسكو والسفارة السوفيتية هنا خطا الكترونيا للاتصال بأى واحد من القادة السوفيت.. ولكن هذا الخط لم يحقق السرعة المطلوبة. فالسفير يطلب فقط. ويظل ينتظر بالشهور. وبالمناسبة فقد طلبت من السوفيت خطا الكترونيا من هذا النوع يربط بين عواصم الاتحاد: القاهرة ودمشق وطرابلس. فوافقوا بشرط أن يتولى إداراته ضباط سوفيت. فرفضنا طبعاً. واشترينا هذا الخط من فرنسا!

ومضى أسبوعان آخران. وسألت السفير إن كان قد أجابه أحد على رسالتى.

فقال: لا جواب!

قلت: إن الموقف خطير. وإن الحديث الذى دار بين حافظ إسماعيل وكيسنجر مهم جداً. ولا بد من مناقشته مع مسئول كبير. فلا ألقى منكم إلا هذا الموقف.. إذن لم يتغير فى سلوككم شىء، ويبدو أنه لن يتغير!

فلم يرد الرجل.

فقلت له: يظهر أننى نسيت أنكم دولة عظمى، ونحن دولة صغيرة. وأن هناك مراسم لا بد أن أقوم بها لكى أتصل وأنتظر. ثم أتصل ولا أتلقي ردا وأنتظر.. إذا كانت هذه هى المراسم المطلوبة فأنا أرفضها. ولذلك ابعت لهم بأننى ألفت دعوة وزير الأمن القومى السوفيتى.. فليس عندى وقت للانتظار. ولا أمل عندى فى تغيير أو تعديل سلوككم منى، أو من مصر..

فقد كنت مشغولا بالتجهيز للمعركة داخليا وعربيا وعالميا، وسياسيا ودبلوماسيا وعسكريا.. وجاءني الرئيس حافظ الأسد في أبريل. واتفقنا في برج العرب. ووقعت أحداث وتفاصيل كثيرة ليس هنا مكان ذكرها. فأنسا هنا أركز فقط على تطور أو تدهور العلاقات السوفيتية المصرية..

ثم جاء يوم ٥ يونيو. وقد اعتدت في مثل هذا اليوم أن أذهب إلى الجبهة. وعبرت إلى سيناء من بورسعيد إلى مدى ١٧ كيلو مترا منها. ثم عدت إلى الجيشين وإلى المواقع كلها بالكامل. والذي لا يعرفه الناس، حتى الآن، ولم يعرفه اليهود هو أن كل المواقع التي مررت بها. ووقفت عندها ونظرت منها إلى الناحية الأخرى - وكان اليهود يظهرن أمامنا - هذه المواقع هي التي بدأ منها الهجوم. وفي هذه المواقع كنت أطلب من كل قائد أن يصف لي ما سوف يعمل.. تمام كما اتفقنا أمام «تخته الرمل».. وبعد ذلك كنت ألقى عليهم التعليمات النهائية.. مثلا: كانت تعليماتي بالنسبة للقنطرة شرق للواء فؤاد عزيز غالي الذي كان مقررا له أن يهاجمها: يا فؤاد لو كان عبد الناصر حيا لدخلت القنطرة من هذا المكان..

وكنيت قد اتفقت مع محمد فوزي والمرحوم عبد المنعم رياض أن يحجزا لي مكانا في القوات الزاحفة على القنطرة، ثم قلت لفؤاد غالي: لقد رتبت كل شيء لكى أستولى عليها بنفسى. وفي إحدى الجولات على الجبهة ذهبت إلى مطار القظامية. وكان من عادتي أن ألتقى بالطيارين كثيرا. وفي إحدى الدشم جلست معهم وورائى تليفون. دق الجرس، قلت لأحمد إسماعيل: رد أنت. وانشغلت بالحديث إلى الطيارين. ثم سألت أحمد إسماعيل بعد ذلك عن المتكلم. فقال: إنه السفير السوفيتى. ولديه رسالة عاجلة. وإنه يريد أن يحدثك شخصا. ولو كنت أنا فى القاهرة لاستأذن فى مقابلتى. ولكن لأنى قد تعودت أن المكالمات العاجلة والرسائل الهامة لا تكون عادة عاجلة ولا هامة. لم أسأل أحمد إسماعيل كثيرا عن الذى قاله السفير السوفيتى.. ولكن عدت أستوضحه بعد ذلك فقال: إن السفير لديه رسالة من موسكو تقول: إن بودجورنى سيزورنى يوم ١١ يونيو. وتساءلت: رسالة عاجلة.. زيارة بودجورنى بعد خمسة أيام؟ إن بودجورنى غير قادر على أن يحل أو يربط. فليس هو الرجل الذى تهمنى زيارته. لقد جربته. وناقشته واختلصت معه. وليس هو الرجل الذى يحترم مصر ولا قواتها المسلحة ولا قدراتها. ولا أرى أن هذه الزيارة ذات أهمية من أى نوع.

وإني أعلم لماذا قرر القادة السوفيت إرسال بودجورنى. فقد ألغيت دعوة أندرويوف. وحتى لا تتسع الهوة - الواسعة أصلا - بيننا، فقد قرروا إرسال بودجورنى. وقلت لأحمد إسماعيل: قل لهم إننا مشغولون! وأكملت جولتى على الجيشين والصواريخ والقوات الخاصة والصاعقة والطيران لكى أقول للجميع: استعدوا للمعركة. جهزوا للقتال والنصر بإذن الله.. وفى الليل وبعد أن هبطت الطائرة فى آخر مطار فى إنشاص، ركبنا السيارة وسألت أحمد إسماعيل: هل أبلغت السفير السوفيتى بما قلت لك؟ قال: لا. قلت: لماذا؟

قال: ربما أعدت سيادتك النظر فى هذا القرار ونحن مقبلون على معركة. قلت: صحيح نحن مقبلون على معركة. ولكن بودجورنى هذا لا وزن له فى روسيا.. ثم إن زيارته مجرد «منظر». ولو كان الذى سيزورنا هو برجنيف لاحتفلت به أعظم احتفال.. فهو الرجل الذى يقدر على أى شىء.. وطلبت إلى أحمد إسماعيل أن يبلغ السفير السوفيتى أننا مشغولون وغير قادرين على استقبال بودجورنى.. ولم يكن ذلك شعورا نفسيا شخصا فقط، وإنما كانت حالة نفسية عامة. فلست مستعدا لأن أشارك فى هذه التمثيلية التى مللت فيها الحوار والسيناريو وربما كانت البطولة الوحيدة فى هذه التمثيلية هى للأكثر صبرا. وأعتقد أنى قد أديت هذا الدور طويلا وكثيرا. وقد أرضيت الله والشعب. وهذا يكفينى. لقد انتهيت من كل شىء. الإعداد والاستعداد. حتى أمناء الاتحاد الاشتراكى استدعيتهم إلى برج العرب. ووضحت لهم أبعاد الموقف. وطلبت إليهم أن ينقلوا للناس أننا على أبواب المعركة. ما فى ذلك شك بإذن الله. كل ذلك كان قبل المعركة بشهرين. لقد أعطيتهم «الأوامر الإنذارية» - كما نسميها فى الجيش. وعلى نهاية أغسطس كان كل شىء قد انتهى تماما. كل التدريبات قد اكتملت. وفى سبتمبر كان آخر لواء قد أنهى تدريبه على المهمة التى سيقوم بها فى الحرب. وفى أواخر أغسطس سافرت لزيارة الملك فيصل الله يرحمه.. وبعد الملك فيصل سافرت إلى قطر. ومن قطر اتجهت إلى بلودان لمقابلة الرئيس حافظ الأسد. وهناك حددنا الموعد النهائى للحرب يوم ١٠ رمضان (٦ أكتوبر). واصطحبت معى

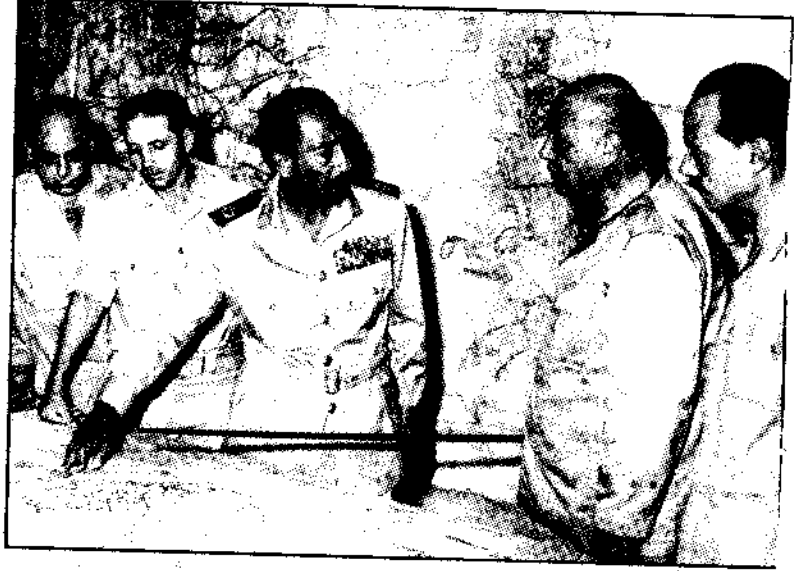
== هذوء، ما قبل العاصفة ==

فى هذه الرحلة محمد على فهمى رئيس الأركان وحسنى مبارك قائد الطيران. وكان هدفى من ذلك أن أريحهما من أحمد إسماعيل. فقد أرتقهما ليلا ونهارا. وأعتقد أنهما حصلا على نصيب لا بأس به من النوم. فأحمد إسماعيل كان قد ركز تماما على الصواريخ والطيران.

وكنت قد اتفقت مع إسماعيل على أن أستدعى السفير السوفيتى يوم الأربعاء السابق على المعركة وأن يستدعى هو السفير السوفيتى يوم الخميس. ونتوجه نحن الاثنين بسؤال واحد إلى السفير لينقله إلى القادة السوفيت: ما هو موقف الاتحاد السوفيتى إذا قمنا بتحريك الموقف عسكريا؟

□□□

١ - السادات والنشير
أحمد إسماعيل والفريق
الجمسى وسعد الدين
الشانلى وفؤاد نصار فى
غرفة عمليات حرب ٧٣ .



٢ - الرئيس السادات
أثناء زيارته للجبهة .





٣ - الرئيس السادات مع
أحد الجنود على الجبهة .



٤ - الرئيس السادات مع
حافظ الأسد .



٥ - أشرف مروان .



وبدأت الحرب

- السفير السوفيتي يطالب بتوفير مطار عسكري لنقل الرعايا الروس .
- موسكو تطلب وقف إطلاق النار .
- كلمات حكيمة للملك فيصل .
- الثغرة أنست الانهزاميين ما حققته قواتنا البواسل .
- أعلنت للعالم كله أنني مستعد لمحاربة إسرائيل وليس محاربة أمريكا .

يوم الأربعاء السابق على المعركة استدعيت السفير السوفيتي وسألته: ما هو موقف الاتحاد السوفيتي إذا قمنا بتحريك الموقف عسكريا؟..

كان ذلك في بيتي في الجيزة، قبل أن أنتقل إلى قصر الطاهرة.

وكما توقعت تماما بادرني السفير السوفيتي قائلا: ومتى قررتم هذا التحرك العسكري؟. فأجبت: إن التاريخ لم يتحدد بعد. ولكني مع الرئيس حافظ الأسد قد قررنا تحريك الموقف. وأنا أريد أن أعرف بالضبط ما الذي سوف تفعله القيادة السوفيتية. فأرجو إبلاغهم بذلك فورا. وأنا في انتظار الرد بسرعة.. وهذه المرة - أرجوك - يجب أن يكون الرد أسرع من كل مرة!.

وفي يوم الخميس طلب السفير مقابلي بسرعة. وقلت لنفسي: إنهم قد أدركوا خطورة الموقف. وصدقوني هذه المرة. إذن لقد فرجت. وجاءني السفير وسألته: إن شاء الله تكون معك أخبار هامة.

فأجاب: هامة فعلا..

قلت: خيرا.

قال: القادة السوفييت يطلبون التصريح بهبوط أربع طائرات كبيرة لنقل الرعايا السوفييت.

قلت: متى؟..

قال: غدا الجمعة..

قلت: وهل أجابوا على السؤال الذي أرسلته معك؟. طبعا أنت أرسلته؟.

قال: نعم أرسلته.

قلت: فماذا كان الرد؟.

قال: لا رد.. إن القادة السوفييت يدرسون ويحللون. ولهم رجاء..

قلت : ما هو؟..

قال : أن تهبط الطائرات الأربع فى مطار عسكري حتى لا يشعر أحد من الناس بنزول الطائرات أو صعودها ولا بالرعايا السوفيت.

قلت : موافق تماما. وليس عندى أى مانع..

وفى يوم الخميس ليلا انتقلت إلى قصر الطاهرة نهائيا. وهناك أعددت غرفة عمليات كاملة وفيها كل الضباط وعلى اتصال بكل مكان فى مصر وعلى أحدث الأساليب العلمية..

وفى يوم السبت نشبت الحرب..

وفى الساعة الثامنة مساء طلب السفير السوفيتى مقابلة عاجلة أى بعد قيام الحرب بست ساعات. وكنت ساعتها فى غرفة العمليات. وكنت على وشك أن أترك غرفة العمليات. فالطيران كان قد ضرب ضربته بنجاح. والمدفعية أطلقت فيضانا من نيرانها بمنتهى النجاح. العبور تحقق بنجاح عظيم. كل شىء قد اتجه إلى قلب العدو وأصابه فى الصميم.. إنها لحظات وساعات من أروع ما فى العمر كله.. عمري وعمر شعبنا والأمة العربية. ولا بد أن التاريخ سوف يقف طويلا عند هذه الساعات. وقد وقف المؤرخون السياسيون والعسكريون أمام هذا الإنجاز العظيم. ويكفى أن نستعرض ما قيل فى الصحف وفى المحاضرات وفى الندوات وفى المذكرات العسكرية. لنرى أبعاد هذا العمل العظيم بجميع المقاييس..

بل إن نجاحنا - وهذه حقيقة يقولها العدو والصديق - كان أضخم مما توقعناه. مع صعوبات عمليات العبور لقناة السويس.. وهى أعظم عائق وحائل مائى فى كل العصور فى الحروب التى مضت والتى سوف تجيء. ولو تركت قلمي يصف ما يملأ نفسى ما توقفت عند أى حد.. ولكنى أريد أن أكون قريبا من الخط والخطة والإطار التى اتخذتها لهذه الأوراق..

وهنأت الضباط على النجاح العظيم. وتركت غرفة العمليات واتجهت إلى قصر الطاهرة حيث ينتظرني السفير السوفيتى الذى يحمل رسالة عاجلة من القادة السوفيت.. لقد اعتدت على «الرسائل العاجلة» هذه.. وهى عادة لا تكون عاجلة بأى معنى. ولكنى «عودت عيني» على ذلك. فلا أنا مللت، ولا هم أيضا. أو من المفروض ألا أعرف الملل، حتى لا أعرف الغضب، فإذا عرفت الغضب اتخذت قرارا خاطئا. وهذا ما لا أريد ولا أحب.. ولذلك يجب أن أتوقع أن تكون كل رسالة عاجلة، هى عاجلة، وهى رسالة هامة فى نفس الوقت.

وفى الطريق إلى لقاء السفير السوفيتى. رحت أفكر بسرعة: ترى ما الذى يتعجله السوفيت.. هل يريدون أن يعرفوا سير القتال وأن يطمئنوا على أن السلاح السوفيتى قد نجحنا فى استخدامه.. وفى ذلك انتصار للسلاح السوفيتى على السلاح الأمريكى.. إن حرب أكتوبر هى بداية عظيمة فى عصر الوفاق.. ولا بد أن يكسب الروس من ورائها شيئا كثيرا.. إنهم كسبوا الكثير بسبب تفوقهم فى فيتنام.. ثم هذه المرة.. لقد حاربنا اليهود وفى ست ساعات تم لنا أعظم الانتصارات.. فنحن العرب جميعا نستحق التهنة..

وأحسست أن يدى قد امتدت أمامى وطالت حتى بلغت حدود العالم العربى والإسلامى أهنىء أشقائى وأتلقى تهنئتهم أيضا.. فلم يكن ذلك انتصارا لمصر وحدها، وإنما هو انتصار للعرب وبالعرب أيضا..

ولا أعرف بالضبط ما الذى يريده القادة السوفيت.. ولم أستطع أن أركز تفكيرى فى أى شىء سوى المعركة الدائرة.. وكم من جنود عبروا القناة سالين تماما.. وأين اتجهت نيران مدافعنا.. ثم ذلك المشهد الذى تمنيت أن أراه بعينى.. وهو دخول قواتنا إلى قلب سيناء إلى القنطرة شرق.. وكم تمنيت أن أرى خط بارليف يذوب.. تتحول فيه الخرسانة إلى رمال.. وتتحول قضبان الحديد إلى طين.. وأرى اليهود هاربين فارين أو أسرى.. إن أبناءنا قد شربوا العذاب والهوان.. وشربوا العار ولم يعتادوا عليه وهم ينظرون إلى الضفة الأخرى من أرضهم وقد ارتفع عليها العلم الإسرائيلى.. إنه لشيء رهيب.. ولم يكن هناك شىء أروع من أن يروا أعلام اليهود وقد تهاوت عند أقدامهم..

واستغرقتنى هذه الصور.. اختلطت فيها الأحلام والآمال والامتنان لله سبحانه وتعالى أن نصرنى على عدوى، وأن أعزنى بنصر من عنده.. وعلى رغم فرحتى بما حدث، فأنا كرجل سياسى، تعلمت أنه لا حدود للاحتتمالات.. قد تجىء من هنا أو من هناك.. ثم هذا السفير السوفيتى إنه هو أيضا واحد من هذه الاحتمالات..

ومددت يدى أصافح السفير السوفيتى، ولم يلاحظ هو السعادة على وجهى، ولا الارتياح فى كلماتى، فهو مشغول بالرسالة التى حملها، كما أننى مشغول بالنصر الذى حققناه وأدعو الله أن يبقيه لنا ويضيف إليه نصرا بعد نصر..

فقلت له: خير إن شاء الله..

قال: رسالة عاجلة من القادة السوفيت.

قلت : ما هي؟

قال : وقف إطلاق النار! .

قلت : هم يطلبون وقف إطلاق النار؟.

قال : نعم.

قلت : هل القادة السوفيت عندهم فكرة عن النار التي يريدون وقفها؟.

قال : لا أعرف.

قلت : تحب أن تعرف؟.

قال : إنهم يطلبون وقف إطلاق النار..

قلت : إنهم يطلبون. قل لهم إنني أرفض ما يطلبون.

قال : إنهم يطلبون ويلحون.

قلت : وأنا أرفض بالبحاح أيضا.. ثم أين الإجابة على السؤال؟. قال : أى سؤال؟.

قلت : ألم أكلفك بأن تنقل للقادة السوفيت ما الذى سيفعلونه إذا تحرك الموقف عسكريا..

وقد تحرك الموقف ولم يتحرك القادة السوفيت.. وعندما تحركوا طلبوا منى ألا أتحرك.. هل هذا ما يريدون؟.

قال : إنهم يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت : لن أوقف إطلاق النار. ثم إننى مازلت فى انتظار إجابتهم. فاطلب إليهم ذلك وليكن هذا الطلب على شكل رسالة عاجلة..

قال : إنهم يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت : لن يوقف إطلاق النار حتى يتحقق الهدف.

قال : وما هو الهدف؟.

قلت : أن تصل قواتنا إلى المضائق.. إنها معركة محدودة. هل تعرف لماذا؟.

قال : لماذا؟.

قلت : لأن القيادة السوفيتية لم تعطينى من السلاح ما يجعلنى أستطيع أن أتحرك أكثر من المضائق.. أو إلى ما وراء المضائق بقليل..

خرج الرجل ولا بد أنه قد أبلغ القادة بكل ما دار بيني وبينه.

وعدت إلى غرفة العمليات وفي أذنى صوت الطائرات والمدافع وصيحات الجنود ودعواتهم إلى الله وشكل الجسور وفوقها الدبابات والدخان يلف استحكامات بارليف.. وحيرتى بين أن أبقى فى القيادة وأن أسارع إلى الجبهة كأى جندى لأرى وأملأ العين والقلب بأعظم إنجازات قواتنا المسلحة.. تمنيت أن أعبئ روحى بكل ذلك، فليس فى عمر الإنسان ولا الشعوب لحظات أو ساعات مثل هذه الساعات المجيدة..

وتذكرت حوارا دار بينى وبين الملك فيصل الله يرحمه. كان ذلك فى شهر أغسطس.. وكان هذا الرجل هو حكمة التاريخ.. كان نموذجا للهدوء والصفاء والأصالة. لقد وهبه الله حسن الإدراك، ونبل الشعور، وبعد النظر.

قلت: سوف نحارب اليهود بإذن الله.. وقد اتفقت مع الرئيس حافظ الأسد على ذلك. ورفع الرجل رأسه إلى السماء ودعا الله لنا بالنصر. ثم قال: لى طلب وحيد. وهو إذا قمتم بحرب فلا توقفوها بعد ساعات أو أيام قليلة. اجعلوها معركة طويلة. فإذا طالت استطعنا أن نبني عليها موقفا عربيا موحدًا..

لا أنسى هذه العبارة. إنها عبارة فى منتهى الحكمة. إن الإنسان يستطيع أن يؤلف عنها كتباً فى السياسة والاستراتيجية.. إنها حكمة هذا الرجل قد أودعها هذه العبارة القصيرة. إننى لا أزال أتخيل هذا الرجل، ولا تزال كلماته الهادئة الهامسة ترن فى أذنى. لقد كانت وفاة الرجل خسارة بالغة للأمة العربية. وقد ظن بعض الناس أننى طلبت إلى الملك فيصل أن يساعدنا بالبتروول. أبدا.

وكل ما قلته للملك فيصل هو: إن علينا أن نحرك الموقف عسكريا. ونحارب. أما دورك أنت فإننى أتركه لك. فافعل ما تشاء وما تقدر عليه. وقللت له بالحرف الواحد: أنت رب البيت. ورب البيت أدرى بما فيه ومن فيه!.

ولم يكن الملك فيصل فى حاجة إلى أن أقول له أكثر من ذلك. فهو رجل حكيم عظيم. وقد أدرك كل شىء بذكائه وفطنته..

وعدت للحوار الذى دار بينى وبين السفير السوفيتى الذى جاء يطلب وقف إطلاق النار.. ثم ساق سببا غريبا وهو أن سوريا قد وافقت على وقف إطلاق النار. يعنى أن الرئيس حافظ الأسد قد قرر منفردا وقف إطلاق النار. وسألت حافظ الأسد فأنكر ذلك تماما.

وفي يوم ٧ أكتوبر، أى يوم الأحد وفي نفس الموعد جاء السفير السوفيتى ينقل لى رسالة عاجلة: إن القادة السوفيت يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت: عندى إجابة عاجلة ردا على الرسالة العاجلة: لا!.. وبدأ الكوبرى الجوى بين موسكو والقاهرة وتفاصيل الكوبرى الجوى والذخائر التى حملها إلينا معروفة بكل تفاصيلها. أما هذا الكوبرى الجوى فلم يكن ينقل إلينا إلا الأسلحة التى وعدوا جمال عبد الناصر بها.. ثم عاقبوه بوقفها لأنه بدأ حرب الاستنزاف ضد إسرائيل.. وكان الغرض من هذا العقاب أن يستنزفوه هو.. أن يسيلوا دمه وعرقه ودمعه وطاقة جنوده، حتى يكف عن الحركة.. ويقبل الأمر الواقع. وأن يبقى الجنود على الضفة الغربية من القنصة، وأمامهم العدو.. ثم يعتادوا على ذلك.. أى على الأمر الواقع!

وقد شكوت كثيرا من قلة الذخائر، بينما يكسسون الذخائر فى سوريا مما دعانى إلى أن أطلب سلاحا من سوريا. وقد أعطونى. أما الأسلحة التى كان يبعث بها السوفيت إلينا فهى قديمة.. ومن الحرب العالمية الثانية.

وفي يوم ١٢ أكتوبر أيقظنى السفير البريطانى.. يحمل رسالة من إدوارد هيث رئيس الوزارة البريطانية وجاءنى السفير البريطانى عند الفجر.

وسألته: ماذا عندك؟

قال: رسالة هامة من رئيس الوزراء..

قلت: ما هى؟

قال: إن كيسنجر وزير خارجية أمريكا قد اتصل بمستر هيث وأخبره أن السوفيت قد نقلوا إليه أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار. ولما كانت العلاقات بينكم وبين الأمريكان مقطوعة فقد طلب كيسنجر من حكومتنا أن تتأكد من صحة هذا النبأ.. لأنه إذا كان صحيحا فسوف يتحرك كيسنجر بنا على ذلك. فهل وافقتم على وقف إطلاق النار كما يقول السوفيت؟

قلت: لم نوافق على وقف إطلاق النار.

ثم رويت له محاولات السوفيت لوقف إطلاق النار وإشاعة ذلك. وقلت له أيضا: إننا لن نوقف القتال إلا بعد أن تتحقق الأهداف.

فسألنى السفير البريطانى: ما هى الأهداف؟

قلت: لن أعلنها إلا بعد أن تتحقق..
وخرج السفير ونقل ما دار إلى رئيس الوزراء الذى نقله إلى كيسنجر..
وأبلغنا السفير السوفيتى أن كوسيجين سوف يجرى إلى مصر فى زيارة.
قلت: أهلا وسهلا يا مرحبا..
وكان الهدف من زيارة كوسيجين شيئا واحدا: وقف إطلاق النار!.
هو يقول: اوقفوا النار!.
وأنا أقول: لن أوقف النار..
وهو يقول: ليس من مصلحتكم الاستمرار فى القتال.
وأنا أقول: بل مصلحتنا أن نستمر.
وهو يقول: أنتم لا تعرفون الحرب.
وأنا أقول: هذه فرصتنا لكى نعرف.
وهو يقول: جربنا الحروب وشربنا المر..
وأنا أقول: نحن شربنا المر، ولذلك يجب أن نجرب حلاوة النصر..
- اوقفوا القتال!.
- بعد المضايق!.

وفى أثناء وجوده فى مصر وقعت «الثغرة».. أى تسللت القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية فى فجوة بين الجيوش.. وهى غلطة عسكرية مشهورة فى التاريخ. ولكن كثيرا ما حدث ذلك. ويعتبرها العسكريون عملا انتحاريا فاشلا. فقد جربها الألمان فى الحرب العالمية الثانية. فى موقعة الأردن عندما فتحوا طريقا دمويا بين قوات الحلفاء. وهذا الذى فعله النازيون، كرره اليهود.. فهم يقلدونهم فى كل شىء فى الدعاية والكذب وفى غطرسة الحروب الهتلرية، ولذلك محكوم عليها بالفشل.. لأنها حركة بهلوانية واستعراض تليفزيونى فاشل.. وهو يذكرنا بما يحدث فى الأفلام: عندما يقوم اللصوص بسرقة البنوك أو المتاحف أو عندما يهرب السجناء فى لحظة معروفة وهى لحظة «تغيير الحرس».. فى هذه اللحظة عندما يجرى حرس ليتسلم العمل من حرس مرهق.. فى هذه اللحظة ينجح

== وبدأت الحرب ==

للصوص في دخول البنوك والمتاحف، ويحاول السجناء أن يهربوا من السجن.. وقد فعل اليهود ذلك..

ولم تضعف قواتنا ولم يتخاذل رجالنا. ولم يفقد ذلك من النصر العظيم الذى حققناه. فالذى حدث لا يمكن تغييره. والموت أهون من أى استسلام بعد ذلك. ولا استسلام بعد ذلك.. وكانت هذه «الثغرة» مأساة خلقية لكثير من الانهزاميين فى مصر. الذين نسوا ما أنجزته قواتنا الباسلة فى عبورها وصمودها وزحفها واستشهادها. كل ذلك نسيه الانهزاميون، ولم يعودوا يذكرون إلا هذا التسلسل اليهودى الدنى، بقصد تحطيم المعنويات، وبقصد تأكيد الخرافة الإسرائيلية: أن الجندى اليهودى ولد لينتصر دائما، والجندى المصرى ولد لينهزم دائما.. وقد انهزم!

طبعاً لم ينهزم.. وإنما الذى انهزم أناس مهزومون ودعاة هزيمة. ولكن أشهد الله وللتاريخ أن ٩٥٪ من شعب مصر، من هذه القاعدة الشعبية ظلت فى صلابة الحديد. وقفت ورائى. وصدقتنى، وتمسكت بروحها العالية. وسخرت من هذه القلة التى انهزمت سنة ١٩٦٧ ولا تريد أن ترفع رأسها، فإذا حاولت قواتنا أن ترفع لها الرأس، عادت لهذه القلة الانهزامية فأحنت رأسها وكرامتها، ثم راحت تمتص الهزيمة من جديد.. ولكن هذه القلة لا تهيم ولا تدخل فى الحساب.

وإنما شعبنا العظيم العريق هو الذى يهيم. إنه شعب علمته الحياة الصبر، والاحتمال والفتنة. وقد علمته فطرتة أن يفهم ويحسن التقدير. فهو أعظم وأصدق وأحكم من كل الذين احترقوا السياسة وتاجروا بمشاعره ولعبوا بها.. إن هذه القاعدة العظيمة من شعبنا، لم تهزها هذه الثغرة. آمنت من أول لحظة، أن هذه الثغرة سوف تنسد، وسوف تنسحب قوات اليهود إلى غير رجعة.. وأن هذه القوات التى اختارت لنفسها أن تدخل عمق مصر محاصرة بين جيوشها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لا يمكن أن تحتل هذا المأزق طويلاً. وقد صح ما توقعه الشعب.. فزالت الثغرة، ومعها أسطورة الأمن الإسرائيلى والجندى الإسرائيلى. وتلاشى من الصورة كل فئران الهزيمة!

وبقى كوسيجين فى مصر أربعة أيام. وبعدها عاد إلى موسكو وفى أذنه عبارة واحدة: إنى لن أوقف النار.. وفى أذنى عبارة واحدة: أوقف النار..

ولابد أن كوسيجين قد عاد غاضباً فلم يسترح إلى ما دار بيننا.. ولا أنا استرحت إلى الذى قاله. ولم أتوقع منه شيئاً كبيراً. فهم لا يثقون فى قدرتنا على القتال. ويخشون فى نفس

وبدأت الحرب

الوقت إن دخلنا الحسب أن نورطهم معنا. وأن نورطهم مع أمريكا، وخصوصاً أن روسيا وأمريكا في حالة وفاق. ويريدون أن يظل هذا الوفاق طويلاً. ولا يريدون أن نفسد هذا الوفاق، ولا أن نضطرهم إلى مواجهة عسكرية مع أمريكا. ولست ضد الوفاق. ولكنني ضد فرض السلام بالقوة. بقوة السلاح أو بقوة الأمر الواقع. ونظرية السلام بالقوة هي نظرية بن جوريون. فقد كان من رأيه: أن العرب إذا لم يريدوا السلام باختيارهم فرضناه عليهم!

ثم لابد أن أكون صريحاً وواضحاً مع نفسي. ففي القاموس السياسي كلمات كثيرة جداً غير واضحة. ولكن الساسة يلعبون على الغموض.. أي يستغلون الغموض لصالحهم.. ويكون هذا الغموض كالسحب التي تطلقها السفن حتى لا تعرف الطائرات موضعها بالضبط.. أي إن هذا الغموض نوع من الكاموفلاج. أي نوع من التعمية أو التمويه.. ومن بين هذه الكلمات التي تجلس على عرش الغموض كلمة: الصداقة!

وبمراحة شديدة جداً، دون أسف، ليست هناك صداقة بين دولة كبيرة ودولة صغيرة.. هناك مصالح. ولا توجد صداقة دائمة، وإنما توجد مصالح دائمة.. فالصداقة لا تدوم، ولكن المصالح المتبادلة هي التي تدوم! وتشرشل هو الذي قال أثناء الحرب العالمية الثانية: من الذي يستطيع أن يتنبأ بما سوف يفعله الروس.. إنهم لغز ملفوف في فزرة ملفوفة في معضلة، والمعضلة في صندوق له مفتاح والمفتاح في روسيا. والمفتاح اسمه المصلحة الوطنية! وليست كلمة الصداقة إلا إحدى الكلمات الوطنية في قاموس كبير!

ثم سافر كوسيجين وكلماته ما تزال في أذني. هو يقول: إن الثغرة عملية عسكرية خطيرة.

وأنا أقول له: ليست خطيرة إلى هذه الدرجة. إنها حركة بهلوانية.. وسوف ترى.

ويؤكد كوسيجين: أنها أخطر مما أتصور. وأن الأمور ليست بهذه السهولة!

والتاريخ يحكم بيننا الآن: صحيح أن الأمور ليست بهذه السهولة. فلا شيء سهل في العلاقات الدولية المعقدة. وخصوصاً إذا كانت الحرب إحدى وسائل حلها. ولكن أين ذهبت الثغرة؟ وأين نقف نحن؟ وأين يقف اليهود؟

وفي يوم ١٩ أكتوبر تدخلت أمريكا. وأعلنت ذلك. فقد تعهدت لإسرائيل بحفظ توازن القوى في الشرق الأوسط.. توازن قواها وقوانا. ومفهوم التوازن عند الأمريكي أن تكون إسرائيل أكثر تفوقاً. وكان التدخل الأمريكي بأسلحة متطورة جداً لم يستخدمها الجيش

الأمريكي بعد. فقد أتوا بالقنابل التليفزيونية، والقنابل المضادة للدروع. وانفتحت الترسانة الأمريكية ونقلت إلى إسرائيل كل ما تحتاج إليه وأكثر. ونزلت الدبابات من الطائرات إلى القتال مباشرة.. وأعلنت أنا للعالم كله أنني مستعد أن أحارب إسرائيل، ولكنى غير مستعد أن أحارب أمريكا.. فأنا أمين على الشعب المصرى وقواتى المسلحة. ولن أسمح بأن يؤدى التدخل الأمريكى إلى كارثة فى مصر. ووافقت على وقف إطلاق النار. وأرسلت إلى الاتحاد السوفيتى لى يخبر أمريكا. وكان قد تقرر أن يقوم كيسنجر بزيارة الاتحاد السوفيتى فى اليوم التالى لوقف إطلاق النار يوم ٢٣ أكتوبر.

أوقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر الساعة السابعة مساء. وخرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بهدف الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس فى فترة استرخائنا العسكرى. فلا هم استولوا على الإسماعيلية ولا دخلوا السويس. وإنما تسللوا ثم وقفوا على مشارفها. وعلى رغم أنها مهجورة فلم يفلحوا فى أن يدخلوها. واحترق جنودهم وتحطمت لهم ١٢ دبابة. وكانت معركة السويس والتحام الشعب والجيش والشرطة ضد اليهود من أروع الأعمال البطولية.. ومن يعد إلى قراءة ما كتب عن الثغرة- أو ما كتبه اليهود بصفة خاصة- يجد أنهم قد طلبوا وزمروا كثيراً جداً.. وقالوا إن موسى- موسى ديان- قد عاد فدخل مصر، ونسوا أن موسى ديان يحتل أرضاً مصرية منذ ١٩٦٧.. وكأنهم أرادوا أن يوهمو الناس أن سيناء ليست مصر.. وإنما مصر هى الضفة الشرقية والمواقع التى احتلوها وادعوا أنها تبعد عن القاهرة ٥٠ ميلاً.. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما جاءت مسز مائير رئيسة الوزراء إلى السويس وصوروها إلى جانب أحد مستودعات البترول. وكل هذا صحيح. ولكن ماذا كانت النتيجة؟.

النتيجة كما توقعنا أن الثغرة اختفت. تلاشت. وكان لابد لهذه الحركة المسرحية أن تختفى من مسرح العمليات الحربية.. لأنها عملية دعائية لمواجهة الفضيحة العالمية والغليان فى كل بيت فى إسرائيل. فى ذلك الوقت وحتى هذا اليوم. ويكفى أن تقرأ ما كتبه العسكريون اليهود عن حرب «يوم كيبور» أى يوم الغفران..

وما كتبه مسز مائير نفسها وكيف إنها بكت.. ثم كيف انهيار الجنرالات وراحوا يعلقون المشانق لبعضهم البعض.. وكيف إن الثغرة هذه كانت نوعاً من الخداع القومى، لا أكثر ولا أقل!.. أو ما جاء فى التحقيق الذى أجراه القاضى «إجراتات».. إن هذا التحقيق صورة مؤلة لكل يهودى. وفيه إدانة للقيادة.. وفيه اعتراف بالمعجزة العسكرية المصرية.. وكل ذلك منشور فى العالم وبعشرات اللغات. ولم يعد سرا خافياً علينا أو عليهم. ولكن التاريخ لن يترك حرب

أكتوبر، وإنما سوف يتوقف عندها كثيرا وطويلا وعميقا. لأن الدروس المستفادة لا يمكن إخفاؤها. وبشهادة أعدائنا أيضا.

لقد قلبت في الكتاب الذى طبع فى تل أبيب بعنوان «وجهات نظر عسكرية فى الصراع الإسرائيلى». وهو يضم مناقشات ندوة عقدت فى القدس فيما بين ١٢ و١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥. الندوة موجزة. والعبارات خاطفة. والأحكام فى غاية الحذر. والمتحدثون يخافون أن يدينوا إسرائيل إدانة كاملة. ولكنهم فى نفس الوقت يقيمون التكريم لقواتنا المسلحة، ويتلمسون الأعذار لأنفسهم.. ولكن الندم وخيبة الأمل والصدمة العنيفة هى الجو العام الذى يتنفسه الجميع. ويكفيينا ذلك شرفا عظيما على مدى التاريخ..

ولا أقول إن ما كتبه موسى ديان عن حرب أكتوبر شئ يستحق التقدير. فهو القائد الذى قضت عليه هذه الحرب نهائيا ومسحت به أرض سيناء وأغرقتة فى قناة السويس ودفنته فى خط بارليف.. إلى غير رجعة.. وما كتبه عن حرب أكتوبر هو مزيج من الفشل والمرارة وخيبة الأمل وبقايا الغطرسة والرعونة.. وكلها قد أصبحت مثل باقة من الشوك على نعش القائد الذى ادعى أنه على رأس جيش لا يقهر. وما كتبه موسى ديان وهو كاتب سيء العبارة، لا يخلو من اعتراف صريح بعظمة المقاتل المصرى وروعة التخطيط وفداحة المفاجأة.. وقد اعترف موسى ديان أن أكبر مفاجأة فى هذه الحرب: أن المصريين قد حاربوا حتى النصر. وأنهم قد استوعبوا السلاح الحديث والاستراتيجية الحديثة.. وأنهم بعد أن ذاقوا لذة النصر، فلن يعرفوا الهزيمة!

إن عبارة مثل هذه من قائد مزقته المرارة، وتكاثر عليه الجنرالات والقضاة والساسة حتى أسقطوه، والضحية الأولى لحرب أكتوبر، إن مثل هذه العبارة لا تجيء هكذا بسهولة.. إن القراء اليهود الذين رأوا الموت وعرفوا العار هم الذين أرغموه على أن يقول الحق، بعض الحق.. لأنه لا يستطيع أن يقول كل الحق.. ذلك ما سوف يرويه التاريخ!

وجاءنا د. كيسنجر وزير خارجية أمريكا.. وبمجيء د. كيسنجر تفتتح صفحة جديدة تماما.

وإذا كانت سحب من الضباب قد تكثفت فى سماءات العلاقات المصرية السوفيتية، فإن زيارة كيسنجر قد أضافت إلى السحاب الأسود عواصف رعدية شديدة..

وإذا كان لدى السوفيت شك فى نيات مصر وقيادة مصر، فإن هذه الزيارة قد جعلت الشك يقينا، والوهم حقيقة.

وإذا كان لدى السوفيت أدنى شك في أن علاقة ما كانت بينى وبين الأمريكان يوم قررت طرد الخبراء السوفيت، فإن زيارة كيسنجر هذه قد أكدت لديهم كل شيء.. والمعنى هو: أنني اتفقت مع الأمريكان عليهم!!.

كيف وصلوا إلى هذه النتيجة الخاطئة؟ لا أحد يعرف. ولا أنا عرفت حتى اليوم. ومنذ زيارة كيسنجر هذه في شهر نوفمبر ونحن نمشى في عملية السلام. وبهذه الزيارة تغير الموقف السوفيت تماما. وانقطعت الصلة.. أو شيء ما انقطع بيننا وبين السوفيت. فقد غضب السوفيت من أشياء كثيرة، وليس لهم أدنى حق في هذا الغضب. وآخر ما أغضبهم أن يجرى كيسنجر إلى مصر. وأن أجتمع به ساعات. والذي أغضب السوفيت أن ألتقى به دون إذن منهم. أى إنسه كان من المفروض أن أستأذن: هل أقابل وزير خارجية إحدى الدولتين العظميين.. أو وزير خارجية الدولة التى تساند الدولة التى تحاربنى وتحتل أرضى. الدولة التى تمد إسرائيل بالرغيف والصاروخ معا.. الدولة القادرة على الضغط عليها من أجل السلام فى الشرق الأوسط ومن أجل الحفاظ على مصالحها البترولية وأسواقها فى كل المنطقة. طبعاً لم أوافق على استئذان الاتحاد السوفيتى. ولم أوافق قبل ذلك. ولن أوافق فى أى وقت.

ورأيت مع كيسنجر أسلوباً آخر فى السياسة وفى التعامل. فهذا الرجل لم يكذب فى شيء واحد قاله. ولم يخف وعداً. ولم يعد بشيء واحد لم يستطع الوفاء به. ما من مرة استدعيته إلا حضر.. وبدأنا فى لقاءات الكيلو ١٠١ مع اليهود تحت علم الأمم المتحدة. وقد حدث لقاء العرب واليهود فى هدنة ١٩٤٩. ويحدث ذلك فى كل اتفاقيات الهدنة. وهذا إجراء عادى جداً..

وفك الاشتباك الأول والثانى..

وساءت العلاقات المصرية السوفيتية، وتعقدت وتعكرت مياه البحرين الأحمر والأبيض واطلقوا سحب الشك فى كل سماء عربية، فى الشرق والغرب والجنوب. ولكنى توجهت مباشرة إلى أمريكا.. الدولة القادرة على أن تحل وتربط.. أن تحل عقد القضية وأن تربط خيوط السلام فى المنطقة..



١ - الرئيس السادات
مع الملك فيصل بن
عبد العزيز .



٢ - الرئيس السادات
يستطلع مواقع العدو .





٣ - موسى ديان وزير
الدفاع الإسرائيلي يستطلع
المواقع المصرية من مركز
القيادة الأمامي .



٤ - الجنود المصريون
يقتحمون خط بارليف.

٥ - إحدى نقاط العبور
التي اقتحمت منها قواتنا
واستسلمت عبرها قوات
إسرائيل .



٦ - أحد المعابر التي
أقامتها قواتنا المسلحة
لمعبور المعدات العسكرية .



٧ - الرئيس السادات
مع القوات المسلحة لحظة
المعبور .





وقف إطلاق النار

- لو أعطاني الروس مائة دبابة لتغير وجه التاريخ.
- موسى ديان يعترف بعظمة المقاتل المصري.
- لست صاحب عنتریات ولا أبحث عن البطولات الكاذبة على حساب الشعب.
- مبادرة كريمة من بومدين.
- طلبت من تیتو مائة دبابة فبعث ١٤٠ بذخیرتها ووقودها.

لم يحدث في حياتي كلها أن التصقت ثلاث كلمات في أذني وبصورة مؤلمة مثل:
وقف إطلاق النار!

لقد سمعت في السجن عبارات تغلي الدم في العروق، وتوقف شعر الرأس، وتطير النوم من العين وتقضي على كل أمل في النجاة.. إلا هذه الكلمات التي كررها السوفيت سفيراً ووزيراً ورئيس وزراء: وقف إطلاق النار..

لقد أوقفت النيران بعد ذلك.. ولكن هذه الكلمات ما تزال مدافع لم تتوقف نيرانها في أذني أو في ذاكرتي. وللتاريخ، والله والشعب على ما أقول شهيد: لم أعرف كيف يمكن أن يتحقق شيء من ذلك.. أو كل ذلك.. كيف أسترجع النار التي انطلقت وأعيدها إلى مدافعها.. وصيحات النصر كيف أردتها إلى حناجرها.. والله أكبر الله أكبر التي كانت أقوى من الصواريخ، كيف أسحبها وأحبسها في قلوب المؤمنين.. كيف أعتقل الإيمان بالله في قلوب أبطالنا، ثم أجردهم من البطولة أيضاً، وأجرد مصر والأمة العربية من كرامتها.

شيء عجيب يطلبونه وهو أن أعود بالتاريخ من ٦ أكتوبر ١٩٧٣ إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧.. إن «وقف إطلاق النار» كلمات ثلاث لها معنى واحد هو: المستحيل..

ولذلك في كل مرة كان السوفيت يطلبون وقف إطلاق النار كنت أحس أنهم ينظرون إلى على أننى رجل فوق مستوى البشر، أو دون مستوى البشر.. فوق مستوى البشر لأنهم يتصورون أننى أستطيع أن أعيد دموع الفرخ إلى العيون التي ذرفت، وهذا ما لا يقدر عليه بشر.. أو دون مستوى البشر سذاجة وبلاهة، وذلك بأن أضيع فرصة العمر، أو الفرصة التي أعطاها التاريخ لشعبنا.. فرصة الشرف والكرامة ومحو العار بكل رمال سيناء الطاهرة..

والحقيقة أننى لست فوق مستوى البشر ولا دون مستوى البشر.. وإنما أنا مواطن مصرى أمين على شعب مصر، قد وضعه التاريخ في موقع المسؤولية.. شخص قرأ التاريخ وقلب فيه وتعلم منه الصبر والاعتماد على الله ثم الشعب.. وتعلم أن الذى لا يساعد نفسه لا يساعد الله.. والذى لا يحترم نفسه لا يحترمه غيره.. وتعلمت أن مصر هي قاعدة النضال.. إذا انتصرت

فذلك نصر لها وللعرب، وإذا انكسرت، فذلك هوان وهزيمة للعرب.. وتعلمت أن الصراحة هي أقصر الطرق.. وأن الصدق هو أسلمها..

وأقول لنفسى دائماً: لا يصح إلا الصحيح، فالصحيح هو الصدق الصريح أو الصراحة الصادقة. وأحمد الله أنني ما كذبت على شعبي ولا على أشقائى العرب، ولن أفعل ذلك.

ومن المناسب هنا أن أقول إننى تعبت كثيراً جداً حتى جعلت مصر وقيادتها وسياساتها موضع احترام العالم كله، وكان هذا الاحترام وسيلتى لتحقيق الكثير من أهدافى، تعبت فى ذلك كثيراً، لا لأن الصدق صعب ولا لأن الصراحة مستحيلة، ولكن لأن الأطراف الأخرى قد اعتادت على الشك فى كل ما يصدر من القيادة المصرية، ولها فى ذلك تجارب أليمة. فكان همى الأول والأكبر أن أفوز بهذه الثقة فى مباراة طويلة اسمها: الصبر من أجل النصر والسلام.. إنه من أجل السلام الذى هو النصر النهائى لكل جهودنا العسكرية والسياسية والدبلوماسية.. وتلك قصة أخرى ليس هنا مجال ذكرها..

و «لو» عدت بذاكرتى وخيالى إلى ما كان يمكن أن يحدث لمصر، «لو» أننى أوقفت القتال..

«لو» حدث ذلك فى اليوم الأول..

«لو» حدث ذلك فى اليوم الثانى..

إننى أدفع عن رأسى وعن خيالى بشاعة ما كان من الممكن أن يحدث.. شئ رهيب لو خطر على رأس واحد من قواتنا المسلحة الآن، لجن جنونه.. وفى استطاعة أى مواطن أن يقوم بهذه التجربة: هات أى مقاتل وقتل له: ألم يكن من الأفضل أن نوقف القتال بعد عبور قواتنا فى اليوم الأول؟!

إننى على يقين من أنك لن تستطيع أن تكمل هذه العبارة: لا لأنها غير معقولة، ولكن لأنك تلقى بالإنسان الذى أمامك فى الوحل دون أن تدري.. لأنك تمسك علماً يهودياً وتغرسه فى قلبه وتسقطه على الأرض وتدوسه بأقدام غليظة إلى الأبد.. ليس هو وحده بل تدوس نفسك أيضاً.. والأمة العربية مئات السنين.. نعم مئات السنين التى سوف تجيء..

ولا أزال أذكر عبارة للدبلوماسى النمساوى مترنيخ أحد أبطال «توازن القوى» فى القرن التاسع عشر يقول: إذا باريس عطست، أصيبت أوروبا كلها بالزكام..

نفس الشئ يحدث للأمة العربية إذا القاهرة عطست؛ فما بالك إذا انكسر أنفها تحت أقدام اليهود ولغات السنين.

تلك صورة رهيبة لا أقوى على احتمالها؛ فلا كانت ولا شاء الله..
ولذلك دفعت عن رأسي غارات عنيفة لكلمات: وقف إطلاق النار.
ولا أزال أذكر أنني قلت للسفير السوفيتي يوم ٧ أكتوبر إن معركتنا معركة دبابات..
والذي يملك دبابات أكبر هو الذى سوف ينتصر.. هذه الحقيقة أنتم تعرفونها، كما نعرفها نحن..

فيرد الرجل: نعم نعرف ذلك..

وقلت له: إذن؟

فأجاب: سيادتكم تعرف ما هو المطلوب منى أن أقوله لك..

قلت: أعرف ذلك.. ولا أحب أن أسمع.. وإنما أريدك أن تسمع منى وأن تنقل عنى.. إننا
فى حاجة إلى دبابات.. ولست محتاجا الآن وفورا.. ولكن اعملوا حسابى!
ولأن الروس يعرفون ذلك، ويعرفون حاجتى الشديدة إلى الدبابات لم يفعلوا شيئا، مع
أنهم قد نقلوا إلى سوريا أكثر من ١٤٠٠ دبابة قبل وقف إطلاق النار..

آه «لو» أعطونى مائة دبابة فقط قبل وقف إطلاق النار لتغير وجه التاريخ، نعم لتغير وجه
التاريخ ولتمكنت قواتنا أن تدفع اليهود إلى حدود ٦٧.. ما فى ذلك شك..

ولكن الذى حدث أننا ضربنا ٤٠٠ دبابة لليهود فى الأيام الأربعة الأولى للقتال.. ودخلنا
كبرى معارك الدبابات فى التاريخ، وانكسر فيها اليهود تماما، وفجأة بعد ذلك وجدت
أمامى عشرة ألوية مدرعة يعنى ١٢٠٠ دبابة واردة من أمريكا، ومعنى ذلك أن أمريكا وليست
إسرائيل، قد نزلت بثقلها لتحاربنى. أمريكا نزلت هنا فقط لا أستطيع أن أواصل القتال.
فليست أنا فى وزن أو حجم أو قدرة أمريكا، وأنا أعرف حدودى، وأعرف الأمانة التى أحملها
وأعرف أن أى عمل أقوم به بعد ذلك بطولة كاذبة.. وأنا لا أبحث عن البطولات الكاذبة ولا
مثلى الأعلى عنتر بن شداد.. لست صاحب عنتريات من أى نوع على حساب الشعب وعلى
جثث الألوف من أبناء مصر الشرفاء الذين يستحقون الحياة الكريمة ولكن عندما أغرقهم
العار والهزيمة، هانت عليهم الحياة من أجل مصر.

وحدث بعد ذلك أن رئيس الأركان المصرى قد انهارت أعصابه يوم ١٩ أمام الثغرة البهلوانية
التي أحدثها اليهود بين قواتنا، وكان رئيس الأركان المصرى يطالب بسحب قواتنا من الشرق،
ولم أوافق على ذلك، فلا انسحاب لعسكرى واحد ولا لبندقية..

آه.. «لو» كانت عندي مائة دبابة فقط..

ولكن.. الذين لا يريدون لنا أن نغير التاريخ، أو أن نخلع رداء العسار، لم يبعثوا إلينا بشيء من ذلك..

وبعد أيام سافر الرئيس هواري بومدين إلى الاتحاد السوفيتي بمبادرة كريمة منه. ودفع للسوفيت مائة مليون دولار، مقابل دبابات يبعثون بها إلى مصر، ولم يبعده الروس بالدبابات في الوقت المناسب. حتى لا يتغير وجه التاريخ، على النحو الذي نريده نحن، ولكن الدبابات التي اشترها الرئيس بومدين لم تصل إلا بعد اختراق اليهود لقواتنا ونزولهم على الضفة الغربية للقناة، وبعد وقف إطلاق النار وبعد تثبيت وقف إطلاق النار.

ولكن جاءتني دبابات الرئيس العظيم تيتو، فقد طلبت إليه مائة دبابة فأرسل لي ١٤٠ دبابة، هذه الدبابات جاءت بحرا وجاءت مزودة بذخائرها ووقودها.

كما أن الرئيس بومدين قد أرسل لواء جزائريا، أخذ مكانه ولكن كانت النيران قد أوقفت. وجاءتني رسالة من الاتحاد السوفيتي تقول: قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي إهداء مصر ٢٥٠ دبابة. ولم أعرف حتى الآن إن كانت الدبابات التي اشترها الرئيس بومدين ضمن هذه الدبابات؟ أو هي هدية من السوفيت على أن تجيء فيما بعد دبابات الرئيس بومدين؟! حتى هذه اللحظة لا أعرف شيئا من ذلك. وقد طلبت من خبائنا أن يدلوني على حقيقة هذه الدبابات لكي نعرف ثمنها، ولكي نعرف بعد الذي دفعه الرئيس بومدين.. ما الذي يجب أن ندفعه هذا قرارهم وهذه حيرتني.. ومطلوب مني أن أحل هذه الفزورة. وأثناء حل هذا اللغز يجب أن أسوق سببا معقولا لذلك هو أن الحوار الذي دار بيني وبين كوسيجين قبل ذلك لم يكن مريحا له. فقد كانت نبرة المناقشة حادة وأظن أنه قد غضب من ذلك. ولا بد أن غضبه كان بداية معقولة لعدم الوفاء بأى وعد، أو للقطيعة التي بيننا من يومها حتى الآن..

مع أن الذي قلته لكوسيجين لم يزد عن أن أذكره بأن الأسلحة التي بعثوا بها إلى مصر ترجع إلى الحرب العالمية الثانية، هذه حقيقة مؤلة. لم يصدقنا أحد عندما أعلن الفريق الجمسى ذلك.. فعلا معدات قديمة، ولكن عزيمة جديدة، وخطتنا حديثة، وكرامتنا عمرها سبعة آلاف سنة.

ثم إنني لفت نظر كوسيجين إلى أن الجسور التي أرسلوها لنا معوقة لتقدمنا.. فهذه الجسور يتم تركيبها في ست ساعات.. مع أن لديهم جسورا يتم تركيبها في نصف ساعة..

ومسرة أخرى أقول: لو .. لو أعطونا هذه الجسور لتغيير وجه المعارك.. لو وفروا خمس ساعات ونصفا لكل مقاتل.. ولكنهم لم يفعلوا..

ومن المعروف الآن أن ٦٠٪ من هذه الجسور قد صنعناها في مصر، وهذه حقيقة أيضا، وقد سئلت كثيرا عن سبب طردى للخبراء السوفيت، هذا هو السبب: حتى لا يقال إن لهم فضلا أو تدخلًا في الانتصارات الرائعة لقواتنا المسلحة.. بل إن وجود السوفيت كان سيعوق كل شيء.. وحتى إذا كنا، على رغم وجودهم، قد حققنا أي شيء ولو متواضعا لرجع الفضل في ذلك لهم أيضا!

إن من المؤكد أن هذا الحوار الحاد مع كوسيجين سبب أكيد من أسباب التلكؤ في إمدادنا بالدبابات التي دفع ثمنها الرئيس بومدين. وأعتقد أن هذا ليس السبب الوحيد فالسوفيت قد قرروا قبل ذلك، أنهم لن يساعدونا، أو لن يساعدوني على الأصح، على تحريك الموقف عسكريا..

وقد أخبرني د. كيسنجر فيما بعد أنني لو استأنفت الحرب لأي سبب فإن أمريكا سوف تواجهني ما في ذلك شك، قالها الرجل بمنتهى الصراحة. وقبل أن يقولها كانت أمريكا قد دخلت الحرب، وهذا هو السبب المشروع والمنطقي الذي جعلني أقبل وقف إطلاق النار.. أي وقف إطلاق النار الأمريكية علينا!

وكما وعد د. كيسنجر بأنه بعد وقف إطلاق النيران فإن أمريكا على استعداد للدخول في مفاوضات السلام في الشرق الأوسط.. بدأت أمريكا خطوات كيسنجر إلى السلام.

ومضينا نعمل من أجل السلام وسط أفراح الشعب المصري وسعادته بقواته المسلحة، وأفراح الأمة العربية كلها.. وتركنا البكاء والعيول لليهود في كل شبر من أرضهم والأرض التي احتلوها واغتصبوها.

وإذا كان التاريخ سوف يتريث طويلا عند أمجاد مصر، فسوف يستमित على الأرض اليهودية لتسجيل صيحات الندم، وتصوير لطم الخدود وشق الجيوب - وتلك عادات يهودية قديمة باقية حتى اليوم - ومظاهرات الأمهات في الشوارع وحول قيادات الجيش ومجلس الوزراء والكنيست وعند حائط الميكي. فقد كانت أكبر هزيمة دموية فادحة أصيبت بها إسرائيل.

وأذكر بهذه المناسبة عبارة قالها القيصر الروسي الكسندر الأول عن نابليون: يظن هذا الرجل أنني ساذج، ولكن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا.

هذه العبارة أذكرها وأنا أقلب فيما كتبه موسى ديان في كتابه «قصة حياتي» وهو يتحدث عن حرب أكتوبر التي كانت المقبرة التي دفنت غروره وغطرسته الكاذبة، فقد تساءل: هل نحن أخطأنا في وضع خططنا أو هل نحن أخطأنا في تطبيقها؟!

ويقول: نحن بنيناها على ثلاثة أسس: المدرعات والطيران وخط بارليف، وكل ذلك لم نعد نرى له أثرا.. ويقول «وهو الذي يجعلني أضحك أخيرا»: إن المصريين هذه المرة ليسوا هم الذين عرفناهم سنة ١٩٦٧. وهي دعوة مفتوحة لأن يضحك كل رجال قواتنا المسلحة وكل أبناء شعبنا وأمتنا العربية، لأن الذي تحقق بنا، بكفاحنا وصمودنا ووحدتنا شيء عظيم، وسوف يبقى كذلك في كل العصور.

وأنا أكره الحقد وأكره الشماتة، وأنشر الحب والمحبة والتسامح وأدعو إلى الصبر. ولكن أرى أن السطور الأخيرة في الصفحة الأخيرة من كتاب موسى ديان تستحق القراءة والتأمل وتستحق أن نفهمها على نحو آخر غير الذي قصده.

يقول إنه أتى بسيارة وربطها بحبل. ثم تدلى من هذا الحبل إلى أحد الكهوف. وفي الكهف وجد بقايا نار كان أجداد أجداده قد أشعلوها؟! ولا بد أنهم كانوا يأكلون ويشربون ولا تزال آثار النار والدخان باقية كأن أصحابها قد فارقوها منذ لحظات.. وفجأة أفسد هذا الصمت صوت العصر الحديث: طائرة نفثة أسرائيلية.. ثم امتدت يدها إلى الحبل ليصعد إلى سيارته إلى بيته وأسرتة ليستأنف حياة التقاعد.. أو حياة النسيان بعد الهزيمة الشنيعة التي لقيها هو وجنوده..

إنه يتصور أن هذا الحبل حبل نجاة.. تدلى به من ماضي الغطرسة إلى مستقبل الندم.. ولكن من المؤكد أنه حبل مشنقة.. هذا الحبل نسيجه الغرور وسوء فهم التاريخ.. أو نسيجه الغطرسة وسوء فهم الشعب المصري.. وإذا كان قد استخدم الحبل في الهبوط إلى الكهف. والصعود بعد ذلك إلى سيارته.. فإن هذا الحبل سوف يستخدمه المؤرخون العسكريون في شق موسى ديان والغطرسة والرعونة العسكرية الإسرائيلية.

وأعتقد أن هذا قد تم بالفعل في حرب أكتوبر.. وليست هذه السطور الأخيرة في قصة حياته إلا صورة وهمية للحقيقة.. لأن الحقيقة أنه قد تدلى من حبل غروره وغرق في قناة صبرنا وإصرارنا.. فاللهم لا شماتة!

ولكن موسى ديان، طراز من العسكريين يستحق الدراسة مع عظيم الاحتقار..

ولكن إذا قارنت ما كتبتة السيدة جولدا مائير في آخر صفحة من كتابها «حياتي» وهي تحاول إنقاذ موسى ديان تجد الفارق بين هذه السيدة القوية وبين رجل ضعيف لأن الغرور والفطرية والرعونة قد أطاحت بعقله. تجدها تقول مع الحزن العميق والأسى الرهيب إنها أحست منذ يوم ٦ أكتوبر أن يوما طويلا لا أول له ولا آخر قد بدأ.. وإنها تتمنى نهاية لهذا اليوم.. وإنها حزينة أشد الحزن لهذا التمزق والانهييار الذى أصاب حزبها.. كما أن الوزراء والزعماء الذين تعاونوا معها فى الحكم لا يريدون أن يوقفوا النقد العنيف الذى يوجهه الشعب إلى موسى ديان واليهما باعتبارهما مسئولين وحدهما عن القرارات التى أدت إلى الهزيمة فى الحرب. إن السيدة جولدا مائير حاولت إنقاذه، أو حاولت أن تحصل عنه عار الهزيمة، حاولت ولكنها لم تستطع فقد تكفل باغراقه وتكديس اللوم على رأسه، بقية العسكريين والساسة فى داخل الحزب..

وحاولت السيدة جولدا مائير «برجولة» أن تفك الحبل من حول عنقه.. ولكنه لم يحاول «برجولة» أن يحكم ربط الحبل حول عنقه هو ويقول: إننى وحدى المسئول عن كل الذى أصابنى وأصاب القوات الإسرائيلية!

والذى يقرأ ما كتبه القاضى شيمون اجرانات الذى كلف فى ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ بالتحقيق فى أسباب الهزيمة والبحث عن «التقصير» فيها يجد أنه يدين موسى ديان، ويدين كل أجهزة الحرب الإسرائيلية. ومعنى ذلك أن الهزيمة كانت للجميع بنسبة متفاوتة، ولكنها أصابت موسى ديان فى الصميم. ولا بد أن له حسابا عسيرا مع التاريخ، وأظن أن الحساب قد بدأ فى إسرائيل وبأقلام الكثيرين ويكفيه ويكفيها - مؤقتا - هذا العقاب المرير..

وكما هى عادتى عندما أخلو بنفسى، وأنا أفعل ذلك كثيرا وأعتقد أن كل سياسى يحتاج إلى هذه الخلوة للتأمل واتخاذ القرار الهادئ، راجعت خطواتى فى السنوات الأخيرة..

واهديت إلى أن الطريق الذى يمتد من القاهرة إلى موسكو قد تكاثرت فيه الثلوج.. وأن هذا الطريق لم يكن مستقيما طول الوقت، وأعرف أن السياسة ليست فيها خطوط مستقيمة.. ولكن فيها انكسارات حادة وانكسارات لينة..

فمنذ اللحظة الأولى لتولى سلطة الحكم فى مصر تأكد الروس أننى لست رجلهم فى مصر.. وإنما أنا رجل مصر أولا وأخيرا.. كما حاولت كثيرا أن أكون واضحا وأن أكون مفهوما، وأن

أؤكد لهم أنه من الطبيعي جدا أن يكون الإنسان وطنيا، وألا يكون منحازا للشرق أو للغرب، وأن أكون فقط منحازا لمصر.. تماما كما أن الروس لا ينحازون للغرب، وإنما هم منحازون لروسيا ومصالحها.. وكما أن الأمريكيان منحازون للغرب ولأمريكا أولا وأخيرا.

وكل هذه بديهيات، ولكن تعلمت فيما بعد، أن الدول الكبرى لها منطق، إذا حاولت الدول الصغرى أن تطبقه على نفسها، اعتبروا ذلك سفالة.. قالها دالاس، كما ذكرت من قبل. ولم يقلها الروس ولكنهم يفعلون ما هو أسوأ من ذلك، يرفضون هذه المعاني ويعادونها. وهذا واضح تماما في كل ما ذكرت..

ولما أصدرت قرارى برفع الحراسة في سنة ١٩٧٠ اعتبر الروس هذا القرار «ردة» أو «انحرافا» أو نوعا من «التحريف» - على حد تعبيرهم المشهور - أى إننا من «التحريفيين» فى تطبيق الاشتراكية.. وأدهشنى أن يكون ذلك موقفهم.. فهذا قرار مصرى لحاكم مصر لمصالح مصر فما دخلهم؟ ولكن رفع الظلم وتخفيف التوتر وأن يكون فى مصر من يملك أرضا أو بيتا أو يملك حريته أو يملك قراره، كل ذلك يعتبر كفرا بالاشتراكية وتحطيما لصنم «الاشتراكية»..

ثم جاءت ثورة ١٥ مايو سنة ١٩٧١... ومع أننى فى أول الأمر أعلنت أن هذه الثورة هى «تصحيح لمسار» ثورة يوليو.. وأن الذى فعلته على أرض مصر، هو ما يفعله السوفيت والأمريكان فى السماء.. عندما يصححون مسار سفن الفضاء.. وتصحيح المسار ليس نفسا لسفن الفضاء.. وإنما هو إبقاء عليها فى إطارها الصحيح حتى لا تقلت من أيدينا إلى الفضاء الخارجى.. أو إلى الفوضى الخارجية على القانون..

ولذلك صفيت مراكز القوى، واعتبروها غلطة لا تغتفر، فقد كان من مراكز القوى عدد من رجالهم، أى إننى «فقت» عيون رجالهم.. ثم أنهيت تأمرهم على مصر من أجل السوفيت، واعتبروا ذلك قرارا معاديا لهم..

وبعد ذلك حاول الشيوعيون قلب نظام الحكم فى السودان، وكان لا بد أن أقف مع الثورة السودانية ضد التخريب الشيوعى فى يوليو ١٩٧١، فالسودان هى مصر ومصر هى السودان، ولا أسمح ولن أسمح مستقبلا أن تكون الشيوعية على حدودنا الجنوبية.. فلا أنا شيوعى، ولن أكون.. لأننى لست عميلا لروسيا، ولن أسمح بالعمالة لها فى مصر.

وبعد ذلك أصدرت قرار طرد الخبراء السوفيت من مصر سنة ١٩٧٢، وكان ذلك القرار نتيجة لمقدمات طويلة أرهقتنى عقلا وجسما وقلبا، وأهانت شعبنا ومرغت كرامته فى الطين.

ولو أنك أعطيت أذنك لرجالنا من الضباط لسمعت العجب عن الذى فعله الخبراء بهم، إن أقل كلمة يمكن أن تصف ما لاقاه ضباطنا على أيدي الخبراء السوفيت هي: الذل والهوان.. أو الهوان الذليل أو الذل المهين.. وكان هذا القرار من وحى مسئوليتي فهو قرار مصرى تماما، ولكن الروس كعادتهم فى الشك وسوء الظن، تصوروا أنه قرار أمريكى مصرى، أو قرار أمريكى فقط.. ولكن هذا لا يهم..

وجاءت الحرب وانتصرونا فيها، وساء لهم ذلك، وحاولوا تعويقها، وإخراجنا منها، والكذب علينا لعلنا نوقفها، وعطلوا إرسال الإمدادات. ثم وصل كيسنجر إلى القاهرة، وكان وصوله تتويجا لكل سوء النية الذى أقام عليه السوفيت فهمهم لمصر.. وقبل أن يصل كيسنجر وزير خارجية أمريكا إلينا فى نوفمبر ١٩٧٣ كنا نواجه أمريكا فى سيناء، فقد نزلت أمريكا بأسلحتها المتطورة، وكان علينا أن نكون عقلاء أو انتحاريين، واخترنا العقل عندما أوقفنا القتال مع أمريكا..

وبعد ذلك دخلنا فى مواجهة مستمرة مع أمريكا عن طريق لقاءاتى مع د. هنرى كيسنجر فهو طراز جديد من وزراء الخارجية الأمريكية. ولذلك كان أسلوبه فى النقاش والحوار والوصول إلى شئء مؤكد على طريق السلام، مختلفا تماما..

وبالنظر إلى الطريق الممتد المتكسر بيننا وبين موسكو نجد أننا نمد أيدينا ونحاول وننتظر ولكن - ويجب أن أضع ألف «ولكن» - لا أجد بصيصا من النور فى هذا الضباب الكثيف.. أو لا أجد موطئ قدم على هذه الأرض الجليدية البيضاء.

ولو كان الطريق إلى موسكو ذهابا وإيابا نزهة، ما ترددت أن أفعل ذلك فما أشد حاجة الإنسان إلى الراحة والتغيير.. ولكن هذا الطريق هو شريان حياة.. أو قصبة هوائية..

وكل الذى حاولت أن أفعله، وأعترف بذلك، أننى أردت أن أجعل الطريق إلى موسكو طريقا إلى حياة.. ولكن الروس يريدون أن يجعلوا هذا الطريق: الحياة.. أى لا حياة لى بغيره.. كأننى جنين.. وكأن هذا الطريق هو «الحبل السرى» الذى أعيش منه وبه وعليه.. وهذا ما رفضته منذ البداية.. رفضت الاعتماد المطلق على روسيا.. رفضت تسليم إرادتى وقراراتى وبلدى لأى أحد.. فلا أنا أفلحت فى إقناعهم، ولا هم أفلحوا.

وجاءت الأحداث بعد ذلك، تؤكد صدق رؤيتى وخطأهم.. ولكنهم لا يعترفون بخطئهم، لأن لهم هدفا آخر، ولأن لديهم مخططا جاهزا. هذا المخطط يستهدف مصر والنظام فى

== وقف إطلاق النار ==

مصر ومستقبل المنطقة كلها.. ومن المؤكد أنني لست «رجلهم».. وإنما أنا رجل مصر، وهذا قدر وشرف..

وسوف يؤكد التاريخ صدق ما أقول.. وسوف يوضح التاريخ ما يخبئون لمصر ولغيرها من الدول العربية والدول الأفريقية..

وبعد ساعة واحدة من لقائي بهنري كيسنجر قلت لنفسى: أخيرا جاءنا من أمريكا رجل يمكن أن أثق به وأعتمد عليه.. وإنه هو الرجل الذى يقدر على فعل شيء، لأنه قد درس كل شيء. وأهم شيء درسه هو «البعد النفسى» لهذه القضية المعقدة بيننا وبين اليهود.

ومع رحلات المكوك التى قام بها كيسنجر بيننا وبين إسرائيل بدأت سياسة حركت الموقف، وحركت السوفيت ضد الموقف كله، وضد مصر..



١ - الجنود المصريون
أثناء العبور .



٢ - فرحة النصر على
وجوه الجنود المصريين .





٣ - موسى ديان وزير
الدفاع الإسرائيلي بعد
هزيمته في حرب ١٩٧٣ .



٤ - جولدا مائير حاولت
إنقاذ موسى ديان عندما
أعلنت مسؤوليتها عن
أخطاء كل الأجهزة في
تقدير استعدادات مصر
للحرب.



٥ - الرئيس الجزائري
هواري بومدين والرئيس
السادات .

كيسنجر وزير فوق العادة



- حماقة دالاس كانت سببا مباشرا لسوء العلاقات المصرية الأمريكية.
- جولدا مائير تعطى روجرز درسا أخلاقيا وتتسبب فى طرده من الوزارة.
- مارتنيخ يعترف: كثرة النجاح أرهقتنى كما أرهقتنى كثرة المصائب.
- توازن الرعب؛ سياسة أمريكا فى التعامل مع دول العالم.

لأبد أن هذه الفترة التي نعيشها بعد حرب أكتوبر كنز للمؤرخين. ففيها أطراف ومحاولات كثيرة لحل الموقف أو تعقيده.

فهى قضية متعددة الخيوط. وكل جوانبها قابلة للالتهاب فى أية لحظة، ليبدأ كل شىء من جديد. وربما كان عيب المؤرخين أنهم متشائمون لانهم ينظرون إلى الجانب الأسود الدامى من هذه الصورة. ولا تلفتهم إنجازات كثيرة تمت على مهل وفى هدوء.. وأتذكر عبارة للمؤرخ الأمريكى المشهور ول ديورانت يقول فيها: إن التاريخ نهر له ضفتان. وفى مجرى النهر تطفو جثث وتتعالى صيحات ونار ودخان ودموع.. وينظر المؤرخون إلى مجرى النهر.. وينسون أنه على الضفتين قامت مزارع ومصانع ومدارس ومتاحف.

ولكن الإنسان عندما يكون فى قلب الأحداث، أو فى مصنع الأحداث. لا يرى ما حوله بوضوح.. لا يدرك إن كان يحرك الأشياء أو يتحرك معها..

وكيسنجر هو الذى قال: إن الحاكم هو الذى يجلس أمام عجلة قيادة فى سيارة اسمها التاريخ.. فهو يحرك ويتحرك معا.. وكيسنجر أيضا هو الذى قال فى واحد من كتبه: إن السياسى هو أحد أدوات القدر..

ولكن عيب هذا رأى الأخير أنه مجرد السياسى أو الحاكم من صفات شخصيته ومن صفات شعبه وظروفه ومن التاريخ العام للجميع.. ومن المناسب أن أتوقف بعض الوقت عند هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والشرق العربى والعالم كله..

وأعود - كما هى عادتى دائما- أتلفت ورائى. لأرى أين كنا؟.. وأين نحن؟.. وأين نذهب بعد ذلك؟.. ولا أدعى أنني أملك ناصية كل الأمور، ولا أحد يدعى ذلك..

وأول ما ألاحظ أنه فجأة قد تغير الممثلون على مسرح السياسة الأمريكية..

فبعد دالاس جاء روجرز وبعد روجرز جاء كيسنجر.. ومن مقارنة الثلاثة يبدو لنا كيسنجر أفضلهم جميعا. وأقدرهم على الفهم، وهو لذلك أقدرهم على أن يحقق النجاح.

وأرى أن روجرز كان سيء التقدير. أو على أحسن الاحتمالات كان ساذجا. فقد كان على يقين من أن إسرائيل سوف تقبل المبادرة التي تقدمت أنا بها. ولا أعرف على أي أساس أقام روجرز هذا اليقين. ولذلك لقي ما يستحقه من عقاب. فقد هاجمته السيدة جولدا مائير في الكنيسة. وظلت تطارده حتى طرده من وزارة الخارجية.. وقد أعطته درسا في الأدب أو في الأخلاق. وكان الدرس عنيفا. ولكن إذا كانت الساذجة جريمة في السياسة والدبلوماسية، فالكوارث هي العقوبة، وكان روجرز كارثة على نفسه.

ولم أجد في روجرز شيئا يبهر من يتحدث إليه. فلم يكن على درجة كثيرة من فهم القضية. ولذلك كان كالمحامى الذى ذهب إلى المحكمة ليترافع وليس فى يده دوسيه واحد، ولا هو قد أعد دفاعه عن الجانب الذى يمثله..

وفى قضايا التاريخ يكون القاضى أسرع فى اتخاذ القرار. والذى يريد أن يستوقف التاريخ، يدوسه التاريخ.. وقد داسته الأحداث. وقيل روجرز كان دين رسك. وقد دعانى فى سنة ١٩٦٦ لزيارة أمريكا. وجلست معه كثيرا وطويلا. ولكن لاحظت أن الرجل قد أراح نفسه تماما، فلم يشأ أن يدخل معى فى صلب الموضوع. بل كان يتفادى الدخول بعبارة غامضة. أو بنكتة. أو بتحويل اهتمامى إلى أى شىء آخر..

وظننت أول الأمر أن الرجل ليس مفوضا فى أى يقاوضنى أو يناقشنى. أو أنه لم يدرس القضية تماما. أى إنه ليس مستعدا لذلك. غير أنى عرفت فيما بعد أن الرجل على صلة عميقة باليهود. وأنه قد اتخذ جانب إسرائيل. وأنه لذلك لم يشأ أن يفتح حوارا منبدا معى.. فإسرائيل لم تفوضه فى ذلك.. وقد اعترف بذلك ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل. ومنذ ذلك أن صمت دين رسك لم يكن تفاديا لموقف، بل كان موقفا محددًا.

وهذان الرجلان رسك وروجرز يدخلان التاريخ من باب ضيق. لأنهما من الوزن المتوسط أو دون المتوسط.. فلم يكن من الممكن أن نتوقع معهما أو على يديهما شيئا يحرك القضية أو يساعد على تحريكها أو حلها..

وفى الدبلوماسية الأمريكية سوف يخصصون صفحات طويلة لرجل يعتبرونه قمة الدبلوماسية هو: فوستر دالاس. فهذا الرجل قد تخصص فى دراسة القانون الدولى. تعلم فى جامعات أمريكا وفى جامعة السوربون الفرنسية. وكان ضمن الوفد الأمريكى فى مؤتمر الصلح فى فرساي.. واشتغل بالمحاماة والدراسات الدولية حتى اختاره ايزنهاور سنة ١٩٥٣ وزيرا للخارجية.

وبهذا الرجل دالاس اتخذت أمريكا سياسة تقوم على العنف، أو على التهديد بالعنف. فقد كانت أمريكا أقوى دولة في العالم فجرت نواة اليورانيوم والهيدروجين والكوبالت.. وكان أسلوبه في السياسة الخارجية إظهار أنياب ومخالب أمريكا. فلا يجرؤ أحد أن يتقدم خطوة ويحمل سلاحه ليحارب أمريكا أو يشعل حربا عالمية..

ومن عباراته المشهورة: إن قدرة أمريكا على الردع يجب أن تكون مكثفة حتى تمنع قيام الحرب بأي شكل من الأشكال.. وقال أيضا وترددت عباراته في الدنيا فملأتها فزعا ورعبا: إن قدرتنا على الوصول إلى حافة الحرب دون التورط فيها، لهي قمة الفن السياسي.. وإذا نحن لم نتفوق في هذا الفن، فسوف ندخل الحرب لا محالة. وإذا حاولنا أن نهرب منها، أو نخوفنا من الإقدام عليها، كان مصيرنا الضياع.

ومعنى ذلك أن دالاس يخيف روسيا وأمريكا في نفس الوقت.. ويخيف بقية دول العالم.. ومعنى عبارات دالاس: إننا إذا لم نقم بتخويف العالم كله باشتعال الحرب، أو إذا ترددنا في ذلك، فسوف تقع الحرب لا محالة. أي لا سبيل للوقاية من الحرب سوى التهديد بها.. أي سوى أن يهدد هو العالم كله بذلك.. وقد وصفت سياسته بأنها سياسة (توازن الرعب). وربما كان تشرشل هو أول من استخدم هذا التعبير بعد أن أطلقت أمريكا قنبليتها الذرية على اليابان.. فأشار إلى أن السوفيت إذا حصلوا على القنبلة الذرية، فسوف تتعادل قوى الرعب النووي في العالم كله.

وهذا الرجل - دالاس - هو المسئول الأول عن سوء فهم مصر أو تسوء العلاقات المصرية الأمريكية. فكان من حماقة هذا الرجل أن هاجم سياسة عدم الانحياز. أي هاجم العالم الثالث كله. فهو يرى أن الدول الصغيرة أو الدول كلها يجب أن تقف شرقا أو غربا. أما إذا وقفت بين الشرق والغرب، فهذه بسفالة أخلاقية، وهو رجل متشدد ومتزمت. ولذلك لا يفهم أن يكون الإنسان وطنيا قوميا لا هو مع الشرق ولا مع الغرب.. أي لا يجرى ويدوخ في الفلك الروسى، ولا يجرى في الفلك الأمريكى..

ولعلنى كنت أشير إلى هذا عندما تحدثت في الكونجرس الأمريكى قائلا: إننى جئت إليكم كصديق.. لا كحليف.. وفرق كبير بين أن يكون الإنسان صديقا وبين أن يكون حليفا..

فبين الأصدقاء كثير من العتاب والمصارحة، وليس من الضروري أن يتفق الأصدقاء في كل رأى أو أن يتحدوا في كل موقف. أما الحليف فهو ذلك المنحاز تماما.. أى الذى أعارهم

عينيه، فلا يرى بهما. وأعطاهم أذنيه فلا يسمع بهما.. إنما هم الذى يرون له ويسمعون له ويفكرون له ويدبرون فى النهاية..

ولذلك لم يفلح دالاس فى أن يفهم الكثير من القضايا الدولية، والقضية المصرية والعربية أما الخطأ فليس فى أن هذا الرجل عاجز عن الفهم. ولكن فى أن نقطة البداية، هى فى نفس الوقت هى نقطة الخلاف.. أى هو يبدأ الطريق معك بأن يتجه إلى وجهة أخرى.. ومعنى ذلك أنه لا يمضى وقت طويل على السير معه حتى يكون كل واحد فى طريق.. وحتى يغيب كل من يمضى معه عن عينيه وعن أذنيه.. وسوف يهتم المؤرخون الأمريكيان كثيرا بهذا الأثر البليغ الذى تركه دالاس فى السياسة الأمريكية وفى السياسة العالمية. وإذا كان الأمريكان قد كسبوا كثيرا من العصا الطويلة التى كان يلوح بها دالاس فى الشرق والغرب، فإن هذه العصا قد ألفت ظلا كثيفا على كثير من المشاكل، فغابت عن أمريكا، أو غابت عنها أمريكا..

وبسبب دالاس ووزراء آخرين غيره، ظهر كيسنجر طرازا مختلفا من الساسة الأمريكان صحيح أن مسرح الأحداث قد تغير تماما.

وتقاربت القوى العظمى فى عالم الذرة وفى عالم الفضاء. فروسيا قد أطلقت أول قمر صناعى سنة ١٩٥٧. ولحققتها أمريكا.. ثم تتابعت الدولتان فى السباق الرهيب نحو الكواكب الأخرى. وأنزلت أمريكا أول إنسان على القمر.. وأطلقت سفنا أخرى إلى المريخ والزهرة.. تعادلت القوتان العظميان. وإن كانت التكنولوجيا الأمريكية أكثر تفوقا.. وكان من الضرورى أن يختلف أسلوب كيسنجر عن أسلوب دالاس فى التلويح بالرعب.. أو التلويح بالتعاضد فى ظل الرعب.. أو فى التوفيق أو الوفاق بين الدولتين (الأعظم والأقوى) على نحو ما كان فى القرن التاسع عشر بين روسيا وفرنسا.. أو بين فرنسا وبريطانيا فالتاريخ يعيد نفسه بشكل ما..

وسوف يتناول المؤرخون عندنا خطوات كيسنجر ويتوقفون عندها طويلا وعميقا، فقد دخل هذا الرجل فى قلب المشكلة العربية اليهودية. دخلها قبل أن يجيء إلينا. ودرسها وتعمقها تماما. وقد ساعده فى ذلك أنه تخصص فى السياسة الدولية. أو فى الاستراتيجية الدولية. والأمن القومى.

وقد اختلف كيسنجر منذ البداية مع السياسة التى سادت الفكر الأمريكى: أى سياسة حافة الهاوية.. أو حافة الحرب.. وقد صدرت لكيسنجر كتب عميقة. وإن لم يكن من السهل قراءتها.. أى ليس من السهل على الذى لم يتمرس فى السياسة، ويسبح فى المياه الدولية بمشاكلها ومتاعبها وانفجاراتها أن يستمتع بها.

فله كتاب عن «الأسلحة النووية والسياسة الخارجية». هذا الكتاب كان من أكثر الكتب انتشارا عند ظهوره في سنة ١٩٥٧. ولكن.. كان من أقل الكتب شعبية في ذلك الوقت أيضا.. وفي هذا الكتاب جاهر بعدائه الشديد لسياسة «الردع المكشوف» التي نادى بها دالاس.. وصدر لكيسنجر كتاب آخر اسمه «ضرورة الاختيار» في سنة ١٩٦٠. وقد تأثر به الرئيس كينيدي كثيرا.

ومن أهم كتب كيسنجر وأمتعها أيضا كتاب عن توازن القوى في أوائل القرن التاسع عشر. تناول فيه اثنين من ألمع الساسة في ذلك الوقت هما: مترنيخ الوزير النمساوي وكاسلري الوزير البريطاني في عصر نابليون. والكتاب عنوانه «عالم أعيد ترتيبه - مترنيخ وكاسلري ومشاكل السلام ١٨١٢-١٨٢٢». وهذا الكتاب لا بد أن تكون له أهمية خاصة. لأن له دلالة خاصة عند كيسنجر نفسه، الذي له دور إيجابي عندنا بسبب ما قام به من خطوات قبل وأثناء وبعد حرب أكتوبر ومحاولات تحقيق السلام بعد ذلك.

وقد لاحظ كثيرون من المتخصصين أن كيسنجر قد اتخذ له مثلا أعلى ذلك الرجل النمساوي مترنيخ الذي استطاع أن يتحكم في السياسة الدولية في أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر. وأن يقف بين قيصر روسيا الكسندر وامبراطور فرنسا نابليون.. وبين النمسا نفسها وبروسيا.. وأن يحاول أن يحقق توازن القوى. وأن ينشر السلام بشكل ما..

وقد أعجب كيسنجر بهذا الرجل إعجابا شديدا، حتى ليقال: إنه يطبق بالحرف ما فعله مترنيخ.. وهذه العبارة مبالغ فيها، لأن التاريخ إذا كرر نفسه فإنه لا يعيد نفسه بالضبط.. وإذا حاولت - الآن - أن أقلب في بعض الكتب وأرجع إلى سطور معينة اخترتها فإنني أمارس عادة قديمة لأنني أحب التاريخ وأطيل النظر في صفحاته، وأطيل السمع لصوت عجلاته قديما وحديثا..

وما دمت أتحدث عن دور كيسنجر في المنطقة، وهو الدور الذي أغضب السوفيت حتى اليوم، فسوف أتوقف عند بعض العبارات الكثيرة جدا التي بهرت كيسنجر. لتكون هذه العبارات خطوطا من معالم الصورة التي أرسمها لكيسنجر أو لدور كيسنجر في فهم القضية. وأرى أن هذه خطوة ضرورية.. لأن (العامل النفسي) كما ذكرت كان شرطا (هاما) للنجاح.. أي لا بد من دراسة نفسية أطراف النزاع لتكون وسيلة لإضاءة جوانب هذه القضية المعقدة.. ولذلك سوف أستعين بشخصية مترنيخ على فهم كيسنجر، وأستعين بفهم شخصية كيسنجر على فهم خطواته ومحاولاته التي أدت في النهاية إلى إعجابي به وصادقتي له...

مثلا يقول مترنيخ: إن السياسة مثل أية مسرحية، إذا ارتفع الستار بدأ التمثيل، لا محالة. وإذا حاول إنسان أن يوقف التمثيل بعد ارتفاع الستار كان إنسانا مخبولا، لأن التمثيل سوف يمضى فى طريقه، سواء بالمثلين أنفسهم، أم بالمتفرجين الذين سوف يصعدون على خشبة المسرح.. والأذكىاء لا ينظرون إلى ذلك على أنه جوهر المشكلة. فالمشكلة قد بدأت قبل ذلك: هل نفتح الستار أصلا؟ هل يكون هناك متفرجون؟ هل لهذه المسرحية أية قيمة فنية؟.

ويقول أيضا: لقد تعلمت شعوب أوروبا فى العشرين عاما الماضية أهمية حجم القوات العسكرية، ومعنى الحرب والدمار. لذلك لا يمكن خداعها فيما يتعلق بالنتائج المحتملة للأحداث الأخيرة.

وعندما يتحدث مترنيخ عن النمسا، ذلك البلد الصغير الواقع بين روسيا فى الشرق وفرنسا فى الغرب يقول: ليس أمام الدولة الصغيرة إلا المفاوضة. إنها وسيلتنا الوحيدة للبقاء. فإذا تفاوضنا وانهارت علينا الضربات، وجب علينا أن نبتسم أثناء ذلك. إنها لعبة الصبر.. ونابليون يعتمد على أن له جيوشا قوية، وأنا أعتمد على أن أؤكد له دائما أنه ليس قويا إلى هذه الدرجة!.

ويقول كيسنجر عن مترنيخ: لقد كان يعتمد على «سيولة» الموقف. أى يجب أن يكون النهر سائلا بلا جليد، ذهابا وإيابا..

ولو عدت إلى العنوان الفرعى لهذه المذكرات لوجدت أننى اخترت عن عمد: الجليد يذوب بين موسكو والقاهرة ولم أقل الجليد لا يذوب - مع أن هذه هى الحقيقة - وكان أملى: لعله يذوب. ولكن لاحظت، أن الجليد بقدرة قادر تحول إلى حديد لا يذوب.. حتى أصبح الحديد والجليد شيئا واحدا. إنه الحديد البارد. فأنا منذ وليت الحكم وأنا أدق حديدا باردا ممتدا بين موسكو والقاهرة، فلا هو يلين ولا هو يذوب.

وكل ما حرصت على أن أقوم به هو أن أنفض الجليد عن الحديد.. فلم أستطع، ولا ساعدونى، أن أذيب الحديد أو الجليد، فتكون هذه «السيولة» التى ينشدها مترنيخ والتى حرص عليها كيسنجر بعد ذلك بقرن ونصف قرن..

ومما كتبه مترنيخ واستحق فعلا إعجاب كيسنجر بعد ذلك قوله: أن يقود الإنسان سفينة حطمتها العواصف عشرين عاما، وسط الأمواج والصخور وألوف العقبات والضغوط وأن يتجه بها إلى عرض البحر، لهى قدرة هائلة ليست متاحة للكثيرين فى هذه الدنيا..

وقد علق كيسنجر على ذلك بقوله: ولكن أثبت مترنيخ بعد ذلك أن قيادة سفينة في بحر هادئ أصعب من قيادتها في بحر هائج. فأمام هياج البحر تتولد قدرات الإبداع والإصرار في أعماق الإنسان، وهو يدافع عن حرصه على البقاء!.

ويقول مترنيخ أيضا: إن كثرة النجاح أرهقتني، كما أرهقتني كثرة المصائب!.

وعندما يتحدث مترنيخ عن أصدقائه وعن العلاقات التي بين الناس تجد فيه نبرة الأسى والحزن والتشاؤم أيضا. يقول: أشعر أنني وسط نسيج العنكبوت وليس أصدقائي إلا مجموعة من العناكب إلى جوارى. أحبهم. ولكن يجب أن نبقي معا في هذا النسيج. إن هذا النسيج له شكل جميل. ولكنه في نفس الوقت مجموعة من الخيوط الأنيقة الواهية. هذه الخيوط تمد أشعة الشمس، ولا تقوى على صد الريح.

«ولكننا جميعا ارتضينا شروط الصداقة، أو شروط لعبة الصداقة. ولذلك فلم أتوقع أن ينسف الأصدقاء خيوط العنكبوت، في لحظة من لحظات الغضب... لأننا جميعا قد تمسكنا بشروط اللعبة!». أما أسباب عبقرية مترنيخ في نظر عاشقه كيسنجر فهي: أن لديه قدرة هائلة على فهم جوهر أية قضية أو أي موقف. وهذا الفهم يجعله قادرا على الحركة. وإذا تحرك اتجه إلى خصومه ليتغلب عليهم واحدا واحدا. يقول مترنيخ عن نفسه: كل إنسان يريد شيئا ما، دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن ذلك. ولكني أنا أعرف ما أريد، وأعرف ما يقدر عليه الآخرون وما يعجزون عنه أيضا. ولذلك فأنا جاهز دائما لكل موقف. يقول كيسنجر: إن هذه العبارة هي قمة الغرور والثقة بالنفس، ولكنها صحيحة تنطبق عليه في كل الظروف والمواقف المعقدة الصعبة.. ويقول كيسنجر: أن هذا الرجل قد نجح لا لأنه كان مقنعا في المناقشة، ولكن لأنه كان مقنعا ومقحما أيضا.

وهذا الرجل مترنيخ يؤكد دائما أنه شخصية لا تتكرر. بل تتشابه مع شخصيات أخرى في التاريخ. لأن التاريخ له دوائر أو له قواعد وإذا تكررت أحداثه فإنها لا تتطابق تماما..

ولذلك يقول مترنيخ ويؤيده كيسنجر: إن الشعوب كالأفراد ينسون تجاربهم. كأن تجاربهم علمتهم ألا يتعلموا. أو كأن التاريخ علمهم ألا يتعلموا منه شيئا.

ويقول أيضا: إن حوادث التاريخ تتكرر، ولكن ليست بنفس الشكل والحجم. فالإنسان إذا رأى فيلا لأول مرة، فإنه لا يدري ما هذا الحيوان الذي أمامه.. إلا إذا كان قد رأى صورة

لهذا الحيوان. فى هذه الحالة فقط تصبح الصورة تجربة، ويصبح الفيل نفسه حقيقة انطبقت عليها التجربة..

ويقول: وكلمة «فيل» لا تدل على كل صفات هذا الحيوان. تماما كما أن قانون الجاذبية الذى اكتشفه نيوتن عندما رأى التفاح يسقط من الشجر على الأرض، هذا القانون لا يدل على صفات التفاح أو خصائصه.. إنما يدل هذا القانون على علاقة بين كل الأشياء التى تسقط بين الأرض التى تسقط عليها.. ونفس الشيء يمكن أن يقال فى التاريخ: فنانليون ليس بالضبط هتلر.. كما أن كاسلرى ليس بالضبط تشرشل.. وإنما التشابه بينهم جميعا فى المشاكل والظروف التى يواجهونها..

وكذلك كيسنجر ليس بالضبط مترنيخ.. وإنما هناك تشابه بين الرجلين. وأمل كل منهما أن يحقق توازن القوى. وأن يكون هذا التوازن عن فهم وعن ديناميكية.. أى عن حركة حتى لا تتجمد الأنهار بين الأطراف المختلفة.. ومن براعة كيسنجر أنه عرف بالضبط هذا الخلاف العنيف الطويل بين العرب وبين اليهود. وربما احتتمى كيسنجر فى أنه يهودى.. أو تذرع بأنه يهودى أمريكى ألمانى الأصل. وأنه بذلك يمكن الاطمئنان إليه. ولا يمكن التضحية به.

ولكنه لم يكتف بهذه الصفات التى يمكن أن تتوفر لكثيرين، بل اعتمد على ذكائه وصبره وفهمه.. ولذلك نجح كيسنجر فى أن يكون مستشارا للأمن القومى لخمسة من الرؤساء الأمريكان: ايزنهاور وكينيدي وجونسون ونيكسون وفورد.. واستطاع أن يكون الرجل الثانى فى أمريكا عندما أصبح وزيرا لخارجية نيكسون وفورد من بعده.. ولم يحدث فى تاريخ أمريكا أن ارتفع مهاجر فى مثل هذا الوقت القصير - أى منذ سنة ١٩٣٨ - فأصبح فى مثل هذا المكان الرفيع..

ومن العبارات ذات الدلالة على شخصية كيسنجر أنه كثيرا ما كان يقول: ليس فى نية أمريكا أن تشتري سلاحا زائفا على حساب أصدقائنا. فالولايات المتحدة لن تضحي، وهى تعلم، بمصالح الآخرين. كما أن المصالح المشتركة ليست حقيقة ثابتة جامدة.. إن المصالح فى حاجة إلى تعريف وتحجيم مستمر..

ومن المصادفات الغريبة فى حياتى، أن أجد فى كراسة مختومة كل صفحاتها بخاتم السجن وبتاريخ يوم ٢١ / ١٠ / ١٩٤٧ عبارة لمترنيخ. هذه العبارة بالإنجليزية. احتفظت بها كما هى..

وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف أين أنا، ولا ما هو طريقى، ولا كيف ينتهى بى القدر.. ولا أحد يستطيع، مهما أوتى من بصيرة أو قدرة على الخيال، أن يتصور ما الذى سوف أكون عليه بعد ثلاثين عاما.. أو حتى بعد خمس سنوات من كتابة هذه السطور.

تقول السطور الغريبة العجيبة: إننى أملك الآن الكثير من الثراء والشباب والصحة والمجد والقوة والحب، ولو وصفت اليوم نفسى بأننى سعيد، فإنما يرجع ذلك إلى المواهب التى منحنى القدر إياها.. ولكن هذه المواهب علمتنى أيضا أن أرفع عينى إلى ما هو أسمى من السعادة..

وإذا كانت هذه الرحلات الرائعة التى قمت بها قد أتت لى بالسلام الذى أنشده والسعادة التى أتمناها، فسبب ذلك فقط أن هذه الرحلات قد علمتنى كثيرا.. وإن كانت الرحلات فى حد ذاتها ليست هى مصدر سعادتى وسلامى. وأنا أعرف اليوم جيدا، أننى لوتجملت بالحكمة بعض الأشياء، لاستمتعت بحياتى، دون حاجة إلى أن يساعدنى القدر.. «وأعرف اليوم أننى أكثر سعادة من الأمس، لأننى تعلمت على الأقل، أننى لم أعد فى حاجة إلى مزيد من الحظ لكى تتحرر روحى وينشرح للندى صدرى..» وكان شيئا مذهشا حقا أن يتصور الإنسان فى الزنانة رقم ٤ أنه يمكن أن يتجاوز قيود الزنانة وأن يرتفع فوقها ويشعر براحة النفس.. وما من شك فى أن رغبات الإنسان هى زنانة تتحكم فى حركاته.

غير أن العقل وتجارب السنين والبساطة والقناعة هى التى تجعل الإنسان أكبر من ظروفه، وأخف وزنا، لأنه قد تحلل من قيود رغباته. وكل رغبة هى قيد وهى عبء. والرغبات قيود من حديد وزنانة من الحجارة الباردة والظلام الداكن والصمت الرهيب.. أو لعل وجدت فى مثل هذه الكلمات نوعا من التعزية أو نوعا من التعويض.. أو المواساة.. ولا أعرف كيف عثرت على هذه العبارة، ولا كيف ساقها القدر فى طريقى، لكى التقطها وأسجلها واحتفظ بها حتى اليوم؟! وفى حياتى مصادفات كثيرة مثل ذلك..

ولكن أليس من المصدف العجيبة أن يجىء إلى مصر رجل مثل كيسنجر يحاول فك خيوط قضية شديدة التعقيد وأن يكتسب اطمئنان الأطراف المتنازعة. وعن طريق هذه الطمأنينة ذهابا وإيابا، استطاع أن يحرك الشرق الأوسط؟!!

والذين تحمسوا لكيسنجر، كانوا ينظرون إلى ماضيه القريب. وكيف أنه حاول، ونجح إلى حد كبير، فى أن يحقق الوفاق بين أمريكا وروسيا.. وبين الصين وأمريكا.. وأن يقوم بحصر

== كيسنجر وزير فوق العادة ==

الحرب في فيتنام، وأن يسحب القوات الأمريكية وينقذ أمريكا من كارثة قومية، وتمزق عميق في داخلها.. وأن يتقاسم جائزة نوبل للسلام مع المفاوض الفيتنامي في باريس.. وعندما جاء كيسنجر إلى الشرق الأوسط كانت قد سبقته إنجازاته الهائلة. وطموحه في أن ينبع السلام من داخل المنطقة. ولذلك لم يتقدم بمشروع، بل كانت لديه أفكار.. أو اقتراحات أو اجتهادات.

ومع كل خطوة تقدم بها كيسنجر، تأخرنا خطوات في علاقاتنا بالسوفيت.. ولا نزال..

□□□

١ - الرئيس السادات مع
هنري كيسنجر .



٣ - فوستر دالاس .



٢ - وليم روجرز .



٤ - مترنيخ الوزير النمساوي

الجليد يذوب بين مصر وأمريكا



- الاتحاد السوفيتى يؤلب الدول العربية
على مصر..
- إسماعيل فهمى يعلن فشل مفاوضات
فك الاشتباك الثانى.
- هنرى كيسنجر رجل لا يعرف اليأس.
- السادات يعلن انتهاء أسلوب الخطوة خطوة
أسلوبا للحل.
- وفاة المشير أحمد إسماعيل فى لندن.
- السوفيت يقدمون لمصر مفاجأة كبرى!

أما ملاحظاتي على د. كيسنجر فهي أنه رجل قد درس التاريخ وأطال فيه النظر. وقلبه وتقلب عليه أيضا. وربط بين الدراسة والسياسة، بين كتب التاريخ وأحداث التاريخ، ولذلك لم أجد صعوبة في فهمه. فأنا - كما قلت - مولع بدراسة التاريخ وملاحظة أخرى على د. كيسنجر.. أن له نظرة شاملة. فهو قد درس القضية من جميع نواحيها.

ومن المألوف أن يقول الإنسان: إن التركيز على شيء يجعله واضحا. إلا في السياسة.. فإن النظرة الواسعة الشاملة هي التي تجعل القضية أوضح. ولذلك فقد أحسست بعد ساعة من النقاش والحوار أننا متفاهمان.. أو على الأصح من الممكن أن نتفاهم.

وليس معنى ذلك أن وجهة نظري مطابقة لوجهة نظره. ولكن الذي أقصده أن لغة الحوار واحدة. وأن الأرضية التي وضعنا عليها قضية الشرق الأوسط واحدة. فأنا أستريح إلى التفسير العلمي. ورأى أوضح إذا كانت الرقعة أو الخريطة التي أمامنا واسعة متعددة الأطراف والجوانب.. ومثل هذه النظرة إلى الأمور تجعل اهتمام صاحبها بالقضايا الكبرى في المقام الأول. وتجعل الاهتمام بالجزئيات شيئا ثانويا. ولذلك عندما أعكف على مثل هذه القضايا، فإنني لا أحب أن أدخل في تفاصيل جانبية، أو خلافا فرعية.. فأنا أريد أن أرى أوضح. وهذا يعني أن أرى أشمل.

وقد اختلفت مع د. كيسنجر كثيراً. ولكن هذا الاختلاف تحول بسرعة إلى نقط للوثوب إلى مجالات أخرى للتفاهم. فكل نقطة معقدة يمكن بالمناقشة ورؤية وجهات النظر الأخرى، أن تكون نقطة للالتقاء.

وملاحظة ثالثة: أن هذا الرجل كان صبورا. وأنا رجل صبور، ومصدر صبره هو الواقعية أو هو الموضوعية، أو هو «البعد النفسي» الذي أدركه بوضوح، فنحن واليهود على خلاف شديد. والخلاف قديم. ونتائجه متراكمة. وليس من السهل حل العقد الكثيرة جداً التي بيننا. وإذا كان المثل يقول: إن قطع العقدة أسهل من حلها. فإنني أقول: إن هذا المثل ليس صحيحا في السياسة. فالعقد السياسية لا يسهل حلها. ولكن قطع المواصلات والاتصالات

والعلاقات ليس هو الطريقة المثلى لحل العقد.. وإنما الطريقة المثلى لتجاهلها وتفويت الوقت المناسب لحلها.

أمام مصدر الصبر الذى عندى، فهو خلاصة لنظرة واقعية وخلاصة للقدرة على التحمل وضبط النفس وأن الوقت يعمل لصالح الذى لا يخطئ كثيرا والذى لا يفعل والذى يرى أوضح! ومن الصعب أن يرى الإنسان أوضح إذا كان فى حالة غضب أو إذا كان متعجلا، أو إذا لم يدرس بما فيه الكفاية. ولذلك لم أشعر بالضيق فى مناقشاتي مع د. كيسنجر ولا أظن أنه هو شعر بذلك. وإنما أصابه اليأس من الأطراف الأخرى..

وملاحظة رابعة: أن د. كيسنجر قد اكتسب ثقة بالنفس هائلة.

ومثل هذه الثقة بالنفس أيضا هى التى صاحبت المقاتل المصرى والمفاوض المصرى.. بهذه الثقة بالنفس دخلنا حرب أكتوبر وخرجنا منها منتصرين. وهى أيضا التى شددت أزر المفاوض المصرى. ورجل الشارع المصرى الذى استقبل الرئيس نيكسون بعد ذلك بمنتهى الحماس والصدق، وبلا عقد من أن هذا رئيس أمريكا. إنما نظر رجل الشارع المصرى إلى الرئيس الأمريكى على أنه قادم من الدولة التى تستطيع واستطاعت أن تحل القضية. بهذا الشعور التلقائى استقبل الناس الرئيس نيكسون واستقبلوا وانتظروا وتوقعوا زيارات وزير خارجيته د. كيسنجر..

وتتوالى أحداث اللقاءات والمفاوضات عند الكيلو ١٠١ والنقاط الست التى جاءت فى خطاب بعث به د. كيسنجر إلى سكرتير الأمم المتحدة كاقترحات لوقف إطلاق النار وتثبيتته وضمانه.. ثم التحرك بعد ذلك من أجل تحقيق سلام على الجبهتين المصرية والسورية.. وجاء اليهود وخرقوا اتفاقية وقف إطلاق النار بعد ثلاث ساعات..

وأعادت مصر العلاقات مع أمريكا بعد فض لإشتباك الأول، فأمريكا هى القادرة على الحل، لأنها شريان حياة إسرائيل وهى التى استجابت لندائها لإنقاذها فى هذه الحرب. ثم نزلت أمريكا عشرة أيام فى المعركة ضدنا..

هذه هى الحقيقة. وقد أدركها الناس فى مصر بفطرة وواقعية وثقة بالنفس، وبلا لف ولا عقد ودون أن يملئوا رؤوسهم بعبارات فارغة تطالبهم ألا يتعاملوا مع الإمبريالية ومع المجرمين الأمريكان.. كيف يتجاهل أى إنسان سليم التفكير، دور أمريكا فى الشرق الأوسط؟ وفى أنها مصدر الحياة لإسرائيل، وهى لذلك القادرة على أن تحل؟ كيف؟

إن المواطن المصري لم يحتج إلى مجهود كبير لكى يدرك أهمية زيارة د. كيسنجر لمصر أو للمنطقة. بينما فى بلاد أخرى احتاجت الحكومات إلى أيام طويلة لتهيئة أذهان الناس لقبول زيارة د. كيسنجر. فلما طلب د. كيسنجر أن يجرى لزيارتي رحبت فوراً. وجاء د. كيسنجر لتقوم قيامة الاتحاد السوفيتى. ويحرك أشكالا وألوانا من الناس فى كل العالم العربى ضد مصر والقيادة المصرية. لماذا؟ لأن مصر اتصلت بالأمريكان. ولأن مصر تعتقد أن أمريكا هى القادرة على الحل ولأن مصر قد وافقت على أن يزورها وزير خارجية أمريكا النجم الصاعد فى السياسة الدولية: هنرى كيسنجر.

وعلى رغم ذلك فقد حرصنا على أن نظل على علاقة طيبة بالاتحاد السوفيتى. وبعد أن اتفقنا على النقاط الست التى تقدم بها كيسنجر أرسلنا ملخصا بكل ما حدث للاتحاد السوفيتى. وكانت النقاط الست تتلخص فى الإبقاء على وقف إطلاق النار، وبداية المحادثات والعودة إلى مواقع ٢٢ أكتوبر فى إطار فك الاشتباك وفصل القوات تحت إشراف الأمم المتحدة وأن تكون هناك نقط للمراقبة تابعة للأمم المتحدة على خط وقف إطلاق النار وبعد ذلك يتم الاتفاق على تسليم الأسرى والجرحى..

ولم يسترح السوفيت إلى شىء من هذا كله. صحيح أنهم فى ذلك الوقت لم يعلنوها صراحة. ولكن لم يقتهم أن يفعلوا ما هو أسوأ من ذلك. فقد حركوا علينا المنطقة. وتطاولت الاتهامات لمصر من الفلسطينيين والسوريين وغيرها .. لماذا؟

لأننا أخرجناهم - كما يقولون - من المحادثات والمفاوضات ومن التسوية لكل القضية. لأننا نتحرك دون علمهم، أو نتفق من وراء ظهورهم. ولذلك فالذى قامت به مصر هو: حل منفرد.. أو موقف تصفوى.. وأن مصر قررت أن تنسحب من الساحة العربية.. وأن مصر تنكرت لعروبتها.. وأنها انتكست إلى مصريتها وانطوت فى قوقعتها.. وأنها خانت أمانة الأمة العربية..

كل ذلك لأننا نحاول أن نحل القضية مع الطرف القادر على أن يفعل شيئا.

وشىء غريب أن يتصور أحد أن مصر تنفرد بالحل فى قضية «متعددة» الأطراف.. كيف يكون الحل مصرية لقضية عربية؟.. فالحل يجب أن يكون عربيا لأن القضية عربية. وقد أثبتت الأيام بعد ذلك صحة كل خطوة خطتها مصر. وأعلنتها فى حينها.. وكل ما أعلنته مصر بوضوح وشجاعة، هو الذى تبنته بعد ذلك أطراف أخرى.. فكان غلطة مصر هى أنها سبقت زمانها. لأنها رأت الصورة أوضح قبل أن يدركها الآخرون.

ولكن جريمة مصر فى نظر السوفيت قائمة ومستمرة أنها تتصرف دون إذن من موسكو أو دون اتفاق سابق على كل خطوة تخطوها. وهذا ما رفضته فى كل وقت، وفى كل الظروف وما سوف أرفضه اليوم وغدا. وما سوف أوصى به الأجيال من بعدى: أنه لا سيادة لأحد على مصر إلا مصر نفسها هذا ما فعلت وما تعذبت بسببه، ولن أندم عليه .. وإنما قد أضفت ذلك كله إلى رصيدى من راحة الضمير عندما ألتفت ورائى أنظر إلى ما قدمت لبلدى ولشعبى، مع عظيم الامتنان لله سبحانه وتعالى أن وهبنى القدرة على أن أكون خادما مخلصا لمصر. ومدافعا حتى الموت عن كرامتها!

ولكن السوفيت أشاعوا أن هناك «طبخة» سرية تقوم بها مصر.. هذه الطبخة هى اتفاقية سرية مع الأمريكان لحل الموقف على الجبهة المصرية.. ونجح السوفيت فى إحداث وقعة بيننا وبين سوريا الشقيقة. بدأت عندما قبلنا الذهاب إلى جنيف فى ٢١ ديسمبر ٧٣. ورفضت سوريا وقيل ما قيل والفضل يرجع إلى السوفيت فى إشاعة الفرقة بين الصفوف والتباعد بين القلوب.

وبدأت رحلات المكوك كيسنجر.. أى الرحلات بين العواصم العربية وتل أبيب ذهابا وإيابا. وتم الاتفاق على فض الاشتباك الأول. وتضاعفت غضبة السوفيت وتردد أصدائها فى الإذاعات والصحف. لماذا؟ لأننا وافقنا على مجيء كيسنجر. ووافقنا على فك الاشتباك مع أن فك الاشتباك ليس إلا تحريكا للموقف وليس هو الحل. بل إن فك الاشتباك لم يكن سوى اقتراح من أمريكا لفتح الطريق بعد أن وصلنا إلى نهاية مسدودة. حتى هذا الموقف الأمريكى لم يقبله السوفيت. وحرصوا قطاعات من العالم العربى ضد مصر.

وبعد توقيع فض الاشتباك الأول كنت فى أسوان وسافرت إلى البلاد العربية أشرح وأوضح تلك الجريمة التى ارتكبتها مصر .. إنها جريمة فى عينى السوفيت. وزرت فى رحلتى هذه إمارات ودول الخليج وشمال أفريقيا..

وحتى لا يزداد الموقف سوءا طلبت من إسماعيل فهمى أن يبعث بورقة مطولة إلى جروميكو يشرح له كل ما جرى، ولكن هذه الورقة لم تؤد إلى تغيير فى موقف السوفيت. بل على العكس من ذلك ازدادت حدة الحملات على مصر، حتى دخلنا فى مرحلة فك الاشتباك الأول على الجولان، الذى قام به د. كيسنجر أيضا. وعندما التقيت بالرئيس حافظ الأسد فى مؤتمر الجزائر حكيت للرئيس الأسد تفاصيل اتفاق فض الاشتباك على الجبهة المصرية.

ومن الغريب أن كل شيء قد تم كما قلت. وكما أعلنت ووضحت للشعب ولكل الأشقاء العرب وعلى أعلى المستويات. وهدفي واحد: أن أساعد في حل القضية.

وأسلوبى فى ذلك هو المصارحة والشجاعة والصدق، ولذلك لست فى حاجة إلى أن ألف أو أدور، أو أن أواجه الناس برأى وأخفى عنهم رأيا آخر.. لم يحدث ولن يحدث شيء من ذلك. وهذا معروف لكل الناس. وقد أعلنت فى ذلك أن كل ما أحاوله هو نزع الفتيل من الموقف المتفجر فى الشرق الأوسط. وأن هذا كله ليس حلا، وإنما هو طريق إلى حل، وأن الحل السياسى إذا لم يحقق شيئا فلا مفر من القوة، والعودة إلى أسوأ مما كنا عليه..

وطبيعى لم يسترح السوفيت إلى كل ما قلته فى البلاد العربية. وما نشرته الصحف وما أعلنه الزعماء العرب الذين اقتنعوا بالسيادة المصرية، وبضرورة أن تكون لمصر سيادة على قدرها.. حتى جاءت زيارة الرئيس نيكسون لمصر، وكان استقبال الشعب لهذا الرجل شيئا لا نظير له.. وخرج الشعب برجاله ونسائه وأطفاله جميعا لاستقبال الرئيس الأمريكى. وكان هذا الاستقبال مذهلا له، وللأمريكان وللعالم كله. كان شيئا خرافيا.. حتى هذا التعبير ليس من عندى. وإنما استخدمه الأمريكان.

ولعل نيكسون كان يرد على ما قاله السوفيت عندما قال: فى استطاعة أى أنسان أن يملأ الشوارع بهؤلاء الناس ولكنه ليس فى استطاعته أن يجعلهم يضحكون.. فقد أعلن السوفيت أن الناس لم يخرجوا من تلقاء أنفسهم. لأن الشعب يكره أمريكا ويكره نيكسون. وإنما الذى حشد الناس فى الشوارع هو الاتحاد الاشتراكى. ولو صح أن للاتحاد الاشتراكى هذه القوة على حشد كل الناس على إشعال الحرارة فيهم، وإطلاق السعادة على وجوههم، لكان أعظم تنظيم سياسى فى العالم كله.. وعلى ذلك يجب أن نعيده إلى ما كان عليه!

ولكن انشغلت أمريكا بعد ذلك بمشاكلها القومية العنيفة.. جاءت فضيحة ووترجيت التى أطاحت بالرئيس نيكسون.

وكان طبيعيا بعد هذا الاستقبال العظيم أن يعجل اليهود بنهاية نيكسون. فكان الفصل الأخير من فضيحة ووترجيت: هى التنصت على الحزب الآخر.. فاستقال نيكسون بعد ذلك فى نهاية ١٩٧٤.

ولم أتوقف عن محاولة مد الخطوط والمواصلات بينا وبين السوفيت، فأنا أعرف عقدهم. وأعرف الشك الذى هو أسلوبهم فى التفكير. وأعرف أن كل ما جرى فى مصر لا يمكن إصلاحه فى روسيا. ولكنى سأحاول، ولن أتوقف عن المحاولة.

فأرسلت اسماعيل فهمي إلى الاتحاد السوفيتي. وقابل برجنيف. وقبل ذلك كان اسماعيل فهمي قد أرسل تقريراً مفصلاً إلى جروميكو. وفي موسكو أصدر الاتحاد السوفيتي بياناً وافق فيه على فك الاشتباك الأول. ومعنى ذلك أننا لم نرتكب جريمة، وإنما كل ما حدث هو التباعد بين القوات المتحاربة. وموافقة الاتحاد السوفيتي على ذلك معناها، أننا لم نرتكب خيانة للعرب ولقضايا السلام ولم نقم بحل تصفوي وإلا فما وافق الاتحاد السوفيتي!

ولما تحدث إليهم اسماعيل فهمي كان يركز على نقطتين أولاً جدولة الديون. وثانياً تعويض الأسلحة التي فقدناها في الحرب وذلك بأن يبيع لنا الاتحاد السوفيتي أسلحة جديدة نعوض بها خسائرنا، تماماً كما فعل مع سوريا قبل ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣. وما بعد ذلك حتى وقت قريب جداً.

لكن السوفيت قدموا له مفاجأة كبرى. فقد أخبروه بأن برجنيف سوف يزور مصر في يناير سنة ١٩٧٥. ولما أرسل لي إسماعيل فهمي بهذا النبأ، أسعدني جداً. وأدركت أن المشاكل كلها في طريقها إلى الحل. وأن يكون عنده ما يقوله وما يفعله. فهو الرجل الأول في روسيا. ولذلك وجدت أنه من الأفضل أن نستغل الوقت. وأن نساعد على حل جميع المشاكل المتعلقة من جدولة الديون وصفقات السلاح المعقودة في سنة ١٩٧٣ والتي لم ترد إلينا حتى ذلك الوقت. ثم حدد موعد زيارة برجنيف لمصر في يومي ٧ و ٨ يناير.

ووجدت أن أمريكا غارقة في مشاكل الرئاسة الأمريكية ومصيبة ووترجيت. فقد ذهب الرئيس نيكسون وجاء من بعده الرئيس فورد. وهو في حاجة إلى وقت كي يرتب البيت ويمحو آثار ووترجيت. وهو محتاج إلى وقت لكي يرى ويفكر ويدبر. وعنده مشاكل داخلية ودولية.. كل ذلك سوف يجعل من الصعب عليه علينا، أن نلتقي أو نسوى مشاكلنا المتفجرة المتعلقة في المنطقة. إذن لابد أن ننتهز فرصة زيارة برجنيف لنحل مشاكل خطيرة بين البلدين.. لأن أمريكا كانت قد دخلت في نوع من «التعرية الداخلية» أو «الافتضاح السياسي».. فهي حريصة على أن تفضح حكامها وشيوخها وتهز كل القيم التي تمسك المجتمع الأمريكي والإدارة القديمة والجديدة.. وسوف يطول الكلام في ذلك..

وأنا أرى أن المعركة الانتخابية لم تبدأ حقيقة، في سنة ٧٦، وإنما بدأت في كل ٧٤ و٧٥.. وسوف تكون ٧٦ سنة انتخابات، فلا أحد هناك قادر على أن يحل أو يربط أمراً من الأمور.

ثم حدث شيء مؤسف في ديسمبر ١٩٧٥، أو في يوم ٢٥ ديسمبر بالذات.. توفي المشير أحمد إسماعيل في لندن. وكنت في ذلك الوقت في ميت أبو الكوم. أبلغوني هذا النبأ الحزين. وفي نفس الوقت تلقيت تبليغا من القيادة السوفيتية بأنها تريد من وزير الخارجية ووزير الحربية أن يزورا موسكو على وجه بسرعة.. ورغم وفاة المشير إسماعيل التي ألمتني أشد الألم، فقد رأيت في دعوة وزيرى الخارجية والحربية إلى موسكو قبل زيارة برجنيف دليلا جديدا على أن السوفيت يريدون حلا للمشاكل المعلقة.

ولا بد أن هناك أمورا تحتاج إلى اثنين من الوزراء، ولابد أنهم يريدون أن تكون زيارة برجنيف ناجحة.. فيتم الاتفاق على كل شيء قبل أن يجرى إلينا.. مثل هذه الشخصية الكبيرة عندهم، لا يمكن أن تدخل في التفاصيل، وإنما ينتهى كل شيء قبل زيارته. وقبل زيارته، كما هي عادة السوفيت، ستكون اللجان المتخصصة قد أعدت كل شيء وعرضت كل شيء، وأصدرت قرارا وبيانا بعد ذلك..

وتلهمت على حل كل شيء قبل هذه الزيارة المقبلة. واقترحت أن يسافر أربعة وزراء آخرون لحل كل القضايا الخاصة بالاقتصاد والكهرباء والتخطيط. وعلى الرغم من أننى أعلم مقدما، أننى لو ظلت أتفاوض معهم مائة سنة فإنهم لن يعطونى إلا ما اتفقوا عليه قبل ذلك، وأن برجنيف ليس إلا واحدا مثلهم، لكننى غلبت الأمل والتفاؤل على كل هواجسى ومخاوفى.. وخشيت على نفسى أن تكون عدوى سوء الظن السوفيتية التقليدية قد انتقلت إلى تفكيرى، ولذلك تحركت بسرعة..

ولكن عاد السوفيت يقولون إن القيادة تريد وزيرين فقط. ولذلك عينت محمد عبد الغنى الجمسى وزيرا للحربية. وسافر إسماعيل فهمى والجمسى إلى موسكو يوم ٢٨ ديسمبر. وفى مطار موسكو كان فى استقبالهما جروميكو وزير الخارجية وجريتشكو وزير الدفاع.

وفى السيارة أعلن جروميكو لإسماعيل فهمى: أن زيارة برجنيف تأجلت لأنه مريض. ثم اتجه الوزراء الأربعة لزيارة برجنيف. وكان مريضا حقا. ولكنه أحسن استقبالهما وكان لطيفا جدا معهما. ثم عاد الوزيران المصريان فى غاية الأسف، لأن شيئا لم يتحقق. فلا جدولة للديون ولا تعويض للسلاح ولكن الأمريكان وعلى رغم كل ظروفهم الداخلية بحثوا يقولون إنهم يريدون استئناف الحركة من أجل السلام. وفى مارس جاء د. كيسنجر لكى

يبدأ خطوة جديدة في فض الاشتباك. جاءنى فى أسوان. وكنت أتفائل بأسوان بعد فك الاشتباك الأول..

وقد اجتهد المحللون السياسيون فى تفسير حرصى على أن يتم كل شىء فى أسوان.. قال بعضهم: إن أسوان ترتبط فى أذهان المصريين والأمريكان معا بالسد العالى.. فقد رفض دالاس تمويل السد العالى وقالوا بعد ذلك إنى أحاول أن أجعل الذكريات الأليمة ذكريات سعيدة.. كما قمت بفتح قناة السويس يوم ٥ يونيو.. وهو اليوم الذى انتكست فيه القوات المصرية وانسدت فيه القناة.. ولكننى على كل حال كنت أتفائل بأسوان.. وإن كنت هذه المرة قد صارحت د. كيسنجر بأننى غير متفائل. وكان يؤكد أنه متفائل جدا.. أما أنا فقد بنيت تشاؤمى على رد الفعل اليهودى لكل خطوات كيسنجر.

وأذكر أننى أعلنت له: أن هذه العملية مصيرها الفشل. اسمعها منى.

وقلت له: إن إسحاق رابين ضعيف وليس فى قوة جولدا مائير..

ولم يصدقنى أول الأمر ولكن بعد تسعة عشر يوما قال لى: لا أمل..

وسألنى إن كان من رأى أن يعود. فقلت: لا داعى.. لقد توقعت ذلك..

وكانت مفاجأة كبرى للصحفيين الذين تجمعوا فى أسوان عندما أعلن إسماعيل فهمى فشل المفاوضات على خطوات فك الاشتباك الثانى.. وكانت مفاجأة عنيفة.. فقد أحس العالم كله أن اليهود هم الذين تعنتوا. على الرغم من أنهم يذيعون ويشيرون أن المصريين هم الذين لا يريدون حلا..

ولكنى بادرت وفاجأت العالم كله بأننى سوف أفتح قناة السويس يوم ٥ يونيو. وأننى قررت عودة المهجرين إلى أراضيهم وبيوتهم. واعتبرت أن هذه المدة الثلاث من عمق مصر. وأن ضرب عمق مصر يعنى ضرب عمق إسرائيل أيضا. وكان ذلك فى كلمتى فى مجلس الشعب. وكانت أوامرى قد صدرت قبل ذلك عندما عينت عثمان أحمد عثمان وزيرا للإسكان فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣. وتمت انجازات عظيمة فى منطقة قناة السويس تعتبر قياسية فى تاريخ التعمير والإسكان. وعلى الرغم من أن فشل محاولات كيسنجر الثانية قد ضائقنى كثيرا، فإننى وجدت شيئا يريحنى بعض الشىء، فقد انكشف هؤلاء الذين أشاعوا أن هناك طبخة سرية بيننا وبين أمريكا.

أو بيننا وبين اليهود. فأين هذه الطبخة وراء هذا الفشل الهائل؟ لماذا لم تنجح الطبخة السرية؟

لقد كان هذا الفشل دليلا على قصر نظر هؤلاء الذين عقولهم فى آذانهم، يسمعون ويكررون كالبيغاوات ولا يفكرون.

وأحس اليهود أنهم فى مأزق رهيب.. وتحدد أمام العالم كله أن ألتقى بالرئيس فورد فى مدينة سالزبورج بالنمسا فى أول يونيو.

وكنست أعلم، علم اليقين، أن الإدارة الجديدة ليست قادرة على أشياء كثيرة. فلا تزال مشاكلها عديدة. ثم إنها دخلت المعركة الانتخابية بالفعل بعد استقالة الرئيس نيكسون.

وبعد هذا اللقاء مع الرئيس فورد اشتدت الحملة السوفيتية، وراحوا يجددون الكلام القديم. وأشاعوا فى كل مكان أن الخيانة المصرية ماضية. وأن القيادة المصرية تبيع القضية وأنها سلمت كل شىء لأمريكا نهائيا.. على رغم فشل فك الاشتباك الثانى الذى كشفهم هم وفضحهم هم، فلم تكن هناك اتفاقيات سرية مع أحد!

وفى أغسطس جاء د. كيسنجر. وكان يائسا. ولكننى أكدت له أنه لا داعى للتشاؤم. قلت له: فى مارس الماضى أنت كنت متفائلا وأنا كنت متشائما.. وهذه المرة أنا المتفائل..

وبدأ د. كيسنجر رحلاته بيننا وبين اليهود. وكانت رحلات شاقة. وكانت الخلافات على كلمات هم يتمسكون بها. فيجىء إلينا يسألنا. ويسمع منا ثم يعود إليهم. ويكون الخلاف على «حرف» أو ترتيب كلمة فى عبارة.. كان شيئا مضحكا ومحرزا فى نفس الوقت.. ولكن الرجل لم يعرف اليأس.

وبعد عدة رحلات زهابا وإيابا أعلن د. كيسنجر: معك حق. يبدو أن هناك أملا..

وكننا وقتها فى الاسكندرية. وكان يشاركنى فى هذه المفاوضات حسننى مبارك نائب رئيس الجمهورية وممدوح سالم رئيس الوزراء واسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية والفريق الجمسى وزير الحربية.

تمت العملية. انتهى كل شىء قام الاتحاد السوفيتى ولم يقعد. ولم يهدأ له بال، ولم يشأ أن يهدئ بالاً لأحد.. وانقلب الاتحاد السوفيتى وأذنا به وضعاف النفوس على مصر يتهمونها بالخيانة والانعرالية والتصفوية.. وليس فى هذه التهم شىء جديد. وإنما كلها ترجع لسبب واحد لا ثانى له: أن لنا إرادة مستقلة. وأننا حريصون على ذلك..

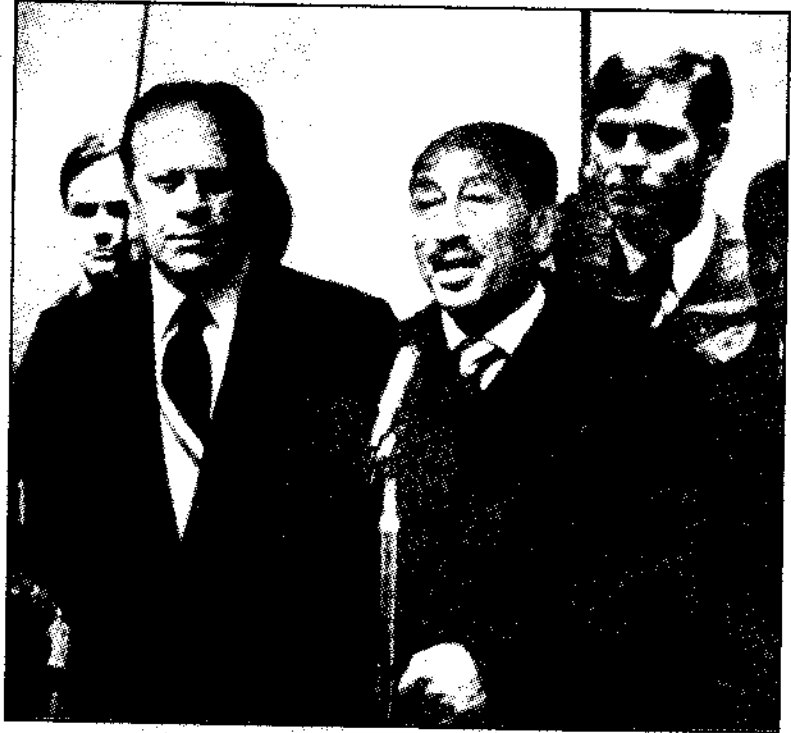
ومن حق د. كيسنجر بعد ذلك كله أن يردد عبارته المفضلة التى أخذها عن أستاذه مترنيخ.. فقد كان يقول كثيرا: إننى أعرف ماذا أريد، وأعرف ماذا يستطيع غيرى أن يفعل، ولهذا فأنا جاهز دائما!

== الجليد ينوب بين مصر وأمريكا

ولم نختلف كثيرا على الطريقة التي نعالج بها الموقف. ولا الوسائل التي نتذرع بها إلى ذلك وإن كنا - كما ذكرت - قد اختلفنا كثيرا. ولكن اللغة واحدة. ولهذا أمكن لنا أن نحقق شيئا كثيرا من النجاح. وإن كنت قد أعلنت بعد ذلك أن هذا هو آخر عهدنا بالخطوة خطوة، أسلوبا للحل الشامل.. وإن لم يكن هذا هو آخر عهدنا بالعلاقات السوفيتية التي تزداد سوءاً..

□□□

١ - الرئيس السادات
مع الرئيس فورد في
سالزبورج .



٢ - محادثات الكيلو
١٠١ لك الاشتباك الأول .





٣ - الوفد الإسرائيلي
أمام خيمة الأمم المتحدة
(الكيلو ١٠١، طريق
القاهرة - السويس) بعد
اتفاقية كيسنجر لوقف
إطلاق النار .



٤ - مباحثات الكيلو
١٠١ .



٥ .. الرئيس الأمريكي
ريتشارد نيكسون .



مفاهيم خاطئة

- الحادثة التي أثارت غضب الصحف اليهودية.
- سافرت إلى أمريكا عبر جسور الصداقة وعلى محيطات من سوء الفهم.
- لم يكن من السهل على وعلى ناصر عزف اللحن السوفيتي.
- القبيلة الثالثة عشرة إحدى المزايم اليهودية.

رجلتى إلى أمريكا شيئاً أكبر من مجرد «عبور» المحيط الأطلنطى.. فكلمة عبور كانت أصبح لها «عبير» من نوع خاص.. بل إننى أرى أن إقامة الجسور من طرف إلى طرف.. والتفاهم.. والصداقة.. والتضامن والوحدة.. كلها مفردات لمعنى واحد هو «العبور» وتخطى العقبات والتغلب على الصعاب.. والتمهيد لشيء أكبر وأهم وأعظم وأبقى.

وكان عبورنا فى أكتوبر ٧٣ أكثر من مد الجسور من أرضنا فى سيناء.. كان انتصارا على العائق المائى.. وعلى العائق النفسى والقومى.. كان عبورا بنا إلى مستقبلنا.. وإلى أشقائنا العرب.. وكان توحيداً للأمة العربية فى ساعات وأيام من أمجد ما عرفنا فى تاريخنا.

ولذلك وجدت أن لعبور الأطلنطى مذاقاً خاصاً.. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى سافرت فيها إلى أمريكا. فقد سافرت قبل ذلك.. ولكن فى هذه المرة وجدت أن مهمتى صعبة ولكنى سعيد بها. فقد رأيت أن أنقل إلى الرأى العام الأمريكى قضية مصر والعالم العربى.. وأن أكون أنا المتحدث مباشرة وأن يسمعنى ملايين الأمريكان فى المؤتمرات الصحفية والأحاديث التليفزيونية وفى الأمم المتحدة ثم فى الكونجرس الأمريكى.

ذهبت إلى أمريكا بعد أن اعتدلت صورتنا فى العالم.. وبعد أن أدرك العالم بوضوح أننا نستطيع أن نحارب وأن ننتصر.. وأنها بعد ذلك وقبل ذلك دعاة سلام.. وأنها لجأنا إلى الحرب عندما لم تنفع كل وسائل السلام.. فإذا انتهت الحرب عدنا إلى السلام وإذا لم يسفر السلام عن شيء.. فإننا نجدد كراهيتنا للحرب.. وكراهيتنا لحالة مملة راكدة اسمها الاحرب واللاسلم أى التى لا هى حرب عاجلة ولا هى سلم آجلة.

وأمريكا قارة كبرى.. وأناسها مشغولون بقارتهم وقضاياهم.. والذى يعرفونه عن الشرق الأوسط ليس كثيراً. أو يعرفونه من وجهة نظر الميسيطرين على أجهزة الإعلام والصحافة وأنا لا أطلب شيئاً من أمريكا ولا من الشعب الأمريكى يتنافى مع الفهم والعدل.. كل ما أطلبه هو أن يفهموا قضيتنا.. وأن يكونوا عادلين فى حكمهم على كل شيء.. والشعب الأمريكى قد تذوق الحرية فلسفة، وأسلوباً فى الحياة وفى التجارة.. وسوف يكون حديثى معهم بالعقل.

وليس في جيبي كما أعلنت في أمريكا وقبل زيارتها قائمة بأسماء المشتريات.. فلا أنا سائح ولا أنا تاجر، وإنما أنا صاحب قضية عادلة.. وأنا جئت من بلاد هي أعرق بلاد عرفها التاريخ.. فأنا قادم من مصر أم الحضارات.. ووراثي تاريخ طويل من النضال والكفاح والعلم والإيمان وأمامي طريق طويل من الحرص على البقاء وعلى الكرامة. صحيح نحن دولة صغيرة ولكن كل شيء يهون وهان علينا أمام الكرامة وحرية الرأي والإرادة الوطنية.. وقد أعلنت ذلك في أمريكا.. تماما كما أعلنته وأنا أتقابل مع السوفيت في أشد الظروف قسوة علينا.

فأمام الدول العظمى نحن دولة عظمى بمبادئنا وحرصنا على القيم الأخلاقية والدينية والوحدة الوطنية وكرامة الإنسان ثم إنني أواجه العالم كله بقلب مفتوح وعقل متفتح.. فلا صداقتنا للسوفيت تقليدية ولا عداوتنا لأمريكا أو للغرب تقليدية.. إنما نحن أصدقاء لمن يصادقنا، أو بوضوح أكثر: لا توجد صداقات دائمة ولا عداوات دائمة إنما توجد مصالح دائمة وهذه هي إحدى بديهيات السياسة ولا أدعى أنني ابتدعت هذا المعنى السياسي أو الاقتصادي أو التجاري وإنما هي قاعدة معروفة. ولكن نحن الدول الصغيرة أكثر حساسية من غيرنا من الدول الكبرى.

وفي رحلتي إلى أمريكا كان تركيزي واضحا على أن أتحدث باسم مصر.. وباسم العرب عموما.. دون أن أفرض اجتهادي على أحد.. وربما كان حديثي عن القضية الفلسطينية شخصيا وقوميا.. فهو شخصي لأن القضية الفلسطينية هي جوهر المشكلة العربية كلها. فلا أستطيع أن أغفل ذلك لأنه واجب وطني.. وهو في نفس الوقت واجب على كل عربي إلى أن يصبح الفلسطينيون قادرين على أن يتحدثوا بلسانهم ومنطقهم في مواجهة العالم كله.

ولم أترك مناسبة واحدة دون أن أشير إلى المشكلة الفلسطينية منذ أول يوم حتى آخر يوم عندما تحدثت في الكونجرس الأمريكي.

ففي اليوم الأول أعلنت أن الشعب الفلسطيني لم ينل الاعتراف الكامل الذي يستحقه من جميع الأطراف وأن الشعب الفلسطيني قد عانى أشكالا وألوانا من العذاب دون ذنب جناه.. وأنه ما يزال حتى اليوم محروما من تقرير المصير.. وأن الفلسطينيين يجب أن يشتركوا معنا كأعضاء أصليين في مؤتمر جنيف كما أنه لا يوجد مسلم أو مسيحي يهدأ باله لحظة واحدة إذا تسلطت إسرائيل على مدينة القدس بل إذا كان هناك تدويل للقدس فيجب أن يشمل القدس القديمة والقدس الجديدة أيضا.

== مفاهيم خاطئة ==

وأكدت للشعب الأمريكي أيضا أن الظلم قائم مادام الشعب الفلسطيني بلا حقوق وأن الشعب الفلسطيني إذا استعاد أرضه وكيانه على النحو الذي يرضيه ويتفق مع مبادئ الإنسانية بقرارات الأمم المتحدة فسوف تكون فلسطين عضوا قويا في الأسرة الدولية وسندا عظيما من أجل السلام والتقدم الإنساني.

وتوجهت إلى الشعب الأمريكي أنبهه إلى أنه أكثر الشعوب فهما لمعنى أن يرتبط الإنسان بالأرض فقد كان هذا الارتباط ولا يزال إحدى ركائز الحضارة الأمريكية ثم إن الارتباط بالأرض يخلق في الإنسان تقديسا للروابط الأسرية والتمسك بالأرض والدفاع عن العرض ويجعل التضحية في ذلك أسما أمانينا.

إن الشعب الفلسطيني معذور إذا تمسك بأرضه ومات دونها إن مئات الألوف من أبناء الشعب الفلسطيني يحيون حياة تتنافى مع كل مبادئ الحضارة والإنسانية.. إن بقاء هذا الشعب بهذه الصورة الأليمة الحزينة لوصمة عار متجددة في جبين الإنسانية.. وإن هذه هي الفرصة أمام الولايات المتحدة والأسرة الدولية لتمحو العار بالعدل وتخفف من عذاب الضمير بالتفاهم وحسن التقدير وهي فرصة يجب ألا تفوتنا وألا نفوتها رفعا للظلم وسبيلا إلى السلام العالمي.

ودعوت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثلاثين أن تقرر أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا لشعب فلسطين في مؤتمر جنيف كعضو مساو لبقية الأعضاء.

وليس على العالم كله أن يخاف من السلام.. فنحن شعوب لا نعرف الاضطهاد العنصري أو الديني إن تاريخنا معروف يؤكد حبنا للسلام بل إن ديننا الإسلام معناه السلام.. وما عرفنا التفرقة على أساس من اللون أو الدين أو المذهب الديني.. وقد عاش اليهود بيننا فلم يعرفوا الاضطهاد والإحراق والإغراق الذي عرفوه في أوروبا في كل العصور.. والذي جعلهم يهربون لاجئين إلى أمريكا حيث الحرية والمساواة والتسامح الديني وحيث أبواب الأمل مفتوحة للجميع.. وهذا ما يجعلني أدرك عن إيمان أن أمريكا هي أكثر الشعوب قدرة على فهم معنى التسامح الديني ومعنى العدل والحرية.

ومن القضايا التي ركزت عليها عن عمد: التفرقة بين اليهودي والصهيوني والإسرائيلي فأنا أعرف أن مثل هذه المعاني ليست واضحة عند الأغلبية الساحقة من الأمريكيان المسيحيين.

وقد استرحت تماما إلى كل الذي قلت. وإن كنت قد قرأت وسمعت أنه ما كان يجب أن أتحدث في نيويورك عن اليهودية والصهيونية.. ولكني لم أقل شيئا واحدا ندمت عليه فهي

فرصة لأن أؤكد أنني أحترم ديانات الآخرين هكذا علمنا ديننا عندما قال تعالى: «لكم دينكم ولي دين».. علمنا القرآن الكريم ورسولنا العظيم أن نتسامح مع الأديان الأخرى.

وأعلنت أن اليهود عاشوا بيننا دون خوف من أحد وامتلكوا الكثير من أرضنا ومقدراتنا دون حقد من أحد بل إنهم سيطروا على التجارة.. ورويت على سبيل الدعاية كيف إنني عندما خرجت من سنوات السجن والاعتقال وعدت إلى البيت مرة أخرى وبدأت أرتب بيتي الصغير ذهبت اشترى راديو من أحد المحلات اليهودية ولكن صاحب المحل لم يكد يعرف أنني ضابط حارب اليهود حتى رفض أن يبيعني هذا الراديو.. والحادثة صغيرة ولكن الدلالة كبيرة ودلالاتها أننا لم نعرف هذا النوع من الحقد ولا من العداوة الصارخة ولا هذا التمييز بين الذي حارب عن أرضه بشرف سعيدا بذلك وبين الذي لم يحارب ويستحق أن يبيعه هذا اليهودى هذه السلعة التافهة ولكن عندما جاءت الصهيونية إلى بلادنا عرفنا هذه التفرقة وعرفنا الحقد وعرفنا التآمر الدموي.

وقد أثارت هذه الحادثة الصغيرة غضب الصحف اليهودية بل إن كبيرة مذيعات التليفزيون باربارا ونترز صاحبة أشهر برنامج تليفزيونى معروف قد سألتنى عن هذه الواقعة ولمست فى سؤالها معنى الاستنكار أو معنى الدهشة من أنني ما أزال أذكر شيئاً من ذلك حدث منذ ثلاثين عاماً أو أننى إذا ذكرت ذلك لم أتردد فى أن أرويه فى نيويورك حيث يعيش نصف يهود أمريكا.. وانتهزت هذه الفرصة لأؤكد لها مرة أخرى أنني أقصد هذا المعنى وهو أن الحقد والكراهية والتفرقة والدم قد دخلت المنطقة عندما دخلت الصهيونية. ووجدت من المناسب أيضاً أن أقول إن من التعبيرات الشائعة أن من يعادى اليهود يوصف بأنه «معاد للسامية» ولكن هذا التعبير لا يخيفنا فنحن ساميون.. فاليهود هم المعادون للسامية.. لأنه ليس كل يهود إسرائيل ساميين.. إن بشرتهم الشقراء وشعورهم الصفراء وعيونهم الخضراء أو الزرقاء ليست آسيوية ولا أفريقية.. إنها أوروبية فهم ليسوا ساميين بل الأغلبية الساحقة فى إسرائيل من الملونين السمرة أو الصفرة أو السود أى من الساميين والهاميين «نسبة إلى ولدى نوح سام وحام».

أما الأقلية الحاكمة فى إسرائيل فهى من البولنديين والروس والألمان والشعوب الأخرى. ومن المناسب أن أذكر أنني قرأت فيما بعد كتاباً جيداً من تأليف كاتب يهودى مشهور هو ارثور كيسلر عنوانه «القبيلة الثالثة عشرة».. إنها قبيلة ضالة أو تائهة اهتدى إلى أنها كانت تعيش بين البحر الأسود وبحر قزوين.. فى شمال تركيا الحديثة وجنوب الاتحاد السوفيتى..

هذه القبيلة لأسباب تاريخية غريبة وجدت نفسها بين المسيحيين في الشمال والمسلمين في الجنوب فاعتنق ملكها اليهودية وتبعه الشعب كله.. وكان هذا الموقف الذى يسميه المؤلف بلغة العصر الحديث «عدم الانحياز».. أى عدم الانحياز للشمال المسيحى أو للجنوب الإسلامى فقد أفقد هذه القبيلة صداقة الشمال والجنوب.. وتوالى الضغط على القبيلة اليهودية أو «الدولة» اليهودية وكان لابد أن تنفجر تحت الضغط من جميع الجهات وانفجرت «الملكمة» الصغيرة وحرب كل هؤلاء اليهود إلى أوروبا الشرقية.. ومن هؤلاء الهاربين ولد كل يهود أوروبا.. وهذه القبيلة الثالثة عشرة هى من جماعة الخزر الذين وصفهم المؤلف اليهودى بقوله إنهم حمر الوجوه زرق العيون صفر الشعر وهو يؤكد بذلك أن كل يهود أوروبا وأكثر اليهود ليسوا ساميين ويذهب إلى أنه ليس لهم الحق فى أن يطالبوا بالأرض التى احتلوها-وهذه قضية أخرى- ولكن هذا المؤلف اليهودى يرى أن اليهود الأوروبيين أو أكثر اليهود ليسوا ساميين وأنه هو أيضا ليس ساميا فهو مجرى نمساوى المولد بريطانى الجنسية.. ولكنى أستطيع أن أقول دون اجتهاد كثير إننى سامى وإنهم ليسوا كذلك وإن أحدا لا يستطيع أن يتهمنا بالعداء للسامية ولكن التهمة واقعة لا محالة على أكثر اليهود.. فهم أعداء للسامية والساميين!

وليس ذلك تجنيا على أحد وإنما هو فقط مناسبة للمراجعة التاريخية.. أى لمن أراد أن يقرأ فى التاريخ القريب أو البعيد.. وليس هذا سرا لأحد وإن كان هذا الكتاب «القبيلة الثالثة عشرة» قد ظهر فى لغات كثيرة وانتشر بين الناس ولكن لم يلق ما يستحقه من العناية أو الحفاوة لا من العرب ولا من اليهود.. فاليهود نظروا إلى مكانة المؤلف العالمية والتزموا السكوت عنه.. فكانت مؤامرة صمت لا يصح أن نشاركهم فيها.. وفى حديث قلت إن النشاط الصهيونى هو الذى أدى إلى اغتيال الكونت برنادوت فى سبتمبر ١٩٤٨.. ربما لأنه حاول أن يتقدم بحلول أو حاول أن يجد حلا لم يقبله المتعصبون من الصهاينة.. بل إن اثنين من الإرهابيين قد اغتالا اللورد موين فى القاهرة.. وفى سنة ١٩٧٥ طالب اليهود بجثتى هذين المجرمين. لماذا؟ تمجيذا للدور البطولى الدموى الذى قام به اثنان من متهوسى اليهود.. أى من المؤمنين بالصهيونية كأسلوب دموى فى الإقناع والاعتصاب وهذا ما حرصت على أن أؤكدده وقد فعلت ذلك فى مناسبات عديدة فهذا رأى ويجب أن يتنبه ضمير العالم إلى ذلك..

ولا نسيت ولا نسى السوفيت أن يشهروا بهذه الرحلة وأن يبتثوا السم فى كل مكان لقد مللت هذا الموقف ولكن لأنه موقف فهو ثابت مهما تغيرت الظروف وتعددت نيات التحرك المصرى من أجل السلام.

وقبل ذلك قد هاجموا زيارة نيكسون لمصر وقبل نيكسون هاجموا واستنكروا مجيء كيسنجر والمعنى واحد هو أن شيئا ما يجرى في مصر ومن أجلها ومن أجل السلام لم نستأذن فيه القيادة السوفيتية ولن أفعل.

وهاجموا زيارتي لأمريكا وقالوا: باع نفسه.. باع مصر.. ذهب يملأ جيوبه ويشترى.. مع أنني أعلنت في مطار القاهرة قبل سفرى أنني متجه إلى أمريكا أعرض قضيتي وأنى لست في نزهة ولا رحلة استجمام وأنى ذاهب لأعرض فكري وأسلوبى فى العمل وأن أكون قريبا إلى رأى العام الأمريكى.. وأن أراه ويرانى وأنا أفكر على مسمع منه.. وأن أبين مدى صدقى ومدى حرصى.. وأن أطمئن الشعب المصرى والعربى والأمريكى أيضا على الخطوات التى اتخذناها.. ولم أتردد لحظة واحدة فى أن أؤكد ذلك ما استطعت إليه سبيلا وكان لابد أن أوضح أن العلاقات السوفيتية المصرية قد ساءت وتزداد سوءا.. وربما لم يكن ذلك سرا عند السياسيين وإن كان كذلك عند عامة الناس.. فروسيا لم تعطنى سلاحا بعد الحرب وأمريكا أعطت إسرائيل كل شىء وتعطيها وملتزمة بأن تعطيها الرغيف والدولار والصاروخ وليس عندى أى أمل فى أن تكف أمريكا عن ذلك.. فأنا رجل واقعى.. وأعرف الحد الفاصل بين الممكن والمستحيل فيما أطلبه من أمريكا وأنا لا أطلب أكثر من التفاهم والعدل.. بينما أعطت روسيا لسوريا الشقيقة كل ما فقدته فى الحرب وزيادة.

وطلبت من روسيا أن تؤجل الديون أو تقوم بجدولتها مع إعطائى سنوات سماح أى للراحة بعض الوقت من هذه الديون لعلى أستطيع أن أتوجه إلى التنمية الاقتصادية فى بلادى ولكنها لم تفعل بينما سمحت بالسماح لغيرنا.

والخلاصة أنني وجدت نفسى وشعبى فى وضع غريب عندما أطلب منها تعويض السلاح توافق على أن تعطيه لغيرى.. وعندما أطلب منها جدولة الديون توافق على أن تسمح بذلك لغيرى.. «وسوف يضيف الاتحاد السوفيتى بعدا وعمقا غريبا عندما اتعرض فيما بعد لموقف السوفيت فى المنطقة كلها والدول المحيطة بمصر.

وبعد انتخابى رئيسا للجمهورية سافرت إلى موسكو أربع مرات ولم يزرنى بـرجنيف مرة واحدة فقد وعد وعدل عن ذلك ولن أزور موسكو إلا إذا زارنى.. وهذا منطقى جدا. صحيح أننا دولة صغيرة بحدودنا ولكننا دولة عظمى بكبرياننا.. وهذه العبارة الصغيرة يصعب فهمها على بعض الدول الكبرى أو الدول العظمى.. وكان الشعور السائد قبل وأثناء زيارتى

لأمريكا أنني جئت أطلب السلاح.. وقد سئلت إن كان السلاح الذي سوف آخذه من أمريكا لن استخدمه ضد إسرائيل؟ وهل أتعهد بذلك؟.. ولم أكن في حاجة إلى أن أطيل في التدليل على حتى في الدفاع عن النفس بأى سلاح من أى نوع ولا حتى أن أشير إلى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة التي تعطي لكل دولة حق الدفاع عن نفسها.. فأنا لم أذهب إلى أمريكا لشراء سلاح وأعرف ما الذي تستطيع أمريكا أن تفعله معي ومع غيري وخصوصا إسرائيل.. وكان لابد أن يواجهني هذا السؤال بشكل ما: إن كنت على استعداد للسلام مع إسرائيل؟.. وما شكله؟ ولماذا ليس الآن ومباشرة؟.. لقد واجهني هذا السؤال كثيرا من الصحفيين العالميين الذين يزوروني وكذلك من رجال الكونجرس الأمريكي ومن رجال الأعمال.. فهم جميعا يريدون أن يعرفوا وفي نفس الوقت يريدون أن يرشدوهم أو يبصرهم أحد بذلك حتى إذا عادوا إلى بلادهم وجدوا ما يقولون..

وقد أكدت كما فعلت قبل ذلك مرارا أنني على استعداد لاتفاق سلام مع إسرائيل وقد أعلنت ذلك سنة ١٩٧١ وقبل حرب أكتوبر وفي أعقاب حرب الاستنزاف.. أما بالنسبة لإقامة علاقات اقتصادية وسياسية مع إسرائيل فهذا يتجاوز قدرة الجيل الذي أنتسب إليه.. وإن هذا الأمر متروك للأجيال القادمة تقرر ما تراه. أما جيلي الذي خاض أربع حروب في عشرين عاما مليئة بالمرارة والكراهية والحزن والدموع والدماء والجرحى والأسرى والأشلاء والمشوهين فصعب علينا جدا أن نزيل في لحظة واحدة هذه الجبال المتراكمة من العداوة.. صعب علينا ويستحيل أن يطالبنا أحد بذلك دون أن ننظر إليه بكثير من السخرية لماذا؟ لأنه يستخف بمشاعرنا الأليمة العميقة.

فمن الضروري أن ننتهي أولا من حالة العداوة الرسمية أو العدوان المسلح رسميا وبعلم الأسيرة الدولية كلها.. ويجب أن نجد وسيلة للسلام.. أى نوع من السلام القائم على العدل بضمان من الدول الكبرى أو الدول العظمى أو مجلس الأمن أو الأمم المتحدة.

إن حاجة جيلنا إلى الراحة لا حدود لها فقد تعب جيلنا كثيرا ويحلم بسنوات من التقاط الأنفاس.. ولنسترك لأجيال من بعدنا أن تلتقط من قاموسها المعنى الذي ترتضيه للسلام والانفتاح والعفو عن الذي سلف من خطايا الجميع.

وفي مواجهة الأمم المتحدة والعالم كله أعلنت أن مصر لم تفقد حماسها للسلام وإيمانها به فالسلام هدف استراتيجي ومن أجل ذلك قررت فتح قناة السويس تعبيراً عملياً عن حرصنا على

السلام وعلى استمرار التجارة والتبادل بين الشعوب وتخفيفاً للأعباء الواقعة على أصدقائنا الذين وقفوا معنا في أشد الأزمات.. وبالإضافة إلى فتح القناة أعلنت أنني ماضٍ في تعمير مدن القناة وإعادة شعبها الذي هجرها هرباً من النار والدمار الذي ألغاه العدو علينا.

وتوجهت إلى الإدارة الأمريكية أي إلى حكومة الرئيس فورد وأثنت على الجهود التي بذلها وزير خارجيته د. كيسنجر فلم أجد صورة حقيقية للولايات المتحدة إلا بعد أن قابلت كيسنجر وتعاملت معه. وكان هذا التعامل نقطة تحول في الصراع المستمر في الشرق الأوسط واستطعنا معا أن نخلق الثقة والشعور بالمسؤولية.. فقد حطمنا الجليد وتجاوزنا إلى الأمام نحو السلام وأنا فخور بعلاقتي بكيسنجر ففي فترة قصيرة جداً استطعنا أن نحقق ما لم يتحقق خلال جيل كامل.. ولكن هذا لا يمنعني أن أقرر أن الطريق ما يزال طويلاً ولذلك يجب ألا نهذاً أو نسكن وإنما يجب أن نحفز أنفسنا من حين إلى حين ليس فقط إلى «هز» الموقف أو إلى «تحريكه» وإنما إلى دفعه بقوة واعية إلى الأمام وإلا انتكس الموقف كله وتجمد وفي ذلك تثبيت لأوضاع خاطئة فإذا استسلمنا تجددت الرغبة في القتال.. ولا سلام في الشرق الأوسط ولا في العالم بعد ذلك.. وباسم السلام العالمي يجب ألا نضيع هذه الفرص المتاحة والظروف الدولية المواتية.

وكانت سعادتي باللغة للتفهم الواضح الذي أبداه الكونجرس الأمريكي للكلمة التي ألقيتها والتي أوضحت فيها قضيتنا وأوضحت فيها مسؤولية أمريكا وساستها ومشروعها ورأيها العام. ووجدت في تصفيقهم الطويل لكلماتي اعترافاً مدوياً بعدالة ما أعتنقه من أجل السلام العالمي.. وأكدت للكونجرس أنني لم أحضر سعياً أو طلباً لوعود أو تعهدات بل جئت أمد له ولكل أبناء الولايات المتحدة يد الصداقة والتفاهم المتبادل وأنني جئت كصديق لا كحليف.. فالصديق يقول أي له حرية أن يؤاخذ صديقه على الخطأ إذا ارتكبه وعلى العناد إذا تشبث به وليس من ذلك شيء عند الحليف الذي هو ظل ليس له رأي ولا حرية ولا إرادة ولا حق له في أن يواجه لوماً أو عتاباً لأحد.

وأكدت للكونجرس أننا نحن العرب ليست لدينا مشكلة التعايش مع الآخرين ممن يختلفون معنا في الدين وتاريخنا كله مفتوح أمام الجميع. فما عرفنا الاضطهاد للآخرين ديناً أو عنصراً.

ومن الواجب أن نغتني هذه الفرصة وكل فرصة من أجل العبور من هنا إلى الشعوب العربية من أجل بناء الجسور عبر سوء الفهم والتحيز والظلم يجب أن نجعل الصداقة جسوراً

مفاهيم خاطئة

والتفاهم معابرنا من أجل الخير والعدل.. حتى يأتى ذلك اليوم الذى نحول فيه السيوف التى تطيح بالرقاب إلى فنؤس تمهد لبذور الخير والمحبة وحتى تتحول الرماح التى توجع القلب إلى مناحل تحصد ثمار ما غرسناه وليس ذلك ببعيد إذا صدقت الذيات ووضحت الأهداف وزالت سحابات سوء الفهم بين الجميع.

وعندما سافرت إلى بريطانيا أوضحت أننى أريد شراء سلاح.. وغضب السوفيت طبعاً والذى أغضبهم أكثر ليس السلاح وإنما أننى أعلنت ضرورة «تنوع» مصادر السلاح.. أى حتى لا يكون الاتحاد السوفيتى هو الينبوع الأوحى للسلاح فإذا كان الينبوع الأوحى لذلك فهو أيضاً الينبوع الأوحى للتسلط علينا.. لأن معناه أن يكون المدفع عندنا والذخيرة عندهم.. أو يكون المدفع والذخيرة عندنا وقطع الغيار عندهم.. وهكذا نجد أنفسنا - كما حدث - مربوطين بخيط أوله فى موسكو وآخره فى القاهرة.. وقد رفضت ذلك ورفضوا رفضى! وهذا جوهر الخلاف المستمر بينا.

وبعض الأسئلة التى لم يجد أصحابها وقتاً ليوجهوها إلى فى أمريكا استؤنفت فى لندن فسئلت إن كانت إسرائيل سوف تثق بنا بعد كل الذى حدث بيننا؟.. وكان جوابى كيف نثق بإسرائيل بعد ما حدث أيضاً.. وبعد أن أعلن الكنيست ضم سيناء رسمياً بعد العدوان الثلاثى علينا فى سنة ١٩٥٦..

وفى بريطانيا شكرت مستر هارولد ويلسون على موقفه من فك الاشتباك فقد علمت من د. كيسنجر أن ويلسون بصلاته القوية مع جولدا مائير قد بذل جهوداً صادقة أدت فى النهاية إلى «تليين» التعنت الإسرائيلى..

انتهت سنة ١٩٧٥.. وكنت أعلم مقدماً أن سنة ١٩٧٦ هى سنة ميتة تماماً وأن محاولة إحياء هذه الجثة الهامدة هى نوع من النفخ فى الرماد فهذه السنة هى سنة الانتخابات الأمريكية وفى هذه السنة استأنفت تحسين العلاقات بيننا وبين السوفيت فليست لى مصلحة شخصية أو وطنية أو قومية فى معاداة دولة عظمى أو دولة كبرى ومضيت أحاول وتعرضت كما حدث فى كل مرة إلى الموازنة بين حدود الاحتمال وحدود الكرامة أو بين حدود المرونة السياسية والحرية الوطنية أو بين الذى يجب أن يفعله الإنسان باسم السياسة ويرفضه باسم الأخلاق أو بين أن أشير إلى ضرورة فتح صفحة جديدة وبين نسيان الماضى.. وفى أواخر سنة ١٩٧٥ كانت حاجتنا إلى قطع الغيار شديدة جداً وليس هذا سرا فمعروف للعالم معدل استهلاك الطائرات

لقطع الغيار ورفضت روسيا أن تعطينا قطع غيار الطائرات ميچ ٢١ وكنا فى حاجة إلى إجراء «عمرة» لهذه الطائرات على أن تكون هذه العمرة فى مصر وليست فى موسكو.

وقد كان البند الأول من البنود السبعة التى أرسلتها إلى برجنييف: إجراء عمرة لطائرات الميچ ٢١.. واتجهت إلى صديقتنا الهند إحدى الدول الثلاث التى قام عليها العالم الثالث: الهند ويوغوسلافيا ومصر.. فالهند تقوم بتصنيع هذه الطائرات بمقتضى اتفاق بينها وبين السوفيت.

وكل ما كان يخطر على بالى فى ذلك الوقت هو أن سنوات القرارات قد انتهت وأن سنة ١٩٧٦ سوف تمضى هادئة وخصوصا أن ولايتى للرئاسة سوف تنتهى يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٦ وربما استطعنا فى هذه السنة أن نحسن العلاقات بيننا وبين السوفيت أو بيننا وبين الأمريكان وبالنسبة للأمريكان فالموقف مختلف وهم معذورون فانتخاباتهم وحملاتها العنيفة قد بدأت قبل ذلك بسنتين أما مع الروس فيمكن أن تصبح علاقات «عادية» من المنطلق الذى لم أتعجب من ترديده وهو: احترام إرادتنا فى اتخاذ القرار.. ولم يستجب الروس.

ولكن جاءت الاستجابة فى مارس سنة ١٩٧٦ عندما أعلنت الهند: إنها ستأذنت الاتحاد السوفيتى مرة بعد مرة.. ولكن فى جميع المرات رفض الاتحاد السوفيتى أن تساعدنا الهند فى إجراء عمرة للموتورات أو بيع قطع الغيار من أى نوع!



١ - الرئيس السادات
أثناء زيارته للولايات
المتحدة الأمريكية .



٢ - الرئيس السادات
وهنري كيسنجر .. وصداقة
حميمة .





٣ - مباحثات السادات
في أوروبا .



٤ - جمال عبد الناصر
والسيدة أنديرا غاندى
رئيسة وزراء الهند .



موقف غريب

- السوفيت يترحمون على أيام ناصر!
- من أجل مصر وحب مصر كتبت هذه الأوراق.
- الهند ترفض إجراء عمرة للطائرات المصرية!
- معاهدتي مع السوفيت ليست إلا قصاصة ورق.

صدمة أن اعتذرت الهند عن عدم إجراء عمرة للطائرات ميج ٢١ التي تنتجها كانت بالاتفاق مع الاتحاد السوفيتي. فلم أكن أتصور أن الذى بيننا وبين الهند من علاقات عميقة منذ أيام نهرو العظيم، سيتغير بهذه الصورة الغريبة العجيبة. لقد فوجئت بأن الأرض السهلة التي بيننا ليست إلا أرضا ملغومة.. وأن شعبنا قد اصطدم بأحد جبال الجليد.. إذن فالموقف أخطر بكثير جدا من مجرد أن تعتذر الهند.. أو تجد الهند نفسها مضطرة إلى الاعتذار.. أو أن يدا أكبر قد أمسكت يد الهند ورفعتها في الهواء لتقول لمصر: لا.. وأنا أفهم أن يفعل الاتحاد السوفيتي ذلك. وأن تمشى وراءه دول الكتلة الشيوعية. هذا أعرفه وأتوقعه. وطبعى. ولكن أن تفعل الهند ذلك. فهذه إضافة جديدة سيئة. ومعنى ذلك أن السوفيت قد أقاموا حصارا عسكريا حول مصر..

إن كوريا الشمالية وهى دولة شيوعية، قد ساعدتنا وزعيمها كيم إيل سونج رجل عظيم وقد فعل لبلاده الكثير. وقد رأيت كوريا الشمالية سنة ١٩٦٦. وأشهد أن الذى حققته كوريا يعتبر من الإنجازات السياسية ومن معجزات العصر.. كيم إيل سونج شيوعى ولكن ليس من طراز زعماء الكتلة الشرقية الأوروبية.

أما الهند وهى ليست شيوعية ولا من دول الكتلة الشرقية فقد فعلت شيئا عجيبا لا يخطر على البال.. على رغم العلاقات القوية والمواقف النضالية المتناسقة بين مصر والهند ويوغوسلافيا: ذلك المثلث الذى قامت عليه كتلة عدم الانحياز. كما أن هناك اتفاقات اقتصادية وصناعية تربط بيننا، وبذلك يكمل الواحد منا الآخر.

ولكن ذلك كله لم ينفذ ولن يشفع لتتخذ الهند موقفا آخر غير الذى اتخذته.

ثم إن بيننا وبين الهند علاقات خاصة منذ أيام نهرو ولنا موقف معروف أيام أحداث مستعمرة «جوا» البرتغالية الواقعة فى الأرض الهندية.

وموقف الهند مختلف تماما عن موقفنا نحن فى مصر لأننا فى مصر نرى أن الأسلحة إذا اشتريناها ودخلت أرضنا فنحن أحرار فى استخدامها على النحو الذى تمليه مصالحنا العليا.

والا كان معنى ذلك أن هذه الأسلحة ليست في أيدينا. وإنما الأسلحة عندنا وفي أيدينا ولكن توجيهها يقوم به الآخرون.. وهذا ما أسميه «خرق الاستقلال المصرى».. وقد رفضت ذلك، كما ذكرت كثيرا، وسوف أرفضه مادمت حيا. وأنا على يقين من أن أجيالنا القادمة المخلصة سوف تفعل ذلك..

لقد جاء هذا الحادث الهندى العجيب فأحسست أنه قد غير معالم الطريق أمامى وتحت قدمى.. تماما كما يحدث فى السكك الحديدية أن يفاجأ ركاب القطار بأن القضبان قد تحولت تحت عجلاتها.. ليذهب القطار إلى وجهة أخرى غير التى يديرها السائق. ولذلك كان لابد أن أتدبر الموقف وأتدارك ما سوف يحدث حتى لا يحدث..

فنظرة واحدة إلى الطريق ورائى أجد أن سنوات ولايتى قد كانت لها علامات مميزة:

ففى سنة ١٩٧١ قد صفيت مراكز القوى. وفى سنة ١٩٧٢ أصدرت قرار طرد الخبراء الروس. وفى سنة ١٩٧٣ كانت معركة أكتوبر المجيدة. وكانت هذه المعركة ضد الإرادة السوفيتية والأمريكية معا. وفى سنة ١٩٧٤ كان الانفتاح الاقتصادى وانفتاح قناة السويس. كل ذلك وغيره كان يمشى أو يجرى متوازيا مع إعادة الديمقراطية السليمة وإعادة بناء مصر اقتصاديا. وفى سنة ١٩٧٥ و ١٩٧٦ كان ترتيب بيتنا من الداخل عملا مستمرا.

ورأيت أنه من العدل والإنصاف للحقيقة وللتاريخ أن أروى قصة حياتى.. أو قصة ذلك المصرى الذى جاء من القرية وتدرج فى كفاحه حتى تسلم شرف المسئولية الكبرى وتوجيه مصير الأمة المصرية العظيمة. ولذلك سجلت على أشرطة قصة حياتى منذ أن كنت طفلا حتى نهاية ١٩٧٥. وكان الدافع الحقيقى لذلك أن أضع أمام الشعب وأمام الباحثين معلومات من الدرجة الأولى، وأن أطلعهم على سير الأحداث بمنتهى الصدق والأمانة.. فأنا لست شاهدا على تطورات العصر، وإنما ساهمت فيها وحملت مسئوليتها وانفردت بهمومها وأعبائها وأشركت معى الكثيرين.. ثم جنثت أروى ذلك.. وحسبى الله ونعم الوكيل فى كل ما قلت وكل ما فعلت. فلم يكن، ولن يكون لى هدف سوى: مصر وحب مصر والإخلاص لها حتى الموت. والأعمار بيد الله. ولذلك قررت أن أسجل الأحداث من وجهة نظرى.

وكان ذلك هو قرارى سنة ١٩٧٥.

وسجلت حياتى على أربعين شريطا، فملأت وجهى هذه الأشرطة..

وكان الدافع إلى ذلك أيضاً أنني وجدت أقلاماً قد تناولت التاريخ وراحت تنهشه وتلويه لحسابها الخاص. كأن شهود تاريخ مصر قد ماتوا جميعاً. وكأن التاريخ قد احتكرته بعض الأقلام ترويه على هواها، وتضيف وتختزع الكثير من الوقائع التي ليس لها أساس من الصدق أو من الحقيقة. وكم ضاعت حقائق بسبب سكوت الذين يعرفون. ولذلك قررت أن أقول وأن أترك ما أقوله للمؤرخين والمحللين بعد ذلك.

على أنه إذا جاءت سنة ١٩٧٦ تنتهي ولايتي، ولم يكن في نيتي أن أجدد الولاية.. لولا هذا «الاختراق لاستقلال مصر» - أي لولا هذا الموقف الذي اتخذته الهند بضغط شديد من الاتحاد السوفيتي.

وموقف الاتحاد السوفيتي من «عمرة» الطائرات معناه: أن الاتحاد السوفيتي يريد لهذه الطائرات أن تصبح خردة.. لأن الطائرات التي لا تقوم بإجراء عمرة لها لا بد من ركنها. فإذا حدث ذلك يجب أن نحذفها من قوائنا.. فلم تعد لها أية أهمية قتالية. كأنها طائرات قد ضربها العدو فسقطت على الأرض لا حراك فيها.

وبذلك يكون الاتحاد السوفيتي قد أكمل طوق الحصار العسكري والاقتصادي على مصر. والمخرج الوحيد هو أن أذهب إليها راکماً. أطلب العفو والصفح. ولكنني لم أركع ولن أركع إلا لله وحده!

ثم حدث في مؤتمر الحزب الشيوعي الذي انعقد في فبراير ١٩٧٦ أن امتدح برجنيف الهند وهاجم مصر.. وهذا موقف غريب.. فما قاله برجنيف: أن بعض الأنظمة والمنظمات السياسية التي أعلنت أهدافها الاشتراكية والتي أنجزت تحولات تقدمية. هذه الأنظمة قد فوجئت بضغط شديد من الرجعية الداخلية والخارجية، وأن الحملة الأخيرة التي شنتها الأوساط اليمينية على حكومة أنديرا غاندي ومحاولات نسف الانجازات الاجتماعية والسياسية للثورة المصرية هما مثالان على هذا التطور لهذه الأحداث.

والملاحظ أن المياغة التي أوردها برجنيف تمثل منعطفا خطيرا جدا في السياسة السوفيتية فهو يؤيد حكومة الهند ويدعمها. وفي نفس الوقت لا يقول شيئا من ذلك عن مصر. بل إنه يحاول أن يفصل بين إنجازات الثورة المصرية ونظام الحكم القائم في مصر. وهو بذلك يتجاهل أن هذا النظام القائم هو الاستمرار الشرعي والطبيعي للثورة المصرية.

وهذا هو الخطأ العميق الذي وقع فيه السوفيت في علاقتهم بنا ويؤكد لنا معارضتهم القامة للتحولات التي أنجزتها مصر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا. أي ما نسميه نحن - ونحن

أحرار فى هذه التسمية- بسياسة الانفتاح. التى كان من بينها انفتاح قناة السويس لصالح الملاحة لكل الدول وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى. وسياسة الانفتاح التى يعارضها السوفيت قد بدأها سنة ١٩٧٤ بعد فض الاشتباك الأول.

وقد أودعت لدى مجلس الشعب ذلك الخطاب الذى كتبه سامى شرف يستعطفنى فيه ويقرر بخطيبه أنه فى سنة ١٩٧١ قد قابل برجنيف فى موسكو. وأنا الذى أرسلت سامى شرف فى مهمة خاصة.. فقال له برجنيف: إن السادات يقوم بتصفية ثورة جمال عبد الناصر! وقد طلبت من المدعى الاشتراكى أنه لا داعى لأن يعلن هذا الجزء من الخطاب ولا داعى لإعلانه وإطلاع المحامين عليه. حفاظا على التحقيق وعلى مسار الثورة المصرية.

وإذا كان برجنيف يهاجم سياسة الانفتاح فى سنة ١٩٧٦ أمام العالم كله، فإن الحقيقة هى أن الذى يحدث فى مصر لا يعجبه ولا يروقه من أوله لآخره. ومصر لا تعجبه لأن هناك ترتيبا آخر، ولأن هناك تدبيرا آخر.. أو استعدادا ومخططا سوفيتيا لقلب الأوضاع فى مصر، لتحقيق الإنجازات والتحويلات التى تعجبهم، وعن طريق العملاء المعتمدين عندهم.

والروس قد استبقوا سامى شرف بضعة أيام بعد أن عاد الوفد المرافق له إلى القاهرة. ويكفى أن نقرأ ما جاء فى الكتاب المعروف باسم «ك. ج. ب» ومعناها: لجنة الأمن القومى.. أى البوليس السرى الروسى. ولهذا الكتاب الذى ألفه جون بارون عنوان فرعى آخر هو: أعمال عملاء السوفيت السريين. وفى صفحة ٥٣ يتحدث الكتاب عن سامى شرف عميل السوفيت فى مصر وعن غيره أيضا.. وفى استطاعة أى باحث فى التاريخ أن يعود إلى هذا الكتاب. ثم إن السوفيت يتباكون على جمال عبد الناصر..

وهذا الرجل الذى يرتدون قميصه حبا له وتخليدا لذكراه.. ما الذى عملوه من أجله؟ لا أريد أن أذهب إلى بعيد.. وإنما سأكتفى بأن أشير إلى ما رآه ملايين المصريين والعرب يوم قرر جمال عبد الناصر أن يتنازل. لقد رأى الملايين أن جمال عبد الناصر أثناء إلقاء كلمة التنازل توقف لحظة ثم نظر إلى اليسار. ففى ذلك الوقت جاءت رسالته رسالة من القادة السوفيت تطلب إليه ألا يستقيل، وأنهم على استعداد لأن يحققوا له كل مطالبه ولكن جمال عبد الناصر لم يتوقف عن إلقاء كلمته.

وأرسلوا لجمال عبد الناصر بعض السلاح وكانت حاجته إلى السلاح أكثر وأشد لكى يقيم الخط الدفاعى بسرعة على الضفة الغربية للقناة. وأرسل لهم فى يوليو ١٩٦٧ يطلب المزيد...

وبدأت سلسلة الكلمات التي يرددونها والتي نعرفها حتى مللت ذكرها : انتظروا.. حالا.. سوف تجيء لكم الأسلحة.. وقد رويت كيف إن جمال عبد الناصر فقد أعصابه في الإسكندرية أمام الرئيس تيتو. وقد رويت ووصفت ذلك في صفحات سابقة.. وظل الاتحاد السوفيتي على موقفه الذي أصبح واضحا تماما في كل هذه الأوراق، والتي أسجلها للتاريخ، لتكون عبرة للأجيال. وإحقاقا للحق. وفرصة مناسبة جدا لأن يرد عليها أو يفندها أحد، إن استطاع..

أعود فأقول إن الحصار المضروب حولنا يتنافى مع المادة ٨ من المعاهدة السوفيتية المصرية التي عقدها في سنة ١٩٧١ بناء على طلبهم هم، وإلحاحهم هم. وهذه المادة تقول: إن الاتحاد السوفيتي يتعهد بأن ينمي القوة القتالية للقوات المسلحة المصرية لتحرير الأرض.

إن كيف يتفق هذا الموقف الهندي الأخير مع تنمية القوات القتالية لمصر؟

وإذا لم يكن هذا تعويقا لنمو قواتنا فماذا نسميه؟

بل إذا لم يكن هذا شللا لها وتعطيلا وتحويلا لطائراتنا إلى أكوام من الحديد فماذا نسميه؟ بينما نعطي للسوفيت تسهيلات عسكرية خطيرة.

صحيح أن هذه التسهيلات ممنوحة لهم منذ أيام جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٨. وكانت مدة التسهيلات خمس سنوات تنتهي في سنة ١٩٧٣. ولكن مع أول خلاف بيني وبينهم بعد طرد الخبراء في يوليو ١٩٧٣ إما أن نجدها وإما أن نلغيها. لأن الاتفاق ينص على اتخاذ مثل هذا القرار قبل أن ينتهي بثلاثة شهور في مارس سنة ١٩٧٤.

وفي ذلك الوقت كان الروس قد خرجوا منذ ستة شهور. ومعركة الخبراء السوفيت هذه لم يستوعبها الروس كما يجب، أو كما تمنيت. وقالوا وترددت أصدا كثيرة لما قالوا: إنني طعنتهم من الخلف.. إنني بعتهم للأمريكان وبعث مصر كلها للأمريكان.. وإنني صفيت الثورة.. وإنني شاهد على نهاية جمال عبد الناصر... إلخ

ولكن من العدل أن أقول إنه على الرغم من الخلاف الشديد الذي بلغ قمة توجعه، أو قاع جموده في ديسمبر سنة ١٩٧٤ طلبت من المشير أحمد إسماعيل، الله يرحمه، أن يستدعي السفير السوفيتي. واستدعاه. وقال له: الاتفاق ينتهي في مارس ١٩٧٤.

قال السفير: أعرف ذلك.

قال المشير: لقد قررنا تجديده خمس سنوات أخرى! ..

وكان هذا القرار مفاجأة للسوفيت تماما.

وكان فى ذهنى أن السوفيت قد وقفوا إلى جانبنا فى محنة ١٩٦٧ وأنه إذا كان هناك سوء فهم بسبب طرد الخبراء، فالزمن كفىل بعودة العلاقات.. وهدوء الغبار ونقاء الجو بيننا. ولا داعى للاستعجال. ولابد من الصبر. وأنا رجل صبور. ويقول الناس: إننى صبور جدا. وأعترف الآن، وقد قلت ذلك مرارا، أن تجديد هذه المعاهدة كان بناء على طلبى أنا. وكان من منطلق لا يفهمه السوفيت.. فأنا رجل ذو مبادئ. ونحن نذكر بالامتنان كل من ساعدنا وكل من وقف إلى جوارنا. وأن لنا قيما روحية، وأن لنا تاريخا دينيا وحضاريا طويلا عريضا. وأنا أعلم أن مثل هذه الكلمات والمعانى، لا هى كلمات ولا لها معنى عندهم.. ولكننى أتوجه بكلامى إلى أبناء شعبي وأبناء أمتنا العربية. فهم مثلى، يؤمنون بالله والقيم الأخلاقية، ويفهمون معنى الأخوة والصداقة والامتنان..

وفى ذلك الوقت حدث فى مصر الكثير من البلبلة.. وقال المزايدون وقال أعوانهم وذيولهم وعملاؤهم: إن مصر راحت وضاعت.. وإن أحدا لا يستطيع أن يستعيدها أو يستردها. وإذا استعادها فلن يستطيع أن يضعها على الطريق الصحيح..

يعنى لقد أعلنوا من جانبهم نهاية العالم. وأن الأرض قد انشقت من تحت مصر وابتلعتها بكل إنجازاتها.. وهى هלוسة لابد أنها تنفع الذين سوف يكتبون قصة مصر أو سوف يعالجون العقد النفسية التى تحكم عقول المرجفين والمتشككين والرافضين لكل الإنجازات الإيجابية التى حققها شعب مصر على رغم الضغوط العنيفة عليه من الداخل ومن الخارج..

ونسى الروس أننى يوم عقدت هذه المعاهدة لم يكن ليوافق عليها أحد لولاي.. أى لولا أننى طلبت إلى الشعب ذلك. ولولا هذه الثقة الهائلة فى حسن تقديرى للأمور.. وهذا من فضل الله. وقد قبلها الشعب على مضض. ثم أعلنت أن هذه المعاهدة ليست إلا قصاصة ورق.

وكنت أنظر إلى هذه المعاهدة على أنها عهد وميثاق وكلمات شرف. ولكن الروس هم الذين رأوها قطعة ورق.. ومصير قصاصات الورق فى التاريخ كله معروف.. وهم الذين نفخواها. وكان من الطبيعى أن نتركها تطير إلى حيث لا عودة.. فالشعوب التى تربطها الأوراق التى لا قيمة لها، شعوب لا قيمة لها أيضا. ونحن شعب له قيمة فى كل مراحل التاريخ.. وكان منطقيا أن أطلب من المجلس الذى أقر المعاهدة أن يوافق على مشروع القانون بإلغائها..

ونص الإلغاء هو:

«بعد الاطلاع على الدستور» .

«وبعد الاطلاع على القرار الجمهورى رقم ٨٨٤ لسنة ١٩٧١» .

«وبعد موافقة مجلس الشعب» .

«قرر» :

«مادة أولى: إنهاء العمل بالمعاهدة المعقودة بين جمهورية مصر العربية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية عن الصداقة والتعاون والموقع عليها فى القاهرة فى ٢٧ مايو» .

«مادة ثانية: يعتبر هذا القانون نافذا من تاريخ صدوره» .

وقد اهتمز مجلس الشعب من الفرح اهتزازا عنيفا. وقد شاهد الملايين ذلك على شاشات التلفزيون. ووافق المجلس بأغلبية ٣٥٨ صوتا، ولم يتخلف سوى صوتين اثنين فقط.

ومن حق أى إنسان أن يقول: لا.. فنحن فى ظل مجتمع ديمقراطى.. لا خوف على أحد من أحد إذا قال للحاكم أو للسلطة: لا.. فقد انتهى إلى غير رجعة ذلك العهد الذى اختفت فيه من قاموس الحياة السياسية والاجتماعية كلمة: لا.. لم يعد مجتمعنا هو مجتمع: نعم بالحق وبالباطل..

لم تعد كلمة «نعم» صنما يركع ويسجد أمامه كل الناس..

وليس هذا بالتغيير الهين فى حياتنا. ولا أريد أن أستطرد فى ذلك، فهذا مجال أتركه للمؤرخين والمحللين السياسيين. وإن كنت أعرف، كما يعرف غيرى، أنه حتى هذه الديمقراطية الصحيحة السليمة، لا تعجب المزايدى والمرجفين. لأن الهدف هو: «الألة» مصر.. بلبله مصر.. وإطلاق الضباب.. وتراكم الجليد فى كل اتجاه.. حتى لا تكون حركة.. وحتى لا يكون طريق سليم واضح نمشى فيه نحو تحقيق أهداف مصر.

كل ذلك أعرفه وزيادة.. ولكن الهدف الذى أمامى والذى أمشى نحوه بخطى وثقة ثابتة، على رغم الضغوط والمعوقات وحملات التشكيك، تجعلنى أحتمل كل أنواع العذاب من أجل مصر.. وفى ذلك راحة لضميرى أمام الله وأمام التاريخ..

وبعد ذلك كان الالتفات إلى مصر داخليا وديمقراطيا هو هدفى الأكبر..

فأصدرت قرارا بتشكيل لجنة المائة.. لتضع أمام الشعب ومع الشعب وله، مستقبل العمل السياسى. فقد آن الأوان لكى نمارس الديمقراطية السليمة تنفيذا للمبدأ السادس لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢. وكانت لجنة المائة جمعية تأسيسية. وبذلك تكون الأحزاب السياسية فى مصر قد ولدت ولادة طبيعية. وجاءت الانتخابات تأكيدا لكل هذه المعانى السامية التى

نحرص عليها جميعا.. انتخابات حرة مائة في المائة. والعالم كله يعلم ذلك. وقد أشادت الصحف العالمية بما يجري في مصر. وحتى هذا لم يعجب السوفيت أيضا، على رغم أن لدينا تنظيما يساريا مواليا لهم. ونسمع من السوفيت كلاما عن الديمقراطية. وليس من الحكمة أن نتساءل عن المقصود بهذه الكلمة. فهي من الكلمات التي جنس عليها الناس.. فهي في كل قاموس لها معنى مختلف.

ولا أعرف.. إذا لم يكن هو هذا الاختلاف في الرأي والحرية في إبدائه وعلى الصورة التي نراها في مصر، فما هي الديمقراطية إذن؟ وما هو المعنى الذي أراده الإغريق لكلمة الديمقراطية من ألف السنين.. لقد قصدوا أن يكون معناها حكم الشعب بالشعب وللشعب.. وإذا كان لابد من توضيح ذلك أكثر فالروس لهم معنى وهو: أن الديمقراطية هي أن تكون حرا حرية مطلقة في أن تقول لكل ما يقولون: نعم.. وأنت حر في أن تقولها بصوت مرتفع أو بصوت منخفض.. أو تقولها مكتوبة أو مرسومة.. أو تغنيها أو تنظمها شعرا.. أنت حر في أن تقولها على النحو الذي تريد.. ولكن المهم أن تقولها. وهذه هي الديمقراطية.. أو بعبارة أخرى: أن تكون معهم وأن تكون لهم وأن تكون بهم.. وإلا فلا أنت ديمقراطي ولا أنت اشتراكي ولا ما تقوم به يعتبر تحولا جوهريا في الطريق الصحيح، كما أعلن ذلك برجنيف في اجتماع الحزب الشيوعي.. وهذا ما يجعلني أؤكد أن هناك «فجوة فهم».

أي فجوة بين الذي نفهمه والذين يفهمونه هم.. أو بين الذي نفهمه وبين الذي يجب أن نفهمه أو الذي يريدوننا أن نفهمه. هذه الفجوة أساسها أن لنا قيما أخلاقية.

هذه الفجوة هي التي سقط فيها وتردى إليها هؤلاء الشبان الصغار في حوادث ١٨ و ١٩ يناير الماضي.. فهؤلاء الشبان الصغار وقد دفعوهم مجردين من كل القيم ومن كل المعاني والروابط الأسرية المقدسة ومن كل المبادئ الدينية.. دفعوهم لنشر الفوضى وإسالة الدماء وتمزيق الطبقات أو إطلاقها بعضها على البعض.. ليقفزوا هم إلى الحكم.. إلى آخر الأفكار المسمومة المجنونة والتي أرادوا بها تشويه أجمل ما في مصر: شبابها ومستقبلها.. والتي أرادوا أن يفسدوا التعبئة العامة التي حشدتها مصر من أجل السلام في الشرق الأوسط وفي العالم.. ولكن علينا أن نحمل مصر من أبنائها المضللين، وهم قلة.. وأن نحمل مصر من المتريصين بها.. وعلينا أن نزن الأمور بميزان دقيق. فلا نظلم أنفسنا أو غيرنا.. والزمن سوف يكشف لنا كل شيء.. سوف

يكشف لنا العدو والصديق.. وأحمد الله أن رصيدي من الأصدقاء أكثر بكثير جدا من رصيدي من الأعداء.. وأننى لا أزال أتطلع إلى أيام من سنة ١٩٧٣ قبل الإعداد لحرب أكتوبر المجيدة. وأرى وجوه الأصدقاء التى أشرقت بالحب لمصر والإشفاق عليها، والتشجيع لها أن تمضى فى سبيلها منصوره بإذن الله، ومساندة الأشقاء والأصدقاء، وصمود الشعب وتضحياته..

إن تلك الأيام من سنة ١٩٧٣ كانت نصرا يسبق النصر. فقد اتفقنا. وكان ذلك انتصارا عظيما تحقق لمصر وللأمة العربية.. فقد مضى إلى غير رجعة. ذلك الوقت الذى كان فيه المصرى شخصا قبيح الوجه، على رغم أنفه.. وكان الأشقاء ينظرون إلينا بكثير من الحذر. والحذر يولد الخوف. والخوف يولد الكراهية. والكراهية أم الحقد.. وكل الحروب إنتاج مشترك للكراهية والخوف..

كان ذلك هو الوجه القبيح الذى أضيفت إليه معالم أخرى، مزقت قلوبنا وأحزنتنا على ماضينا العريق.. عندما أصيبت مصر بالنكسة الفادحة.. وفى استطاعة الفنانين والأدباء فى المستقبل أن يستوحوا هذه الصورة الموجعة للقلب، والمثبطة للهمم: كيف تلتقى الكراهية والخوف والهزيمة والهوان والذل والمرارة واليأس والندم كلها فى وجه واحد.. فتكون بمثابة العينين والأذنين والشففتين والأنف واللسان! .. انتهى ذلك كله. وأحمد الله أن مكننى من أن أفعل ذلك.

وهذا المعنى هو الذى أجملته فى بداية ونهاية خطابى إلى مجلس الشعب فى مارس سنة ١٩٧٦، وهو كلمات لأحد الصوفية كانت تؤنس وحدتى عند الهموم والملمات.

يقول:

«رى قد طويت من عمرى صفحات ونشرت اليوم صفحة، فاجعل صفحتى هذه أوعى للخير، وأخلى من الشر. وزينها للحق، وبرئها من الباطل، واجعل فاتحتها: الإخلاص لك والعمل لوجهك». ومن الضرورى فى توضيحى للأمور أن أقول إن السوفيت كانت لهم «تسهيلات» ممنوحة للأسطول الخامس السوفيتى. فقد كان من أحلام روسيا السوفيتية والقيصرية أن تصل إلى المياه الدافئة فى البحر الأبيض، وفى البحر الأحمر أيضا. وهذه التسهيلات التى منحتها مصر لهم هى بداية «التسهيلات الدافئة». وكانت لهم فى الإسكندرية ورشة بحرية داخل الميناء. فبدلا من أن تذهب سفن الأسطول السوفيتى عبر مضيق الدردنيل التركى إلى البحر الأسود فيتم إصلاحها فى الموانئ الروسية، فإنهم يكتفون بذلك فى الإسكندرية. وكانت

السفن تزود بالمياه الحلوة من مرسى مطروح.. ففي مرسى مطروح توجد عندهم سفينة تموين. وهي سفينة جسمها من الأسمنت المسلح: مخزن يحمل ثلاجات وكل ما تحتاج إليه السفن وطاقتها من طعام وشراب. إى إن الأسطول السوفيتى إذا احتاج إلى ماء أو طعام وجده بسهولة فى مرسى مطروح، وإذا أراد إصلاح العطب أو الخلل فى سفينة أو فى أجهزتها، فإنه يرسو فى داخل ميناء الإسكندرية..

ولم يكتف السوفيت بذلك وإنما طلبوا أن تتحول هذه التسهيلات المنظمة أو الدائمة إلى أن تكون لهم قاعدة على الأرض المصرية أو شبه قاعدة.. أى طلبوا أن يكون لهم موطن قدم. وهذا ما رفضته فوراً ودائماً.. لأن معنى ذلك أن يرفعوا العلم السوفيتى على الأرض المصرية ! ..

□□□

١ - الرئيس السادات
أثناء لقائه مع أنديرا غاندى
رئيسة وزراء الهند .

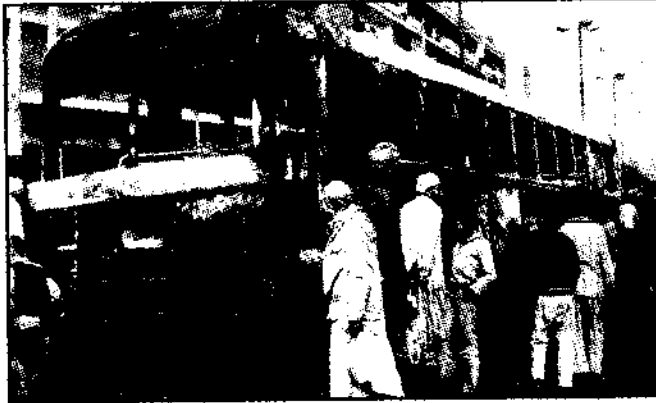


٢ - الرئيس السادات
والمشير أحمد إسماعيل فى
استراحة كنج مريوط لوضع
تفاصيل خطة المعركة .





٣ - الرئيس السادات
أثناء إلقائه إحدى
الخطب .



٤ - أحداث يومي ١٨ ،
١٩ يناير كانت نتيجة
للفجوة بين مفهوم الروس
للديمقراطية ومفهومنا .



التصنيف اللعين

- الملك فيصل رجل يوزن بالذهب والماس .
- ناصر يندهش من موقف العرب فى مؤتمر الخرطوم .
- صفحة جديدة فى علاقة مصر بالسعودية .
- مواطن من الجيزة يسأل السادات سؤالاً غريباً !
- السادات نائباً لرئيس الجمهورية .

مداخل كثيرة للقاهرة، خيرا وشرا..

هناك وهناك ألغام توضع فى كل هذه الطرق..

وليس علينا إلا أن ننظر إلى الخريطة العربية.. شرقا وغربا. ما الذى نجده طول حكم جمال عبد الناصر - ١٨ عاما. كان هناك تمزق شديد وكانت للبلاد العربية على الخريطة ألوان غريبة فاتحة وقاتمة.. لماذا؟ فقد كانت هناك تصنيفات جعلت للتمزق معنى. وهذا المعنى لا ضرورة له. فقد كان هناك تصنيف يقول: العرب إما تقدميون وإما رجعيون. وهذه الكلمات فى قواميس السياسة الحديثة ليست واضحة الحدود. بل إنها أكثر الكلمات تداخلا، وأقلها انضباطا.

وهناك تصنيف يقول: ممالك وجمهوريات وإمارات ومشايخ.. وكانت هذه الأشكال تدل على الخير والشر.. أو تدل على مدى الاستعداد للبذل، والعجز عن ذلك. أو تدل على الماضى والمستقبل. وأن كل ما هو ملكى هو: شر.. وكل ما هو إماراتى هو متخلف.. وكل ما هو جمهورى هو الخير للإنسانية. وأن الذى ليس جمهوريا، لا حق له فى الحياة. دون أن نسأل أنفسنا: ومن الذى له حق العطاء فى تقرير الحياة للآخرين؟. وكان هناك تصنيف ثالث وهو ورقة فلسطين؟. هناك من يقفون وراء فلسطين، وهناك من يوقفون سير فلسطين.. وهناك من لا شأن لهم بهذه القضية. إن إسرائيل نفسها لا تستطيع أن تتجاهل فلسطين. أى لا تستطيع أن تتجاهل أنها أكلت أرضا، وابتلعت شعبا، ونهبت حقا، وخلقت عداء، وأسالت دما.. فإسرائيل نفسها تلعب بورقة فلسطين، فكيف يتجاهلها العرب؟ ولكن التصنيف كان يحتم أن ينقسم العرب معسكرين: مع فلسطين، وضد فلسطين..

ويجتهد هواة السياسة فى إطلاق التسميات على الدول العربية، ويجيء إطلاق التسميات مثل إطلاق الرصاص: مدويا داميا ظالما أيضا.

فإذا عدنا إلى الدول التى تنطبق عليها هذه التصنيفات الغريبة العجيبة وجدنا أن كل دول النفط قد استحقت وحدها كل هذه اللعنات: فهى الرجعية المتخلفة المتجاهلة لقضية فلسطين.

وبذلك نحذف من القوى العربية والطاقت العربية جانباً كبيراً هائلاً نحن في حاجة إليه.. إننا حذفنا كل العرب، وأضفناهم دون وعى إلى الجانب الإسرائيلي. وبذلك يكون أعداؤنا أو القوى المضادة لنا أو التي ضدنا والتي ليست معنا: إسرائيل والعالم العربي. فأى مكسب فى ذلك؟

لا مكسب طبعاً. وإنما خسارة مؤكدة.

ونعود إلى التصنيف فنجد أن المملكة السعودية استحققت أن تكون قمة الرجعية. وبعدها الكويت ثم ليبيا. ولذلك كانت الحملات عنيفة عليها. قاسية جائرة. مع أن السعودية ودول الخليج التي اتهمت بالرجعية والخيانة هي التي كانت وقفتها ووحدتها الرائعة قبل حرب أكتوبر وبعدها مصدر فخر ونصر للعرب. ولا تزال.

ووقعت النكسة التي هزت العالم العربى كله. وفتحت بطن الأرض تحت أقدامنا لننهار جسداً وروحاً وشرفاً وأملاً.. إلى أن أدركنا فضل الله، وانتشلنا من هذه الهوة السحيقة بانتصارات أكتوبر العظيمة. فالحمد لله..

وانعقد فى الخرطوم مؤتمر القمة. وحضره جمال عبد الناصر طبعاً. والملك فيصل رحمة الله عليه. والملك حسين. ولم يتمكن السنوسى ملك ليبيا من الحضور بسبب المرض. أما سوريا فرفضت المشاركة فى المؤتمر وإن كانت قد أوفدت وزير خارجيتها ليكون على مقربة من المؤتمر يشاهد ولا يشارك. واستقبلت السودان جمال عبد الناصر استقبالا رائعاً أدهش العالم كله. حتى إن مجلتيين أمريكيتين هما «نيوزويك» و«تايم» قد وصفتا هذا الاستقبال: بأن السودان خرجت لاستقبال المغلوب كما تستقبل الغزاة الفاتحين!

وفى مؤتمر الخرطوم التقى جمال عبد الناصر بقمة الرجعية العربية: ولم تكن هناك شماتة فى مصر، ولا فرحة بهزيمة جمال عبد الناصر. وإنما كان هناك موقف اندهش له جمال عبد الناصر. فقد قررت السعودية والكويت وليبيا دعم مصر بما يوازى دخل قناة السويس. ولم يكن جمال عبد الناصر يتوقع أو حتى يطمح فى أكثر من خمسة ملايين أو عشرة ملايين من الجنيهاات.

ومن الذى بدأ هذه المبادرة الكريمة؟

إنه الملك فيصل فهو الذى قرر أن يدفع خمسين مليوناً من الجنيهاات.. وبروحه الرقيقة ومودته الغامرة طلب من الكويت أن تدفع خمسة وخمسين مليوناً. ومن ليبيا أن تدفع ثلاثين مليوناً.

على أن توزع هذه المبالغ على مصر والأردن..
وكان الملك فيصل قليل الكلام. ولكنه إذا تكلم ففى كلماته القليلة ما يوزن بالذهب أو بالماس. والذي يعرف الملك فيصل كما أعرفه، يجد أن هذا الرجل قد علمته الحياة الكثير. وعلمته تجارب السياسة ومخالطة الشخصيات العالمية أن يكون صبورا وأن يكون حليما. وأن يجد لكل إنسان عذرا. ولعله قد اهتدى إلى ذلك كله عندما جلس فى مواجهة جمال عبد الناصر فى السودان. فهو أمام زعيم عربى. وأمام شخص مهزوم جريح جرحا عميقا. وأمام أقسى أعدائه وأعنفهم. ولكن الموقف يقتضى أن تمتد الأيدى وتأخذ بيد القائد المهور. وتلك صفات الرجل العربى الأصيل. وكان الملك فيصل هو هذا الطراز من الرجال: الذى لا تملك إلا أن تحترمه وتحبه.

ومن الغريب أو من المفارقات أن جمال عبد الناصر نفسه قد وصفوه بالرجعية. ففى داخل المؤتمر جلس جمال عبد الناصر أمام الرجعية العربية التى قررت أن تدعمه، دون أن تمن عليه. ولم تشأ سوريا أن تشترك فى هذا المؤتمر. واستدعى جمال عبد الناصر وزير الخارجية إبراهيم ماخوس وسأله: وأنتم لماذا لا تشتركون معنا؟

فأجاب ماخوس: أنا موافق على الاشتراك.

وسأله جمال عبد الناصر: وما رأى صلاح جديد فى دمشق؟

قال ماخوس: هو أيضا موافق.

وسأله جمال عبد الناصر: وما رأى الدكتور الأتاسى؟

فأجاب ماخوس: هو أيضا موافق..

وقال جمال عبد الناصر: إذا كنتم جميعا موافقين، فلماذا الوقوف فى الكواليس؟

ولكن التعليمات فى ذلك الوقت هى أن تقف سوريا بعيدا.. وكان السوفيت فى ذلك الوقت يحاولون ضرب مصر بسوريا، أى ضرب جمال عبد الناصر بصلاح جديد.. كما حاولوا أن يضربونى بالرئيس حافظ الأسد. وهذه المحاولة فشلت تماما.. فالرئيس الأسد صديقى. وقد اشتركنا معا فى الإعداد والاستعداد والنصر فى حرب أكتوبر ومازلنا معا فى حملة السلام.. وكان لجمال عبد الناصر ضعف خاص بالنسبة لسوريا.. وهذا معروف..

وكان عنده ضعف أيضا بالنسبة للأردن. ويشعر نحوها بكثير من الأسى والمرارة.. بالأسى العميق لما أصاب الأردن، والمرارة بسبب هزيمة الأردن في الحرب وكان يتولى قيادة قواتها ضابط مصري كبير هو عبد المنعم رياض. ومما يذكر للملك حسين حقا أنه هو الذى سلم القيادة لعبد المنعم رياض. وقد دخل الحرب من أول لحظة مع مصر.

ومن الإنصاف أن أقرر أن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت قد تعهد للملك حسين بأنه لن يمس الأرض الأردنية ولن يطلق عليها رصاصة واحدة إذا لم تدخل الأردن هذه الحرب. ولكن الملك حسين كان موقفه واضحا وشريفا.. وكانت مسئولية مصر فادحة فى المعركة الأردنية.

وبانتهاء مؤتمر الخرطوم عاد جمال عبد الناصر إلى القاهرة. وأشهد الله أن الرجل قد تأثر تأثرا عميقا بالغا لما حدث فى الخرطوم. فالذى حدث لم يكن سهلا على نفسه. فقد ألجأته الهزيمة إلى أن يواجه كل الذين اتهمهم بالرجعية والعمالة والخيانة. ولم يجد واحدا منهم شامتا أو متعاليا أو واحدا ينتهز هذه الفرصة ليتركه يسقط حتى الموت. وإنما الذى فعله الملك فيصل وبمبادرة منه هو، قد أصاب «شغاف قلب» جمال عبد الناصر..

صحيح أن جمال عبد الناصر قد انهزم فى ٥ يونيو، ولكن مؤتمر الخرطوم كان هزيمة معنوية أخرى.. فقد سقطت أمامه فى لحظة واحدة كل التصنيفات والاتهامات والصور الكاذبة التى ألققتها أجهزة الإعلام المصرية بكل هؤلاء الأشقاء العرب..

ولذلك وجدت جمال عبد الناصر عندما عاد إلى القاهرة قد تقدمت به السن خمسين عاما أخرى!

وقد صارحنى جمال عبد الناصر بكل هذه المعانى الأليمة، وصارحنى بأنه أخطأ فهم «هؤلاء الناس».. وأنه من الواجب ألا نستمر فى هذا الخطأ. وأن الذى فعلوه فى الخرطوم كان دشا باردا وأننا يجب أن نسمو إلى هذا المستوى العربى الرفيع..

وأذكر، وللتاريخ أيضا، أنه استدعى سامى شرف وقال له أمامى وبوضوح تام: لا هجوم على السعودية. ولا هجوم على ليبيا. ولم يكتف بهذا الأمر القاطع وإنما قال أيضا: ومنذ هذه اللحظة! ولكن للأسف الشديد دخل جمال عبد الناصر فى تلك المرحلة التى كان يقال له فيها: حاضر يا أفندم! ثم لا ينفذون له أمرا. فقد ظلت أجهزة الإعلام ماضية فى طريقها. فلم تصلها بعد قرارات جمال عبد الناصر بإيقاف الحملات الموجهة ضد الرجعية العربية!

وكذلك مضت أجهزة المخابرات المصرية فى نشاطها فى السعودية. فهذه الأجهزة أيضا لم تتلق بعد أوامر جمال عبد الناصر..

ورأى جمال عبد الناصر أن يصلح ما قسد بين مصر والسعودية بصورة واضحة. فوجه الدعوة للملك فيصل أن يزور مصر. لعل جمال عبد الناصر يؤكد له أن صفحة جديدة قد انفتحت. وأن جمال عبد الناصر قد كتب الكلمات الأولى فى السطر الأول من هذه الصفحة: لا هجوم على السعودية!

وجاء الملك فيصل إلى مصر. وبعد العشاء وفى صوت هادئ ونبرة حكيمة وعلى مسمع من كثير من الحاضرين، وكلهم أحياء الآن، قال الملك فيصل: يا فخامة الرئيس ما يزال الهجوم علينا عنيفا. وما يزال بعض المصريين يعملون ضدنا فى بلادنا!

وكان ذلك فى بيت جمال عبد الناصر، فقد كانت حفلات العشاء بعد النكسة تقام فى بيته. وجاءت هذه الكلمات الهادئة مثل قنابل شديدة الانفجار تسلمت إلى عروق جمال عبد الناصر. فاحمر وجهه وتفجر غضبا وهو يقول: إننى أرجوك يا جلالة الملك أن تشير إلى أى شخص يرتكب مثل هذه الأعمال أو الأقوال فى مصر أو فى أى مكان وأنا أبعثه إليك لتحاكمه.. حتى لو كان ذلك الشخص هو أنور السادات!

وكان جمال عبد الناصر يعلم مدى صداقتى للملك فيصل. إنها لا تقل فى قوتها وعمقها وحرصى عليها، من صداقتى لجمال عبد الناصر نفسه..

ولأول مرة أسمع جمال عبد الناصر يقول هذه الكلمة: توبة!

وهو يقصد أن يتوب عن مهاجمة رجال فى وزن الملك فيصل..

وقد رويت هذه الواقعة لعمر القذافى وقلت له: إن جمال عبد الناصر نفسه عدل عن المواقف العنيفة غير المحسوبة..

هذا بالنسبة للملك فيصل، أما بالنسبة للملك الليبى إدريس السنوسى فله قصة أخرى.

فقد احتاجت مصر إلى السلاح. ولا بد أن تشتريه من الاتحاد السوفيتى نقدا وبالعملة الصعبة.

ولم يجد جمال عبد الناصر زعيما عربيا يتجه إليه سوى الملك إدريس السنوسى. فقد كانت علاقة مصر بكل الدول العربية والغربية مقطوعة تماما.

وقرر السوفيت أن المبلغ المطلوب عشرون مليوناً من الجنيهات. وأرسل الملك إدريس ناظر الخاصة الملكية بشيك بمبلغ عشرة ملايين من الجنيهات كدفعة أولى. على أن يدفع الباقي بعد ثلاثة شهور، أى عندما تدفع شركات البترول أقساطها.

ولم يتردد الملك السنوسى لحظة واحدة. ولا فكر ولا تردد وإنما استجاب فوراً..

ومن الإنصاف أن أقول إن الرجل الطيب الملك السنوسى، لم يلق ما يستحقه من التقدير والامتنان، فالرجل - كما ذكرت - كان وارداً ضمن ذلك «التصنيف الملعون».. أو كان ضمن المغضوب عليهم الضالين.. فقد كان ملكاً ولذلك كان رجعيًا خائفاً.. الخ

ولكن عندما اتجه إليه جمال عبد الناصر قبل حرب يونيو يطلب ثمن الدبابات الذى حددته الروس دفع عشرة ملايين جنيه على أن يدفع الباقي بعد ثلاثة شهور.

وقامت ثورة ليبيا قبل أن يدفع بقية المبلغ، وكان السنوسى مريضاً يعالج فى اليونان. ولكن السنوسى كان قد اتخذ موقفاً قومياً عربياً من ثورة الجزائر. ومعروف دور مصر فى ثورة الجزائر، وما قدمته مصر للثورة الجزائرية.

فقد كان هناك طريقان لإيصال السلاح إلى الجزائر، إما بطريق البحر، وإما عن طريق الصحراء عبر ليبيا، وهو الطريق الأضمن، خصوصاً بعد أن ضبطت السفينة «أوتس» التى كانت تحمل أسلحة للجزائر قيمتها مليونان من الدولارات، فقد تسربت أخبارها قبل خروجها من الإسكندرية، وإن كانت سفن كثيرة قبلها قد حملت السلاح ووصلت به سالمة آمنة إلى ثوار الجزائر. ولذلك كان الطريق البرى أفضل، وفى ليبيا كانت هناك قاعدتان عسكريتان، واحدة انجليزية اسمها قاعدة «العضم» بالقرب من طبرق ومن حدودنا، وقاعدة ثانية أمريكية اسمها «هويلس» وهذه قريبة من طرابلس. ومعنى ذلك أنه فى ليبيا على أيام الملك السنوسى توجد قاعدتان أجنبيتان كبيرتان، والقاعدتان تكدست فيهما الأسلحة الحديثة والجنود والطائرات، ثم إن ليبيا دولة صغيرة.

كما أن فى ليبيا نظاماً يقرب من الحكم السويسرى إلى حد ما، ففيها ثلاث ولايات: برقة وطرابلس وفزان.. وكل ولاية لها مجلس وزراء وبرلمان.. وهناك مجلس وزراء للولايات فى برقة.

هذه هى صورة الوضع فى ليبيا، ولكن لم يطلب جمال عبدالناصر من الملك السنوسى مرة واحدة أن يسمح بمرور المساعدات العسكرية إلى الجزائر، إلا وجد ترحيباً شديداً وموافقة

فورا، ولذلك مرت أكثر المساعدات من ليبيا إلى الجزائر على رغم وجود القوات الأجنبية على الأرض الليبية، وبالرغم من أن بريطانيا وأمريكا عضوان في حلف الأطلسي مع فرنسا التي يحاربها الجزائريون.

وأكثر من ذلك أن جمال عبدالناصر طلب تخزين الأسلحة على الحدود الليبية الجزائرية جنوب تونس، لكي تتمكن القوات الثورية في الجزائر من الحصول على العتاد في الوقت الذي تشاء، ووافق الملك السنوسي.

وهذه المواقف التي اتخذها الملك من المعونة المالية قبل النكسة، وموقفه من الدعم العسكري لثورة الجزائر ومن مصر بعد ذلك.. تعطينا صورة بارزة لهذا النوع من الرجال.

وأعود إلى سبتمبر سنة ١٩٦٩.. حين تقرر عقد مؤتمر إسلامي في الرباط بمناسبة إحراق اليهود للمسجد الأقصى قبل ذلك بشهر. وكان من المفروض أن يحضره جمال عبدالناصر، لولا أنه أصيب بأزمة قلبية أودت بحياته بعد ذلك بسنة تماما.

وفى ذلك الوقت أخبرني الأطباء أن جمال عبدالناصر يجب أن يمتنع عن الخروج وعن السفر، وأكثر من ذلك أن الأطباء حرموا عليه التدخين، وعلى أي إنسان آخر في أي مكان يكون موجودا فيه.. وقد منعت التدخين في كل اجتماعاتنا دون أن يعلم ذلك.

وكان من المستحيل أن يحضر مؤتمر القمة الإسلامي، ولذلك سافرت أنا بدلا منه، ولم أكن في ذلك الوقت نائبا لرئيس الجمهورية، وإنما كنت الشخص التالي في الأقدمية، وكانت هذه هي عادتنا، وليس في ذلك اعتداء على حق أحد.

وذهبت لحضور المؤتمر في الرباط، وقد حضره أيضا الملك فيصل وشاه إيران والملك حسين واستقبلني الملك الحسن كرؤساء الدول تماما، بمنتهى الحفاوة والتكريم. وفي طريق عودتي نزلت بمطار طرابلس. ولأول مرة يلتقي مسئول مصري «بالذين قاموا» بثورة ليبيا.

وكان جمال عبدالناصر يكره أن يقال إنه مريض.. ولكن الأمريكان هم أول من اكتشف حقيقة مرض عبدالناصر، فقد جاءت أنباء تقول إن القائم برعاية مصالح الأمريكان في سفارة أسبانيا قد حسبها، فوجد أن الفترة ما بين مرض جمال عبدالناصر والإعلان عن تحسن صحته حوالي ستة أسابيع، واستنتج من ذلك أنه لابد أن تكون إصابته أزمة قلبية.

وفى ٢٠ ديسمبر تحدد موعد انعقاد مؤتمر القمة العربي في الرباط، وكان جمال عبدالناصر حريصا على السفر دفعا للشائعات التي تقول إنه مريض جدا، وفي نفس الوقت

كانت مراكز القوى تعمل بنشاط لورثة جمال عبدالناصر، وإعداد خليفة جمال عبدالناصر، وبدأوا يهاجمون ثورة ٥٢ التي أدت إلى النكسة الرهيبة... وبدأوا يهاجمون جمال عبدالناصر شخصياً، ويستغلون حالته النفسية ومرضه، وبدأوا يرتبون أنفسهم من وراء ظهره، ويتكفلون ويتربصون بعضهم ببعض. وكان المطلوب في ذلك الوقت أن يحصل في مصر شيء من البلبلة والتفكك، ومادامت الدنيا قد خربت فلابد لكل إنسان أن يبحث له عن سفينة نجاة مصرية أو ليبية، ويقفز من هذه السفينة إلى حكم مصر وبسرعة، ولأن جمال عبدالناصر مرضه خطير، وأنه سوف يموت قريباً. وكان لابد أن نواجه هذه الشائعات وأن نطمئن الناس على صحة جمال عبدالناصر، وعلى سلامة الثورة ومنجزاتها.. وأن نعطي لجمال عبدالناصر الفرصة لكي يفكر ويدبر ويستعد من جديد للمعركة لأن الحرب لم تنته، والعدو على أرضنا، وكما وقفنا وراء جمال عبدالناصر منتصراً، يجب أن نقف وراءه منهزماً، لننتصر من جديد. فالشعوب لا تقتلها هزيمة في موقعة، ومآخذ ليس إلا هزيمة في موقعة في معركة طويلة.

وهذا ما قلته في عدد من الندوات الشعبية من أقصى جنوب مصر إلى شمالها.. وكنت في ذلك أواجه الناس، وأرد على أسئلتهم، عن كل أسئلتهم، لأن الموقف كان يقتضي هذه التعبئة المعنوية، والمساندة لجمال عبدالناصر ورفعاً لمعنوياته، وكنت أعلم جيداً ما الذي يعانيه وما الذي يفكر فيه وأعرف الحساسية الشديدة جداً التي أصابته من كل شيء ومن كل أحد، فبعد النكسة وبعد مأساة صديق عمره عبدالحكيم عامر، وبعد الاستقالات المختلفة، وبعد إصابته بأزمة قلبية عنيفة كان جمال عبدالناصر في حالة نفسية أليمة.

ولكنني في ذلك الوقت لم أكن أدري بوضوح ما الذي يجري وراءه ولا أدري بمراكز القوى المتضاربة حوله.. حتى فوجئت وأنا أتحدث إلى الجماهير في أسبوط بأحد المواطنين يسألني سؤالاً غريباً عجباً، واندعش الناس، وعرفنا في نفس اليوم أنه مواطن من الجيزة وأنه موفد من قبل أمين الاتحاد الاشتراكي، أحد مراكز القوى فيما بعد وأحد المحكوم عليهم بالإعدام، ولم يكن للسؤال سوى هدف واحد: أنا!

كان من عادة مراكز القوى أن يضعوا في كل اجتماع من اجتماعاتي شخصاً يتقدم بسؤال يخرجني.. أو واحداً يقوم بتحطيم الفوانيس كما يحدث في الريف. والغرض من ذلك هو أن يفسد الجو.. أو ينقلب الفرح مآتماً..

وكذلك حاولوا أن يقلبوا النجاح الذي حققته في الندوات، إلى فشل.. إلى خناقة.. إلى هيصة تضيق فيها المعاني التي حرصت على أن أوضحها للناس.. فقد كانت مراكز

القوى مشغولة بضرب جمال عبد الناصر والثورة، منتهزة الظروف العامة للبلد والظروف الخاصة لجمال عبد الناصر. وقد رأوا في هذه اللقاءات معاني أخرى لم تكن في حسابي.. فهم يتعجلون النهاية. ويريدون أن يجعلوا الثورة على جمال عبد الناصر عامة.. ويريدون أن يعمقوا الشعور بالضيق.. فإذا شعر الناس بالضيق، ثاروا عليه يتعجلون الخلاص والنهاية.. ومتى يشعر الناس بذلك. فإنهم في مصر وبعد ذلك في ليبيا يقفزون على الحكم.. وكان ولا يزال هذا الارتباط وثيقاً بين ورثة جمال عبد الناصر - أدعياء الحق الإلهي في وراثة جمال عبد الناصر..

ولكن أهل أسيوط ضاقوا بهذا الشخص المدسوس على الاجتماع وأمسكوه.. انتقلت أنا بعد المؤتمر إلى استراحة المحافظ، وكان المحافظ ممدوح سالم في ذلك الوقت. الاستراحة فخمة ضخمة. وفي مصر عشرات مثلها يقيم فيها مفتشو الرى.. وانشغل الناس بهذا السؤال الغريب السخيف. لا أذكر السؤال بالضبط. ولكنه كان يتحدث عن جمال عبد الناصر والدكتاتورية وحكم الفرد. وكان الغرض من مثل هذا السؤال. أبعد وأعمق من مجرد ملاحظة على شكل الحكم. وإنما كان تمزيق الناس والإمعان في حيرتهم واضطرابهم لكي تحدث فتنة في مصر.

ومرة أخرى حدث نفس الشيء ولنفس السبب. ففي اجتماعي بأساتذة الجامعات الخمس في القاهرة كانت ندوة مفيدة وممتعة وناجحة أيضاً. أناس يسألون بالعقل. وتجيء الاجابة بالعقل والمنطق. فالمستوى رفيع. وكل هذا مسجل ومعروف. ولكن مراكز القوى ما تزال نشطة وهي لا تريد أن يقف أحد وراء جمال عبد الناصر أو يسانده. وإنما المطلوب أن يتركوه ليسقط وحده.. وفي هذا الجو الجامعي الوقور فوجئنا بشخص يقف ويقول لي مستنكراً: ولكنك تركب سيارة طولها ثمانية أمتار!

وكان السؤال مفاجأة لكل أساتذة الجامعات. فليس من المعقول أن يصدر هذا السؤال أو الاستنكار عن أستاذ جامعي.. والجو كله لا يوحي بشيء من هذا الإسفاف وهاجموه ووقف أحد الأساتذة من الذين نظموا المؤتمر، وشكرني وشكر الحاضرين وهنأني وأنفسهم، على النجاح العظيم لهذا اللقاء الفكري.. واكتشف الأساتذة أن هذا الشخص مدسوس على المؤتمر من أمين الاتحاد الاشتراكي بعابدين الذي كان واحداً من مراكز القوى.

وقبل ذلك لم ينس لي أصحاب مراكز القوى موقفى من الطلبة الذين أضربوا في كلية الهندسة، وكنت وقتها رئيساً لمجلس الشعب، كان ذلك في الشتاء. والجو بارد والطلبة مضربون عن

الطعام. فأرسلت لهم الطعام والشاي. واستدعيتهم وناقشتهم، ثم أعدتهم إلى بيوتهم، وتعهدت لهم بأن شيئاً لن يصيبهم. وكان شعراوى جمعة وزير الداخلية قد حاصرهم وأطلق عليهم القنابل المسيلة للدموع. ولكنى عاتبتهم كيف يفعلون كل ذلك بجمال عبد الناصر. وقلت: إننا فى حاجة إلى التضامن الجديد، وأن نجد الأعذار لأنفسنا ولغيرنا. وإننا يجب أن ننهض من عثرتنا وأن نستأنف المسيرة. وإنهم شباب وإن الطريق أمامهم طويل. وإن المستقبل لهم.. وإنهم يجب أن يفعلوا بالضبط ما يشجع جمال عبد الناصر على أن يمضى فى مشواره الصعب..

وتعهدت لهم بأن يكونوا فى أمان من أى سوء.. وخرجوا سعداء من مجلس الشعب. ولكن شعراوى جمعة عاد فقبض عليهم. والمعنى: هو ألا يكون لى رأى. وإذا كان لى رأى: ألا يكون لهذا رأى أى وزن.. أو أية قيمة.. والمعنى أيضاً: أنه لا أنا كرئيس مجلس الشعب ولا مجلس الشعب له قيمة!

ولم أنتبه إلى كل هذه التصرفات.. ولا أدركت أن خيطاً واحداً يربط بينها. وأن هذا الخيط فى أيدي أناس يقفون فى ظل جمال عبد الناصر..

أنا مشغول تماماً بمواجهة الناس وتبديد الشائعات التى ملأوا بها مصر فى ذلك الوقت والذى تزداد أصداؤها وتتضخم فى كل البلاد العربية. فقد كنت مشغولاً تماماً بتغطية مرض جمال عبد الناصر وخطورته على صحته، والخوف من أن تصاب مصر هى الأخرى، بأعنف مما أصيب هو أيضاً.

ولسم أكن أدري أن جمال عبد الناصر يتابع كل ما أقوله. وهذه عادة فيه. ولكنى اختلفت عنه فأنا مثلاً عندما أكلف حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية بمهمة فإننى أنتظره حتى يجىء فيحدثنى عن الذى قاله أو الذى أنجزه. ولكن جمال عبد الناصر كان حريصاً على أن تجىء إليه التقارير أولاً بأول، دقيقة بدقيقة فتكون لديه صورة مفصلة عن كل الذى جرى، هذا طبع فيه.

وفوجئت قبل سفر جمال عبد الناصر إلى مؤتمر القمة فى الرباط بأنه يفتاحنى فى أن أكون نائباً لرئيس الجمهورية. ولكنى أيامها قلت له: أنا لا يهمنى الاسم وإنما الذى يهمنى أن أقف إلى جوارك.. وأنا قد ذهبت إلى المؤتمر الإسلامى نيابة عنك ولم أكن نائباً لرئيس الجمهورية ولا حتى رئيساً لمجلس الشعب. فقد انحل مجلس الشعب.. وكنت فقط عضواً فى اللجنة العليا المكونة من عشرة أعضاء.

وأكدت لجمال عبد الناصر، حقاً وصداقاً، أنني لست في حاجة إلى أى شيء. فقد كنت أعرف أزمة جمال عبد الناصر منذ سنة ٦٧ وأعرف جيداً عمق الجرح الذى أصابه من مأساة عبد الحكيم عامر. وكان عبد الحكيم عامر أعز الأصدقاء. وقد فصلنا عليه دستورا ليكون النائب الأول لرئيس الجمهورية ليحل محله. إذا أصابه مكروه.. ولكن إرادة الله فوق كل شيء. فقد كنا ندبر، وكان لله تدبير آخر! وإذا حاول الإنسان أن يجعل من نفسه قضاء وقدرًا، فإنه ينسى أن هناك حكمة أحكم وأعظم هى التى تحرك القضاء والقدر والإنسان.. ثم إنه لا يصح إلا الصحيح.. ولا يمكن أن يحل أحد محل عبد الحكيم عامر فى قلب جمال عبد الناصر.. وقد كنت صديقاً لجمال عبد الناصر، ولكن صداقته لعبد الحكيم عامر كانت أقوى وأعمق. يومها قلت لجمال عبد الناصر: أنا لا أريد شيئاً. ولكنه أصر.

فقلت له: هل طلبت منك شيئاً قط؟

قال: عمرك ما فعلت ذلك.

— إذن ما الذى يدفعك إلى هذا القرار؟

— أراه ضرورياً..

قلت: إذن اجعلنى مستشاراً لرئيس الجمهورية.

فضحك كثيراً. وأصر على أن أكون نائباً لرئيس الجمهورية. وكانت علاقتى بجمال عبد الناصر هى علاقة الصديق. أقول له رأى وأنصحه. ولا أذهب إلى أبعد من ذلك.. بينما آخرون كانوا يشهرون به وينقدونه بعنف. ولكن كنت أقول رأى وأستريح إلى ذلك.. وقد تمضى الأيام لا يتصل بى. وكان بعض أصدقائى يتساءلون: ما الذى بينك وبين جمال عبد الناصر. إنه لم ينصفك تماماً. كما فعل للآخرين؟

ولكنى كنت أرى الصورة على نحو آخر. فأنا الرجل الثانى. وهذا يكفى. ويجب أن يدرك الإنسان الأمور بوضوح. وأن يعرف حدود الكلام وحدود الفعل. وأن يبين لنفسه أى نوع من الرجال جمال عبد الناصر. وأية ظروف يعيشها ويمر بها. ثم يجب أن يعرف ماضى جمال عبد الناصر والأزمات التى مرت به، ويتخذ منها وسيلة لتفسير سلوكه ونتائج هذا السلوك.. وكنت أعرف الحدود بوضوح..

ولذلك لم أوافق على أن أكون نائباً لرئيس الجمهورية. ولكنه كان قد قرر ذلك..

وقبل ذلك كان الفتى الأول لمراكز القوى على صبرى قد افتضح أمره فى مطار القاهرة فقد أتى معه من موسكو بحقائب كثيرة يريد أن يدخلها دون أن تمر على الجمارك، ونشرت

القصة بما تستحقه من التشهير الشديد والشماتة العنيفة.. فسقط على صبرى جماهيريا..
تماماً كما فعلت به بعد ذلك يوم ٢ مايو ١٩٧١، عندما قررت عزله فقد جاء هذا القرار
شعبياً، استراح له الناس جميعاً.

إلى أن كان جمال عبد الناصر يوم ٢٠ ديسمبر.. وكان من عادتنا أن نذهب إلى بيته وأن
نرافقه إلى المطار فذهبت ومعى حسين الشافعى إلى بيت جمال عبد الناصر. وفى الصالون
سألنى: مع صيغة القسم؟
قلت: نعم.

قال: قف واحلف يمين نائب رئيس الجمهورية.

وفى ثلاث ثوان حلفت اليمين وأصبحت نائباً لرئيس الجمهورية. وخرجنا وأصدر جمال
عبد الناصر تعليماته إلى سامى شرف بنشر الخبر والصورة ومكانها من الصفحات. وكان
جمال عبد الناصر دقيقاً فى ذلك.

ولم يتسع الوقت من بيته إلى المطار أو فى المطار لمناقشة جمال عبد الناصر فى هذا
القرار، وحتى بعد أن أصبحت نائباً لرئيس الجمهورية.

وسافر جمال عبد الناصر إلى الرباط. وفى عودته توقف فى ليبيا.

وفى طرابلس التقى جمال عبد الناصر وجعفر نميرى والقذافى وأصدروا بيان طرابلس
الذى جاء فيه أن اجتماع القادة الثلاثة ضرورة تاريخية فرضها قيام الثورات فى كل من
السودان وليبيا لتلتقى بالثورة المصرية الرائدة انطلاقاً من أن قيام هذه الثورات الشعبية
قد حقق تحالفاً ثورياً وثيقاً يرتبط جذريا وروحيا بحركة النضال الشعبى العربى وتطلعاته
إلى هزيمة مخططات الاستعمار الحديث والصهيونية ووصولاً إلى تحقيق التغير الاجتماعى
والتقدم والاشتراكية لمصلحة الجماهير العربية الأمر الذى يوفر الشروط الموضوعية لتحقيق
الوحدة العربية أمل أمتنا المناضلة كان لقاء القادة الثلاثة على درب الثورة العربية طبيعياً
ومنطقياً بل حتمياً نتيجة سقوط الأنظمة الرجعية فى الأقطار الثلاثة. إنه تحالف تهيأت
له كل الظروف الموضوعية والتاريخية التى صنعتها شعوبنا بالتضحيات الجسام وبالنضال
المشترك الذى شقته شعوبنا حتى هزيمة الاستعمار والرجعية وفتحت الباب واسعاً لتحقيق
آمال أمتنا وتطلعاتها الغالية فى التقدم والنهضة الاجتماعية.

وجاء فى البيان أن القادة الثلاثة وهم يجتمعون فى ليبيا، والتى تمكنت بفضل ثورتها
ونضال وتصميم طلائعها الثورية من تصفية القواعد العسكرية الأجنبية يؤكدون أن لقاءهم

يوسع جبهتنا القتالية في وجه العدو الذى يدنس أرضنا وبه يتسع ميدان النضال ضده من القاهرة إلى طرابلس إلى الخرطوم حيث تحشد وتكثف كافة الطاقات والامكانيات وهي كثيرة وصولاً إلى النصر وردعا للعدوان وتحريراً للأرض العربية.

ويرى الرؤساء أن مسئولية مواجهة التحديات الصهيونية والاعتداءات الاسرائيلية هي مسئولية مشتركة يجب أن تسهم فيها كافة الدول العربية ولذا فمن الواجب والضرورى مواصلة الجهود من أجل حشد كافة الطاقات العربية لخوض المعركة المصيرية التى تواجه الأمة العربية.

وقيل إن القادة العرب الثلاثة وضعوا أمامهم كل هذا مؤكدين أهمية العمل الموحد تحقيقاً لأهدافهم المشتركة بما يعود بالرفاهية والمنفعة المتبادلة على شعوب البلدان الثلاثة وعلى الأمة العربية.

ولذلك قرروا:

أولاً: عقد اجتماعات دورية للرؤساء الثلاثة كل أربعة أشهر لمتابعة تحقيق الأهداف التى اختاروها لشعوبهم والمبادئ المعلنة لثوراتهم والأمانى والتطلعات لأمتهم العربية المجيدة فى الحرية والاشتراكية والوحدة.

ثانياً: إنشاء لجان مشتركة فى كافة المجالات لوضع الأسس الكفيلة بتحقيق التعاون والتكامل بين الأقطار الثلاثة مما يعود بالمنفعة المتبادلة لشعوبهم. وكان جمال عبد الناصر يطمح فى أن تكون هناك أشكال أفضل للوحدة..

كما حدث بعد ذلك مع سوريا ومع ليبيا ومع السودان .. إنها أنواع من التنسيق الأعلى لكل العلاقات التى تقرب بيننا وتشد أزرنا فى مواجهة مشاكلنا القومية والدولية .. فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٧٠ حدثت معارك «أيلول» بين المقاومة الفلسطينية والأردن. مما دفع جمال عبد الناصر إلى عقد مؤتمر قمة فى القاهرة لوقف نزيف الدم. وكان هذا المؤتمر خاصاً بالملوك والرؤساء. وقد حضرت هذا المؤتمر بوصفى نائباً لرئيس الجمهورية. ولازمته فى كل اجتماعاته حتى اجتماعات الملوك والرؤساء السرية أيضاً..

وقد تلاحقت الأحداث بسرعة وبعنف. فقد انتهى مؤتمر القمة بالقاهرة ومات فى نهايته جمال عبد الناصر. وحضر القذافى ومعه أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية. وشهدوا الجنازة. ورأوا مصر وفجيعتها على زعيمها وقائدها. وتقدمت إلى موقعى من مصر.. فأنا نائب رئيس

الجمهورية ونظام الحكم عندنا رئاسي ، وإذ لم يكن فيه هذا النص ، ولكن من الطبيعي أن أظل رئيساً للجمهورية بالنيابة إلى أن تنتهي مدة الرئاسة الثانية لجمال عبد الناصر في سنة ١٩٧١ . وبعدها تجرى الانتخابات على رئيس الجمهورية الجديد . وقد تحدثت في ذلك إلى الرئيس بومدين وإلى القذافي . وكان من رأي الرئيس بومدين أنه يجب ألا تكون في مصر أي نوع من عدم الاستقرار . فمصر ميزان الأمة العربية . والذي يثقلها يهز الأمة العربية والذي يهزها يزلزل الأمة العربية ..

ولذلك كان من رأي الرئيس بومدين إجراء الانتخابات فوراً على رئاسة الجمهورية . ثم إنه اعترض على بقائي هكذا رئيساً بالنيابة .

ولم يكن للقذافي اعتراض على شيء من ذلك ..

وقد جرت هذه المناقشات في قصر القبة قبل دفن جثمان جمال عبد الناصر ومن المعروف أن جمال عبد الناصر ، الله يرحمه ، قد توفي يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر ولكنه ووري تراب مصر التي أحبها ومات في سبيلها يوم الخميس ..

وبين الوفاة والدفن رأيت بوضوح شديد ما كنت أشعر به . أو ما كنت أشعر به ولا أفهمه بوضوح .. أو ما كنت أفهمه ولكن لا أعرف ماهو الهدف من ذلك كله . لقد رأيت نشاطاً حولي .. ولم يكن هذا النشاط لصالحى . وإنما كان لاحتوائى وعزلى وضربى .. وفي مثل هذه الحالات الخطيرة في حياتى ألتس في داخلى نشاطاً ويقظة هائلة وقدرة على الحساب وبسرعة . فرأيت وقدرت وقررت واعتمدت على الله .

ولم أضع الوقت فدعوت اللجنة العليا . وكان على اللجنة العليا أن تختار رئيس الجمهورية . ثم تبعث به من تختاره إلى اللجنة المركزية . ومن اللجنة المركزية إلى مجلس الشعب . وقرر مجلس الشعب بالإجماع اختيارى . وكان ذلك معناه الاستفتاء الشعبى على الرئيس الجديد . واستغرقت هذه العملية أسبوعين بالضبط .
فالقاعدة الشعبية سليمة كانت ولا تزال .

لكن يبدو أن الذى حدث بهذا الإجماع الهائل قد أزعج أناساً آخرين . وكلهم حولى . ولم يكن هذا واضحاً أمامى تماماً . ولكن كنت ألتس وأسجل لنفسى وأنتظر . وأستنتج لنفسى وأنتظر . وأحياناً أكذب ما أسمع . وأحياناً أكذب ما أرى . ولكنى أنتظر . وأنا ككل أبناء الريف قد أعطانى الله قدراً كبيراً من الصبر .

وأول ما واجهنى فى مصر طبعاً: حالتنا الاقتصادية. الحالة سيئة جداً. وليس هذا سراً. ولكنها حقيقة مؤلمة موجعة للقلب. ولابد من حل.

سألت حسن عباس زكى وزير الاقتصاد فى ذلك الوقت: ما الحل؟
قال: الحالة سيئة جداً..

قلت: وما الذى تفعله أنت فى هذه الحالة؟ ..

قال: أبداً.. لا شىء.. إننى آخذ طاقة هذا وأضعها على رأس ذاك! ...

وهذا تعبير شعبى معناه: أن وزير الاقتصاد يقترض من هنا ويسدد هناك.. ثم يعود إلى ذلك من جديد. وهو لا يفعل ذلك إلا لأنه لا يجد أمامه حلاً آخر..

فطلبت إليه أن يتجه إلى ليبيا.. فحالتها الاقتصادية - طبعاً - أحسن من مصر بكثير.. فهى تجاوز المليون بقليل ومصر فى ذلك الوقت ثلاثون مليوناً.. وليبيا سند لمصر - هذا تقديرى. ولم يطلب جمال عبد الناصر مليماً واحداً من ليبيا.

ولكنى - وكما ذكرت من قبل - كان لنا جيش فى ليبيا وهذا الجيش يتقاضى مرتباته بالعملة الصعبة من مصر. ولم أشعر بأية حساسية أن أتجه إلى ليبيا.. ودفعت ليبيا عشرين مليوناً من الجنيهات. هذه الملايين القليلة لم تكن سوى قطرة فى بحر.. أو على حد تعبير أحد الاقتصاديين فى ذلك الوقت: إنها تشبه كيساً من السكر ألقياه فى البحر المالح!

وفى ذلك الوقت وقع فى يدى تقرير اقتصادى سرى غربى يقول: إن مصر أمامها سنتان وبعدهما تركع على ركبتيها تطلب الرغيف فتجده أو لا تجده! ودفعت عن رأسى هذه الصورة المخيفة. وقلت: لعلها دعاية مغرضة.. أو لعلها سكين مسمومة أطلقها أعداء مصر لتصيبها فى الصميم! ولكنى أعلم علم اليقين أن المعدة بيت الداء - والمعدة هى الاقتصاد. وأن الاقتصاد هو المعدة وهو العمود الفقرى. وأن الاقتصاد السليم هو الاستقلال التام.

وتعلق فى ذهنى عبارات حكيمة لأناس أدركوا حقيقة الإنسان والشعوب. أذكر عبارة الفيلسوف الأمريكى الدبلوماسى فرانكلين تقول: إن الجوالات الفارغة لا تقف!

والمعدة الخالية لا يقف صاحبها على قدميه. وكذلك الشعوب الجائعة..

وعبارة أخرى أوضح ولكنها أقسى تقول: إن الشعوب كالأفاعى تزحف على أحشائها!

أى لابد لأحشائها أن تمتلئ حتى تصبح قادرة على الحركة! فليست الشعارات السياسية الفارغة هى التى تمتلئ بها معدات الأفراد والشعوب.

كيف حدث ذلك لمصر؟ .. هذه قصة أخرى.

وكان جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء أيضاً. وكان إلى جانب مهامه وهمومه الكثيرة هو الذى يطالع ويتابع الميزانية. وكان كل شيء أمامه متوازناً. كل شيء «عال العال».

ومن الإنصاف أن أقول إن د. عبد المنعم القيسوني قد حاول تعديل المسار الاقتصادى - أى حاول جعله معتدلاً.. أو حاول تقويمه.. أو حاول إنهاء لعبة «الطاقية من رأس هذا إلى رأس ذاك».. ولكنه لم يفلح لأنه لم يتمكن. مما أخرجته وأخرجته من الوزارة.

وكان من الطبيعى على رغم هذه المتاعب الاقتصادية وعلى رغم وجود قوات مصرية على حساب مصر فى ليبيا لحماية النظام الليبى، أن نمضى فى بحث الوحدة تمهيداً لإنجازها. فتوالت اجتماعات مصر وليبيا والسودان. وكانت هذه الاجتماعات استمراراً واستكمالاً لميثاق طرابلس الذى أعلنه جمال عبد الناصر..

وظهرت نعمة أخرى جديدة قبل دخول الجامعات والمدارس فى أكتوبر ١٩٧٢. فقد صدرت التعليمات من الاتحاد السوفيتى بخلق القلق والقلق والتشكيك فى كل شيء. هنا وهناك.. والصورة التى انتقلت إلى العالم الخارجى عن مصر تبعث على الذهول والإشفاق. ولا يعرف أحد أين مصر وشعب مصر وقيادة مصر ومستقبل من هذه الفوضى الفكرية والبلبلية والانهازمية وضياح كل شيء..

ويتولى إشعال الدخان فى مصر وخارجها فى بيروت وطرابلس وفى الصحف العالمية صحفيون مصريون.. شيوعيون وانهازميون وحاقدون ومأجورون وكنت أعلم فى صيف هذا العام أن تعليمات من موسكو قد أرسلت إلى بيروت، ومن بيروت جاءت إلى مصر. والمطلوب هو: إثارة الفتن فى مصر من الداخل وتشويه وجه مصر فى الخارج.

وفى نفس الوقت تقوم فتنه طائفية أيضاً.. وهذه فتنة تضيف إلى الصورة العامة لمصر تمزقاً جديداً. ومع بداية العام الدراسى سوف تكون هذه المعانى وقوداً للشباب ومبرراً للخروج إلى الشوارع وإثارة الناس بعضهم على بعض وامتحاناً للنظام القائم الذى يشاع فى كل مكان أنه منهيار وأنه لا علاج له.

فكيف نحارب إذن؟ هل أحارب فى الداخل وأرضنا محتلة.. وبذلك أحارب نفسى وعدوى أيضاً؟..

إنه جنون مطلق.

ولكنى فى مثل هذه الأزمات أجد حاجتى إلى الصبر أشد، وأجد حاجتى إلى الهدوء أكثر وأعمق فلا بد أن أضع الأشياء أمامى بوضوح. وأضع المشكلة إلى جوار الأخرى. وأزنها بالعقل، وأحسبها جيداً، وأرتب الأزمات حسب أهميتها وحيويتها.

وفى أواخر شهر أكتوبر ومع دخول الجامعات والمدارس والجو العام الملبد بسحب الانهزامية والطائفية والضياع والتمزق العام طلبت من وزير الدفاع أن يجمع لى المجلس الأعلى للقوات المسلحة. واجتمعنا بعد الإفطار فى رمضان.

وكانت مفاجأة أذهلتنى. وحمدا لله أن انكشف أمامى شىء رهيب. وتداركت مصيراً مروعا لمصر.

فلما انعقد المجلس الأعلى تلفت للقادة حولى وتساءلت: جاءكم تعليماتى .. طبعاً لا بد أنكم جاهزون تماماً.. هنا جاءت كلمات مدير الإمداد والتموين مثل قنبلة انفجرت كل شظاياها أمام عينى فأطاحت بكل شىء فى ثانية واحدة. قال: توجيهات إيه يا أفندم؟.. هذا هو الرجل المسئول عن إمداد الجيش بالوقود والذخيرة وإمداد المقاتلين بالماء والطعام يسأل عن التوجيهات.. إنه لم يسمع بشىء من ذلك.. ولا بد أن الآخرين كذلك. إن هذا الرجل وحده يحمل نصف أعباء المعركة.

وأعترف أننى فى هذه اللحظة قد سحبت كل رصيدى من الصبر وطول اليأس وتساندت على نفسى واستوضحته ما الذى يقول: فأنا أيضاً لم أفهم هذا السؤال.. ولم أعرف إن كان يريد مزيداً من شرح هذه التوجيهات.. ولم أصدق لحظة واحدة أنه لم يسمع بها، أو لم يتلقها من وزير الحربية..

واقتربت من وزير الحربية ليطلق قنبلة أخرى فى أذنى قال: لم أشأ أن أقل لهم أى شىء عن الاستعداد للمعركة حرصاً على السرية المطلقة!

السرية المطلقة؟.. وإذا لم يكن هذا المجلس هو الذى يعرف الاستعداد للقتال، ثم يستعد للقتال، فمن الذى يجب أن يعرف؟.. ومن الذى يستعد؟..

كيف يكون هناك قتال وقادة الجيوش ورئيس الأركان ومدير العمليات وقائد الصاعقة.. كل هؤلاء لا يعرفون شيئاً؟..

أعترف وأنا أستعيد تلك اللحظات الآن أننى أصبت بذهول. ومنذ ذلك اليوم، وعلى رغم أننى فكرت فى هذه اللحظة كثيراً، فلم أهتد بعد إلى كلمة أخرى للتعبير عن حالتى غير كلمة «ذهول» أى الصمت الغارق فى الدهشة وخيبة الأمل والهزيمة.. فقد أحسست أن مصر

كلها قد انهزمت على أيدي رجالها.. أو على يد رجل من رجالها.. وتصور ما هو أبشع من هذا كله.. أن الجيش الإسرائيلي يستطيع في هذه اللحظة أن يفعل أى شيء في مصر من أولها لآخرها.. فمصر من الداخل تتقلب وتتألب، والجيش ليس مستعداً، وقادته لا يعرفون أننا نستعد للحرب.. وإنها أول من يحاربون، وآخر من يعلمون.. شيء رهيب!

وفى هذا الاجتماع الذى لا أنساه توجهت إلى القادة أسألهم وأشهدهم بعضهم على بعض. وأتخذ من هذا الحوار نوعاً من التهذؤة السريعة لحالتى النفسية الفظيعة..

وسألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل: كيف حالك؟..

قال: يا أفندم.. ليست عندنا تجهيزات للهجوم لسبب بسيط جداً.. فنحن مكشوفون أمام العدو.. لأن الساتر الترابى الذى أقامه اليهود ارتفاعه ١٧ متراً فإذا وقفوا عليه انكشفت أمامهم تحركاتنا واستعداداتنا لعشرة كيلو مقترات.

وأنا لن أنسى لمحمد فوزى عندما كان قائداً للقوات المسلحة، وكان وقتها فى السجن، أنه لم يسمح لليهود أن يتفوقوا عليه أبداً لا من ناحية التحصين ولا من ناحية كشفهم لمواقعنا. ففى كل مرة كانوا يرفعون الساتر الترابى، كان يرفعه فى الجانب المصرى حتى يكشفهم. وسألت قائد الجيش الثانى سعد مأمون. ولم يخرج كلامه عن الذى قاله قائد الجيش الثالث. وبينما وزير الحربية كان يقول: كل شيء جاهز يا أفندم! نفس العبارة التى أودت بمصر فى نكسة ٦٧ إن لم يقل وزير الحربية لرجال الجيش شيئاً. لا توجيهات ولا استعدادات لأى هجوم..

ومعنى ذلك أن وزير الحربية قد أصبح عبئاً ثقيلاً يضاف إلى بقية الأعباء الثقيلة على كتفى.. فهو أيضاً من رأيه أن مصر لا تستطيع أن تحارب ويجب ألا تحارب.. تماماً كما يقول الطلبة وكما يقول الصحفيون.. ووزير الحربية له وضع خاص لأنه واقع تحت تأثير رئيس التحرير الذى يدعو إلى هدم معنويات الجيش المصرى حتى لا يحارب فإذا حارب – فقد تنبأ بأن ستين ألفاً منه سوف يموتون فى العبور.. وستين ألفاً آخرين سوف ينقدون من استحكامات «الغريال».. فإذا أفلتوا من الغريال منهم «المنخل» حتى الموت.. فوزير الحربية مسحور بكاتب الغريال والمنخل.

والمعنى: أننا يجب ألا نحارب. لأن جيشنا إذا حارب انهزم. وإذا انهزم انهزمت مصر إلى الأبد.. ولذلك يجب أن نبقى على ما نحن عليه. نبتلع مرارة الهزيمة. ونفرزها قرفاً

ويأساً. فقد ضاع كل شيء. ولم يبق لمصر شيء ولكن أحداً لا يقول لنا: ما الذى يمكن عمله إذا كانت هذه هى حالة مصر. هل نظل نبكى على أنفسنا؟.. هل نستسلم لليهود؟.. هل نعطي بلادنا للسوفييت كما كانت تريد مراكز القوى؟.. هل تبقى عند إنسان ذرة من كرامة أو احترام لنفسه أو إنسانيته بعد ذلك.

إن الذى أصاب مصر سنة ٦٧ لم يكن غلطة شعب ولا غلطة جيش وإنما غلطة فرد. هذه الأفكار فى رأسى أنقذتنى بعض الوقت من الاستسلام لغيظى وأنا أواجه قادة الجيوش الذين لا علم لهم بما سوف نقدم عليه.. بعد أيام.. فقد أخبرنى وزير الحربية أنه جاهز للقتال بعد أيام.. ثلاثة أو أربعة أيام..

وطلب الكلمة فى هذا الاجتماع اثنان أعرف صلتهم الخاصة بوزير الحربية.. ووجدت الاثنين يرددان كلام وزير الحربية.. وكلامه وكلامهما: تحطيم للروح المعنوية. وتمييع للموقف!.

وكان وزير الحربية قد استدعى هذين الاثنين فى الصباح وأملى عليهما ما قالأ أمامى وأمام القادة جميعاً وكل هذا مسجل وثابت ومعروف لقد كانت الصورة مخيفة أمامى.. إنى أجد بعض العذر لبعض الطلبة الصغار.. إنهم صغار ومن السهل إثارتهم.. ولكن هؤلاء الكبار، هذا الجيش العظيم.. هذا الخطر اليهودى بأسلحته المتطورة، هذا الشك القاتل لكل آمالنا وأحلامنا فى النصر.. هذا الهوان.. فقد هانت مصر على أبنائها، وهانت أيضاً على أعدائها وعلى أشقائها.. كيف أواجه هذه الكارثة.. إذا كان هذا هو حال السلاح الذى تملكه مصر لتدافع به عن أرضها وعن حاضرها ومستقبلها.. فأى شيء تبقى لمصر أو تبقى فى يد مصر؟.. لقد أحسست فجأة أننى لا أجلس أمام قادة عسكريين، وإنما أجلس أمام مجموعة من الطلبة الصغار.. هذا يسارى مخدوع، وهذا مريض مجنون، وهذا مرتزق، وهذا خائن لمصر، وهذا منآمر على أمنها وسلامتها..

فليس من المعقول أن يكون هذا هو حال الجيش فى هذا الوقت ولا فى أى وقت!.. وبدأت بسرعة ألتفت إلى وزير الحربية أرقبه بشدة. ونفذت إلى أعماقه وعرفت من هذا الشخص الذى يجلس إلى جوارى.. وما الذى يريد.. ومن الذى وضع الكلام على لسانه.. وما الذى دفعه لأن يخطب فى القوات المسلحة، ويخلق رأياً انهزامياً فى الجيش.. فكأنه بذلك قد هزم الجيش قبل أن يدخل إليه معركة.. أو أنه أعد الجيش لهزيمة ساحقة.. فإذا

انهزم الجيش معنوياً، انهزمت مصر كلها.. شىء رهيب.. لقد تضاءلت كل مشاكل مصر أمامى.. إلا هذه المشكلة..

فليس أسهل من مواجهة كل المشاكل الأخرى.. شراذم الطلبة يمكن تحويلهم إلى النيابة بالقانون. والفتنة الطائفية قد واجهها مجلس الشعب بلجنة لتقصي الحقائق. وعرفت الحقائق، وهدأت المؤامرة. وعادت الوحدة الوطنية.. وشكرت مجلس الشعب على نجاحه فى ذلك.

ووضح لى بعد ذلك أن وزير الحربية كان يمر على الوحدات فى الجيش ويدعو إلى اللاحرب واستمرار اللاسلم.. وزير الحربية يدعو إلى عدم الاستعداد للحرب وأرضنا محتلة.. يدعو إلى عدم الاستعداد وقد كلفته أن يستعد؟..

لقد كان يمر على الوحدات ليخفى عجزه عن القتال ويأسه من النصر.. ويرفع من قيمة القوات اليهودية، ويحط من قدر القوات المصرية.. كان هذا الوزير يقول، وكان رئيس التحرير يقول ذلك أمامى أيضاً. شىء غريب حقاً..

وما فعله وزير الحربية هذا واثنان من رجاله كان محاولة التقاء وكلاماً ضد السياسة العامة للدولة وضد استراتيجية الحرب.. وهذا الحادث هو الوحيد من نوعه منذ توليت الحكم..

وقبل ذلك كانت لا تمضى ستة شهور دون أن تكون هناك محاولة انقلاب يتبعها عزل ونقل إلى الأعمال المدنية.. ولكن فى عهدى وما دمت حياً، لن يحدث شىء من ذلك. فالجيش للقتال ولحماية حدود مصر ودستورها.

ولما أمسكتهم سلطات الأمن اعترفوا.. بأنهم كانوا واقعين تحت تأثير وزير الحربية، الذى كان واقعا تحت تأثير رئيس التحرير.

هذا الوزير اجتمع بالبحرية، وتحدث إليهم أيضاً فى مسألة اللاحرب هذه. ولذلك عزلت قائد البحرية محمود فهمى. وبعد أن كشفت براءته، اخترته وزيرا للفعل البحرى..

وذهب وزير الحربية إلى كلية ناصر أعلن أن الدبابات المصرية لا تصلح إلا جرارات!.. وبسرعة عزلت وزير الحربية. وعزلت الاثنين الآخرين، أحدهما مدير مكتبه والآخر كان مديرا لمكتب عبد الحكيم عامر.

وأعلنت فى ذلك الوقت: أن الإنسان يجب أن يكون واقعياً. ولذلك يجب أن يواجه متاعب الدنيا بما فيها، وبما لديه من قدرات. ولو ظللنا ننتظر الأسلحة المثالية والظروف المثالية، فلن نحارب.

والتاريخ يشهد للمصريين بأنهم أشعلوا أكبر معركة دبابات فى التاريخ تحطمت فيها ثلاثة آلاف دبابة وكانت الجبهة المصرية أعلى خسائر من جبهة إسرائيل وسوريا.. وأصبحت هذه الصحيفة التى يرأس تحريرها صاحب نظرية «المنخل والغربال» عبئاً جديداً.. فنشرت تقول: إن عزل وزير الحربية قرار انفعالى غير مدروس.. وإن الرئيس السادات أراد أن يغطى موقفه فعزل وزير الحربية.. ورئيس تحرير هذه الصحيفة عندما سمع بقرار طرد الخبراء السوفيت ذهل وشرح لى حيرته.. وعاد إلى الصحيفة ينشر أن هذا القرار غير مدروس أيضاً فى وقت كانت مصر والأمة العربية ترقص طرباً وسعادة بهذا النبأ، وارتفاع هذا الكابوس عن كرامة مصر وعزتها وحريتها.. وهذا القرار لم يستطع أن يتحمله مراد غالب وزير الخارجية فى ذلك الوقت فكان لابد من عزله.. وهنا ازدادت حيرة الناس.. فهم أصلاً واقعون تحت تأثير حيرة عامة، وانهزامية مطلقة.

فأنا عزلت وزير الحربية وهو يمينى..

وعزلت وزير الخارجية وهو يسارى..

وتخلصت من مراكز القوى..

ثم طردت الخبراء الروس..

وفى مصر قلق عام وفتنة، والطلبة يستعدون وبعض الصحفيين يساهمون فى تشويه وجه مصر..

والجيش ليس مستعداً..

كل ذلك فى وقت واحد. بينما تلك الصحيفة برئيسها تسخر من مشاعر الناس، وتحط من قدر الجيش.. وتقيم تماثيل رائعة للمقاتل اليهودى..

□□□



١ - جمال عبد الناصر
وعبد الحكيم عامر مع صلاح
سالم .



٢ - المشير أحمد إسماعيل
قائد الجبهة بعد النكسة مع
الرئيس عبد الناصر .

٣ - عبد الناصر والقذافي
في مؤتمر القمة العربي
الذي انعقد في القاهرة في
سبتمبر سنة ١٩٧٠ .



٤ - محمود رياض وزير
الخارجية الأسبق ومحمد
حسنين هيكل والإعداد
لبيان يصدر عن مصر بعد
وفاة جمال عبد الناصر .



٥ - مباحثات الرئيس
السادات والرئيس يومدين.





٦ - جمال عبد الناصر
أثناء فترة مرضه في
المستشفى العسكري .



٧ - سعد مأمون .

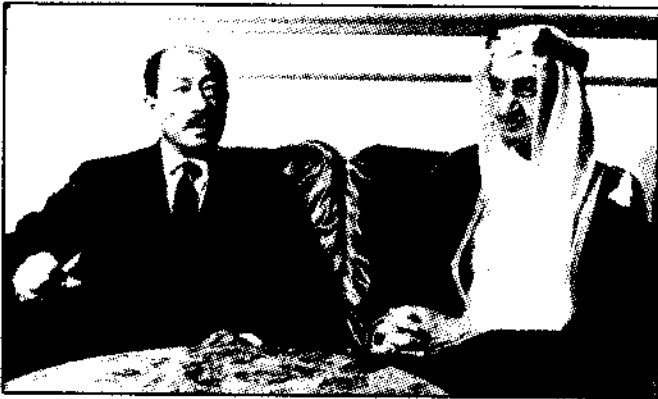
٨ - جمال عبد الناصر
والملك فيصل في مؤتمر
الخرطوم .



٩ - عبد الناصر ومعمّر
القذافي وجعفر النميري .



١٠ - الرئيس السادات
مع الملك فيصل .





١١ - الشيخ زايد بن
سلطان آل نهيان رئيس
دولة الإمارات والرئيس
أنور السادات والرئيس
القذافي في اجتماعهم بقصر
رأس التين بالإسكندرية .



١٢ - الرئيس السادات
مع معمر القذافي .



١٣ - الفريق عبد المنعم
رياض .



كشـف حساب

- نظرية المتخل والغريال لتحطيم
معنويات الجيش المصرى .
- «وادي الموت» كان الاسم الذى أطلقه
اليهود على الشجرة .
- ٨٠ ميكروفونا للتجسس فى قصر
الطاهرة .
- قرارات مهمة فى اجتماع المجلس الأعلى
للقوات المسلحة .

وزير الحربية الجديد أحمد إسماعيل أن يستعد. أى أن يوقف الجبهة. **كلفت** وأن يتهيأ لتحضيرات الهجوم. وأنا أترك الجبهة الداخلية الآن.. فالذى سمعته عن القوات المسلحة ومن القوات المسلحة أذهلنى. ووجدت أن هذه هى المعركة. معركة إعداد الجيش ليدافع عن مصر وعن القومية العربية كلها..

وأحسست أمام «الردة» التى اجتاحت بعض الناس، أنه لابد من عمل شىء بسرعة. وأحسست أن أحمد إسماعيل فى اللحظة التى كان يرفع فيها الساتر الترابى كان يرفع من معنويات الجيش أيضا.. فالسواتر الترابية كانت شيئا أهم من التراب، وكانت أخطر من مجرد ساتر عندنا يقف أما ساتر عند اليهود.. أو يعلو على ساتر اليهود.. ولم أشعر أن هذا التراب الذى اشتركت فى رفعه كل شركات المقاولات فى مصر، كان تبرا وليس ترابا.. ففى استطاعة قواتنا أن تعلو وأن تقف فوق هذا التراب بأسلحتها وتكشف العدو كما كان يفعل فى قواتنا..

لقد أقام أحمد إسماعيل ساترا ترابيا عاليا على شكل حدوة الحصان. وقال اليهود: إن المصريين قد اعتادوا على بناء الأهرامات.. حتى فى العصر الحديث أقاموا هراما.. ولم يكن بناء الأهرامات الترابية هذه إلا لحكمة يعرفها اليهود وإن كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفون حكمتها.. وجاءت على شكل حدوة الحصان، لا باعتبار أن هذه الحدوة هى رمز للتفاؤل، ولكن لأسباب عسكرية..

وبعد ذلك جاءنى أحمد إسماعيل يقول لى: تمام يا أفندم!

وكان صادقا فيما يقول، فهو رجل جاد. وعلى درجة عالية من الثقافة العسكرية والثقافة العامة.

وفى نهاية ديسمبر واجهت الشعب كله بما حدث وفضحت اليمين واليسار وطلعت الصحيفة اليومية ورئيس تحريرها تقول: إن القرارات التى أصدرتها غير مدروسة.. وكانت تقصد قرار طرد الخبراء السوفيت وقرار عزل وزير الحربية الذى راح يدعو لزعامته فى

الجيش.. وكان يبني هذه الزعامة على هدم معنويات القوات المسلحة.. وقد عزلته واثنين آخرين حاول أحدهما الانتحار في السجن.. وأرسل لي ورقة ملتهبة حماسا عندما انتصرت قواتنا في أكتوبر..

وأمام مجلس الشعب أكدت للشعب وللأمة أنه من الضروري أن نكون على حذر، وأن نتنبه إلى مزالق لا يحق لنا أن ننجرف إليها، سواء بالنسبة لتحرير الأرض أو الممارسة الديمقراطية..

أشرح وأعرض وأقنع.

فقضية تحرير الأرض العربية هي التزامنا الأساسي، وإليه وفي سبيله يجب أن تتجه كل أعمالنا ونياتنا فلا طريق إلى استرداد الحق إلا بالقوة.. إلا بقواتنا المسلحة. ولا يمكن لقواتنا المسلحة أن تؤدي دورها إلا إذا كانت هناك جبهة داخلية متماسكة وصلية تؤمن بهدفها وتعرف طريقها إلى تحقيقه مهما كانت التكاليف.. ثم أن الوحدة الوطنية هي الدعامة الوحيدة للجبهة الداخلية المتماسكة الصلبة..

وأعلنت أيضا أنه بدءا من الآن لن أسمح ولن تسمحوا ولن يسمح شعبنا بنغمة طائفية من أي شخص ومن أي مصدر ولأي سبب، ثم إنني أيضا لن أسمح ولن تسمحوا ولن يسمح شعبنا باستقطاب يمزق قوى الوطن خصوصا بين الشباب بدعوى اليسار المغامر أو اليمين الرجعي! وفي مارس من سنة ١٩٧٣ اجتمعت مع المشير أحمد إسماعيل في بيت صغير في كنج مريوط.. وكان اجتماعا تاريخيا لأنني أعطيت فيه قرار الحرب. ولم أحدد متى يكون ذلك من هذه السنة.. وفي ذلك الوقت كانت قواتنا تتدرب على القتال وعلى مواقع تشابه تماما المواقع التي سوف تحارب فيها.. وفي منطقة قريبة من القناطر الخيرية.. حيث الرمال والحاجز المائي والعبور وسواتر الرمل..

وكان هذا الكوخ هادئا متواضعا، أقامته وزارة الزراعة منذ ستين عاما.. وقد جاء الرئيس حافظ الأسد إلى هذا الكوخ في زيارة سرية. واتخذنا معا في شهر أبريل قرار المعركة.

وقد قدم لنا الفريق عبد الغنى الجمسى دراسة وافية عن أنسب الأوقات للقتال. وكانت هذه الدراسة خلاصة أبحاث في علوم كثيرة أبسطها علم الفلك. ففي هذه الدراسة وصف لنا الظواهر الطبيعية على مدار السنة.. حالة الجو والمد والجزر وحركة الرمال والشروق والغروب.. وقد كتب الجمسى هذه الدراسة بخط يده..

ومن يقرأ هذه الدراسة يستشعر صعوبة العلم العسكرى. وأنه ليس سهلاً كما يتصور بعض المحللين أصحاب نظرية «المنخل والغربال فى الحرب والقتال»..

كل شىء يسير حسب الخطة الموضوعة، والمتفق عليها مع الرئيس حافظ الأسد. وكل يوم يمضى نشعر باقتراب اللحظات الحاسمة.. وهى ولا شك كذلك: إنه ليس مصير مصر وسوريا وحدهما.. وإنما هو مصير الأمة العربية لمئات السنين.. فهذه المرة إذا لم تنتصر فإن كل ما قاله العدو والحبيب سوف يصدق علينا.. وإننا شعوب كلام، وأنه لا قومة لنا بعد ذلك.. ولن يثق أحد فينا ولا فى قواتنا العسكرية..

وقد جربت بصورة أليمة معنى أن يكون الإنسان صادقاً فيما يقول، ثم لا يجد أحداً يصدقه.. أو إذا صدقه فمن باب الإشفاق عليه.. أعرف ذلك جيداً. وقد جربته وتعذبت به، وهانت نفسى على نفسى.. ولكن من أجل مصر كل شىء يهون..

وقد أمرت بتجهيز قصر الطاهرة لإدارة الحرب فقد كان مجهزاً تماماً للاتصال بكل مكان فى مصر بل بكل تشكيل عسكرى فى أى موقع وبالتقرب من قصر الطاهرة يوجد قصر الأمير محمد عبد المنعم وفى هذا القصر كان يعمل حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى ومعه مجلس وزراء مصر والمسافة بين القصرين مائة متر.

وقصر الطاهرة كان قد اختاره جمال عبد الناصر للإقامة فيه فى صيف ١٩٥٦ عندما كانت بعض الإصلاحات تجرى فى بيته فى منشية البكرى فقد كان بيته صغيراً ضيقاً وفى أكتوبر ١٩٥٦ وقع العدوان الثلاثى على مصر وارتبط هذا القصر فى ذهن جمال عبد الناصر بالعدوان ومضاعفات العدوان، ولذلك كان لا يحب هذا القصر بل يتشائم جداً من الإقامة فيه.

ولكن وجدت هذا القصر مناسباً تماماً لما أريد. فقد جهز تجهيزاً جيداً ثم إنه وسط القاهرة وبين الناس وعن طريق الأجهزة الكثيرة فيه أستطيع أن أكون على صلة بكل الناس وفى قصر الطاهرة كنت أتلقي تفاصيل الموقف من كل جهة وأنا لا أطمع فى أحسن ولا أدق من ذلك ثم إننا فى حالة حرب وكل شىء يجب أن يكون من أجل الحرب ومواجهتها وإدارتها والتفوق فيها بإذن الله:

وكانت غرفة المكتب بقصر الطاهرة هى غرفة عمليات أثناء الحرب.

ولم يخطر على بالى قبل الحرب أو أثناءها أن الصدمة سوف تذهل إسرائيل إلى هذه الدرجة. فقد أنهلتها وردعتها وأفقدتها توازنها. ولذلك لم أستبعد أن يصيبها الجنون لدرجة

ضرب أعماق مصر بقصد تحطيم معنويات شعبنا العظيم. فتضرب العمق وتحطم المواصلات وتهدم الجسور والمصانع والمدارس والمستشفيات إلى آخر نوبات الجنون التي سوف تصيبها بالغرور والغطرسة لأنها هي أيضا قد آمنت بأنها قد قامت لكى تنتصر دائما وتوهمت أن العرب قد ولدوا لكى يعيشوا منهزمين.. ربما كان للغرور الاسرائيلى بعض العذر إذا تلفت اليهود إلى الوراء ورأوا ما حدث فى ٤٨ أو فى ٥٦ أو فى سنة ١٩٦٧ وحتى حروب الاستنزاف أيضا إن الصورة بهذا الشكل تعطيهم الكثير من الحق فى أنهم انتصروا علينا.

ولكنى أرى. وللحق والإنصاف والتاريخ. أننا أهملنا فى حق أنفسنا فلم نعط لكفاح الجيش المصرى ما يستحقه من الاهتمام فلم تكن معاركنا هزائم كلها إنما كانت هناك مواقف مجيدة وبطولات عظيمة. فلم تكن الصورة سوداء. ولا كانت نتائجها عاراً علينا..

ولذلك كانت القوات المصرية معذورة فى أن تنكس رأسها. كلما جاءت ذكريات الحرب الأليمة.. وكانت القوات اليهودية تطيل أعناقها وترفعها وتجعلها غليظة كما وصفتها التوراة. بأن اليهود «غلاظ الرقاب». أى فيهم غرور و صلف حتى مع الله.. والتوراة تؤكد هذا المعنى.. وهو حقيقة..

ولذلك. وأرى أن نقول هذا لأنفسنا كثيراً ولأجيالنا الشابة أيضاً: إن الاستعداد لحرب أكتوبر كان عسيراً.. ورفع الروح المعنوية بين كل الناس كان صعباً. وغرس الإيمان فى كل القلوب كان شاقاً. وأنا أعرف الكثير من المتاعب التي ذكرت بعضها. ولم يحن الوقت بعد لذكر أشياء كثيرة منها، وهذه هى مهمة المؤرخين المنصفين.. «وكان فضل الله عليك عظيماً».. صدق الله العظيم.. فقد أعاننا الله ونصرنا. وسوف ينصرنا إنه على كل شىء قدير. فقد أحتطت لكل شىء. وجعلت غرفة للعمليات فى قصر الطاهرة. وغرفة مماثلة فى الاتحاد الاشتراكى فى البدروم على النيل وكانت هذا الغرفة بديلاً عن غرفة قصر الطاهرة إذا ما ضربتها الغارات اليهودية. فقد كان ذلك احتمالاً قائماً، من يدري؟ وجعلت غرفة ثالثة للعمليات لممدوح سالم الذى كان يتولى الدفاع المدنى والمقاومة الشعبية. لقد كانت هناك ثلاث غرف تبادلية. وهى جميعاً على اتصال ببعضها البعض وبكل مكان فى مصر.

ووسط هذا الجو الجاد الذى يأخذنا من كل ناحية، والحسابات الطويلة المعقدة والاحتمالات التى تظل برءوسها مخيفة لنا، حدث شىء يبعث على الضحك. تماماً كما نجد السحاب الأسود يمزقه البرق فيضىء كل شىء لحظة ثم يعود كل شىء إلى ما كان عليه.. وهذا ما حدث.. فنحن عندما كنا نجهز قصر الطاهرة عثرنا على ثمانين ميكرو فوناً صغيراً للتجسس. ولم نخل

حجرة واحدة من هذه الميكروفونات التى تعمل لصالح إدارة المخابرات العامة. كان ذلك فى سنة ١٩٧٣.. أى بعد أن صفت مراكز القوى فى ١٩٧١. ولم تعد هناك أجهزة للتنصت ولا تسجيلات ولا تقارير.. فقد انقطعت كل الاتصالات بين هذه الميكروفونات وبين أجهزة التنصت هذه ولكن بقيت الميكروفونات فى أماكنها بلا عمل.

شئ مضحك أن نتجسس على كل ما يقوله زوار القصر ونزلاؤه من رجال وزوجاتهم فى غرف نومهم؟!

وتساءلت وأنا أضحك: ولماذا نسوا دورات المياه؟!

فى ذلك الوقت جاءنى القذافى فى قصر الطاهرة. وطئ أن نطلعه على غرفة العمليات. ولم تكن هناك عمليات. فنحن فى أيام الثغرة، ولكنه غضب عندما لم ير شيئاً من ذلك وراح يقول: إنه لم يكن يتوقع شيئاً من ذلك. خصوصاً أنه جاء إلى مصر طائراً ومخاطراً بحياته لأن اليهود كانوا على مدى مائة كيلو متر من القاهرة. فكيف لا يرى غرفة العمليات وكيف لا نطلعه على أدق أسرار القتال. لأنه ضحى بحياته عندما هبط أرض مصر. ولم يلاحظ أننا جميعاً فى مصر وفى قلب القاهرة وأن أولادى يقيمون فى الجيزة. وأننا جميعاً يجب أن نشارك شعبنا فى كل شئ. لأن التضحية واجبة على الجميع، والحرب قد سوت بين الجميع.. وما جرى على أولاد الناس يجرى على أولادى أنا أيضاً ومع ذلك شرحت له الموقف. وكانت المعلومات التى لدى القذافى تؤكد له أن الثغرة هذه سوف تتسع وتتسع حتى تبتلع مصر وجيش مصر والنظام المصرى. وأن الثغرة هى بداية النهاية. وكانت الثغرة بداية النهاية لليهود ونهاية البداية لصالح مصر.. أى إن الثغرة هى إنهاء لوضع قوات الاحتلال اليهودية على الضفة الغربية. هذا ما حدث فعلاً!

وهذه الثغرة قد أتعست اليهود أنفسهم واعترفوا بأنها مصيدة وقعوا فيها. وأن الثغرة قد صنعتها أمريكا لهم. وهى التى صورت لهم من الجو مواقع القوات المصرية. وهى التى أعطتهم المفتاح للدخول بين القوات والانتشار وراءها..

وقد جاءنى الجنرال الفرنسى بوفر - الله يرحمه - رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية، فى القناطر الخيرية وقال لي وكان حاضراً رئيس تحرير الأهرام فى ذلك الوقت: هذه الثغرة يجب ألا تهتمك مطلقاً. إنها ليست إلا معركة تليفزيونية! إنها مقضى عليها بالفشل تماماً!

وكتب رئيس تحرير الأهرام مقالاً يعبر فيه مصر وقواتها المسلحة. ويقول: إنه على أيام جمال عبد الناصر، احتل اليهود الضفة الشرقية للقناة فقط. أما في عهدي أنا فقد احتل اليهود الضفة الغربية أيضاً.. وجعل لها شعاراً: الاحتلال من سمع للأدبية.. وسمع هذه قريبة من دمشق والأدبية قريبة من السويس. ومعنى ذلك أن جيشنا لم يلق هزيمة أفدح من هذه الهزيمة. وأن حرب أكتوبر أسوأ من حرب يونيو ١٩٦٧.

وعاتب رئيس تحرير الأهرام على هذا الكلام الانهزامي وعلى هذا الموقف اللاأخلاقي من الجيش ومن الشعب.. ثم إنه لم يكن يعرف ما حققته هذه العمليات العسكرية الضخمة المعقدة.

وقد اعترف اليهود أنفسهم بفداحة الثغرة. ووصفوها كما قلت بأنها وادى الموت. ومن يقرأ مجلتي «النائم» و«النيوزويك» الأمريكيتين في ذلك الوقت يجد أن الجنود اليهود كانوا يصرخون من هذه المصيدة. وكانوا يرفعون لافتات موجهة إلى المصريين يقولون فيها: دعونا نرجع إلى بلادنا.. لا تضغطوا علينا نحن نريد أن نعود إلى مدارسنا وكلياتنا..

فقد جند اليهود حتى الطلبة في هذه الحرب فلم يكونوا سعداء بهذه المصيدة. بل كانت معنوياتهم عند الصفر. كل ذلك معروف ومنشور في كل الدنيا.

وجاءت كتبهم عن الحرب تؤكد أن الثغرة مقلب صنعته اليهود وشربوه حتى آخره. وأن تقدير المصريين للموقف كان سليماً عندما أعلنت أنا في مناسبات كثيرة أننا نحيط باليهود من كل جانب. وأنهم ضحاينا لا شك في ذلك.

وفي اللقاء التليفزيوني أخيراً مع الرئيس نيكسون اعترف بما أسعدني حقاً. فقد قال: إنه لولا تدخل أمريكا في حرب أكتوبر لانفتح الطريق من أوله إلى آخره عند تل أبيب أمام القوات المصرية..

والتدخل الأمريكي معروف تماماً. فقد نزلوا بدباباتهم في العريش.. وكانت الدبابات مزودة بالوقود والذخيرة. وهذا هو التدخل الذي اعترف به نيكسون أخيراً، والذي وقف تقدم قواتنا إلى تل أبيب.

وقد تحدث نيكسون عن تهديد اليهود للجيش الثالث. وأعتقد أن ما قاله نيكسون يحتاج إلى تصحيح وتوضيح. وسوف أفعل ذلك بمجرد أن أقرأ النص الكامل لما قاله الرئيس السابق نيكسون..

وكانت هناك التفافات وتداخلات. وهذا موقف صعب وقد تولت وتوالت الندوات العسكرية في القاهرة وفي تل أبيب لشرح هذا الذي حدث. ونشرت هذه الندوات في العالم كله. ولم

يعد هناك سر. واعترف اليهود بكل أخطائهم. واعترفنا نحن أيضاً. وفي نفس الوقت شهد لنا العالم بالافتقار والبراعة وحسن الأداء ومنتهى اللياقة العسكرية. وكل ذلك أصبح تاريخاً ثابتاً معروفاً. لا يمكن لأحد أن ينكره أو ينال منه.. انتهى ذلك.

ومن يرجع إلى ما كتبه اليهود أنفسهم عن هذه الحرب وعن «الثغرة» بالذات لا يجد أنه في حاجة كبيرة إلى الدفاع عنها. فقد فعل اليهود ذلك. واعترفوا بأنها حركة قصدوا بها رفع معنويات الشعب في إسرائيل. أو رد اعتبار القادة الإسرائيليين. وقد رأينا بعد الحرب ما الذي فعله الشعب اليهودي في إسرائيل وفي العالم. ورأينا حرب الجنرالات في إسرائيل.

إنني لم أكن مبالغاً عندما قلت إننا «صدرنا الهزيمة وويلات الهزيمة والندم والعار والهوان» إلى إسرائيل بعد حرب أكتوبر. ولم أكن شاعراً متغنياً متباهياً بانتصارنا. ولكن يكفى الدارسين للأدب اليهودي بعد حرب أكتوبر وأثناءها أن يقرأوا قصائد الشبان اليهود وبكائياتهم على الذي أصاب اليتامى والأرامل.. إن قصائد هؤلاء الشبان اليهود هي دموع مكثفة وآهات موجعة وصور الأمهات وهن يتعلقن بثوب جولدا مائير، وصور الأمهات والآباء وهم يتمسحون بجدران حائط المبكى.. كل ذلك منشور في الصحف الإسرائيلية وفي كل صحف العالم.. ولم يكن ذلك كله من فرط السرور والسعادة. وإنما كان بسبب الثمن الفادح الذي دفعته إسرائيل في حرب أكتوبر وفي «وادي الموت» بصفة خاصة.. يقابل ذلك سعادتنا بانتصاراتنا واستعادة كرامتنا.. وكل ذلك يمكن أن نعود إليه. فليست انتصارات أكتوبر بعيدة عنا.. ولن تكون. بل سوف تبقى آثارها النفسية والعسكرية والتاريخية لمئات السنين. وهذه حقيقة ليست من عندي أنا أيضاً. وإنما من عند النقاد العسكريين والمحليين الاستراتيجيين والمؤرخين..

وعلى رغم هذه السعادة التي غمرت مصر وجيشنا وشعبنا وأمتنا العربية ذهب محمد حسين هيكمل إلى بيروت. يتحدث عن انتصارات أكتوبر بلغة الفوازير والشماتة والسفالة اللا أخلاقية دون وازع من ضمير فيقول: إن الحرب كانت ١٥ يوماً خمسة أيام لنا وخمسة أيام تائهة وخمسة أيام لهم!

شيء مضحك أو على الأصح شيء يبعث على الخزي والاحتقار. وهو يعلم أنني يوم ١٦ أكتوبر ألقيت خطبة في مجلس الشعب أي ونحن في أوج انتصارنا، هذه الخطبة بعد عشرة أيام بالضبط من الحرب. وهذه الخطبة قد شارك هو وآخرون في إعدادها!

ولكن هذا الموقف يكشف نوعية هذا الطراز من الناس .. إنها الانهزامية القبيحة. وهى الشماتة العارية .. الشماتة فى مصر وجيش مصر وشعب مصر - مع أن مصر كانت منتصرة - وهذه السطور القليلة يمكن رواية تفاصيلها فى كتب عن الأعمال البطولية العظيمة التى قامت بها قواتنا، وقام بها المواطنون البسطاء من أبناء شعبنا، فقد كان أهل السويس قد هجروها، وكذلك أهل الإسماعيلية.. ولكن بعض المواطنين عز عليهم أن يتركوا بيوتهم المهدامة.. وقاوموا وضربوا العدو. وحطموا له على مشارف السويس ١٢ دبابة ولما تسللت دبابتان وعربة لورى إلى داخل السويس حطمها المواطنون. ولا تزال إلى يومنا هذا فى مكانها الذى أحرقت فيه.. كما أنهم قضوا على ثلاثين جندياً..

وعندما زرت الإسماعيلية طلبت تكريم اسمها «أبو خطوة» والقرية تقع على مشارف الإسماعيلية. وصلت إليها ثلاث دبابات إسرائيلية. ولم يستطع اليهود أن يسحبوا هذه الدبابات فبقيت فى مكانها. ونحن نعرف أن اليهود يسحبون خسائرهم وقتلاهم. يسحبون خسائرهم، حتى لا يعرف أحد.. كم هى عدد الإصابات التى تكبدوها. ويسحبون قتلاهم لأسباب دينية فى أرض يهودية يظل يزحف تحت الأرض حتى يصل إلى الأرض اليهودية. وإن كل يهودى لا يدفن فى أرض يهودية يظل لعنة على أهله وشعبه إلى يوم القيامة.. ثم إن عندهم مشاكل تتعلق بالوراثة والطلاق. وهذه المشاكل لا تحل إلا إذا عرف أن الجندي قد مات وإلا إذا دفن. ولذلك فقد كانت مشاكل اليهود كثيرة ومعقدة بسبب الجثث المفقودة والتى عثروا عليها فى سيناء وفى قناة السويس.

ولذلك فإن حاخامات اليهود راحوا فى «وادي الموت» ينبشون الأرض مستعينين بالكلاب البوليسية للعثور على بقايا قتلاهم.. على ساق أو ذراع أو أصبع أو حذاء أو خونة أو خصلة من شعر لحية أى جندي.. ومع ذلك لم يفلحوا فى سحب كل الدبابات. فلما رأيت ثلاثاً منها فى قرية «أبو خطوة» قررت أن ترفع هذه الدبابات على منصات ثم يقام نصب تذكاري تكتب عليه أسماء شهداء «أبو خطوة»، وأسماء تشكيلات الصاعقة التى حققت هذا العمل البطولي..

إن كثيراً من الدول الأوروبية فعلت ذلك بعد الحرب العالمية الثانية.. ففى كثير من العواصم نجد آثار دخول قوات وآثار اندحار قوات أخرى، وعلى الشعوب أن تسجل ذلك اعتزازاً بما قامت به فى أيام المحن. وأن مواطناً بسيطاً يمسك قنبلة يدوية ويلقى بها على عدوه أو حتى يرميه بقطعة حجر، لعمل من أعمال الشجاعة والبطولة.. صحيح أن هذا المواطن يقف وحده فى مواجهة أحدث الأسلحة، ولكنه بإيمانه بوطنه وتفانيه من أجله، هو مواطن

بطل.. لأنه يعرى صدره لعدوه، ويعطى حياته لله، وليس هذا بالقليل. بل إنه شيء كثير جدا في ساعات المحن والأزمات. ومن هذه الساعات ومن هذه البطولات، قد سجل شعبنا أعظم وأشرف معاركه.

ولم يكن في استطاعة اليهود أن يتوسعوا في الثغرة أكثر وأبعد مما فعلوا.. وإلا اصطدموا بكثافة السكان في مصر. وفي ذلك قضاء عليهم. ولكن اليهود اعتمدوا على الحرب النفسية، واعتمدوا أيضا على الذين ارتعدوا وراحوا يؤكدون الروح الانهزامية في مصر.. ودعاة الهزيمة. ونحمد الله أنهم لم يكونوا كثرة تخيف، وإنما هم قلة تستحق منا أن نقف لحظة لنؤكد لهم عظيم احتقارنا. فمصر بخير، وسوف تنتصر بإذن الله. وإذا كان من أبنائنا قلة، وجفت قلوبهم، فإن الأغلبية الساحقة من شعبنا لهم قلوب من حديد.. وإلا فما انتصرنا على أنفسنا قبل أن نتنصر على عدونا. وهذا تاريخ يجب أن نسجله وأن نقوله وأن نعيده، فذلك شرف لنا وواجب علينا.. وقد حدث قبل ذلك في يوم ١٩ أكتوبر مساء أن عاد اللواء سعد الشاذلي رئيس الأركان خائفا مذعورا. وقال لي: إن اليهود في الثغرة وأنهم وراء الجيش الثاني والثالث وأنه لابد أن نسحب قواتنا من سيناء!

وكان ذلك تصورا مروعا، وقمة للانهزامية.. إذ كيف نسحب قواتنا لأي سبب. وكيف نسحبها بعد هذا الذي تحقق وبهذه الصورة الرائعة؟ كيف نعود إلى الورا بعد الصدمة التي أذهلت اليهود؟ كيف نعيد الفرع إلى عيون شعبنا، ونطلب إليهم أن يبكوا علينا وعلى ما أصابهم على أيدي قواتهم وقادتهم؟ وكيف نعيد أكتوبر ٧٣ إلى يونيو ٦٧؟ لقد رأيت فيما يقوله سعد الشاذلي حالة من الجنون.

ودعوت إلى اجتماع للقيادة عند منتصف الليل. وصارحته بأن الذي يقوله كلام جنوني.. في هذا اليوم عزلت سعد الشاذلي وعينت اللواء عبد الغنى الجمسى رئيسا للأركان. ولم أعلن هذا القرار إلا بعد شهرين. لأنه لم يكن من الضروري إعلان ذلك خوفا على الروح المعنوية لقواتنا المسلحة.

ف عزل القادة وضرب بعضهم ببعض أسلوب إسرائيلي وليس أسلوبا مصرياً!

ف اللواء عبد الغنى الجمسى كان رئيسا للأركان منذ يوم ١٩ أكتوبر عند منتصف الليل..

وأنا أرى أنه من الضروري أن أعود من حين إلى آخر إلى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ وكان ذلك في رمضان. ففي هذا الاجتماع رأيت أشياء كثيرة كانت خافية على تماما..

ومن هذا الاجتماع تفجرت قرارات وحدثت تحولات بعضها أروىها مرة أخرى الآن.. وبعضها سوف أعود إليها فيما بعد عندما أتحدث عن أول محاولة للقيام بانقلاب فى عهدي، وكان ذلك شيئا غريبا وغير مألوف. فقد كان من المألوف على أيام جمال عبد الناصر، أن يقع انقلاب أو محاولة كل ستة شهور..

وقد دعوت المجلس الأعلى للانعقاد فى الدور الثانى من بيت المليونير محمد محمود خليل، وبيته مجاور لبيتى الذى أقيم فيه منذ أيام جمال عبد الناصر. وهو بيت ضيق وجوه ليس هادئا، فأصوات الثوار والمناطق المجاورة يمكن سماعها فى كل وقت بوضوح. وهذا هو الذى يدفعنى إلى أن أتركه وأقيم بعيدا عنه فى القناطر أو حتى فى الإسكندرية. وقد أشار البعض بأن أختار بيت محمد محمود خليل سكنا لى. ولكنى رفضت، لأن الرجل قد أوصى بأن يكون متحفا. وعندما رأيت هذا البيت كان منهارا وفى أسوأ حال، فأمرت بإصلاحه على النحو الذى كان يتمناه صاحبه..

وكان الهدف من هذا الاجتماع، كما ذكرت كثيرا، أن أعرف مدى استعدادنا.. أو أين نحن من المعركة.. وهذا المجلس هو أعلى هيئة عسكرية. وفى هذا المجلس يجب أن يتقرر ويتحدد كل شيء. وكل كلمة تقال هى مصير. وكل قرار هو قدر. وكل شيء قيل فى هذا الاجتماع. مسجل بالكلمة الواحدة. ومعروف. وفى متناول أى أحد، إذا أراد أن يعرف ماذا جرى فى ذلك اليوم الحاسم. أو الحاسم الأليم.

ومن الضروري أيضا أن أعود خطوة إلى الوراء وأتصور ماذا حدث مرة أخرى يوم استدعيت إلى استراحة الممورة. أربعة من الشخصيات الهامة بهذا الترتيب: حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى ومحمد صادق وزير الحربية وسيد مرعى وممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والمسئول عن المقاومة الشعبية. وأخطرتهم بأن قرار طرد الخبراء السوفيت الذى أصدرته لا قيمة له إذا وصلنا إلى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ ولم تكن جاهزين للمعركة. وعلى ذلك فالمطلوب من كل واحد منهم أن يكون مستعدا تماما.

وقلت لمحمد صادق، كما ذكرت قبل ذلك، أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة وأن يخطرهم بقرارى بأن تكون القوات المسلحة جاهزة تماما يوم ١٥ نوفمبر لأداء ما طلبته إليهم من مهام. وهذا ما نسميه فى العلم العسكرى «بالأمر الإنذارى»، أى إخطار القوات العسكرية بأن تكون جاهزة فى ١٥ نوفمبر. لتتلقى أى أمر. ولكن ليس معنى ذلك أن تبدأ القوات القتال.

ثم هناك الأمر الاستراتيجي «من رئيس الجمهورية إلى القائد العام» وفي هذا الأمر نعرض كل الاستراتيجية العامة.

وبعد ذلك «أمر القتال» في هذا الأمر تتحدد الساعة والدقيقة للمعركة..

وهذا هو المتبع عادة في الحروب. ومن يقرأ التاريخ يجد أن الذين كتبوا عن معركة الحلفاء في نورمانديا قد تناقشوا طويلا في هذه الأوامر وترتيبها.

وكان لتشرشل رأى، ودارت حوله اجتهادات كثيرة. وفي مذكرات ايزنهاور رد على ما كتبه تشرشل وأثارة في مجلس العموم البريطاني. ولكن لا خلاف بين «الكتب» العسكرية أو القانون العسكري «في ترتيب وأهمية هذه الأوامر» ففي معركة نورمانديا ضد هتلر، صدر «الأمر الاستراتيجي» للقائد العام للقوات المتحالفة وكان ايزنهاور في ذلك الوقت. ثم بعد ذلك صدر «أمر القتال» الذي وقعه تشرشل وروزفلت..

وهذا عرف عسكري معروف. وهذا بالضبط ما سرت أنا عليه، وحريص على تطبيقه. والذين يدرسون حرب ٦٧ وحرب ٧٣ ومن قبلها حرب ٤٨ سوف يجدون ألوانا وأشكالا من التخطيط في إصدار الأوامر وتضاربها وتطبيقها.. ولم يكن هذا الذي شاهدناه قبل حرب أكتوبر تضاربا بل ضربا موجعا للقادة.. وكان على مصر أن تدفع الثمن وهذه قصة أخرى سوف أعود إليها فيما بعد إن شاء الله..

وأذكر أنني عندما أعطيت أحمد إسماعيل أمر القتال ووقعته يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣، تحركت أمام عيني وفي نفسي صورة رائعة ومروعة أيضا...

والله يعلم أنني كنت أكتب كل حرف وأعلم أنني أخط قدرى وقدر مصر. وكان ذلك شيئا هائلا رهيبا. ولا أقول: إنني استرحت عندما أصدرت هذا الأمر، وإنما أحسست أن جبلا ثقيلا كان أمامي، وأننى حملته على كتفى وطلبت من الله أن يساعدنى على أن أنهض واقفا وأن أقترح به استحكامات العدو، وأعبر الحاجز المائى، وأعبر صحراء العار، والهوان.

وأن هذا المعنى الذى قلته يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب.

قلت، والله على ما أقول شهيد.

«عاهدت الله، وعاهدتكم على ألا أتأخر عن لحظة أجدها ملائمة، ولا أتقدم عنها، لا أغامر، ولا أتلأأ، وكانت الحسابات مضمية والمسئولية فادحة، لكنى أدركت كما قلت لكم

وللأمة مرارا وتكرارا إن ذلك قدرى وأنا حملته على كتفى، عاهدت الله وعاهدتكم وحاولت مخلصا أن أفى بالوعد ملتصبا عون الله، وطالبا ثقتكم وثقة الأمة، دائما لأحمد الله على كل شىء...».

يومها، بل لحظتها نظرت إلى أحمد إسماعيل وأنا أقول له: يا إسماعيل.

قال: نعم

قلت: نحن الآن يوم الثلاثاء ٢ أكتوبر وسوف نحارب بمشيئة الله يوم السبت ٦ أكتوبر يا ترى يا أحمد أين ستكون يوم الثلاثاء القادم ٩ أكتوبر...؟

ولم يرد أحمد إسماعيل.

فقلت له: اسمع يا أحمد..

قال لى: نعم..

قلت له: أشرف لنا ألف مرة أن نموت مع جنودنا وأن ندفن فى أرض سيناء، على أن نعيش فى هذه المهانة التى اسمها: اللاسلم واللاحرب. أشرف لنا أن نفرق فى قناة السويس وهى ماؤنا وأرضنا من أن نعود للحياة على ضفاف النيل مع الذل والعار والتمزق والنظر إلى الماضى على أنه مقبرة لنا..

فى الماضى دفنا كل آمالنا وكل أحلامنا وكل تاريخنا.. وبذلك نكون حقا شعبا له ماض وليس له مستقبل.. وأن تصدق علينا العبارة اليهودية الآثمة التى تقول: إنهم ولدوا لينتصروا وإننا ولدنا لننهزم.. وإننا شعب يعيش ويموت بالكلام.. وإن معاركنا خطب، وإن حروبنا هلوسة.. وإن جنودنا منهزمون لأنهم انهزموا.. وإنهم عاجزون عن أن يخوضوا حربا أخرى.. يا أحمد ليس عندى ما أقوله لك ولنفسى فلنتوكل على الله، وليبارك خطانا ولينصرتنا على أعدائنا إنه سميع مجيب. لقد صدقنا النية وأخلصنا العمل والله فى عون العبد مادام العبد فى عون نفسه.. وقد عاوننا أنفسنا، فليعاوننا الله.. مع السلامة.

وخرج أحمد إسماعيل يحمل أخطر قرار، قرارا بالقتال..

ولذلك قام محمد صادق قبل ذلك بإلقاء خطب فى القوات المسلحة يؤكد فيها، كالخبراء السوفيت تماما، أنه لا حرب. ولا فائدة منها، ولا قدرة لمصر عليها. وأنه أفضل لمصر ولقواتها المسلحة أن تظل هكذا فى محلها تسير. أو فى نومها تسير. أى أن تكون فى حالة اللايقظة واللانوم.. «وأن تنظر إلى القوات اليهودية على أرضها فى سيناء وتبتلع رمال الأرض وتحترق

من داخلها وتموت كمدا على ما أصابها.. وسوف تعتاد على ذلك وينتهى كل شيء» - هذه العبارة الأخيرة هي التي قالها موسى ديان.

فهو الذى أعلن أن المصريين لن يحاربوا لأسباب عديدة من بينها:

أولا: أنهم انهزموا أكثر من مرة. فقد اعتادوا على أن يهزموا كما اعتدنا نحن على أن ننصر..

وثانيا: لأن المصريين يعتادون على وجودنا فى الضفة الشرقية للقناة. وهذا شأنه أن يخلق لديهم نوعا من الاستسلام الطويل للأمر الواقع..

وهذا ما كان يريده أبواق الانهزامية ودعاتها الخونة فى مصر، أو الخونة لمصر..

وإذا كان وزير الحربية هو الذى يحطم معنويات الجيش المصرى، فمن الذى يرفعها؟ وما هو الفرق بينه وبين وزير الدفاع الإسرائيلى.. إن وزير دفاع العدو يبنى قوته على ضعفنا.. ولكنه لا يبث روح الهزيمة بين قواته، إنه يبثها بين قواتنا إن استطاع..

فى هذا الاجتماع شرحت الموقف السياسى بجميع أبعاده - وهذا مسجل - وشرحت موقفى من الاتحاد السوفيتى، والأسباب التى دعت إلى إخراج الخبراء السوفيت. وأنه إذا كانت هناك فجوة فى التكنولوجيا بيننا وبين إسرائيل، فليس معنى ذلك أن نستكين. ولكن معناه أن نملا ذلك بتدريبنا وإيماننا بقضيتنا. وأننا يجب أن نتفوق على رغم كل الظروف بالأداء القتالى. وأن هذا قدر. وأن الموت خير من الهزيمة أو الاستسلام لها. وأن الحرب لا ريب فيها. وأن القتال مكتوب علينا. وعندما سألت عن مدى استعداد الجميع للقتال، رأيت وجوما، وكان هذا الوجوم الصامت، صارخا فى أذنى. فلم أتصور أى شيء آخر غير أن الاستعداد للحرب مستمر. وأن كل شيء جاهز. ولذلك جاء هذا الوجوم شيئا مفزعا. إن هذا هو الصمت الرهيب حقا. وجوم؟ ما معنى ذلك؟

وسألت القادة. وسمعت العجب.

واعجب ما سمعته ما قاله واحد اسمه اللواء نوال سعيد قائد الشؤون الإدارية للمعركة. أى الرجل الذى يتكفل بنقل الطعام والذخيرة للجيش كله. أى الرجل الذى فى يده حياة كل الناس. فوجئت به يرفع يده ويطلب الكلمة. قلت له: ماذا تريد أن تقول يا نوال؟ قال: يا أفندم أريد أن أسأل.. سيادتكم قلت إن هناك تعليمات أصدرتها لوزير الحربية لتبليغها للمجلس الأعلى للقوات المسلحة. ما هذه التعليمات. فأنا لا أعلم عنها أى شيء!

لا يمكن للعقل أن يتصور ما الذى أصابنى فى تلك اللحظة. لأن الذى أمامى الآن شيء يعجز العقل عن تصويره أو تصويره: فالرجل الذى بيده إ طعام الجيش وإدارة محركات طائراته ودباباته لا يعرف أن هناك معركة وأن هناك أمرا بالاستعداد.

وتلفت إلى محمد صادق. يقترب منى ويهمس فى أذنى قائلا: والله يا أفندم أنا لم أشأ أن أفشى لهم أسرار الحرب. لأن هذه المسألة يجب أن تكون طى الكتمان.

طى الكتمان؟ سرية؟ لا يعلمها قادة الجيوش.. لا يعلمها الذين سيديرون الحرب.. والذين يتولون إ طعام الجيش وأسلحته.. وإذا كان القادة لا يعلمون، فمن الذى يجب أن يعلم.. شيء عجيب جدا.

هنا فقط أدركت أن الأمر أخطر بكثير جدا من هذه البلاهة أو التظاهر بالسذاجة. ولم يعد شيئا مهما أن أستمع لأحد بعد ذلك. ولكن كعادتى، ابتلعت غضبى وكظمت غيظى، وراح عقلى يعمل بسرعة. ولما طلب الكلمة واحد اسمه على عبد الخبير، وهو ضابط بالمعاش استدعوه وأعطوه مائة جنيه وسيارة وكان قبل ذلك مديرا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر أيام النكسة وأعطاه محمد صادق وزير الحربية «قسم القاهرة». أى جميع القوات المسلحة التى فى قلب وحول القاهرة. منتهى الخطورة! ففى استطاعته أن يقوم بأى شيء فى أى وقت إذا طلبوا منه ذلك.. وهو ضابط من منازلهم فقال: إنه ليس لدينا سلاح وغير مستعدين للحرب.

وقال على عبد الخبير هذا أيضا: إن البلد إذا أرادت أن تدخل الحرب فعلى الشعب أن يحرم نفسه من أشياء كثيرة. أى إن الحرمان سوف يضاعف متاعب الشعب ومعنى ذلك أن الجيش غير قادر عسكريا والشعب غير قادر معنويا. والخلاصة: أنه لا ضرورة ولا مبرر لهذه الحرب.

وقلت له بالحرف الواحد وهذا مسجل أيضا: والله إذا نحن ابتدأنا الحرب فإن الشعب المصرى سوف يعطينا اللقمة التى فى فمه.. سوف يعطينا الجلباب الذى يرتديه إذا طلبناه منهم. والمهم أن نحرك الموقف. وأن نؤكد للعالم أننا قادرون. والعالم لا يحترم إلا المقادير الأقوياء.. وأنا لن أفرض على الشعب أية إجراءات. يكفى الشعب المصرى ما يعانيه من عناء وعذاب.. ولكن إذا نحن حاربنا، فإن الشعب سوف يضحي من أجلنا ومن أجل انتصارنا بأكثر مما نريد ومما نتصور..

وكان على عبد الخبير وعبد القادر حسن مساعد وزير الحربية هما الشخصيتان اللتين دفعهما محمد صادق لإشاعة هذه الانهزامية فى المجلس. وطلب عبد القادر حسن الكلمة وقال متسائلا: إن كنا سنطلب معونة السوفيت فى أية مرحلة من مراحل القتال؟

وأدهشنى ذلك. وغضبت وثرث قائلاً: ما هذا الذى تقول؟ إننى طردت الخبراء السوفيت. ولن يعودوا لأى سبب. فكيف أطالب بعودتهم، أو كيف تتصور أنت ذلك.. ثم إنك قد خرجت عن حدودك. لأن طرد السوفيت أو دعوتهم هذا قرار سياسى. وليس قراراً عسكرياً. وأنت هنا تحاول أن تشيع جواً من التعميز. وأنا لا أسمح بمثل هذا الكلام. وأرفض مثل هذا الجو الكريه..

ثم قلت له: هذه هى المرة الثانية التى أخطأت فيها أمامى.. وكانت المرة الأولى ونحن فى الطائرة قادمون من ليبيا!

فقد حدث وأنا عائد من ليبيا فى صيف ١٩٧٢ وبعد طرد الخبراء السوفيت أن استدعيت عبد القادر حسن وكان معى فى الطائرة وقلت له: الآن لم يعد لديكم أى عذر. طردت الخبراء السوفيت. وعليكم الآن أن تتولوا المسؤولية وأن ترتفعوا إلى مستواها. وفوجئت به يقول: والله يا أفندم الناس يتكلمون على ضرورة وجود السوفيت فى أسوان..

فقلت له: أسوان؟ ماذا تقول؟ إن هذا قرار سياسى. وقد صدر وانتهى. وشمل كل مصر من أولها إلى آخرها بما فيها أسوان.

وفى هذا الاجتماع قلت لعبد القادر حسن: هل تذكر ما قلته لك فى الطائرة ونحن قادمون من ليبيا. قال: نعم.

قلت: لا أسمح لك بأن تتكلم فى موضوعات سياسية. فقرار طرد الخبراء السوفيت قرار سياسى.. ونحن هنا نبحث القرارات العسكرية. هل أنت جاهز للمعركة. أو غير جاهز. وليس من المعقول أن أكون قد طردت السوفيت، ثم أستدعيهم مرة أخرى لأى سبب.. لقد اتضحت الصورة أمامى. وكانت صورة بشعة. ولكن أحمد الله أنى عرفت أبعادها. وعرفت بسرعة ما الذى يمكن عمله ورفعت الجلسة.

ونزلت إلى مكتبى فى الدور الأول من بيت محمد محمود خليل. وجاءنى محمد صادق وزير الحربية يقول لى: سيادتكم انفعلت وتضايقت جداً. أنا آسف لما حدث. قلت له: ألم تسمع ما جرى. ألم تسمع ما قيل. هذا شئ خطير جداً.

قال: يا أفندم. نحن سوف ننفذ كل ما تريد..
 وأنا أعلم تماما أنه اجتمع بهذين الاثنين وملأهما بما قالوا وقال لهما بالحرف والواحد:
 إذا دخلت مصر حربا فسوف تذهب في ستين داهية!
 وبعد ذلك بيومين قررت عزل محمد صادق. لأنه جندى خائف من القتال ولأنه كذب وهو
 وزير وهى كذبة قاتلة. لو كانت قاتلة له هو لهانت. ولكنها قاتلة لمصر كلها! - ولكن الله سلم!
 وأرسلت سكرتيرى إلى محمد صادق ليقول له: بدلا من أن تخرج بإقالة مثل شعراوى
 جمعة، سوف أعلن اليوم أنك استقلت.
 وكان ذلك فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.. وإذا عزلت قائد القوات المسلحة،
 فيجب ألا يكون هناك فراغ. لأنه من الممكن أن يحدث أى شىء، فمن الذى يعطى الأوامر
 لقواتنا. ولذلك فى اللحظة التى أعزله، يجب أن أعين قائدا فى مكانه فورا.
 ولذلك فقد استدعيت اللواء سعد الشاذلى رئيس الأركان وقلت له: يا سعد.
 قال: نعم.
 قلت له: أنا أصدرت قرارا. وسوف أبعث بهذا إلى وزير الحربية والقائد العام للقوات
 المسلحة محمد صادق بأنه معزول. وعلى ذلك فمن هذه اللحظة وحتى يتم تعيين وزير آخر
 للحربية، فأنت تتولى القيادة العامة للقوات المسلحة. حتى لا يكون هناك فراغ. وسوف يأتيك
 الوزير والقائد العام الجديد وربما كان ذلك فى الساعة الثامنة مساء. وعلى ذلك فمنذ هذه
 اللحظة، أى الثالثة والنصف فأنت القائد العام بالنيابة. ومسئول أمامى. وإذا احتجت لأى
 قرار فاتصل بى فورا.
 وكان لابد من ملء هذا الفراغ بمنتهى السرعة. فالعدو على أرضنا وأماننا. ومن الممكن أن
 يقوم بأى شىء.
 واليوم أؤكد أن محمد صادق قد ارتكب «جريمة» لا يمكن اغتفارها. وأتمنى لو ذهب محمد
 صادق إلى المحكمة. هنا فقط يعرف الناس أبعاد «الجرم» الحقيقى الذى ارتكبه هذا الرجل،
 والكارثة التى كان من الممكن أن تقع فى مصر. فقد كان فى استطاعة موسى ديان أن يتقدم
 إلى الضفة الغربية وأن يفعل بها ما فعله فى جنوب لبنان.. فى الوقت الذى نتحدث عن قوة
 مصر ووزنها العربى وثقلها العالمى.. كل هذا ظللنا نبنيه من عذابنا وعرقنا ودمنا وحرماننا
 وهواننا وتضحياتنا. كل ذلك كان من الممكن أن يتبدد فى لحظات بسبب.. ارتكبه هذا الرجل
 فى حق مصر وشعب مصر..

قلت لسعد الشاذلى : اذهب الآن وانتظر الوزير الجديد..

قال: حاضر يا أفندم..

وقبل أن يتجه خارجا استوقفته وقلت له : يا سعد.

نعم يا أفندم.

أنت بينك وبين أحمد إسماعيل مشكلة.. وأنا أعرفها من وقت طويل.

تمام يا أفندم.

من أيام الكونغو؟

تمام يا أفندم.

قلت له : الذى سيجىء إليك فى الساعة الثامنة وزيرا للحربية هو أحمد إسماعيل..

قال : حاضر يا أفندم.

قلت : تعليماتى لك أن تعمل رئيسا للأركان تحت قيادة القائد العام أحمد إسماعيل.

حاضر يا أفندم..

هل تريد أن تسأل عن شىء يا سعد؟

لا يا أفندم.

مع السلامة يا سعد..

وخرج سعد الشاذلى وقد اطمأنت نفسى إلى أنه لا يوجد فراغ ولو لمدة ثانية واحدة..

أما الخلاف بين سعد الشاذلى وأحمد إسماعيل فيرجع إلى أيام الكونغو. يوم أرسلت قوات طوارئ على أيام لومومبا. وكان هناك سعد الشاذلى وأحمد إسماعيل. ودارت بينهما خلافات ومشادات. وطبيعى أن يحدث بين الضباط مثل ذلك. وتركزت هذه الخلافات آثارا عميقة عند الاثنين ولم يتح لهما وقت كاف لتصفيتها. أو أنهما رأيا أنها من الشدة والحدة بحيث لا يمكن إزالتها. وهذا من الممكن أن يحدث اليوم وغدا، لأى اثنين من الضباط أو من الناس.

وأذكر أن الرئيس الأمريكى نيكسون عندما كان فى زيارتنا فى مصر، كان على صلة بالولايات المتحدة. فقد كان فى سيارته تليفون يربطه بالبيت الأبيض.. أى فى استطاعته أن يتصل وأن يصدر أى قرار بالحرب.. فالحرب الذرية لا تحتاج إلا لثوان.. والذى يسبق هو الذى يستطيع

أن ينتصر، أو يحدث بالطرف الآخر أفدح الخسائر.. وكذلك كانت الطائرة الهليكوبتر التي كان ينتقل بها من استراحة المعمورة إلى قصر رأس التين كان بها اتصال مباشر بواشنطن. لأنه يجب ألا يكون هناك لحظة فراغ.. أى لحظة واحدة لا يمكن فيها الاتصال برئيس الدولة..

واستدعيت أحمد إسماعيل وهو الرجل المؤهل الوحيد لقيادة القوات المسلحة في غياب عبد المنعم رياض. وعبد المنعم رياض من دفعنى أنا. بينما أحمد إسماعيل من الدفعة التى بعدى وهى دفعة جمال عبد الناصر. وأحمد إسماعيل هذا رجل أمين ونزيه وصادق وعسكرى ١٠٠٪ وكان الأول على كلية ناصر العسكرية.

وقبل أن أستدعى أحمد إسماعيل ليكون وزيراً للحربية تذكرت ما الذى أصاب هذا الرجل. فأحمد إسماعيل رجل عسكرى فقط. حياته عسكرية، وثقافته عسكرية. ولا شأن له بالسياسة. فعندما كنا معا فى منقباد سنة ١٩٣٨ وما بعدها لم نقترّب منه سياسياً. واقتربنا من كثيرين معه وحوله.. إلا هو. فقد عرفنا بالتجربة أنه مشغول بالعلم العسكرى فقط. هذا الرجل قد ضربته مراكز القوى ضرباً لا هوادة فيه ولا رحمة. فبعد مقتل عبد المنعم رياض اختاره جمال عبد الناصر رئيساً للأركان لأنه أكفأ من يتولى هذا المنصب. وكان ذلك سبباً كافياً لأن تتجمع حوله مراكز القوى حتى طرده جمال عبد الناصر. وأقعده فى البيت بمعاش شهرى ستون جنيهاً. وكان عليه فى ذلك الوقت أن يجهز بناته للزواج. ولكن الرجل احتمل هذه الإهانة البالغة، ولم يفتح فمه بكلمة أو شكوى. وإنما طوى نفسه على جرحه وألمه.

وقد زارنى فى ذلك الوقت فى بيتى بالهرم وقال لى، وكان مصيباً فى ذلك: أنا أعلم علم اليقين أنهم لم يرتاحوا إلى - فقد كانوا يريدون محمد صادق لا واحداً مثلى وبالفعل كان ذلك ما يريدونه وتكاثروا عليه وأطاحوا به وأتوا بمحمد صادق واستدعيت أحمد إسماعيل وكنا فى شهر رمضان وللصيام عندى طعام خاص فيه صفاء وشفافية وقرب من الله سبحانه وتعالى والصيام عندنا فى مصر علاقة بين الإنسان وربه فالصائم يقول إنه صائم وهو بالفعل كذلك ولكن فى بلاد إسلامية أخرى يتظاهرون بالصوم ويحاسبون بشدة كل من يجاهر بالإفطار ولكننا فى مصر صادقون فى أداء هذه الفريضة التى بها عظيم الاحترام ولا أزال حريصاً على متعة الصوم. فأنا أصوم كل يوم خميس وأرى فى ذلك راحة نفسية وجسمية وشفاء عقلياً ولما استدعيت أحمد إسماعيل وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ طلبت إليه أن يرافقنى بعد الوقت فى رياضتى اليومية وهى المشى وأنا لابد أن أمشى ساعة كل يوم أى ما يعادل أربعة كيلو مترات.

قلت له : يا إسماعيل .

قال : نعم .

قلت : أريد أن أذكرك بشيء .

قال : تفضل .

قلت : هل تذكر بعد ما عينتك مديرا للمخابرات فى الساعة الأولى من صباح ١٣ مايو ١٩٧١ أنك قلت لى شيئا ما : غريبا هل تذكره؟

قال : أذكر يا أفندم .

قلت : ألا تذكر أنك جئت وقلت لى شيئا عن محمد صادق..

قال : أذكر يا أفندم .

قلت : أنت قلت لى أن محمد صادق لا يستطيع أن يعمل معركة .. هذا بالضبط ما قلته لى فى ذلك اليوم..

قال : تمام يا أفندم .

قلت : يا إسماعيل أريد أن أعرف منك الآن على أى أساس بنيت هذا الحكم .. أو ماهى حيثيات مثل هذا الحكم الخطير؟

قال : أريد أن أقول لسيادتك شيئا يا أفندم .. أنت عينتنى مديرا للمخابرات . وأنا سعيد جدا بهذا المنصب . ووجدت فيه ردا لاعتبارى . وأحمد الله على ذلك وأنت صديق عزيز على . ولذلك لن أكذب عليك فى حرف واحد . لقد بنيت هذا القرار على أن محمد صادق ليس مؤهلا عسكريا لذلك .. وليست لديه مواصفات قائد المعركة التى تريدها ..

قلت : أريد أن أعرف منك أساس هذا الحكم يا إسماعيل .

قال : يا أفندم اطلب من محمد صادق أن يقدم لك خطة . إذا قدمها ، فهو إذن قادر على أن ينفذ المعركة التى تريدها . وفى هذه الحالة أكون أسأت التقدير ، أو حكمت عليه من خلال غضبى وانفعالى وسخطى على مراكز القوة .. ولكنى أؤكد لك أنه لن يفعل . لأنه لا يستطيع أن يقدم شيئا من ذلك .

ونحن العسكريين يعرف بعضنا البعض ، معرفة تامة . ونعرف أن فلانا هذا عسكري وهذا لا علاقة له بالعسكرية .. وخصوصا إذا كان هؤلاء العسكريون من دفعة واحدة . والدفعة عندنا كالأسرة بل أكثر من العائلة . لأننا جميعا نعيش معا حياة كاملة . ولذلك فنحن نعرف كل شيء عن أى شيء يتعلق بنا جميعا .

وكان وضع الخطة وتنفيذها عملا عسكريا علميا شاقا. وقد تحدثت عن ذلك في مناسبات كثيرة.

وما توقعه أحمد اسماعيل قد حدث: فلم يقدم لى محمد صادق أية خطة. إذن فالرجل لا يستطيع أن يحارب!

وسوف يكتب التاريخ عن هذه العملية العملاقة التي حققناها في أكتوبر. أن أكثر الناس على رغم ما قيل في كل لغة، ينسون حجم ووزن ومساحة وقيمة العملية الجبارة التي تحققت على قناة السويس وعبرها.. على ١٧٠ كيلو مترا من بورسعيد إلى السويس. ودخلنا فيها بفرق ورعوس كبارى كما حدث تماما في معركة نورماندى الشهيرة في الحرب العالمية الثانية.. فهم أشعلوا معركة نورماندى بخمس جيوش ونحن اشتركنا بخمس فرق. وبمنتهى التنسيق بين البر والبحر والجو.. وهذا مالا تقدر عليه إلا الدول العظمى. وليس هذا مبالغة فيما أقول. فقد قال المعلقون العسكريون المحايدون ماهو أكثر من ذلك.

وقد شاركت إسرائيل بضباطها الكبار في الحرب العالمية الثانية.. ولذلك فقد اكتسبوا خبرات واسعة أفادتهم فى معاركهم ضدنا. ومثل هؤلاء الضباط يقال عنهم عادة إنه تم «تطعيمهم عسكريا» وهذا التطعيم معناه أنهم جربوا وتذوقوا واستفادوا وعادوا بخبراتهم إلى جيوشهم.. ومع ذلك واجهنا إسرائيل بأربعة آلاف مدفع بصورة مكثفة من ضفتنا الغربية تصب نارنا عليهم فى ضفتنا الشرقية للقناة.. وكانت عندنا ٢٢٢ طائرة تدكهم دكا.. وخمس فرق بطولية، مفخرة لمصر وللأمة العربية ولتاريخ النضال القومى..

ولولا التنسيق العلمى الدقيق بين كل هذه القوى لما تحقق لنا النصر بل لأصابتنا مدافعنا، ولأسقطنا نحن طائرتنا، وقتلنا جنودنا.. ولكن العلم قد حمى إيماننا بالنصر، كما أن إيماننا بالنصر قد سد علمنا ضد عدونا. فالحمد لله على ذلك.. وعلى أن اسم مصر، أصبح محترما عند الصديق وعند العدو أيضا.

ولو استعرضنا ضباط اسرائيل المطعمين بالقتال لوجدنا إيجال باديين الذى هو رئيس الحركة الشعبية للتغيير وموسى ديان الذى كان وزيرا للدفاع وهو الآن وزير الخارجية.. وكذلك اسحاق رابين الذى عمل فى الجيش الأمريكى وهو أضعفهم جميعا..

ومضيت مع أحمد اسماعيل نتكلم فى موضوعات كثيرة ولكنى كنت أحاول أن أقرب من شىء ما فى نفسى وفى نفسه أيضا. وقد أدرك أحمد اسماعيل ذلك، وهو رجل ذكى وفى

نفس الوقت شديد الحيلة. وأعتقد أنه أدرك ما أريد، ولكنه تظاهر بأنه لا يعرف فسألني: سيادتكم تقصد ماذا يا أفندم. أنا لم أفهم شيئاً حتى الآن.

قلت: يا إسماعيل أنت ابتداء من الليلة قائد عام للقوات المسلحة ووزير الحربية لأننى قد أقلت محمد صادق..

فقال لى أحمد اسماعيل: يا أفندم أنا سعيد بعملى ولا أطمع فيما هو أكثر من ذلك.. وهذه المسؤولية التى تضعها على كتفى كبيرة وخطيرة. وتدلى على مدى ثققت فى قدراتى.. وباسم الصداقة وتقديرك العظيم وثقتك التامة، فإنى أقبل هذه المهمة الوطنية الجليلة.

وكان ذلك قبل مدفع الإفطار بقليل.

ولاحظت أن أحمد اسماعيل أصبح مهموماً. وأنا أحب الرجل الذى يأخذ الأمور مأخذ الجد. وأكره الرجل الذى يستخف بالأشياء. أو ينظر لكل شىء على أنه سهل. ولكن الرجل الذى يقدر المسؤولية ويرى أنها عبء ولأنها عبء يجب أن يتفرغ لها والتفكير فيها ليلاً ونهاراً، فلا يصرفه عنها أى شىء، هذا هو الطراز من الرجال الذى يعجبني.. ولما رأيت أحمد اسماعيل مهموماً، أدركت أن الرجل قد حمل المسؤولية منذ تلك اللحظة. وأشهد أنه رحمه الله كان رجلاً جاداً وصادقاً.

والتفت إلى اللواء أحمد اسماعيل لأقول له: أنت الآن رجل مدنى. فليست عندك بدلة عسكرية. اذهب وأحضر بدلة عسكرية وعليها رتبة الفريق أول. وتعال فى الساعة الثامنة لتحلف اليمين. وخرج الرجل مذهولاً أو مشغولاً لدرجة الذهول. وفى الساعة المحددة أقسم اليمين. وذهب إلى مكتبه ووجد سعد الشاذلى فى انتظاره..

قال له سعد الشاذلى: تمام يا أفندم.. أنا رئيس أركان حرب القوات المسلحة. وعندى أوامر من الرئيس بذلك.. وبأنك سوف تكون قائداً عاماً للقوات المسلحة ووزيراً للحربية..

وتسلم أحمد اسماعيل مهام عمله. دون أن تكون هناك لحظة فراغ فى قيادة القوات المسلحة. وهذا عرف عسكري وضرورة حربية حيوية - كما ذكرت. والتقى الرجلان على ما بينهما من خلافات شديدة، سوف تشدد وتحتد حتى تنقطع.. ولكنى على رغم ذلك قدرت فى سعد الشاذلى إحساسه بالصلحة الوطنية، فجعلته سفيراً فيما بعد!

ومن الضروري أن أعود قليلاً إلى مركز القيادة بعد أن حدثت «الثغرة»..

والثغرة فى التعبير العسكى: بالضبط هى أن نبحث فى خط دفاعى عن فجوة.. عن ثغرة تدفع إلى داخلها بقوات. ففى سبينا كانت لنا خمس فرق، لم تتعرض واحدة للإبادة.. علماً

بأنه في الخطة الأساسية كنا نتوقع حتى لو حدثت خسائر فادحة في فرقتين من الفرق التي هي رءوس كبارى على الضفة الشرقية، فإننا نكون قد كسبنا المعركة بدرجة ٩٠٪. ولكن الذى حدث هو أن هذه الفرق لم تمس أثناء الثغرة. ودخلت الفرق الخمس وأخذت أماكنها. وفي مركز القيادة رقم ١٠ الذى سنحوه إلى أحد المعالم السياحية. لأنه أصبح معروفا. ومن الطبيعى أن نكون قد بنينا مراكز أخرى فى أماكن أخرى كان القائد على يميني وعلى شمالي كان رئيس الأركان سعد الشاذلى فملت إليه قائلا: يا شاذلى. قال: نعم.

قلت: تذهب فورا الآن إلى القناة وتتولى القيادة هناك لتغطية الثغرة بالشكل الآتى: تقوم بحصار على البحيرات المرة التى تبدأ عند الدفرسوار وتنتهى عند كبريت.. تحاصرها وتترك اليهود ينزلون.. فإذا نزلوا حاصروهم تماما.. لأن كل قوة يهودية تتسرب هى غنيمة لنا. ولكن الشاذلى ارتكب شيئا خطيرا. فقد أضع ١٦ ساعة.. هذا الرقم ليس شيئا قليلا، وإضاعة هذه الساعات ليست شيئا هينا.. فالدقيقة لها ثمن. والتمن حياة وخطوة إلى الأمام. وقد أضعها سعد الشاذلى فى أن يبني له مركز قيادة. بينما أنا أرسلته إلى الميدان ليوقف تقدم اليهود ويحاصر البحيرات ويحصرهم ويخنقهم ويتصيدهم.

صحيح، وأكرر ذلك، أن الثغرة كانت مقتلًا لليهود. ولكن كان فى الإمكان تفاديها. وأذكر أنني عندما كنت فى عمان لأول مرة بعد المعركة، كنت أرى أنوار القدس.. وانتهزت هذه الفرصة وأعلنت فى الإذاعة الأردنية: أنني أتحدى إسرائيل أن تعلن عن خسائرها فى الثغرة.. ولم تدع إسرائيل شيئا من ذلك..

وفيما بعد أعلنوا أن الثغرة كانت «وادي الموت» لقواتهم.. وحتى بعد رفض اليهود فك الاشتباك الثانى وبعد أن أعلنوا أنهم استرجعوا كل جثث قتلاهم. أعددت لهم مفاجأة وكان عليهم وحدهم أن يفسروها ويبرروها ويدافعوا عنها. طلبت إليهم أن يستلموا جثثا مجهولة.. ٣٩ جثة أخرى. وكانت صدمة لليهود. لأنهم يعلنون دائما أنهم يعرفون كل شىء.. وأنهم الدولة الوحيدة فى العالم التى ليس فيها قبر للجندى المجهول لأنهم يعرفون قتلاهم.. وقد أدى ذلك إلى فضيحة فى إسرائيل. وثورة على الحكومة. وكان من بين الجثث ضابطان أقيمت لهما جنازة عسكرية ضخمة.

وبعدها بدأ اليهود يراجعون حساباتهم.. ولكنهم لم يعلنوا عن خسائرهم في هذه الثغرة التي كان محكوما عليهم عسكريا بالفشل والإبادة لو طال بقاؤهم فيها وتمسكهم بها.. ولكنهم لم يفعلوا وهذا من الناحية العسكرية، معروف مقدما!

وقد وصف لنا أحد الأسرى من الطيارين اليهود فداحة الخسائر في هذه الثغرة. وفي يوم ١٩ أكتوبر في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فوجئت بالقائد العام أحمد اسماعيل يطلبني لأمر هام. وفهمت منه أن الأمر سياسي وعسكري معا. وأنه لابد من الحضور فورا.. وكان ذلك شيئا خطيرا. وراحت الأفكار تدور في رأسي وتدور به.. وفي مثل هذه الأزمات التي اعتدت عليها، فإنني استدعي احتياطي الصبر والهدوء.. فقد رأيت في حياتي الكثير من المواقف الصعبة والمشاكل المعقدة والأزمات الحادة. وقد أورثني ذلك أن أكون في مواجهتها هادئا حتى لا يزداد الخطأ فداحة، وحتى لا تهتز الصورة أمامي، أو حتى لا أهتز أنا أمام هذه المحن..

وفي هذه القيادة التي شيدت تحت الأرض ولا تصيبها القنابل النووية لو سقطت عليها مباشرة وجدت جوا من الوجود.

وقبل أن أحضر إلى القيادة كان المرحوم أحمد اسماعيل مريضا. اشتد عليه مرض السرطان. ثم إن الموقف خطير. ولا يستطيع أن يبدي فيه رأيا. لأن القرار الذي يجب أن يتخذ ليس عسكريا فقط، وإنما هو قرار سياسي، وتقلب الرجل المريض في فراشه. وامتدت يده وارتدت عن التليفون يريد أن يطلبني وهو في نفس الوقت يخشى من وقع هذه المكالمات على نفسي.. ولكن حسني مبارك أصر على ضرورة الاتصال بي ليقف كل إنسان عند حده. فسعد الشاذلي قد جاء من الجبهة يطلب الانسحاب الكامل من سيناء. ولكن حسني مبارك يرى أننا منتصرون ومحمد على فهمي قائد الصواريخ يرى كذلك.. ولكن سعد الشاذلي هو أول من بشرهم بالهزيمة والتسليم بها..

وخشى أحمد اسماعيل أن يطلبني. ولكن حسني مبارك طلبني ثم أعطى التليفون لأحمد اسماعيل.

وعندما دخلت مركز القيادة وجدت هذا الصمت الرهيب!

وكان الأطباء قد أخبروني أن حالة أحمد اسماعيل لا تؤهله لأن يحمل هذه الأعباء. فالأم السرطان مروعة. ثم إن كمية الكورتيزون التي يتعاطاها لوقف استئراء السرطان، تجعله غير قادر على التفكير السليم واتخاذ القرار..

ولو جعلت أحمد اسماعيل نائباً لرئيس الجمهورية تكريماً له ، وفي نفس الوقت إبعاداً له عن مركز القيادة واتخاذ القرار ، فسوف يدرك أنني أبعدته .. أو أنني أقصيته عن موقعه .. مع أن الذى قصده شئ آخر يعرفه الأطباء ، وصارحونى به ، ولم يصارحوا به أحمد اسماعيل . ونهض أحمد اسماعيل من فراشه .

وسألته : خير إن شاء الله .

قال : والله يا أفندم لقد عاد رئيس الأركان سعد الشاذلى من الجبهة يقول : إن الرئيس يجب أن يبحث له عن حل سياسى . وأنه من الضرورى أن نسحب الجيشين الثانى والثالث من سيناء لأن اليهود قد دخلوا الثغرة وأنهم سيطوقون هذين الجيشين .. وأن شيئاً مروعاً من الممكن أن يحدث فى أى وقت .. ولا بد من الانسحاب حفاظاً على مدينة القاهرة .

قلت لأحمد اسماعيل : هات القادة جميعاً .

وجاء القادة كلهم ..

وقلت لمدير العمليات : يا جمسى ..

قال : نعم ..

قلت : هات الخريطة . وشرح لى الوضع .

وحكى لى الجمسى صورة كاملة ..

وقلت لحسنى مبارك : يا حسنى .. اشرح لى الوضع وطلبت من محمد على فهمى قائد الصواريخ أن يقدم لى صورة قواتنا ..

لقد كان الوضع كله مطمئناً . والصورة مشرفة ومشرفة . وأدركت سر الوجود فى مركز القيادة فالانسحاب معناه أن نترك كل ما كسبناه فى لحظة . إنها لحظة عار .. لحظة طولها مئات السنين من الهوان لمصر وللأمة العربية ..

سألت أحمد اسماعيل : ما رأيك يا أحمد ؟

قال : يا أفندم الوضع كله أمامك .

قلت لكل القادة : الآن .. أحب أقول لكم جميعاً :

أولاً : لا انسحاب لعسكرى أو بندقية أو دبابة من الضفة الشرقية . ويبقى كل شئ وكل الناس فى مواقعهم ..

ثانياً : تخطر جميع وحدات القوات المسلحة بأننا سوف نتعامل مع الثغرة على مستوى القيادة العامة ، وعليهم أن يستمروا فى خططهم .

ثالثا: يعزل سعد الشاذلى رئيس الأركان.. ويعين عبد الغنى الجمسى ابتداء من الساعة الواحدة من صباح ٢٠ أكتوبر رئيسا للأركان..

رابعا: الشاذلى يجب ألا يشعر بهذا القرار ولا القوات المسلحة، حتى لا يكون له أى رد فعل.. وسوف يعمل الجمسى رئيسا للأركان بدون إعلان.

وقلت لأحمد اسماعيل أن يجنب سعد الشاذلى أية مسئوليات.. ثم قلت لجميع القادة الجالسين أمامى: لعلمكم جميعا، سأحارب فى طنطا وفى القاهرة وفى المنيا وفى أسوان. ولن أستسلم. سأحارب فى كل مكان. وحسنى مبارك هو أول من تنبه إلى أن اليهود يريدون أن يكرروا نفس الحيل التى أوقعونا فيها ١٩٥٦ و ١٩٦٧.. وهى أنهم يقومون ببارك القيادة العسكرية. فإذا ارتبكت القيادة نفسها، فإنهم يستدرجونهم إلى معارك أخرى وبذلك تنسى القيادة خطتها الأساسية. وتعمل على الخطة التى وضعها اليهود.

ولذلك فإن حسنى مبارك هو الذى قال لأحمد اسماعيل:

إننا فى وضع ممتاز. يريدون أن يستدرجوننا إلى نفس المصيدة التى وقعنا فيها فى حرب ٥٦ وحرب ٦٧.. ولذلك يجب أن نطلب الرئيس للحضور ليضع كل إنسان عند حده وفى مكانه.. وحسنى مبارك كقائد أعصابه هادئة وقادر على أن يتحرك وينفذ بهدوء شديد.. وعندما كلفته بالدفاع عن مصر من القاهرة إلى أسوان وألا يسمح لليهود أن يضربونا. فقد حقق ذلك تماما، على رغم التفوق التكنولوجى لليهود. ولو استطاع اليهود أن يتفوقوا علينا جويًا، هذه المرة، لكان لهم النصر المطلق علينا إلى الأبد!

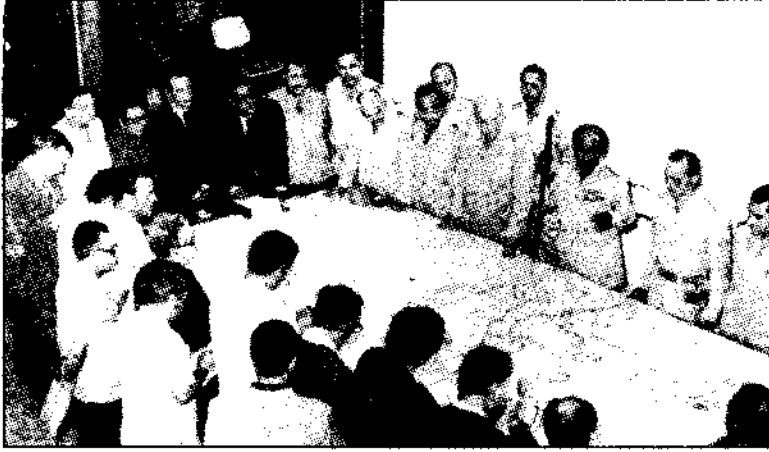
وفى صباح ٢٠ أكتوبر جاءنى حسنى مبارك ومحمد على فهمى فى قصر الطاهرة. وأكد لى الاثنان: أن الوضع سليم. وأننا فى غاية القوة، وأنه لا خوف علينا. وأن مجيئى للقيادة قد أنهى وضعنا رهيبا.

ولم يعلم سعد الشاذلى أنه عزل فى ذلك اليوم، وإنما شعر فقط أن أحدا لا يرجع إليه فى شىء. وذلك لأننى عينت الفريق الجمسى بدلا منه وهو رجل منضبط تماما.

وبعد فك الاشتباك الأول طلبت من أحمد اسماعيل أن يخبر سعد الشاذلى بأنه تقرر تعيينه سفيرا فى وزارة الخارجية. واعتبرها سعد الشاذلى إهانة بالغة أن يستدعيه أحمد اسماعيل زميله وخصمه ويخطره بهذا القرار. فرد عليه بأنه مستقيل..

وحدث قبل ذلك تكريم للقوات المسلحة فى مجلس الشعب.

وبعد هذه الحفلة بيومين كان لابد أن نسافر إلى المؤتمر الإسلامى فى لاهور.



١ - غرفة عمليات حرب
أكتوبر ١٩٧٣ .



٢ - الرئيس السادات مع
القوات المسلحة .

٣ - الرئيس السادات
وممدوح سالم والقريق أول
الجمسى واللواء أحمد بدوى
أثناء زيارة الرئيس لأحد
مواقع الجيش الثالث .



٤ - .. ويلقى كلمة أثناء
زيارته للقوات المسلحة .



٥ - .. وهو في إحدى نقاط
الملاحظة على الجبهة .





٦ - الرئيس السادات مع
المشير أحمد إسماعيل بعد
انتصار ١٩٧٣ .



٧ - الرئيس السادات
يمصافح الفريق حسن
التهامي .



٨ - د. محمود فوزي
يمصافح الفريق محمد
فوزي .

٩ - الرئيس السادات
بالزى الرسمى فى أحد
المساجد لأداء الصلاة .



١١ - الفريق سعد الشاذلى



١٠ - الفريق أول محمد أحمد صادق

١٢ - الفريق أحمد
بدوى .



محطات مهمة فى حياة السادات



- أحمد الله أن أحيانى حتى أكتب هذه السطور.
- «أبو منقار» كان الاسم الحركى لجمال عبد الناصر.
- كيف اتهم أنور السادات بأنه عميل سوفيتى !!
- العبارة التى قالها المراغى وكانت سببا فى خروجه من الأزهر.

أعود إلى طفولتي أكتشف فيها الينابيع الحقيقية للاهتمام بالسياسة وبأن يكون **عندما** لي دور في إصلاحها أو تحريرها فإنني أتجه مباشرة إلى الريف إلى قريتي فما الذي أجده هناك؟ أجد الأراضي الخضراء الشاسعة.. أى الحياة المتجددة وأجد الانطلاق فلا شيء يوقف العين ولا شيء يعترض الخيال.. وكل أفكارنا ونحن صغار مثل طيور ينبت لها الريش.. فإذا طال الريش طارت في كل اتجاه.

وربما كانت الأغاني الشعبية والمواويل هي هذه الأجنحة التي تحمل خيالنا وأحلامنا وتذهب بها بعيدا بعيدا وإن كانت كل هذه الطيور تحوم على شجرة واحدة هي مصر. ونحن صغار كنا نسمع من أمهاتنا موال زهران ابن دنشواى ولم تكن دنشواى بعيدة عن قرية ميت أبو الكوم وكنت أسمع من أمى أيضا موال أدهم الشرقاوى وكان لهذه المواويل معنى واحد: أنها قصة جميلة حزينة ولكن فيها بطولة وفيها شجاعة زهران وأدهم فلاحان قد اختارا عدوا واحدا هو الإنجليز الذين يجب أن يخرجوا من مصر وأن يرفعوا أيديهم عنها فهم غزاة وهم أجنبى وفي هذا المجال وحده يجب أن يكون الإنسان بطلا..

وكان منتهى أملى- وأنا طفل- أن أكون زهران المنوفى أو أكون أدهم الشرقاوى. ونحن أطفال تكون أحلامنا وأوهامنا أيضا مبعثرة هنا وهناك ولا يجمعها إلا شخص وإلا حدث أى أن يكون فى حياتنا بطل يعجبنا أو يقع حدث كبير نتجمع حوله ولم يكن موال زهران أو أدهم مجرد أغنية وإنما كان حادثا جليلا وملحمة بطل وكان فى نفس الوقت «دعوة مفتوحة» لكل الأطفال المحبين للبطولة أن يساهموا فى المعركة ضد قوات الاحتلال الذى طال ويش الناس من زواله..

وعلى رغم نبرة الحزن فى المواويل المصرية فإن الفلاح المصرى فى طول التاريخ وعرضه لم يعرف اليأس عرف الصبر على مضر ولكنه أحنى رأسه كثيرا للعاصفة حتى تمر ثم رفع رأسه ليكون هو العاصفة التى تمر على جيش الغزاة الفاشمين.

وكان من آمالي أيضا أن أدخل الكلية الحربية فهذا هو المستقبل الوحيد المضمون فلم يكن لأى مصرى فلاح فقير مثلى أى مستقبل مضمون إنما المستقبل مضمون للناس الأكابر.. للطبقة القادرة أو الطبقة الحاكمة من الإقطاعيين والباشوات والأسرة المالكة وأتباعها وعملائها أما نحن فلا مستقبل لنا إلا إذا كانت هناك واسطة.

هل الذى اجتذبنى إلى العسكرية تلك البدلة الأنيقة؟ ذلك المظهر الجميل الذى إذا رآه الناس عرفوا أن صاحبه ضابط بينما لا يعرف الناس طبيعة عمل أو وزن أو قيمة أى إنسان آخر مهما كانت ملابسه ربما كان ذلك شيئا مغريا؟

هل لأن قوات الاحتلال البريطانية قوات عسكرية ولا يمكن أن يخرجها أو يواجهها أو يقاومها إلا عسكريون مثلهم.. أنا وغيرى من أبناء مصر؟

هل لأن كمال أتاتورك كان مثلى الأعلى؟ وقد رأيت صورته فى بيتنا فى مصر ولا بد أنها كانت فى بيوت أخرى كثيرة فقد كان زعيما إسلاميا عظيما كان فى عظمة جمال عبد الناصر بعد ذلك يوم أمم قناة السويس.. لقد قرأت قصة حياة كمال أتاتورك وأعجبتنى جدا وظللت مبهورا بها.. وقد ذكرت ذلك أكثر من مرة فقد قرأت الكتاب الذى ألفه أرمسترونج عن «الذئب الأغبر» أى كمال أتاتورك.. وأعجبنى جدا كتاب آخر قرأته لعباس العقاد وإن لم أكن من قرائه.. فأنا استريح إلى طه حسين والحكيم أكثر، هذا الكتاب عن حياة الشاعر الألمانى جيته وكان عنوانه «تذكر جيته».. والذى أعجبنى فى كتاب العقاد أنه راح يفرق بين صفات الأبطال فى التاريخ ويقارن بين «الرجل» العظيم وبين «الإنسان» العظيم أعجبتنى هذه التفرقة الدقيقة ووجدت فى كمال أتاتورك الكثير من الجوانب العظيمة التى استهوت طفلا وشابا ورجلا مثلى.. ولا أزال أتذكر وأنا طفل كيف إن هتلى عندما زحف من ميونخ على برلين هزنى هذا الزحف على العاصمة وتمنيت وقلت لزملائى الأطفال سوف أزحف على القاهرة وكنت فى تلك اللحظة أسبح فى ماء التربة وأجفف ملابسى ولا بد أنهم ضحكوا لمثل هذه العبارة ولم أكن أضحك وإنما كنت أقولها جادا دون أن أعى معنى الذى أقول وكأن صوت القدر هو الذى يملأ جوانبى ويخرج مثل هذه العبارات الكبيرة من فمى!

صحيح كان فى حياتنا قبل ذلك زعماء من مثل مصطفى كامل ولكن مصطفى كامل ظهر بعد الحرب العالمية الأولى واتخذ من مذبحه دنشواى نقطة الانطلاق ضد الإنجليز لقد فضحهم فى أوروبا وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام فى ذلك الوقت كانت متواضعة فإن مصطفى كامل استطاع وحده بالخطب التى ألقاها والرسائل التى بعث بها إلى الصحف الأوروبية أن يقلب

الدنيا على الاحتلال البريطاني حتى سحب البريطانيون رجلهم في القاهرة كرومر وكان طاغية جبارا وكان مصطفى كامل هذا بطلا يملأ عقولنا وقلوبنا.. وكنا نتغنى به في موال زهران ابن دنشواي.. بل إن هذا الموال نفسه قد جعل لمصطفى كامل نهاية حزينة.. جعله شهيدا فقد وضع له الانجليز السم ثم مات في ريعان شبابه.. ولكن البطولة لم تمت وزهران لم يمت والموال نفسه لم يتلاش له صدى في أذن أحد منا نحن أبناء الريف في ميت أبو الكوم.

ولا بد أن نلقن الطلائع – أي الصغار حتى الثامنة عشرة – تاريخ مصر الحقيقي بل يجب أن ننهم من الداخل يجب أن نجعل أعماقهم غنية قوية لا تهزها الأحداث وإنما تواجهها لا يززعها الألم وإنما يصهرها ويطهرها وبذلك يصبحون صامدين قادرين كما فعلت في مواجهة الأهوال واجتيازها.

إن قريتنا لم يكن فيها أحد يقرأ ولخمسين عاما سوى والدي وكانوا يطلقون علينا أولاد «الأفندي» أي محمد أفندي السادات.. ولذلك فأنسا أرى تطوير القرية وتعليم كل أبنائها ضرورة حيوية لأن هذا يخلق «جوا» صحيا لكي تزدهر المواهب وتنمو الملكات ويكون في ريف مصر أبناء قادرون على تطويره وعلى إيقاظ مصر وتحريرها واستدراك ما فاتها في أزمتها.. لا بد أن نقول لأبنائنا الشبان: يجب ألا نخاف من المستقبل يجب أن نواجه كل الصعاب فالصعاب ضرورة لبناء الإنسان والإنسان القوى ضرورة لبناء الوطن والوطن القوى ضرورة لكي نلحق بركب الحضارة الإنسانية في كل مكان.. فبناء الشخصية هدف هام.

وقد دفعني أبى وشجعتني على القراءة وكنت أحبها فعلا ولم أرفع عيني عن الكتب وعندما كنت في السجن كنت لا أرفع عيني عن الكتب إلا لكي أتأمل نفسي وغيري أو كنت أغمض عيني وأنظر في داخلي وأعتقد أنني وجدت في أعماقي كنزا هائلا ويستطيع كل إنسان أن يجد ما وجدت لو أنه نظر في أعماقه وقد قال لنا سبحانه وتعالى ذلك ودعانا إليه عندما قال: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ صدق الله العظيم [سورة الذاريات - آية ٢١] .

وهذه الفترة التي أمضيتها في السجن قد أضاعت لي الكثير في نفسي وأضاعت لي الطريق إلى حياتي السياسية وفي هذا الضوء اهدتني إلى حقيقة هامة هي: إن الإنسان قيمة كبرى وأنه لا شيء في هذه الدنيا يساوي كرامة الإنسان وإن الإنسان حيث يضع كرامته إن رفعها ارتفع وإن وضعها اتضع وإن الجوع مع الكرامة أشرف من الهوان مع التخمة وكم شبت كلاب في بيوت الباشوات وكم جاءت ألوف في الحقول من الآدميين!

وتعلمت أيضا أنه من الممكن أن يهون أمرى على الناس وهذا يعذبني ولكن أقسى درجات العذاب أن يهون أمرى على نفسى.. وقد عرفت فيما بعد معنى الهوان أن يهون الإنسان على غيره وعلى نفسه بعد نكسة ١٩٦٧ فتلك محنة مصرية عربية إنسانية كبرى! وتقدمت للكلية الحربية ودخلتها وتخرجت فيها وطردت من الجيش وعدت إليه ولكن سنوات خدمتى العسكرية لم تزد على خمس سنوات ونصف أما بقية عمرى فكانت فى الشارع السياسى.

ومنذ سن صغيرة وأنا ألاحظ أن شيئاً فى داخلى ينمو لا أقوى على معرفته ولكنه كان يدفعنى إلى أن أشارك فى الأحداث وفى التآمر على الإنجليز وأعوانهم حتى الموت.. حتى أشارك فى الموت وحتى كدت أنا أن أموت.

مفارقات فى الحياة

يشاء القدر أن الذى أدخلنى الكلية الحربية واحد إنجليزى.. طبيب إنجليزى فأنا الذى تشبعت بكراهية الإنجليز وكنت أحلم بالزحف عليهم وطردهم وقد دخلت الكلية الحربية بتوصية من واحد منهم.. فكانه هو الذى دفعنى خطوة إلى الأمام فى ذلك الطريق الطويل إلى طرد الإنجليز من مصر.. وطردهم من الأجانب الذين أرادوا سلب إرادة مصر والتسلط عليها.. فلكى يدخل الواحد منا نحن الفلاحين الفقراء أو المصريين من غير أبناء الباشوات الكلية الحربية لا بد أن تملأ استمارة هذا إجراء عادى.

وفى هذه الاستمارة يجب أن يقول كل واحد منا: من هو.. ومن هو أبوه وكم يملك من الأرض أو غيرها.. وأهم من ذلك كله من هو الشخص العظيم الذى يوصى بدخوله الكلية الحربية.. أى لا بد من «واسطة» أى من ضامن.. أما أنا فمعروف أنى فلاح من ميت أبو الكوم وأبى محمد أفندى السادات كان يعمل فى الجيش المصرى فى السودان ولا يملك إلا ثلاثة أفدنة ومرتبته من الحكومة.. أما «الواسطة» فهو الطبيب الضابط الإنجليزى «فتز جيرالد».. ويوم كشف الهيئة كان رئيس اللجنة فى ذلك الوقت إبراهيم باشا خيرى وكيل وزارة الحربية.. شخصية كبيرة ومتزوج من إحدى قريبات الأسرة المالكة شىء رهيب!

وأمام هذه الهيئة لا بد أن يقرأوا أسماء الطلبة المتقدمين وأن يعلنوا «الواسطة».. وأعلن قبولى طالبا فى الكلية الحربية وكان ذلك حدثا جليلا وكنت فى قمة السعادة.. ولكن بعد أن قبلونى فى أول دور فصلونى فى ثانى دور.. وهناك قصة: فى صيف ١٩٣٦ بعد عقد المعاهدة سمحوا للنحاس باشا أن يتفاوض فى إلغاء الامتيازات الأجنبية.

وأكثر الشبان لا يعرفون ما معنى أن تكون لإنسان على إنسان آخر أية امتيازات.. أى كيف يكون الإنسان مصريا وفي بلده ومواطننا من الدرجة الثانية.

أما المواطن من الدرجة الأولى فهو أى إنسان يحمل جواز سفر أجنبيا ويسمونه حامل «رعوية» إنجليزية.. وقد يكون حامل الرعوية سائق سيارة أى أجنبى أو طاهيا أو خادما.. فإذا جاء حامل الرعوية هذا وقتل أى مواطن مصرى لأى سبب.. فليس يحق لأهل الفقيد المصرى أن يقاضوه قبل الرجوع إلى السفارة الأجنبية.. فالسفارة هى التى تقضى فى الأمر.. وأكثر الأحيان ترى إخراج القاتل من مصر.. وإذا تلطفت بالقتيل عرضت الأمر على المحاكم المختلطة التى كل قضاتها أجنب.. وقلة نادرة من المصريين الذين تعلموا فى الخارج!

وهذه كانت حال مصر قبل ثورة يوليو.. واليوم نسمع من يتغنى بمصر التى كانت قبل ثورة يوليو مصر الامتيازات الأجنبية التى لم يكن فيها للمواطن المصرى إلا الدرجة الثانية أو الثالثة فى بلاده.. إن هؤلاء يزيفون التاريخ ويريدون إعادة عقارب التاريخ إلى الوراء حيث كنا غرباء فى بلادنا!

وقد ذهب النحاس باشا ليتفاوض فى مدينة مونترو على بحيرة ليمان فى سويسرا وكان معه فى ذلك الوقت حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية.

وفى ذلك العام قبلت الكلية الحربية ٥٢ ضابطا ومن المصدف الغربية أن يكون رقمى ٥٢ وكان عدد المتقدمين ألفين من المصريين. وذهبت فى اليوم التالى أدفع المصاريف وكانت مفاجأة لقد أنقصوا عدد المقبولين إلى ٤٥ فقط. إذن لست واحدا من هؤلاء لماذا؟ لأن سيف النصر باشا أرسل من مونترو يقول لهم: احجزوا لى سبعة أماكن! وأخرجوا سبعة وكان ذلك من أتعس الساعات التى مرت بى فى حياتى!

وذهبت إلى كلية الآداب ودرست فيها بعض الوقت.. ثم اتجهت إلى كلية الحقوق بعض الوقت.. ودخلت كلية التجارة ودفعت المصروفات.. وبعث وزير الحربية من سويسرا ويذهب إلى الدكتور فتزجيرالد ليقدم اثنين من محاسبيه وطلب د. فتزجيرالد إلى والدى مدير مكتبه فى ذلك الوقت: يا محمد أفندى املا هاتين الاستمارتين.. وملأ والدى الاستمارتين ووقع عليهما د. فتزجيرالد دون الكشف على صاحب الاستمارتين وبعد أن شرب وزير الحربية فنجان القهوة خرج ليعود بعد ذلك باثنين آخرين.. ثم ثلاثة آخرين..

ولكن لكى أدخل كان لا بد أن يذهب للقاء إبراهيم باشا خيرى ولكن كيف؟ إنه باشا كبير وتذكر والدى أن «حاجب» خيرى باشا هذا كان زميلا له فى السودان فاتفق معه على أن يعرض الأمر على الباشا.

ووعده الحاجب بذلك ثم طلب إلى أبى أن نذهب معا إلى بيت الباشا ونعرض عليه الأمر وأكد لنا أن الباشا رجل طيب.

وكانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت أحد الباشوات وكان يسمى البيت «فيلا» وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة وأعرف أنها مبنى مختلف أشد الاختلاف عن الشقق والبيوت العادية.. ذهبنا إلى فيلا الباشا.. صعدنا السلم.. انفتح لنا الباب وقفنا وراءه بمسافة قصيرة ووجدت أمامى شيئا غريبا وجدت المقاعد تبدأ من وراء الباب مباشرة ثم رأيت مقاعد أخرى بعد ذلك ثم مقاعد ثالثة فى جانب من المدخل.. وقال لنا «الحاجب» صاحب والدى وهو الذى يجلس عادة إلى جوار السائق إن المكان الذى نقف فيه اسمه الانتريه.. وكان شيئا عجيبا جدا أن تكون هناك مقاعد كثيرة هكذا فالذى أعرفه أنا فى بيتنا غرفة واحدة اسمها «أوضة المسافرين» هذه الغرفة مخصصة لاستقبال الزوار والأقارب الوافدين من الريف وهم ينامون فيها أيضا وهى عادة بها مقاعد من الخشب الاسطامبولى.. وأعجب من ذلك أننى وجدت سلما فى وسط الفيلا وهذا السلم من الخشب وهو يصعد إلى دور علوى.. شىء غريب!

وفجأة قيل لنا إن الباشا نازل وتقدمنا الحاجب بينظولونه الذى له شريط أحمر على الجانبين ومد يده وأخذ الشنطة من الباشا.. وقال له: يا سعادة الباشا هذا هو محمد أفندى السادات الذى حدثت سعادتك عنه وهذا هو ابنه الذى يريد أن يدخل الكلية الحربية.

ووقف الباشا شىء رهيب ولم يتمكن أبى رحمه الله عنه أن ينطق بكلمة واحدة فقد ارتبك ولم يقدر إلا على كلمتين: سعادة الباشا.. سعادة الباشا.. ولكن الباشا نظر من فوق وقال: هو ده.. محمد أفندى.. وهو ده الولد بتاع الكلية الحربية.. آه.. ونزل من السلم يسبقه الصول الذى حمل الشنطة وفتح له باب السيارة الكاديلاك كان وزراء زمان لهم حاجب ولهم سيارات كاديلاك وليسوا مثل وزراء هذه الأيام مساكين مرهقين.. وانتهت هذه المقابلة - إذا اعتبرتها مقابلة-بعد نصف دقيقة! ودخلت الكلية الحربية..

حدث مرة أخرى أيام كنت رئيسا لمجلس الأمة أن جاءنى إبراهيم باشا خيرى فقد فرضت عليه الحراسة هو وأولاده وجاءنى الرجل وانتبهز التاريخ أو القدر هذه الفرصة لكى

محطات مهمة في حياة السادات =

يعيد نفسه.. وقف الرجل أمامي مرتبكا تماما كما وقف أبى قبل ذلك ولم يفتح الله على الباشا بكلمة واحدة وأنقذته من هذه الورطة عندما طلبت إليه أن يتفضل بالجلوس ولم يكن يتوقع ذلك واستأذن فى كوب من الماء لكى يبلى ريقه لقد كان أبى أحسن حالا منه فلم يجف ريقه إنما كان يقول: يا سعادة الباشا.. يا سعادة الباشا.

وأجلست الرجل وطيبت خاطره ورفعت عنه الحرج والفزع وقلت له: أنت كنت صاحب فضل على الثورة فقد كنت رئيس الهيئة التى أدخلت كل أعضاء مجلس قيادة الثورة.. فأنا وزكريا محبى الدين وحسين الشافعى دفعة واحدة.. وجمال سالم وعبد اللطيف البغدادي دفعة واحدة.. ثم بعد ذلك جمال عبد الناصر.. وحللت مشكلة هذا الباشا ولم يصدق الرجل أن ألقاه بهذا الترحيب فلم يكن بينى وبينه شىء وإنما هو النظام والطبقات فى ذلك الوقت هو ابن طبقة وأنا ابن طبقة ولم يكن فى استطاعته أن يفعل غير الذى فعل لا هو ولا غيره وتغيرت الدنيا والتركيبه الاجتماعية بعد الثورة وكان التسامح من أهم معالمها أو من أهم عناصر تركيبى النفسى فلا غل ولا حقد ولا مرارة ولا تشفى وإنما حب وتسامح وعفو عند المقدرة.

إرهاصات الثورة!

دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية إلى جانب ألمانيا وزحفت القوات الإيطالية حتى وصلت إلى سيدى برانى أى داخل الحدود المصرية بحوالى مائة كيلو متر وكان فى استطاعة القائد الإيطالى جراتسيانى فى ذلك الوقت أن يمضى حتى الإسكندرية.. إذا أراد فلم يكن لدى الإنجليز شىء. وإن كان تشرشل فى مذكراته قد اعترف بذلك وحاول أن يغالط.

وكذلك الكونت تشيانو فى مذكراته قد اعترف بأن جراتسيانى نفسه كان يرى فى الهجوم على مصر عملا شاقا وخصوصا أن خطوط الإمدادات طويلة وأن المواصلات صعبة وأنه لا يعرف بالضبط كم عدد القوات البريطانية. ولكن تشيانو فى مذكراته يقول: إن موسوليني تضايق من صراحة جراتسيانى. وقال: إنه لا يصلح لقيادة الحرب لأنه مشغول بأن يكون ماريشالا فقط. وإن الرجل الذى له هدف واحد تافه كهذا لا يحق له أن يكون قائدا فى حرب مظفرة كهذه وأمره موسوليني بأن يحارب وأن يتقدم فحارب وتقدم وراح موسوليني يرقص طربا لأنه صاحب الأمر وأن النصر كان حليفه فى النهاية.

ويقول الكونت تشيانو فى مذكراته: إن جراتسيانى حاول أن يطلب تأجيل الزحف المتوالى بضعة شهور ولكن موسوليني رفض.

وفى ١٣ سبتمبر زحف الجيش الإيطالى بست فرق مشاة وثمانى كتائب دبابات واكتسحت القوات الإيطالية كل ما اعترضها.. ولكن الإنجليز جمعوا قواتهم بعد ذلك ونظموها واكتسحوا الإيطاليين حتى راحوا يتساقطون أمامهم أسرى بعشرات الألوف ومعهم كل أسلحتهم.. وعندما وصل الإيطاليون إلى سيدى برانى كنت فى مرسى مطروح.. وكانت مرسى مطروح مقسمة إلى ثلاثة قطاعات.. كان الإنجليز يحتلون قطاعين وكان القطاع الثالث معنا. وفى ذلك الوقت كان على ماهر رئيسا للوزارة.. وكان ينادى وأقره البرلمان «بتجنيب مصر ويلات الحرب».

وأعلن الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر عبارته المشهورة: إن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل! وقد أدت هذه العبارة إلى إخراج الشيخ المراغى من الأزهر. وصدرت إلينا نحن الأوامر بالنزول. فطلب إلينا الإنجليز أن نترك أسلحتنا وهذا الطلب - من وجهة النظر العسكرية - شىء فظيع فالذى يترك سلاحه كالذى يفرط فى عرضه وكانت عندنا بطارية مدفعية هاوتزر ومدافع ماكينة وكانت معنا كل أجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية وكنت المسئول عنها.

وفوجئ الإنجليز بأننا رفضنا هذا الأمر. ولم يكن لدى الإنجليز أسلحة كالتى لدى الجيش الإيطالى فقد أنتجت لهم شركة فيات أسلحة حديثة. أصبحت هذه الأسلحة فى حوزة الإنجليز بعد ذلك عندما انتصروا على الإيطاليين وأسروهم. ولكن هذا الموقف أضأ شياً فى نفوسنا.. فالإنجليز ليس عندهم سلاح وفى استطاعة الإيطاليين - لو أرادوا - أن يستولوا على مصر ثم إن معنا سلاحاً وأماناً القاهرة ويمكن الزحف عليها والاستيلاء على كل شىء. وهنا ولدت الإرهاسة الأولى لثورة يوليو. فقد اتفقنا أن نتجمع وراء فندق مينا هاوس وهناك بعد أن تجتمع صفوفنا نوزع واجباتنا. وفى طريقى إلى مصر تخلفت ليلة عند العجمى.. ولما وصلت إلى ميناهاوس حيث اتفقنا لم أجد أحدا.. وبعد ذلك ذهبت إلى سلاح الإشارة عند المعادى وقوبلت أسوأ مقابلة ووضعت تحت المحاكمة.. ولأول مرة فى حياتى بكيت فأنا لا أعرف الدموع وقد مرت بى أحداث كثيرة تقطع القلب وتزلزل العقل ولكن عيى لم تستجب للموقف فتنزل دمة أو دمتان.. إلا هذه المرة عندما وجدتنى عاجزاً عن الدفاع عن نفسى.

صاحب قرار الثورة

يجب أن نعترف بأن جمال عبد الناصر هو مفجر ثورة يوليو وهو الذى اتخذ القرار بموعد قيامها وفق حسابات دقيقة راعى فيها كل الاعتبارات فقد كان جمال عبد الناصر

محطات مهمة في حياة السادات

داهية سياسيا.. وكان من المفروض أن تقوم الثورة في نوفمبر.. أى بعد أن يكون الملك والوزارة والأحزاب قد عادوا جميعا من الإسكندرية إلى القاهرة وبذلك نواجههم جميعا ونحتويهم مرة واحدة.. بدلا من أن نخوض معركتين واحد في القاهرة والأخرى في الإسكندرية.. وكنا قد اتفقنا على ذلك في يناير ١٩٥٢ عندما التقينا في بيت حسن إبراهيم بمصر الجديدة.

وفى يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢ اتصل أحمد أبو الفتح بجمال عبد الناصر يقول له: إن الملك كلف أحمد نجيب الهلالي بتشكيل الوزارة وسوف يكون مرتضى المراغى وزيرا للداخلية واللواء حسين سرى عامر وزيرا للحربية. وقد روى جمال عبد الناصر كيف إنه ذهب لقتل حسين سرى عامر وكان معه اثنان آخران هما حسن التهامي وكمال رفعت وتسلق حسن التهامي مواسير البيت ووصل إلى غرفة النوم وأطلق الرصاص ولكن لم يصب حسين سرى عامر.

وكان الحرص على التخلص من حسين عامر سببه أنه يعرف سبعة من أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار وكان من بينهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم وأنا.

وحسين سرى عامر هذا هو رجل فاروق وهو الذى قال للملك: أعطنى فرصة وأنا ألبسهم الطرح! ولو كنت مكان جمال عبد الناصر: ما فعلت غير الذى فعله.

وكان موقف جمال عبد الناصر: أننا يجب أن ننتهى منه قبل أن يقضى علينا.. وقد أعجبتنى عبارة قالها جمال عبد الناصر فى ذلك: لقد اتفقنا على يوليو.. ونحن الآن فى يوليو وقد جاءنا واحد يعرفنا جيدا فإما أن نقضى عليه أو يقضى علينا فإذا قضى علينا فإن هذا سوف يؤخر الثورة خمسين عاما.. ولذلك فهو الذى اتخذ قرار الثورة.. وفى هذا الوقت أعلن عبد اللطيف البغدادى أنه لا شأن له بالثورة ولكن إذا قامت فسوف يشارك فيها وكذلك أعلن جمال سالم..

وفى هذا اليوم أرسل لى جمال عبد الناصر برقية فى رفح يقول فيها: يا أنور.. انزل العريش لأن هناك رسالة.. رسالة من «أبو منقار» وأبو منقار هذا هو جمال عبد الناصر.. وكنت أنا وعبد الحكيم قد أطلقنا عليه هذه التسمية لأننا لو نظرنا إلى أنف جمال عبد الناصر نجده كالمنقار ثم اتخذنا هذه الصفة اسما «شفريا» لجمال عبد الناصر.. وجاءت الرسالة مع حسن إبراهيم الذى جاء بطائرة كنا نطلق عليها «حمار البوسطجى» لأن مواعيدها منتظمة جدا وتجىء كل يوم.

وقال لى حسن إبراهيم: إن جمال عبد الناصر يريدك أن تنزل إلى القاهرة غدا يوم ٢٢ يوليو.. لأن الثورة قد تحدد موعد قيامها ما بين غد ٢٢ يوليو وه أغسطس..

ومال حسن إبراهيم على جمال سالم فى المطار وقال له شيئا لا أعرفه. وذهبت إلى قائد سلاح الإدارة وقلت له: إن والدتى تعبانة وإننى فى حاجة إلى إجازة لكى أطمئن عليها. وكنت قد استنفدت مدتى من الإجازة. فوافق الرجل، وكان إنسانا طيبا رحمه الله. ووصلت إلى محطة القاهرة، وعلى غير العادة لم أجد جمال عبدالناصر فى انتظارى، فقلت لعل شيئا شغله، وأخذت تاكسى وذهبت إلى البيت..

وأسرتى معقدة من جمال عبدالناصر، لأننى عندما أجيء فى إجازة لمدة أسبوع فإننى أقضى مع جمال عبدالناصر خمسة أيام ومع أسرتى يومين، وأحاول أن أبرر ذلك عادة بأننا فى كلية أركان الحرب وأننا ندرس وأنه لا مجال لتترقى إذا لم نحصل على شهادة أركان الحرب. وكان ذلك عذرا مقبولا بعض الوقت. ولكن عندما عرفوا جمال عبدالناصر، وجدوه إنسانا طيبا هادئا، بل إن «حمى» عندما تحدث إلى جمال عبدالناصر فى إحدى المرات يقول له: إنه يبحث عن شقة، أخذه فى سيارته الصغيرة وراح يفتش معه عن شقة..

ومن المناسب أن أعود إلى أول يناير سنة ١٩٥٢ وكان ذلك فى بيت حسن إبراهيم بمصر الجديدة وقال لنا جمال عبدالناصر فى ذلك الوقت: يا جماعة إن تنظيمنا الآن يقوم بتدريب المقاومة.. وكان كمال رفعت الله يرحمه قبل انحرافه إلى الماركسية، من ألمع النجوم عندنا الذين تولوا تدريب المقاومة ضد الانجليز فى القناة.

قال عبد الناصر: يا جماعة إن الإخوان المسلمين قد طلبوا منى سلاحا وتدريباً.

وكان بالفعل يعطيهم السلاح ويمدهم بالتدريب.

وكنسا، ونحن فى رفح، نسرق الأسلحة والذخائر من الجيش المصرى، ثم نشترى من الفلسطينيين المدافع الرشاشة لكى نعطيها للإخوان المسلمين وللعناصر التى تكافح الإنجليز فى القناة. ومن بين هذه العمليات التى قمنا بها عملية اسمها عملية «التيقنل» - وهو اسم كودى - فقد أطلقنا هذا الاسم على لغم بحرى صنعه أحد الضباط الأحرار وهو صلاح هدايت، وكان الغرض من هذا اللغم أن يضرب به إحدى السفن فى القناة التى يدعى البريطانيون أنهم موجودون هناك للدفاع عنها وعن الملاحة الدولية بقواتهم التى تبلغ ٨٥ ألفا. ونحن نريد أن نثبت لهم عجزهم عن ذلك.

محطات مهمة في حياة السادات =

وكان المفروض أن يذهب التيتل إلى القنطرة شرق، ولكن لم نستطع فجاءنا إلى رفح، ومن رفح إلى العريش، ثم إلى القنطرة شرق.

وفى إحدى الليالي كنت في السينما أتفرج على فيلم أحببته كثيرا اسمه «ليلة الحنة» بطولة أنور وجدى وشادية، فوجئت بعبد الحكيم عامر يدخل السينما وينادى ويقول لى: التيتل وصل!

وكان الهدف من وراء هذا كله ما أعلنه جمال عبدالناصر من أن إلغاء المعاهدة قد خلق موقفا جديدا فلماذا لا نخلص من الإنجليز مباشرة، إن إلغاء المعاهدة قد أصبح مادة للمزايدة بين الأحزاب.. وقال جمال عبدالناصر أيضا: ليس من الضروري أن نقوم نحن بهذه الثورة، وإنما علينا أن نجهز لها، وإذا لم نستطع نحن، فإننا نكون قد خلقنا الجو المناسب والمقدمات الضرورية لجيل من بعدنا!

وفى يوم ٢٥ يناير: عملية البوليس المصرى فى الإسماعيلية، فقد هجم الإنجليز على البوليس المصرى وكان فؤاد سراج الدين وزيرا للدخلىة، وكانت الأحزاب مستمرة فى المزايدات، وطلبوا من البوليس أن يقاوم لآخر طلقة، وجاء الإنجليز مستخدمين مدافع ٢٥ رطلا وهى من أحسن المدافع فى العالم فى ذلك الوقت، وهدموا الإسماعيلية.

وفى يوم ٢٦ يناير: حريق القاهرة، أحس جمال عبد الناصر أن هذه هى الفرصة، ولكن ساعات حظر التجول جعلت من الصعب عليه الاتصال بالوحدات. وهذا الحريق هو الذى كرهه الشيوعيون بعد ذلك يومى ١٨ و١٩ يناير، ولكن لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك. وانتهاز الملك هذه الفرصة وطرد الوفد من الحكم وأتى بوزارة على ماهر..

وكننت فى ذلك الوقت على صلة بالدكتور يوسف رشاد، وهو من أصدقاء الملك، وكننت أطلعته على منشورات الضباط الأحرار، وقد أقنعناه، وقد جلست طويلا مع د. يوسف رشاد وعرفت منه الكثير عن الملك.

وفى مارس قلت لجمال عبدالناصر: يا جمال..

قال: نعم

قلت: لمعلوماتك.. إن الملك بعد حريق القاهرة عمل الآتى - وأنا قد أتيت لك بالأخبار من مصدرها الأصلي - لقد أخبرنى يوسف رشاد وهو الصديق الشخصى للملك أن الملك قد جمعهم وقال لهم: اسمعوا يا جماعة لم يعد لى عيش فى هذا البلد...!!

وكان الملك فاروق يعنى ما يقول..

ولذلك فقد استخدم طائرة خاصة يقودها طيار اسمه عاكف يبعث بها إلى سويسرا لينقل له سبائك الذهب. وأخبرنى د. يوسف رشاد أن الملك فاروق قد أعد قائمة بأسماء الذين سيخرجون معه من مصر، وكان اسم يوسف رشاد فى مقدمة القائمة. ولم يضيّع الملك الوقت، بل كان يلعب على عنصر الوقت ليتمكن من تهريب كل ما يحتاج إليه.. ولم يكن أحد يعرف ذلك سوى أنا وجمال عبدالناصر.

سعادتى مطلقة

وأنسا أحمد الله سبحانه وتعالى، أن جعلنى أعيش لأكتب هذه السطور.. فقد كنت أول من أذاع قيام الثورة فى مثل هذا اليوم منذ ٢٥ عاما.. هذا البيان كتبه جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر.

وفى تلك الليلة التى لم ينم فيها أحد، وكان التعب أرهقنى تماما فأغفيت دقائق، وفى الساعة السادسة والنصف أيقظونى، فصحوت والبيان فى يدى اليسرى، وذهبت للإذاعة فى مبنى ماركونى، وصعدت السلم، وكنا قد استولينا عليها، وهناك واجهنى الرقيب أنور حبيب - وهو وكيل النيابة - الذى وقف معنا فى قضية أمين عثمان.

وسألونى فى الإذاعة إن كانوا يوقفون إذاعة القرآن الكريم لكى أذيع أنا البيان، فرفضت، وبعد أن انتهت تلاوة القرآن الكريم جاءنى أنور حبيب يريد أن يعرف، فرفضت، ثم أذعت البيان: أول صوت يسمعه الشعب المصرى والعربى يتكلم باسم الثورة.

ولما نزلت من الدور الثالث قابلنى صحفى مصرى يهودى، هذا الصحفى قابلته سنة ١٩٧٥ فى لندن وأنا فى طريقى إلى الولايات المتحدة، ولم أجد فى رأسه شعرة بيضاء.

سألنى: هل تذكرنى؟

قلت: أعرفك أنت أول صحفى أعطيته حديثا صحفيا صباح ٢٣ يوليو..

جرشك مع الملك!

كان المطلوب أن نتحرش بالملك.. أن نستدرجه إلى موقف ولا أقول إلى معركة، فقد انتهت المعارك مع الملك، وكان الملك فى الاسكندرية ونحن فى القاهرة. وكل ما نريده هو أن نتحرش به. وثانيا.. نريد أن نكسب الوقت لكى نتمكن من إرسال قواتنا إلى الإسكندرية لنسيطر على

محطات مهمة في حياة السادات =

الموقف في حالة ما إذا أراد الملك أن يفعل شيئاً. واهتدينا إلى الحل يوم ٢٣ يوليو.. وذلك بأن نبدأ بالتحرش بالملك، بأن نعرض عليه رئيس وزراء لا يريده..

وكان رئيس الوزراء في ذلك الوقت نجيب الهلالي، وقد استمرت وزارته من ٢٠ إلى ٢٣ يوليو، وكان وزير الداخلية مرتضى المراغي وكان من الوزراء المرموقين، وقد اتصل بمحمد نجيب يسأل عن الذي جرى، فأنكر محمد نجيب صلتَه بما حدث وقال له: لا علم لي بشيء...! وفي فجر يوم ٢٣ يوليو أبلغت جميع القوات المسلحة: تمام..

فالشباط الأحرار يسيطرون على جميع القوات المسلحة شمالاً إلى الإسكندرية وجنوباً إلى أسوان وغرباً إلى حدود ليبيا وشرقاً إلى حدودنا مع إسرائيل. واستدعينا محمد نجيب في عربة مدرعة من بيته في الزيتون إلى القيادة العامة في كوبري القبة. ولم نجد رئيساً للوزراء تنطبق عليه الشروط المطلوبة وهي أن الملك لا يريده ولا يقبله، سوى على ماهر، وقد أفلح أحمد حسنين في أن ينسف كل ما بين على ماهر وبين الملك، أما الأحزاب فقد دخلت في تنازلات ومزايدات حتى الرجل العنيد مصطفى النحاس هو الآخر قد أنهى دوره تماماً.. فقد كان عنيدا ضد الإنجليز، وكان عنيدا في استسلامه للسراي.. عائد الإنجليز واستسلم في عناد للملك.

حتى يوم ٤ فبراير.. كيف يقبل النحاس باشا مثل هذا الموقف.. كيف يقبل أي إنسان مصري أن تفرضه قوة أجنبية على بلده..

وقد كان سر إعجابنا بالنحاس باشا هو عناده مع الإنجليز، وهو بذلك قد اكتسب شعبية أكثر من الملك.. هذا الرجل يقف ويقول: نحن نتجه إلى كاسري! نتجه إلى «قبة» جزيرة كاسري حيث اللهو.. حيث فاروق المنحل! ولكنه العناد من النحاس باشا، وهو عنيد بتكوينه في أي اتجاه يختاره.

انتهى مصطفى النحاس من حسابنا، والوفد انتهى أيضاً.

وكلفونى يوم ٢٣ يوليو أن أذهب إلى على ماهر، وأطلب إليه تشكيل الوزارة، ونفرضه على الملك، ونأخذ معه مرحلة صراع إلى أن تنتهى منه، ثم تحدث مشكلة نستدرج إليها الملك حتى نتخلص منه في النهاية هو أيضاً. إذن كان لابد أن أذهب إلى على ماهر، وأنا لا أزال أذكر كيف ذهبت إلى فيلا إبراهيم باشا خيرى، ولكن لابد أن على ماهر باشا هذا يسكن في بيت أضخم وأفخم.

اتصلت بصديقى إحسان عبد القدوس..

قلت: يا إحسان..

قال: نعم..

أنت تعرف بيت علي ماهر باشا؟

قال: نعم..

وكان إحسان عبدالقدوس في قمة السعادة، فهذه الثورة جاءت بعد معركة الأسلحة الفاسدة، والحملة ضد الملك فاروق.

واتجهنا إلى بيت علي ماهر باشا في شارع الجيزة، وهو البيت الذي تشغله الآن سفارة فيتنام، ودخلنا البيت وجلسنا في البلكونة المطلة على شارع الجيزة، الجو حار.

جاء معي إحسان عبدالقدوس، ولكنني كنت المفوض من مجلس قيادة الثورة بأن أطلب إلى علي ماهر أن يشكل الوزارة الجديدة وتعرض علي الملك.

وقلت له: السلام عليكم.

- عليكم السلام.

- أنا أنور السادات جئت إليك من مجلس قيادة الثورة لأقول لك: إننا قررنا تعيينك رئيسا للوزراء.

ولكن علي ماهر كان سياسيا، أخذ يفكر بسرعة في هذه اللحظة كان يجلس بالقرب من إدجار جلاد صاحب جريدة الزمان وهو رجل الملك فاروق في الصحافة

ولما دخلت لاحظ إحسان عبدالقدوس وكذلك لاحظت أيضا أن علي ماهر أحس بحالة من الذهول، ولكنه كرجل سياسى قديم حاول أن يخفى مشاعره وأن يفكر بسرعة. وفي هذه اللحظة مر سرب طائرات أربع قاذفات من نوات المحركات الأربعة وكانت منخفضة واتجهت إلى النيل.

وسألني علي ماهر: هذه الطائرات معكم..

قلت: نعم.

لقد أراد أن يطمئن.

وفي ذلك الوقت كان علي ماهر يريد أن يقبل الوزارة وأن يرفضها، أن يقبلها لأنه مكره منذ إحدى عشرة سنة.

محطات مهمة في حياة السادات =

لقد أفلح أحمد حسنين زوج الملكة نازلي أن يفسد ما بينه وبين فاروق تماما، وكان على ماهر شديد الحقد على أحمد حسنين.. وفي نفس الوقت يريد أن ينتقم من الملك فاروق.. ولا يريد أن يقبل الوزارة، لأنه ليس على يقين من قدرتنا أو من نجاحنا.. وطلب أن أعفيه بعض الوقت لكي يفكر.. وقال: أعطوني فرصة لكي أتصل بمولانا جلالة الملك فاروق..

فقلت له: اسمع يا رفعة الباشا، لقد اخترناك رئيسا للوزراء..

وهنا أحسست بإحسان عبدالقدوس يضغط على رجلي تحت الترابيزة بما معناه: اسكت حتى لا يسمعك إدجار جلاد.

فقلت لإحسان: ماذا جرى لك يا إحسان؟!

إنني أريد إدجار جلاد أن يسمع وأن يقول للملك.

وعدت لعلي ماهر أقول له:

إنني أبلغك بتكليف مجلس قيادة الثورة أن تكون رئيسا للوزراء.

ووقفت.. وكان علي ماهر في غاية السعادة..

فقد انتصر على غريمه أحمد حسنين وعلي فاروق أيضا، مع أن علي ماهر هذا هو الذي جعل فاروق ملكا قبل الأوان لأن فاروق كان يجب ألا يتولى العرش بالحساب الميلادي، فحسبها علي ماهر بالسنة الهجرية!

ثم قال: لا أملك إلا أن أوافق!

وأذعنا النبأ.

واتصل علي ماهر بالملك، وأعلن الملك: أنه لا مانع عنده.

واتصل بي علي ماهر في القيادة وقال لي في التليفون: لقد اتصلت بجلالة الملك، وأعلن أنه لا مانع عنده مطلقا، وهو يريدني أن أقابله الليلة في الإسكندرية. لكي أتحدث معه وقبل أن أسافر إلى الملك أريد أن ألتقي بأحد منكم لأعرف ما الذي سوف أعمله.

ووضعت سماعة التليفون وقلت لأعضاء مجلس قيادة الثورة:

علي ماهر اتصل بالملك، والملك قبل التحدي.

وكنا نظن أن الملك سيرفض، وأنه سيستعمل سلطته الدستورية في أن يعين من يشاء.

وطلب مني جمال عبدالناصر أن أتصل بعلي ماهر وأن أخبره أننا سوف نلقاه قبل سفره إلى الإسكندرية. وذهبنا إلى بيته في الجيزة، وقبل أن نذهب إليه درسنا الموقف ووجدنا أن

== محطات مهمة في حياة السادات ==

الملك كان ذكيا. والمفروض أن القوى يريد أن يفرض رأيه وأسلوبه، وهذا ما أردناه ولكن الملك استسلم، إذن لابد أن نبحث عن شيء آخر لنستدرجه إليه لكي نقضى عليه تماما..

فقدمنا لعلی ماهر ستة مطالب؛ ومن ضمن هذه المطالب مسائل تتعلق بحياة الملك الخاصة جدا، وكان المطلوب أن يرفضها الملك وبذلك يجاهرنا بالتحدي. ثم وصل علی ماهر إلى الإسكندرية. وفي المساء اتصل بنا وقال لنا: الملك وافق على جميع طلباتكم. قلت لإخواننا: الملك وافق! فماذا نعمل؟!..

واقترح علی ماهر بهذه المناسبة: أن يجيء واحد منكم يكتب اسمه في دفتر التشريعات لشكر الملك على قبوله الطلبات فسيكون لها أثر عظيم عند جلالته.

وجاءنا محمد التابعی، الله يرحمه، في القيادة؛ وقال: يا جماعة ماذا تعملون؟

قلت له: لا شيء سوى أننا نريد أن تجرى الأمور بصورة سليمة هادئة..

قال: إذا مضيت بهذه الصورة فسوف يقضى عليكم الملك، إنني أحذركم.

وكان التابعی يظن أننا شبان سذج وأننا لا ندري ما نعمل.

ولكنه كان شجاعا عندما قال: خلصوا عليه قبل أن يخلص عليكم.. لاتضيعوا الوقت!

ولم نشأ في ذلك الوقت أن نطلع أحدا على خطتنا.

وكان ردنا على طلب علی ماهر: إننا سوف نفكر في أمر إرسال واحد منا لشكر مولانا علی العطف السامي.

يوم ٢٥ يوليو بدأ علی ماهر يتشكك في الأمر، لأن أحدا لم يذهب ويوقع في دفتر التشريعات شاكرا للملك تفضله الكريم علينا بالموافقة على مطالبنا.. واتصل بي علی ماهر، واستعجلني.

وقلت له: إنني سوف التقى به اليوم، وركبت الطائرة ومعى محمد نجيب.

وقبل السفر قال لي جمال عبدالناصر: اسمع يا أنور خلصنا من الملك.. لأننا نريد أن نتجه إلى شيء آخر في هذا البلد.. كفى وجع دماغ.

قلت: طيب يا جمال.

وقبل السفر قلت: يا جماعة هل معقول أن أدخل على رئيس وزراء هكذا دون أن يكون في يدي شيء.. ولو شنته.. وأعطاني جمال عبد الناصر شنته، ودخلت بها على علی ماهر

محطات مهمة في حياة الساعات

وأمام الصحفيين، ونشرت الصحف أنني أحمل حقيبة مليئة بالوثائق.. وللحقيقة لم يكن بهذه الحقيبة شيء.. لقد كانت مليئة بالورق الأبيض.. مجرد منظر!

وكان مقررا أن نرسل الإنذار إلى فاروق يوم ٢٥ يوليو وليس يوم ٢٦ يوليو لمغادرة البلاد والتنازل لابنه. وقبل الملك الإنذار الساعة الحادية عشرة مساء، واتصل بي على ماهر، بل إنه اتصل بي في الساعة السادسة مساء وقال لي: مبروك لقد قرأ الإنذار وسيغادر مصر وسيوقع التنازل لابنه.

وسألنا على ماهر: ماذا ستعمل؟

قال: سأرسل المستشار القانوني سليمان حافظ ليكتب التنازل ليوقع عليه الملك.. وإذا شئتم عرضت عليكم صيغة التنازل.

قلت: لآمانع أن يتنازل لابنه ويرحل.

قال: ولكن الملك يطلب شيئا واحدا.

قلت: ماذا؟

قال: أن يخرج بالسفينة المحروسة إلى إيطاليا بشرط أن يقودها له اللواء بحري علوبة. وعلوبة هذا كان قائدا بحريا وصديقا للملك.

وهنا حزننا أشد الحزن، فأنا المفوض من مجلس قيادة الثورة بإخراج الملك، وقد أخبروني أن المحروسة في حاجة إلى ست ساعات لكي تكون ممتلئة جاهزة للإبحار.

فقلت لهم: لقد أعطيت الإنذار للمحروسة وسوف تكون جاهزة:

أرسلت اللواء علوبة، وقلت له: إن الملك طلبك بالذات واختارك أنت شخصيا لقيادة المحروسة في رحلته هذه.

والذي ضايقني.. أنه تردد.

ثم قال: والله أنا بلدي مصر، وأنا لا أعرف هل إذا خرجت أستطيع أن أعود بعد ذلك؟!

قلت له: يجب أن تعرف الآتي:

أولا: أن توصل الملك إلى الميناء الإيطالي الذي يريد.

ثانيا: أن تعود بالمحروسة لأنها ملك للدولة.

ثالثا: لا عليك ولا ضدك شيء، فلا خوف، أنت مواطن مصري.

ولما استراح إلى ذلك قال: إذن أقود المحروسة وأعود بها..

== محطات مهمة في حياة السادات ==

وخرج الملك وكان قد أدرك ، بل كان أسرع من كل الذين حوله ، أن كل شيء قد انتهى .. وأنه لا حياة له في مصر بعد ذلك ، وكان أسرع وأبرع من كل الذين حوله في الوصول إلى هذه النتيجة.

ولذلك لم يحتج منا إلى «جر شكل» معه .. فقد أسلم واستسلم وخرج لأنه لا أمل له إلا في النجاة .. فمن يدري ما الذي كان يحدث له لو قاوم وركب رأسه وركبنا نحن أيضا رؤوسنا؟

باختصار : سنة بسنة !

سنة ١٩٥٢

في ٢٧ يوليو : كان الاجتماع التاريخي الذي ناقشنا فيه شكل الحكم : دكتاتورية أم ديمقراطية؟ ..

وطلبنا إلى الأحزاب بعد ذلك أن تظهر نفسها لتتسلم مسئولية الحكم . ولكن الأحزاب لم تتلأ فقط بل قامت بعملية تصفية لحسابات شخصية . والأهم من هذا كله والأخطر أنهم رفضوا جميعا الإصلاح الزراعي ، فقد كان في مصر ٩٠٪ من الشعب لا يملكون إلا قراريط أو لا يملكون مطلقا .. بينما بقية الأرض تملكها الأقلية .

كل الأحزاب رفضته .. ورفضه الذين يريدون إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء ؛ وعلى رأس هذه الأحزاب حزب الوفد . ولذلك كان أمرا حتميا أن تتولى الثورة السلطة ! ولذلك شكلت وزارة محمد نجيب .

وبسرعة بدأت الأحزاب تتسلل إلى الجيش على أساس أنه ما دام بعض الضباط قد استطاعوا القيام بثورة فلماذا لا يحاولون أن يستميلوا ضباطا آخرين ليثوروا على الثورة؟ وقبضنا على الضباط المتآمرين مع الأحزاب .

سنة ١٩٥٣

انتهينا إلى مهلة ثلاث السنوات كفترة انتقال من ١٦ يناير ٥٣ إلى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ يوم أن يصدر الدستور ، وقد صدر دستور مؤقت .

وحدثت صراعات حزبية .. لأننا في يناير ألغينا الأحزاب . وقد صدر أخيرا قانون بإلغاء الإلغاء سنة ١٩٧٧ للأسف . وبدأ صراع محمد نجيب مع مجلس قيادة الثورة . وبدأ الدخول

محطات مهمة في حياة السادات

في محادثات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن مصر. والجلاء عن مصر يمثل حجر الزاوية في الوطنية المصرية كلها.

وهناك فرق كبير بين الأحزاب القديمة وبين الثورة في النظر إلى جلاء الإنجليز. الأحزاب أخذتها على أنها «قضية» ينشغل بها رجال القانون ويبحثون عن نصوص ودساتير.

ولكننا أخذنا الجلاء على أنه معركة وليس للإنجليز الحق مطلقا في البقاء ولا في الامتيازات، وقد حاول الإنجليز أن يتصلوا بنا وأن يعرفوا قادة الثورة ثلاثة شهور فلم يتمكنوا مع أن لهم في مصر ٨٥ ألف جندي بكامل معداتهم.

في نفس الوقت الذي كان فيه زعماء الأحزاب يركعون تحت أقدام الإنجليز.. وفي الإسكندرية حاولت المخابرات الإسرائيلية الإيقاع بيننا وبين أمريكا، في قضية «لافون» وزير الدفاع الإسرائيلي، ولما فشلت اضطر وزير أن يذيع تفاصيلها..

سنة ١٩٥٤

لم يعرف الإنجليز طبيعة هذه الثورة إلى أن قامت حركة المقاومة إلى جانب المفاوضات. ونحن منذ سنة ١٩٥٣ نتفاوض معهم، واستعنا بأمريكا في ذلك وبسفيرهم كافرى بالذات. لنقول للأمريكان والإنجليز معا: إن لنا إرادة وصاحب الإرادة لن يسلم بها.

ووضح للإنجليز أنهم في حاجة إلى الدفاع عن قاعدتهم في القناة. وليس عن مصالحهم. وذلك بسبب العمل الفدائي الكامل الذي قام به المصريون وبتوجيه من قيادة الثورة لأننا كنا حريصين على أن نؤكد لدى البريطانيين أنهم مهددون وأنهم أولى بالدفاع عن أنفسهم، قبل أن يدعوا أنهم باقون للدفاع عن مصالح العالم كله.

عندما تأكد لديهم ذلك اضطروا إلى توقيع اتفاقية الجلاء الذي يتم في يونيو ٥٦، أي بعد حوالي عشرين شهرا.

أذكر أن جمال عبدالناصر جمعنا في استراحة الهرم التابعة لوزارة التربية والتعليم وعرض علينا ما وصل إليه الإنجليز. بدأت المزايدات على جمال عبدالناصر.

قال: أنا وصلت مع الإنجليز إلى أنهم لابد أن يجلوا عن مصر، ولكنهم يخافون من أن يقع عدوان روسي على المنطقة.. وسألتهم ماذا تريدون؟ قالوا: نريد سبع سنوات بعد توقيع

== محطات مهمة في حياة السادات ==

الاتفاقية نجلو عن كل مكان في القاهرة ونبقى في القناة لمدة سبع سنوات ببعض الفنيين المدنيين، حتى إذا حدث عدوان شيوعى استطعنا الدفاع عنكم وعن العالم العربى.

وهنا سألنا جمال عبد الناصر: ما رأيكم؟

وأخذ كل واحد منا الكلمة..

جمال سالم زايد عليه..

وكان جمال عبس الناصر في غاية الوعى، فقد كان حريصا على تسجيل هذا الاجتماع ومعرفة كل الآراء وقد خشى من الانتقادات إذا هو وافق دون مناقشة منا جميعا..

وجاء دورى فقلت له:

أنا أوافق على سبع سنوات مع بقاء ١٢٠٠ خبير مدنى بريطانى.. بل إننى أوافق على عشر سنوات.. هذا لا يخيف مطلقا، لأن المشكلة عندى هى أن يجلبوا.

وقلت له: على بركة الله.

ووقع الاتفاق على سبع سنوات مع بقاء ١٢٠٠ خبير مدنى في قاعدة القناة بدلا من ٨٥ ألف جندى بطائراتهم ودياباتهم.

سنة ١٩٥٥

وقع عدوان اليهود في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ على غزة التى هى تحت الإدارة المصرية، ومات أكثر من أربعين نسمة، وخرج بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل وأعلن أمام العالم كله وأمام مجلس الأمن أن هذا الأمر قد وافق عليه مجلس الوزراء الإسرائيلى، ويتخذ مجلس الأمن قرارا مانعا. ولكن تبقى الحقيقة الهامة وهى أن إسرائيل تعترف أنها ارتكبت هذه الجريمة دون أن تكثرث بالعالم كله وبموافقة الغرب وأمريكا وبريطانيا. هذه نقطة تحول هائلة..

ولقد عاش بن جوريون هذا إلى سنة ١٩٧٣ ليعرف أن كل ما غرسه فى الشعب الإسرائيلى من حدود آمنة وهم فى وهم.. ويوم تهاوت بالكامل كل أساطيره وأحلامه المجنونة عندما قتل حفيده فى حرب أكتوبر، وانكشف بذلك الغطاء عن جميع تناقضات المجتمع الإسرائيلى، وازدادت إسرائيل تمزقا وتصدعا. ولاتزال تعاني حتى اليوم وغدا وبعد غد - وهذا ما يقولونه هم عن أنفسهم!.

محطات مهمة في حياة السادات =

وهي نقطة تحول هامة: لأن أمريكا وبريطانيا رفضتا أن تمدنا بالسلح، وأعطنا إسرائيل كل ما تحتاج إليه لتقوم بدور الكرباج في الشرق الأوسط. وبعد ذلك بحثنا عن مصدر آخر للسلح خارج الكتلة الغربية، وهذا ما عرف بكسر احتكار الغرب للسلح، ولم يبق أمامنا إلا الإتحاد السوفيتي والفضل في ذلك يرجع إلى شوان لاى على نحو ما ذكرت في «الأوراق» قبل ذلك.

سنة ١٩٥٦

عندما عاد الإنجليز إلى العدوان على مصر لم يكن لهم في القناة غير ١٢٠٠ خبير مدني مجردين من السلح والقاعدة خالية ولا خطر منها على أحد. وسحبت أمريكا معونة السد العالي وأصدر دالاس بيانا اتهم فيه مصر بالإفلاس وأن اقتصادها لا يتحمل السد العالي، ومن المهم التخلص من النظام القائم فيها. رد جمال عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس، أكبر معقل احتكاري استعماري في العالم.

سنة ١٩٥٧

وفي يوم أول يناير أصدر جمال عبد الناصر، أى بعد جلاء بريطانيا وفرنسا عن القناة بسبعة أيام، قرارين هامين جدا: القرار الأول: سقوط معاهدة التحالف بيننا وبين بريطانيا، وبذلك سقط الألف والمائتان من المدنيين الإنجليز أسرى عندنا.

القرار الثاني: تمصير جميع المصالح الأجنبية في مصر، وكان هذا بداية «القطاع العام».. ففي أول يناير أممت أو مصرت جميع المصالح الأجنبية وكان على رأسها شركة مصر الجديدة، هذه الشركة كان رأس مالها اثنين أو ثلاثة ملايين من الجنيهات وتملك مئات الملايين من الجنيهات من أرض مصر.

وتم تأميم جميع البنوك والبيوت الإنجليزية والفرنسية في مصر.

وبدأ القطاع العام بما قيمته ألف مليون جنيه استرليني وفي هذا العام ظهر الاتحاد السوفيتي كقوة مواجهة. وسافر الملك سعود إلى أمريكا، وعاد من رحلته مارا بالقاهرة، وقد أحضر معه نوسيه من ألان دالاس مدير المخابرات الأمريكية وهو أخو فوستر دالاس.

وفي هذا الدوسيه أن أنور السادات عميل سوفيتي!!

محطات مهمة في حياة السادات

وسبب ذلك أننى أثناء معركة القناة ١٩٥٦ كنت أهاجم فوستر دالاس يوميا فى جريدة «الجمهورية».

وعرفنا فيما بعد، وكما ادعى فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا؛ أن الأمريكان اتفقوا مع أحد الملوك العرب على ما يسمى «بخطّة الغزو من الداخل» لمصر، وكانت هذه الخطّة - وكتبت عنها التايم والنيوزويك - معناها أن بعض الأنظمة العربية تحاول إسقاط النظام فى مصر! وكانت النتيجة المباشرة الأولى: سقوط حكم النابلسى فى مارس ١٩٥٧ فى الأردن وكان حكم النابلسى يرحمه الله وطنيا.

وحدد دالاس منتصف سنة ١٩٥٧ لسقوط الحكم فى مصر، وبدلا من أن يسقط الحكم فى مصر كما أراد كان السقوط يهدد كلا من الملك سعود والملك حسين!

وفى سبتمبر كانت تركيا تحشد قواتها على حدود سوريا وهبت مصر تساعد سوريا، ويسمع العالم كله فجأة أن قوات مصرية نزلت إلى الشواطئ السورية فى شرق البحر الأبيض بينما الأسطول السادس موجود بالقرب من هذه المنطقة، ولم يدر الأسطول السادس ولا إسرائيل ولا العالم كله إلا عندما أعلنت مصر ذلك.. وذهبت إلى سوريا على رأس وفد برلمانى مصرى إلى البرلمان السورى وكان رئيسه أكرم الحوراني، وتبادلنا الخطب، واتفقنا على قيام أول وحدة عربية تحدث فى التاريخ الحديث وكان ذلك فى نوفمبر.

سنة ١٩٥٨

توالت الأحداث فى يناير وفبراير وبلغت منتهاها عندما قامت الوحدة فى ٢٢ فبراير على أروع صورة. وبدأت القوى الخارجية تتآمر على هذه الوحدة.

سنة ١٩٥٩

وسنة ١٩٥٩ تميزت بالمعركة التى بدأت بين جمال عبدالناصر وخروتشيف ذلك أن الوحدة أغضبت خروتشيف، فهو ضد القومية العربية وضد القوميات.. والشيعية تدعو إلى العالمية وإلغاء القوميات.. وهذه الوحدة قومية عربية، فهاجم خروتشيف جمال عبدالناصر وهاجمه عبدالناصر أيضا وبنفس العنف.

سنة ١٩٦٠

بدأت بوادر الفشل فى الوحدة المصرية السورية.

سنة ١٩٦١

فى ٢٣ يوليو صدرت القرارات الاشتراكية، التى أراد بها جمال عبد الناصر أن يضرب جميع الجبهات المعارضة للوحدة وأن يقضى على جميع عناصر التآمر والتخريب للوحدة بين مصر وسوريا. ولكن الذى حدث كان عكس ذلك: فقد أدت هذه القوانين شرارة التآمر المكثف على الوحدة، ولذلك وفى ٢٨ سبتمبر، أى بعد ذلك بشهرين، وقع الانفصال. وبدأ العالم العربى مرحلة معاناة. ومصر على الخصوص بدأت مرحلة تخبط.

سنة ١٩٦٢

هذه سنة الميثاق الوطنى والمناقشات فى مجلس الشعب التى أريد بها امتصاص سخط وغضب الشعب على أسلوب الحكم. ولا بد أن نقول: إن الشعب يمكن أن يعيش جائعا فى حرية، ولكنه لا يقبل أبدا أن يأكل وحرية ناقصة.. والخطر الحقيقى هو أن تتحقق التهمة مع الكبت: التجربة تؤكد ذلك؛ والتاريخ أيضا. ولذلك فإن الميثاق لم يكتب له أن ينفذ على الإطلاق؛ وإنما كان فقط نوعا من «ورق النشاف» ليمتص غضب الشعب الذى يريد حريته. وفى ٢٦ سبتمبر قامت ثورة اليمن. وفى هذه السنة اضطر بعدها عبد الناصر أن يخضع لإرادة الشعب وأن يخرج على صبرى بعد ذلك فى سنة ١٩٦٥، بعد أن كاد الشعب ينفجر من الداخل فى ١٥٠ مقالة كتبها على صبرى بجريدة الجمهورية أعلن أن كل مصر تحتاج إلى إعادة تكوين من أصغر إنسان إلى أكبر إنسان من القضاة إلى الحرفيين المهنيين إلى العمال.. الكل فاسد ويجب إصلاح اعوجاج كل الناس، ولم يدرك أن هذا الذى يقوله هو قمة الاعوجاج والخلل، وأنه بذلك أشعل السخط والغضب العام فى مصر.

سنة ١٩٦٥

جاء زكريا محيى الدين رئيسا للوزراء وكان معه د. عبد المنعم القيسونى وزيرا للاقتصاد، وأراد زكريا محيى الدين أن يقف وقفة من شأنها إعادة النظر فى أمور البلاد فلم يتمكن، وكان زكريا محيى الدين من المؤمنين بالنظام الغربى، وهذا يبين لنا لماذا استخلفه جمال عبد الناصر

== محطات مهمة في حياة السادات ==

في خطاب التنازل سنة ١٩٦٧، لأن جمال عبد الناصر لم يستطع أن يغير لغته، ولذلك اختار زكريا محيي الدين.. وخرج زكريا محيي الدين لأنه لجأ إلى سياسة انكماشية في الوقت الذي يحتاج فيه اقتصاد البلاد إلى أسلوب آخر. ثم مؤامرة الإخوان المسلمين.

سنة ١٩٦٦

جاء صدقي سليمان رئيسا للوزراء.

وهنا لا بد أن أذكر أن مجيء صدقي سليمان كان نتيجة لصراع القوى الذي كان قائما منذ أوائل الستينات أو ما قبلها، أو على الأصح منذ معركة ٥٦ بين عبد الحكيم عامر وجمال عبدالناصر. جاء صدقي سليمان مؤيدا من عبد الحكيم عامر، بل إن الذي اتصل به لتشكيل الوزارة كان عبد الحكيم عامر. جاء صدقي سليمان وسار على نفس النهج الذي سار عليه زكريا محيي الدين. ثم لم يلبث أن جاءت النكسة ١٩٦٧.

وللتاريخ يجب أن أذكر أن جمال عبد الناصر عندما جمع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي من أجل إقفال المضائق سنة ١٩٦٦ فإن الوحيد الذي عارض في ذلك هو صدقي سليمان رئيس الوزراء، على الرغم من أن عبد الحكيم عامر حينما سأله جمال عبدالناصر سؤالا مباشرا: هل أنت جاهز يا عبد الحكيم؟

رد عليه عبد الحكيم؛ قولا وإشارة: أنا جاهز برقيبتي!

وبرغم ذلك ظل صدقي سليمان معارضا، ووافق أعضاء اللجنة الآخرون وأنا واحد منهم، فأنا مسئول أيضا عن هذا القرار وشريك فيه.

وأنا أعلم أن الكثيرين ينكرون أنهم وافقوا على قرار إقفال المضائق، ولكنني أعترف بأنني وافقت! وفي هذه السنة شكلت لجنة رهيبة اسمها لجنة تصفية الإقطاع!

سنة ١٩٦٧

النكسة...

سنة ١٩٦٩

حرب الاستنزاف؛ وكان الاتحاد السوفيتي غير راض عن هذه الحرب. ولذلك طلب السوفييت من جمال عبدالناصر وقف الحرب. وأكثر من ذلك وللتاريخ أقرر على مسئوليتي أمام الله والشعب أن الذخائر التي استنفدها جمال عبدالناصر في حرب سنة ١٩٥٦ وكنا نتفوق

محطات مهمة في حياة السادات =

على اليهود في المدفعية إلى يومنا هذا، هذه الذخائر تعتمد السوفيت أن يعوضوه عنها بعد وقف إطلاق النار في أغسطس سنة ١٩٧٠!

وكان ذلك نكايه فينا وإعلانا لنا: أننا يجب أن نعلم أننا لانستطيع أن نستمر في حرب الاستنزاف أو أن نتخذ أى قرار دون أن نرجع إليهم، للأسف؛ وهذا ما جعلنى أثور عليهم حتى هذه اللحظة.

والذى لايعلمه الناس أن جمال عبد الناصر كان ثائرا عليهم أكثر منى ألوف المرات. ولكن لم تكن لديه إمكانيات الحركة، لأنه قطع علاقاته بأمريكا، وقطع علاقاته بالغرب، وقطع علاقاته بالعالم العربى. فلم يكن أمامه من أمل إلا أن يعود السوفيت إلى رشدهم يوما ما.

وفى سبتمبر سنة ١٩٦٩ أصيب جمال عبد الناصر بأزمة قلبية حادة، وعندما استدعيت الطبيب السوفيتى الذى يعالجه لأنه لم يرد أن ينتمت فيه الغرب، لاحظت شيئا غريبا جدا، فقد بدأ الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى بقيادة على صبرى فى الترويج لعملية أن جمال عبد الناصر ليس ولى أمر هذا الشعب، ولا مجلس الشعب، وإنما نحن أمناء الشعب أصحاب الكلمة. وعندما اهتزت الأوضاع فى البلاد نتيجة لذلك، فاضطرت أن أخطب من أسوان إلى الاسكندرية، واكتشف جمال عبد الناصر ذلك أيضا من متابعة لقاءاته بأساتذة الجامعات.

سنة ١٩٧٠

يكاد جمال عبد الناصر أن يكون قد أعد نفسه للرحيل.. يسافر سرا إلى الاتحاد السوفيتى فى يونيو ويوليو ويقبل مبادرة روجرز أمام القادة السوفيت. وفى أول مايو يوجه خطابا إلى نيكسون رئيس الولايات المتحدة لأول مرة، وذلك بعد أن ينس من القادة السوفيت. وتقع مذبحه الفانتوم، وتصرخ إسرائيل وتوافق على مبادرة روجرز.

ويحضر جمال عبد الناصر ويقول تعليقا على ماحدث فى موسكو: إن الحالة ميئوس منها تماما، قالها باللغة الإنجليزية. ويموت جمال عبد الناصر. وأتولى الحكم من بعده : وبعد شهرين أصدرت قرار تصفية الحراسات.

سنة ١٩٧١

تصفية مراكز القوى. وإقالة على صبرى.

والوقوف إلى جانب الرئيس جعفر نميرى وشجب الثورة الشيوعية.

سنة ١٩٧٢

قرار إخراج الخبراء السوفيت ١٥ ألف خبير سوفيتي في أسبوع واحد.

سنة ١٩٧٣

مواجهة كل التيارات المضادة التي كان ولا يزال يتزعمها من يلبسون قميص عبدالناصر..
قرار الحرب الذي كان يرفضه الاتحاد السوفيتي على قدم المساواة مع الولايات المتحدة.
تخلص العالم العربي من المزايدات والشعارات والتصنيفات، وظهر جليا في معركة
أكتوبر أن العالم العربي بملكياته وجمهورياته عالم واحد، ولا مجال للصراع تحت أسماء
التقدمية والرجعية.

سنة ١٩٧٤

الانفتاح الاقتصادي.

سنة ١٩٧٥

فتح قناة السويس.

سنة ١٩٧٦

إنهاء المعاهدة السوفيتية والتسهيلات البحرية.

سنة ١٩٧٧

التجهيز للحل الشامل للقضية.
لقد كانت الخمسينات إنجازات
وكانت الستينات هزائم متوالية
والسبعينات بدأت القرارات الحاسمة والانتصارات الكاملة.

□□□

١ - على ماهر رئيس
وزراء مصر بعد الثورة
يظهر معه الرئيس الراحل
محمد نجيب وحسين
الشافعي .



٢ - الود قبل انقطاع
الوصل بين نجيب وعبد
الناصر .

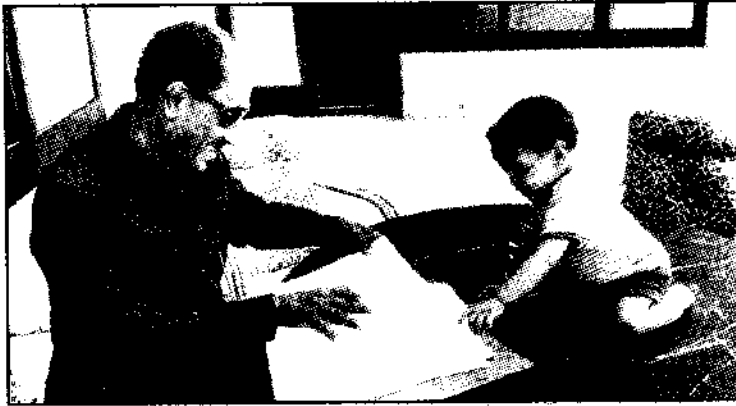


٣ - اللواء محمد نجيب
يناقش بيان قيادة الجيش
الجديدة مع البكباشي أنور
السادات .





٤ - مجلس قيادة الثورة
برئاسة اللواء محمد نجيب
وإلى يمينه حسن إبراهيم
وخالد محيي الدين وإلى
يساره جمال عبد الناصر
والبغدادي وحسين الشافعي .



٥ - الرئيس السادات مع
حفيده .



٦ - أثناء افتتاحه بعض
المشاريع في ميت أبو الكوم .

٧ - الملك فاروق وبجواره
مصطفى النحاس باشا .



٨ - الرئيس السادات
وسط أهل قريته .





٩ - علي ماهر باشا .



١٠ - مصطفى النحاس
باشا .



١١ - زكريا محيي الدين .

خفايا اليوم الكبير فى ثورة مايو



- اكتشاف محاولة لاغتيال السادات فى
مديرية التحرير.
- الصدمة الأولى فى حياة السادات .
- كيف بدأت ثورة ١٥ مايو ؟
- السادات يعتزل الحياة السياسية .
- انتهاء أكذوبة الانهيار الدستورى .

مثل يقول: إن الطريق الطويل يبدأ بخطوة قصيرة.

هناك

وهو مثل صحيح وينطبق هذا المثل على السلوك العام لأى شخص، وأى شعب. وينطبق أكثر على الثورات .. التى هى خطة شاملة لتغيير عام فى الحياة والسلوك العام للشعوب.

فهل يمكن أن يقال إن ثورة مايو قد بدأت بسطر ونصف سطر نشر فى الصفحة الأولى من كل الصحف المصرية . وهذا السطر ونصف السطر هو: إقالة على صبرى من جميع مناصبه؟ وأنا أرى أن هذا تبسيط شديد وفى نفس الوقت أرى أنه لا يعطى لما حدث وزنه الحقيقي، بل يعطى لعلى صبرى وزنا أكبر وقيمة لا يستحقها وفى نفس الوقت يخصم من حساب الشعب المصرى الكثير من رصيده التاريخى العظيم..

ومن المؤكد أن ثورة يوليو ٥٢ هى الثورة الأم. وأنا شريك فى قيامها ومسئول مع جمال عبد الناصر عن كل ما فيها من حسنات وسيئات. وقد أعلنت هذا كثيرا. ولكن من العدل أن أذكره. إحقاقا للحق. وتأكيدا لهذا المعنى عند الأجيال الجديدة وعند الذين يهتمون بدراسة التاريخ.. وثورة يوليو هذه لها ثورة أم .. فإذا نحن استعرضنا ثورات القرن العشرين أى الخمسين عاما التى سبقت ثورتنا، فأننا نجد ثورتين: الثورة الشيوعية.. وثورة كمال أتاتورك..

وأعتقد أننا تأثرنا بثورة كمال أتاتورك. فهو زعيم تركى مسلم. وعلاقتنا بتركيا قديمة. ثم لأنه مسلم فقد استهوى العالم الإسلامى كله. الذى تطلع منذ وقت طويل لأن يرى زعيما إسلاميا يهز العالم الإسلامى ويوقظه من نومه الطويل ويدفعه من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة. ومن الشرق القديم إلى الغرب الحديث..

وقد كان مصطفى كمال - الذى أطلق على نفسه لقب أتاتورك أى أبى الأتراك - بطلا عظيما ورأى فيه المسلمون ذلك الأمل المنشود. وإن لم يكن مصطفى كمال متمسكا بمبادئ الدين الإسلامى. ولكنه استطاع أن يطرد الغزاة. وأن يوحد شعبه الممزق وأن يكرهه على النهوض.

وأن يرغمه على التقدم وأن ينقله، وأحلام العالم العربى والإسلامى أيضا، إلى أوروبا الحديثة. وقد أحدث كمال أتاتورك تغييرات جذرية فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية. وكان الإعجاب به قد سبق وعينا السياسى.. فقد كبرت على الاستماع إلى بطولات مصطفى كمال.. فعندما جئنا إلى القاهرة وجدت صورة مصطفى كمال فى بيتنا.. فى مواجهة الذى يدخل البيت.. وكان يرتدى ملابس العسكرية ويضع على رأسه ذلك الغطاء الذى يسمونه القلبك..

ومعنى هذه الصورة أن والدى معجب بهذا الرجل، ولا بد أن اختياريه لأسمائنا أنا وأخوتي له علاقة بذلك فأسمائنا: أنور وطلعت وعصمت.. وفى مصر وفى العالم العربى أسماء تركية كثيرة لهذه العلاقة التاريخية القديمة بالأترك. وبسبب كمال أتاتورك. وهذه الثورة الكمالية هى الثورة الأم لنا. ما فى ذلك شك..

وأرى أيضا أنها الثورة الأم للفاشية الإيطالية بزعامة موسوليني. وكان من المنطقى أن يتأثر موسوليني كرجل أوروبى بالثورة الشيوعية فى روسيا التى اعتمدت على فلسفة كارل ماركس الألمانى - أى الأوروبى ولكن ما كتبه موسوليني يؤكد أنه مختلف عن الثورة الشيوعية اختلافا جذريا. فهو يمجّد الثورة القائمة على العقل، وليس القائمة على القول وهو يرى أن الثورة الشيوعية هى ثورة قائمة على «النظريات» تعيش بها وتنتشر بسببها، ثم تعتقل اتباعها فى قوالب نظرية.. فالنظرية أولا والإنسان ثانيا أو ثالثا.

وفى سنة ١٩٢٤ تقدم موسوليني هذا برسالة دكتوراه إلى جامعة بولونيا موضوعها (تعليق سنة ١٩٢٤ على كتاب الأمير لماكيا فيللى).. وماكيا فيللى هذا هو فيلسوف سياسى ايطالى.. أو هو أول سياسى له تفكير علمى فى التاريخ ومن الطبيعى أن يتحمس له موسوليني ولكن حماس موسوليني لمواطنه ماركيا فيللى سببه أنه رجل على دراية عظيمة بطباع البشر وليس عندة الشجاعة أن يصارح بذلك. لماذا.. لأن السياسى بطل جبان حتى تكون فى يديه القوة.. لأن الفكر السياسى بلا قوة يعتبر نوعا من الشعر، فإذا أصبحت للشاعر قوة أو للفيلسوف قوة فهو رجل السياسة.. وهو الزعيم.. ولذلك رأى موسوليني: أن الثورة عمل، وليس قول.. وأن الثورة التغيير وليس التنظير..

وأعتقد أن مصطفى كمال ذا النزعة الأوروبية هو الرجل الذى استهوى موسوليني أيضا. والنازية، فلسفة هتلر، قد تأثرت بالفاشية.. وتأثرت بالجانب الألمانى من الفاشية.

فموسولینی قد أعجب جدا بفلسفة القوة عند الفیلسوف الألمانى نیتشه. وموسولینی له دراسات مطولة عن فلسفة القوة. ومن کل ما کتبه نیتشه هذا أعجب موسولینی بعبارة تقول: الشعوب أطفال يجب أن تکرهها الأمهات على تناول الدواء والشعوب لا تعرف مصالحها، وإنما يعرف ذلك رجال الثورة. رجال الثورة.

ولذلك تأثر هتلر بموسولینی، وكلاهما تأثر بمصطفى کمال أما الثورة الصينية فلا شك أنها تأثرت بالثورة الشيوعية الروسية..

وكان اشتغالى بالسياسة مبكرا.. ولو أننى أحصيت سنوات خدمتى فى الجيش لوجدتها خمس سنوات ونصف سنة، بينما حياتى السياسية قد بلغت خمسة أمثال ذلك.

وهذا يفسر أشياء كثيرة فى سلوكى السياسى، ومذهبى الثورى بعد ذلك. وليس من قبيل الصدفة أن أجد بين یدى کتابا اسمه «الذئب الأغبر» - أى مصطفى کمال ومن تأليف أرمسترونج. وقد بقى هذا الكتاب فى یدى طويلا .. وبقي فى خيالى أطول وعلى كثرة ما قرأت فى السياسة شرقا وغربا فإن مثل هذا الكتاب بأسلوبه ومعانيه وقدرة مؤلفه على النفاذ إلى أعماق أعماق مصطفى کمال لا يغيب عن خيالى .. هذا الإعجاب بمصطفى کمال بالذات؟ هل هو الإعجاب بالبطولة؟ هل هو الأمل فى أن يكون عندنا مثل هذه القدوة أو الموهبة العظيمة هل أملى فى أن أكون شيئا من ذلك؟

لا أعرف.. ربما كل ذلك أو بعض ذلك ولكن فى ذلك الوقت كنت مغرما بهذا الرجل ولست إلا واحدا من بين ملايين .. وأنا كنت واحدا من الذين تنبهت فيهم الحاسة السياسية فى سن مبكرة.. فكان اشتراكى بالعمل السياسى واصطدامى بالسلطة ودخولى السجن ونشر قصتى فى كل الصحف عند اعتقالى وعند محاكمتى وعند الافراج عنى.. ويوم قامت ثورة يوليو كنت الوحيد الذى يعرفه الناس. وقد سبب لى ذلك بعض المشاكل. وأقول بعض المشاكل. ولكنى فيما بعد سوف أقول: بعض المتاعب. وأحمد الله أنها سببت لى ذلك، فقد كانت صدمة عنيفة أفقت بعدها على فهم جديد لثورتنا.. واهتديت بعد ذلك إلى سلوك خاص..

ومثل هذه الصدمات هى التى تجعل الإنسان يرى الدنيا أوضح .. أو يرى نفسه أوضح . هذه الصدمة مثل البرق الذى يسبق الرعد الذى يسبق المطر، فالرعد يكشف الأرض والسماء فى لحظة واحدة..

وفى هذه اللحظات البارقة يكتشف الإنسان ذاته. وأعظم ما يكتشفه الإنسان فى حياته: أن يكتشف ذاته. أن يعرف من هو؟

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

قليلون جدا عرفوا ذلك. لأنه من الممكن أن يعيش الإنسان. بالطول والعرض. ولكن لا تتاح له فرصة يجلس فيها إلى نفسه.

وفجأة تبرق الدنيا فإذا هو يرى نفسه ويعرف: من أنا؟ ومن هؤلاء الذين حولي؟ ما الذي أستطيع وما الذي يريدون؟ أين الصديق وأين العدو؟ وأهم من ذلك: أين الطريق.. أسلم الطرق.. أصح الطرق؟ ثم على أى شيء يختلف الناس حولي؟ ما الذي يريدون وما الذي أريد؟

فى لحظات قليلة بهتدى الإنسان إلى نفسه .. وقد تضيع هذ اللحظة التى لا يمكن تعويضها. ومن هنا كان توفيق الله عظيما، عندما انكشفت لى نفسى وعندما هدانى الله لأن أعرف بالضبط ما الذى أساويه وما الذى يساويه غيرى.. ما الذى أريد وما الذى أقدر عليه.

فى مناسبتين اثنتين يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه:

- عندما يكون وحده فى السجن.

- وعندما يكون الإنسان فى الحرب.

فى السجن ليس معى إلا نفسى.. والعالم كله ابتعد.. والناس والخلاف والشقاق والزحام والتضارب بالأكتاف .. كل ذلك بعيد عنى .. وراء الجدران السميكة والأبواب الخرساء .. الدنيا كلها هناك .. ولم يبق لى من الدنيا كلها إلا: هذه الغرفة المظلمة.. إلا هذه الزنزانة رقم ٥٤.. وإلا أنا .. وفى هذه الوحدة، فى هذه العزلة، أجد نفسى .. وأحاسسها. واستريح إلى تصفية الحساب اليومى .. وانهى كل ليلة حسابى بهذه العبارة: من أجل مصر فعلت كل شيء وأنا مستريح الضمير تماما.

ها أنا ذا نادم على فعلتى، أبدا لست نادما. ولو عادت بى الأيام، ما فعلت غير الذى فعلت..

وفى الحرب: كل شيء فى الحرب يهون.

الموت يهون، الطعام الأسرة، لذة الدنيا فنحن جميعا أمام معركة واحدة وقد نذرنا أنفسنا لله وللوطن.. وفى أية لحظة يمكن أن تنطلق رصاصة لتصيب واحدا دون واحد. فالموت قريب إذا شاء الله: يبعد إذا أراد الله.. ولا تملك نفس لنفس شيئا.. وفى هذا التجرد التام. وفى هذه الصلابة النبيلة، تحت السماء. وتحت النار وعلى الرمل.. هنا يجد الإنسان نفسه. فإذا وجدها فليتمسك بها.. فليس يحدث كثيرا أن يجد الإنسان نفسه.

وأحمد الله أننى وجدت نفسى، أو بعض نفسى فى مرحلة مبكرة من حياتى..

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

ثم جاءت بعض الصدمات التي سأرويها بعد قليل، فتفتحت الدنيا أمامي أوسع وأعمق..
فرايت الآخرين، وفي صوتهم وفي ظلالهم ومعهم وبهم وضدهم: عرفت نفسي..

إن ثورة ٥٢ ثورة بكل معاني الكلمة. وكان جمال عبد الناصر هو دينامو هذه الثورة.
وفي الوقت الذي كنا جميعاً متفرقين في الجبهة.. وفي الوقت الذي كان آخرون في أماكن
ناحية لكي يتقاضوا أجراً مضاعفاً، كان جمال عبد الناصر يعمل ويتصل ويخطط في القاهرة.
وكان شخصية. وكان تفكيره جباراً.

والثورات كالناس. فهناك أناس يموتون وهم أطفال وهناك أناس يشييون ثم يموتون.
وهناك أناس مثل ثورتنا هذه يشييون قبل الأوان. وقد شابث ثورتنا. وبلغت شيخوختها في
الستينات.. أو في نكسة ٦٧. وجمال عبد الناصر هو أول من تنبه إلى أنه لا بد من قيام ثورة
أخرى على الثورة. كتب ذلك بخط يده. وهي حادثة معروفة.. ومن مظاهر شيخوختها:
الانحرافات والتسيب والنكسة..

البعث عن البداية..

أما كيف بدأت ثورة ١٥ مايو؟ فالإجابة عن هذا السؤال نجدها في ثورة يوليو.
وفي تكويني النفسي والسياسي. وكما قلت لا يمكن أن نبدأ هذه الثورة بسطر ونصف سطر
في الصحف عن إقالة علي صبري الذي كان على رأس مراكز القوى.. وإنما المسألة أخطر
وأكثر جدية من ذلك.. والثورة مثل الأنهار الكبيرة. صحيح أن لها منبعاً واحداً.. ولكن منابع
الأنهار، كمنابع الثورات عبارة عن أمطار غزيرة تنزل على جبال بعيدة.. وهذه الأمطار
تتجمع في نهيرات صغيرة.. ثم تتجمع النهيرات والجداول لتصب في المجرى الكبير
متجهة بكل حيوية وقوة وخصوبة إلى الوادي لتكون فيه حياة جديدة للناس.

هناك من يرى أن بداية الثورة في نفسي، أو الثورة على شخصي قد بدأت عندما اختارني
جمال عبد الناصر النائب الوحيد لرئيس الجمهورية قبل سفره بلحظات إلى مؤتمر القمة في
الرباط سنة ١٩٦٩. يومها فوجئت بقرار جمال عبد الناصر. فقد قلت له: إنني اكتفى بلقب
مستشار. ولكنه أصر وحلفت اليمين. ونشرت الصحف ذلك، وسافر جمال عبد الناصر.
يومها، قد أثار هذا الاختيار حقد الكثيرين.

ربما كانت هذه هي البداية النفسية، لعدد من المواقف المعادية لشخصي والمعادية للبلد
كلها بعد ذلك.. والذين يهتمون بالتفسير «السيكولوجي» للتاريخ، سيجدون في هذا الحدث بداية

== خفايا الیوم الکبیر فی ثورة مايو ==

لخبط جدید من تصارع الأشخاص أو العقول أو بداية لتفجير الحقد بین مراكز القوى وبینی.. أو علی الأصح بین حقدھم علیّ فلم أكن حاقداً علی أحد. وأكره الحقد. ولا أزال أرفع شعار الحب بیننا كأفراد عائلة واحدة. وشعار العلم والإیمان كدولة، أی حب الله. وحب العلم .

وأنا لا أرفع الشعار فقط. وإنما أعمل به وأشجع علیہ وأؤكدہ فی مناسبات كثيرة، لو ذكرتھا الآن لأفسد المعنى النبیل الذی أقصدہ، لأنها سوف تكون نوعاً من المن، هذا ما أمقته تماماً..

هل تبدأ ثورة مايو بعد قیام ثورة يوليو مباشرة عندما اجتمعنا بعد نجاح الثورة. وجلسنا ننهی الجمعية التأسيسية لثورتنا، ونختار - مجلس الثورة. لأننا بعد نجاح الثورة اكتشفنا فجأة أننا القوة المسؤولة عن مصیر مصر.. فجأة ودون أن ننتبه لذلك، ودون أن تكون لنا تجارب فی الحكم وإدارة شؤون الدولة..

اجتمعنا مساء ٢٧ يوليو ٥٢، أی بعد رحیل الملك بیوم واحد وأصر جمال عبد الناصر علی أن تؤخذ الأصوات علی شكل الحكم: هل يكون حکماً ديمقراطياً شعبياً أو دكتاتورياً فردياً؟ وكنا ثمانية.. أما التاسع خالد محیی الدین، فلم یكن حاضراً، فقد كان أعضاء الهيئة التأسيسية قبل قیام الثورة تسعة.. وكان غريباً أن يطالب جمال عبد الناصر بأخذ الأصوات. فهو یعلم مدى تقديرنا له واعزازنا لشخصه واعجابنا به.. فلم یكن هناك أی داع للتصويت علی شیء.. فالذی یریده هو ما سوف نقره علیہ.. وكان من الطبیعی لشبان مثلنا قد تجاوزوا الثلاثین بقلیل، ومعجبین بکمال أتاتورك الذی أعجب به موسولینی وهتلر، أن نختارھا دكتاتورية. طبعی فنحن شبان. ثم إننا حریصون تماماً علی أن یتم كل شیء بسرعة. فقد جربنا الأحزاب والبرلمانات والجلسات والخطب والبیانات. جربنا صناعة الکلام الذی غرقت فیہ مصر.. إذن لا بد من أسلوب جدید.

هو: العمل. والعمل السريع والقرار الواحد.. لقد حقق هتلر فی ست سنوات ما لم تستطع أن تحققه ألمانيا فی عشرات السنین.. وكذلك فعل مصطفى کمال.. إذن یجب أن یكون الحکم دكتاتورياً فردياً سريعاً.. وقلت: لا داعی لأخذ الأصوات.. فالموقف لا یحتاج إلی شیء من ذلك..

صدمة حیاتی کلھا!

وبكل حسن نية وبساط وحب عمیق لجمال عبد الناصر، حاولت أن أتفادی التصويت وأخذ الآراء.. فلخصت ما قاله كل أعضاء مجلس قيادة الثورة.. لکی أنتهی إلی نتیجة واحدة هی:

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

لا داعى لأخذ الأصوات. فنحن نعرف ماذا تريد.. وفي نفس الوقت وجدناها فرصة لتأييد جمال عبد الناصر، وتأكيد زعامته.. وجمال عبد الناصر هو صديق عمر لعبد الحكيم عامر بل هو صديقه الأوحده.. وهو أيضا صديقي. فالذى بينه وبينى احترام ومحبة وتقدير وفي نفس الوقت كنت حريصاً على ألا أدخل فى صراع معه أو مع أى أحد. منذ ذلك اليوم..

وفجأة.. وأقولها مرة أخرى: وفجأة وجدت جمال عبد الناصر فى حالة غضب. وسخط ومرارة لم أرها من قبل وفجأة وجدته يقول: يا أخى أنت تتكلم كما لو كنت رئيسا لمجلس الثورة! هذه هى الصدمة الأولى فى حياتى ..

صدمنى جمال عبد الناصر. فقد كنت حسن النية.. ولم يفهم. وكنت أريد أن أجنبه أن يكون «موضوعاً» للمناقشة.

أو يكون «رأيه» موضوعاً للخلاف والتصويت.. فقد أردت أن «أثبتته».. أى أن أجعله حقيقة ثابتة ولكنه لم يفهم هنا لمعت فى رأسى معان كثيرة. وعرفت بالضبط من أنا ومن هو. ومن هم. وحمدت الله أن كان هذا الاكتشاف أو الانكشاف مبكراً..

وأخذت الأصوات السرية فكانت سبعة أصوات: دكتاتورية وكان هو صاحب الصوت الوحيد الذى يطالب الديمقراطية ودارت مناقشات بعد ذلك.. لا تختلف عن التى أثرتها قبل التصويت ومعناها: أننا يجب أن نكون دكتاتوريين وأنه ما كان ينبغى أن نختار الديمقراطية.. فهو يعلم جيداً ما الذى حدث فى مصر.

وغضب جمال عبد الناصر لأننا اختلفنا عنه.. أو للمناقشات التى دارت. وتركنا وأرسلنا من يصلحه. ويقول له: أفعل ما تشاء لا داعى لأن تغضب!

وهناك صدمة ثانية أعنف قد وضعت قدمى على الطريق الصحيح، وبمنتهى العنف، وليس من المناسب أن أذكرها الآن هذه الصدمة من الممكن أن تكون بداية للخيوط التى يتكون منها نسيجى النفسى باعتبارى شريكاً فى ثورة يوليو إلى جانب مسئوليتى عن ثورة مايو..

وقد لا حظ بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين أننى لم أشارك فى الحكم، بينما اشترك كل زملائى فى الوزارة. وذهبوا فى تفسير ذلك إلى بعيد جداً.

فمنذ ٥٦ حتى ٦٩ لم أشارك فى السلطة التنفيذية.. ولا شأن لى بالوزارة.. بل إننى عملت فى مجلس الأمة وكيلاً بينما كان الرئيس عبد اللطيف بغدادى. وقد تساءل كثيرون كيف قبلت ذلك..

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

والحقيقة أن جمال عبد الناصر طلب منى ذلك وقال: إن المصلحة تقتضى الكثير. فوافقت.. ولم أجد ضيقا ولا مرارة فى أن أكون مرءوسا لزميل فى مجلس قيادة الثورة. ثم عملت رئيسا لمجلس الأمة مرتين: برلمان الوحدة مع سوريا وبرلمان ٦٤.

وقد اتفقت مع جمال عبد الناصر على أن أعتزل الحياة السياسية بعد ذلك. فأقيم فى قريتى ميت أبو الكوم. واقترحت على جمال عبد الناصر أن يزورنى فى نهاية كل أسبوع، لعله يستريح بعض الوقت، ولعلنا نتحدث فى شئون مصر.. بعيدا عن الضوضاء وعن الزحام.. وعن الحساسية التى بدأت منذ سنوات عندما أحس الكثيرون أننى عند بدء الثورة كنت معروفا شعبيا قبلهم جميعا..

وهنا تحضرنى عبارة للحكيم الصينى كونفوشيوس تقول: احترس من الشهوة فى شبابك، والمزاحمة فى رجولتك، والجشع فى شيخوختك..

هذه الحكمة مكتوبة فى كراستى التى احتفظت بها وخرجت بها من السجن..

ففى رجولتنا كثير من الزحام. والزحام يجعلك تضرب الناس وتدوس عليهم. والزحام يخلق المنافسة والمنافسة هى أخت الكراهية، والكراهية أم الحقد.. والحقد هو الأب الحقيقى لكل الحروب بين الناس وبين الشعوب..

وعندما اكتشفت ذاتى، أو عرفت الكثير من جوانب نفسى.. تراجعت إلى الوراء لكى أرى الصورة أمامى أوضح.. أو تراجعت، كما نفعل فى الريف، عندما يحاول الإنسان أن يقفز من فوق قناة.. يتراجع لكى يقفز أوسع وأرفع.. خطوة خطوتين إلى الوراء.. ثم تسلفت سلما ورحت أتأمل الناس من فوق ومن بعيدا ما هذا الزحام. بل ما هذه الشهوة على الزحام.. وما هذا الجشع على الأماكن والمناصب والسلطة..

لقد كنت صادقا مع نفسى ومع جمال عبد الناصر، عندما طلبت إليه أن أعتزل فى نهاية ١٩٦٩. وأن أذهب إلى قريتى.. إلى أرضى وأهلى وحياتى العادية.. وأجد نفسى هادئا مستريحا أنفجر دون مشاركة، إلا إذا طلب منى جمال عبد الناصر رأيا أو فكرا أو قرارا.. والله يعلم أننى كنت جادا.

ولكن يبدو أن جمال عبد الناصر لم يفهمنى، أو لم يدرك المعنى الذى أدركته قبل ذلك بسنوات يوم التصويت على شكل الحكم فى مصر.. ويبدو أن الآخرين أيضا لم يفهموا ذلك.. وكعادتى دائما.. فإننى طويت نفسى على ما فى نفسى، وانتظرت.. ولم يكن انتظارى سلبيا،

خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو =

وإنما كان ما يملؤنى هو أن حلم طفولتى قد تحقق بقيام الثورة. وكنت سعيدا أكثر بأن على رأسها صديقا أتبادل معه التقدير والصدقة ..

وهناك بعض المؤرخين يرون أن ثورة مايو قد بدأت في عيد العمال فى أول مايو عندما أضفت عبارة لجمال عبد الناصر لم تكن فى الخطبة المطبوعة التى قرأتها مراكز القوى قبل أن القيها على العمال.. وكانت هذه العبارة مفاجأة لهم أدت إلى صراع عنيف بينهم..

هل هذه العبارة هى بداية ثورة ١٥ مايو؟.. فقد قلت فى العبارة التى كتبتها: إن جمال عبد الناصر قال وأنا من ورائه أردد: إن الشعب هو المعلم وهو القائد وهو الخالد أبدا، وإن الشعب هو صاحب هذا البلد، وهو الذى سيخوض مع قواته المسلحة معركة الحياة بكل مسؤولياتها، وما تفرضه من تضحيات.

إذن فليس من حق أى فرد أو جماعة مهما كان هذا الفرد أو تلك الجماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشعب أو أن تدعى لنفسها موقعا تستطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب أو أن تنشر شعارات أو مناورات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشعب بعد أن أسقط هذا الشعب مع جمال عبد الناصر، كل مراكز القوى ليبقى الشعب وحده سيد مصيره..

ربما كانت هذه بداية .. ولكنها ليست إلا إحدى البدايات.. وإنما هناك خيوط وروافد تبدأ منها ثورة مايو..

ويكفى أن أذهب إلى أبعد من ذلك بكثير.. أبدأ وعلى مسؤوليتى أنا فى التفسير والتقدير إلى يوم وفاة جمال عبد الناصر .. والأيام التالية.

جمال عبد الناصر مات يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ فقد كان ذلك اليوم رهيبا. وقد اهتزت مصر والأمة العربية. وكان الموقف عصيبا.

وكانت الجنازة يوم أول أكتوبر مهيبة.. وقد أعطيت خمس حقن فى مجلس قيادة الثورة حيث بدأت الجنازة عندما سقطت من الإعياء، ولم استطع الاشتراك فى الجنازة، وعندما أفقت سألت إن كان جثمان عبد الناصر قد دفن. فقلت إنه دفن. فحمدت الله. فقد كنت أخشى أن يفلت الموقف من أيدينا فتندفع موجات الجماهير بنعش جمال عبد الناصر. وقد حدث شئ من ذلك..

دفن عبد الناصر يوم الخميس أول أكتوبر سنة ١٩٧٠.. وقررت دعوة اللجنة التنفيذية العليا يوم السبت ٣ أكتوبر. وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر جاءنى شعراوى جمعة وسامى شرف

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

ليقولوا : إن أحد أعضاء اللجنة سوف يثير مشكلة. وهذه المشكلة سوف تؤدي إلى انقسام. وهذا الانقسام سوف يشعل البلد عن الظروف الصعبة التي تمر بها.
سألت : ما الذي سوف يثيره؟

قالا : إنه سوف يقول إنه لا داعي للاستعجال في اختيار رئيس للجمهورية الآن.. وهل المقصود هو أن تختار اللجنة واحدا بالذات.. كان هذا العضو هو العضو الوحيد المتبقى من أعضاء مجلس قيادة الثورة.. وفي تقديرى أنهم هم الذين دفعوه لأن يقول ذلك.. لأنهم لا يستطيعون أن يرشحوا على صبرى .. وفي نفس الوقت لا يستطيعون أن يقولوا : إنهم لا يريدوننى..

وقد عرفت متأخرا جدا، أنه على رغم الكلام اللطيف الرقيق الذي قاله كوسيجن أثناء جنازة جمال عبد الناصر، فإن السوفيت قد خططوا من اللحظة الأولى أنهم لا يريدوننى.
أما تفصيل ذلك فليس الآن موعد إذاعته.. في الأيام الأولى بعد وفاة جمال عبد الناصر وقبل تشييعه، خطر لى أن أبقى رئيسا للجمهورية بالنيابة حتى تنتهى فترة ولاية جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٧١.

كان فى ذلك تكريما منى لجمال عبد الناصر، وتغاديا لأية مشكلة عاجلة .. وقد كنت حزينا على وفاة جمال عبد الناصر على رغم أننى قد توقعت هذه النهاية.. ولكن هذا التوقع لم يخفف من هول الحادث.. فعلى ما يبدو كانت، وبالذات مراكز القوى رقم ٢ وهى الثلاثى على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة، يعرفون من الطبيب الروسى الذى جاء لعلاج جمال عبد الناصر أنه لن يعيش أكثر من عام. وهذا ما حدث فعلا وهذا هو الذى دفع مراكز القوى إلى الهجوم على جمال عبد الناصر على كل المستويات والدعوة والتمهيد للخلاص منه وقبل تشييع الجنازة تحدثت مع الرئيس هوارى بومدين فى هذه المسألة. فلم يوافقنى بومدين. ورأى فى الانتظار البلبلة وأن أية بلبلة فى مصر سوف تهز العالم العربى كله. فمصر قلب العالم العربى . وهذه البلبلة هى «لغة» لقلب الأمة العربية كلها.. ولذلك فإنه لا يوافقنى على رئاسة الجمهورية. وكان هذا الحديث يجرى بينى وبين بومدين فى قصر القبة قبل تشييع جنازة عبد الناصر، وبعد أن مضى يومان على الحديث، وقبل تشييع عبد الناصر، وبعدما رأيت من مناورات خارجية وداخلية، إلى أن طلبت من شعراوى جمعة باعتباره أميناً للتنظيم أن يدعو اللجنة التنفيذية العليا لتسمية من تراه رئيسا للجمهورية يوم السبت ٣ أكتوبر.. أى بعد يومين من تشييع عبد الناصر يوم أول أكتوبر. وبعد ذلك تنزل التسمية

خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو =

يوم الاثنين ٥ أكتوبر إلى اللجنة المركزية.. وفي يوم الخميس التالي مباشرة يجتمع مجلس الشعب ليعرض عليه اسم رئيس الجمهورية.. أو أية أسماء أخرى.. وقد أدى هذا القرار إلى ارتباك مراكز القوى.. أول مراكز القوى هذه هو الصحفي محمد حسنين هيكل، وكان الأول أيام جمال عبد الناصر.. ولكنه أصبح الثاني في عهدى. أما مركز القوة الثاني فى أيام جمال عبد الناصر، والأول فى عهدى، فهو شعراوى جمعة وسامى شرف وعلى صبرى..

وكلمسا تصورت أن هؤلاء من مراكز القوى هم الذين يطمعون فى حكم مصر، أشفقت على مصر العريضة الغالية.. هل صحيح إنها محكوم عليها أن يتحكم فيها الأغوات فقد حدث أن مات السلطان أيام الفاطميين فجأة فالتقى الأغوات واتفقوا على حكم مصر حكما جماعيا، وكان هذا الحكم الجماعى هو أعظم إهانة وجهت إلى مصر فى كل العصور.. وسوف تكون هذه الإهانة الثانية. لو حكمها هؤلاء التافهون، أو الذين وصفهم ممدوح سالم يوم طلبت إليه أن يكون وزيرا للداخلية بأنهم ورق وقش!

وحاول شعراوى جمعة وسامى شرف أن يثنياى عن انعقاد اللجنة التنفيذية العليا. فرفضت. فطلب الاثنان منى: إن كان لدى مانع أن يخرج معى فى طريقى وفى سيارتى إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى، حيث تعقد اللجنة التنفيذية العليا، عضو مجلس الثورة السابق الباقي وعلى صبرى اللذان ظلا يقيمان معى فى قصر القبة من ليلة ٢٨ - ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠، وهى ليلة وفاة جمال عبد الناصر إلى يوم تشييع جنازته الخميس أول أكتوبر. قلت: لا مانع..

وفى طريقنا من مصر الجديدة إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى سألت عضو مجلس الثورة الباقي، وقد كان معى فى السيارة هو وعلى صبرى، عن وجهة نظره هذه، فأعاد ما سمعته من سامى وشعراوى من أنه لا داعى للاستعجال فى تسمية أو انتخاب رئيس الجمهورية، فإن هذا الاستعجال يدل على أننا نريد اختيار شخص بالذات.

قلت: لا مانع من أن أسمع رأيك فى اللجنة التنفيذية العليا. وأنا أحب المواجهة. وأن يكون كل شىء واضحا.

وللتاريخ أقول: إن ما قاله يومدين كان له أثر عميق فى نفسى. وقد نبهنى إلى أشياء كثيرة.. وهناك سبب آخر لم يكن فى حسابى فقبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا بيومين جاءنى من القوات المسلحة أننا فى حاجة سريعة إلى قائد أعلى يكون مسئولاً عن إعطاء الأوامر من أجل متابعة المعركة، فلا بد من هذا القائد فورا وبسرعة..

وأنا باعتباري نائب رئيس الجمهورية، لست قائدا. لأن القائد هو رئيس الجمهورية المنتخب. وفي اجتماع اللجنة التنفيذية العليا حدث ما توقعته فقد طلب الكلمة العضو الباقي من مجلس قيادة الثورة. وكرر ما سبق أن قاله من أنه لا داعي للاستعجال. فالاستعجال معناه أننا نريد أن نضع شخصا بالذات. ونفرض أن الجماهير رفضته. ألا يكون ذلك رفضا لثورة يوليو نفسها وقد يكون هناك تجرييح على هذا الشخص؟! وطبعاً كان يقصدني.

وطلب د. محمود فوزي الكلمة وقال: إن جنازة جمال عبد الناصر التي كانت أول أمس تؤكد خروج خمسة ملايين من الشعب ليس لجمال عبد الناصر وحده وإنما لثورة يوليو أيضاً.. فإذا نحن سمينا شخصا ورفضته الجماهير فهي قد رفضت الشخص ولم ترفض الثورة! وتكلمت أنا قائلاً: أنا جمعتكم هنا في اللجنة العليا لكي تسموا واحداً حسب النظام الذي نسير عليه ولم أقصد أن تسموني أنا بالذات. وأحب أن أؤكد لكم الآن. إنني لن أترك قيادة مصر. لن أترك قيادة مصر إلا لشخص اختاره الشعب. وإذا فرض أنكم سميتوني ورفضني الشعب، فعندئذ من الشجاعة ما يجعلني أجمعكم هنا مرة أخرى ونسعى شخصاً آخر.. إلى أن يوافق الشعب، وكررت أنني لن أترك مكانى إلا لرئيس منتخب من الشعب. فهذه أمانة. وأنا أقدم الأمانة.

ولم يرد أحد على ما قلت. وهنا رفع عبد المحسن أبو النور يده قائلاً: أنا أشرح أنور السادات.. ونسميه رئيساً للجمهورية..

قلت: إن عبد المحسن أبو النور يرشحني..

فوافقوا على ذلك بالإجماع!

وليس من الصعب على من يتابع سير هذه الأحداث وسرعة تلاحقها أن يعرف أى نوع من الناس هؤلاء. وكيف يفكرون وكيف يسهل إيقاعهم وتخبطهم. وكيف إنهم ليسوا صفاً واحداً ولا قلباً واحداً.. وإنهم يتربصون بعضهم ببعض.. وكل واحد منهم يراقب الآخر ويسجل له مكالماته التليفونية.. وتشاء إرادة الله أن تكون هذه التسجيلات سنداً لى فى اتخاذ قراراتى الحاسمة بعد ذلك.. لقد أرادوا شيئاً، وأراد الله شيئاً آخر.. فالحمد لله على ذلك.

ويمكن أن تكون بداية الصراع المكشوف بينى وبينهم بعد يوم الأربعين لوفاة جمال عبد الناصر. وأقول من الممكن أن تكون بداية. فان لم تكن البداية الحقيقية فهي تصلح أن تكون إحدى البدايات للصراع المفتوح المفضوح بين مركزى القوة الأول والثانى.

بداية الصراع..

فقد صدر مقال في ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر في جريدة الأهرام بعنوان «جمال عبد الناصر ليس اسطورة» وقد اعتبره لبيب شقير - ممثلاً لمركز القوة الثاني - عضو اللجنة التنفيذية العليا نوعاً من الخيانة العظمى وقد ترفع لبيب شقير بمنتهى الفصاحة والبلاغة. وكان الغرض واضحاً أمامي أن مركز القوة الثاني: شعراوى جمعة وسامى شرف وعلى صبرى يريدون التخلص من مركز القوة الأول محمد حسنين هيكل. وإن هذه هى الفرصة المواتية. وقد أجمعوا آراءهم على ذلك فإذا ما اتخذ قرار ضده فى اللجنة المركزية تكون الأغلبية له وبذلك ينتهى مركز القوة الأول الذى لم يستطيعوا التغلب عليه فى حياة عبد الناصر.

هذا هو الهدف الأول. هناك هدف أهم من ذلك. أنهم يريدون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليؤكدوا لى أنهم مصدر السلطة فى صدور القرارات، لأن لهم الأغلبية، وعلى ذلك فإذا أردت أن أتخذ قراراً فلا بد أن أرجع إليهم. أى لا رأى لى ولا قرار. الرأى والقرار لهم وحدهم.. أما أنا - أى رئيس الدولة - فلست إلا صوتاً ضمن أصوات أخرى..

وانتهزتها فرصة لى أكد أسلوبى فى الحكم أو فى التفاهم مع الآخرين: المواجهة.. أى لا بد أن يتواجه هؤلاء جميعاً مع ذلك الصحفى الذى أدانوه.. ولا بد أن يدافع عن نفسه. أى لا حكم بلا محاكم. ولا قرار بلا مواجهة. ولا اتهام بلا مبرر. والإنسان برىء إلى أن تثبت إدانته.. وليس مديناً حتى تثبت براءته..

وفتحت باب المناقشة لى أعرف الحاضرين أكثر.. وأذكر أنى قرأت أن الفيلسوف سقراط هو الذى كان يقول لتلامذته عندما وجد واحداً لا يتكلم فقال: تكلم حتى أراك..

فطلبت إليهم أن يتكلموا لى أراهم أوضح.

فقد لاحظت أن هناك ترتيباً أو اتفاقاً بين الجميع.. ولكن لا أعرف مضمون هذا الاتفاق أو تفاصيله.. وأجمع الحاضرون على الهجوم على صاحب المقال: المعتدلون هاجموه وأدانوه وطلبوا ألا تذاع أسرار هذه الجلسة والمتطرفون أيضاً وهذا أمر طبيعى. إلا الدكتور محمود فوزى فقد كان معتدلاً.. وكان الغرض أن يتخلص مركز القوة رقم واحد من مركز القوة رقم ٢ بعد أن استمر فى السلطة وفى الحكم الفعلى طويلاً.. وانتصر عليهم فى أكثر من معركة أيام عبد الناصر بل إنهم اعدوا محامياً شاباً ليكون رئيس تحرير الأهرام، بدلاً منه..

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

أما د. محمود فوزى اتخذ موقفاً وسطاً وتكلمت أنا فقلت: أحب أن أقول للجنة العليا إننى لا أحكم على أحد قبل مواجهته.. أى لا بد أن نواجهه لكى يتمكن من الدفاع عن نفسه. ورفعت الجلسة. وأدى ذلك إلى ارتباك مركز القوة هذا. فلم يكن فى الحساب ألا يتخذ قرار. أو على الأصح ألا يفرضوا قرارهم على ..

وفى الجلسة التالية فوجئ أعضاء اللجنة العليا، وأنا أضغط على زر الجرس وأطلب رئيس تحرير الأهرام. فقد أبلغ بضرورة الحضور إلى اللجنة. ولذلك كان موجوداً فى مبنى الاتحاد الاشتراكى. وأدخلوه. وجلس على الطرف الآخر من التربييزة.. كنت على رأسها والأعضاء على الجانبين فجلس فى مواجهتى. وتكلمت وقلت: يا دكتور لبيب شقير أعد ما سبق أن قلته فى الجلسة الماضية عن المقال الذى نشر فى الأهرام.

أما الذى حدث فهو أن لبيب شقير لم يعرف ماذا يقول. راحت الفصاحة والبيان. وقد حاول أول الأمر أن يوجه أسئلته إلى كاتب المقال، فرفضت هذه الصورة وقلت: ليس المطلوب هو أن تناقشه.. وإنما أن تعيد على مسامعه ما قلته للجنة.. أما الأسئلة فسوف تتولى اللجنة العليا توجيهها إليه..

وقال كلاماً مفككاً ولم ترد فيه كلمة «الخيانة».. وطلبت إلى كاتب المقال أن يدافع عن نفسه.. فأخرج المقال من جيبه وراح يناقش فقراته طويلاً.. وانتهى بأن قال: إنه كان أقرب واحد إلى جمال عبد الناصر.. وطلبت إليه أن يخرج بعد أن دافع عن نفسه. ونزل إلى مكتب سامى شرف فى الدور الأسفل ليسمع بقية المناقشة وقد كانت الجلسة مسجلة. ولم أفهم كيف سمح له سامى شرف أن يتابع بقية المناقشة.

وقلت لأعضاء اللجنة العليا: لقد سمعنا رأى رئيس التحرير ورأى لبيب شقير أحب أن أسمع آراءكم.

فلم يعلق أحد بشيء..

وكان واضحاً أن مركز القوة الأول خسر معركته مع مركز القوة الثانى.

وقد علمت بعد ذلك كيف عنف ضياء داود صديقه لبيب شقير.. وأنا أرى أنه ليس من الواجب أن نندفع إلى اتهام أحد بالخيانة دون بيينة، أو دون محاكمة.. حتى لا يتشكك الشعب فى آرائنا أو فى الوزن الحقيقى لهذه الهيئة رفيعة الشأن..

وقبل أن أنهى المناقشة كررت عليهم ما سبق أن قلته. أسلوبى هو المواجهة. أسلوبى هو المصارحة. لا تقارير سرية. لا اتهامات بلا أدلة. لا إدانة بلا محاكمة.

وكانوا في غاية الغيظ.. لقد تكرر فشلهم مرة بعد مرة.

الصراع الثاني

وهناك معركة أخرى مكشوفة خسرتها مراكز القوى. وكانت هذه المعركة صراعا مفضوحا هزيباً وكان ذلك بسبب الوحدة مع ليبيا وسوريا والسودان عرضت الاتفاق الذي تم في بنغازي على اللجنة التنفيذية العليا. فرفضته بخمسة ضد ٣ أصوات. وظنوا أن هذا قرار نهائي. ولكن قلت لهم إن القرار النهائي للجنة المركزية. ولم يكن هذا في الحساب أيضاً. وأنهم لن يتعلموا. فهم ليسوا سياسيين فالسياسي هو الذي يضع حسابات. وأهم مبادئ الحساب السياسي أن تكون هناك احتمالات.. أو تكون هناك بدائل.. ولكن الرجل الذي لا يرى إلا طريقاً واحداً لحل مشكلة واحدة هو رجل قصير النظر أو قليل الحيلة. وقد تأكد لي تماماً أنهم جميعاً كذلك.

وطلبت إلى شعراوي جمعة أمين التنظيم بعد هذا القرار، أن تنعقد اللجنة المركزية. وجاءتني المعلومات من الأقاليم تقول: إن التعليمات لديهم بأن يعارضوا وأن يرفضوا.

واجتمعنا وبدأ على صبري الكلام. وكما وعدهم في التسجيلات، التي سجلوها على أنفسهم بأصواتهم، بأن يكون قليل الأدب في حديثه معي وسوف تؤدي قلة الأدب وقلة الحياء إلى أن أفقد أعصابي. فإذا فقدتها تكاثروا هم وتغلبوا على الموقف. فأخسر هذه المعركة. وكان من رأي على صبري أنه سوف يبدأ بإخراجي عن هدوئي. وعليهم أن يكملوا الخطة.. وبعد أن تكلم على صبري في اللجنة المركزية تبعه ضياء الدين داود فكان أكثر وقاحة. (ضياء داود حر وهو يعمل في المحاماة آمن على يومه وغده وحياته ورزقه مع معاش استثنائي قرر لعائلته أثناء سجنه، وبقى إلى اليوم) ..

ولاحظت أن خمسة فقط من أعضاء اللجنة المركزية، وعددهم ٢٢٠ يمسحون الأرض بأقدامهم، كما يفعل تلامذة المدارس عندما يدق جرس نهاية الحصة والمدرس ما يزال ماضياً في الشرح.. أو كما يفعل جمهور كرة القدم يتعجلون الحكم أن يطلق صفارته وإنهاء المباراة.. هؤلاء الذين يدبذبون بأقدامهم كانوا خمسة من ٢٢٠ عضواً..

انتهت هذه المعركة أيضاً بالتنسليم بما أردت. وحاول شعراوي جمعة أن يصلح ما بيني وبين على صبري. ولكن لم أقبل أن يكون هذا هو الأسلوب في الخلاف. فأنا أقبل الخلاف في الرأي، وأرفض الصراع، مثل هذا النوع من الصراع..

== خفايا الیوم الکثیر فی ثورة مايو ==

وإذا حاولنا أن ننظر إلى هذا الذى جرى فسوف نجد أنها عدة معارك كل واحدة من الممكن أن تكون بداية: معركة بعد دفن جمال عبد الناصر بيوم واحد.. ومعركة ثانية بعد وفاته بأربعين يوماً ومعركة على الوحدة فى أبريل سنة ١٩٧٢.

ومن الممكن أن تكون كلها معركة واحدة على من الذى يستطيع أن يتخذ القرار.. هل هو رئيس الجمهورية أو هو مراكز القوى الممزقة المتطاحنة والمتهالكة أيضاً. وانتهت المعركة بتأكيد فشلهم جميعاً..

فإذا قلت إنها جميعاً معارك واحدة.. أو معركة واحدة متعددة المواقع، فمن المؤكد أن ثورة مايو قد تأكدت قواعدها الثورية التصحيحية ابتداء من شهر مايو نفسه.. وإن كنت أرى أن يوم ١٣ مايو هو اليوم الكبير حقاً بما فيه من قرارات كان لها أعظم الأثر فى نفوس الناس.. أما يوم ١٥ مايو فهو يوم فرحة الشعب صاحب المصلحة الحقة فى تعديل مسار الثورة الأم، والثورة عليها، من أجل المزيد من الأمن والأمان، والحريات والعدل، وقيام المؤسسات الدستورية والدستور الدائم لأول مرة، وانتصارات أكتوبر، وقيام الأحزاب والتطلع بثقة إلى غد مشرق وسلام قائم على العدل فى المنطقة كلها..

أول مايو ١٩٧١

هذا اليوم قد بدأ يوم ٣٠ أبريل. وكان يوماً طويلاً. فقد أعطيت فكرة الخطبة التى سوف ألقياها لمحمد حسنين هيكل، كما كان يفعل جمال عبد الناصر..

وكما يفعل كل رؤساء الدول فى العالم. فكل واحد له كاتب لخطبه. وهذا الكاتب معروف. وقد قابلت فوراً ومعه كاتب خطبه. فالحاكم ليس عنده وقت كاف لى يكتب الخطبة فى أسبوع أو أسبوعين فعنده من المشاكل الكثير. ولذلك. فقد جرى العرف الدولى، على أن يستعين الحاكم بالخبراء فى السياسة والقانون والاقتصاد والكتابة، يعطيهم أفكاره ويتركهم بعد ذلك يصوغون فكره وأسلوبه فى العمل..

وجاءت الكلمة التى سوف ألقياها..

أرسلت الكلمة إلى سامى شرف، وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية، لى تكتب على الآلة الكاتبة.

بعد أن راجعتها. ومادامت قد أرسلت إليه فقد عرفها وقرأها بقية مراكز القوى..

خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو =

وطلبت من محمد حسنين هيكل باعتباره مركز قوة أن يضيف هذه العبارة الخاصة بمقاومة مراكز القوى. فرفض وقال: أنا لا أستطيع. اكتبها سيادتكم. ولذلك فقد ظلت ساهراً حتى الساعة الواحدة من صباح أول مايو سنة ١٩٧٢، اكتب هذه الكلمة..

وذهبت إلى حلسوان ألقى كلمتي. ووجدت أن مركز القوة رقم واحد قد أعد العدة لإفشال الاجتماع، وأنه قد أعد في مواجهة المقصورة مجموعات تحمل صور عبد الناصر اعتقاداً منهم أن ذلك يضايقني. ولم يضايقني ذلك فعندما ذهبت إلى السودان استقبلوني بصور جمال عبد الناصر. ولم أجد في ذلك ما يضايقني وإنما هي تحية لمصر وثورة مصر..

وفى حلوان أيضاً، وفي هذا الاجتماع رفض مذيع أن يقدمني لجماهير العمال. هذا المذيع سافر إلى ليبيا، وطلب أن يعود إلى مصر، فسمحت له بعودته إلى وطنه مصر. وفوجيء رجال البروتوكول بمجيء علي صبري. وهم يعلمون ما جرى منه في اللجنة المركزية، ولم يعرفوا أين يضعونه.. وألقيت كلمتي. وصفق الناس طرباً. ثم قرأت الكلمة التي كتبتها بخط يدي، ولم يكن مركز القوة يعلم عنها شيئاً. وكانت مفاجأة لمركز القوة الأول لأنني أعلنت أنه لا وصاية لأحد أو لمجموعة من الناس على هذا البلد. وذهب شعراوي جمعة وسامي شرف مركز القوة الأول إلى محمد حسنين هيكل مركز القوة الثاني الذي يريدون القضاء عليه. وسألاه: كيف كتبت هذه العبارة.

فأعلن: أنه لم يكتب ذلك وإنما الخطبة التي كتبها هي التي أرسلها لهم.. وهو فعلاً لم يكتب هذه العبارة. وإنما قال لي: اكتبها أنت بيدك. فأنت كاتب وتعرف في صناعة الكلام..

ومن المؤكد أنهما لم يصدقاها. وقد أضاف عدم التصديق هذا إليهما مزيداً من الغيظ والترقب تمهيداً للانقضاض عليه. وأنا الذي خلعت من مراكز القوى الأخرى.

اتصلت بمحمد حسنين هيكل أقول له: يا أخى أرهقني. فبدلاً من أن تكتب أنت هذه العبارة جعلتني ساهراً أكتبها وأعيد كتابتها حتى الصباح.. ولم أعرف إلا منه بعد ذلك بشهر أن شعراوي جمعة وسامي شرف قد ذهبا إليهما معلنين براءته من تهمة كتابة هذه الفقرة.. فقد كانوا يسجلون عليه مكالماته كما كانوا يسجلون عليّ أنا أيضاً. وقد أخذته وقلت له: يا أخى لماذا لم تخبرني بأنهما جاءا إليك مساء يوم أول مايو.. لو فعلت لجعلتني أتخذ قراراً آخر.

قال: لم أكن أعرف أين مركز القوة!

ولكنه كان خائفاً. فعلاً فقد أفرغوه في ذلك اليوم وقالوا له: إن لديهم تسجيلات لكل إنسان في مصر. وإن لديهم من التسجيلات ما يجعل أى إنسان يحنى رأسه خجلاً، ويهرب خوفاً. وبالفعل كان يخاف منهم حتى عندما كانوا في السجن.

وفي اليوم التالي لخطبة أول مايو ١٩٧١ طلبت سامى شرف في التليفون وقلت له:

يا سامى.

- أفندم.

حضر لى قراراً بإعفاء على صبرى من جميع مناصبه على أن تبلغ به الصحف. وينشر في سطر ونصف فقط في الصفحة الأولى من كل الصحف.

- حاضر يا أفندم.

روى لى أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.. أنه كان ساهراً في منزل أحد أصدقائه وفي الساعة الثانية عشرة دخل علينا واحد ومعه جريدة الجمهورية وكانت تصدر مبكراً وكان منشوراً في صفحتها الأولى هذا الخبر.. وكان هذا الخبر مفاجأة لهم، وظلوا جالسين يعلقون ويفكرون في الخطوة التالية لى ولمراكز القوى. وقد تولاهم الفزع..

فقد انخدع الناس فيه. فالتاس قد ظنوه قسوة كبرى، وأنه أخطبوط له أطراف، وهذه الأطراف قد أمسكت مصر كلها من أولها لآخرها.. ولذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يزحزحه من مكانه..

وقد جرت العادة أن الرئيس جمال عبد الناصر، أو أنا، عندما نتخذ قراراً فإنه يعلن أولاً. وبعد ذلك يعرض علينا لنوقعه.. إلا في هذا القرار. فلما اتصلت بسامى شرف أبلغه بنشر هذا القرار.. فقد فوجئت به وقد حمل إلى القرار فى يده وفي منزله لكى أوقعه. فأدهشنى ذلك. ووجدت منه نوعاً من السذاجة والبلاهة.. فقد ظن هؤلاء السذج أن هذا يخيفنى. وأن التوقيع على القرار مستند ضدى..

ووقعت قرار إعفاء على صبرى من منصبه كمساعد لرئيس الجمهورية لشئون الطيران.. وهو منصب اخترعه له جمال عبد الناصر.. أما منصبه كعضو فى اللجنة التنفيذية العليا فقد أخرجه منه جمال عبد الناصر بعد فضيحة السجاجيد والشنط التى أتى بها من موسكو.. أما عضويته للجنة المركزية فهذا من شأن اللجنة نفسها.. وكانت فرحة الشعب عظيمة

خفايا اليوم الكثير في ثورة مايو =

جداً لإخراج على صبرى. فقد استطاع على صبرى أن يجعل كل مواطن فى مصر يكرهه ويمقتّه ويحتقره عندما نشر سلسلة يومية من المقالات ملأت قلوب الناس بالحقّد بعضهم على بعض، وملأت قلوبهم أيضاً بالاحتقار له.. فلما سقط، كان لسقوطه ارتياح عظيم.. وكانت هذه الفرصة أصدق استفتاء شعبى فورى على صحة هذا القرار. وكنت أعلم بحسب السياسى وحاستى السادسة أن على صبرى هذا لا شىء، لا قمة له ولا قاعدة.. وجاءت الأيام تؤكد صدق فراستى..

١١ مايو

لقد تحدد هذا اليوم للقاء الجيوش على جبهة قناة السويس.. وقابلت القوات وجلست إليها، وتحدثت..

نصف الليل ١١ مايو

كنت فى البيت. جاءنى من يقول لى أن ضابط بوليس يريد مقابلتك فوراً لأمر هام. لأن لديه معلومات خطيرة ولا بد أن أعرفها..

قبل ذلك وابتداء من إعلان إقالة على صبرى تجيء لى خطابات عليها توقيعات من أصحابها ينقلون فيها تعليمات الاتحاد الاشتراكى ضد رئيس الجمهورية. فقد نشط الجهاز الطليعى التابع لشعراوى جمعة.. وكنت أكتب على هذه الخطابات: ترسل إلى شعراوى أمين التنظيم وإلى عبد المحسن أبو النور أمين الاتحاد الاشتراكى: للتحقيق والإفادة.. والناس حولى فى ذهول من موقفى هذا. والذى لم يعرفه الذين حولى هو أننى حريص على أن يعتقد مركز القوة الذى أصبح الأول وزعيمه شعراوى جمعة أننى لا أعرف وأننى حسن النية. وأننى كما يتصورون، رجل ساذج غائب عن حقيقة ما يجرى حولى.. ولم يكن يعرف هؤلاء أيضاً أننى أعطيت تعليمات إلى مكتبى بأن يتصلوا بكل واحد من أصحاب هذه الخطابات ويقولوا له: لا تخف.. وإذا أصابك شىء فأبلغنا!

وكان الغرض من ذلك أن أعرف من الذى سوف يعاقب هؤلاء، لكى أعرف بداية الخط. وبداية مراكز القوى. ومدى سرعة الفعل ورد الفعل عندهم. ولم يحدث أن عاقبوا أحداً، وهذا ما لم أكن أتوقعه.. ولكن استنتجت فيما بعد، أنهم ليسوا على هذه الدرجة من التنظيم والتماسك والمتابعة.. أما ضابط البوليس هذا فيعمل فى جهاز الرقابة فى وزارة الداخلية. وقد

جاءنى عن طريق أحد أزواج إخوانى البنات. ومعه شريط مسجل يريدنى أن أسمعه. وفجأة اكتشفت أنه لا يوجد فى بيتى جهاز تسجيل. فأرسلت إلى بيت أحد أقبائى. وجاء جهاز التسجيل. وضعت الشريط. وحتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت هذا الضابط. لقد كان الشريط تسجيلاً من شعراوى جمعة وزير الداخلية لأعضاء اللجنة المركزية. وفى هذا التسجيل حوار بين اثنين.. أحدهما محكوم عليه بالسجن ٢٥ سنة مؤبد فى قضية مراكز القوى هو فريد عبد الكريم أمين الجيزة والآخر هو محمود السعدنى صحفى من روز اليوسف. وفى هذا التسجيل يحكى فريد عبد الكريم عضو اللجنة المركزية عن جلسة اللجنة المركزية التى كانت صراعا مكشوفاً مع مراكز القوى، انتصرت فيه. وفى التسجيل أيضاً وصف للطريقة التى تحدث بها على صبرى وكيف إنه كان رائعا.

ومن تسجيلاتهم أيضاً لعلى صبرى تحس أن على صبرى أيضاً كان يعتقد أننى إنسان ساذج لا عندى فكرة ولا لدى قدرة على النظر إلى الأمور ولا على حساب أى شىء من حولى.. كأننى غائب عن الدنيا. وقد أخطأ فى ذلك، هو وكثيرون ولا يزالون.

وكان يقول لهم: لا تخافوا منه.. إنه لن يستطيع عمل أى شىء.. ولكى يحسمهم ويثيرهم: أسرعوا حتى لا يصفىكم واحدا واحدا.

وكان شعراوى يقول: سيادتكم طول بالك..

وسامى شرف يقول: عندنا تكتيك..

ولكن شيئا فى الحديث قد استوقفنى وأثارنى. ومددت يدي أوقف التسجيل.

لقد سمعت الصحفى يقول: هه.. وعملتم حساب الإذاعة.

قال له: لا.. كانت محاصرة لكىلا يتحدث السادات للشعب.

وأوقفت التسجيل ونظرت إلى سكرتيرى الذى نظر إلى زوجتى. وكأنهما يريدان أن يقولوا شيئا.. ثم أمسكا عنه..

إن حصار الإذاعة معناه: انقلاب. فماذا جرى؟..

لقد كنت أنتظر المعركة.. أن تنفتح المعركة وأدخلها.. وأنا فى مثل هذه المواقف: عندما أقرر دخول معركة فإننى أدخلها إما غالبا وإما مغلوبا.. ولا بد أن أذهب فيها إلى نهايتها.. لا شىء يخيفنى. ولا شىء يشد أزرى وينفخ فى صورتي، ويملؤنى حيوية مثل مواقف التحدى. جربت هذا فى شبابى وعرفت أشكالا وألوانا من العذاب والصبر عليها. ولا أزال قادراً على ذلك.. حتى الموت!

خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو =

إن أنا كنت أنتظر المعركة. لقد جاءت المعركة إلى بيتي في نصف الليل.. مسجلة واضحة تماما. فما الذي أنتظره الآن..

سألت سكرتيرى استوضحه بعد أن أوقفت التسجيل عن (حصار الإذاعة) والحركات التي صدرت منه.

فقال لي: يا أفندم السيد حسنين هيكل جاءني هنا يوم اجتماع اللجنة المركزية وقال لي: إن محرراً من الأهرام كان موجوداً في مبنى الاتحاد الاشتراكي في مكتب معين. وسمع أن الإذاعة محاصرة فذهب إليها على قدميه.. ثم هرول إلى الأهرام وروى لهيكل ذلك فنزل بسيارته ورأى المنظر بنفسه وجاء بسرعة وطلب مني أن أنقل إليك ذلك وطلبت إليه أن ينقل إليك ذلك بنفسه.. فرفض. وقلت له: لا أستطيع.

وسألته: ولماذا لم تقل ذلك في نفس اللحظة؟

قال: يا أفندم إن جميع الشكاوى التي تجيء إلينا من الشعب بتعليمات الاتحاد الاشتراكي والتنظيم فإنك تؤشر عليها وتعيدها إلى شعراوى جمعة وعبد المحسن أبو النور للتحقيق.. فأنا لا أعرف ما الذي أفعله.. وأدركت جهاز التسجيل وتلمست لهم العذر. ثم طلبت إلى سكرتيرى أن يعطى الشريط للضابط لكي يعيده إلى مكانه في وزارة الداخلية.. وطلبت من سكرتيرى أن يحضر هذا الضابط لكي أراه ثم رأيت الضابط طه ذكى وقلت: لقد عرفتك الآن، فلا تخف. وأنت آمن تماماً على نفسك.. اذهب وأعد هذا الشريط إلى مكانه.

الساعة ١٠ صباح ١٢ مايو

ذهبت إلى انشاص كما كان متفقاً. وقابلت قوات الطيران وقوات الدفاع الجوي. كان يجلس إلى يميني وزير الحربية محمد فوزى وإلى يساري قائد الطيران حسنى مبارك. الذى اخترته من سنة لمنصبه هذا.. والذى هو الآن نائب رئيس الجمهورية.. ولم يغيب عن بالى لحظة، وأنا أتحدث إلى قوات الطيران عن الوضع السياسى..

لقد أحسست أنهم يسيقوننى.. وتحركوا أسرع منى.. وأننى يجب أن أفكر بسرعة.. صحيح إننى أرى أوضح منهم.. وأعصابى أهدأ. وتفكيرى مركز. وطريقى أوضح.. ولكن أحسست أنهم فتحوا المعركة، فى الوقت الذى كنت أستعد فيه لذلك.. وكنت أتحدث إلى القوات الجوية من صميم قلبى. أما عقلى فكان يعمل بسرعة فى مكان آخر.. وفى اجتماعى معهم قلت عبارتى المشهورة: والله من يخرج على إرادة الشعب فسأفرمه.. وكان من المفروض أن أزور مديرية التحرير فى اليوم التالى. ولكنى أحسست بإرهاق شديد بعد هاتين الزيارتين.

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

ولما عدت من انشاص كان يوم ١٢ مايو سنة ١٩٧١. قد أوصلنى محمد فوزى وزير الحربية كالمعتاد إلى بيتى. وقبل أن أنزل من السيارة قلت لسكرتيرى فوزى عبد الحافظ:
يا فوزى قل لهم يؤجلوا رحلة مديرية التحرير.. فأنا متعب.

وكان مقررا لهذه الزيارة يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١. وكنت حريصا على أن يسمع محمد فوزى ذلك.. فهو واحد من مراكز القوى.. والذي لم أكن أعرفه هو أنهم قد أعدوا لهذه الزيارة منذ أسابيع.. وأعدوا شيئا هاما: اغتيال! وحدث ما توقعته. فقد ذهب محمد فوزى إلى بعض مراكز القوى وأخبرهم أننى أجلت زيارة مديرية التحرير. وانزعجوا لذلك فقد توهموا أننى عرفت ما أعدوه لى هناك. ثم عادوا فرفضوا فكرة أن أدرى بأى شىء. أو أن أعرف كل ما دبروه لى.

كل هذا لم أعرفه إلا من تسجيلاتهم هم!

يوم ١٣ مايو وهو اليوم الكبير

طلبت من إحدى بناتى وهى فى طريقها إلى المدرسة الساعة السابعة صباحا أن تمر على محمد حسنين هيكل وأن تخبره أن يجيء فورا. ولم أشأ أن أطلبه بالتليفون، لأن التليفونات مراقبة.. ولما حضر بعد ذلك سألته عن حصار الإذاعة وكيف عرف بها من المحرر الذى اعتقله جمال عبد الناصر وسجنه هو وزوجته وأفرجت أنا عنه.. فأكد الواقعة.

ومن المضحك أنه، أى محمد حسنين هيكل. كتب مقالا يوم ١٣ مايو ١٩٧١ يفسر هذا الاستدعاء على أنه استنجاد به!!

طلبت من فوزى عبد الحافظ سكرتيرى الخاص: يا فوزى
- أفندم.

اتصل بممدوح سالم محافظ الإسكندرية واطلب منه أن يركب سيارته ويجيء فورا إلى هنا دون أن يتوقف فى الطريق أو يمر بأحد..

الساعة ٨ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

جاءنى ممدوح سالم.

قلت له: يا ممدوح أنا أثق فيك تماما.

قال: شكرا تحت أمرك.

خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو =

قلت: يا ممدوح أنا سأقيل اليوم شعراوى جمعة وقصة شعراوى ومراكز القوى سأرويها لك كاملة.

ورويتها له كلها وبالتفصيل.

وقلت له: يا ممدوح أنا واثق منك. وأريد أن أعرف منك هل تريد أن تدخل معى معركة ضدهم. إذا كنت ترى ذلك فاقعد معى. مع العلم بأننى لا أعرف حتى الآن نتيجة هذه المعركة بوضوح. لا أضمن أى شىء. ولكن أنا طبعى إذا دخلت المعركة لا أخرج منها إلا عند النهاية: نهايتى أو نهاية خصمى!

وبعد أن شرحت له الصورة كاملة قلت: أنا عرضت عليك الوضع. إذا أحببت فادخل معى على بركة الله، وإلا فارجع إلى الأسكندرية فى مكانك. وأنا أشكرك. وأنت آمن تماما. وموضع ثقتى الكاملة.

قال: يا أفندم. أنا معك تماما. والدنيا كلها معك. ولا تفكر فى أى شىء. إنهم بلا قوة. أنا أعرفهم جيدا.. إنهم ورق وقش!

قلت له: تحلف اليمين يا ممدوح وزيرا للداخلية.

قال: أنا جاهز يا أفندم.

قلت: الساعة الرابعة تكون جاهزا لحلف اليمين أمامى وبحضور رئيس الوزراء..

وطلبت سامى شرف، وجاءنى: قلت له: يا سامى.

- نعم.

اذهب لشعراوى جمعة.

وأنا أعرف أن شعراوى جمعة وسامى شرف شىء واحد. وأن شعراوى هو الزعيم وليس على صبرى. فهو الذى يريد أن يستأثر بكل شىء وحده. وأعلم أن على صبرى مكروه من الناس ١٠٠٪.

ثم قلت لسامى: قل لشعراوى جمعة باعتبارك وزيرا لشئون الرئاسة.. يا شعراوى مع السلامة وأكرم لك أن تجعلها استقالة بدلا من أن تكون إقالة.

فانهار سامى شرف. وسامى شرف يعلم جيدا أنه إنسان محدود. وأنه لا يستطيع أن يكون فى المقدمة. وإنما لابد أن يعيش فى ظل أحد.. أى أن يكون الرجل الثانى.. أو الظل لأى أحد.

وامتقع وجه سامى شرف وتساقط أمامى تماما.

وقلت: يا سامى.

- نعم.

القرار صدر.

وأخذ سامى شرف يبكى ويقول: يا أفندم. القرار.. يا أفندم انتظر..

إنه صورة من الغباء.. ولكن اكتشفت أنهم أيضا. وربما مرة واحدة فقط هي التى اثبتوا فيها أنهم على درجة من الذكاء.

هذه المرة عندما طلبت من سكرتيرى فوزى عبد الحافظ استدعاء ممدوح سالم. وكانت تليفوناتى مراقبة. فاجتمعوا، ووصلوا فى استنئاجهم إلى احتمال أن يجرى ممدوح سالم وزيرا للداخلية. وكان ذلك الاستنئاج صحيحا. ولكنهم مع ذلك استبعدوا أن أقدر على خلع شعراوى جمعة.. فقد حالفهم الذكاء فى الاستنئاج، وخانهم الذكاء عندما شككوا فى قدرتى على الإحاطة بشعراوى أو غيره..

وأحسست أن حاستى لم تخنى.. وأنا أعتمد على حاستى السادسة فى الحكم على الرجال. وتصورت أن سامى شرف هذا قد انهيار لأنه مرتبط بشعراوى جمعة.. ولكنه من الممكن أن يرتبط بأى إنسان آخر.. لأنه لا يستطيع أن يقف على رجليه.. فهو كالأطفال التى لم يتم فطامها بعد. وقد صدق حدسى. فلما سألتنى: وأنا أين أذهب؟

قلت: كما أنت!

وبعد أن ضمن مركزه ذهب إلى شعراوى جمعة. واجتمعوا فى القوات المسلحة فى مكتب محمد فوزى وزير الحربية. وحدث فى هذا الاجتماع شىء واحد أذكره لمحمد فوزى من أجل ذلك. يوم أن انتصرنا فى معركة أكتوبر ٧٣ كان أول واحد أخرجه وكرمه.. وهو الآن يعمل فى التجارة حراً آمناً على نفسه وأهله ورزقه..

فى ذلك الاجتماع يوم ١٣ مايو وبعد إقالة شعراوى جمعة زعيمهم كان سعد زايد وزير الإسكان.. وهو واحد من الذين عينهم جمال عبد الناصر فى الوزارة فى مارس سنة ١٩٧٠ مع مركز القوة محمد حسنين هيكل على سبيل إفهام هيكل أنه لا يعدو أن يكون واحداً كهؤلاء ليس أكثر وكان هذا مما أغضب هيكل كما حكى لى بعد ذلك.

== خفايا اليوم الكبير فى ثورة مايو ==

فى هذا الاجتماع طالب سعد زايد بعدد من الدبابات.. ولو عشر دبابات لمواجهة رئيس الجمهورية وإثارة الناس عليه..

وهنا قال له فوزى: لا أستطيع أن أقنع جنديا واحدا بأن ينقل دبابة واحدة من مواجهة إسرائيل إلى مواجهة الشعب المصرى.. لو أصدرت أمرا بذلك فلن يطاوعنسى أحد.. وكل ما أستطيعه هو شيء واحد: أقدم استقالتي!

وقد ذكرت له هذا الموقف فلم يدخل السجن، وإنما دخل مستشفى المعادى حتى أفرج عنه.. وقد استدعيته بعد ذلك إلى برج العرب. ووبخته على ما فعل..

الساعة ٨,٢٠ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

كنت جالسا فى بلقونة البيت والدنيا حارة جدا.. استمعت إلى نشرة الأخبار وجاء فيها خبر استقالة شعراوى جمعة وقبولى لها. وهذا هو المهم. وبعد النشرة جاءنى مركز القوة الأول فى حياة عبد الناصر، والثانى بعده إلى هذا التاريخ محمد حسنين هيكل فى حالة نفسية فظيعة. وعرفت فيما بعد أنه قبل أن ينزل من بيته أوصى زوجته على أولاده.. ولابد أنه جاء إلى بيتي يحتمى فى هذا البيت.. وبعد نشرة الثامنة والنصف مساء يتصل بى سامى شرف ويبكى ويقول: قرار شعراوى جمعة يا أفندم صعب.. صعب!.

قلت له: يا سامى أنت تعبان خذ لك أجازة يومين أو ثلاثة..

الساعة ١٠,٥٧ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

جاءنى أشرف مروان مساعد سامى شرف ومعه خطاب موجه لى باستقالات.

الساعة ١٠,٥٩ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

خطاب استقالات جماعية تضم لبيب شقير رئيس مجلس الشعب، ضياء الدين داود عضو اللجنة التنفيذية العليا وسامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية.. سعد زايد وزير الإسكان، محمد فائق وزير الإعلام.. ومحمد فوزى وزير الحربية.. ووزيرا آخر واثنين آخرين من الاتحاد الاشتراكى على صلة بالاتحاد السوفيتى.

وقلت لأشرف مروان: يا أشرف لماذا لم ترسل هذه الأسماء مبكرا؟..

لكى أقبلها وأنزعها فورا..

== خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو ==

قال: هم يقصدون أن تذايع في نشرة الساعة الحادية عشرة ومحمد فائق وزير الإعلام ينتظر ذلك في مكتبه ثم ينصرف مباشرة إلى بيته لأن استقالته معهم. وانتظرت إلى أن أذيعت النشرة بعد دقيقة واحدة، وفي صدرها الاستقالات..

وطلبت سكرتيرى وقلت له: يذاع في آخر النشرة أنني قد قبلت هذه الاستقالات.. وطلبت ممدوح سالم بعد أن كان قد حلف اليمين. وتسلم عمله. وطلبت منه أن يتحفظ على الذين استقالوا، وأن يتحفظ على صبرى من باب الاحتياط أيضا. وطلبت إليه أن يبلغنى ذلك بعد خمس دقائق..

الساعة ١١,٥ مساء

اتصل بى ممدوح سالم يقول: يا افندم. تحفظت عليهم جميعا.. أسجل هنا تعليقا مضحكا لتوفيق الحكيم.. سمعته بعد ذلك.. وهو رجل لطيف.. وهو يأخذ الأمور من الجانب الساخر قال: دول جماعة سذج. كان أسهل شيء يقومون به هو الاستيلاء على الإذاعة.. ويعلنون أنهم عزلوا السادات.. وعلى ما يرجع السادات.. ويتأكد أنهم لم يفعلوا هذا تكون قد مضت ساعتان أو ثلاث.. وبذلك تتحقق لهم البلبلة المطلوبة.. ولكنهم سذج! والذى يؤكد سذاجتهم أنهم جمعوا أنفسهم في ورقة واحدة.. فى سلة واحدة.. ومن البلاهة ألا أنتهز هذه الفرصة وأتخلص منهم جميعا فى نشرة إخبارية واحدة.. وهنا لابد أن أذكر حادثة معروفة فى الريف.. فهم يقولون أن الثعلب عندما يمتلىء جسمه بالبراغيث فإنه يحار فى التخلص منها.. فيتقلب على الأرض.. ويهرش ظهره فى الحائط وفى الأشجار وفى الأحجار.. وأحيانا ينزل الماء.. ولكن البراغيث لا تموت.. ولذلك هدته الغريزة إلى حيلة ذكية.. وهى أن يظل يجرى فى الحقول يجمع بقايا القطن.. ثم يضع هذا القطن فى فمه.. وينزل إلى ماء الترعة بذيله وببطء شديد.. وكلما اقترب الماء من الذيل.. فإن البراغيث تصل إلى مكان آخر.. ولا يزال الثعلب ينزل فى الماء حتى يغطي كل جسمه ولا يبقى إلا قطعة القطن فى فمه.. فتصعد كل البراغيث والحشرات الأخرى إلى قطعة القطن.. وهنا يلقي بها الثعلب فى الماء.. وقد تجمع كل براغيث مراكز القوى فى قطعة القطن، ولم يكن صعبا إلقاؤهم فى الماء بعد ذلك!

ثم نزلت إلى صالون البيت.. وكنت قد طلبت استدعاء وزير الخارجية محمود رياض.. ولاحظت أن محمود رياض يدافع عن زميله محمد فوزى..

وشرحت له القصة، فلم يكن يدري عنها شيئا..

ووجدت اللواء أحمد إسماعيل أيضا..

أهلا يا أحمد.

- أهلا يا أفندم.

وكان أحمد إسماعيل في المعاش منذ سنتين. لقد فصلوه بصورة شائنة من رئاسة الأركان بعد أن عين فيها بعد استشهاد عبد المنعم رياض. وأحمد إسماعيل هو المؤهل رقم ٢ بعد عبد المنعم رياض.. باعتراف الجميع فصلوه. وأتوا بدلا منه بمحمد صادق لأنه أحد رجالهم وكان يقدم تقاريره بانتظام لسامى شرف.. وطلبت من أحمد إسماعيل أن يذهب إلى المخابرات العامة مديرا لها..

الساعة ٧ صباح ١٤ مايو ١٩٧١

أيقظوني لأن الرئيس جعفر نميري في طريقه إلى القاهرة ليطمئن على الوضع في مصر. ولم يأت الرئيس نميري بطائرة خاصة. وإنما بطائرة عادية. وقد نام في الطائرة. وظللت أنتظره أمام سلم الطائرة نصف ساعة حتى أيقظوه وارتنى ملابسهم. وكنت مرهقا تماما فقد أويت إلى فراشي متأخرا. وكما هي عادتي لا أتعاطي الحبوب المنومة. ولكنني صحت في هذه الساعة المبكرة.

شكرا للرئيس جعفر نميري جاء يطمئن وملأت قلبه بالطمأنينة على كل شيء..

واتجهنا معا إلى سراى القبة التى نزل بها. وكنت مشغولا بتشكيل الوزارة الجديدة وعندما التقطت لنا الصور بعد حلف اليمين. كان الرئيس نميري واقفا بيننا..

وعند الظهيرة بلغنى خبرا غريبا.

لقد اجتمع مجلس الأمة وعزل رئيسه لبيب شقير و ١٦ عضوا آخرين. وقد أسعدنى هذا الخبر وأذهلنى. وكان مفاجأة تامة. ولم يكن فى حسابى مطلقا. فقد كان من الضروري موافقة ثلثى أعضاء المجلس على هذا القرار وأشهد أن مصطفى كامل مراد. الذى هو اليوم زعيم المعارضة، كان وراء هذا الموقف كله.

وكانت سعادتى لا حد لها...

وانتهت أكذوبة «الانهيار الدستورى» الذى أرادتسه مراكز القوى: بأن يستقيل هذا العدد من الوزراء.. ويستقيل رئيس مجلس الشعب.. ويستقيل آخرون.. فلا يبقى إلا رئيس

الجمهورية وحده.. وظن هؤلاء السذج أن الدنيا قد انتهت.. وأن هذا هو الطوفان الذى ليس بعده شىء.. ولم يكن طوفانا وإنما كان زوبعة فى فئنان كما وصفتها. ثم تلاشت.. فقد كان الناس متوهمین أن لهم وزنا وحجما أكبر بكثير جدا من حقیقتهم..

وقد تساءل كثير من المؤرخین وآخرهم هذا المؤلف الإيطالى الذى أصدر کتابا بعنوان «تحديات السادات» كيف استطعت أن أواجه كل هذه القوى وحدى.. كيف كان هذا التحدى!

وعلى أى أساس كان عندى هذا یقین بأننى سوف أتغلب علیهم فى النهاية؟

لا أدعى العبقرية الفذة.. ولكن أقول صادقا أنى لم أكن وحدى.. فقد كان الله معى. وإيمانى بالله وبأنه لا یصح إلا الصحیح هو سندی الأكبر.. وأن الشعب بإحساسه الصادق هو الذى جعلنى أستاذ إلیه.. ثم إن عندى حاسة سادسة.. لا أعرف كيف أسمیها، هى التى كانت تلهمنى حساب تقدير الرجال.. أو كانت توضح لى حقيقة العلاقات المعقدة والصور المهزوزة لأناس كثيرین فى كل مكان.. ثم إن الأيام والشارع السیاسى الذى أمضیت فیہ ٢٩ عاما. قد علمنى الصبر. وعلمنى مع الصبر الاحتمال. ومع الإیمان أن الله لا یضیع أجر من أحسن عملا.. ثم إننى تفادیت ما نصحنى به كونیفوشیوس ألا أراحم أحدا.. وألا أدوس الناس والقیم والمبادئ فى هذا الزحام.. والحمد لله الذى نصرنى وأعزنى بمصر، وأعزها بى أيضا.

١٥ مايو ١٩٧١

اتصل بى اللواء أحمد اسماعیل قائلا: تمام یا افندم

أیوه یا أحمد..

— عندى شنة بها كل التسجيلات.. القصة كاملة.. وكان فى نیتهم أن یحرقوها. وجاءت الشنة التى تضم قصة ١٥ مايو.. قصة مراكز القوى كلها.. من صنعهم هم.. أما أنا فلم أسجل لأحد.. ولن أسمح لأحد.. اللهم إلا أجهزة الأمن ولا اعتبارات من أجل الصالح العام بأمر من القاضى، وهو ما یحدث من وقتها إلى الیوم..

وأدرکت مرة أخرى أننى كنت على حق عندما طلبت التحفظ على صبرى أيضا.

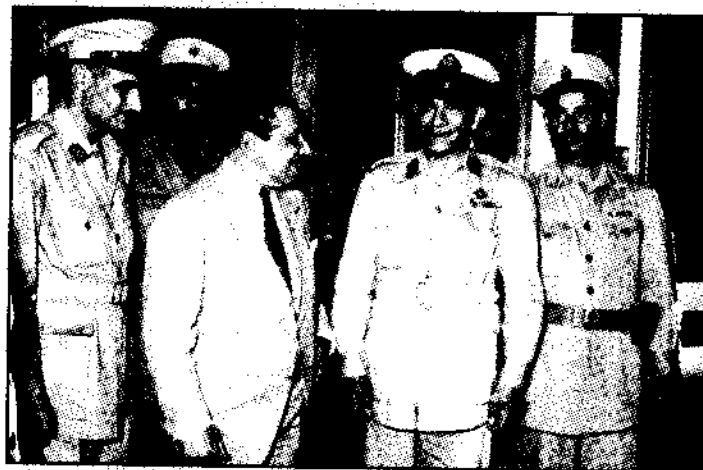
وفى هذا الیوم قال الشعب كلمته.. أروع كلام.. إنها نفس جموع ٩ و ١٠ یونیو سنة ١٩٦٧..

جموع متدفقة سعيدة فقد عانت وتعذبت وتمزقت.. وقد وعدتها بأنه لا سلطة لأحد على

أحد إلا بالقانون.. لا إرهاب ولا تعذيب ولا إذلال.. وانفتح الطريق إلى أكتوبر ٧٣ وما بعده

من إنجازات من أجل مصر وكرامة الإنسان فى مصر وفى البلاد العربية..

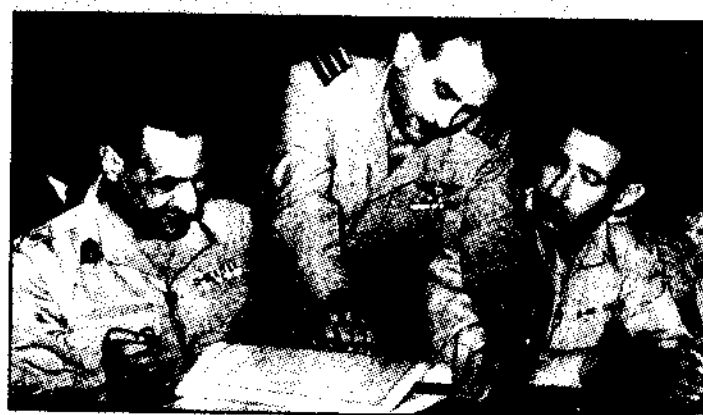
١ - علي ماهر ومعه
الرئيس الراحل محمد
نجيب وعبد الناصر
والسادات .



٢ - محمد نجيب
وعبد الناصر .



٣ - علي صبرى يقف
بين عبد الناصر وعبد
الحكيم عامر في السنوات
الأولى للثورة .





٤ - صورة للبكباشي
جمال عبد الناصر وهو
ينزل من السيارة في طريقه
إلى مقر مجلس الثورة .



٥ - الرئيس السادات
والليثي ناصف .



٦ - الرئيس السادات مع
الرئيس السوداني جعفر
نميري .

٧ - أشرف مروان كاتم
أسرار السادات ومبعوثه
الخاص في كل مكان .



٨ - مصطفى كمال
أتاتورك .



١٠ - د. محمود رياض



٩ - الفريق محمد فوزي

مصر من ملكية إلى جمهورية



- كيف جعل فاروق الصغير يده مسجدا
للزعماء؟
- أربع وزارات أسقطها الملك على رأس
الشعب.
- الرغبة السامية والإرادة السنية
والتوجيهات الملكية كانت جواز المرور
لما تريده العاشية.
- وزير الأوقاف ونقيب الأشراف يصدران
صكوك غفران للملك.

عادتني أن أقوم بتبسيط الأشياء لنفسى، لكى أراها أوضح، فإذا رأيتها، كنت قادرا
من على أن أنقلها للآخرين..
أى إنه شرط أساسى لكى أكون مفهوما عند الآخرين، أن أكون فاهما
لأية مشكلة..

وكما ذكرت كثيرا، فقد تنبعت للأمور السياسية فى سن مبكرة. فقد كنت أقرأ عن
السياسة وأنا ما أزال فى العاشرة ثم اشتغلت بالسياسة وأنا فى العشرين، وبعد ذلك ساهمت
فى السياسة وصنعها .. وفى جميع هذه المراحل كنت أقرأ وأجمع المعلومات وأحشد
نفسى .. ولقد أعجبنى تعبير جميل يطلقه الباحثون العرب القداماء على أنفسهم، فلا يكاد
الواحد منهم يتهاى لتأليف كتاب أو بحث موضوع حتى يقول عن نفسه: لقد احتشد له.. أى
حشد كل قواته، كأنه جيش مقدم على معركة.. وأرى أن هذا التعبير دقيق. وأعتقد أننى
- لا شعوريا - كنت أحتشد لشيء ما لا أعرفه.. المهم أننى كنت حريصا على أن أفهم
ما يجرى حولى من الأحداث التى أقرأ عنها، وأرى صداها فى الشارع وفى المقاهى والبيوت
والمدارس والمظاهرات، وأعتقد أنه جاء وقت كنت أثور وأهتف وتمتد يدي إلى الطوب فى
الشوارع، دون أن أعرف بوضوح ما هذا الذى أثور ضده.. وكل ما أعرفه فى شبابى المبكر جدا
أننى ضد الانجليز .. وبعد ذلك كنت ضد من يقف مع الانجليز أو يقف معه الانجليز.. أى
من يريد أن يكون للانجليز وجود فى مصر..

ودون أن أدخل نفسى فى تفاصيل كثيرة، وكلها معروفة عند كل المواطنين فى مثل سنى،
فقد كانت الصورة التى بسطتها لنفسى واضحة: أن قوة الجذب فى مصر وفى العشرينات
والثلاثينات، من بعد ثورة ١٩١٩ مباشرة، كان الانجليز. هم القوة الحقيقية. وهم مصدر
القوة والشرعية فى مصر. فالذى يريد أن يحكم فلا بد أن يقترب منهم. فإذا فعل فقد دانت
له الدنيا واتسعت له مقاعد الحكم، وأمام الانجليز، وضدهم أحيانا، كان العرش.. وليس
العرش والانجليز على وفاق دائما.. وإذا اتفق الطرفان ضد الشعب .. وضد أن يكون للشعب
صوت وصدى. وأن تكون للشعب أية مطالب أو حقوق..

وبين الانجليز والملك توجد الأحزاب.. حزب الأغلبية وأحزاب الأقلية .. أما الأغلبية فكانت تقف ضد الملك أحيانا، وأكثر الأحيان مع الانجليز. ولذلك لم يكن الملك يجد أمامه إلا أحزاب الأقلية. فلأن هذه الأحزاب تفتقر إلى القوة الجماهيرية، فإن الملك يسند لها ويعطيها ما ليس لها وما لا تستحق..

واستمرارا في تبسيط الأمور أيضا. كان الانجليز في الثلاثينات - بصفة خاصة - قد أعلنوا سياسة الحياد.. أى سياسة التفرج على ما يجرى فى مصر دون أن يتدخلوا فى شىء.. والذى يجرى فى مصر هو: الأحزاب تقف مع الملك أو ضده .. أو تقف مع الانجليز أو ضدهم.. وكانت بريطانيا تعلن أنها لا تتدخل فى شئون مصر: لا فى شئون الأحزاب ولا سلطات الملك ولا تفرض على الشعب المصرى ما لا يريد.. والحقيقة غير ذلك تماما. فالانجليز هم أصحاب سياسة: فرق تسد .. أى التفريق بين الفاس أو بين الطبقات أو بين السلطات، وتمزيق الشعب، ليصبحوا قادرين بعد ذلك على أن يسودوا.. وقد سادوا عشرات السنين، وفى بلاد كثيرة.. ووزير خارجية بريطانيا صمويل هور، هو الذى قال عن موقفه من التغييرات الدستورية فى مصر: إنهم استشارونا فنصحناهم! وكان يدفع عن نفسه وعن حكومته أنه يتدخل فى تعديل الدستور المصرى.

وهو لم يزد على تكرار السياسة البريطانية المزعومة. والحقيقة أنهم لم يستشيروا بريطانيا فنصحتهم، وإنما هم أخبروها فأمرتهم..

وأذكر أن الناس فى مصر قد أعجبتهم وبهرتهم فكرة الحياد.. أو الحيادة البريطانية. فلما اكتشفوا بعد ذلك أن بريطانيا لم تكن قط على الحياد، أزعجهم ذلك. وصدموا.. وهذه الصدمة - فى ذاتها - تدل على طيبة الناس وسذاجتهم. إذ كيف يخطر لهم ببال أن بريطانيا لا تكذب. بل إن شاعرنا حافظ إبراهيم قد نظم عددا كبيرا من القصائد. وكلها ذات معنى واحد: أن بريطانيا خدعتنا فكذبت علينا. وأنها ليست محايدة مطلقا:

كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا
ضربتم حول قادتنا نطاقا من النيران يعيى الدارعينا

ثم يتوعدهم حافظ إبراهيم بمصير نابيلون ونفيه فى جزيرة سانت هيلانة، ويكرر المعنى مع هذه الدهشة البريئة من أنهم يكذبون:

أمحايد أم حـائـد عن منهج الحق المبين
نازلت شعبا أعزل بمدرعين مدججين

وأمنت عقبي الظالمين ولبئس عقبي الظالمين
إننا بجبار السماء وبالعقيدة نستعين
أأمنتمو صرف الزمان، وفتكه بالفاشمين
كم من قوى هدّه كيد الضعيف المستكين
أو لم تروا ما ذاقه بالأمس ذياك السجين
فى «سنت هيلين» قضى من دوخ الدنيا سنين
من كان فى غاراته فى الكون منقطع القرين
أمسى ألاته الخطوب، وكان صلبا لا يلين
أو تتقون مصيره أم لستم بالمتقين!

وحافظ إبراهيم نسى أن الانجليز هم الذين نفوا نابليون .. ولكنه - بكل طيبة وبراءة -
يدعو عليهم بأن يلقوا نفس المصير!
ويقول أيضا:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام
سفكت مودتنا لكم وبدا لنا أن الحياد على الخصام لثام
لم يبق فينا من يمنى نفسه بودادكم فودادكم أحلام

وهو فى هذا البيت الأخير بعيد عن حقيقة ما يجرى فى مصر.. فهناك كثيرون يحلمون
لا بمودة بريطانيا وإنما بما دون ذلك بكثير جدا.. فقد كان موظف صغير فى السفارة
البريطانية هو أمل السياسيين فى مصر.. موظف صغير اسمه مستر سمارت يعمل سكرتيرا
شرقيا. وكان لقاء مستر سمارت هذا منتهى أمل الزعماء السياسيين فى مصر. وكان يكفى جدا
أن يبتسم لأحد أما إذا دعاه إلى الإفطار، فقد انفتحت له أبواب السماء.. أما إذا لمس كتفه
أو ذراعه ونشرت الصحف ذلك فسوف يتلقى البرقيات وتنهال عليه التليفونات هكذا كانت
تقول الصحف فى ذلك الوقت وفى ٩٩٪ من مثل هذه الحوادث السعيدة. يكون مصير الزعيم
السياسى الذى نال الرضاء السامى أن يجىء وزيرا أو رئيسا للوزراء..

وكان الملك فؤاد وفاروق بعد ذلك، يلتقى بالوزراء أو برئيس الوزراء إذا كلفه بتشكيل
الوزارة وهذا طبيعى. ولكن ليس من الضرورى أن يلتقى السفير البريطانى بواحد من هؤلاء.
إنه كان يكتفى بأن يلقاهم السكرتير!

وأخيرا يقول حافظ إبراهيم أيضا، وتنتشر له الصحف ذلك، بما يدل على أنه يعبر عن
الرأى العام فى ذلك الوقت:

لقد طال «الحياد» ولم تكفوا أما أرضاكم ثمن الحياد؟
أخذتم كل ما تبغون منا فما هذا التحكم فى العباد
بلونا شدة منكم ولينا فكان كلاهما ذر الرماد
وسالتم وعاديتم زمانا فلم يغن المسالم والمعادى
فليس وراءكم غير التجنى وليس أمامنا غير الجهاد

أما لعنات حافظ إبراهيم لاسماعيل صدقى الذى عطل الدستور وعادى الشعب واستكان
للملك فهى شئ طريف يبعث على الضحك، يقول حافظ إبراهيم:
ودعا عليك الله فى محرابه الشيخ والقسيس والحاخام!

وكان حافظ إبراهيم شاعرا طريفا ووطنيا مخلصا. ولكن إدراكه السياسى لم يتعد هذا الفهم
البسيط لمبادئ السياسة فى زمانه، وللسياسة البريطانية بصفة خاصة.. أو لم يكن يعرف
الخريطة السياسية فى ذلك الوقت ولكنه كان محبوبا وكان حديث الناس جميعا إذا أنشد
قصيدة أو إذا نشرتها له الصحف. وكنت - مثل كثيرين - أحفظ شعره وأدونه، ولكن كنت أرى
فيه نوعا من السلبية.. لأنه فقط يستنكر ويتفرج. ومثل حافظ إبراهيم كثيرون أيضا.

وفى هذه الظروف السياسية فى مصر نجد أن للفرد دورا هاما.. أما الشعب فيجىء دوره
متأخرا بضع خطوات. وكان الفرد فى ذلك الوقت هو الملك أو هو السفير البريطانى أو الزعيم
السياسى. ولذلك فمن الضرورى أن ألفت كثيرا وطويلا إلى هؤلاء الأفراد الذين أثروا فى
الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر.

فمن المؤكد أن السفير البريطانى سير مايلز لا مېسون - الذى أصبح بعد ذلك لورد
كليرن - كان له دور خطير وشرير فى تسيير السياسة المصرية، وقد كافأه تشرشل على ذلك
بأن منحه لقب لورد.. هذا الرجل جاء من الصين. وقد أفلح فى أن يعقد معاهدة بين الصين
وبريطانيا. وكان نموذجا كاملا لرجل الإمبراطورية، أو الرجل الاستعمارى بمعنى الكلمة..
وقد عاونه فى صياغة السياسة المصرية الخارجية والداخلية والمعاهدات رجل اسمه مستر
بكيت.. هذا الرجل كان أستاذا فى صياغة المعاهدات ووضع التراكييب التى يحار العقل فى
تفسيرها.. فإذا حار استغرق وقتا طويلا فى شرحها وتفسيرها وتبريرها وتعديلها.. أى إن

== مصر من ملكية إلى جمهورية ==

مثل هذه الصياغة قادرة على أن تجعل المفاوضات بشأنها مستمرة. وهذا يضمن للانجليز وجودا أطول وأعرض وأعمق..

وقد جاء السفير البريطاني لامبسون هذا في أوائل سنة ١٩٣٤.. وكانت مصر قد شبت غضبا وسخطا على إسماعيل صدقي، وعلى دستور سنة ١٩٣٠ الذى نسف دستور ١٩٢٣.. ولذلك فإن إعادة دستور سنة ١٩٢٣ بعد ذلك كان يعتبر خطوة صاعدة فى طريق السيادة الوطنية فى مصر..

ولكى يتدارك الانجليز الموقف فى مصر، بعد الارتباك الذى أحدثه إسماعيل صدقي واللعب بالدستور، أرسلوا مايلز لامبسون ليعد لهم المعاهدة الجديدة التى تربط البلد بهم.. وفى ذلك الوقت كان حزب الوفد هو حزب الأغلبية. وكان فى عفوانه ولم يكن قد بدأ ينزل عند رغبات الانجليز أو الملك، أو يتدحرج فى التنازلات إلى غير نهاية.. فقد كان الوفد، ككل الأحزاب الأخرى، يرى أن الانجليز هم مصدر السلطات.. ولم يدر ببال أحد فى ذلك الوقت أن الانجليز يجب أن يخرجوا. وأن الملك يجب أن يذهب. وإنما الصيغة السياسية التى كان يجتهد الجميع فى شرحها هى كيف يحققون نوعا من التوازن بين العرش والسفارة البريطانية.. ولكن التخلص من الاثنين لم يكن قضية واردة أو مطروحة فى ذلك الوقت.. وكان الانجليز يعرفون ذلك بوضوح، ولكن تحاربهم السياسية الطويلة قد جعلتهم يفكرون فى انتقاء رجالهم الواحد بعد الآخر..

ولابد أن المعاهدة التى عقدتها بريطانيا مع مصر ومع وزارة الأغلبية سوف تدخل تاريخنا السياسى من أبواب متعددة: فقد وصفها مصطفى النحاس باشا بأنها معاهدة الشرف والاستقلال. وقد شغل المؤرخون أنفسهم كثيرا بمدلولات الاستقلال والشرف فى ذلك الوقت.. ولا بد أنهم قد انتهوا إلى أن الشرف نسبي كاستقلال تماما.

ولكن الغلطة فى مثل هذا التفسير أن الشرف ليس نسبيا كاستقلال تماما. لأن الاستقلال معناه حرية الإرادة فى اتخاذ القرار دون تدخل من أية قوة أجنبية. وأن هذا أيضا هو استقلال الإرادة.. ولكن أية قراءة جديدة لهذه المعاهدة تؤكد أن الإنجليز ياقون. صحيح أن فيها نصا يبعث على الضحك. هذا النص يطلق حرية بريطانيا فى أن تحلق فى أجوائنا بطائراتها دفاعا عن مصر والقناة والطرق الامبراطورية. لما كانت مصر وبريطانيا دولتين مستقلتين وكل منهما ند للأخرى فمن حق الطائرات المصرية أن تحلق فى الأجواء البريطانية أيضا! وغلطة أخرى

خطيرة في مفهوم الاستقلال، هي أن بريطانيا هي التي تعطينا الاستقلال أي إن الاستقلال منحة من بريطانيا، كما كان الدستور منحة من الملك! فكل شيء يأتي من فوق.. الانجليز يعطوننا الاستقلال. أي يتفضلون مشكورين بأن يعطونا الاستقلال. وهذا فضل يضاف إلى فضل آخر هو أنهم كانوا يحكموننا ويتحكمون فينا!

وكان المعنى العام للسياسة البريطانية في ذلك الوقت: أنه يكفيننا شرفا وفخرا أن الانجليز يحتلون أرضنا ويفكرون لنا. ولكن الاستقلال لا يعطيه أحد لنا. وإنما نحن الذين نأخذ بالقوة وبالدم. ومن أجل ذلك كان الفوز به شرفا، بل أكثر من الشرف، لأن الاستقلال حياة، وكانت مثل هذه الحياة هي الكرامة المرادفة للحياة وكانت هذه المعاني هي التي تملأ رؤوسنا ونحن صغار.. ونحن شباب. ونحن رجال.. ومن أجلها هانت، وسوف تهون حياتنا!

ولما حصل مصطفى النحاس على معاهدة الشرف رجع إلى مصر وأعلن في البرلمان هذا الانتصار العظيم، وهاجم بعنف كل الذين هاجموا.

وهنا يجب أن يلتفت السياسيون والمؤرخون أيضا إلى الأفراد الذين أثروا في مسار الأحداث في ذلك الوقت. ولابد أن يأتي الملك أحمد فؤاد في مقدمة هؤلاء. فكما ذكرت، كان واضحا لنا ونحن شبان صغار ونحن رجال بعد ذلك: أن قطبي السياسة في مصر هما السفير البريطاني والملك..

وقد وضعت بذور لمشاكل كثيرة في تاريخ مصر في عهد الملك فؤاد. الذي حكم حوالي ١٩ عاما من سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٣٦. وهو الابن السادس للخديوي إسماعيل.

وقد تعلم الملك فؤاد في مدارس إيطاليا والتحق بكلياتها العسكرية. ودخل الجيش الإيطالي في سلاح المدفعية، ثم كان لابد أن يسافر إلى تركيا ليكمل تعليمه أو تربيته السياسية والعسكرية هناك أيضا. ومن الطبيعي أن يعرف السلطان ورجال البلاط. وقدمه أبوه الخديوي اسماعيل إلى السلطان عبد الحميد. وقد عينه السلطان سفيرا له في النمسا وبقي هناك سنتين. ولما عزل أبوه الخديوي إسماعيل، وجاء الخديوي عباس الثاني ليجلس على عرش مصر سنة ١٨٩٢ استدعاه وعينه كبيرا للياوران فالملك فؤاد - إذن - رجل على قدر كبير من الثقافة والتجربة السياسية.

وقد تزوج مرتين، في المرة الأولى تزوج الأميرة شيوكار إبراهيم، ابنة الأمير إبراهيم أحد أحفاد إبراهيم باشا الكبير.. وطلقها بعد أن اعتدى عليه أخوها.. وكان مجنوناً وأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية في إنجلترا وظل به ٢٧ عاما ثم هرب منه بعد ذلك.

ولما ولى عرش مصر تزوج نازلى بنت عبد الرحيم باشا صبرى، وفى سنة ١٩٢٠ أنجبت له فاروق والأميرات فوزية وفايزة وفائقة وفتحية. وعلى الرغم من المزايا الشخصية الفكرية للملك فؤاد، فقد كانت أمامه تحديات كثيرة من الانجليز والباشوات والحاشية والأحزاب والشعب.. ثم إنه أولا وأخيرا حاكم يريد أن يكون مطلقا. وهناك كثيرون قد شجعوه على ذلك.. أما كيف تولى فؤاد الحكم فقد كان ذلك فى نفس اليوم الذى توفى فيه السلطان حسين كامل فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧. فقد أبلغه الانجليز: «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى، على أن يكون لورثتكم من بعدكم حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم».

أى إن الحكومة البريطانية، وبمنتهى البساطة والوضوح، هى مصدر ولاية العرش.

وضاق الناس بتعيين الانجليز للسلطان فؤاد على عرش مصر..

ولم يكن فؤاد يجد حرجا فى أن يعينه الانجليز. المهم أن يتربع أو ينام على العرش، وابنه من بعده. ولذلك فقد أعلن فى أول خطاب بعث به إلى حسين رشدى رئيس الوزراء: «إنه بسبب وفاة سلفنا وأخيها المحبوب المغفور له السلطان حسين الأول.. قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية، على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية..»

وظل السلطان فؤاد، أو الملك فؤاد بعد ذلك، مخلصا للدولة التى عينته والتى حمته - وإن لم يكن مخلصا تماما فقد كان ضعيفا أمامها. وكان إذا وقف إلى جانب الشعب فلنكى بضاييق الحكومة البريطانية.. ولكن عندما كان يقف مع الشعب فى صياغته للدستور أو عودته، كان يقصد مسaire التيار العام، وأن يستعين بأحد أو بأى قوة أخرى ضد الانجليز.. ولكنه - كالانجليز تماما لا يريد للشعب أن يقف على قدميه.. أما سنوات حكم فؤاد فقد شهدت كل المحاولات الشعبية والجهاد من أجل الاستقلال ومن أجل الشرعية الوطنية والدستورية.. وفى نفس الوقت ظهرت كل أساليب القمع والردع.. وكل محاولات القضاء على الروح المصرية الثورية..

وإذا كانت فى هذه المرحلة «جواهر» كثيرة، ففيها «وحل» كثير أيضا.. وفيها هوان من حزب الأغلبية وباشواته أيضا وفيها رقاب انكسرت على يدى الجالس على العرش.. وفيها ظهور تقوسات أمام موظف صغير فى السفارة البريطانية.. وفيها أكبر غلطة فى فهم

الاستقلال.. وأبشع غلطة فى أن يتصور الناس أن السفارة البريطانية بديهة باقية .. وأن الجالس على العرش مهما كان فاسقا فهو كالفارس البريطانى باقى إلى الأبد.. وقد انتقل الصراع على أيام فؤاد لينمو ويزدهر فى عصر ابنه الطفل الملك فاروق الذى ولى العرش ولم يتم السابعة عشرة من عمره.. وإذا كان فؤاد صاحب ثقافة وتجربة، فقد جاء ولده بلا ثقافة ولا تجربة.. وإذا كان فؤاد فى حجم العرش الذى جلس عليه، فقد جاء فاروق أصغر من العرش.. ولأنه صغير، ولأن الذين حوله كبار أشرار، فقد تعقد والتوى حتى سقط وسقطوا!

وكان الخريطة السياسية لمصر فى ذلك الوقت مكتوبة «بحبر سري» إذا تعرض للبخر الساخن، فإنه يبدو واضحا بارزا.. وكان البخار الساخن هو موجات السخط والغضب فى عهد الملك فاروق.. كان الملك فاروق نفسه عدسة مكبرة وضعت على عيني التاريخ فرأى كل حروف الثورة المصرية بارزة.. كان الملك فاروق «ميكروفسون» وضع على قلب مصر، فأصبحت دقاته ضربات مدوية، وأصبح مسار الدم فى عروقها هديرا صاخبا.. وإذا كان لأحد من فضل فى أن ترى مصر عيوبها وتصرخ، وإذا كان لأحد الفضل فى أن يوسع الهوة بين السراى والشعب ويمعقها ويسقط فيها: فالفضل يرجع إلى فاروق طفلا وشابا ورجلا.. فقد كان مثل كرة الجليد التى تتدحرج، فإنها تزداد حجما كلما أمعنت فى الانطلاق..

إن فيلسوفا فرنسيا اسمه كارتو عندما أراد أن يفسر كيف تتلاقى الصدف والمفارقات فى التاريخ وصفها بأنها كرة من القطن المبلل بالبئزين اصطدمت بنار مشتعلة.. فاشتعلت الكرة أيضا..

أى إنه يريد أن يقول: إن هناك - دائما - مسارين للأحداث.. وفجأة يلتقى هذا المسار وذلك المسار.. تماما كما تلتقى الكرة المبللة بالبئزين بنار ساكنة فى مكانها.. ولكن عيب هذا الرأى أنه يجرى التاريخ - وهو سجل كفاح الشعوب من أجل المزيد من حريته - من الإرادة الإنسانية.. ويجعل التاريخ سلسلة من المصادفات.. تماما كما يتصادف أن يمر الإنسان فوق لغم.. فيموت.. ولكن المصادفة كثيرا ما حدثت فى التاريخ وغيّرت مصائر الناس. غير أنه من الممكن أن تقع المصادفة لأحد، فلا يدري كيف يستفيد منها، أو كيف يدفعها مرة أخرى فتعمل لحسابه - وفى حياتى مصادفات ومفارقات كثيرة. وسوف أجملها فيما بعد.. فهذا الشاب فاروق قد حاول أبوه أن يجعله شيئا مختلفا. فهو لم يبعث به إلى تركيا ليتعلم

== مصر من ملكية إلى جمهورية ==

العسكرية. أو السياسة فيها.. ولم يبعث به إلى ألمانيا أو حتى أمريكا. فلم يكن ذلك في استطاعة أبيه في ظل الإنجليز الذين عينوه على مصر - أى عينوه على مصر وفى نفس الوقت وظفوه عندهم ليعمل لحسابهم - ولم ينس الملك فؤاد هذا الفضل العظيم للإنجليز ، عليه وعلى ذريته من بعده.

ولم يضع الإنجليز وقتا. فقد التقطوا هذا الابن الصغير وأركبوه مدمرة حربية وسافر بها إلى بريطانيا. وفى هذه المدمرة الكثير من المعانى.. فهى سفينة مسلحة.. أى إنها هى الدرع الأمانة التى تحميه.. وقد خلق له الإنجليز أعداء كثيرين وخلق هو أيضا لنفسه، ليتكفل الإنجليز بحمايته من أعدائه ومن نفسه. ولم يكن فاروق هو المقصود بالحماية، وإنما المصالح البريطانية.. ولكن الملك فؤاد كان حريصا منذ البداية على أن يتعلم ابنه أحسن وأفضل. ولذلك وافق على دراسته فى بريطانيا. وأرسل معه رجلين.. أصبح الرجلان ثلاثة وأربعة وخمسة وعشرين بعد ذلك.. كلهم تعاونوا على تربيته أسوأ تربية، وعلى تكوينه أخطر تكوين.. إلا رجلا واحدا هو عزيز على المصرى.. وهو الأب الروحى لنا، نحن الشباب الثائر، وعزيز على المصرى شخصية مصرية فذة. وشخصية عربية قومية. وقد درس العسكرية فى تركيا. وحارب مع مصطفى كمال أتاتورك وله سجل سياسى عظيم، يفخر به ونفخر نحن أيضا. ويوم يشار إلى عزيز على المصرى فسوف يقال: كان زعيما عربيا قوميا. وهو فى نفس الوقت مصرى وطنى صميم. وإلى جانب مفاخره أيضا أنه حكم عليه بالإعدام.

ولم أكن أعرف عزيز على المصرى هذا. ولكننى أعجبت به. ورأيت فيه صورة من صور البطولة والشجاعة والصدق. وتمنيت أن أعرفه. وعرضت فكرتى هذه على الشيخ حسن البنا. ورتب لى موعدا معه. فكان لابد أن أذهب لعيادة دكتور إبراهيم حسن، وكيل الإخوان المسلمين.. وكانت له عيادة على ناصية شارعى المبتديان والسيدة زينب. وذهبت. ودخلت. وقابلت الممرض. ودفعت له ثمن التذكرة، وأدخلنى للطبيب، ولما ذكرت له اسمى فتح لى بابا ودخلت لأجد نفسى أمام عزيز على المصرى!

ولم أر د. إبراهيم حسن بعد ذلك. فبعد قيام الثورة ذهبت إلى جامع عمر مكرم لأعزى فى صديق. ووجدت وجوها غير التى توقعت أن أراها. ولما سألت عن الفقيد قيل لى إنه د. إبراهيم حسن. وكانت مفاجأة مؤلمة. فقد كان الرجل طبيبا مخلصا، ولو عرفت أنه هو الذى مات لذهبت إلى أهله وعزيتهم فى بيتهم قبل أن أجيء إلى جامع عمر مكرم.. وكان الغرض من سفر عزيز على المصرى مع الأمير الطفل فاروق أن يعلمه «الانضباط» العسكرى والأخلاقي. أى

== مصر من ملكية إلى جمهورية ==

الغرض هو وضعه فى قوالب نظيفة. لأنه ليس طفلا عاديا، وإنما هو طفل ملك. وغيوبه تعود بالوبال على مصر، ومزاياه ترجع بالخير عليها وعلى شعبها..

وحاول عزيز على المصرى كثيرا جدا. وقد سمعت منه أعجب القصص وأغربها عن مجاهداته مع فاروق وأحمد حسنين. وفجأة وجد عزيز على المصرى أن الملك فؤاد قد استدعاه إلى مصر. ولابد أن يكون سبب ذلك شكوى فاروق، وأحمد حسنين من الجدية والصرامة التى يعامل بها الملك الصغير. فكثيرا ما ذهب عزيز على المصرى ليوقظ الأمير صباحا، فيجده مخمورا. وعندما يسأله: متى عاد سموكم ليلة أمس؟

فيقول له: الساعة الثالثة صباحا.

- ولكن كيف؟

- هكذا!

- وسوف تفعل كذلك كل يوم.

- أعتقد ذلك..

ويكون مثل هذا الرد دليلا على أنه لا معنى لأن يتشبث عزيز على المصرى بالخطة التى وضعها لجعل من الطفل الناعم شابا صلبا، ليكون بعد ذلك ملكا رجلا قويا!

وإذا نظر عزيز على المصرى إلى أحمد حسنين يعتب عليه كيف سمح لهذا الأمير الصغير بأن ينهار ويسقط فى الوحل هكذا. يكون رد أحمد حسنين: إنها إرادته السامية.

ويسأله: ولكن أين واجبك!

ويكون الرد: واجبى أن أطيعه!

ومعنى ذلك أن واجب عزيز على المصرى أن يطيع الأمير أيضا.. ولم يكن عزيز المصرى، بتاريخه وشخصيته وكرامته، ليقبل مثل هذا الهوان. فلما استدعاه الملك فؤاد، أجابه دون أن يدري إلى أعز أمانيه.. ولابد أن يكون فاروق وأحمد حسنين والإنجليز هم الذين شكوا من عزيز المصرى ومن تشده وتسلطه على الأمير الصغير! ولذلك فأحمد حسنين هو أول من أفسد هذا الغلام حين أطاعه واستسلم له. وراح يحميه ويدافع عن حماقاته... فقد اشترى أحمد حسنين رضا الملك بأى ثمن. ولو كان ذلك الثمن أن يتحول من مدرس إلى مرشد فى كباريهات وسهرات لندن الحمراء. وبعد أحمد حسنين جاء كثيرون أضافوا لمسات عنيفة إلى شخصية

===== مصر من ملكية إلى جمهورية =====

فاروق ولذلك فعندما جاء فاروق إلى مصر بعد وفاة والده كان على استعداد تام لأن يكون فاسداً منحلاً. وكل ما ينقصه أن يجد التشجيع من أحد. والذين شجعوه قالوا: أنت الملك أنت إرادة الشعب. أنت إرادة الله. الكلمة الأولى والأخيرة لك. ولا صوت يعلو على صوتك. وأنت العالم الأول والعامل الأول. والمؤمن الأول..

ولم يكن فاروق في حاجة إلى مجهود كبير من أحد ليكون كل هذه الصفات ثم يفرضها على الناس ويصدقها قبل أن يصدقوها. ولم يصدقها إلا الطامعون في السلطة.. وما أكثرهم بين الأغلبية وبين الأقلية أيضاً!

وعند وفاة والده الملك فؤاد استدعى فاروق على عجل ليكون ملكاً على مصر. جاء صغيراً دون السابعة عشرة من عمره. ولكن مصر كلها انتظرت مقدم الشاب اللطيف الوسيم المحبوب - والذي أحبه الناس، أحبوا أن يكون أملهم في حياة أحسن. أى أن يكون أحسن من والده الذى طغى وبغى.

وانتظرت مصر بكل شعبها مقدم الملك فى الأسكندرية. ووقف الناس على جميع محطات السكك الحديدية بين الأسكندرية والقاهرة. وكان استقباله شعبياً ومن القلب.

فقد أحس الناس بفطرتهم، أنه من الممكن أن يكون أبوه فاسداً، وألا يكون هو كذلك.. أو يكون تعويضاً عن فساد والده وأنه ليس من العدل أن يأخذه بجريرة أبيه. وكان الناس مخلصين ومتسامحين فى ذلك. فقد ضاقوا بأبيه، ولا معنى لأن يضيقوا بابنه الذى لم يفعل شيئاً.. بعد.. وتمنى الناس أن يفعل الابن أفضل وأصدق وأعم وأشمل مما فعله أبوه ضد الشعب!

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أجهزة السياسة الجهنمية تتحرك بسرعة.. فقد وجد على ماهر رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن فاروقاً لم يبلغ سن الرشد، بالحساب الميلادى. فأصدر الفتوى بحساب ميلاده بالسنة الهجرية. وبالحساب الهجرى نودى به ملكاً على مصر.

وهذه الفتوى قد سجلت نصراً لعلى ماهر على غريمه أحمد حسنين.. فاقترب خطوة من الملك الشاب.

وقد رأى الناس العقلاء فى ذلك الوقت أنه مادام قد ظهر حول الملك أناس من مثل على ماهر، وأنهم استطاعوا بهذه السرعة تطويع التاريخ الهجرى لصالح العرش، فليست هذه إلا باكورة التزوير والتضليل من أجل مزيد من السلطة. وكان استنتاج هؤلاء الحكماء فى موضعه لولا أن الفرحة التى غمرت الناس بتولى فاروق الحكم، قد غطت على صوت الحكماء.

وبسرعة تزوج الملك فاروق. ورأى الشعب فى هذا الزواج المبكر دليلا على الاستقامة. فلم يكن أيسر من أن يمضى الملك فى اللهو والعبث، وسوف يجد المنافقون ألف مبرر لذلك.. كأن يقال إنه صغير، وكأن يقال إنه يحب أن يجرب، وأن يقال: إن الملك مشغول بالسياسة عن الحياة العائلية.. كثير جدا الذى يمكن أن يقال، وقد قيل أيضا.

ولكن الشعب وجد فى رغبة الملك فى الزواج مبكرا، ثم فى الزواج، دليلا على أنه ليس كوالده. والشعب يحب أن يكون حاكمه مستقيما. لأن الحاكم يجب أن يكون قدوة. لأنه ليس منطقيا أن يطلب الحاكم من الشعب أن يستقيم وهو معوج، وأن يطلب إليهم الإيمان وهو ملحد، وأن يطلب إليهم التمسك بالروابط العائلية وهو منحل.

ولذلك كان زواج فاروق من فريدة ذو الفقار فاتحة خير.

ونكن عرف بعض الناس أنهم كانوا يغلبون الأمل على الحقيقة. وأنهم يحملون.. فلم يختلف فاروق عن والده. بل كان أسوأ وأحط. وكانت زوجته فريدة تعرف ذلك وتدارى عليه. حرصا على كرامتها، وعليه هو، ولكن لم تفلح هى ولا غيرها فى إخفاء عورات فاروق، فقد عرف الناس كل شيء، وفى نفس الوقت لم يكن هو يعبأ كثيرا بأن يعرف الناس.

وعرف الناس أنه يمكن إضافة صفات أخرى إلى الملك فاروق الذى كان العامل الأول والعالم الأول: اللص الأول والمرتشى الأول والمزور الأول.. ثم المهرب الأول لثروته ومجوهراته قبل قيام الثورة!

وسرقات فاروق - أو جنون السرقة عند فاروق - سلسلة طويلة من الفضائح الشائنة. التى تصيبه شخصيا وتصيب حاشيته والحكومات المتوالية التى ساعدته على السرقة وعلى التزوير وعلى النهب وعلى الاختلاس دون أن يجروا كثيرا أن يقولوا لجلالته: لأ.. عندك!

بل إن زعيما عندما وقف أمام الملك وكان الملك يرتعش مما تخيل أن سيطلبه الزعيم: إذا به يفاجأ بأن الزعيم يطلب شيئا غاليا. ويقول الملك خائفا: اطلب، قال الزعيم: أن أقبل يدك!

وكان ذلك صفة لمصر كلها.. وهوانا ما بعده هوان. ولكن هوان الشعب فى ذلك الوقت، كان نياشين على صدور الزعماء!

وبسبب هذا الضعف فى تكوين الملك فاروق النفسى والثقافى، بدأ قزما أمام عتاة السياسة الحزبية فى مصر. وبسبب هذا الضعف، كان الملك يحاول أن يبدو أقوى وأكبر.. ومن هنا علموه لعبة تغيير الوزارات وإهانة الرؤساء.. وجمع السلطة كلها فى يده.. دستورية وغير

== مصر من ملكية إلى جمهورية ==

دستورية.. وإصراره على أن يعطى هو الألقاب والنياشين ويعين ويفصل كبار الموظفين في الدولة وفي الشركات وتجاهله لسلطات الوزراء ورؤساء الوزارات والاتصال برؤساء الدول دون علم من الحكومة أو البرلمان.. ولا يقبل نقدا من أحد..

واخترع له الوفديون صفة سرية وهمية سحرية اسمها «التوجيهات الملكية».. فلا يكاد أحد يسأل عن شيء حتى يقولوا له: إنها توجيهات جلالة الملك.. إنها نصيحته السامية.. إنها رغبته العالية.. إنها وإنه جل جلاله- استغفر الله العظيم!

وضاعت وتاهت وضلت العدالة والشرعية بين الرغبات السامية والتهديدات الملكية وخشوع الزعماء، وخشوع كبار الموظفين والوزراء.. وتوالت الوزارات ونصائح الملك أيضا. والتف حول الملك كثيرون.. أصدقاء لياليه الحمراء، وترايبيزات القمار الخضراء في مصر وفي الخارج.. وأصبحت كل مصائر مصر، يرسمها الملك أو الذين حوله بعد منتصف الليل.. وكان عرش مصر مثل كرة القطن المبللة بالبنزين التي تنطلق بسرعة هائلة نحو النار.. وكلما أمعنت الكرة في الانطلاق اكتسبت سرعة أكبر.

حتى كان ذلك اليوم الشهير ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد أن استقالت وزارة حسين سرى باشا. وجاءت الدبابات وحاصرت قصر عابدين. وطلب السفير لورد كيلرن تعيين مصطفى النحاس رئيسا للوزراء. وجاءت وزارة الوفد على الدبابات البريطانية تهدد العرش وتدوس الكرامة المصرية.

ولكن أفلح الملك في أن يسترضى الإنجليز وأن يسامحوه لمجرد أنه تردد لحظة أو لحظتين في قبول الإنذار البريطاني. فجعلوه جنرالا في الجيش البريطاني- وقد أسعده ذلك كثيرا! ولما حاول الملك أن يتخلص من وزارة الوفد هذه بعد سنتين طويلتين عريضتين، وأن يأتي بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، رئيسا للوزراء سارعت بريطانيا بالرفض. وكان الرفض من كلمتين جاءت في إحدى البرقيات. كل كلمة منهما كالسيف الذي قطع ما تبقى للملك وللحكومة من كرامة. فقد كانت الكلمتان: لا تغير..

وكان هاتين الكلمتين دبابتان بريطانيتان جديدتان أضيفتا إلى بقية الدبابات التي ركبها الوفد إلى الحكم! وقد سحقت العزة المصرية والكرامة الوطنية فجعلت العرش مقعدا خشبيا لبواب على قصر عابدين، وليس لملك أحبه الناس بمنتهى الصدق والإخلاص!

وكان يوم ٤ فبراير لظمة للجيش المصري الذي تلقى الكثير من أشكال الهوان في عهد فؤاد قبل ذلك.. وفي عهد فاروق: كان فاروق هو الذي يعين القائد العام ويختار وزير الحربية

وغيره من الرتب الأخرى. لأنه أدرك أن الجيش يجب أن يكون قاعدته التي يعتمد عليها في مواجهة الأحزاب أو السفارة البريطانية. ولكنه لم يفعل من أجل الاحتفاظ بهذه القاعدة، شيئا كريما.

وكانت القوات المسلحة تعلم، ثم زاد علمها يقينا بعد ذلك، بأنه لا فرق بين الزعماء، فهم جميعا يركعون ويسجدون لأي إنسان يجلس على العرش.. أو لأي إنسان يجلس على مقعد السكرتير الشرقي في السفارة البريطانية.. أى لأي مصدر من مصادر السلطة في مصر! وتوالى بعد ذلك وزارات وقامت مناقشات ومعارك، ووضحت وقاحة وسفالات الملك وحاشيته.. فهم يتاجرون في التحف ويسرقونها له، وهم يتجرون في الأسلحة الفاسدة، التي قتلت القوات المصرية في مواجهة اليهود.. فلم يكن اليهود وحدهم، أعداءنا، وإنما كان بيننا من هم أكثر عداوة من اليهود.. وكان الملك يبيع دماء مصر ويحول ثمنها إلى البنوك الأجنبية.. وهو الذى طلب من حكومة الوفد أن تعطيه مخصصاته لمدة عام مقدما. وحولت له. وهو الذى باع يختا للدولة، ثم خصمه لنفسه.. وهو الذى تقاضى أكثر من مليون جنيه إصلاحا ليخت آخر، ولم يتطلب إصلاحه إلا بضعة ألوف، والباقي استولى عليه..

ومن المؤكد أن فاروق سوف يدخل كتب علم النفس أيضا تحت اسم «كليبتمانيا» أى جنون السرقة.. فقد سرق سيف شاه إيران من قبره.. وسرق خنجر أحد اليمينيين.. وسرق مجوهرات وتحفا من قصوره ووضعها فى قصوره الأخرى.. وكانت حاشيته تعرف فيه هذا الداء، فكانت تضع المسروقات أمامه.. ليخفيها فى جيبه. إنه مريض ولا شك فى ذلك. وليس هذا إلا مرضا واحدا. ولكن من أخطر أمراضه: إحساسه أنه صغير، فأراد أن يكون كبيرا. ومن مظاهر ذلك أن يتعالى على كل الناس وعلى الزعماء بصفة خاصة..

وفى كتب التاريخ، والصحف المصرية والأجنبية الكثير جدا. الذى لا حاجة بى لأن أسرده هنا حتى لا أبعد عن «سياق» الأحداث وعن المعنى الذى وجدته مناسبا لهذه الأوراق: «وهو التأصيل بلا تفاصيل» .

ويكفى أن أتابع بعينى تعدد الوزارات وأشكالها فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات فى حكومات سعدية وائتلافية ومحايدة وبعد ذلك حكومة وفدية جاءت بأغلبية. وكانت هذه الأغلبية غريبة. وتنطبق عليها العبارة الشهيرة: لا حيا فى «على» ولكن كراهية فى «معاوية».. فقد اكتسح الوفديون فى الانتخابات، فقد ضاق الناس بما حدث فى عهد

مصر من ملكية إلى جمهورية =

النقراشى وإبراهيم عبد الهادى وحسين سرى وضاقوا بالملك والإنجليز.. وتعلقوا بأوهام من بينها أن الوفد يستطيع أن يحقق لهم شيئا.. وقد لاحظ المؤرخون أن الانتخابات الوفدية لم تحقق نجاحا فى المدن وإنما فى الريف حيث تعاونت عناصر كثيرة على الضغط وتحقيق نوع من النجاح المشبوه.. ولما لم تحقق هذه الوزارة الوفدية شيئا توالى صدمات الناس.. وتحولت أصابعهم إلى مشاعل من النار تحرق كل شىء بعد ذلك فى مصر. حتى اكتملت النيران كلها فى حوادث القناة وبعد ذلك فى القاهرة..

وكانت أياما تحرك فيها التاريخ على وهج النار وليس على ضوء النور.. حتى كانت ثورتنا التى كان أكثرها نورا، وأقلها نارا.. ولكن عندما أتذكر ماذا حدث لى بسبب أن حكومة حسين سرى باشا المحايدة قد أشرفت على الانتخابات.. وأشرفت على إعادة: فإننى أجد شيئا عجيبا.. بل لا غرابة ولا عجب فإنه من صنع الله وتديره!

وفى حريق القاهرة حاولت حكومة الوفد أن تتخذ موقفا بطوليا، اجتمعت. وأعلنت الأحكام العرفية. وكان هدفها أن تجمع الدخان كله فى زجاجة. وأن تضع الزجاجة تحت قدمى الملك فاروق. لتؤكد له أنها هى التى ألغت المعاهدة. وهى التى دفعت الشعب إلى الغضب وأنها هى التى أخدمت الغضب. وبعد ذلك فليتقدم الملك مشكورا بمنحها ما تستحقه من مكافأة «سنية» - وهذه صفة المنح التى يتفضل «الملك مشكورا» بخلعها على الشعب!

وأقال الملك وزارة الوفد، بدلا من أن تستقيل هى.. وسجل عليها التقصير فى الخطاب الذى بعث به إلى مصطفى النحاس باشا الذى عينه حاكما عسكريا قبل ذلك بساعات!

وكننا نحن الضابط الأحرار قد اشترينا السلاح من رفح وأعطيناه للفدائيين ليقاتلوا به الإنجليز. ولكن موقف الوفد والحكومات المتوالية كان مخزيا حقا. بل إن للوفد أخطاء كثيرة ليس أقلها أن يصدر وزير داخلية الوفد فى ذلك الوقت أمرا إلى البوليس أن يقفوا فى وجه الإنجليز أو يوقفوا الإنجليز. وكانت نكتة مبكية حقا: رجال البوليس يستخدمون بنادق الرش، أى بنادق الخفراء فى الريف، يواجهون بها مدافع الإنجليز ٢٥ رطلا، وهى أحسن المدافع فى ذلك الوقت. وكانت مذبحة لرجال البوليس!

وبسقوط وزارة الوفد التى بقيت فى الحكم سنتين، تدخل مصر فى مهزلة متجددة. ففى حوالى ٢٠٠ يوم تتفرج مصر على أربع وزارات. لا يعرف أحد كيف جاءت ولا كيف راحت.. وإنما باشوات تظهر وتختفى.. وكأننا فى مسرح العرائس. أناس يظهرون، ولأسباب غير

مصر من ملكية إلى جمهورية
معروفة يختفون، ولكن لا يغيب عن عيون السياسيين والمؤرخين أن الأصابع التي تحرك هذه العرائس كان الملك وحده..

إن الملك يتسلى - كما يقول التعبير الفرنسي المشهور. ولو كان الملك يتسلى بالباشوات في جلساته الخاصة، كما كان يفعل، لهان الأمر، ولأصبحت التغييرات الوزارية لهوا وعبثا ملكيا. ولكن الملك كان يتسلى بالوزراء وبالشعب وكرامة المواطنين، دون أن يسأله أحد ماذا يفعل؟ بل إن الكثير من الزعماء كان ينتظر دوره. فإذا جاء «فهى حكمة ملكية سامية».. وإذا لم يأت دوره، فهو على استعداد لأن يفعل أى شىء، حتى يجىء.

وكان الملك يعرف ذلك.. يعرف أنه أمام باشوات يتهاكون على الحكم بأى ثمن! وكنت أرى أن الفساد الذى استشرى فى مصر لا يحتاج إلى ثورة واحدة. وإنما إلى ثورات.. فالفساد قد تسلل إلى عظام مصر وإلى نخاعها.. وكنا نحن الضباط الأحرار قد تقاربنا والتقت وجهات نظرنا. وكنا قد حددنا موعد قيام الثورة نوفمبر ١٩٥٥، أى إن أمامنا ثلاث سنوات لا بد أن يشترد فيها عودنا، وتترابط خيوطنا ويقوى نسيجنا. وكل شىء حولنا يؤكد أن الذى اعتزمناه لا مفر منه. ونحن على يقين من ذلك.. فلا الملك يصلح ولا الأحزاب تصلح.. وسواء كان الجالس على العرش فاروقا الأول أم فؤادا الثانى، فقد انتهى كل شىء. ولا بد أن ينتهى. وقد وجدنا ألف سبب معقول للثورة على كل أشكال الفساد الدستورى، والفساد فى غياب الدستور، ولم تعد «التعبيرات» التى يستخدمها زعماء الأقلية وزعماء الأغلبية، تختلف عن بعضها البعض. ففي النهاية نجد أن الجميع عند قدمى الفاروق سواء..! وبدأت لعبة «لوزارات بلا جذور».. أى الوزارات التى يلقيها الملك من فوق، وليست الوزارات التى يرفعها الشعب من تحت.. وزارات العرش وليست وزارات الشعب. وما دام الملك هو الذى يختار، فكل شىء مرهون برضائه، أولا وأخيرا.

وما دامت القاعدة فى اختيار الوزراء «الرغبة السامية» أو «الإرادة السنية» أو «التوجيهات الملكية» فالأساس هو المزاج الشخصى. وكما أن للملك مزاجا فلرئيس الوزراء مزاج أيضا. فالملك اختار رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء اختار الوزراء.. ولا بد أنه قد «استمزج» - كما يقول إخواننا العرب - أى حاول أن يعرف مزاج الملك. واستجاب له.

وجاءت وزارة على ماهر يوم ٢٧ يناير وذهبت يوم أول مارس سنة ١٩٥٢.

وهى وزارة ملكية. وأعضاؤها معارف أو أصدقاء. وعلى ماهر سياسى قديم وذكى، وقد عرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى مواجهة الأغلبية الوفدية. ولذلك سارع بترضية الوفد، تجنباً لقوته، وبذلك يكتب لوزارته عمرا طويلا. ففى خطابه إلى الملك أشار إلى أنه سوف يمشى على سياسة «سلفه العظيم». أما السلف العظيم فهو النحاس باشا. وإذا كانت لسلفه العظيم سياسة، فلماذا أقاله الملك؟ وإذا كان سيمشى على سياسته فلماذا جاء؟.

وإنما على ماهر قد بادر يمد يده إلى النحاس وعانقه وقبله .. واستجاب البرلمان إلى هذه المبادرة. ففى استطاعة على ماهر أن يحل البرلمان.. وحتى لا يفعل ذلك بادر الوفد بمعاينة على ماهر وحكومته. وكذلك البرلمان . وكان على ماهر يعتقد أنه سوف يبقى طويلا، مادام قد كسب رضا الأغلبية وحزب الأغلبية .

وحاول على ماهر أن يلعب بالوفد، وحاول الوفد أن يلعب به..

ولم تطل هذه اللعبة.. ولم يسترح الملك إلى سياسة التوفيق بين رغباته وبين تربص الوفد بالوزارة وبالمملك، ثم إن الملك كان قد أدرك حقيقة الوضع. وكان الملك فاروق ذكيا، ولكنه كان مستهترا لا يبالي بأحد أى بشيء. وفى ذلك الوقت اتصل بى د. يوسف رشاد، وهو صديق للملك. وقال: إن الملك قد أعد قائمة بالذين سوف يغادرون مصر معه إلى الخارج. وقد وضع اسمى بين هؤلاء!

وفى ذلك الوقت كانت طائرة الملك تنسافر إلى سويسرا تحمل المجوهرات والذهب. وكل الذى قرر الملك تهريبه إلى الخارج!

إذن لقد أدرك الملك بوضوح، أن النهاية قد دنت، وأنها كما قال تشرشل أثناء الحرب: بداية النهاية! وأنه يلعب على الوقت فقط. واتصلت بجمال عبد الناصر ونقلت إليه ما قاله لى د. يوسف رشاد وهو صديقى، هنا اتخذنا قرارا جديدا فبدلا من أن تكون ثورتنا فى نوفمبر ١٩٥٥ قررنا أن تكون فى نوفمبر ١٩٥٢، فى نوفمبر بالذات، لأنه الشهر الذى فيه الملك قد عاد من الإسكندرية ومعه كل الوزراء، وتكون ضربتنا إليهم وقد احتشدوا فى مكان واحد.

وكانت وزارة على ماهر هذه قد ضمت إليها واحدا من رجال الملك هو أحمد مرتضى المراغى وزيرا للداخلية وقيل الكثير فى استقالة الوزارة . أو على الأصح إقالة الوزارة. فلم

يكن أحد يستقيل فى ذلك الوقت وإنما يعينه الملك ويزيحه الملك .. لأن هذه الوزارات قد ألقيت من فوق.. أو أسقطت على الشعب من فوق.. فهى ساقطة منذ البداية!

ولكن السبب الحقيقي الذى ينسأه الزعماء الأحياء الذى حدث هو أن على ماهر طلب مقابلة السفير البريطانى سير رالف استفنسون فى ذلك الوقت لكى يبحث معه إلغاء المعاهدة.. ولكن السفير رفض المقابلة. وهذه أكبر ضربة من الممكن أن يتلقاها أى زعيم فى مصر. وكان معناها أن رئيس الوزراء غير مرغوب فيه. ولذلك قدم على ماهر استقالته فوراً، لأن الطريق إلى الملك لا بد أن يمر بالسفارة وليس العكس. ما دامت السفارة قد أقفلت باب الرحمة الملكية قد أقفل فوراً. وسقطت وزارة ماهر! وكان على ماهر يأمل أن تبقى طويلاً، وكذلك ولا أعرف أين يضع المؤرخون بعض الأحداث التى يخجل الإنسان من ذكرها للتدليل على الهوان القومى الذى لحق الشعب المصرى.

فعندما أبلغ البرلمان بميلاد فؤاد الثانى، كتب محضر الجلسة على جلد الغزال بماء الذهب وأرسله للملك! ولا أعرف - حقاً - ما الذى يمكن أن يقوله المؤرخون عن مثل هذا القرار إلا إنه نفاق وامتهان للكرامة الإنسانية. هو أن الأغلبية الشعبية من أجل أن تبقى فى مقاعدها!

وأغرب من ذلك وأعجب أيضاً ما فعله وزير الأوقاف حسين الجندى ونقيب الأشراف محمد الببلاوى عندما أعلنوا قبل ذلك أن فاروقاً من نسل رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأن والدته الملكة نازلى بالذات هى التى تنحدر من سلالة السيدة فاطمة الزهراء.

وقد جاء هذا القرار بعد أن أصدر الملك فاروق مرسوماً بتجريد أمه التى استقرت فى أمريكا من ألقابها ومخصصاتها الملكية.. وبعد الذى فعله فاروق فى أوروبا.. بعد هذا كله يصدر هذا القرار كنوع من العفو الشامل عنه.. أو كنوع من صكوك الغفران.. غفران خطايا الملك والملكة! ثم من الذى يصدر صكوك الغفران؟.. وزير الأوقاف وكبير الأشراف. لماذا؟.. من أجل السلطة والحكم.

إنها أقسى وأقصى درجات الهوان! وجاءت وزارة أحمد نجيب الهملاى باشا.

وفيهما أحمد مرتضى المراغى رجل الملك وزيراً للداخلية والحربية والبحرية أى إن البوليس والجيش فى يد الملك - أو إن الملك توهم ذلك!

وهذه الوزارة كالسابقة حاولت أن تجعل لها مبرراً شرعياً. ولا شرعية إلا بالشعب. فكان لابد أن ترضى حزب الأغلبية. أو ترضى الشعب من وراء هذا الحزب.. أو تحاول

مصر من ملكية الى جمهورية

أن تثير الشعب على هذا الحزب.. وكلها محاولات عتيقة لتشغل الشعب بها، لعله يلتف حولها إذا أفلحت في تحقيق شيء يرضيه. وأعلنت ضرورة التطهير وتقويم الفساد العام - مع أن تشكيل هذه الوزارة هو قمة الفساد والإفساد. فهي كالحكومة السابقة، بلا جذور ولا سند دستوري !

وهي كالوزارة السابقة دليل جديد على الملكية المطلقة.. وحكم الفرد ! وكان الملك يتدخل في كل شيء. وكان يفصل في أخطر القضايا على مائدة القمار. وهمس الذين حول الملك يقولون إن «النار تقترب من ثوب جلالته». أى إن التطهير الذى أعلنه الهلالي، سوف يقترب من الحاشية الفاسدة للملك.. وأن حريق القاهرة سوف ينتقل إلى حريق في قصر عابدين ولكن الملك لم يهتم كثيراً. فلا مانع عنده من أن يلهو ويلعب..

ومن مظاهر اللهو عند الملك أنه قرر أن يكلف اثنين في وقت واحد بتشكيل الوزارة الجديدة. ومضى كل واحد منهما يختار رجاله.. وكانت نكتة مؤلمة. فقد كلف بهي الدين بركات باشا، وحسين سرى باشا بتشكيل الوزارة.. ثم استقر رأيه ورأى حاشيته على اختيار حسين سرى. وجاءت وزارة حسين سرى يوم ٢ يوليو ومكثت ١٨ يوماً. وكانت الوزارة هوانا جديداً لمصر، وأضيف إلى هذا الهوان عار جديد هو أن يكون من رجالها كريم ثابت صديق الملك. وله صفات أخرى يعف قلبي عن ذكرها..

وفي عهد حسين سرى حدثت انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط. وفازت قائمة الضباط الأحرار. وعين محمد نجيب رئيساً للنادى. أما قائمة الملك فقد فشلت تماماً وكان أكبر تحد للملك وصفعة له وللذين حوله.

وفي ذلك الوقت تناقشنا فيمن يرأس الضباط الأحرار. وكان علينا أن نختر بين عزيز على المصرى وفؤاد صادق ومحمد نجيب. أما عزيز المصرى فهو أبونا الروحى، ولكن تقدمت به السن فهو غير قادر على الكفاح والتحدى من جديد.. أما فؤاد صادق فلم يلق استحساناً من أحد، ولكن محمد نجيب هو الذى فاز فى النهاية فقد كان عبد الحكيم عامر أركان حربه، وهذا هو الذى رجح اختيارنا له..

وكانت انتخابات النادى يوم ١٨ يوليو..

وفى ٢٠ يوليو اتصل أحمد أبو الفتح، وهو صديق جمال عبد الناصر، ولم أكن قد عرفته - وكل ما أعرفه هو أنه رئيس تحرير جريدة المصرى. وقال أحمد أبو الفتوح لجمال

عبد الناصر: إن مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة يعد الآن.. وإن حسين سرى عامر سوف يجيء وزيرا للحربية.

وكان ذلك خبرا مفزعا. فهذا الضابط حسين سرى عامر كان يعرف على الأقل سبعة من الضباط الأحرار التسعة. وهذا معناه أنه إذا جاء وزيرا فسوف يقضى علينا تماما. وفي ذلك إعدام لنا جميعا. ولذلك تقرر قتل حسين سرى عامر الرجل الذى قال للملك فاروق: أترك لى هؤلاء الضباط وأنا أقضى عليهم.

ولذلك ذهب جمال عبد الناصر وحسن إبراهيم وحسن التهامى وكمال رفعت إلى بيت حسين سرى عامر. وتسلق حسن التهامى مواشير المياه، وأطلق الرصاص على حسين سرى عامر فلم يصبه. وهربوا معا بسيارة جمال عبد الناصر. وجاء البوليس يقتفى أثرهم.. واهتدى إلى آثار عجلات السيارة الصغيرة. ولكن جمال عبد الناصر غير هذه العجلات. فلم يعرف أحد من الذى كان يريد قتل حسين سرى عامر.. وعندما قامت الثورة أدرك حسين سرى عامر أنها نهايته. فحاول الهروب. وأمسكناه وهو فى طريقه إلى ليبيا. وحوكم. وصدر ضده حكم. ولكن جمال عبد الناصر، أكرمه، وصرف له معاشا شهريا.

ولكن فى هذا اليوم قررنا أن يكون موعد قيام الثورة هو يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وفى هذا الوقت وصلت إلى القاهرة الكتيبة ١٣ بقيادة صلاح نصر. وهى الكتيبة التى نعتد عليها فى حركتنا وتنفيذ المراحل النهائية للثورة.. واستبدل الملك بحسين سرى عامر، إسماعيل شيرين زوج أخته الأميرة فوزية.. ولم يكن ضابطا فى الجيش. واعتبر الجيش أن تعيينه إهانة أخرى.. ثم صدر مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة أحمد نجيب الهملالى فى ٢٢ يوليو.. ولم تبق هذه الوزارة سوى ساعات.. وعلى المؤرخين أن يشغلوا أنفسهم بالأسباب التى أدت إلى اختيار أحمد نجيب الهملالى مرة أخرى للوزارة.. وأسهل وأصدق التفسيرات هو أن الملك قد استخف بكل شىء وبكل الناس.. وأن أحدا لم يعد يهتم لأنه لا يجد أحدا يقف فى وجهه. وإنما الكل فى انتظار رضائه السامى..

لقد كان الدافع العام عند الزعماء ورؤساء الوزارات شخصا بحتا. وكانت وزارات المائتى يوم هذه، صورة صارخة للاستهتار من جانب الملك، والهوان من جانب رؤساء الوزارات والوزراء.. وليس مرتضى المراغى إلا نموذجا لذلك. فهذا الرجل لا نكن له أى احترام من الناحية الوطنية لقد كان أبوه رجلا وطنيا. فعندما كان أبوه شيخا للأزهر أعلن فى بداية الأربعينات وأثناء الحرب العالمية الثانية: إن هذه الحرب ليست لمصر فيها ناقة ولا جمل

== مصر من ملكية إلى جمهورية ==

- أى ما شأننا وما شأن حرب بين الانجليز والألمان إنهم يحاربون لأسباب خاصة بهم، فلماذا ندفع نحن الثمن؟!

وكان هذا رأى كافيا للإطاحة به.

أما ابنه أحمد مرتضى المراغى، فلم يكن وطنيا بأى معنى. فقد خرج من مصر وعاش يهاجمها. وحوكم غيابيا. وحكم عليه بالإعدام. وتجريده من الجنسية المصرية.

وتلقيت خطابا من والدة أحمد مرتضى المراغى، تقول فيه إنها مريضة وإنها تريد أن ترى ابنها قبل أن تموت.. ووافقت على أن يجىء مرتضى المراغى ويجلس مع والدته، وتسقط عنه كل الأحكام. وتعود إليه جنسيته المصرية. وأنا ضد أن يحرم الإنسان من جنسيته المصرية، لأى سبب. أما أن يسجن الإنسان أو حتى يعدم، فهذا يحدث ولكن أن نحرمه من مصريته مهما كانت غلطته، فهذا ليس من حقى، ويجب ألا يكون من حق أحد.. إننى أعترف بريفتى، وبأن القرية والأرض هما بشرتى ودمى.. وانتمائى إلى الريف وإلى ميت أبو الكوم بالذات، يعطينى سعادة مطلقة.. وقد عادت إلى مرتضى المراغى جنسيته، وعلى رغم أننى لم أصدر قرارا بذلك حتى الآن.

وعلى الرغم من أن مرتضى المراغى قد أخطأ كثيرا فى حق مصر وشعبها، فإن الذى لمسه خارج مصر من الهوان بعد الثورة وعذاب ما بعده عذاب ولكن أن يعود إلى مصر، لا لشخص، وإنما من أجل سيدة مريضة، عقاب آخر..

ولا بد أن يعود المؤرخون إلى حكومات المائتى يوم هذه، ويدرسوها ويحللوها. وسوف يجدون فيها الصورة المضادة تماما للثورة المصرية وكل أحلامها وآمالها.. صحيح أن هذه الوزارات يتوالىها الهزلى المهين هى السبب. وأنها كانت أحد الأغراض الفاضحة لفساد الحكم، وقد أحبطه الشعب بوعيه ورفضه.. وكانت ثورتنا على كل أشكال وألوان الفساد والعمالة والخيانة..

ويكفى أن يعود الإنسان إلى فرحة الشعب بقيام الثورة ونهضة الروح وحيوية الأقلام فى ذلك الوقت يتأكد لدينا جميعا: أن الشعب لم يمّت، وأن الأمل لم ينطفئ. وأن مصر العريقة ليست عقيما.

ولم تكن مصر كذلك فى يسوم من الأيام.. وإنما أصابها ما أصاب كل الشعوب من نوبات الضيق، وأزمات اليأس. وكل ذلك مضى، ولا بد أن يمضى، ليعود فى صورة أخرى، وينهض أبناؤها للأخذ بيدها.. وإلى الأبد!

== مصر من ملكية إلى جمهورية ==

وقد قام بالثورة شباب من أبنائها، وهم شباب لأن مصر العريقة العظيمة شابة، إلى الأبد... وقد نهضت مصر بأبنائها لتقويم الذى أعوج فى سلوك حكامها، ولبناء ما هدموا، ولتجعل القيم الأخلاقية والمبادئ ومصر نفسها فوق الجميع.

ونحن الشباب، ولم نعرف اليأس، وعلى رغم قسوة الحياة، والظروف العاتية، والعقبات المدمرة. وإنما إيماننا بالله وبأنفسنا وشعبنا، هو الذى جمع بيننا فى وجه كل السلطات المصرية والأجنبية حتى كان لنا النصر بإذن الله ومن أجل مصر..



١ - الملك فاروق عندما
كان صبيا .



٢ - الملك فاروق وبجواره
مصطفى النحاس باشا .



٣ - عبد الناصر ومحمد
نجيب .



٤ - علي ماهر باشا .



٦ - أحمد حسنين باشا



٥ - يوسف رشاد



لحظات لا تنسى

- محمد إبراهيم إمام رجل مهذب ولكن
وظيفته مفزعة.
- كامل القاويش ارتبطت ترقيته بلف
حبل المشنقة حول عنقه.
- حينما نسي أنور حبيب حدود وظيفته
وهاجم الإنجليز.
- لم أجد لى وظيفته فى أى مؤسسة
صحفية.

لحظات تأمل.. أستعرض فيها أحداثا من حياتي.. وأتوقف عندها. وأحاول أن **لعلها** أستخرج منها المعنى والحكمة وأسوقها لطلانغ مصر من الشباب.. فقد كنت شابا مثلهم. وكنت أتابع ما يجرى حولى باهتمام شديد. ومن غير الاهتمام الشديد، والاشترار فيما يجرى حولنا، من الصعب أن يكون للإنسان دور فى حياته. فإذا كان له دور وآمن به، فمن الصعب أن يزحزحه أحد عن هذا اليقين. وإلى هذا اليقين النفسى والثقة التامة فى نفسى وفى ربى وحبى لوطنى، أعزو كل ما أصابنى وكل ما أصبت بعد ذلك..

وأنا أولا وأخيرا فلاح. أحتفظ للريف بكل قيمى وكل آمالى، وكل آلامى أيضا. ويوم دخلت السجن. وانسدت كل أبواب الفرج فى وجهى. ويوم فصلت من الجيش ويوم انتزعت من أسرتى. ويوم انحشرت الحياة بين جدران مظلمة باردة. أدركت أنه لم يبق لى إلا قريتى.. إلا الريف. إلا الأرض والزرع وأهلئ.. وإلا الحياة البسيطة. كسرة الخبز وشربة الماء - هكذا تعلمت من جدتى أول درس فى الانتماء إلى الأرض.

ولا أدعى أننى أملك فى قريتى شيئا: لا مالا ولا نسبا ولا حسبا ولا طبقة. لا شئ، إلا نفسى. وليس هذا الذى أملكه قليلا. وقد كشفت لى الأيام أننى أخفى تحت جلدى شعورا قويا بأننى «شئ آخر».. وبأننى مختلف عن الآخرين.. وأن هذا الاختلاف عن الآخرين يضاف إلى حسابى، ولا يخصم من حسابى.. إن فى داخلئ «شعورا بالامتياز».. لا أعرف معنى هذا الشعور ولكن هذا الشعور يعوضنى عن الضياع الذى أحسست به فى السجن وفى الشوارع.. إن هذا الشعور هو الذى يوضح لى معالم الطريق، وهو الذى يضىء لى يوم تظلم الدنيا، وقد أظلمت كثيرا.. وهو الذى يتحول إلى غطاء فى الليلة الباردة، وإلى أمان فى الليلة التى أرتعد فيها خوفا..

وليس هذا الشعور بالامتياز غرورا، ولا زهوا، ولا رغبة مكبوتة فى التشفى والانتقام.. لا شئ من ذلك، فليس عندى ما أزهو به.. فما الذى يمكن أن يزهو به فلاح صغير فقير.. وقد امتلأت حياتى بأحداث كثيرة وأسماء كثيرة.. أسماء للأشخاص وللأماكن. وأنا - والله الحمد -

استمتع بذاكرة تصويرية قوية.. فأنا أستطيع أن أتذكر «هيئة الأشياء» وشكل الأشخاص... فأتذكر أن فلانا جاءنى من ثلاثين أو أربعين عاما، وكان يرتدى قميصا وبنطلونا وكان لون القميص أبيض وكان لون البنطلون رماديا.. وأكثر من ذلك أننى أستطيع أن أتذكر التواريخ بمنتهى الدقة ولا بد أن يكون سبب ذلك أن ذاكرتى مغناطيسية. أما سر ذلك فهو أننى شديد الاهتمام. وكل شىء عندى له معنى وله دلالة. وهذا الاهتمام هو المغناطيس الذى يمسك الأشياء والأشخاص والأحداث فى ذاكرتى.

وقد عاونتنى هذه الذاكرة كثيرا وقد لاحظت ذلك على نفسى وأنا فى السجن. فكان خيالى يروح ويجىء بين الطفولة والرجولة، ذهابا وإيابا.. وكنت فى ساعات فراغى فى داخل السجن أحاول أن أسترجع الكتب التى قرأتها وأرقام التليفونات وأرقام محاضر البوليس وأرقام السيارات وعدد السلالم والأبواب والنوافذ..

وتذكرت فى السجن قصة للكاتب النمساوى استيفان تسفايج اسمها «اللعبة الملكية».. وفى هذه القصة يروى حكاية سجين كان بطلا فى الشطرنج. ولم يكن مسموحا له بأن يقرأ أو يكتب. فراح هذا السجين يستعرض لنفسه كل ما يحفظه من الشعر والنثر. فإذا فرغ من تلاوته لنفسه، عاد فتلاه بالقلوب.. ثم إنه أمضى الوقت فى وضع ألغاز فى الشطرنج وراح يحلها.. ويجعل عشرات من الناس يلعبونه فى وقت واحد ثم يتغلب عليهم.. قرأت هذه القصة وقلت لنفسى: خيال كاتب وليس له أساس من الصحة حتى دخلت السجن، فوجدت أن الذى قاله صحيح. ورأيتنى أفعل ذلك. بل رأيتنى أحسن حالا، فقد فكرت وتأملت وقررت وتعلمت. ورسخت فى أعماقى دروس فى غاية العمق..

وسوف أعود إلى ذلك فيما بعد..

وهذه التأملات تعطينى حريتى فى أن أتجول بعقلى وخيالى فى حياتى كلها طولا وعرضا أستخلص المعنى والحكمة. وأدعو غيرى لأن يقرأ ويفكر ويوقن فى البداية والنهاية أنه لا بأس مادام الإنسان حيا. وشىء أهم من ذلك فى نظرى: أن الإنسان قيمة. وأن الله لم يخلق أحدا عبثا. وأن الإنسان يستطيع أن يجعل لنفسه قيمة، ولحركته هدفا، ولدوره فى الحياة وزنا. ولكن المشكلة الحقيقية فى حياة الناس- وهذا ما اهتمت إليه فى السجن أيضا - أن الناس تأخذهم الحياة.. وتخطفهم لقمة العيش، وليسوا هم الذين يخطفونها.. والسلطة تسلب إرادتهم، ولكن لو اتسع وقت الإنسان، وتوقف لحظة واحدة يستعرض حياته.. وينقى

عقله من شوائبه، ونفسه من شواغلها، ووجدانه من هواجسه.. هنا فقط تنكشف للإنسان حقيقته. وهنا فقط من الواجب عليه أن يقرر: كم تساوى هذه الحياة؟ أو كم يساوى هو؟ أما أنا فقد أجبت عن هذا السؤال: إن حياتى تساوى الكثير.

ولذلك استهنت بالخطر، واستخففت بالخوف. ووجدت أن العقبات فى حياتى ضرورة حتى لا أنزلق. ولولاها ما ثبتت قدمى على الطريق..

عندما جاء الملك عبد العزيز آل سعود فى أول زيارة لمصر فى يناير سنة ١٩٤٦ كنت أقف على ناصية الشارع بين عبد الخالق ثروت وإبراهيم باشا واحدا مجهولا بين مئات الألوف وقفوا يتفرجون على أسد الجزيرة العربية وبطل أبطالها.. وقد تقدمت الملك عبد العزيز الموتسيكلات التى يركبها رجال الشرطة الملطيون. فقد كان البوليس فى أيدي الانجليز. وكان الكونستبلات يتلفتون يمينا وشمالا، حرصا على سلامة الملك. وكان البوليس يبحث عنى أيضا، ويخاف منى على الملك.. وكنت أضحك، بين الناس الذين لا يعرفوننى وأقول: مالنا والملك عبد العزيز.. فليس هذا الذى نريد أن ننقم منه!

وكان أمين عثمان قد اغتيل قبل ذلك بخمسة أيام. وألقى القبض على حسين توفيق وآخرين، وبدأ التحقيق معهم، وبدأ حسين توفيق يعترف بكل شيء حتى بمخازن الأسلحة التى أخفيها فى مغارات المقطم.. إذن سوف يجرى دورى بين لحظة وأخرى مافى ذلك شك.. ولا شيء أبشع فى حياتى كلها من لحظات الانتظار لمصيبة سوف تقع. والمثل الشعبى عندنا يقول: وقوع البلاء أهون من انتظاره.. وأمضيت أياما طويلة فى انتظار هذا البلاء حتى كان ذلك البلاء..

ولابد أن أتوقف، حتى وأنا أسجل هذه السطور، لكى أعود بذاكرتى للهيئة التى تم بها هذا البلاء.. ففى تلك الليلة عدت متأخرا، وسهرت بعض الوقت. وأويت إلى فراشى. ولابد أن أتوقف لحظة أخرى أجمع أنفاسى وأضم أصابعى على القلم والاحق هذه الكلمات بعينى. فإننى أكره بياض الورق الذى أمامى. ولذلك سبب سوف أصفه حالا.. بل هو الشيء الوحيد الذى هز أعماق أعماقى. ولم أنسه لحظة واحدة. وكان من أوائل القرارات التى اتخذتها عندما أصبحت رئيسا للجمهورية بعد ذلك اليوم بأربعة وعشرين عاما. !

وليس من السهل على الآن أن أتجه مباشرة إلى وصف اللحظة الرهيبة.. فقد كنت أقرأ لطفه حسين أوصافا غريبة للأشياء. فكان يقول: صوت أبيض.. أو صوت نحيل.. وكنت أندesh كيف يكون الصوت أبيض وكيف يكون نحيل؟

حتى كانت تلك اللحظة. فقد عرفت «الخوف الأبيض» .. أما أنه خوف. فمن المؤكد أنه كذلك.

أما أنه أبيض فهذا ما سوف أرويهِ، وفي ذلك اعتذار عن دهشتي لما كان يقوله طه حسين.. فجأة، في تلك الليلة، انفتح نور الغرفة. وكنت تحت الغطاء نائما تماما. الغرفة مظلمة. الظلام والسكون والدفع والأمان هي الجدران الأربعة التي كنت مسترخيا فيها أو تحتها.. وفجأة أضى كل شيء.. وتبدد كل شيء: الدفع والأمان والسكون، حتى الخوف تبدد.. فلم أعد أشعر بالخوف. إنما قد لفتني شعور بالاحتقار الشديد لهذا الذي أمامي: طاوور من الرجال يتقدمهم محمد إبراهيم إمام رجل البوليس السياسي ونجم الفزع في ذلك الوقت. وهو رجل مهذب وفي غاية الأدب ولكن وظيفته مفزعة..

وحاولت أن أجمع قواي وأن أخفي ضيقي وقرفي وفزعي أيضا، فقلت لمحمد إبراهيم إمام: معك أمر من النيابة؟ فتراجع محمد إبراهيم خطوة إلى الوراء في أدب. وأشار إلى شخص وراءه: معنى النيابة كلها! وكان وكيل النيابة هو كامل القاويش، وهو أيضا من وكلاء النيابة اللامعين، ومن رجال الملك. الذي عينه بعد ذلك محافظا للقاهرة حتى قامت ثورتنا بعد ذلك بست سنوات. وهو منصب لا يرقى إليه إلا من كان رفيع الشأن أو من محاسيب الملك..

انتهت اللحظة التي أفرغتني والتي جعلتني أقرر بعد ذلك، وإلى الأبد، ألا يقبض على أحد ليلا أو عند الفجر.. وألا يصاب أحد بما أصبت به في نفسي وفي أهلي وفي حرمة بيتي.. وأعترف أن هذه الحالة النفسية التي هزت أعماقي ظلت كامنة في نفسي، وقد نغصت حياتي كلها.. وعندما انفردت بنفسى أفتش فيها عن مصادر متاعبي، وضيقي بكل شيء.. لم أهتم إلى شيء.. فكنت أقول لنفسى: إن السجن لا يضايقنى. إنى اخترت العمل السياسي. وهذا السجن ضرورة. فأنا الذى اخترت ومادمت اخترت فمن الواجب أن أتوقع كل شيء..

وأتساءل من جديد: إذن ما الذى يضايقنى؟

وأخيرا اهتديت بعد سنة ونصف سنة، إلى أن هذا «الخوف الأبيض» هو الذى صبغ بالسواد فى حياتي.. فلما عرفت هذا السبب العميق، خفضت قبضة القرف واليأس الذى ساورنى بعض الوقت.

واننى أعترف أيضا بأننى لم أسمح لليأس أن يستبد بسى طويلا. حدث أن ضقت بالدنيا. ولكن لم تفاجئنى الدنيا بما لم أكن أتوقع.. ثم إنه مهما حدث لى فإننى لن أخشى شيئا، ففى

داخلي ذلك الكنز الذى اهدتني إليه: أن هناك شيئاً فى أعماقي أعترز به. وهذا الشيء أو هذا الشعور بالامتياز، هو الذى كان يعوضنى أولاً بأول عن كل خسارة تصيبنى..

وفى سجن الأجانب عرفت معنى الانتظار الأليم.. فقد تركونى بلا محاكمة عشرة أيام. وشكوت إلى النائب العام. وجاءنى كامل القاويش يسألنى عن البرقيات التى أرسلتها للنائب العام. فقلت: إن أحداً لم يسألنى إن كنت شاركت فى اغتيال أمين عثمان.. واتصلت بشكل ما، بحسين توفيق وآخرين ليعدلوا عن أقوالهم. وعدلوا. ثم عاد حسين توفيق فأكد أقواله. ثم عدل وعدلوا.. فأبعدونى من الدور الأول فى سجن الأجانب، إلى الدور الثانى. وطلبت مواجعتهم جميعاً. وواجهتهم وعدلوا عن أقوالهم.

ثم نقلونى إلى سجن قره ميدان.

ولابد أننى فكرت كثيراً فى كامل القاويش هذا. إنه وكيل نيابة يؤدى واجبه. وواجهه أن يلف حبل المشنقة حول عنقى بإحكام شديد. ويكون إعدامى بعد ذلك سبباً من أسباب ترقيته إلى وظيفة أعلى. وأنا لو استطعت أن أغتاله لفعلت.

كلانا له هدف.. أنا: هدفه.

وهو: هدفى.. والنظام الذى يمثله.

فلم يكن كامل القاويش بالذات وإنما النظام الفاسد غير الوطنى الذى يبيع الشعب ويشتري الإنجليز والسلطة، هو هدفى. وليس أمين عثمان هذا إلا عميلاً بريطانيا خائناً. ويوم اغتياله كان يتناول غداءه مع السفير البريطانى - منتهى الرضاء والقوة والسلطة. بل إنهم كانوا يعمدونه لأن يكون رئيساً للوزراء.. فهو الرجل الذى أراد أن يزوج مصر إلى بريطانيا «زواجا كاثوليكيًا» - أى زواجا بلا طلاق!

وتصادمى مع كامل القاويش هو تصادم إرادتين. إرادته هو وإرادتى أنا أيضاً.

وأشهد أن كامل القاويش كان رجلاً مهذباً. ولكن دوره فى حياتى دور كره. وكان يؤدى

هذا الدور الكره بمنتهى البراعة!

وهنا أتذكر مقالا لأديب مصرى كبير هو أحمد أمين.. فقد كتب مقالا عن أن «الحياة رواية».. وأن كل واحد منا له دور فى هذه الرواية وأن هذا الدور، كالرواية نفسها مؤقت.. ففى هذه الرواية نجد رجلاً يقوم بدور الملك، ولكنه لا ينطق بكلمة. وعلى الرغم من أنه أهم شخص، فإن أحداً لا يهتم به فهو منظر. ثم إنه لا يتكلم.. ومن الممكن أن نجد فى الرواية

خادما، ولكن دوره حيوى وشخصيته جذابة.. فعلى الرغم من أنه أدنى من الملك بكثير. فإن دوره أكثر حيوية وأهمية.. ومن الممكن أن نجد فى هذه الرواية جلادا سافحا كريها..

ومعنى ما كتبه أحمد أمين هو: ليس المهم المنصب الذى يشغله الإنسان فى الرواية أو فى الحياة، ولكن المهم: هل يؤديه بإتقان؟ لأنه من الممكن أن يؤدي إنسان دورا كريها ولكن بصورة رائعة.. ولذلك وجدت العذر لكامل القاويش، أنه يؤدي دوره ويريد أن ينجح.. ولما أحس أنني سوف أؤدي إلى فشله، نقلني من سجن الأجانب إلى سجن قره ميدان.. ولا ألومه، فلكل واحد منا دور فى الرواية أو فى الحياة.

وفى المحكمة رفض أنور حبيب، وهو وكيل نيابة آخر أن يؤدي دوره الكريه بإتقان.. وإنما نسى أنه وكيل نيابة وأن من المفروض أن يرفعني إلى المشنقة.. فهاجم الانجليز.. فهم الأعداء الحقيقيون لمصر.. وأن العداء لهم حب لمصر، وأن الثورة عليهم واجب وطني.. وقال أيامها: إن كل كلب فى مصر يبنح يلعنهم، وكل هواء يريد أن يعصف بهم.. إن أنور حبيب - بلغة المسرح - قد خرج على النص المكتوب.. وأضاف من عنده مالم يكتبه المؤلف..

أضاف هذا البعد الوطنى، الذى من الصعب أن يتجرد منه أى إنسان! وأمام محكمة الثورة وكنت عضو اليمين، وقف أمامى كامل القاويش محافظ القاهرة متهما بالفساد. أو بالاشتراك مع الملك فى إفساد الذمم والحكم. ووقف وكيل النيابة العسكرية يهاجم كامل القاويش، كما هى العادة. ولكنه ارتكب خطأ. فقد روى موقف كامل القاويش من قضية أمين عثمان. وهنا التفت إلى عبد اللطيف بغدادى رئيس المحكمة وقلت له: يا بغدادى. قال لى: نعم.. قلت: ارفع الجلسة لأن وكيل النيابة قد أثار موضوعا أنا طرف فيه. ولا بد أن أوضح لك الموقف. ورفعت الجلسة.

وقلت له: واحد من اثنين: إما أن ترفع من محضر المحكمة كل ماورد عن قضية أمين عثمان، وإما أن أتحدى.

قال لى: وهو كذلك. يرفع كل ما يتعلق بهذه القضية. وعادت الجلسة. وأعلن البغدادى أن المحكمة قررت استبعاد كل ما يخص قضية مقتل أمين عثمان.

ولم يكد القاويش يسمع قرار المحكمة حتى نهض واقفا قائلا: كنت على يقين من أن هنا عدالة وقيما أخلاقية..

وحوكم القاويش. وأدين. ولم تنته هذه الجلسة من ذاكرتى.

وانما استعدتها كثيرا وطويلا فى طريق عودتى إلى البيت.. تذكرت يوم أضاعت غرفتى لتظلم نفسى، ولأراه أمامى هو ورجال الشرطة.. وأرى كل شىء يتساقط من حولي: الفراش والنوم والأمان.. وكيف أننى تمنيت أن أقتله.. وكيف إنه حاول أن يستدرج حسين توفيق وآخرين إلى الاعتراف بكل شىء. واعترفوا عند منتصف الليل، فلم يكن يحقق معهم إلا عند منتصف الليل، وهو يقدم لهم الكفتة والكباب.. وكيف لم يتركوا شيئا واحدا سرا.. وكيف إنهم قالوا إن هناك تنظيما عسكريا آخر لا يعرفونه.. وإننى همزة الوصل بين التنظيمين المدنى والعسكرى.. وكيف إننى أبرقت مرات للنائب العام أتهمه.. وكيف إنه ضاق بى.. وكيف كنا نتصادم، كل واحد منا يريد أن يحقق انتصاره على جثة الآخر..

ثم دارت الأيام، وأتت به الثورة متهما أمامى، هو والنظام الذى يدافع عنه ويمثله.. وأعود إلى نفسى. فما الذى أجده فيها. لم أضمر له أى شىء عندما حكمت المحكمة ببراءتى. لقد انتهى كل شىء. وكان على أن أبحث عن عمل. فأنا رب أسرة. وأنا فقير. وحاولت أن أجد عملا. ثم اتجهت إلى الأعمال الحرة، ولكن الذى فى أعماقى لم يهدأ. ولم يسكن. إن شيئا فى داخلى يقول لى: أنت أقوى من هؤلاء.. أنت أقوى من الحكومة.. أنت أفضل من هؤلاء.. إن لك دورا آخر.. لا شماتة ولا مرارة.. لا حقد.. وعندما وقف كامل القاويش أمامى.. أنا فى مقعد القوة، وهو فى هوان الضعف. وجدت أنه: ليس القوى الذى ينتقم من الضعيف.. فلست قويا لأنه ضعيف، ولكنى كنت قويا يوم كان كامل القاويش قويا.. إنه لم يستطع أن يقهرنى، ولم يستطع أن يحطمنى. إن الذى فى داخلى أقوى وأرسخ.. وإن هذه النزوات العابرة تفسد طاقتنا، وتبدد قدراتنا، وتضلنا سواء السبيل..

أما الذى تعلمته من تجاربي فيما بعد، فهو أنه ليس أقوى من الإنسان إذا اهتدى إلى هذه الحقيقة. أى إلى أنه قوى وأنه قوى بصفاته الذاتية، لا بأهله ولا بماله ولا بطبقته.. إنه أقوى إذا اختار أن يكون صادقا مع نفسه صادقا مع ربه.. وسوف ينتهى من ألوف التجارب العميقة فى حياته إلى حقيقة أخرى بسيطة قليلة الكلمات ولكنها عميقة المعانى صعبة التطبيق: أنه لا يصح إلا الصحيح.

إننى عندما أستعرض خط حياتى طالعا نازلا، معتدلا ملتويا، ظاهرا خفيا فإننى أهرز رأسى مستمتعا بما حدث.. فلا شىء يبعث على رأسى أو على الأسف، وإنما كل شىء يمشى نحو قدرى.. وقدرى هو إرادة الله.. ولو عدت بذاكرتى إلى ما كانت عليه حالتي فى سنة

١٩٤٩ حتى يوم ١٠ يناير سنة ١٩٥٠، لوجدت شيئا لا يصدق العقل. ولكنها إرادة الله فوق كل إرادة، وحكمته فوق كل تدبير.. وصدقت الكلمة المأثورة التي تقول: يدبر المدبرون والقضاء يضحك!

إن الإنسان يدبر ولكن قضاء الله وقدره قد أعد لنا شيئا آخر!

من الذى يستطيع أن يتصور أن هذا الشاب الذى كان مفلسا تماما سوف يكون رئيسا لجمهورية مصر بعد عشرين عاما. ثم يختار له القدر مصيرا لا يخطر له أو لأحد على بال. أن يشارك فى ثورة يوليو ٥٢ وأن يقوم بالثورة عليها فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وأن يتحقق له وعلى يديه وبفضل التضامن العربى، أعظم انتصارات الأمة العربية.. وأن يجنب أبناء مصر كل أنواع الذل والظلم والهوان والفرع الذى عاش به وثار عليه طول عمره فيبلغى المعتقلات ويؤمن الناس من الناس فلا يخافون. وأن يجعل القانون سيد الجميع. وأن تكون الحرية هواء للجميع. وأن يختلف الناس فى رأيهم ويحميهم القانون. فليست الديمقراطية هى الرأى الواحد والحاكم الواحد. وإنما الديمقراطية حياة لكل الناس، وحكم للشعب بالشعب.

وقد تجاوزت عن الهوان والمهانة الشخصية، من أجل مصر.. وعندما حاولت دولة عظمى أن تقيد الإرادة المصرية، لأى سبب، كان طرد الخبراء السوفيت.. وعندما ارتبكت مصر فى قرارها سنة ١٩٤٨ ضد اليهود وقرارها سنة ١٩٦٧ ضدهم أيضا، جاءت حرب ١٩٧٣ نموذجا دقيقا للإعداد والاستعداد والتمويه العلمى واستخداما رائعا لأحدث الأسلحة..

إن أحدا لا يصدق ما حدث فى العشرين عاما حتى سنة ١٩٧٠..

فى سنة ١٩٤٩ كنت قد تزوجت. وكنت أقيم فى بيت زوجتى. وكنت قد اشتغلت بالأعمال الحرة. وكان من الممكن أن أكسب الكثير لو مضيت فيها. ولكن شيئا فى داخلى يذكر على أن أشتغل تاجرا. فهدفى وأملى وحياتى ومماتى من أجل السياسة. فقد اتجهت إليها صغيرا. واليوم أقول إننى لم أتجه، ولكن إرادة الله وجهتنى.. ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ صدق الله العظيم. فقد كانت حكمته تقلبنى فى النار وفى الظلم والظلام لكى يقوى عودى ويشتد. ولكى تنضج قدراتى هذا ما أستطيع أن أقوله اليوم. ولكن فى ذلك الوقت كنت تعيسا معذبا. لا أعرف ما الذى أفعله: فقد كان أثاث بيتى عند النجار. وكان يهددنى بأننى إذا لم أحمله وأنقله إلى البيت فسوف أدفع إيجارا لذلك أو سوف يبيعه.

وأذكر أننى اكتشفت فجأة وبصورة مروعة أن كل ما فى جيبى هو مائة وعشرون قرشا. إننى أتكلم عن أواخر سنة ١٩٤٩. وكان مصدر عذابى ليس هذا المبلغ الضئيل

فقط. ولكن أن أجد نفسي بلا عمل.. أو أن أجد نفسي بلا هدف.. ولم أكن تاجرا. ولا أعددت نفسي لأن أكون كذلك.. وأقول الآن: إن الله لم يشأ أن أكون تاجرا يبيع ويشترى ويكسب..

وكننت مطالبا في ذلك الوقت بأن أبحث لى عن عمل.. ولا أعرف ما الذى أستطيع أن أعمله.. وكل ما أقدر عليه فى ذلك الوقت هو أن أرتدى ملابسى بسرعة. وأخرج من البيت بسرعة. والذى يرانى هكذا يخيل إليه أننى أريد أن ألحق مواعيد العمل.. أو أريد أن ألحق الأتوبيس. والحقيقة أنه لا شىء من ذلك. وإنما أنا أوهم نفسي وغيرى. وقد أنجح فى إيهام غيرى، أما إيهام نفسي فكيف؟!

وكننت - استمرارا فى هذا الإيهام المزدوج - أذهب إلى كازينو بجوار كوبرى الجيزة. وأجلس. ثم أنهض بنشاط واتحدث فى التليفون وادفع القرش ثمن المكالمة. وبعد المكالمة أقول لنفسي أصبح الذى فى جيبي الآن: ١١٩ قرشا - ثم ١١٨ قرشا.. إلى نهاية العد التنازلى.. وكلما نقص المبلغ الزهيد الذى فى جيبي، أحسست أن قلبى هو الآخر ينزل فى قدمى.. ولكن شيئا فى داخلى يقول: اصبر.. سوف تفرج.. أو أردد القول المأثور: اشتدى أزمة تنفرجى - أى كلما اشتدت الأزمة واحكمت حلقاتها الخانقة، انفرجت بإذن الله.. هذه المعانى التى تتردد فى أعماقى، تؤكد إيمانى بالله، وإيمانى بأن الفرج قريب!

وخطر لى أن أشتغل بالصحافة. فقد كننت صحفيا. والصحافة قريبة من نفسي.. فهى اشتغال بالسياسة أو اقتراب من ذلك. وهى صناعة التعبير عن الناس والتأثير فيهم.

ثم إن عندى ما أقوله. فقد كنت معروفا فى ذلك الوقت. فقد شاركت فى قضية أمين عثمان، كما هو معروف.. وكتبت الصحف عنى الكثير. وعندى مذكرات وذكريات. ثم إن صناعتى هى الكتابة أو الخطابه.. أى صناعتى الكلام..

وذهبت إلى صديقى إحسان عبد القدوس فى روز اليوسف، وكان الكاتب السياسى الأول فى مصر فى ذلك الوقت. وقلت له: يا إحسان..

قال: نعم.

قلت له: أريد أن أعمل فى روز اليوسف.

وكان رده أن روز اليوسف لا تتسع لنا نحن الاثنين.. أى إنه لا مكان لى فى روز اليوسف.

وسألته إن كان من الممكن أن أعمل في الأهرام. وطلبت إليه أن يتصل بكامل الشناوى - الله يرحمه - وكان نجم الصالونات السياسية في ذلك الوقت. واتصل به إحسان عبد القدوس واعتذر كامل الشناوى بأنه لا مكان لى فى جريدة الأهرام..

ونذهبت إلى دار الهلال أسأل إن كان من الممكن أن أعمل فيها أيضا. وقابلت شكرى زيدان أحد صاحبي دار الهلال ورئيس تحرير المصور. وقال لى الرجل إنه على استعداد لأن أعمل فى المصور. وأخبرنى أنه فى دار الهلال لا يوجد سوى كاتب كبير هو فكرى باشا أباطة، وأنه فى حاجة إلى أن أكون إلى جواره. وطلب منى أن أكتب وكتبت مذكراتى. وقدمتها له. ثم طلب منى أن أقوم بتفصيل بعض النقط التى جاءت فى مذكراتى. وأبدت استعدادى لذلك. ولكنه طلب منى أن أجلس وأن أكتب فوراً قبل مشول المصور للطبع. وكان ذلك يوم الاثنين. ومن عاداتهم أن يطبعوا الصور بعد ظهر ذلك اليوم. وبعث بمن يجلس معى وأنا أكتب. وبعد نصف ساعة فرغت مما طلبه منى. وسألت عن شكرى زيدان فقبل لى: إنه فى انتظارى.

ولم أدرك أنه كان يختبرنى ليعرف إن كنت أنا الذى أكتب. وإن كنت أستطيع أن أكتب بالسرعة المطلوبة ودون أن يراجع ذلك أحد من الناس.

وتأكد لديه كل ما كان يريد أن يعرفه. ثم بدأ يتحدث معى عن المكافأة. ودار الهلال فى ذلك الوقت كانت تتعامل بالقطعة. وفهمت فى ذلك الوقت أنهم يربطون ميزانيتهم فى ديسمبر. وبعد هذا الشهر لا يعينون أحدا.. وقد جننت بعد الوقت المحدد.. ولم يعجبني ما عرضه على. وعددت الفلوس التى فى جيبى فوجدتها خمسين قرشا. ومطلوب منى أن أنفق على البيت وأدفع إيجار الشقة وأتى بأثاث البيت.. وقد انسدت فى وجهى كل أبواب العمل أو الأمل فى عمل.

وإن كان باب الأعمال الحرة مفتوحا على مصراعيه.. ولكن السدودة هى نفسى التى لم يخلقها الله لمثل هذا الطريق. وإنما طريقى مختلف. ونهايتى بعد عشرين عاما. كما رسمها الله واضح جدا أنها مختلفة إلى أبعد حد..

إن لم يبق أمامى إلا أن أحاول دخول الجيش.

ذهبت إلى د. يوسف رشاد الذى كان طبيبا للملك فاروق بعد ذلك. وعرضت عليه رغبتى وأملى فى أن أعود إلى مكاني. واتصل د. يوسف رشاد بحيدر باشا وكانت الانتخابات العامة قد أجريت فى نهاية سنة ١٩٤٩ وظهرت فى الأسبوع الأول من يناير سنة ١٩٥٠. وكان حسين سرى باشا رئيسا للوزراء. وبقيت بعض الإعادة. وإذ بالملك يأتى بحسين سرى باشا رئيسا للديوان. ليكون عازلا بينه وبين حكومة الوفد التى جاءت قبل ذلك بالدبابات - أو

جاءت بها الدبابات عارا على العرش وعلى الشعب وعلى السياسة الحزبية في مصر. وكان الوفد في ذلك الوقت قد راح يقدم للملك تنازلات متوالية وبنفس القدر كان الوفد ينزل يسقط من عيون الشعب. ولم تكن هذه الأغلبية الساحقة.. حبا في مصطفى النحاس ولكن كراهية في فاروق. وكراهية في السعديين. ولكن في نظرنا نحن الشباب الوطني - فقد انتهى الوفد والملك إلى غير رجعة..

وتحدد يوم ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ لمقابلة محمد حيدر باشا وزير الحربية. ودخلت نفس مكتب السكرتير الذي ذهبت إليه قبل ذلك معتقلا في سنة ١٩٤٠ على أثر سقوط طائرة عزيز باشا المصري. وجاء حيدر باشا وهو مشهور بأنه رجل عنيف وأنه لا يبتسم أبدا. ورأى وسألني عن اسمي وقال لي: أنت ولد مجرم.. ولا بد أن تاريخك أسود.

وكننت أقول له: يا معالي الباشا اسمح لي أشرح لمعاليك.

ويقول: اسكت. ولا كلمة!

- اشرح لمعاليك.

- اسكت.

وفجأة، ولن أنسى هذه اللحظة طول عمري، نادى كاتم الأسرار.. واسمه رياض: يا رياض..

- أفندم.

- الولد ده.

- أيوه يا أفندم.

- يعود إلى الجيش.

بل يعود إلى الحياة.. لقد ردت إلى الروح.. سمكة وألقيت في الماء.. عود قطن وأعيد غرسه في الحقل.. ميتت دبت فيه الحياة، مفلس امتلأت جيوبه بالمال، وقلبه بالأمل، ورأسه بالكبرياء!

والقدر هنا له دور: فلو كان الوفد قد جاء إلى السلطة، ما دخلت الجيش..

ولكن تشاء إرادة الله أن تجرى الإعادة في سبعين دائرة انتخابية وأن يظل حيدر باشا وزيرا للحربية.. وأن أذهب إليه وأن يصدر أمرا بعودتي. إنني لا أحقد على الوفد أو على أحد. فليس الحقد في طبعي. فقد أعطانى الله وشكرا.. وأكرمنى الله والحمد لله..

ولكنها «تصاريف» القدر- كما يقول الصوفية.. وعدت إلى الجيش برتبة يوزباشى. ولكن ليست عندى بدلة. ولم أجد إلا واحدا من الضباط الأحرار كنت أسكن فى بيته. وكان فى الشقة التى تحتى. وطلبت منه بدلة سلف. وبعث بالبدلة وتشاء المصادفة أن يكون هو أيضا برتبة يوزباشى. صاحب هذه البدلة هو مصطفى كامل مراد. أما الفلوس التى فى جيبى فقد نزلت إلى أربعين قرشا.. وكان من المستحيل فى ذلك الوقت أو فى أى وقت، أن أفصل بدلة بأربعين قرشا. وفى ذلك الوقت كان مصطفى السمرى يبنى عمارة إلى جوارنا. ووجدت فيها شقة جديدة. وانتقلت إليها. ولكن الأثاث لم يأت بعد. وبجىء جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ولم أكن أعرف عبد الحكيم وإنما جمال عبد الناصر أعرفه من ١٩ عاما. وكان عبد الحكيم عامر من الدفعة التى تلينى والتى لم أرها فى الجيش ولا فى الكلية الحربية.

وقال لى جمال عبد الناصر: يا أنور.

- نعم.. هذا عبد الحكيم عامر.

- أهلا وسهلا..

- اسمع أنت ستدخل امتحانات الترقى. وعليك أن تبلغنا بموعد الامتحانات. فالضباط الأحرار هم المسؤولون عن الامتحانات وعن تصحيحها وعن كل شىء وليس عليك إلا أن تحضر وتكتب أى كلام!

وبالفعل حضرت الامتحان وكتبت ما استطعت. ولكنهم سحبوا أوراقى ووضعوا أوراقا أخرى عليها الإجابات الصحيحة. فلم يكن ممكنا أن أجيب عن هذه الأسئلة. وخصوصا أن تطورات هائلة فى سلاح الإشارة الذى يعتمد على الإلكترونيات تنشر يوما بعد يوم.. ولو غاب الإنسان ستة شهور عن الجيش لوجد تطورات لا تخطر له على بال.. وسلاحى هو سلاح الإشارة ولا أدعى أننى أثناء غيابى عن الجيش قد تابعت التكنولوجيا الحديثة.. وإنما كنت أتابع، أو محروما من متابعة الأحداث السياسية..

ولو تركونى لكى أستوعب التطورات الإلكترونية لاحتجت إلى عشر سنوات أخرى..

وكان هذا اللقاء وهذه الامتحانات تعديلا لمسارى العسكرى. وكل ما قاله جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت: يا أنور نحن مسيطرون تماما بالضباط الأحرار على كل شىء.. والمشوار الذى ابتدأته أنت نحن ماضون فيه.. ونصيحته لك ألا تقوم بأى نشاط سياسى ظاهر.. لأن هناك عيونا كثيرة سوف تراقبك.. وليس من المصلحة أن يراقبوا حركاتك.. فنحن فى المراحل الأخيرة للثورة!

ومن أهم الأحداث الخطيرة فى ذلك الوقت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فقد أعلن الوفد ذلك فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٥١.

وفى نفس الوقت أعلنت السفارة البريطانية فى القاهرة أن الإلغاء جاء من طرف واحد. وأعلن تشرشل زعيم المعارضة تأييده لحكومة العمال. وقال: إن سحب القوات البريطانية من مصر لا يقل خطورة عن سحبها من إيران..

ولكن رد فعل إلغاء المعاهدة عند الشعب كان هائلا. وموقف بريطانيا كان صدمة للناس. ومن الفرحة بإلغاء المعاهدة والضييق بعناد الانجليز تولدت شرارة الحماس الوطنى عند العمال الذين يشتغلون فى المعسكرات البريطانية وعند التجار والمتعهدين وعمال الشحن والتفريغ.. فكان الإضراب العام عن التعاون مع البريطانيين..

وفى أكتوبر كانت أولى معارك الإسماعيلية ضد قوات الاحتلال. وانتقلت أصداء هذه المعركة إلى بورسعيد. وارتكب الانجليز غلطة عندما قامت قوة منهم باحتلال كوبرى الفردان الذى كان فى حماية الجيش المصرى وقتلوا اثنين من الجنود المصريين. وكان هذا الكوبرى هو الرابطة بين الانتقال من الدلتا إلى سيناء وتمر عليه القطارات المتجهة إلى العريش..

ثم احتل الانجليز جمرک السويس. وعزلوا بعد ذلك منطقة القناة كلها.. وتفاقمت الأحداث ضد الانجليز وضد العرش فى نفس الوقت. وأحس الناس أن حكومة الأغلبية التى ألغت المعاهدة لم تدخل فى اعتبارها أشياء كثيرة. من بينها: ما الذى يمكن أن تفعله بعد الإلغاء فى مواجهة الانجليز أو فى مساندة الشعب أو ضبط غضبه!

وعادت المعارك الدموية إلى الإسماعيلية فى نوفمبر سنة ١٩٥١.

وفى ديسمبر كانت معركة السويس. أولى وكبرى معاركه.

وعاد الانجليز يضربون مبنى محافظة الإسماعيلية بالمدافع ويهددون بالزحف على القاهرة. وغضب الشعب وقامت مظاهرات فى القاهرة والإسكندرية. لقد أصبح الشعب كله ناثرا على الانجليز. وضد الوفد أيضا.

ومنعت الحكومة المظاهرات وأغلقت المدارس والمعاهد. ولكن الدم يغلى فى قلوب الناس.. إن شيئا أكبر من الأحداث قد بدأ ينتشر. واتحد الناس وذابت أفكارهم ثم تبلورت فى غصبة واحدة: ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار- والذين أتى بهم الاستعمار على دباباته!

ولم يكن غريبا أن تنتشر المظاهرات فى أواخر سنة ١٩٥١ ضد فاروق أيضا، فى الشوارع وفى الجامعة. وكان ذلك واضحا وبارزا ولأول مرة.. وقد سجل المؤرخون أن المظاهرات التى

تجاهر بالعداء لفاروق، كانت جديدة على مصر. ولذلك لم يذهب الناس بعيدا عندما تأكد لديهم أن هذه هي النهاية. فقد سقطت هيبة الملك.

وافتضح أمره ولم يعد أحد يكن له حبا أو احتراما، ولا لأحد من الذين يتولون الحكم في مصر.. وأدرك الناس أن السفينة قد انقطعت كل الحبال التي تربطها بالشاطئ.. وأكثر من ذلك أن أشرعة السفينة قد أفلتت حبالها أيضا.. وأن الموج تحت السفينة والعواصف حولها، تهزها بعنف. ولا أحد يعرف أين النجاة ولا كيف ولا متى؟ ولكننا كنا نعرف أين ومتى وكيف؟!

وفي ذلك الوقت أعلنت الحكومة البريطانية على لسان قائد قواتها في مصر واسمه بريان روبرتسون: أنهم باقون، وأن شيئا مما يجري في شوارع مصر أو وراء كواليسها، لن يرهيبهم! واشتعل القتال في يناير ١٩٥٢ في مدينة السويس.. وبعد السويس معارك في القل الكبير. وأحس الناس، أن الانجليز سوف يحاربون إلى أبعد من ذلك كالهجوم على القاهرة.. ولكن لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك، خوفا من أن ينقلب الأمر تماما، وتكون ثورة شعبية ضد الاحتلال البريطاني.. فالانجليز - على طريقتهم - يتدخلون ولكن يحتفظون بباب للتراجع..

ولم يكن الشعب في حاجة إلى أن يرى صورة أخرى أو امتدادا للملك فاروق، ولذلك فقد ضج الناس سخطا وغضبا عندما عرفوا أن فاروق قد رزق بولي للعهد هو الأمير فؤاد الثاني من زوجته الثانية ناريمان صادق. وكان هذا الميلاد التعيس مبررا لمظاهرات جديدة فلا هم يريدون فؤاد الأول ولا فؤاد الثاني ولا هم أصبحوا في حاجة إلى فاروق الأول ولا الأخير!

ولا ذنب لهذا المولود فيما حدث بعد ذلك. وإنما ميلاده كان نهاية لأبيه وبداية للشعب.. وكان شؤما على أبيه وكل أسرته! وتوالى المظاهرات ضد فاروق ومولوده الجديد.. وضد هذه الأسيرة كلها. وضد أعوانها من الانجليز، ومن صنائع الانجليز الذين أراقوا الدماء وهدموا البيوت في القناة ويتوعدون بالزحف على العاصمة.. وقد واجه الشعب الزحف الانجليزى، بأعمال فدائية بطولية. وحاولت الحكومة الوفدية أن تحتوى هذه الأعمال الفدائية، ولكنها لم تفعل. فقد أفلت الزمام من يد أى أحد في الحكومة أو في السراى أو في الشارع السياسى. وفى ٢٥ يناير وقعت مذابح في مدينة الإسماعيلية.. فقد اعتدى الانجليز على المواطنين بوحشية. ولم يبق أمام الشعب إلا أن يرد على كل السلطات: انجليزية ومصرية.. وإلا أن يبلغ الغضب أقصى درجاته فأحرقوا القاهرة.. إلى آخر التفاصيل الدموية الملتهبة التي نعرفها وسجلها التاريخ لنا وعلينا: يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢.. وقبل حريق القاهرة

== (حظائير لا تنسى) ==

بساعات امتنع عمال مطار القاهرة عن تفريغ أو شحن الطائرات البريطانية.. ولكن ارغموا على العدول عن ذلك.. وغير أن آخرين فى كل المواقع قد استأنفوا العنف والاحتجاج على كل شىء فى مصر!

وفى هذا اليوم كان الملك فاروق قد دعا إلى قصر عابدين كبار ضباط الشرطة والجيش إلى مأدبة غداء ليقدم لهم جميعا ولى العهد فؤاد الثانى البالغ من العمر عشرة أيام.. قائلا لهم: أهدي إليكم ولدنا وولى عهدنا فؤاد الثانى.

وتناهت إلى الملك أصوات الغضب ودخان السخط ونيران الثورة. ولكنه لم يشأ أن يتحرك. أو يفض المأدبة أو يأذن للضباط أن يعودوا إلى مواقعهم ليساهموا فى إخماد النار فى كل مكان.. فهو لم يتصور أن الذى حدث من الفداحة ومن الخطورة عليه وعلى ولده هذا، لدرجة تجعله ينصرف عن الغداء أو عن الحفاوة بالمولود الجديد.. أما وزير داخلية الوفد وسكرتيره فى ذلك الوقت فلم يعبأ هو أيضا بشىء من ذلك.. ولا ذهب إلى مكتبه مبكرا.. ولا حتى تأخر عن تسجيله لشراء عمارة واحد اسمه توفيق عريضة بمبلغ ثمانين ألفا من الجنيهات فى ذلك اليوم..

وعلى المؤرخين - مرة أخرى - أن يستأنفوا الحكم فى حريق القاهرة.. ليعرفوا من الذين كانوا: دخانها ولهيبها ومشعلها ومن الذين كانوا ضحاياها..

ولكننا - نحن الضباط الأحرار - قد أدركنا أن الأحداث تنطلق بسرعة. وأن علينا أن نعدل من خططنا التى أكملناها تماما.. فلم يبق إلا التنفيذ.. وكنا قد نفطنا أيدينا من كل هذه القوى المتضاربة فى مصر..

ولا أرى مرة أخرى - أن نظرية المصادفة فى تفسير أحداث التاريخ - هى النظرية النموذجية.. لأنه ليست كل أحداث التاريخ تقع مصادفة لأن هذا يلغى الإرادة الإنسانية.. ولكن الإرادة الإنسانية نفسها لا تغنى عن إرادة الله وتقديره وتدبيره.. وآمنت بالله الذى جعل شابا بلا عمل ولا أمل وليس فى جيبه إلا قروش، وقد ضاقت وانسدت فى وجهه كل الأبواب يصبح حاكما على مصر بعد عشرين عاما.. وثائرا على ثورتها مرة أخرى..

□□□



١ - عبد الناصر تدين
أبعاد المؤامرة في ٥٩ قطب
من العرب عدم التدخل .



٢ - السادات وعبد اللطيف
البغدادي وحسن إبراهيم .



٣ - الرئيس السادات
مع القوات المسلحة .

٤ - خطاب للرئيس
السادات في مجلس
الشعب .



٥ - الرئيس السادات
مع ممدوح سالم نائب رئيس
الوزراء للداخلية .





٦ - السادات في أحد
اللقاءات الشعبية .



٧ - الرئيس السادات
في مهت أبو الكوم ..



تأصيل بلا تفصيل

- حلقت شعري ووضعت المونوكل
كالجنرالات الألمان.
- ليلة القدر سنة ١٩٤٢ ليلة لا تنسى في
حياة السادات.
- حينما احترقت الطائرة والطيار والمعاهدة
التي بعثت بها إلى روميل.
- هل يستطيع موسوليني أن يدخل مصر
على حصانه الأبيض؟

لابد أن يكون لشهر رمضان المبارك معنى خاص عندي، هل لأنني ريفي ولأن رمضان في الريف له قدسية وجلال، وله حفاوة لا نجدها في المدينة؟..

إنني لم أصم رمضان في الريف، فقد انتقلت من الريف إلى المدينة في سن الخامسة.. ولكن ظل الريف في أعماقي. وظلت الحفاوة بـرمضان من أهم معالم الحياة الروحية فنحن في الريف نرى في الصيام إلى جانب أنه فرض، نرى فيه رجولة مبكرة، فالأطفال الصغار يتباهون بأنهم صائمون. بينما في المدن نجد الأطفال والكبار يبحثون عن الأعذار لكي يفطروا.. هل لأن رمضان شهر الصيام والصفاء لنفسى؟ - كما عرفت فيما بعد.. هل لأنني أحب أن أتأمل حياتي وأن أنظر إلى ما كان وما سوف يكون؟ هل هذه الخصلة في تكويني جعلتني أغرم بشهر رمضان؟.. فهو الشهر الذي يصادف الراحة التامة عندي..

هل لأن معدتي متعبة؟.. ككل أبناء الريف الذين أصابتهم الدوسنتاريا ولم يفلح معهم أى علاج، فهذه المعدة هي التي جعلتني أعيش على طعام أقرب ما يكون إلى الصيام.. هل لأن رمضان اقترن بصيام آخر اجباري، عندما دخلت السجن.. ففي السجن عزلة وهدوء وانطواء واقتراب من النفس، وعكوف عليها.

إنني لم أجد نفسي ولم أعرف أعماقها إلا عندما ذهبت إلى السجن وإلا في شهر رمضان. ففي داخل السجن قرأت كثيرا، وناقشت نفسي كثيرا، وحاسبتها وعاتبته، ولكن لم أندم على شيء فعلته. ولو عادت بي الحياة مرة أخرى لاخترت كل الذي فعلته، لأنني في النهاية سوف أصل إلى ما وصلت. فكل شيء بقدر وحساب.. وكل شيء بإرادة الله. ولا راد لإرادة الله وتدبيره. الحمد لله على كل شيء..

إنني في بعض الأحيان أنظر إلى الناس وأضحك، أو أنظر إليهم وأهز رأسي وأقول: لا شيء من الذي يهتم الناس يهمني.. لا هذا الطعام ولا هذه الملابس ولا هذه البيوت ولا هذه السيارات، لا شيء من ذلك. فالفاس مشغولون بأشياء تافهة. إنهم لم يهتموا إلى الذي اهتمت إليه. إنني اهتمت إلى حقيقتي.. ففي ظلمات السجن. وفي الوحدة الباردة. وفي

الصفاء النفسى.. وجدت ذاتى. وعرفت أن ذاتى لها قيمة. وأن الذى لا يشعر بأن له قيمة، هو الإنسان الذى لا يرى للعالم كلها أية قيمة.

وأنا رجل ذو قيم. وأدعو إلى القيم. وأحرص عليها. وكل شىء سوف يذهب.. إلا القيم. إلا المبادئ. إلا الصدق. إلا الأصالة وإلا الحب وإلا الخير.. وكنت أقول لنفسى: لقد انشغل الناس عن اكتشاف حقيقة ذواتهم. إنها غلظتهم.

لا أعرف متى بالضبط اهتديت إلى هذه الحقيقة. ولكنى اهتديت.. هل لأن الناس عادة - أكثر الناس - لا يفكرون على هذا النحو فى شهر رمضان، فأحسست أننى أمتاز عنهم بشىء.. هل لأن هذا التفسير مختلف عن المألوف، أو هل لأننى أشعر بأننى مختلف عن الآخرين؟ أعتقد أنه التفسيران معا: فأنا مختلف عن الآخرين فى فهم رمضان، وفى إدراك حقيقة نفسى، هذا هو الذى أعبر عنه بأنه شعور بالامتياز.. (وسوف أعود إلى هذا المعنى كلما وجدت شيئاً أو حادثاً يقربنى إليه، لعلنى أكون أوضح أمام نفسى وأمام الآخرين).

ولن أنسى ما دمت حياً ما حدث لى فى شهر رمضان وفى ليلة القدر من سنة ١٩٤٢.. فأنا ضابط.. ومعزول. ومطلوب منى ألا أبرح المكان الذى استبقونى فيه.. وفجأة جاء من يقول لى: باسم صاحب الجلالة الملك نستغنى عن خدماتك وأنت منذ هذه اللحظة حر تفعل ما تشاء! ولأول مرة فى حياتى أشعر بغصة من كلمة «الحرية» هذه.. هذه الكلمة الساخرة التى تحرك التاريخ من أوله لآخره. فليس التاريخ إلا جهاداً مستمراً من أجل المزيد من الحرية.. أو مزيد من التحرر من الخوف والفقر والمرض والظلم والجهل.. هذه الكلمة الفاتنة التى نذرنا حياتنا من أجلها، قد سمعتها قبيحة بشعة.. إنه يقول لى: أنت حر!

ولم أعرف ما الذى يمكن أن أفعله بحريتى هذه بعد أن جردونى من ملابسى العسكرية.. وأصبحت بلا عمل.. ما هى حدود حريتى. لابد أن تكون هذه الحرية فى أن أمشى فى الشارع أو أجلس على الأرض.. أو أن أرمى نفسى من هذا المكان الذى صار قظيماً فى عيني وفى أذنى وفى خيالى.. هنا استشعرت تلك الأهمية الخاصة التى تنقذنى فى لحظات الضياع فأقول لنفسى: هذا طبيعى. وأنا أتوقع ذلك فى أية لحظة، ولكن على رغم هذا كله فسوف أكون شيئاً مختلفاً. شيئاً أكثر امتيازاً عن الناس..

إننى مطلوب منى أن أخرج بكامل حريتى، لأضيع فى الشوارع بكامل حريتى.. لا مال ولا عمل.. وإنما مسئولية ثقيلة جداً. فأنا صاحب أسرة. ولى إخوة كثيرون. ولى أب فقير. ومطلوب منى أن أنفق عليهم من هذه «الحرية» التى منحنى الملك إياها!

وكان ذلك قبل الإفطار بساعة.. وفجأة ظهر أمامي محمد إبراهيم إمام. رجل البوليس السياسى بملابسه المدنية. قلت له: ماذا يا إمام؟ تقدم ناحيتى وفى غاية الأدب والرقّة، وهو رجل مهذب عساة وله عادة لطيفة عندما يتكلم، فراح يفرك يديه معا ويقول: تتفضل حضرتك.

فقلت: إلى أين؟

قال: بعض الاجراءات.

وسألته أين؟

قال: فى السجن..

وأحسست أن حريتى التى أعطيتها قد تبذرت. كانت وهما. وهذا الوهم تبدد. ولم استمتع بها إلا لحظة واحدة. ثم استردها الملك متى، أو استردها النظام أو الانجليز. وبسرعة قيدونى وأودعونى السجن!

ولم يعرف الذين حبسونى أنه منذ تلك اللحظة قد تغير مجرى حياتى، ففى تلك الليلة، ليلة القدر، انفتحت طاقة القدر دون أن أدري، واختار لى الله شيئا آخر لا يخطر لهم ولا يخطر لى على بال..

ومرة أخرى يواجهنى محمد إبراهيم إمام، هذا الرجل المهذب، الذى يؤدى عملا كريها.. فقد كنت هربت وتخفيت فى ملابس مدنية. واشتغلت بالأعمال الحرة. وعملت مع زميل فى التجارة. وكان لنا مكتب فى شارع قصر النيل. وفجأة ظهر أمامي محمد إبراهيم إمام. وهو رجل مكلف بإلقاء القبض على. ولم أكن أخاف من الاعتقال فقد اعتقلت فى ظل الأحكام العرفية. ولا خوف إذا هربت ولا ضرر إذا عدت. ووجدنى محمد إبراهيم إمام أرتدى جلبابا فوق قفطان. وكانت لى لحية صغيرة. وسألته: إلى السجن؟ فقال: لا.. ولكن لا داعى لأن تعمل فى هذا المكتب. اذهب بعيدا عن هذا المكان..

ولم أنس لهذا الرجل أدبه ورقته فى المعاملة. ولم يكن مطالبا أن يفعل ذلك. ولكنه عموما مؤدب. هل لأننى ضابط وهو أيضا. هل لأنه رجل مهذب عموما؟ هل لأنه يعطف على الشباب الوطنى، وإن كان لا يستطيع أن يساعدهم؟..

كل ما أعرفه أن الرجل كان لطيفا، ولم نعرف عنه غلظة أو سفالة فى وقت من الأوقات. ولم أنس له هذه المعاملة الكريمة. وحملتها له..

حتى كانت الثورة. وفي يوم ٢٤ يوليو كان محمد إبراهيم إمام من الضباط المطلوب إلقاء القبض عليهم. وطلبت أن أتولى ذلك بنفسى. وكان من المفروض أن أعتقل محمد إبراهيم إمام واثنين من ضباط البوليس السياسى ومن نجوم المجتمع والحياة البوليسية والسياسية فى مصر وهما: توفيق السعيد والجزار.. وعرفت أن محمد إبراهيم إمام يسكن فى الزمالك. فذهبت إليه ومعى قوة من الشرطة العسكرية. ووقفت أمام شقته. وفتح لنا الباب. وكان يتوقع ذلك. وهذا طبيعى. وكانت حالته النفسية سيئة جدا. لقد كان منهرا. ولم يدر الرجل ما الذى يقول ولا ما الذى يفعل، وحاولت جاهدا أن أهدئ روعه. وتبسطت معه. ولكن لم أفلح فى تهدئته. وسألته: إن كانت زوجته وأولاده فى البيت؟ فأجاب: فى الإسكندرية. إذن لقد أعد محمد إبراهيم إمام نفسه لكل الاحتمالات. وقلت له: إن رجال الشرطة العسكرية سوف يقومون بتفتيش البيت ولا داعى لأن تقلق فلن نعاملك كما كانوا يعاملوننا. لا تقلق.

وكان الجو حارا جدا. وسألته: أليست عندك ثلاجة؟

قال: عندى..

قلت: أريد كوباً من الماء البارد..

ودخل الرجل فى غرفة وخرج من غرفة. وهو لا يكف عن الكلام، ولا أدري ولا هو يدري، ما الذى يقول. ولكنه فى حالة اضطراب شديد.. بل فى حالة ارتباك أو يمكن أن أقول إنه فى حالة «تلبك» شديد.. لا يعرف أين الباب ولا الشباك ولا الغرفة ولا الثلاجة.

ولم يجد رجال الشرطة العسكرية شيئا. وطلبت إليه أن ينزل معى. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وذهبت به إلى الكلية الحربية. وقبل أن أتركه فى الكلية الحربية سألته إن كان يريد شيئا. قال: أريد مصحفا..

وكذلك طلب توفيق السعيد والجزار..

وعندما زرت محمد إبراهيم إمام بعد ذلك. وجدته جالسا على سريره يقرأ المصحف. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وأن أحدا لن ينتقم منه أو يتشفى فيه.

وبقى الرجل بضعة أيام ثم أفرجنا عنه..

وعرفت فيما بعد مصدر خوفه وفزع. فقد أدرك أنه فى ظل الثورات عموما، يلقي رجال البوليس أسوأ نهاية. وأن موته مؤكدا لا محالة. وإننى عندما طلبت إليه أن ينزل معى فى

سيارتى تصور أنى سوف أقتله وألقى به فى الصحراء، ولن يعرف أحد عن هذا المصير شيئا بعد ذاك!

وأعزو هذا السلوك من جانبى: إلى أننى لا أحقد. ولا أشمت. ثم إن الرجل ليس شريراً ولكن وظيفته سيئة السمعة.. إنه يؤدى درراً، وهو موظف. ولكنه فى نفس الوقت كان أكثر رفقا ولطفاً من طبيعة عمله..

وأعزو هذا السلوك أيضاً إلى أن لدى شعورا غامرا بالامتياز.. هذا الشعور يجعلنى أحس أننى أكبر وأننى أهم. وأنى ممتاز وأنى غير الآخرين. ربما حرصى على التفكير وعلى التأمل.

فاختلفت بذلك عن غيرى من الشباب فى مثل سنى، هو الذى جعلنى أشعر بأننى مختلف، وأنه من الضرورى أن أؤكد هذا المعنى بصورة مفيدة. ثم إننى رأيت أنه لا يكفى أن يكون الإنسان شاعرا بامتياز، وإنما يجب أن يقترن هذا الشعور بالعمل أو بما يؤكد. فاتجهت إلى القراءة. وقرأت كل ما وقعت عليه عيني. ولكن لم أجد نفسى فى كل الذى قرأت فى سنوات شبابه الأولى.. وعندما تخرجت فى الكلية الحربية اتجهت إلى العمل السياسى وفى يوم من الأيام قرأت أن «دار المعارف» تطلب من القراء أن يطلبوا منها قائمة الكتب الجديدة. وطلبتها ووقعت عيني على كتاب لأحمد أمين اسمه «فيض الخاطر» وهو بالفعل فيض من المعلومات والأفكار الشرقية والغربية. والكتاب يفتح الشهية إلى القراءة. وأسلوبه بسيط ومنطقه سليم. وأحمد أمين كعدد من كبار الكتاب المصريين. يرفعون من قيمة الرأى والفكرة.. أى من قيمة العقل الإنسانى. والإنسان بعلمه وليس بملابسه أو أهله أو حسيه.. وهذه المعانى صادفت هوى فى نفسى. فهذا رأى أنا أيضا. وكان من المؤلف أن يتخرج الواحد فى المدرسة أو فى الكلية ويجد أن لغته الانجليزية ضعيفة. أو لا تسعفه عند الكلام أو عند القراءة. فذهبت إلى المعهد البريطانى بالقرب من شارع عماد الدين والتحقته به، لكى أحصل على درجة عليا. وطلبوا منى عددا من الكتب. وأدهشنى أنهم طلبوا أيضا كتابا لأحمد أمين اسمه «ضحى الإسلام». وعرفت فيما بعد أن هذا الكتاب ليس إلا الجزء الثانى من ثلاثة كتب هى: فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام..

واتجهت إلى دراسة اللغة الألمانية أيضا. كانت هناك سلسلة كتب اسمها «سلسلة هوجو لتعليم اللغات». واخترت كتابا عن تعلم اللغة الألمانية باللغة الانجليزية.. هل هو حبى للغات، أو هل هو حبى للعسكرية الألمانية والألمان، هو الذى دعانى لأن أدرس اللغة الألمانية..

وفى ذلك الوقت كانت قد صدرت الترجمة الفرنسية لكتاب توفيق الحكيم «عصفور من الشرق». وعكفت على الترجمة الفرنسية ومقارنتها بالأصل العربى.. لقد وجدت نفسى مشغولا بالقراءة وبدراسة اللغات واتقانها أيضا. فى الوقت الذى كان فيه أمثالى من الشبان يجدون صعوبة فى إتقان اللغة العربية واستخدامها فى الكتابة أو التعبير. فأنا أحب الثقافة وأراها ضرورة حياة. وفى نفس الوقت أرى أنها شرط لتأكيد شعورى بالامتياز عن الآخرين.. وفى السجن اكتشفت كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وهو من أروع الكتب التى قرأتها عن الرسول عليه الصلاة والسلام، عن حياته وكفاحه وعظمته وعظمة الإسلام ولا أنسى أننى ظللت أحتفظ بصور الجنرلات الألمان، أبطال الحرب العالمية الأولى وخصوصا الجنرالات البروسيين. وقد ارتدوا قبعاتهم العسكرية وحلقوا جانبى الوجه ثم وضع كل واحد منهم «المونوكل» على عينه..

وبعد تخرجى فى الكلية الحربية حلقت شعر رأسى على طريقة الجنرالات البروسيين. وذهبت إلى محل نظاراتى وكشفت على نظرى فوجدته سليما.. وطلبت من الرجل أن يصنع لى المونوكل. واندھش الرجل. وأمام إصرارى أتى بزجاج أبيض.. وجعل حافة الإطار مشرشرة لكى اضغط عليها بعينى.. ووضعت المونوكل على عينى السليمة.. ولكن الذى لا يراه الناس هو أننى مبهور برجال الحرب الألمان.

فالعسكرية الأصيلة هى العسكرية الجرمانية البروسية. ولا بد أن يكون هذا السبب نفسه هو الذى بهرنى بهتلر.. والذى جعلنى مفتونا بروميل ثعلب الصحراء وجعلنى اتصل به. وأبعث إليه بمعاودة كتبته بخط يدى، وكنت فى الثانية والعشرين من عمري!

لقد دخلت السجن ليلة القدر ١٩٤٢ وخرجت من السجن فى ليلة القدر سنة ١٩٤٤ أى أننى أمضيت ليلة القدر ثلاث مرات فى ظلام السجون..

إن أناسا كثيرين ذهبوا إلى قمم الجبال أو إلى صوامع الرهبان بعيدين عن الدنيا كلها وهانفت عليهم الدنيا كلها. ولم تهن نفوسهم عليهم. وفى هذه الوحدة التامة والصمت الرهيب والظلام المطبق، وفى حالة الصفاء والشفافية الخالصة اكتشفت حقيقة أخرى: أننى أستطيع أن أعود إلى قريتى ميت أبو الكوم. هناك فى أرضى وتحت أشجارها وبين أهلى وأقاربى وبين الفلاحين. هناك لن ينكرنى أحد. ولن يخذلنى أحد. ولن أجوع ولن أعطش.. هناك أستطيع أن أذهب وأن آوى إلى أحضان الريف كله. فالريف كله أحضان حانية لا يسألك أحد تفسيراً

تأصيل بلا تفصيل

لما أصابك.. وإنما يرون أن الحنان هواء مبذول لكل إنسان يطلبه أو لا يطلبه.. تماما كظلال الأشجار دائما هناك.. سواء جلس فيها أحد، أم لم يجلس فيها أحد.. إن الظلال والماء والطعام والرحمة والحب والحنان كلها فى متناول كل الناس..

وفى السجن رحت أتخيل البيت من الطين الذى سوف أعيش فيه، ورحت أضع طوب هذا البيت واحدة واحدة وأغرس حوله الأشجار.. ثم انتقيت لنفسى شجرة. وجلست تحتها. وجعلت أنظر إلى بعيد.. وأمامى رأيت شريط حياتى، صاعدا هابطا، عسكريا مدنيا، متهما قاضيا، قادرا عاجزا، سليما مريضا.

ورأيت كل شىء يظهر ويختفى، ويعلو ويهبط، يقرب فيكبر، ويبعد فيصغر.. إلا شيئا واحدا فى داخلى: هو أننى مختلف عن الآخرين.. وأن الله قد ادخرنى لشىء أكبر لا أعرفه. ولا أدرى ما هو. ولكن شعورى هذا يسعدنى والسلام..

وعندما أعود بذاكرتى إلى الوراء، وأنا أفعل ذلك كثيرا، أجد أننى لم أهتد إلى معنى هذه الأحداث إلا فيما بعد..

ولا أدعى أننى كنت أقرأ مسار الأحداث فأعرف نتائجها بوضوح، وإنما تعلمت من سرعة الأحداث وتشابكها أن أثبت. أن أكون هادئا. أن أصبر.. إننى تعلمت ذلك فى حياتى العسكرية، فلا بد أن تكون هناك قاعدة ثابتة تحت أقدامنا، لكى نكون قادرين على إصابة الأهداف..

وكذلك فكريا ومعنويا. والمثل يقول: لا يغلب الأيام إلا من صبر. ومعناه: إلا الذى انتظرت فى ثبات.. ومثل آخر يقول: من صبر ظفر..

ولم أفصح فى أن أكون صبورا إلا بعد مجاهدات طويلة. فليس فى يوم وليلة يبني الإنسان شخصيته.. ويختار طريقه ويحدد أهدافه. وإنما هى المعاناة العنيفة التى تكشف جوهر الإنسان وفى ضوء الجراح ونزيفها تظهر للإنسان صلابته وقدرته على تحمل الألم. ومواصلة السير نحو آلام أخرى، من أجل غاية أكبر..

هنا أعود إلى ذاكرتى التى أحمده الله عليها، فقد حفظنى بها، وحفظها لى، فأتذكر مقالا قرأته لأحمد أمين أيضا وتمنيت أن أكتب له معلقا على ذلك وشغلتنى الدنيا عن ذلك قرأت له مقالا يقارن فيه بين صاحب رأى وصاحب العقيدة، أو بين صاحب العلم وبين صاحب الإيمان وأن هناك فرقا كبيرا أن يكون لك رأى وأن تكون لك عقيدة، فالذى له رأى هو الذى عنده معلومات، والذى عنده عقيدة هو الذى عنده شىء فى دمه.

وصاحب الرأي قد يكون مفكراً، وكل ما يحتاج إليه هو الأدلة على صحة الرأي، أو على بطلانه.. ولكن صاحب الإيمان راسخ وقاطع. وصاحب الرأي مستعد لأن ينزل عن رأيه هذا إذا ثبت خطؤه.. وهو منذ البداية يعلن أن رأيه يحتمل الصواب والخطأ. أما صاحب العقيدة فهو الإنسان المتحمس الذي لا يهدأ إلا إذا تحققت عقيدته. وأهم ما قاله أحمد أمين. بعد مناقشة ومفاضلة بين الرأي والإيمان. أو بين ما أسميه أنا بعد ذلك بالعلم والإيمان، هو أن الشرق لا ينقصه الرأي. فما أكثر الآراء. وإنما ينقصه الإيمان، ولو ظهر في الشرق أناس يؤمنون إيماناً قوياً راسخاً بشيء، لتغير وجه الحياة في الشرق. وتمنيت أن أقول لأحمد أمين إن العلم ضروري للإيمان. وإن الإيمان شرط للعلم، فالعلم شر بغير إيمان، والإيمان أعمى بغير علم. والعلم عقل ينير. والإيمان قلب يهدي..

وقد تذرعت بهذين الشرطين ليكون لى ولغيرى دور فى خير مصر والأمة العربية.. لقد علمتني الحياة فى الريف أن أطيل النظر إلى الأشجار.. إنها نموذج للحياة المتجددة.. فالشجرة الواحدة: ألوف الأوراق ومئات الأغصان وقد تشابكت واتحدت فى جذع واحد.. وإلى هذا الجذع جاءت مئات الجذور، تأتى بعصارة الحياة من الأرض السوداء.. وترفع هذه العصارة إلى ساق الشجرة.. ثم تعود هذه العصارة فتقوم الأوراق بطهيها فى ضوء الشمس وفى الهواء.. إنها ملايين الخلايا الضوئية.. تعمل من أجل هدف واحد: أن تكون هناك حياة يانعة..

وحياة الإنسان كذلك: ألوف الأحداث.. وملايين المعانى، وكلها تتحد فى شخص واحد.. وهذا الشخص نفسه ليس إلا ورقة أو زهرة أو غصن فى المجتمع.. وإذا حاولت أن أكتشف المعانى فى حياتى، ثم حاولت أن أنظم هذه المعانى فى سياق واحد، فإننى أجد صعوبة كبيرة.. فالأحداث التى كنت أراها هائلة فى طفولتى وشبابى، اكتشف بعد ذلك أنها كانت صغيرة.. أو كانت تافهة.. والأحداث التى كنت أراها عابرة عادت فتكررت واكتسبت معانى جديدة.. فلم تعد فى حياتى، أو على شجرة حياتى، ورقة تكبر وتزداد اخضراراً ثم تذبل.. وإنما وجدت بعد ذلك أنها أصبحت زهرة وأصبحت ثمرة، وفى داخل الثمرة بذور.. وما البذور إلا وعود «موجزة» بحياة جديدة..

والحرب العالمية الثانية كانت نورا ونارا فى حياتنا نحن الشباب.. لقد أشعلت فىنا الحماسة والإعجاب، وأضاءت لنا الطريق إلى الخلاص من الاحتلال البريطانى، ومن أعوان الاحتلال البريطانى.. وكان اكتساح الألمان لأوروبا وتهديدهم لروسيا وزحفهم على مصر، كل

ذلك صبغ بالألوان حياتنا، وجسد لنا أحلامنا.. ولا أعرف تلك المقدمات الرائعة المروعة التي دفعت شابا صغيرا فى الثانية والعشرين من عمره أن يكتب معاهدة لروميل يطلب إليه فيها أن يصدق عليها من ألمانيا، ونحن على استعداد لأن نفتح له الطريق إلى مصر لننتخلص معا من الإنجليز.. ولكن هذا ما حدث..

إن إعجابى بالعسكرية الألمانية، كان شيئا لا يوصف وإذا وصفته، فإن اللغة العربية لا تسعفنى فى أن أجد له كل ما يستحقه من عظيم الإعجاب وعميق الحب.. لقد بهرنى هتلر، ومن قبله بهرتنى العسكرية الألمانية.. فلما زحف روميل على الصحراء الغربية مكتسحا الانجليز، زحف فى نفس الوقت على قلبى واحتله، وعلى خيالى فركب له أجنحة.. وأحسست أننى أطير فوق مصر فأجد حكومة الوفد قد فرضها الإنجليز على الملك وعلى الشعب وعلى الجيش.. منتهى العار..

وعار آخر أن يدخل روميل إلى مصر فلا يجد فيها حركة مقاومة وطنية.. وأحسست أننا نحن الشباب: نحن المقاومة الوطنية. فلا نحن مع الإنجليز ولا مع الأحزاب ولا مع الملك وإنما نحن مع مصر، مع الجيش. ونريد الخلاص من هذا العار، بطرد الانجليز، والخلاص من عار آخر ألعن وأفدح هو أن مصر ميتة لا شباب فيها ولا مقاومة ضد الاستعمار البريطانى.. ومن كل أوراق شجرة الحياة السياسية فى مصر أختار غصنين اثنين، أو أختار حادثين يتصلان معا، ويؤديان إلى نفس الهدف الذى نحلم به فى ذلك الوقت..

كان ذلك يوم مولد النبى سنة ١٩٤٠، وكنت ضابطا نوبتجيا. وكان من المفروض أن أبيت فى القشلاق مع الجنود أما الضابط العظيم فيبيت عادة فى بيته، وإذا حدث ما يستوجب حضوره استدعيته.. فى تلك الليلة جاءنى جاويز يقول: إن رجلا اسمه الشيخ حسن البنا يريد أن يلتقى بالجنود وأن يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمناسبة مولده الكريم. طبعا لا مانع من أن يجيء هذا الرجل حسن البنا. إنه رجل دين. وهو فصيح ويحسن التعبير. وعنده سلاسة فى الكلام. وقدرة على الإقناع. وربما كانت هذه كبرى مزاياه..

ولابد أن الشيخ حسن البنا قد سمع بى. فقد كان من عادتى أن ألتقى بالجنود وأتحدث إليهم بعد صلاة المغرب ويكون حديثى عن الحياة العامة وضد الاحتلال البريطانى. وهذا طبيعى. وكان الشيخ حسن البنا فى ذلك الوقت قد تسلل إلى الجيش. وانتقل من الجنود إلى صف الضباط. ولم يتصل بالضباط بعد. وجاء الرجل وتحدث وكان مقنعا حقا.

وانصرف الرجل بعد أن دعاني إلى اللقاء به في المركز العام للإخوان المسلمين في الحلمية الجديدة بالقاهرة. وقبلت الدعوة. ولم تمض سوى ساعتين حتى أحسست أن شيئاً خطيراً قد حدث. فقد جاء من يقول لي: إن الضابط العظيم قد حضر. وأسرعت للقاءه. وسألني. فقلت له: كل شيء تمام يا أفندم.

ولكن الضابط العظيم ثار قائلاً: كيف تسمح لرجل مثل الشيخ حسن البنا بالحديث إلى الجنود. ماذا يحدث بالضبط.

وأخبرته أن الرجل عرض أن يتحدث إلى الجنود في هذه المناسبة الدينية. فقلت له: لأمانع تفضل. وتكلم الشيخ حسن البنا وكنا سعداء جميعاً. وانتهى كل شيء في هدوء. وكان الشيخ حسن البنا مشبوهاً ومغضوباً عليه. إذن لقد ارتكبت بدعوته غلطة فظيعة. وذهبت للقاء الرجل. ورأيت الناس «يققدسون» الشيخ حسن البنا.. ولم يعجبني ذلك. فهم ينظرون إليه نظرة غير دينية، يقبلون يديه. ويقفون أمامه وقد علام الخوف والفرع. ودعاني الرجل إلى زيارته في بيته وكان بيته على مسافة مائة متر من المركز العام.. ولاحظت أن عدداً من رجاله يدخلون. وقد عرضوا عليه بعض المدسات. ويسألونه: إن كانوا يشتررون هذا النوع أو ذاك..

وكان يطلب إليهم أن يتصلوا بفلان أو علان من الناس للنظر في شراء مثل هذه الأسلحة. ولم يعصب على أن أستنتج أن الرجل يريد أن يفهمني أو يوهمني بأن لديه سلاحاً وتدريباً على حمل السلاح والاستعداد للقتال. ولكن بانحناءات الناس وتقبيل يديه، أحسست أن هذه أسلحة فاسدة يستخدمها الرجال أو يستخدمها أعوانه لإقناع الناس به..

ودار بيننا كلام طويل، وراح الرجل يلف ويدور. وصارحته: نحن نرفض أن نكون تحت لوائك. إنني ضابط. ولنا تنظيم وسوف نقوم بثورة.

وأصبح واضحاً أنه من الممكن أن يتوازي نشاطنا. ولكن ليس من الممكن أن تتطابق خططنا وخططه. وإن كان أحد زملائنا من الضباط الأحرار قد استماله الشيخ البنا وأقنعه. وهو عبد المنعم عبد الرؤوف. ولم يعجبنا ذلك. واعترضنا عليه. وانفصلنا عنه وفصلناه وحوكم وجرّد من جنسيته المصرية ولكن أعيد إلى حياته العادية مع معاش كريم بعد ذلك..

وعن طريق الشيخ البنا عرفت عزيز على المصري، اسمه عزيز على ولكن الأتراك أضافوا كلمة المصري تمييزاً له. وقد رويت ذلك في مواضع مختلفة من هذه الأوراق..

ولكن يهمنى جداً وأنا أحاول أن أجمع النسيج الملتهب لحياتي أيام الزحف الألماني على مصر وعلى روسيا وعلى القوقاز، والاستيلاء على سوريا ولبنان بالتعاون مع حكومة الماريشال بيتان الفرنسية؛ ثورة رشيد عالي في العراق، أن أسرد كيف استدعاني عزيز على المصري إلى جروبي. وكان من عادته أن يذهب إليه كالباشوات. وأن يقود بنفسه سيارته الاسكودا، وكنا ننظر إلى هذه السيارة على أنها أروع وأفخم من المرسيدس. دعاني وقال لي: لقد اتصل بي الألمان. إنهم يريدونني أن أذهب إليهم. فالوقف مكهرب على الجبهة الشرقية من روسيا إلى مصر إلى العراق.. وهم يعلمون أنني خبير في هذه الشؤون الشرقية والعربية.. وقد تمت اتصالات عن طريق سفارتهم في تركيا حيث يعمل سفير عتيق هو فون بابن الذي أصبح وزيراً للخارجية بعد ذلك. وهو لا يقل خطورة عن تاليران وزير خارجية نابليون الذي انقلب عليه بعد ذلك.

ثم مضى عزيز المصري يقول لي: إن الألمان يريدون أن يعرفوا إن كان في الإمكان أن يبعثوا لي بغواصة تدخل البحيرات عند بورسعيد.. أو يبعثوا لي بطائرة تهبط بالقرب من القاهرة. والمطلوب هو أن نعرف كيف يتحقق ذلك.

وعرفت أن المطلوب مني هو أن نستكشف شواطئ شمال الدلتا عند بورسعيد. واتصلت بأحمد حافظ مظهر، الممثل المشهور الآن، وكان من الضباط الأحرار في سلاح الفرسان. وقلت له: يا مظهر . قال: نعم

قلست هناك مهمة خطيرة يجب أن نقوم بها. ولكن يجب أن نذهب معا إلى عزيز على المصري في بيته في عين شمس.

وذهبنا والتقينا بعزيز على المصري. وعرف أحمد مظهر المهمة المطلوبة. ووافق. وأحمد مظهر ابن نوات، وليس مثلنا. وهو إنسان مهذب ولطيف. وركب أحمد مظهر سيارة. وانتقل وعائين. وعاد عند الفجر ليقول لي: إن الشاطئ موحد. وأنه لا يصلح للغواصات.

إذن أمامنا الاحتمال الآخر: وهو أن يبحث عن أرض يمكن للطائرات الألمانية أن تهبط فيها. وعدنا إلى الخرائط نبحث عن المطارات المستخدمة والمطارات المهجورة ووجدنا على الخريطة مطارا مهجورا قرب الخطاطبة. وقررنا نحن الثلاثة، عزيز على المصري وعبد المنعم عبد الرؤوف وأنا، أن نذهب لمعاينة المكان، ولم يكن من السهل أن نتجه إلى الخطاطبة مارين

بالطريق الصحراوي. فعلى الطريق نقط مراقبة انجليزية. ولذلك اتجهنا إلى القناطر ومنها إلى قرب الرست هاوس، حيث ستقام الآن مدينة السادات. واتجهنا إلى مطار الخطاطبة ووجدناه صالحا لهبوط الطائرات الألمانية. ولم تكن الطائرات تحتاج إلى أكثر من ثلاثين أو أربعين مترا لكى تهبط فى هدوء على الأرض. ولم يكن هناك أدنى خوف من هبوطها، فلم يكن الرادار قد انتشر بعد. ولذلك يستحيل ضبطها قبل أو عند الهبوط أو بعد ذلك..

وعندنا بعد أن تأكدنا من المكان تماما. وفجأة وجدنا أنفسنا محاطين تماما بعدد هائل من مخازن الذخيرة البريطانية. كارثة أن نذهب بأرجلنا إلى الإنجليز. فأنا مشبوه. وعزيز المصرى أيضا.

وهنا وجدت قوة أعصاب عزيز على المصرى وقدرته على القيادة السريعة، وفى نفس الوقت لقد أسعفتنا هذه السيارة المتينة التى استطاعت أن تخترق الرمال وأن تمضى بسرعة هائلة، وكان من الممكن أن نظل تائهين، لا يوما واحدا وإنما عشرات الأيام، إذا ما فقدنا اتجاهنا فى الصحراء. ولكن الله قد أنقذنا من هلاك محقق لنا جميعا!

إذن لا الغواصة ممكنة، ولا الهبوط على أرض الخطاطبة ممكن. وأصبنا بخيبة الأمل. واتصل بى عزيز على المصرى ليقسول لى: إن المندوب الألمانى الذى يصله بروميل قد جاءه وأعطاه خطابا مغلقا ثم اختفى ولما فتحنا الخطاب وجدنا أن الألمان قد اختاروا مكانا أفضل لهبوط طائراتهم. وهو مكان لم يخطر لنا على خيال. فقد حدد الألمان جبلا اسمه جبل رزه.. هذا الجبل قريب من هضبة الأهرام فى طريق الفيوم.

وذهبت أعين المكان. إنه مكان رائع. شئ غريب أن الألمان يعرفون مصر أكثر مما نعرفها. وقد استعد الألمان لذلك استعدادا كاملا. والذى يراجع الصحف المصرية فى ذلك الوقت يجد أن سلاح الطيران البريطانى قد أنقذ خمس بعثات ألمانية من الضياع فى الصحراء الغربية..

أما هذه البعثات فلم تكن سياحية ولا أثرية، وإنما هم رجال المخابرات يجمعون المعلومات عن دروب وأغوار ومهابط الطائرات فى الصحراء الغربية قبل الغزو الألمانى وأثناءه وبعده. ثم تحدد يوم هبوط الطائرة الألمانية على جبل رزه. وفى نفس الوقت تقرر إبعادى إلى الصحراء الغربية..

وذهبت بسيارة استأجرتها لأعين المكان وافتعلت حادثا ونقلت إلى المستشفى العسكرى حتى لا أسافر. وكان أبى يعمل فى المستشفى العسكرى..

وبعد أن طلبت من عبد المنعم عبد الرؤوف أن يوصل عزيز المصرى إلى الطائرة وأن يحافظ على جهاز الإرسال الذى سيبعث به الألمان لكى تتصل بهم، فوجئت بأن الألمان قد أجلوا إرسال طائرتهم أسبوعا. وأحسست بالراحة التامة لهذا التأجيل.. وكان لابد أن نلجأ إلى طريقة أخرى.. فإذا لم يأت الألمان إلينا بحرا أو جوا، فليذهب عزيز المصرى إليهم.

واستقل عزيز المصرى طائرة يقودها حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى طيار بارع. وصل عزيز المصرى ومعه شنطة مليئة بالبرانيط من مختلف الأشكال والألوان والأحجام، إنه لم ينس أناقته لحظة واحدة. واحتقرت الطائرة فى طريقها من مطار أمانة إلى بيروت. وسقطت عند بنها. واتجه عزيز المصرى إلى قسم الشرطة، على أمل أن يجد واحدا من تلامذته من رجال الشرطة.. فقد كان مديرا محبوبا لكلية الشرطة وعرفه مأمور القسم وأعطاه سيارة لنقلهم جميعا إلى القاهرة حيث اختفوا هناك.

وكان يتصل بعزيز المصرى رجل ألماني عاش فى مصر ويتكلم العربية، وابن بلد اسمه حسين جعفر ومعه جاسوس آخر. وقد تسللوا إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية إلى أسبوط وبالقطار إلى القاهرة. وكان روميل بعد أن سحق الجيش الثامن واستولى على عرباته وملابسه استطاع أن يدفع إلى مصر برجاله فى ملابس وسيارات بريطانية.. واستأجروا عوامة الراقصة حكمت فهمى..

وبدأ الاتصال بعزيز المصرى إلى آخر الأحداث المثيرة المتفجرة المعروفة.. وفى كل حوادث الاتصال بالألمان أو بعزيز المصرى، أو كل نشاط معاد للإنجليز لابد أن يأتوا بى من أقصى الصحراء الغربية إلى القاهرة..

ولذلك كانت الأحداث فى ذلك الوقت خيوطا من المطاط تشدنى وأشدّها، وتسحبنى وأقاومها. وفى النهاية تزيدنى تمسكا وصلابة. وأجدنى مشتتكا فى سلاسل أخرى من الأحداث. وكلها فى النهاية: كيف يمكن الخلاص من الإنجليز ومن الفساد فى مصر..

أما السلسلة الأخرى من الأحداث فهى تبدأ بحرائق مثيرة فى القاهرة.. فالقيادة البريطانية التى تسكن عمارة سيف الدين تحرق الأوراق والمستندات، منسحبة إلى الخرطوم. فقد كان زحف روميل وسحق القوات البريطانية يؤكد أن الإنجليز سوف ينسحبون أمامه إلى السودان.

واتصل بنا اثنان من الألمان فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه المظاهرات فى القاهرة معادية للإنجليز وتهتف: تقدم يا روميل!

وكل شىء فى مصر فى ذلك الوقت يبعث على الخجل ويعمق الشعور بالعار. ولابد من عمل شىء ضد الإنجليز ومن أجل مصر. وتم الاتصال بروميل.

ثم جاءت مهمة الطيار سعودى أو حادث الطيار سعودى. ذلك الحادث المؤسف، الذى أحرق آمالنا فى ذلك الوقت..

وكان الطيار سعودى يعمل معنا. وطلبت إليه أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة.

قلت: يا سعودى.

قال لى: نعم.

قلت: هذه الشنطة تحملها إلى روميل..

ثم حدثته عن مهمته كاملة. فقد كان المطلوب هو أن يساعد الألمان على دخول مصر. ولذلك فقد رسمنا لهم كل المواقع من الجو. وكل المطارات ومخازن الذخيرة. هذه الصور التقطت وتم تحميصها وطبعها، تحت أعين الخبراء الإنجليز دون أن يعرفوا الهدف منها.

أما الطائرة التى ركبها سعودى هذا فكانت من طائرات سلاح الطيران الملكى المصرى من أربعة محركات ومصنوعة من قماش اسمه دوب. وكان لها مدفع أمامى يطلقه الطيار من وراء المحركات. وكانت الاشتباكات الجوية نوعا من اشتباك المظلات. أى لابد للطيار أن يستدير لضرب خصمه من الخلف.

وكان من الضرورى للطيار فى ذلك الوقت، وحتى الآن، أن يظل فى طائرته التى امتلأت بالوقود. فى انتظار أى أمر بالتحرك. ولذلك فالطيار يجلس دائما فى حالة استعداد. وفى ثانية واحدة يكون فى الجو.. وهذا ما يحدث لطيارى الميج والميراج والفانتوم. إنها نفس القواعد. مهما تغيرت الطائرات.

أما هذه الطائرة فقد كانت للطيار حسن إبراهيم، أحد الضباط الأحرار. وكان حسن إبراهيم نوبتجيا. وقد استقلها سعودى وطار بها. وحوكم حسن إبراهيم بجريمة الإهمال. وأدى ذلك إلى تأخير أقدميته وترقيته. ولكنه لم يعلن عن أى شىء.. أما الذى حدث بعد ذلك فهو أن سعودى ارتفع بطائرته. وكان من المفروض أن يهبط فى أحد مطارات الألمان فى العلمين. ولكن الألمان أصابوه. وكان المفروض أن سعودى يخطر الألمان بأنه طيار صديق.

والطريقة إلى تأكيد هذا المعنى هي أن يحرك أو يهز جناحي الطائرة. فهذه هي الإشارة المعروفة. ويبدو أنه فعل، ولكنهم لم يروه. أو أنه لم يستطع أن يفعل ذلك. لا نعرف.

ولكن الطائرة أصيبت فاحترقت هي وسعودى والحقيبة التي كانت تضم الخرائط والصور وجدولا بالترددات اللاسلكية إذا أراد الألمان الاتصال بنا. وقد خفنا أن تقع الحقيبة فى أيدي الإنجليز إذا لم ينجح سعودى فوضعنا فيها كرة من الديناميت.

واحترق كل شيء وفشلت هذه العملية تماما.

وأهم من ذلك مما احترقت به الطائرة: تلك المعاهدة التي كتبتها لروميل أطلب إليه أن يصدق على هذه المعاهدة. ولكى أؤكد له حسن نيتنا نحن الشباب المصرى ونحن الضباط فقد أرسلت له هذه الصور والخرائط كعربون على حسن نيتنا. ثم وعدناه بأن نمنع الإنجليز من الخروج من مصر لملاقاة الجيش الألماني ووعدناه أيضا بتجنيد ثلاث أو خمس فرق تحارب الإنجليز..

وقد ذهبنا إلى «سوق القزاز» أى «سوق الزجاج» - ولم أكن أعرفها مطلقا وإنما هي سوق لبيع الزجاجات الفارغة بالجملة أى بالألوف. وأتيت بألوف الزجاجات وملأتها بالبازين وحولناها إلى قنابل مولوتوف لننسف البريطانيين وذخائرهم، ونعوق تقدمهم أو تحركهم فى القاهرة وخارجها تمكينا لروميل وقواته.

وقد قلت لروميل فى هذه المعاهدة إننا مستعدون أن نفعل أى شيء من أجل إخراج الإنجليز واستقلالنا وألا نكون من نصيب الإيطاليين.

فقد كان موسوليني فى ذلك الوقت يقول: إنه سوف يدخل مصر من ليبيا التي احتلها، على حصان أبيض.. تماما كما دخل مارك أنطونيوس.. وكان موسوليني يقول فى ذلك الوقت: إن عندى ثمانية ملايين حربة موجهة إلى كل اتجاه..

وكان يقول أيضا: إن البحر الأبيض ليس طريقا لملاحية إيطاليا وإنما هو حياة إيطاليا.. أى إنه يريد أن يستولى على كل البلاد التي تطل على البحر الأبيض أو البحيرة الرومانية كما يقول. وهذا هو السلام الرومانى - الذى ينادى به موسوليني..

وعرفت فيما بعد، وفى ذلك الوقت أن موسوليني كان أصغر بكثير جداً من هذه الضوضاء التي يحدثها فى كل مكان وفى كل مناسبة. وما أصاب الإيطاليين فى الصحراء الغربية جعلنا نؤمن بأن القوة العسكرية الجبارة فى ذلك الوقت هي: ألمانيا.. وهى: روميل ثعلب الصحراء!

ومن المألوف أن يجيء البوليس ويمسكنى ويسجنونى وينقلونى من سجن إلى سجن.. ولم يكن ذلك يدهشنى. وإنما اقتنعت بأن هذه هى الأحجار أو الأشواك فى الطريق الذى رسمه الله لى..

فقد اعتادت أذننى على هذه الوجوه التى تهددنى واعتادت قدماى على الحجارة والأسلاك واعتادت عينائى على الجدران الكالحة وظلمات الغرف الضيقة والباردة. ثم كنت فى مواجهة هذا كله آوى إلى أعماق.. وكأننى آوى إلى ركن ركين، وإلى مكان أمين. وأجد فى نفسى من الهدوء والأمان وراحة الضمير ما يعوضنى عن هذا العذاب فى خارجى.. هذا الهدوء العميق فى داخلى هو الذى اسميته قبل ذلك بالشعور والامتياز.. وبأننى مختلف عن الآخرين.. وأن هذه هى إرادة الله. فالحمد لله.. الذى هدانى، وما كنت لأهتدى لولا أن هدانى الله...



١ - السيدات والسيدة
قريته مع حفيديهما .

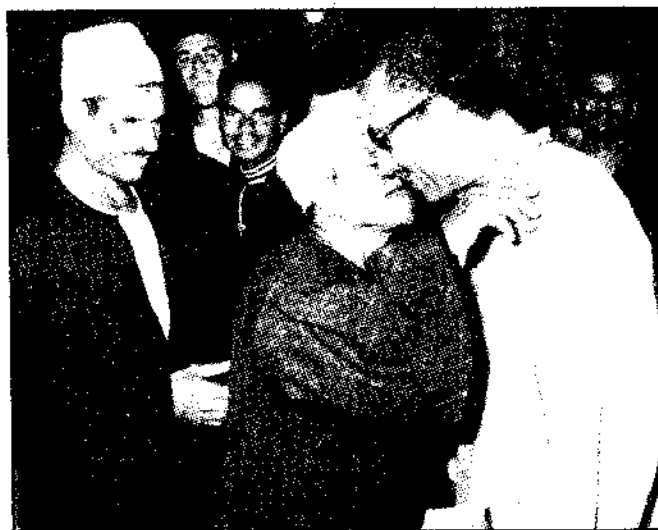


٢ - السيدات في استراحة
ميت أبو الكوم .





٣ - الرئيس السادات
يداعب أحد الأطفال
أثناء زيارته لبلدته ميت
أبو الكوم .



٤ - .. ويماسق أهل
قريته .

٥ - الرئيس السادات
وقد استغرق في كتابة
أوراقه .



٦ - حسن إبراهيم أحمد
الضباط الأحرار .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
- كلمة أولى	٣
- الذئب الرمادى	١٣
- الشيوعية والحياد غير الإيجابى	٢٩
- غليان الجليد	٤٣
- ألاعيب سوفيتية	٥٩
- الأسباب الحقيقية لهزيمة ٦٧	٧٧
- ناصر فوق صفيح ساخن	٩٥
- قرارات حاسمة	١١٥
- الطابور الخامس والصراع على السلطة	١٣٥
- سنة الحسم	١٥٥
- لعبة جديدة	١٧١
- لقاء تاريخى	١٨٥
- مفاجأة مذهلة	٢٠١
- هدوء ما قبل العاصفة	٢١٣
- وبدأت الحرب	٢٢٧
- وقف إطلاق النار	٢٤٥
- كيسنجر وزير فوق العادة	٢٥٩
- الجليد يذوب بين مصر وأمريكا	٢٧٣
- مفاهيم خاطئة	٢٨٧
- موقف غريب	٣٠١
- التصنيف اللعين	٣١٥
- كشف حساب	٣٤٣
- محطات مهمة فى حياة السادات	٣٧٥

الموضوع	الصفحة
- خفايا اليوم الكبير فى ثورة مايو	٤٠٧
- مصر من ملكية إلى جمهورية	٤٤١
- لحظات لا تنسى	٤٦٧
- تأصيل بلا تفصيل	٤٨٧

